

جرمان عباس

أصول حرب الريف

ترجمة

محمد الأمين البزاز عبد العزيز التمساني حلق



جرمان عباس

أُصُولُ حَرْبِ الرَّيْفِ

تَرْجَمَةٌ

مُحَمَّدُ الْأَمِينُ الْبَزَّازُ عَبْدُ الْغَيْزِ الْمَسْمُومِيُّ خَلْقُ

ELITE

مدخل

إن نصف القرن الذي يفصلنا عما سُمِّي بـ «حرب الريف» لشحون في حد ذاته بأحداث أخرى أهم بكثير من هذه الحرب ، بحيث لا نستغرب إن كان غالبية معاصرينا يجهلون حتى وقوع حدث تاريخي بهذا الاسم في عصرهم . على أن ما يثير الانتباه بالعكس هو كيف بقيت ذكرى هذه الحرب الريفية ، المجهولة من طرف الأغلبية ، راسخة رسوخا عميقا في أذهان من عايشوها ساعة نشوبها ، ممن كانوا وقتذاك ما يزالون شبابا أو مراهقين .

إنه أمر مثير للانتباه بلا ريب ، لكنه لا يدعو الى الاستغراب . فمئذ عشرين أو ثلاثين سنة ، أحست البشرية جمعاء بأنها معنية بأحداث كانت مع ذلك محصورة في رقعة ضيقة ، في الهند الصينية ، في الجزائر ، في الشرق الأوسط ، في كوبا . ذلك أن المعاصرين كانوا يرون فيها ، إن بوضوح كبير أو قليل ، إرهابات عصر ينتفض فيه المستعمرون (بالفتح) لخلع نير العبودية ، ومؤشرات تحول يحدث في مصير الشعوب مع أقول الامبراطوريات الكبرى . فإذا كان البعض الى يومنا هذا يساوره القلق ازاء هذه الآفاق المستقبلية ، والبعض الآخر يعلق عليها الآمال ، والكثيرون يمعنون فيها التفكير ، مع أنه كان للأذهان الوقت الكافي للتكيف بالمجرى الجديد للأحداث ، فاننا نتصور أي انفعال وذعر ، أو أي أمل جنوني ، أمكن أن يفرزه منذ خمسين سنة ذلك الحدث الذي دشن تدشيننا صاخبا هذه الحقبة التي ما زلنا نعيشها ، عندما زعزع بضربة واحدة دعائم سيطرتين مزدوجتين .

ذلك أن الامر يتعلق بهذا الحدث بالذات .

بدأ كل شيء ، في الظاهر على الأقل ، خلال صيف 1921 . ففيما كان الفرنسيون في الجنوب يحكمون سيطرتهم على مجموع المغرب تقريبا ، كان الاسبان ما يزالون في شمال البلاد يجدون لغزو نصيبهم من الأرض الممنوحة لهم . بيد أن الأمور كانت تسير منذ سنة وفق ما يرام ، بل وكان الجيشان اللذان يعملان منفصلين عن بعضهما ، أحدهما في الشرق والآخر في الغرب ، قاب قوسين أو أدنى من بلوغ أهدافهما ، عندما سُحق فجأة جيش الجبهة الشرقية عن آخره ، على الرغم من رجاله البالغين 20 000 جندي ، وانسحب مغطيا الأرض بجثث ضحاياه ، تاركا للخصم مذكراته الحربية ومخزوناته الغذائية . قوبل الحدث بموجة من الذهول ، سواء في اسبانيا أو في العالم . ولا غرو فقد كان الخصم يتكون من مجرد عصابات من الفلاحين ، ذوي تسليح يرثى له لا يكادون يطلقون النار حتى يلوذوا بالفرار . لتفسير الهزيمة إذن ، تذرعت الأوساط الاستعمارية بالاندفاع الطائش لقائد الجيش ، الجنرال سلفستري (Silvestre) الذي لقي

مصرعه بدوره خلال المعركة ، أو بتهاون الجيش الاسباني . إلا أن هذه الاوساط سكنت من روعها . فبعد هذه الصحوة القاسية ستعرف اسبانيا ، الدولة الأوربية ، كيف تأخذ ثأرها بشدة ، وتنجز مأموريته .

كان الأمر على نقیض ذلك . حقا ، لقد وجهت اسبانيا مددا هائلا الى ساحة المعارك . كما أنها تمكنت جزئيا على الأقل من اعادة غزو الأراضي التي خسرتها . الا أن الأمر تطلب منها أشهرا طويلة ، لأن تنظيما أو نوعا من الدولة ، أو قل جيشا على الأقل ، أصبح منتصبا منذئذ حياها ، على رأسه زعيم اختير لساعته ، يدعى عبد الكريم ، تبين أنه صلب العود بشكل غير مألوف . كان لا بد من الاقتناع بأن المشكلة لم تعد تكمن في قمع الريفيين بقدر ما أصبحت تكمن في معرفة كيفية مقاومتهم . وفوق ذلك وفيما كانت سلطة عبد الكريم وشهرته تزدادان توطدا سواء في الريف أو في باقي المنطقة الآيلة لاسبانيا ، كانت مدريد هي التي شهدت اضطرابات سياسية انتهت بقيام دكتاتورية عسكرية . والحال أن صاحب السلطة الجديد في اسبانيا ، بريمو دي ريفرا (Primo de Rivera) لم يكن أحسن حالا في المغرب . في 1924 تقهر جيشه أمام ضربات الريفيين حتى الى أبواب تطوان . كان عبد الكريم حينئذ قد ربح الحرب و على أهبة الاستعداد لشن هجومه النهائي المزروع ، في اتجاه مليلية شرقا ، وفي اتجاه تطوان غربا ، لو لا أنه اضطر في هذا الوقت بالذات الى الاستدارة نحو الجنوب ، حيث قامت فجأة جبهة ثالثة في ظروف غامضة .

كانت فرنسا ، وهي الدولة التي تدخلت بدورها في الصراع ، خصما شتان بينه وبين اسبانيا . في المتروبول ، كانت تتوفر يومئذ على أقوى جيش في العالم . أما جيوشها في المستعمرات ، فلم تعرف منذ أمد بعيد سوى الانتصارات على جميع الجبهات . كان جيشها بالمغرب على الخصوص معبأ بالقرب من مكان المعركة منذ زهاء عشرين سنة . ويقبض على زمام الأمور بقوة في البلاد ، متوفرا على الأرض والموارد والرجال ، وكذلك على الأطر المكونة و المتمرسه بالحرب في عين المكان . أخيرا فقد كان قائده المارشال ليوطي يمثل في نظر العالم رمزا حيا لنجاح المشروع الاستعماري . فعند أول التحام بهذا الجيش ، كان يبدو بالطبع أن دولة الريفيين المتواضعة الشأن ستنهار عن آخرها .

لذا فإن الكلمات تعجز عن التعبير عن الذهول العام لرؤية الفرنسيين يهزمون بدورهم ، ويتقهرقون ، ويتعثرون ، بشكل أقوى مما حدث للاسبان قبلهم ، إلى حد أن فاسا وتازة ووزان أصبحت مهددة . من ثم بادرت فرنسا ، بعد انهزام ليوطي ، إلى تعويضه في أوج المعركة ببیتان ، المارشال الأكثر شهرة منه ، والذي يذكرنا اختياريه بمعركة فردان . وجاء انسحابها من اقليم الرور في الوقت المناسب ليتمكنها من حشد جيش عرمرم من 150 000 جندي على طول 300 كلم . كما أنها عقدت تحالفا مستعجلا مع اسبانيا التي كانت تتوفر على عدد مماثل من الجنود . هل كانت كل هذه الضجة

وهذه الاستعدادات الضخمة لمجرد قضية استعمارية بسيطة ؟ في الواقع ، تبين أن الامر يتعلق بحرب حقيقية ، كانت تدور رحاها منذ البداية ، عند مرحلتها الاسبانية. لقد اكتشف العالم حرب الريف .

كان النصر في نهاية المطاف حليف فرنسا و اسبانيا المتحالفتين . وكان من شأن احتلال الريف، الذي استتبع ذلك ، واستسلام عبد الكريم ، أن عملا على تعبيد الطريق أمام الحماية الاسبانية ، وارساء دعائم الاحتلال الفرنسي. لذا ، وإذا ما نحن لم نأخذ بعين الاعتبار سوى ما آلت اليه هذه الحرب وما خلفته من نتائج فورية ، فقد نجح الى التقليل من أهميتها ، بفعل تقادم العهد و انحسار موجة الانفعال. بحيث قد لا نرى فيها سوى عثرة في مسيرة الغزو ، وبالتالي واقعة لا أقل و لا أكثر من وقائع الحقبة الاستعمارية. وهي واقعة متأخرة بالطبع. على أية حال ، قد يقال إن الستار لم يكن قد أسدل بعد عام 1925 على عصر الاستعمار. أما بالنسبة للخطورة التي اكتسبتها ، فقد يقال أيضا إنها لم تكن تمثل بتاتا حالة استثنائية ، لان التوسع الاوربي تخللته عقبات جمة ، بل وانتكاسات اكتسى بعضها منذ الامس طابعا مأساويا.

إن وجهة النظر هاته ليست بالطبع خاطئة تماما . الا أنها تبقى في الظل ما هو أساسي . من المؤكد أن عدم التكافؤ في الامكانيات بين أوروبا و الشعوب التي كانت تخضعها كان كبيرا الى حد أن قلة الخبرة أو هفوات فادحة هي وحدها التي يمكن أن تفسر بعض النكسات ، مثل هزيمة الانجليز في الخرطوم عام 1885 ، أو هزيمة الايطاليين في أبوا عام 1896 . على العكس من ذلك ، فإن مثل هذا التعليل لا يصدق عند اللزوم في مثال الريف الا بالنسبة للمرحلة الأولى من المعارك . الا أنه لا يستساغ لتعليل حصيلة الهزائم التي راكمها معا فيما بعد جيشان أوروبيان.

هناك مثال قد يبدو من الجائز بل من المحبذ اقامة مقارنة بينه وبين الريف ، وهو مثال الحرب التي اضطر الفرنسيون الى خوضها في بدايات غزوهم للجزائر ضد الأمير عبد القادر. فبالنظر الى دوافعهما المشتركة ، وقرب مسرحيهما ، ومدتهما ، وضراوتهما، وتجسد كل منهما في شخص زعيم فذ ، فان لحربي الريف والجزائر مظهرا كبيرا من القرابة بفارق زمني من 24 سنة. مع ذلك كم هي الفروقات وأوجه التباين ان نحن نظرنا اليهما عن كثب.

عندما دخل عبد القادر الحرب ضد فرنسا عام 1839 فإنه كان رئيس دولة قائمة ، تمتد سلطته على ثلثي الجزائر. كان يتوفر في الجنوب ، مع الصحراء ، على امتدادات لا حد لها. وكان يتلقى في الغرب دعم جاره المغربي الكبير . على العكس من ذلك ، كان الفرنسيون تجاهه محصورين في أشرطة ضيقة ، لا ترتبط فيما بينها الا عن طريق البحر. فاذا تتبعنا الحرب بأدق تفاصيلها انطلاقا من هذه الحثثيات ، سنلاحظ بلا ريب ، من الجانب الجزائري ، مفاخر ثمينة بوجولات بطولية عظيمة ، وضربات قاسية موجهة للعدو . لكن على الرغم من أن المقاومة المستميتة و الانتصارات المتعددة عملت على

تأخير مجرى الأمور على نطاق واسع ، فإنها لم تتمكن إطلاقا من إيقافه ، فبالأحرى من قلبه. ان الجهاز الذي عبأه عبد القادر و الذي نالت منه الصدمات الأولى ، تقوض ، وتفكك ، وتلاشى ، مع توالي الشهور والسنين. بعد أن كان النضال متراصا ، متلاحما ، تحول إلى حرب عصابات ، قبل أن ينتهي إلى مطاردة فردية حقيقية. على مستوى التاريخ اذن لم يكن من أوله الى آخره سوى صيرورة حتمية نحو الهزيمة (1) .

أما بالنسبة للريف ، فلم يكن هناك بالعكس في البداية ، وقد رأينا هذا ، سوى حفنة من الفلاحين قد يعتبرون متهورين لاقدامهم على الوقوف أمام الزحف الاسباني. لقد كانوا غير مسلحين تقريبا ، معرضين لنقمة اخوانهم في القبائل الذين كانوا يتخوفون من عمليات قمع العدو ، ناهيك بأنه لم يعد بإمكانهم حتى التذرع بمشروعية قضيتهم ، طالما أن اسبانيا كانت تتدخل ، بمقتضى المعاهدات ، تحت راية عاهلهم السلطان . كان لا بد من معركتهم الأولى وما حققته من نجاح تجاوز كل التكهات لكي يتمكنوا فجأة ، بعد أن تزودوا بالسلاح ، وكثر أتباعهم ، وخاصة بعد أن وصلوا الى نقطة اللاروجة ، من اختيار زعيم لهم ، وتزويد أنفسهم بتنظيم أولي . على أنهم دشنوا منذئذ ، ودائما للاستجابة لمتطلبات كفاحهم ، حركية دؤوبة ومستمرة من التعزيز العسكري و التوحيد السياسي و التوسع الترابي ، تلك الحركية التي ستنمخض في نهاية المطاف عن تأسيس جيش ودولة الريف .

وهكذا ، وفي عصر لم يكن فيه الأوروبيون يتوفرون سوى على سفن شراعية ، وكانوا ما يزالون يجردون سيوفهم في المعارك ، وجدنا دولة عبد القادر ، الموجودة سابقا ، تتحطم تدريجيا تحت ضربات بوجو (Bugeaud) ، في حين أن الريفيين ، الذين كانوا في الأصل معدنا خاما ، ثم انصهروا فيما بعد في بوتقة المعارك ، التحموا ، ان جاز التعبير ، تحت ضربات مطرقة العدو نفسها. ثم كانوا قادرين على تكييد اسبانيا ، وفرنسا بعدها ، هزائم استراتيجية على مدى خمس سنوات ، وهذا في عصر المصفحات والمدافع الثقيلة والطيران . وحتى بالنسبة لهزيمتهم ذاتها ، فقد اعتبرت من طرف قطاعات عريضة جدا من الرأي العالمي بمثابة انتصار معنوي بالنظر الى ما كلفت العدو من تكاليف باهظة . فلئن كانت اذن حربا الجزائر والريف تنتميان حقا الى العصر الاستعماري فان مجرييهما المتعاكسين تماما ، رغم عدم التكافؤ الكبير الذي أصبح يفصل منذئذ بين الامكانات المتواجدة ، ينبهاننا مع ذلك الى أنهما يقعان في فترتين متطرفتين : احدهما في البداية ، والأخرى في النهاية .

لقد كان انهزام عبد القادر ، واقصاؤه مؤشرا على أنه لن يوجد مستقبلا ما من شأنه أن يوقف التوسع الأوربي. وهو ما حدث بالفعل. فلم تقع مصادمة الأحداث في الريف الا بعد أن كان قد غمر العالم. انها مصادمة حدثت حقا في طريق مده . بيد أنها كانت مؤشرا على الموجة المضادة التي ستأخذ في الانتشار لتجتاح الامبراطوريات ذات يوم . أدركت الدوائر الحاكمة في العصر بوضوح جسامة الخطر ، واتخذت بالتالي ، وبدون

مساومات ، جميع تدابير الانقاذ التي يتطلبها الموقف . كما تمكن الحكام في هذا البلد أذاك من تهميش الخلافات و المنافسات التقليدية . يمكننا كذلك أن نسجل على سبيل البيان ذلك الفوز الذي بقي عبد الكريم يوحى به حتى بعد انهزامه . ففيما أمكن لعبد القادر ، بعد فترة احتجاج ، الإقامة والعيش طليقا في قلب العالم الاسلامي ، تعرض زعيم الريف للنفي و الاحتجاز ، على مدى 21 سنة في جزيرة منعزلة من المحيط الهندي . فباستثناء سابقة معروفة ، لم يحدث مطلقا أن تعرض خصم بعد استسلامه لمثل هذه القساوة وهذه التدابير الاحتياطية.

بالطبع كان رد الفعل مختلفا في عالم المستعمرين (بالفتح) الذي فتحت فترة ما بعد الحرب على نطاق واسع على أخبار العالم . لقد عمته موجة من الحماس الجنوني. من الجزائر الى مصر ، من الهند الصينية الى الصين ، من الأرجنتين الى الولايات المتحدة ، في كل جهة أحس فيها شعب بكامله ، أو أقلية قومية أو عرقية ، بأن قضية الريفيين تشبه قضيته ، الا ووجدنا بطولات هؤلاء الحرية تبعث تلك الآمال الخائبة التي ظهرت في عهد الرئيس الأمريكي ولسن ، مع اعطائها دفعة جديدة كل الجدة . لماذا انتظار واستجداء الهبة التي قد تأتي من فوق ، ما دام دافيد يصارع كولياط ، كما ساد الاعتقاد بذلك الى آخر لحظة ؟ لقد صرح يومها الصحافي الشهير شكيب أرسلان : " ان عبد الكريم هو بطل عصرنا ، ليس بين المسلمين فحسب ، بل وكذلك بين جميع الأمم " (2) .

بيد أن الحركة الشيوعية ، في كل جهة قامت فيها أحزاب قوية بما فيه الكفاية ، في أوروبا أولا ، ثم خارجها ، هي التي تتبعت حرب الريف باهتمام بالغ وعناية فائقة . نعرف نظرية لينين الشهيرة التي صيغت منذ بضع سنوات وقتذاك ، والتي ستعمل على توجيه استراتيجية "الثورة البروليتارية" في ظروف العصر الجديدة . فمنذ نهاية القرن الماضي ، كانت الرأسمالية الصناعية العتيقة في بعض بلدان أوروبا العظمى ، وفي الولايات المتحدة ، قد تركت المجال للرأسمالية المالية ، وهي أشد توتبا الى التوسع من سابقتها بسبب تعطشها الحاد للأسواق الخارجية ، ليس فحسب من أجل تصريف بضائعها ، وانما على الخصوص لاستثمار الفوائض الضخمة من الرساميل التي أصبحت عاطلة . من ثم جاء تقسيم العالم برمته الى مستعمرات ومناطق نفوذ ، تعرضت بدورها ، وبشكل أقوى كذلك ، للاستغلال الفظيع الذي كان وقفا في السابق على برولتاريا المتزولات . من المؤكد أن المنظومة بعد وصولها الى المرحلة الامبريالية ، كانت قد تميزت بقدر ما أصبحت تتوفر كليا على الموارد والرجال في العالم بأسره . الا أنها أوجدت ، في الوقت نفسه ، أعداء جددا بمئات الملايين وفي جميع القارات . وهذا يعني أن عمال أوروبا وأمريكا أصبحوا يتوفرون منذئذ في القارات ، وبالجمل ، على حلفاء كثيرين ، ستقذف بهم حتما طبيعة الأمور الى جانبهم في المعركة التي كانوا قد بدأوها هم أنفسهم . وبالفعل ، وانطلاقا من بعض المؤشرات ، بات من المتوقع ، منذ 1919 ، قرب تدخل هذه القوى الجديدة من الهند ، وأفغانستان ، وطرابلس ، ومصر ، وتركيا ،

والصين ، وأنثونيسيا . نتجت عن ذلك حالة من الانتظار المتهلئ ، سيما وأن الثورة الناجحة في روسيا ، أصبحت مطوقة من جميع الجهات ، مما كان يهدد بسقوطها ، وهذا دون أن تتمكن أوربا ، حيث كانت احتياجات ما بعد الحرب قد هدأت ، من تقديم الدعم الكافي وحدها . الا أنه سرعان ما تعين الاعتراف بواقع الحال . فالدعم المنشود لم يأت هو الآخر من الشرق ، حيث كانت الأنظار مركزة قبل كل شيء على الصين و الهند .

تلك كانت الحالة عندما اندلعت حرب الريف في قطاع لم يكن ، نوعا ما ، في حساب أحد . مع ذلك ، وباستثناء الهزيمة الكبرى لاسبانيا ، التي اعتبرت مجرد عثرة مسيرة ، فإنها لم تثر الا اهتماما قليلا . كانت المسألة ما تزال محدودة . علاوة على ذلك ، فإن اسبانيا التي كانت تبدو ظاهريا هي المعنية وحدها ، لم تكن تمثل قوة استعمارية . ألا يمكن ، في نهاية المطاف ، أن يتوهم البعض بأن القبائل الريفية كانت تخدم ، بلا وعي منها ، الأهداف السرية للأوساط الاستعمارية الفرنسية ؟ وبالتالي ، لم يكن بالامكان أن تكون النتائج مرموقة ، وفي جميع الأحوال ، مشجعة .

بدأ الموقف يتغير في نهاية 1923 بعد اقامة الدكتاتورية بمدريد . لقد نهض هذا الانقلاب دليلا على أن القضية الريفية قادرة على أن تنعكس على جزء من القارة الأوربية . كما أصبح امتداد الحرب متوقعا بعد ستة أشهر ، مع الزحف الفرنسي حتى مشارف مناطق المعارك . ثم حدثت في النصف الثاني من عام 1924 الانتصارات المدهشة التي حققها عبد الكريم ، والتي وإن كانت على حساب اسبانيا وحدها ، اعتبرت بوضوح في جميع أنحاء العالم المستعمر ، بمثابة ثأر من السيطرة الأوربية ، بدون أي تمييز بينها . منذئذ لم يعد بالامكان التشكك في أهمية الأزمة ولا في مغزاها الثوري . وبالفعل عندما وقعت في فصل الربيع التالي ، ثم في غضون فصل الصيف ، الانتكاسات الفرنسية الكبرى ، استفحلت المصاعب المالية في فرنسا نفسها ، وأصبح القلق السياسي عميقا ، وانطرحت مشاكل حتى بخصوص المحافظة على الغطاء العسكري . أما بالنسبة للإمبراطورية ، فقد مر وقت أصبح من المنتظر معه حقا وقوع قطيعة ذات نتائج لا تعد ولا تحصى . فبعد أن اعتبرت في البداية تافهة ، ألا يمكن أن تفتح الحرب ثغرة في المواقع الامبريالية ، تلك الثغرة التي طالما وقع انتظارها ؟ انه السؤال الذي أخذ الشيوعيون يطرحونه في كل جهة تقريبا ، ولو بدرجات متنوعة و من زوايا مختلفة .

وبادئ ذي بدء ، شيوعيو اسبانيا . بيد أن هؤلاء لم يتمكنوا على ما يظهر ، من التأثير في الأحداث لضعف موقفهم وقتذاك . على العكس منهم ، فإن جيرانهم الفرنسيين ، الذين كانوا يتوفرون على حزب قوي ، ويوجد وراءهم عدد كبير من الناخبين ، ولهم في البرلمان فريق نشيط و متجانس ، ويشرفون على نقابات هامة و منظمات اجتماعية ، أمكنهم ، هم على الاقل ، ممارسة نشاط ملحوظ . لم يعد هذا

النشاط مقصورا ، كما كان عليه في أيام جوريس على شجب السياسة الفرنسية ، ولو بخطابات بليغة ، لقد كان على جميع الأصعدة تعويقا منسقا للاستعدادات العسكرية ، ثم لمتابعة الحرب وذلك عن طريق افحام الحكومة في مجلس النواب ، وافشاء أسرار محرجة ، ودعوة المجندين الى الاستسلام ، وتفجير الاضطرابات ، وتزعم المظاهرات . ان مثل هذه الحملة التي تستهدف كما قيل وقتذاك ايقاف « يد المعتدي » ، تدخل حقا في الخط الذي سبق ان رسمه متمردو البحر الأسود . الا أنها كانت تجري هذه المرة في قلب البلاد نفسها ، وعلى صعيد أوسع بكثير . وفوق ذلك لم يسبق أن رأينا ، على الخصوص ، مثال متروبول ، ينحاز فيه قسم هام من السكان حتى نهاية المطاف ، الى جانب مستعمرين ، مكافحين بحد السلاح ضد الوطن الاب . لقد كان التأثير الذي حدث في الضمائر جد عميق في فرنسا ، بل وكذلك في جهات أخرى من المعمور، حيث سيتمخض ذات يوم عن نتائج بعيدة المدى .

كذلك فقد أثارت القضية الريفية ، وعن كُتب ، اهتمام الأوساط الحاكمة في روسيا السوفياتية . حقا ، لم يكن لهؤلاء وقتذاك ، على احتمال أن لهم الرغبة ، الوسائل لتزويدها بمساعدة مادية ، كما فعلوا فيما بعد في حالات جد معروفة . الا أنهم لم يخفوا تعاطفهم ولم يتجاهلوا الكسب الكبير الذي كان يمثل في أعينهم الانتصار المحتمل للريفيين . وعلى سبيل المثال ، فقد كتب قائد الجيش الاحمر نفسه ميشل فرونزي : ان ما ينقرر هناك ، تحت قصف المدافع ، هو كل القوة الاستعمارية لأوروبا الغربية . وخاصة مصير امبراطورية فرنسا الافريقية" . لنوضح أن هذه الأسطر مقتبسة من كتاب حرره ميشل فرونزي خلال فترة الأحداث ذاتها (3) . انه عمل أدبي نادر و ذو دلالة كافية في حد ذاته . الا أن قراءة الكتاب تبين لنا ، بالاضافة الى أهميته الاجمالية ، أن الجيش الروسي في أيام الثورة ، وهو جيش فقير وسيء التجهيز ، كان يشعر بالضرورة بأهمية الانتصارات على الطريقة الريفية ، حيث كان مفعول التقنية يتضائل أمام العنصر البشري..

هذا النوع الأخير من الاعتبارات كان يهم بشكل أكثر كذلك الخلايا الشيوعية النادرة في الشرق ، التي كانت تبحث في ذلك الوقت عن طريقها بجهد جهيد . لا نتوفر من هذا الجانب سوى على نزر قليل من المعلومات الدقيقة . بيد اننا نعرف أن الرئيس ماوتسي تونغ كان في السنوات الأخيرة قد كاشف بمكنون صدره وفودا عربية ، مصرحا باختصار : فيما قدمكم لتلقي الدروس من الصين ، طالما وأن لكم في عبد الكريم الأستاذ الذي تتلمذنا نحن الصينيين على يديه ؟ يمكن بالطبع أن نستشف من هذه الكلمات جانبا من المبالغة المبيتة . الا أن التقدير للزعيم الريفي لا غبار عليه . ذلك أن أحداث الريف كانت قد طويت في ثنايا النسيان منذ أن اسدل الستار عليها . وحتى بالنسبة للبلدان التي كان من المفروض أن تحتفظ هي الاخرى بذكراها ، ونعني بها اسبانيا وفرنسا والمغرب ، وجدناها ترفض تخصيص حيز لها في تاريخها . فاذا كان

الرئيس ماوما يزال اذن في الأمس القريب قادرا على استحضار صورة عبد الكريم ، فهذا يفترض أنه تعرف عليها مباشرة من خلال أخبار العصر ، واحتفظ بذكرها ماثلة أمامه بعد ذلك . والا ، فأننا لا نفهم كيف تم في غضون ذلك رتق الفتق في ذهنه ، أو رسم تقاطيع صورة طواها النسيان.

أما بالنسبة للعبر التي استخلصت من الأحداث في الريف ، فكانت متناقضة من هذا البلد الى ذلك . في كثير من البلدان ، بما فيها المغرب ، حيث كانت الملحة الريفية قد بعثت آمالا لا حد لها ، بقي الناس في نهاية المطاف تحت عقدة الهزيمة ، كما أدت خيبة الآمال الى البحث عن سبل سلمية ، ان لم نقل الى الوفاق مع المحتلين . ومن ثم أصبحت حرب الريف ذكرى مزعجة ، فتم طمسها بكل بساطة . ولئن كانت الشبيبة المغربية ، على الخصوص ، قد حاولت استحضارها فيما بعد ، وحتما بمعالم خيالية ، فإن التقدير الذي يقال انها كانت تحظى به في الشرق ، لم يكن منعدم التأثير في ذلك.

وبالفعل ، لم يكن عبد الكريم نبيا في بلاده ، الا انه كون فيما يبدو مدرسة في الطرف الآخر من العالم . في بلدان الشرق ، في الصين أو الهند الصينية ، حيث كان يوجد شيوعيون متجدرون من عين المكان ، وعازمون على أن يلعبوا دورهم في الثورة العالمية ، كانت حرب الريف تمثل تقريبا ما مثله بالنسبة لماركس كومونة باريس فيما قبل بنصف قرن . فعلى الرغم من ان الكومونيين انهزموا ، ولما تمض على ثورتهم بضعة اسابيع ، فانهم اسسوا حيال البرجوازية أول دولة بروليتارية في التاريخ . كذلك فقد تمكن عبد الكريم ، على الرغم من انهزامة في الأخير ، من تأسيس وتسيير لمدة خمس سنوات بلا هوادة أول دولة فلاحية يعرفها التاريخ قامت بمحاربة الامبريالية . لقد أبان للعالم أن لهذه الامبريالية أيضا جلادها ، رغم ما تتوفر عليه من وسائل وتقنيات .

أولا يمكن أن يرى فيها البعض ، مستقبلا ، مجرد بيت من عنكبوت ؟ على العكس من ذلك ، فان ما أثبتته عبد الكريم بثورته ، هو أن السكان قادرين ، وان كانوا بدائيين ، لا جيش لهم ولا دولة قائمة ، على أن يشكلوا قوة لا يرقى اليك شك ، وذلك بمجرد اتحادهم وعزمهم على خلع نير الوصاية الاستعمارية ووصاية سادتهم من بني جلدتهم التقليديين .

أخيرا ، ودون أن يتوخى ذلك ، فقد أعطى البرولتاريا الأوربية ، التي انضمت الى معركته ، الفرصة لترى في الامبريالية عدوا وحيدا للشعوب المستعمرة ، بل وعدوا للبشرية جمعاء . بهذا فقد كانت حرب الريف بمثابة تجربة لنظرية لينين في نظر شيوعي الشرق الجدد . لقد كانت تجسيدا وتطبيقا لأطروحات هيئت بحضورهم وبمساهماتهم في المؤتمرات الدولية .

وإذا كان بالامكان الاقرار بأن الأمور كانت على هذا النحو بالنسبة للرجل الذي سيصبح رئيسا للصين ، وهذا بمقتضى شهادته ، فهل يمكن أن نتردد في الاقرار بها كذلك بصدد مثال أكثر وضوحا ، ألا وهو مثال الرئيس المقبل للفييتنام ؟ لا تتوفر لسوء

الحظ على كتابات يعرف فيها هوشي من برود فعله ازاء أحداث الريف ، اما معاصرة أو بشكل استذكاري ، نعرف على أية حال أنه كان في باريس مناضلا في صفوف الشيوعيين الفرنسيين عندما تأسست الدولة الريفية عام 1923 . في السنة التالية ، عندما تمت مطاردة الاسبان حتى الى البحر ، كان متواجدا بروسيا كرئيس للدولة الفلاحية و عضو في المدرسة التي كان يتكون فيها زعماء ثورة المستعمرات . وعندما عاد الى الشرق عام 1925 لتهيبه بلاده للنضال ضد الامبريالية الفرنسية ، علم أن هاته تكبدت في الريف أول هزيمة لها في التاريخ الاستعماري . أخيرا ، وبعد أكثر من عشرين سنة ، عندما أصبح يضطلع هو الآخر بدوره بنفس الدور الذي اضطلع به سابقا عبد الكريم ، وبعد أن تمكن هذا الأخير من الافلات من حراسه الفرنسيين ، توجه اليه طالبا منه المساعدة . وهو ما استجابه له عبد الكريم عن طريق نداء موجه الى المغاربة المنضوين في جبهة الهند الصينية . من الصعب أن نتصور أن مثل هذا التضامن الطبيعي ، الذي لوحظ عندما لم يعد عبد الكريم سوى اسم كبير منسي ، لم يكن ظهر بشكل أقوى عندما كان يوجه ضربات جد قاسية الى العدو المشترك .

على أنه بدلا من أن نرى في أحداث الريف إعادة متأخرة للمقاومة الجزائرية أيام عبد القادر ، لنقارنها بما حدث فيما بعد في الفيتنام . سنرى حينئذ حقا صورة مسبقة لها نوعا ما : في طبيعة القوى المتصارعة ، وعلاقتها الأولية ، وتطور هذه العلاقة ، والسبل والوسائل ، وحلول امبريالية محل أخرى ، و الانعكاسات الواقعة حتى في داخل البلدين المعتديين . دون شك ، لا يمكن أن نقيس الأحداث في كلا الحالتين بنفس المقياس . ودون شك أيضا أنهما يقعان على مستويين مختلفين : على مستوى تجربة أولية ما تزال تتلمس طريقها ، في مثال الريف ؛ وعلى مستوى حركة أوثق تشق طريقها على ضوء نظرية ، في مثال الفيتنام . لكن ، أو لم يكن من الممكن أن تصطدم المرحلة الثانية بصعوبات أكثر لو لم يكن عبد الكريم والريفيون قد خاضوا غمار الثانية قبلها بربع قرن ؟ انه لمن الواجب أن نطرح السؤال على الأقل . و اذا كان لا مندوحة عن الجواب عليه ، فانه يتوجب علينا ان نعود إلى موضوع حرب الريف . وحتى لو افترضنا ، وهو افتراض بعيد الاحتمال ، عدم وجود اية علاقة بين المرحلتين على الأقل في أذهان الذين عاينوا الأولى وصنعوا الثانية ، فيما بعد ، فكيف يمكن لتاريخ تحرير الشعوب المستعمرة ، الذي يطبع بعمق عصرنا ، أن يتجاهل حرب الريف ، وهو الحدث الذي أعطى نوعا ما إشارة الانطلاقة ؟

والحالة أن هذا التجاهل هو الملاحظ اليوم .

نفهم كيف بذلت اسبانيا ما في وسعها لتتناسى " الكابوس المغربي " فور انقشاعه ، بعدما أقض مضجعها طيلة خمس سنوات . لذا ، وباستثناء دراسات لبعض العسكريين أو الاختصاصيين العسكريين ، فإن موجة الكتابات ، والاحاديث ، والبيانات ، والروايات ، والشهادات والكتابات التهجمية ، التي كانت تغمر شبه الجزيرة ، انحسرت في الحين

تقريبا . وذلك ما حدث أيضا في فرنسا ، حيث توقف فيها بدورها هذا النشاط الأدبي ، الذي لم يترك لا القصة ولا الأغنية . ومع أن الهموم ، القديمة منها والجديدة ، خاصة المالية ، كان لها في مثال فرنسا تأثير دون شك ، فانه يمكننا أن نتساءل الى أي مدى لاح فيه النسيان و الصمت ، بعد هذا القلق الساخن ، كوسيلتين من شأنهما درء عودة ظهوره ؟ ألم يحظر الفرنسيون في ثكنات المغرب ، وخلال سنوات عدة ، ترديد ذلك النغم البريء الذي يتغنى بحنين شاب ريفي الى "بلاد الريفيين" ؟ مهما يكن ، وسواء عن قصد أم لا ، فقد عم الصمت ، وساد النسيان ، على الأقل بين الأجيال الصاعدة . الا أن سببات الرأي العام لا يكفي لتبرير صمت التاريخ . والحالة أن الحرب الريفية تعرضت الى يومنا لطمس حقيقي ، فأنحصر الحديث عنها في بضعة أسطر ، ان لم يقتصر على ذكرها عرضا بمجرد الاسم ، في المؤلفات الحديثة التي كرسست بالذات للفترة المعنية ، ولهذه الظاهرة التي نسميها اليوم ظاهرة تصفية الاستعمار .

علينا أن نضيف ، لتكون منصفين ، أن معاودة الاهتمام بالقضية بدأت تظهر استجابة لحاجة ملحة . دون أن نتحدث عن كتاب سوفياتي ظهر منذ زهاء 15 سنة والذي يندرج في اطار الاهتمام السوفياتي الذي حددنا معالمه أعلاه - وهو على أية حال غير معروف بالمغرب - فقد ظهر بعد ذلك كتابان بالانجليزية ، ترجم أحدهما الى العربية والآخر الى الاسبانية. كما ظهر بالقاهرة كتاب ثالث بالعربية لمؤلف مغربي . ولنضيف في الأخير كتيبين صغيرين بالعربية كذلك . الا أن هذه الكتب ، باستثناء الأول منها ، مستوحاة من روح تجارية أو صحافية. فبعضها لا يقوم الا على اجترار ما هو مكتوب سابقا ، مع محاولة اظهاره بمظهر الجدة ، والبعض الآخر على تقديم مجموعة صور ذات أصل واحد . لذلك لا يمكن التعويل عليها حتى لتقديم مساهمة أولية في مشروع اعادة بناء الأحداث ، الذي يبقى علينا بالتالي القيام به بكامله (4) .

علينا أن نوضح بالفعل أن انتاج أدبيات العصر ، يتسم بكثير من الاخطاء ، والأهواء ، وسوء النية ، ان لم نقل بالكذب الصرف . الى حد أن الحقائق نفسها ، ان وجدت ، تقابل بالشك . حقا هناك كتب لفرنسيين واسبان تتميز عن المجموعة بكفاءة مؤلفيها ممن شاركوا في الأحداث أو كانوا شهود عيان لها ، واستفادوا من التقاط الأخبار مباشرة أو عن طريق الاطلاع على الوثائق ، بيد أنها لا تعالج الا جزءا من الأزمة ، ولا تأخذ بعين الاعتبار الا جانبا واحدا من الامور . ذلك أنها ، وهنا يكمن عيبها الاساسي ، لا تعدوان تكون دفاعا عن الرؤساء المتعاقبين ، العسكريين والمدنيين ، نوي المفاهيم المتضاربة . لكن بشكل أو بآخر ، فان هذه المصادر ، الفرنسية منها والاسبانية ، وحتى الانجليزية ، وضعت اما من طرف الجانب المحارب ضد الدولة الريفية ، أو من طرف محايدين مزعومين يكونون لها الحقد والازدراء . صحيح ان هناك اربعة او خمسة من الصحافيين تمكنوا من ولوج الريف والحصول من عبد الكريم على حديث لدقائق معدودة . الا أنهم لم يتورعوا بعد عودتهم عن اضعاف الطابع القصصي

على مغامرتهم أو على تضخيم حصيلة أخبارهم ، أو إعادة صياغة اقوال باذلين مما عندهم ، تلك الاقوال التي التقت عن طريق الصدفة وفهمت بالتالي فهما خاطئا . أما بالنسبة للكتابات العربية التي لا نعدم بعضها ، فلم تصدر هي الاخرى عن الريف ، وانما عن الشرق الاوسط حيث كانت الأخبار لا تصل الا محرفة وعبر القنوات الأوروبية . وهذا يعني ان لا أثر للواقع الريفي في كلا التخريجين المهلهلين اللذين نجدهما في هذه الكتابات او تلك ، رغم ما يطبعهما من تناقض . فبالنسبة للبعض ، يبدو عبد الكريم عفريتاً أقرن ، مختفياً في كنف برلين ، أنقرة ، موسكو ، او في جهة اخرى . بينما يبدو بالنسبة للبعض الآخر ملاكا نزل من السماء ويده سيف مهند . لاجل هذا ، فان الشرط الاساسي لكل تقدم في هذه القضية التاريخية ، هو أن نقتنع بضرورة رفض جميع المصادر المطبوعة مع بعض الاستثناءات.

من البديهي ان الرفض الذي ننادي به هنا لا يعني رفض الاضطلاع . فهو لا يتعارض بتاتا مع القراءة المنهجية للصحف ولاي كتاب له صلة معينة بالحدث ، وإن لمجرد الوقوف على حالة الرأي العام واستحضار الصورة التي كانت تقدم له عن الاحداث . لكن بالنظر الى مدى حجم المغالطات حول موضوع الريف فيما كتب وقتذاك وما طبع فيما بعد ، فان الشك يصبح من الضرورة بمكان ، ولا بد للنقد من ان يكون اشد ارتيابا . توجد على سبيل المثال "مذكرات عبد الكريم" التي ظهرت بعدة لغات ، وأصبحت منذ نصف قرن المصدر الأساسي دون أن يطعن أحد في أصالتها . كيف لا وقد سجلت عن طريق الاملاء مباشرة من طرف صحافي ذي شهرة ، وفي ظروف و تواريخ واماكن محددة او يمكن ضبطها بالتمام . علاوة على ذلك ، فقد جاءت مدعمة بتقدمة من الصور ، وحتى بشهادة أوتوغرافية مثبتة حسب الأصول . فالتراجع الى الدراسة التي قمنا بها في ملحق الجيولوجيا لهذه المذكرات المزعومة ، سنرى حينئذ انها لا تتعلق في الواقع الا بتخريج يقوم فيه التزييف الصرف بجانب معطيات غير موثوق بها او نابعة من الخيال ، استقيت من جميع المصادر باستثناء مصدر واحد ، فيما نعتقد ، ذاك الذي يدل عليه العنوان. نرى على ضوء هذا المثال ، الذي اخترناه من بين أمثلة أخرى عديدة ، أن المؤرخ ملزم بالتنقيب عن مادته في مصادر أخرى.

بالطبع يمكنه أن يجدها باده ذي بدء في المصادر الموثقة . والحال أن ثمة مجموعة من الوثائق نشرت خلال الحرب أو مباشرة بعدها في اسبانيا ثم في فرنسا ، من طرف رؤساء عسكريين أو رجال سياسيين لتبرير مواقفهم أمام الرأي العام ، أو للمطالبة بالمكافآت ، وعن طريقها تتميز عن مجموع اللائحة ، كما سبق القول ، تلك المؤلفات التي نشرت فيها ، مما جعلها جديرة باهتمام المؤرخ . لكن بالنظر الى ندرتها ، ولكونها اختيرت لغايات مبيتة ، فانها غالبا ما توحى بالشك أكثر مما تنير السبيل .

بعد ذلك بمدة طويلة ، ظهرت طبعة وافية تتضمن رسائل وبرقيات وتقارير صادرة عن المارشال ليوطي لما كان متقلدا مهامه كرئيس ومقيم عام بالمغرب . انه مصدر جديد حقا

ونواهمية بالغة . الا أنه تبين لنا أننا أمام مشروع عائلي يرسي هو الآخر الى الاحتفاظ للتاريخ بصورة مشرقة عن المارشال الراحل . وبالتالي ، فقد فرزت الوثائق بعناية ، ثم بترت بدون تنبيه ، بل وصححت أحيانا . لسنا في حاجة الى التنبيه الى النتائج الوخيمة المترتبة عن مثل هذه العملية التمشيطية . فلئن كان بالإمكان استغلال هذه النصوص على أوسع نطاق ، فانها وحدها وفي الحالة التي صارت عليها ، لا يمكنها حول نقاط جوهرية الا أن تكبح البحث بل وان تضلله.

كان يلزم أن يصبح بالإمكان تدريجيا في المدة الاخيرة ، وبعد انقضاء المهلة اللازمة ، ولوج دور الأرشيفات مباشرة ، بمدريد وفرنسا و الرباط وجنيف ولندن ، لكي تتمكن في الأخير ودون أن ندعي استغلال كل الوثائق ، حتى ما تبقى منها ، من التعرف بنوع من اليقين على الوجه الأوروبي من القضية ، وهذا ليس في مجموعه ، وانما على الأقل فيما يخص الجوانب الرئيسية.

أما بخصوص الجانب الآخر ، المغربي و الريفي ، وهو الجانب الذي تعرض أكثر للتشويه ، ولم يقدر على أية حال حق قدره ، فان المظان الأوروبية لا تخلو من فائدة . سيما وان كثيرا من الوثائق الصادرة عن عبد الكريم ، أو عن أتباعه ، توجد اليوم محفوظة بها . وفيما عدا هذا ، نجد ايضا جميع المعلومات التي كانت مصالح قوات الاحتلال تحصل عليها حول حالة الخصم . بيد أنه على الرغم من أن الاسبان حاولوا في هذه الحالة الاستخبار بانفسهم بجدية أكثر مما كانوا يخبرون به الرأي العام ، وعلى الرغم من أنهم كونوا فيما بعد نظرة أكثر واقعية عن الأمور ، وبالتالي أقرب الى الواقع ، بحكم ما واجهوه من صعوبات منذ البداية ، فان ثمة ما يدعونا الى التزام كثير من الحذر قبل استغلالها ، ان لم نقم بالاعراض عنها رأسا.

بالفعل ، فان المصالح التي تولت مهمة الاستخبارات عن الحياة السياسية و الاجتماعية في الريف ، كانت لها نظريتها المتعلقة بالمجتمع ، وذلك قبل انهماكها في انجاز مهمتها . وهي نظرية موأية تماما ، تم تحضيرها خلال عقود من السنين ، واختبرت مصداقيتها بنجاح باجماع الآراء ، لأنها هي التي كانت تلهم ليوطي في عملية الغزو التي كان يواصلها منذ ما قبل 1912 . فماذا يمكن انتظاره من هذه المصالح سوى أن تقوم باسقاط قوايلها الجاهزة على الريف أيضا ؟ واذا كان الاسبان الراغبون في التلمذ على ليوطي . قد تكبدوا ويتكبدون الهزائم ، فان اللائمة أنحيت عليهم كتلاميذ غير نجباء ، لا على النظرية التي لم يطعن فيها أحد . ولم يتغير الموقف حتى بعد انهزام المعلم بدوره ، ونعني به ليوطي . على العكس ، فقد تعلق المستعمرون بأهذاب النظرية أكثر من ذي قبل ، جازمين بان يد الأجنبي هي التي كانت تذل وحدها بمعطيات المشكل.

نعرف اليوم أن مثل هذا الادعاء انما هو من نبع الخيال . وهذا يعني أن جميع الحالات غير المنتظرة التي انطوت عليها حرب الريف ، انما هي في الحقيقة نتاج

عنصر داخلي لم يؤخذ بعين الاعتبار . وان التاريخ لفي أمس الحاجة الى هذا العنصر ليرى على ضوءه ما جعل من الحدث نوعا من اللغز في نظر من شارك فيه أو عاصره . الا أننا ندرك أن العثور على هذا العنصر في الأرشيفات الأوربية أمر بعيد الاحتمال . وحتى لو وجد ، فإن الباحث يصاب بخيبة أمل . فكم هي كثيرة البيانات ، والعناوين والمنشورات، التي يزعم أنها موقعة من طرف عبد الكريم ، وهي في الواقع موقعة من طرف مزورين ذوي مقاصد معينة .

من الجانب المغربي ، يتعين القول ان الحالة ليست بتلك التي قد تساعد بسهولة على ملء الثغرة . ذلك أنه لم يكن يوجد بالريف أي كتاب أو صحيفة من شأنها أن تحتفظ لنا بشريط الوقائع كما كان الناس يرونها . دون شك ، كانت الحرب والادارة وكذلك الدبلوماسية تقتضي تبادل المراسلات . لكن باعتبار أن الرسائل كانت تحرر بأقلام الزعماء بمساعدة عدد قليل جدا من الكتاب ، فإنها كانت مختصرة ووجيزة جدا و مشفوعة في الغالب بتتمة شفوية يتولى المرسول ابلاغها ، كما لم يكن هناك متسع من الوقت أو حتى فكرة للاحتفاظ بنسخة من الأصل . أما بالنسبة للرسالة الأصلية ، وباستثناء الحالات التي ترسل فيها الى الخارج حيث يتم الاحتفاظ بها ، فغالبا ما كان المرسل اليه يقوم باتلافها مخافة وقوعها بيد اسبانيا المنتصرة . أو أنها ضاعت بوفاته . وعليه فمن النادر أن يتمكن المؤرخ من الحصول على وثيقة محررة في طراوة الأحداث .

أمام تعذر العثور على مثل هذه الوثائق بالقدر الكافي ، هل لنا على الأقل شهادات موثوقة بها ولو كانت بعد الأحداث ؟ حول هذا الجانب أيضا لم تكن الظروف مواتية على الإطلاق . فالزعماء الريفيون ، أولئك الذين كان بإمكانهم اخبارنا على الخصوص ، لم يكونوا متعلمين إلا فيما ندر . هذا مع العلم أنهم تعرضوا كلهم بعد انتهاء الحرب اما للاعتقال او للإقامة تحت الرقابة الصارمة ، أو تم دمجهم في جهاز قوات الاحتلال . وعلى افتراض أنهم تمكنوا من التحرير رغم كل هذه المعوقات ، فلمن سيكتبون في بلد تنبغ فيه الأمية بكلكلها جنبا الى جنب مع الرقابة ؟ لذا فهو نوع من المعجزة اذا ما كانت بعض الثمار قد ائبعت في مثل هذا المناخ العقيم . هناك على أية حال شهادتان متميزتان ، سواء من حيث شخصيتي صاحبيهما ، أو من حيث التاريخ الذي أدلينا فيه ، والذي جاء بعيد الحرب ، مما جعلهما تحتفظان ببصماتهما الطرية . احدهما صدرت عن عبد الكريم في بداية نفيه . ويتعلق الأمر ، وهذا توضيح من الأهمية بمكان ، بمذكرة وجهها أسير كانت انسدت أمامه جميع الافاق . كيف لا يمكن لصاحب هذا الدفاع عن النفس أن يعمل على تلطيف ما كان في نظر الفرنسيين على الأقل يشكل مبررا لعقابه ؟ فمن المؤكد إذن انه لم يستطع الافصاح سوى عن جزء محدود من لواعج صدره . مع ذلك ، فإن لهذا الجزء الصادر عنه أهمية بالغة .

من حسن الحظ ، فإن الشهادة الثانية صدرت عن اعتبارات مختلفة تماما .

فخصيصا لمواطنيه بالفعل ، لكن كما يلقي نوعا ما بالقنينة الى البحر ، قدم لنا أحد وزراء عبد الكريم وهو محمد أزرقان ، رواية مفصلة عن الأحداث التي كان متصلا بها اتصالا وثيقا من أولها الى آخرها . من المؤسف جدا أنه رأى هو الآخر ، بحكم إقامته الإجبارية تحت الرقابة الفرنسية ، ضرورة التخلص بسرعة من القسم الذي كانت فيه فرنسا تشكل طرفا معنيا بالأمر ، وهذا حتى بالنسبة لكتاب على هذه الدرجة من السرية بحيث لا توجد منه اليوم سوى النسخة المخطوطة . رغم هذا التحفظ ، يمكننا القول اننا نطلع بتتبع الرواية على صميم ما كانت عليه معركة الريفين ، تلك المعركة المدهشة التي كللت بالانتصار قبل أن تمنى بالهزيمة في الأخير. نجد حينئذ هذه الاضاءة الداخلية التي كانت تفتقر اليها .

باستثناء هذين المكتوبين ، نعرف ان عبد الكريم بعد ان استرجع حريته ، استأنف في ظروف أقل حرجا تحرير ما يمكن اعتباره وحده مذكراته الحقيقية . من المؤكد أن وثيقة من هذا النوع ، وهي للأسف ما تزال غير متاحة ، ستزودنا باضافات هامة متممة لرواية أزرقان سابقة الذكر . لكن لا مجال للتخوف من أن تعمل على ابطالها ، على الأقل في خطوطها العريضة . وما يجعلنا نقرر ذلك ، هو امتحانها على ضوء مصدر آخر. وهو النوع الأخير الذي يتوفر عليه المؤرخ من الجانب المغربي ، ونعني به الرواية الشفوية .

ندخل هنا ميدانا كان بوسعنا منذ خمس عشرة سنة أن نتمتع فيه بحرية تصرف كبيرة نظرا لوفرة عدد الشهود وقتذاك ممن عاشوا بعد المؤسسة . لكن لا شيء يدل على أنه كان بالامكان تحصيل كبير طائل من ورائهم ، كما يمكن التأكد من ذلك من بعض الأمثلة . فرواية شاهد عن أحداث غابرة تتسم بالتعقد والتنوع ، تظل غامضة على العموم اللهم الا اذا اسعفه المحقق نفسه بمساعدة فعالة . فعلى هذا الأخير ، مهما بدا لنا الأمر مستغربا ، أن يكون ملما الماما دقيقا بالجوانب التي ينتظر من الشاهد توضيحها ، لأنه هو الوحيد الذي يستطيع أن يرشده الى النقاط الهامة ، ويبيّن له الهيكل الكرونولوجي الذي مضى زمانه . وبما أنه لم يكن بإمكانه استخلاص هذه الايضاحات الا بالرجوع إلى الوثائق ، فقد كان عليه الانتظار الى أن تبوح له ملفاتها بأسرارها . و الحال أن ذلك لم يتيسر له الا في المدة الأخيرة ، أي بعدما أصبح الشهود الأصغر سنا شيوخا طاعنين ، ناهيك بالأقدمين الذين فارقوا الحياة . وهكذا فان مجال البحث المحدود في أصله ازداد تقلصا ، وأصبحت كثير من الشهادات القيمة مطوية في مجاهل التاريخ . الا أن تلك التي لم تضع وتأتى الحصول عليها على مستويات مختلفة ، من عسكريين ومنظمين سياسيين وكتاب أو جنود صف ، أقول ان هذه الشهادات على الأقل كانت دقيقة و أمكن بالتالي توظيفها . هذا وقد كنا ، ونحن نستمع الى شهادة هؤلاء الرجال البسطاء الذين كانوا مع ذلك أبطالاً لمأساة عظيمة ، نكتشف الأسباب الحقيقية لمعركتهم ، ونقف على مثل عليا ، ومشاعر انسانية حقيقية ، ولم نلمس فيهم لحظة واحدة ما ينم عن تلك الصورة البشعة التي تقدمها عنهم عموما الوثائق الأجنبية .

وتلك نتيجة لا تقل أهمية عن النتائج التي أسفر عنها هذا البحث الميداني.
إنها نتيجة يبدو لنا معها ضرورة إعادة النظر في جميع المقولات التي صاغتها الاستغرافية التقليدية . ففيما عدا استثناءات نادرة جدا ، لم يكن المؤرخ عند تعرضه حتى وقتذاك للحقل الاستعماري يولي اهتماما متكافئا ومن نفس الطبيعة الى الطرفين اللذين يضعهما الغزو وجها لوجه . في جميع الحالات ، كان الأوروبيون من انجليز وفرنسيين وغيرهم ، هم الذين يشدون بصره قبل كل شيء ، ويتمتعون بعطفه ، وتحظى قضيتهم بمناصرتهم تجاه الشعب المعرض للغزو . وبدلا من أن يرى في هذا الأخير جماعة بشرية تتوق بكل تطلعاتها الى هدف العيش المشروع ، فانه يتحول في نظره ، برفضه السيطرة الأوربية ، الى عقبة كاداء تعترض سبل التقدم ، بل والى داء ينبغي استئصال شأفته . ومن ثم فان الدراسة العارضة التي يصبح موضوعا لها ، تكون موجهة الى الكشف في حاضره وماضيه ، لا عن ظروف تطوره الداخلي ، وإنما عن جوانب الضعف التي يمكن عن طريقها الشروع في غزوه .

لنلاحظ انه كان بالامكان ، في حدود متجاوزة ، تبرير هذه الرؤية الضيقة والمتحيزة في نفس الوقت ، ما دامت الشعوب المستعمرة بعد خضوعها تباعا لم تلعب في نهاية المطاف سوى دور سلبي في التاريخ العام . لكن كيف يمكن للمؤرخ التثبت بها بدون نوع من العماء ابتداء من الوقت الذي بدأت فيه الدول العظمى تجابه قوى لها وزنها وتتعزز باستمرار لينتهي بها الأمر في الأخير الى قلب مجرى الأمور ؟

مهما يكن ، فإنها لروح مغايرة تماما تلك التي ننطلق منها في هذه الدراسة . لا ننكر بالطبع أن حرب الريف هي أيضا قضية اسبانية وفرنسية طالما أن اسبانيا وفرنسا خاضتا غمارها . وهذا يفرض علينا أن نحاول في مختلف مراحلها تسليط الضوء على نوايا ونشاط هاتين الدولتين . كذلك الأمر فيما يخص المشاكل ذات الطابع الدولي التي انطرحت ، خاصة مع انجلترا ، والتي يتوجب علينا بالتالي استجلاؤها . على أننا اذا حصرنا طموحنا في مثل هذه الجوانب ، فأننا سنتغافل عما هو أهم . فبغض النظر عن أن أحداث حرب الريف جرت على الأرض المغربية ، وأن أهل البلاد هم الذين كابدها قبل غيرهم ، هناك خاصية أساسية لا ينبغي أن تعزب عن بالنا ، وهي أن المغاربة ، والمغاربة وحدهم ، هم الذين جعلوا من هذه الحرب مقدمة لتحرير الشعوب المستعمرة بوسمهم اياها بطابع جديد في الحواليات الاستعمارية . وحيث ان المؤرخ حتى ولو كان بدون أفكار مسبقة ، قد يتوهم أن الأمر لا يتعلق هنا سوى بعثرة في مسيرة الغزو ، يحدث طارئاً ، أو مصادفة محضة ، فانه يتوجب علينا كذلك أن نربط الحدث بالماضي الحديث والبعيد لهذا الشعب الفخور ، ذي التقاليد الاستقلالية العريقة ، والذي أشبعه مع ذلك الأوروبيون منذ مائة سنة اذلالا ، وكابد على أيديهم ما لا يعد ولا يحصى من الاهانات . فتنقصي منطق هذه المفارقة ، مفارقة قيام حرب تحريرية في القرن العشرين على أساس تقليد أزلي ثابت ، لهو موضوع جدير بالبحث ومن شأنه أن يساعدنا على

فهم حاضرتنا .

لا يبدو لنا من التناقض أن نوضح منذ الآن أن هذا المنطق ، ونقول منطقا لا ضرورة ، كان في حاجة ليتحقق الى عنصر يمكن اعتباره طارئا ، ونعني به دماغا قادرا على ادراكه وأن يجعل من نفسه أداة تنفيذ له . والحال أنه وجد ضالته بالذات في شخص عبد الكريم .

دون شك لا يوجد في أيامنا مثال آخر لشخص جعل الناس يلهجون باسمه على نطاق واسع وظل في نفس الوقت مغمورا الى هذا الحد . حقا لقد سبق لبعض الاسبان أن احتكوا به في الماضي ، الا أنهم هلكوا كلهم تقريبا منذ المعركة الأولى التي كشفت وجوده للعالم . لكن ما وجه العلاقة بين موظف بسيط ملحق بمصالحهم ، ذلك الذي كان بإمكانهم أن يرسموا لنا صورته ، وهذا الزعيم المظفر ، المثير للاعجاب ، والبعيد كل البعد ، بحيث لم يتسن الاتصال به فيما بعد سوى لقلة قليلة من الأوربيين الذين كان مهمهم هم أيضا التأثير على المشاعر بالغريب من الأخبار ؟ لذا وبعد أن ظهر فجأة كالمنذب في عالم الأحداث الأنية ملهبا مثله خيال الناس ، نراه يحتجب فجأة كذلك دون أن نعرف عنه شيئا ، عن أفكاره وطبعه ، بل وعن تقاسيم وجهه . وحتى بالنسبة لاسمه ، فقد كان وما يزال عرضة للتحريف ، اذ الحقيقة أن الوالد لا الابن هو الذي يسمى عبد الكريم . وهكذا فقد حيكت عنه أغرب الحكايات ، وبقيت الأمور الى اليوم كما كانت عليه بالأمس .

في مثل هذه الظروف ، تبين لنا من اللازم أن نخصص في الصفحات التالية حيزا كبيرا للرجل محمد بن عبد الكريم ، لاستفاقة في بيئة معينة ، ولبداية أمره ، وللتطور البطيء لأفكاره ، وللمبادئ الجلية التي تحكمت في توجهاته ازاء واقع بلاده وعصره الى اليوم الذي اتخذ فيه قراره الحاسم ، وأخيرا لمزاياه وخاصة لموهبته الفذة التي كان من الممكن أن يغبطه عليها رؤساء الدول الأسعد طالعا . ولا غرو ، فهو الذي هيمن منذ اللحظة الأولى على جميع الأحداث الى حد أنه يمكننا أن نتساءل كيف كان من الممكن أن تحدث على الأقل بدونه . وعليه ، فأننا اذا لم نجتهد في التعرف على صورته الحقيقية من خلال الأقنعة المختلفة التي لفت بها ، فإن ما سيعوزنا تقريبا هو روح الأشياء .

جرمان عياش

الهوامش

1) René GALLISSOT : La guerre d'Abd el Kader ou la ruine de la nationalité algérienne

(1830 - 1847) , in Hespéris - Tamuda, 1964, vol. V, fasc. unique : pp. 111 - 149.

(2) « الأمير محمد بن عبد الكريم زعيم الريف في حاضر العالم الإسلامي » ، وهذا الكتاب لصاحبه لوثرروب ستودارد

(Lothrop STODDARD) وترجمته العربية المنشورة بالعربية المنشورة بالقاهرة عام 1343 / 1924 - 25 تتخللها

دراسات شخصية لشكيب أرسلان ، ج 3 ، ص 184 .

3) Michaël W. FRUNSE : Die europäischen Zivilisatoren und Marokko

ص 441 - 533 من الطبعة الألمانية للمؤلفات المختارة لهذا المؤلف المنشورة ببرلين عام 1955 . توفي فرونزي قبل

نهاية حرب الريف . وترجمت دراسته بالروسية في المجلد 2 من مؤلفاته الكاملة المنشورة في منشورات الدولة ، موسكو -

لننغراد 1927 .

(4) هذه الحالة لم يدخل عليها تغيير من جراء نشر كتابين بالعربية بعد كتابة هذه السطور ، ونجد الإشارة إليهما في الملحق

البibliوغرافي : كتاب محمد عمر البرعياشي وكتاب محمد عمر القاضي .

امبراطورية السلاطين استمرارية الدولة وتكوين شعب

لتحديد اطار حرب الريف واستعراض ظروف نشأتها ، قام الرئيس بول بتلفي Paul Painlevé في خطاب له عام 1925 بعرض زاهي الألوان يمتد على ثلاثة عهود .
فبدأ أولا باستحضار الماضي القريب عندما كان المغرب المستقل يتخبط - في نظره - في فوضى لا يحسد عليها :

" منذ قرن لم يكن بإمكان السفن الشراعية محادة الشواطئ المغربية دون أن تجازف بالتعرض للحجز وتعريض ملاحيا وركابها لبياعوا عبيدا في الأسواق المغربية. ومنذ عشرين سنة كان المغرب ما يزال ممزقا الى وحدات فيودالية يعيش فيها الفلاح عرضة للاعتصار والاضطهاد والنهب . لقد كانت هذه البلاد موطننا للفوضى والفساد العام وتبدو في نفس الوقت فريسة سهلة المnal ، بحيث إنها كانت تحمل في طياتها نيران الحروب وتهدد باشعالها بين الدول الأوربية".

على هذه الوتيرة سارت الأمور الى أن حدث التغير فجأة مع الحماية الفرنسية :
لقد تم التوقيع على عقد .

" فترى نفس المناطق اليوم يسودها النظام والصحة والأمن ، وتتمتع فيها المعتقدات والعادات بالاحترام ، وينعم الجميع بثمرة كدهم في ظل السلم "
كان من الممكن- في نظره -أن تسيير الأمور كلها على خير ما يرام لولا أن فرنسا اضطرت كما هو معروف الى تسليم اسبانيا جزءا من مأمورياتها. ومن ثم حدثت الثغرة من حيث وجدت الحرب سبيلها الى الانفجار ، ذلك " الداء الذي كان المغرب يحمله في طياته".

تسأل الرئيس قائلا : ماذا حدث إذن ؟ "

اليكم عبارات جوابه :

" في المنطقة الاسبانية ، حدث أن القبائل الريفية وهي مصدر ترويع للقبائل المجاورة لها وتوجد منذ قرون في حالة تمرد مستمرة ضد السلطان ، أن قامت في أقاصي خوانتها المقفرة بتكبيد الوحدات الاسبانية التي حاولت اخضاعها هزائم ساحقة مستفلة وعورة التضاريس . ثم اجتاحت المنطقة الفرنسية بعد أن تقوت عزيمتها وأثملت نشوة الانتصارات " (1) .

لذلك وفي الوقت الذي كان فيه الرئيس يعبر عن وجهة نظره ، وجه المارشال بيطان وحداته الى الديار الريفية . كان الأمر بسيطا كما نرى بل وفي غاية البساطة ، وينسجم أيما انسجام مع المتطلبات التي تستلزمها عادة ممارسة السلطة . الا انه من الانصاف القول ان المؤرخين أنفسهم لم يدلو بما يزيد أو يختلف عن ذلك ، كما أنهم نسجوا على نفس المنوال فيما بعد .

عندما يتعلق الأمر بمغرب الأمس ، وهو الذي يبدأ المشهد انطلاقا منه ، فان الصورة التي احتفظت لنا عنه هي دائما تلك التي تناقلها أوبان أوجين (Eugène Aubin) في بداية القرن ، واغستان برنارد (Augustin Bernard) الذي انتحله بعد عشرين سنة ، وهنري طيراس القريب العهد بنا الذي يحيل اليها باستمرار (2) . على ما يقال لم تكن توجد سوى مشابهاة بعيدة بين دولة أوربية مركزية وموحدة تأخذ على عاتقها مبدئيا مصالح الأمة جمعاء ، وبين ما كان يظهر في المغرب وكأنه دولة . فبادئ ذي بدء لم يكن المخزن ، بمعنى السلطان والزمرة الحاكمة التي يترأسها ، سوى جهاز طفيلي في جوفه ، فرض نفسه في البداية بحد السيف ، وحافظ بفضل على استمراريته . أما غايته الوحيدة فهي المحافظة على مصالح أعضائه التي يخولها لهم مركزهم الامتيازي . لذلك نراه يستغل ويضطهد السكان الكادحين ويقوم بقمعهم عند الاقتضاء بضراوة ينذر ايجاد مثيل لها . مقابل ذلك لا يقدم أي خدمات : فلا وجود لاشغال عمومية وللامن ، ولا شيء في قطاع التعليم أو الصحة . وتجاه الانفتاح و الاصلاحات التي كانت أوروبا المستنيرة تحاول ادخالها أو تقترحها من أجل تقدم البلاد ، كان يتخذ موقفا " محافظا " رجعيا بل ومتعصبا ، معتبرا اياها مجرد دسائس تحاك ضد سلطته التعسفية أو ضد ما يجنيه من فوائد .

على أن النظام المغربي لم يكن قويا مهما اتسم به من عنف . فاذا كان نفوذه يشمل المدن والسهول فانه لم يتمكن اطلاقا من مد غزواته الى الجبال و المناطق الهامشية التي تؤلف ثلثي البلاد . في هذه المناطق تراه يصطدم بقبائل حريصة على استقلاليتها ، ويصعب التمكن من أعنتها ، وهي قبائل مرعبة بما تتميز به من خصال حربية . فلتن كانت هذه القبائل ترتضي بأن يكون السلطان المتحدر من سلالة الرسول زعيما دينيا ، فانها لم تكن تحتل أن يطالبها بالضرائب أو بالخدمة العسكرية ، ناهيك بأن يتطلع الى ممارسة حكمه عليها . اذ الواقع أنها عبارة عن دويلات صغيرة تخضع كل منها لأعرافها وتقاليدها ، فتتولى بذلك بنفسها مهمة تسيير شؤونها . وجملة القول فقد كان المغرب مكونا في الواقع من شطرين غير متجانسين : أحدها ، ويدعى "بلاد المخزن" ،

هو الذي كان وحده خاضعا ومدمجا . في حين أن الآخر ، "بلاد السبية" ، كان يتطابق كالفبار حول هذه النواة وفق قوانين ذات قوة جاذبية غير ثابتة . في هذا الجانب كان يكمن خطر القطيعة . فنظرا لعدم خضوعها لأي قانون ، كانت القبائل الفتانة في المنطقة غير الخاضعة تعيش أولا في حالة حرب دائمة فيما بينها ، وتهدد أيضا في اتجاه الداخل كل المنطقة الخاضعة ، تلك التي أصبح يعيش فيها تجار أوربيون ، زارعة فيها الرعب وعدم الأمن . أخيرا فإنها كانت في اتجاه الخارج وكذلك ازاء أوروبا الغربية التي أصبحت الآن مجاورة ، تشكل بلصوصها في الجزائر أو قراصنتها في المتوسط خطرا دائما الا أنه لا يمكن درؤه .

أن تكون كل هذه الآفات وهذه الأخطار قد استقرت في النهاية وإلى الأبد وعلى يد الحماية ، فذلك أيضا ما كان وما يزال راسخا في الأذهان . فكأننا برجل أوروبا المريض ، كما كان ينعت المغرب وقتذاك ، يتغير تماما بين عشية وضحاها بعد أن تناول الدواء الأوربي الناجع ويجتاز بقفزة واحدة عشرة قرون من الهمجية ، متفتحا منذئذ في ظل النظام والرخاء على جميع محاسن الحضارة العصرية .

لا ريب أن ثمة قبائل لم تلن عريكتها وظلت ترفض عبور الجسور التي مدت أمامها . الا أنه ليس من السهل أن تتخلى دفعة واحدة عن فوضاها الأزلية . سيما إذا ما ارتكبت أخطاء عند الاحتكاك ، كما حدث في مثال اسبانيا . وهل كانت لحرب الريف نفسها أسباب أخرى غير هذه ؟ كلا ، تبعا لرأي العقول النيرة . وعلى سبيل المثال فإن روبر مونطاني لا يستحضر بصددها حتى مثال عبد القادر وانما مثال ابن تومرت المتقادم العهد ، الذي قام سنة 800 يتحدى من قمم الأطلس سلطة العاهل المنزوية في السهل . وجملة القول فإن ابن عبد الكريم لم يكن سوى آخر تسجيد لداء عضال متعشعش منذ القدم في أعماق البلاد ، وأجلى مظهر في العصر الحديث للتناحر الأزلي بين "بلاد المخزن" و "بلاد السبية" (3) .

هكذا فإن السياسة في شخص بول بنلفي لم تعد أن تكون تبنيا حرقيا لوجهة نظر المؤرخين . ألا أن مثل هذا التوافق التام من شأنه أن يثير بعض الشكوك . لا يجب أن يعزب عن بالنا أن تاريخ المغرب كما سردت علينا وقائعه ، قد كتب بأقلام أوربيين وبالضبط في عصر كانت فيه أوروبا الطامعة أولا في المغرب قد قامت بغزوه بعد ذلك ، وهو عصر كان فيه على العلم ، حسب تعبير أحد الرواد ، أن يكون سلاحا بيد الغزاة ، و "أول سلاح ينبغي توظيفه لأنه هو الذي يعمل على تمشيط الأرضية التي يتعين الزحف فيها" (4) . كانت الحدود فيه ، ولتقلها بكل صراحة ، غير آمنة بين الجغرافية

والجاسوسية ، وبين الدعاية ونمط معين من التاريخ . والحال أن هذا المغرب المنقسم الى شطرين غير متجانسين مع ما يواكب هذا الانشطار من فوضى القبائل وقمع الفلاح ، لهو مقولة من اللازم الانتباه الى أنها قدمت خدمات جمة لسياسة الوقت . فكيف يمكن في البداية القول بكل فظاظة إن على الدول أن تحارب لأسباب غير مشرفة متعلقة بهذه "الفريسة الباردة" التي أحال اليها سهوا بنلفي ؟ لكن ألا تكون حربها أقل بداعة وأكثر مدهانة لو أنها اقترحت شعارات براقة تتعلق بإعادة القبائل المتفطرة الى جادة الصواب ، وفي نفس الوقت تحرير الفلاح المغلوب على أمره ؟ (5) فيما بعد ، وحتى في أعقاب 1912 ، كان من العسير أن يفهم الناس كيف أن حاميا بأيذ فياضة بالنعم يضطر الى أن يحارب أكثر من عشرين سنة لكي يفرض وجوده . كان يكفي حينئذ التذكير بالتعارض التقليدي بين "بلاد المخزن" وبلاد السبية "ليتيم فجأة طمس النضال الوطني الذي كان يخوضه المغاربة ضد الغزاة ، وليتحول هذا النضال الى مجرد صراعات داخلية محضة ، تلك التي جاء الأجني لتهدئتها (6) .

لنوضح أن المقولة كانت توخف لتبرير السياسة ، ولم تكن تلهيها . فعندما تحدثت طموحات فرنسا على المغرب عام 1903 ، كان يتعين القيام باختيار . وهو من أي طرف ينبغي امساك خيط القضية ؟ هل يمكن توظيف السلطان في اللعبة مع أنه كان فيما يقال جد ضعيف ولا شعبية له ؟ أم ينبغي بالعكس اللعب ضده بورقة قبائله المتمردة ؟ خلافا لما كان متوقعا ، صوتت الحكومة على الاختيار الأول ، مما أحدث دهشة كبيرة في مختلف مقاعد البرلمان . ألا يعني هذا الاختيار نهج سياسة معاكسة لمجرى الأمور ؟ بالنسبة لدشانييل ، فانه من غير المعقول : "توطيد سلطة العاهل حيث لا وجود لها و استعمال القوة لاختضاع القبائل الهمجية والمستقلة عن سيادة لم تعترف بها مطلقا" . (7) بالنسبة لبوان كاري ، الذي كان أكثر انفعالا ، فقد ندد بالتهور قائلا :

" انني مقتنع بأن الحكومة تريد السلم ... الا أنني أشك في أن تتوصل اليه عن طريق السياسة التي تنصحنا بها . لن تكون لنا حرب ضد السلطان لكنني أخشى أن يفرضي بنا الأمر الى أن نجد أنفسنا مضطرين الى خوضها لصالح السلطان وضد القسم الأكبر من المغرب" (8) .

هل يجوز الاعتقاد أن الحكومة كانت غير متبصرة أو غير مطلعة على حقيقة الأوضاع ؟ انه اعتقاد ينطوي على قدر كبير من السذاجة . فنحن نعلم أن عرافي الحزب الاستعماري ، لأنهم هم الذين كانوا يخططون وقتئذ سياسته ، كانوا يعرفون حق المعرفة صورة المغرب هاته التي كانت تظهر جانبيا وراء ربود فعل دشانييل وجوريس

لأنهم كانوا هم أنفسهم صانعيها . لكنهم في نفس الوقت كانوا يجتهدون بنجاح ، كما نرى ، لترويجها واعطائها صبغة من الحقيقة ، كانوا يجاهرون فيما بينهم باعتقاد آخر ، وإذا ما كانوا قد عبروا عن وجهة نظرهم بكل امعان بأنه من الأفضل المراهنة على سلطة العامل لاحتلال البلاد بأدنى ما يمكن من الأخطار ، فلان السلطة المذكورة لم تكن ، في نظرهم على الأقل ، لا وهمية ولا منازعا فيها كما تمكنوا من الإيهام بذلك (9) . وسيظهر المستقبل أنهم كانوا على صواب . فالغزو لن يحدث ضد السلطان كما انه لن يحدث بدون . صحيح أنه جرى بمشقة ولم يخل تقدمه من عثرات جدية ، الا أنه لم يتم الا باسمه . بل يمكننا أن نؤكد أنه كان من الممكن في ظروف أخرى أن يواجه صعوبات متناهية ، لو جاز على الأقل الافتراض بأنه كان ممكنا في هذه الحالة .

ذلك أنه كان ثمة الدليل المضاد . بالفعل ، وبعد أن انطلق الغزو تحت كنف السلطان ، عمل الفرنسيون بمجرد ما وضعوا أقدامهم في بلد مشهور بتمرده على أن يخلقوا فيه حالة من الاستقلال التي يقال انه كان يعيش عليها . منذ 1914 شرعت فرنسا في نهج "السياسة البربرية" التي ارتكزت على سلخ جميع قبائل الجبل والمناطق النائية عن سلطة العامل القضائية (10) . فنهضت هذه السياسة دليلا جديدا وضمينا على مدى النفوذ الذي يتمتع به في مجموع البلاد . فتحسبا لكل الطوارئ ، ومن أجل مناوئته وخلق موازنة لسلطته ، حاولت بذلك " تكسير المرأة " (11) ، ونعني بها وحدة البلاد . وحتى في هذه المرة ، وبينما لم يلق هذا الأسلوب غير المنق رواجا الا في اطار دراسات مغمورة لبعض اللجان ، قام مؤرخون مرموقون بإعطاء دفعة قوية لمقولة "السيبة" الأزلية . هكذا وجدنا روبر مونطاني يتأسف لكون فرنسا انخدعت كثيرا بوهمية وحدة لا وجود لها في المغرب على الاطلاق ، مما جعلها تخطئ بدعمها طموحات المخزن في تأسيس دولة لا حدود داخلية لها (12) . ومن ثم أعرب عن أمله ، لكي تعود الى جادة الصواب في أن :

"تتمكن القبائل الجبلية بفضل مساندتها من التحرر الى حد ما من الروابط التي نسجها التقليد الشريف بيننا " (13) .

فنرى أن الأمر لم يعد يتعلق ب "تكسير المرأة" وانما بالأحرى بالعودة الى الثنائية المقدرة بحكم الطبيعة والتاريخ ، "بلاد المخزن" و "بلاد السيبة" ، تلك الثنائية التي رأى فيها المؤرخون في الأمس القريب والبعيد ، ولنذكر ذلك ، مصدرا لجميع الآفات ، والتي أخذت تجري الآن مجرى الحقيقة كأنها أعجوبة من أعاجيب العلم .

ان النتيجة معروفة معرفة جيدة . فيكفالة السلطان ، احتلت الدولة الحامية المملكة بدون اشكال . الا أنها بمحاولة تقسيمها أثارت بالعكس ، خلافا لما كان متوقعا ، انتفاضة

وطنية التفت حول العامل الذي أصبح من جديد رمزا للوحدة ، تلك الانتفاضة التي سترغمها على التراجع في البداية ، قبل أن تجبرها ذات يوم على الرحيل . ان هذه الثنائية التي كان يقال إن البلاد كانت تصبو إليها ، والتي كان من المنتظر أن تقر بها عينا ، أحست بها - واحترزت منها - كخطر يهدد بتقويض كيائها تقويضا تاما (14) .

* * *

لو أن المشكل كان منطقيا محضا ، لما كان لمقولة المغريبين المتنافرين أن تصمد أمام تكذيب الأحداث لها بشكل متجدد . لكن الخلفيات السياسية تداخلت ، وبمقدار ما كانت الحقيقة تتجلى ، بمقدار ما كانت الحاجة تشد بالعكس الى هذه المقولة نفسها لتشويه معالمها . هذا ما يفسر ، وبالنظر الى الضمانات القوية التي تتمتع بها ، كيف أنه لا توجد الى يومنا ، فيما عدا استثناء يشار اليه بالأصبع ، كتب أو بكل بساطة كتابات حول المغرب تجرؤ على عدم اعتبارها حقيقة مسلما بها . وحيث إن مسعانا في الدراسة التالية يضرب صفحا عن خدماتها ، فاننا نرى من الواجب ، كما فعلنا ، التنبيه الى أننا سنسلك طرقا أخرى .

على القارئ أن يفهمنا . فحتى لو كانت فترة تاريخية معينة مشرقة في الواقع ، فاننا قد نعتبرها بائسة اذا ما نحن لم نرصد سوى سلبياتها . والحالة أن الجوانب السلبية وحدها هي التي حظيت باهتمام المؤرخين في دراستهم لتاريخ المغرب ، هذا البلد الذي كانت له نظم تختلف كثيرا عما عرفته أوروبا ، والذي كان متأخرا أيما تأخر في تطوره ، بل ويعاني من انحطاط كبير. بناء على ذلك ، فاننا لن نحاول احلال صورة مثالية محل تلك اللوحة التي رسمت عن قصد بألوان قاتمة ، إنما سنعيد بكل بساطة الأمور الى وضعها الطبيعي من خلال عرض موجز وبقدر ما يكفي لتسليط الأضواء على موضوع دراستنا . فان يكون المجتمع المغربي قد كابد العنف والتناقضات الداخلية ، فذلك معطى لن نحاول اخفائه ولا التقليل من شأنه . لكن لماذا نتناسى في مثال المغرب لا غير أن أية دولة لم تقم وأم تستمر في الحكم دون استئصال المقاومة التي اعترضتها داخل كيائها ؟ لماذا نعتبر بريطانيا العظمى مملكة متحدة رغم المشاكل الارلندية والاقوسية والغالية ؟ لماذا لا يسترعي انتباهنا في تاريخ ايطاليا وألمانيا سوى وحدتيهما الحديثتين رغم قرون من الانشقاق ، ولماذا نتغاضى هنا وهناك عن الصراعات الطبقية والحروب الأهلية والدينية ، لكي لا نرى التمردالا في هذا المغرب الذي تأسست به مع ذلك ومنذ فجر القرن التاسع ، دولة استمرت في الحكم وبقيت هي الى يومنا هذا وان تغيرت قيادتها ؟ هل يمكن أن نفهم هذه الاستمرارية لولا وجود عنصر التحام وتماسك

كأشد ما يكون قوة من جميع عناصر الانفصام والانشقاق ؟ انه سؤال في منتهى البساطة ويكفي طرحه ليظهر كل شيء بآلوان جديدة .

يجدر بنا بادئ ذي بدء أن نتخلص من فكرة كثيرا ما يشار إليها مع ما فيها من تعارض مع الواقع المغربي ، وهي فكرة الفيودالية . حقا لقد استعملت الكلمة لأغراض تحقيرية . الا أن هذه الفكرة لا تؤدي المعنى لأمرين : لأنها متطرفة في الغلو وغير كافية في أن واحد . من جهة ، لأنها لا تأخذ بعين الاعتبار ما كان من ازدهار الحضارة في مدن المغرب قبل ازدهارها في أوروبا بمدة بعيدة . من جهة أخرى ، لأنها تتألف الى أقصى حد في تضخيم المستوى العام للبلاد . فلو كان المغرب قد شهد قيام مدن كبيرة ومزدهرة بشكل لا عهد به لأوروبا الفيودالية ، فان بواديها ظلت بالمقابل والى بداية القرن التاسع عشر في حالة ركود قريب من مستوى جرمانيا القديمة . ها هو ذا التناقض الحقيقي والكبير للمجتمع المغربي . وهنا يكمن السبب الرئيسي لونيته في الصراع الذي فرضته عليه أوروبا . لكن ذلك ما شكل بالعكس سر مقاومته التي عرف كيف يخوضها والتي طالما كللت بالنصر .

على الرغم من أن وسائل أخرى أكثر تقدما استعملت هنا وهناك ، فان وسائل الانتاج الرئيسية في المغرب الحديث ظلت كما كانت عليه منذ عشرين قرنا : المحراث الخشبي ، والعتلة ، والرحى والمعصرة ، والمغزل والخزافة الخشنة . والتشكيلة الاجتماعية السائدة والمنترتبة عن هذه الوسائل هي القبيلة . وهي جماعة بدائية يجمع بين أعضائها الاعتقاد بأنهم كلهم من سلالة جد واحد ، مما جعلها تتميز عن القبائل المجاورة . والقبيلة لا تستهلك الا ما تنتجه أراضيها ومواشيتها وغاباتها ، وهي قادرة على تسيير شؤونها الداخلية بحيث يمكن أن تكون لجميع القبائل مصالح ذات طبيعة متشابهة دون أن يكون لها ، على الأقل في العهود الأولى ، روابط مشتركة . وهذا ما جعلها غير مهيأة من تلقاء نفسها للتقارب وتتجمع قصد تأسيس دولة . وكان الفتح الإسلامي هو الذي أعطى من الخارج انطلاقة التطور عن طريق ربط جميع أجزاء البلاد داخل شبكة بيقارية من المسالك التجارية . فمن أجل التجارة و من أجل الأمن ومتطلباته ، كان لا مناص من تأسيس إدارة تتجاوز اطار القبيلة ويكون مصدرها خارجها . كانت هذه الادارة على أول عهدها هي ادارة الخلفاء كما هو الشأن في باقي أنحاء الامبراطورية الاسلامية . الا أن المغرب بحكم بعده عن المركز وموقعه الجغرافي الممتاز في مفترق الطرق التجارية البحرية بين افريقيا وأوروبا الغربية ، ما لبث أن أظهر شخصيته فانهتق

وتحرر بعدما كان مجرد ولاية ، وقامت فيه منذ فجر القرن التاسع دولة مغربية . وان وفرة المعامل التي ضربت فيها النقود الفضية في مختلف جهات البلاد وكثرة المناجم التي زودتها بالمعدن اللزوم ليشهدان على أن هذه الدولة الجديدة لم تكن مجرد مرحلة من المراحل لا تزيد البضائع عن المرور منها ، بل كانت مركزا نشيطا للمبادلات التجارية (15) .

على أن مؤسسها المولى ادريس لم يكن سوى غريب حديث العهد بالمغرب . فهو وان كان منشقا عن الامبراطورية العربية الا أنه بقي مع ذلك ثمرة من ثمارها . والحال أن بعض القبائل القاطنة بالمغرب على ممرات اهتمت بالتجارة ، فتموكت وتقرت الى حد أنها أصبحت تتطلع الى السيطرة على مقاليد الحكم . سنرى بالفعل أن ثلاث قبائل منها تتداول بالتناوب جهاز الدولة على امتداد خمسة قرون تقريبا .

لا شك أن المستفيد من الأرباح والامتيازات في مثل هذه الدولة التي ولدت من التجارة واستندت اليها ، هي القبيلة الحاكمة قبل غيرها ، ثم من ساعدوها في الحكم من عسكريين وموظفين وعلماء ، ومن شاركوها في الأعمال التجارية من تجار وصناع أو بعبارة أخرى سكان المدن التي نشأت هي الأخرى من التجارة . أما بخصوص القبائل البعيدة عن هذه المدن ، الواقعة بمعزل عن التيارات التجارية ، فما عسى يكون موقفها من هذا النظام الذي لا تفهمه والذي لم ينشأ مبدئيا لفائدتها ؟ كثيرا ما اتسم موقفها هذا بالنفور لأنها كانت تشعر بخضوعها دون أن تتضح أمامها الفوائد التي يمكن أن تجنيها في المقابل . وكان رفضها أو تحفظها هو مصدر ما عرفه تاريخ المغرب من نزاعات متعددة لم تخل في بعض الأحيان من عنف . الا أن ما ينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار من وجهة نظر التاريخ العام هو أن تلك النزاعات انتت دائما برضوخ القبائل للسلطة المركزية . وكما حدث في فرنسا أيام لويس الرابع عشر الذي شق ألوفا من الفلاحين الى أغصان الأشجار ، فقد كان ضرب كثير من الرقاب على يد مولاي اسماعيل وسيلة للمحافظة على وحدة البلاد أو ترسيخها .

لكن ايانا أن نقتصر على هذا التعليل الوحيد لتكوين السلطة المركزية ، كما هي عادة المؤرخين الذين يعترفون بوجود دولة مغربية . من المؤكد أن الاخباريين سجلوا بالخصوص ، جريا على عادتهم . " الحركات التأديبية " . لكن هل من المعقول أن يفتتر بهم المؤرخون ؟ لنقم باحصاء هذه " الحركات " من جهة ، واحصاء القبائل المتعددة من جهة أخرى ، سنرى حينئذ أن الأغلبية الساحقة من هذه القبائل لم ترو ولمرة واحدة على امتداد أجيال جنديا واحدا من جنود السلطان . لا ينبغي أن يعزب عن بالنا ، من جهة

أخرى أن العنف لا يسفر عن نتائج ثابتة الا اذا جاء تتويجا لعوامل أخرى لا ينتبه اليها الاخباريون لأنها لا تكون بادية للعيان . والحال أن العوامل التي تضمن تماسك وحدة البلاد لم تكن منعقدة بالمغرب . قد تختلف هذه العوامل عن تلك التي أثرت في تشكيل المجتمع الأوربي ، الا أنها مع ذلك جديرة بأن تؤخذ بعين الاعتبار .

لنذكر بادية ذي بدء العامل الديني وامتزاجه بالظروف الاجتماعية الخاصة بالمغرب . لقد ظهرت في المغرب بين القرن التاسع والثاني عشر ثلاث دول تبوأ الحكم كلها تحت غطاء أيديولوجي وهو نشر الاسلام أو تقويم ما أدخل عليه من تحريف . كان أتباعها في أول الأمر قلة قليلة . الا أن إيمانهم جعل منهم بنيانا مرصوصا ، بحيث انهم كونوا فيلقا له بريقه القاهر ، يفتتن به للوهلة الأولى الأهالي المجبولون على الخوارق . وكما يشهد على ذلك فوزهم السريع ، فانهم كانوا يستميلون قلوب الناس بقوة إيمانهم دونما حاجة الى خوض كثير من المعارك . وبمجرد اسلام قبيلة أو انقيادها ، تراها تتبوأ مكانتها داخل الجماعة الجديدة ، بحيث ان الأفاق تنفتح أمامها لتصبح طرفا مشاركا في الانتصار بدلا من أن تنحط الى منزلة المظلومين على أمرهم . من الحق أنها لا تزيد عن كونها شريكا تابعا للقبيلة الحاكمة ، إلا أنها تبقى مالكة لأراضيها كما كانت تملكها قبل الفتح ، ويبقى أعضاؤها شرعا وفعلا رجالا أحرارا . هذا هو الفرق الأساسي بين المغرب وأوربا الفيودالية . وفيما عدا بعض الاستثناءات الإقليمية أو الوقتية ، لم تكن توجد في المغرب لا ضيع السادة الفيوداليين و لا أملاك الكنيسة ولا أملاك التاج . وبالتالي لا وجود للعبيد وللأقنان المشدودين الى أرض الضيعة . أما تدخل الدولة فيقتصر على مطالبة القبيلة بالأعشار الشرعية التي مهما قيل عن فداحتها فانها تظل يسيرة جدا بالمقارنة بالضرائب المفروضة على الفلاح الأوربي ، زيادة على ذلك ، كانت هذه الضريبة الشرعية تجد ما يبررها في وجود مشروع جماعي تشترك فيه جميع القبائل .

كان هذا المشروع على امتداد أزيد من ثلاثة قرون عبارة عن حرب طالما خاضها المغاربة منتصرين في أراضي اسبانيا ، وبالتالي خارج البلاد . كانت الحملات مريحة جدا إلا أنها لم تكن مقصورة كما هو الشأن في أوربا على طائفة محدودة من النبلاء الفرسان . اذ كان الغزاة يستنفرون من كل قبيلة ، ويحملون عند عودتهم الى قبيلتهم نصيبهم من الغنائم الذي نالوه وفق القواعد الشرعية المتعلقة بالفيء . زد على ذلك أن هؤلاء الغزاة كانوا قلبا وروحا يتفانون في الجهاد في سبيل الله لحماية دار الاسلام التي يتهددها الزحف المسيحي ، بحيث ندرك كيف أن المكاسب الدنيوية كانت تمتزج بالمثل العليا للدفع بشتات القبائل المستقلة الى الانضواء داخل القبيلة الحاكمة دونما

حاجة الى استعمال العنف . بذلك تحققت وحدة البلاد ووجدت هذه الوحدة السياسية تعبيرها منذئذ في الوحدة العقائدية ، مما أدى بلا رجعة الى استئصال البدع التي كانت ما تزال منتشرة . ابتداء من هذا العهد أصبح السلطان يحمل لقب "أمير المسلمين" ثم "أمير المؤمنين" . فهل من المعقول ازاء هذه السلطة الروحية والوحدة العقائدية اللتين ينم عنهما هذا اللقب واللتين يسلم بهما الجميع الى يومنا ، أن يمتنع المؤرخون عن الاعتراف بالواقع السياسي الذي يتراءى من ورائهما ؟

لقد استغل هذا النفوذ الروحي والسياسي فيما بعد لتدعيم الوحدة السياسية والدينية دون أن يستثني هذا اللجوء أحيانا الى القوة ، لكن دون أن يكون اللجوء إليها أيضا أمرا ضروريا خصوصا اذا تذكرنا الوظيفة التحكيمية التي يقوم بها السلطان .

ذلك أن القبائل كانت تتوفر من أجل ضبط السلام فيما بينها ، كما هو الشأن في بلاد الغال عند حلول القيصر بها ، على منظومة من الأحلاف الجماعية تضمن توازن جميع القوى. وهي منظومة فعالة الى حد ما إذ أنها ما تزال الى يومنا موجودة في المناطق التي استمرت فيها القبيلة كهيئة اجتماعية واطار سياسي . الا أنها كانت تقف عاجزة في بعض النزاعات الحادة كما هو الشأن عادة في حالة هذه الأحلاف الجماعية . في مثل هذه المناسبات ، وعندما تتدلع حرب بين قبيلتين أو يلوح شبوحها ، كانت الحاجة تمس والفرصة تتاح لتدخل قوة عليا قادرة على فرض حكمها على الخصمين . ولما التأم شمل القبائل داخل الجماعة ، أصبح السلطان هو الذي يقوم بهذه المهمة اما بناء على طلب القبائل أو بناء على مبادرته الخاصة (16) . كانت ممارسة هذه المهمة التي لا غنى عنها بالنسبة للقبائل تؤدي الى نتيجة مزدوجة . فهي تظهر للقبائل المعنية فائدة وجود الدولة لضبط السلام فيما بينها ، كما أنها تتيح للسلطان الفرصة ليغتنم ظروف التحكيم فيترك في عين المكان من ينوب عنه باستمرار ، مما يعمل على توطيد نفوذه هنالك .

وبذلك تصبح القبائل وقد سبق لها أن انضمت الى السلطان للحصول على الغنائم والدفاع عن الدين ، أداة أكثر انقيادا بيده لأجل الغزوات في الخارج بفضل ما تحقق من توطيد للسلطة وضبط للسلام في الداخل .

ذلك أن دولة نشأت على أساس التجارة لا بد لها من أن تمتد أكثر فأكثر على طول المحاور التجارية التي تراقب هي بعض محطاتها . وبالفعل فقد أصبح المغرب منذ القرن الحادي عشر مركزا لامبراطورية شاسعة تمتد أطرافها في الجنوب والشمال والشرق ، نحو السودان وأوروبا والمشرق الاسلامي . كان ذلك العصر الذهبي من تاريخه . خلال

أكثر من ثلاثة قرون كانت المراكب والقوافل تأتي المغرب من كل تلك الأفاق محملة بالذهب والملح والعنبر والفرو والرقيق والتوابل والجوهر والكتان والأدوات الحديدية . ثم تنطلق منه الى جهات مختلفة بنفس هذه البضائع لتوزيعها من جديد بعدما أضيف إليها ما أنتجته أراضي البلاد أو مناجمها أو معاملها من نحاس وفضة وحبوب وزيت وجلود ومرجان سواء في حالة مواد خام أو في حالة بضائع مصنوعة . وعلى حين أن المدن في أوروبا ، العتيقة منها والجديدة ، كانت تبدو متواضعة ، فيما عدا مدن إيطاليا ، وتستحق أن تسمى بقرى أكثر منها بمدن ، ظهرت في المغرب عواصم لامعة يمكننا الى اليوم أن نقف على ضخامتها وروعها كما هو الشأن بالنسبة لفاس . لقد وفق المغرب بفضل استعماله الكثيف لوسائل الانتاج ، برغم مستواها المتدني الى انجاز أشغال عظيمة وتشيد بنايات جميلة وضخمة كالأسوار وقنوات توزيع الماء والقصور والمنارات العظيمة . بالإضافة الى البضائع ، كانت التقنيات والأفكار تصل بدورها الى المغرب من مختلف الأفاق وتثمر في الحين . وكانت جمهرة من الصناع تنتج منتجات مشهورة سواء للاستهلاك المحلي أو للتصدير . ومنذ هذا العصر أدرك فن الزخرفة مستوى نموذجيا من الجودة والالتقان . كذلك الأمر في ميدان الفكر الذي كان حيا وخالقا . يكفي أن نذكر هنا أن حاشية مراكش احتضنت في القرن الحادي عشر ابن رشد ، وفيها تفتق فكره . انه وريث ارسطوطاليس ، لكنه على الخصوص مجدد مقدم ألهمت أفكاره العصر الوسيط الأوربي الى عهد النهضة (17) .

ما أعجب التناقض بين هذه الحياة الحضرية النشيطة المتقدمة بالنسبة لعصرها وتلك الحالة من التأخر التي ظلت البوادي غارقة فيها ! وسرّ هذا التناقض أن المدينة لم تكن في المغرب نتيجة تطور داخلي وانما نتيجة للتجارة بعيدة المدى التي فاجأتها من الخارج لذلك فان المدينة والبادية لم تمثلتا درجتين من درجات حضارة مشتركة بل مثلت كل منهما نموذجا لحضارتين متباينتين ، كما هو الشأن اليوم بالنسبة لخيمة البدوى التي تقوم بجانب جهاز استخراج النفط ، فلا علاقة بين هاتين الحضارتين مع ما يجاورهما نفهم كيف كان ذلك في نهاية الأمر سبب عجز المغرب ازاء التدفق الأوربي فيما بعد . ان الدولة المغربية لم تجد في ريفها ما وجدته أوروبا المتطورة في باديتها .

* * *

والحقيقة أن المغاربة قد تقدموا شيئا ما وإن انطلقوا متأخرين في هذا السباق الذي ستقضي فيه بالانتصار ذات يوم البنية الريفية التحتية . لقد كان العالم القروي يبدو جامدا في الظاهر طوال قرون . أما في الواقع فانه كان يتغير وإن ببطء وبالتالي

بشكل غير ملموس . ذلك أن التجارة بعيدة المدى التي تخترق تياراتها كل البلاد كان لا بد وأن تجذب المنتجات والأيدي الى مجرى تيارها . وإن استيلاء قبيلة في القرن الحادي عشر على جهاز الدولة ليدل على أن القلوب في البوادي كانت تتوق منذ ذلك الحين الى الأرباح التجارية . من جهة أخرى يخبرنا البكرى المعاصر لهذه الفترة بأن التجارة توغلت بعيدا حتى في الجبال منعشة هناك نشاطا صناعيا متواضعا (18) . ثم اذا ما استثنينا تلك الأقلية الأولى من العرب و الأندلسيين ، ألا نجد التجار والصناع الذين يشكلون غالبية السكان الحضريين متحدرين من أصول قبلية ؟ على أن المدن هي التي أصبحت المراكز الرئيسية لهذا الاجتذاب . لتوفير قوت تلك المدن و تزويدها بالفحم و تزويد صناعاتها بالجلد والصوف والخشب و النحاس ولوازم البناء ، كان على أهالي الريف القريب والبعيد أن يستخلصوا الفوائض من حقولهم أو يتحولوا الى حطابين في المناجم . فتأتيهم من المدينة في المقابل ادوات ومنتجات مختلفة .

إذا تحدثنا إذن فيما سبق عن وجود نمطين متجاورين من الحضارة ، فينبغي أن نضيف هذا التحفظ وهو أنهما لا يبقيان بمعزل عن بعضيهما . ذلك أن روابط بشرية وأخرى مادية نمت بينهما مع مرور الزمن فمحت الى حد ما بينهما من حدود . صحيح أن ثمة عوامل أخرى كانت تتداخل في الوقت نفسه لهدم الجسور بينهما . فعادة ما كانت التجارة لا تجري على قدم المساواة بين المدينة التي تستفيد من تنظيمها و مهارتها في الأعمال ، وبين القبائل المشتتة وعديمة الخبرة في الميدان التجاري ، والواعية مع ذلك بأن تقاسم الأرباح انما يتم على حسابها . هذا ما يفسر ذلك الغضب المتأجج في صدور أهل البادية والذي كانت المدينة ترد عليه ببناء الأسوار حول نفسها . في شتى المناسبات ثارت فعلا ثائرة القبائل وأرهقت أرباض المدن بغاراتها أو ضربت عليها حصارا محكما . لكن السلطان كان يتدارك الموقف حينذاك فيرسل حاكما للفصل بينهما أو جيشا للحيلولة دونهما . على كل حال كان لا مناص للطرفين من التوصل الى الصلح بهذه الوسيلة أو تلك ، لأن حاجة القرويين و الحضريين الى بعضهما البعض أصبحت أكثر إلحاحا من تعارضهما .

تلخيصا لما سبق يمكن القول إن السلاطين استطاعوا في مرحلة أولى جمع القبائل حولهم تحت راية الاسلام ، تلك القبائل التي لم يكن يوجد في السابق ما يدفعها الى الاتحاد . ثم اجتهدوا بفضل جهاز الدولة لضمان استمرارية الوحدة التي لم تتحقق بعد سوى على الصعيد السياسي . الا أن مجهوداتهم كانت تحت رحمة عوامل أخرى تتداخل بالوجه المعكوس . بحيث كان من الممكن مع توقف الغزو أو قلة مربودية أرباحه

أن تمتنع القبائل عن تقديم مساهمتها . لكن القبائل وجدت أمامها وضعا جديدا . فالتجارة التي شهدت بالذات ازدهارا كبيرا في اطار هذه الامبراطورية الموحدة ، أدت الى حدوث روابط متينة في نسيج العلاقات الاقتصادية الداخلية والعلاقات الاجتماعية هي الأخرى ، بحيث ان القبائل انصهرت في بوتقة هذا النسيج ، وظهرت بذلك بوادر وحدة أخرى أكثر رسوخا من سابقتها .

من المؤكد أن عملية الاندماج الاقتصادي لم تجر الا بوتائر بطيئة بل لم تؤد بالمرّة الى أحداث وحدة شاسعة ، وانما الى وحدات جهوية حول مدن متنافسة فيما بينها بل وتجنح أحيانا الى الاستقلال والنضال . الا أن نتائج الاندماج كانت قد تراكمت منذ الفتح الاسلامي كما أنها لم تتوقف حتى بعد استيلاء البرتغاليين على سبته بعد الفتح بسبعة قرون . يشهد على ذلك وفي عهود مختلفة عدد من المؤلفين من أمثال البكري والادريسي وليون الافريقي (19) . كما يشهد على ذلك امتداد المناطق التي تستعمل فيها اللغة العربية . ذلك أن اعتناق الاسلام ترجم في حد ذاته الوحدة السياسية بمجرد ما ظهرت للوجود . لكن لغة الاجداد البربرية لم تتراجع أمام لغة التجار العربية الا بمقدار نشوء وسيادة الروابط الاقتصادية الجديدة (20) .

قد لا نكون مخطئين ان قلنا ان الأساس الاقتصادي لنوع جديد من الوحدة ظهر منذ القرن الثاني عشر للميلاد . والا كيف نفهم أن الامبراطورية المغربية لم تنهر عندما انهارت الدولة التي أسستها ، وهي دولة المرابطين ؟ لم يزد الأمر في الواقع عن مجرد انتقال الحكم من يد قبيلة الى يد قبيلة أخرى ، أما الامبراطورية فلم تزدد الا قوة وازدهارا . أضف إلى هذا ان السادة الجدد ، ونعني بهم الموحدين ، ينتمون بدورهم إلى قبائل مغربية ، مما يدل على أن المحافظة على الموحدة جاء نتيجة لقوة داخلية . وحتى بالنسبة للمستقبل ، فان عملية المحافظة على المملكة أو تجديدها ستنتم وفق هذا المنوال ذي الدلالة في حد ذاته .

* * *

مع ذلك ، فان هذه الامبراطورية الموحدة ، والمزدهرة ، والقوية ، والقادرة في بدايتها على أن توقف المسيحيين عنددهم بأسلحتها بل وأن تلقنهم الفنون والفلسفة ، سرعان ما بدأ الضعف يدب فيها منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادي لتأخذ في التقهقر بشكل يرثى له أمام حركة الاسترجاع في الأندلس ثم أمام الغزو الأوربي في عقر دارها . أما سر هذا التأخر فيرجع ، ولاسباب لم يحاول المؤرخون الى يومنا الكشف جديا عنها ،

الى أن النمو الاقتصادي الحثيث الذي صنع مجد الامبراطورية المغربية لم يتمخض فيها عن نفس النتائج التي تخض عنها في أوروبا خلال نفس الفترة .

لا ننحاز حول هذا الموضوع الى ذلك التهاافت الذي أثارته النظرية القائلة بان حضور العنصر العربي هو الذي نسف كل الجهود وأدى الى الخراب والدمار (21) . ان تاريخ ابن خلدون الذي اقتبست منه هذه المقولة ملئ في حد ذاته بالوقائع والحجج التي تظهر بطلانها (22) . مع ذلك ، وفيما يستهجن المؤرخون ارجاع سقوط الامبراطورية الرومانية الى غزو القبائل الجرمانية المتبربرة ، برغم كثرتها وجواتها الكاسحة ، نراهم الى اليوم ما يزالون يصرون بصدد المغرب ، الذي كان في مرحلة التوسع وقتذاك ، على ارجاع تأخره الى مجيئ قبائل مستضعفة استخدمتها الدولة منذ القرن الثاني عشر للميلاد كقوات مساعدة وظلت بعد ذلك حبيسة داخل اطار التبعية لها . سيكون من الأجدى تاريخا تقصي الأسباب الحقيقية لا في حضور هذه الأقلية العرقية أو تلك ، وانما في الحالة العامة للبلاد : في الظروف الطبيعية والمستوى القائم لقوى الانتاج ، والتشكيلات الاجتماعية ، والمنظومة السياسية ، وهذا دون أن نتغافل بموازاة ذلك عن الأخذ بعين الاعتبار تأثير وعداء العالم الأوربي . ومع أننا لن نتمكن هنا من التوسع في مثل هذا الموضوع ، فانه لا غنى عن تقديم بعض الايضاحات .

في فجر القرن الثاني عشر للميلاد ، عندما كانت الدولة المرابطية ، مؤسسة الامبراطورية المغربية ، في أوج عظمتها ، كانت التجارة هي التي شكلت منذ أمد بعيد قاعدة ازدهار البلاد . وهي تجارة مرور كما هو الشأن آنذاك بالنسبة لمجموع العالم الاسلامي ، وقامت بالتالي على منتجات تصل من الخارج لتواصل طريقها الى جهات أخرى ، الا انها أدت بالضرورة ، وبوتائر متصاعدة ، الى تنشيط حركة المنتجات المحلية المتكونة من فائض المحصولات الزراعية بالاضافة الى المواد الصناعية التي كان نطاقها يتسع باتساع نمو المدن . بيد ان الصناعة المرتكزة أساسا على استخدام الخشب والجلد والصوف لم تكن سوى ذيل ونشاط تكميلي للفلاحة . والاستثناء الوحيد الجدير بالذكر هو الأدوات النحاسية التي كان استعمالها شائعا جدا في هذه الفترة . ذلك أن النحاس في شكله النقدي كان يأخذ طريقه مباشرة الى خزائن الدولة مما جعله منذ وقت مبكر ، شأنه شأن الفضة التي كانت الأرض المغربية تزخر بها أيضا ، محط عناية خاصة ، بحيث يمكن القول ان الفضة والنحاس لعبا دورا كبيرا في ازدهار البلاد (23) . مع ذلك ، وعلى الرغم من ان الحياة الاقتصادية كانت في مجملها منتعشة جدا ، فانها بقيت داخل هياكل تقليدية أو أصبحت خارج ذلك تعاني من الأزمة . لقد استجلبت

أساليب السقي الا أن المنظومة الزراعية العتيقة ظلت قائمة ، وزاد حجم التجارة دون وجود شبكة من الطرق والعربات لتحل محل الدواب ، ومقابل الجهود التي انصبت على استخراج النحاس والفضة بقي الحديد مهملا .

انها الفترة التي شهدت فيها أوروبا ، ولما تزدهر تجارتها ، ثورتها الفلاحية والصناعية الأولى . فالاجتثاث المكثف للغابات ، واستعمال المحراث ، والتناوب الثلاثي ، أدّى الى مضاعفة المحصولات الزراعية ومضاعفة الانتاج بشكل عام . وبالإضافة الى الطرق العتيقة الموروثة عن الرومانيين ، بنيت طرق جديدة ، ومدت القناطر ، وتدعمت فعالية العجلات عن طريق استعمال زوجة متقنة ، وأصبح بالإمكان استخدام الطرق الملاحية . وبفضل اختراع دواب المغزل ، انتعشت صناعة النسيج . وفوق هذا كله ، تهيأت ظروف الانقلاع في ميدان صناعة الحديد . وهذا بجانب ما حدث من تقدم في استخدام التقنيات الملائمة ، خاصة الطاحونة المائية ، وبجانب أيضا ذلك النفس الجديد الذي أعطته الآلة المعدنية للاقتصاد برمته ، ناهيك في الأخير بالمساهمة الرهيبة في ميدان انتاج الاسلحة . كان الانتاج في مجموعه يحقق إذن قفزة لا بد وان تسفر عن نمو التجارة بدورها . انها صورة معاكسة للتطور الذي عرفه المغرب ، حيث أحرزت فيه التجارة قصب السبق دون أن يواكب نموها نمو الانتاج الفلاحي والصناعي ، أو قل دون أن يواكبه الا من بعيد .

على أنه علينا هنا أيضا الا نبحث عن تفسير هذه المفارقة في عوامل عنصرية ان سافرة أو مخجلة . بالفعل ، يمكننا أن نجد لها أسبابا أخرى ، وبادئ ذي بدء في الظروف الطبيعية حيث كان تمازج دقيق من العوامل المساعدة والموقفة يدفع الى الاستغناء عن المجهود البشري ليحكم عليه بالفشل عند تدخله فيما بعد ؛ وهذا في بلد كان فيه الجمل يشق طريقه في كل الاتجاهات ، ولا تكاد فيه الأنهار بقاتا تشكل حاجزا لا يمكن اجتيازه ، ولم تكن فيه الطرق والقناطر لازمة . على العكس ، كانت قساوة فصول الصيف تحول دون تنظيم تناوب ثلاثي . على أن العلة تكمن أساسا في البيئة المتقلبة التي كانت تقدمها الطبيعة شبه الجافة للإنسان . فقيما كانت مكافحة الشجرة في أوروبا ، حيث تكثر الغابات والمياه التي تدفعها الى النمو من جديد ، تسير خطوة خطوة ، لكن بفعالية ، بفضل الأدوات المعدنية التي أصبح استعمالها شائعا ، كانت الغابة في المغرب هي التي تتراجع بالعكس أمام الانسان لتتركه تحت رحمة موجة جفاف متصاعد . كيف يمكن إذن بدون غابات ولا مجار مائية منتظمة استغلال مناجم الحديد ولو أن وجودها كان معروفا ؟ فعلا لم يتمكن المغاربة من انتاج هذا المعدن الا بقدر

ضئيل ومن نوع لا جودة له (24) .

دون شك أن ثمة أسبابا أخرى ما دام المغاربة لم يتمكنوا من تقادي هذه المصاعب الطبيعية أو تذليلها ، إلا أنها ذات طبيعة سياسية واجتماعية .

عندما عرفت أوروبا بدورها ، وبعد مدة طويلة ، ازدهار التجارة بعيدة المدى فإن ذلك كان من عمل برجوازية نشأت ونمت بموازاتها . ولما حاول وقتذاك النبلاء والملوك ، الذين كانوا يحتقرون التجار والسلع لكونهم استمدوا دائما من أراضيهم قوتهم وأرباحهم ، الاستئثار بشمار هذه التجارة ، وجدوا أمامهم أُنْدادا صناديد . فالتاج الاسباني خسر هلندة في هذه المحاولة ، كما ترك ملك انجلترا رأسه وعرشه ، في حين تمكن ملك فرنسا من ابتلاع الاقطاعيين بفضل البرجوازية الوضيعة ، وهكذا فإن البرجوازيين ، الذين كانوا من رجال الصناعة والاقتصاد ويتميزون بالجرأة والذكاء ، لم يكتسبوا الا في ظل الصراع تلك المزايا التي مكنتهم من مجابهة الطبيعة ومنافسيهم الاجتماعيين على حد سواء .

لم يحدث في المغرب شيء من هذا القبيل . في هذا البلد تأسست الدولة بفضل سيطرتها على مناجم الفضة والمرات الرئيسية والمحاور التجارية الكبرى . فكانت بالتالي منذ البدء السيد المطلق للتجارة ، كما أنها ظلت حريصة دائما على أن تكون المقاول الرئيسي والتاجر الأول في البلاد . وقد بقي الاحتكار الذي مارسه السلطان اما مباشرة أو عن طريق كرائه للملتزمين تقليدا ساري المفعول الى منتصف القرن الماضي، حيث لم يزل نهائيا الا بقوة الضغط الأوربي (25) . من هذه الوضيعة اذن نتضح لنا النتائج . فالبيروقراطية هي التي كان لها اليد العليا على الأعمال في جميع العصور . ما دامت الأسرة الحاكمة محافظة على ذلك الشباب الذي يحدد ابن خلدون مدته بجيلين ، فقد كان بالامكان أن تسيّر الأمور على أحسن حال ، لكن كلما انقضى الأجل الا وساد الاختلال والفساد . أما بخصوص البرجوازية ، فقد كاد يوجد بالمغرب صنف منها ، والا بماذا نسمي الصناع والتجار الذين نعرف أن بعضهم احتجن منذ القرن الحادي عشر للميلاد رساميل هامة ؟ (26) . إلا أن هذه البرجوازية كانت تدين بوجودها لرعاية السلطان الذي كان يشركها في أعماله بمقدار ما يببوله ذلك مريحا . وحيث انها نشأت في ظل السلطة ، فقد ظلت تحت الوصاية . وهي وصاية كانت تضيق بها ذرعا كما تشهد على ذلك بعض النزاعات ، لكن دون أن تراودها فكرة التخلص منها .

هاهو ذا السبب - وليس لكونها من طينة أخرى غير طينة برجوازية لندن أو باريس أو أمستردام - الذي جعل البرجوازية الفاسية أو المراكشية عاجزة على أن تضطلع

بنفس الدور التاريخي الذي اضطلعت به نظيرتها الفتية في أوروبا.

إدارة بيروقراطية ، وبرجوازية مدججة ، ووسط ملائم في البداية لكنه ذو موارد في طريق الاستنفاد، تلك هي الأسباب السياسية والاجتماعية والطبيعية للفشل الذي لم تكن تلك الانطلاقة المبشرة لتدل عليه . ان الحضارة التي كان المغرب مهدا لها وقتذاك ، والتي تألقت وازدهرت ما دام لم يعترض سبيلها أي حاجز على قدر مستواها، ظلت من النوع التجاري ، ولم تكن تنتج بنفسها الا بوسائلها التقليدية التي أصبحت متقدمة ومتجاوزة أمام تفوق التقنية الأوروبية الجديدة . لم يظهر هذا الاختلال على الفور . ذلك أن أوروبا ظلت لمدة طويلة في حاجة الى البضائع التي يزودها بها تجار المغرب ، مما أبقى ازدهار المغرب الى مطلع القرن الخامس عشر مع ما كان قد أصابه من ضعف آنذاك. لكن المغرب كان يصدر المواد الخام قبل كل شيء مقابل المنسوجات والمصنوعات الحديدية . أي أن اقتصاده أصبح منذ تلك الأيام في تبعية لاقتصاد أوروبا . مما زاد من هذه التبعية أن الأوربيين صاروا يحتكرون وسائل النقل البحري ، بحيث صار التاجر الأوربي في حالة سيد سوق وقت البيع والشراء . فلم يعد بعيدا الوقت الذي سينزل فيه غزاة قشتالة لتخريب مدينة تطوان ، وينزل البرتغاليون للاستيلاء على سبتة ، الميناء الكبير المتصل بلوريا . وبعد أن كان المغرب ييسط سلطته على موانئ أوروبا الامامية ، جاء الوقت الذي تقدمت فيه أوروبا الى دياره لتنتزع من يده جميع أرباح تجارته . وفعلا ، عرفت جميع مراسي المغرب تقريبا مصير سبتة خلال القرن الخامس عشر ، بل ووصل البرتغاليون بعد ذلك الى خليج غينيا فحولوا الى طريق البحر جزءا متزايدا من تجارة القوافل الصحراوية (27) . فأصبح المغاربة في حالة المحبوسين في حدود بلادهم وفلت من أيديهم جل التجارة بعيدة المدى التي كانت تمر بترابهم . أما انتاج بلادهم فلم يكن بإمكانهم تصديره الا عن طريق الوساطة الخائقة للبرتغاليين أو الاسبانيين ، فكانوا يدفعون كثيرا ولا يأخذون مقابله الا القليل اليسير . بعد هذا التقلص المفاجئ الشديد لتجارته التقليدية ، وبعد فقدانهم المستمر لمادتهم الحيوية لعدم مساواة القيمة في المبادلة ، كيف لا يكون مكتوبا بذلك منحنى انحطاطهم ؟

* * *

الحقيقة أن التجارة لم تكن وحدها موضوع النزاع . انظر ما رواه البرتغاليون أنفسهم عن التخريب والنهب والسلب والقتل الذي قاموا به في الغزوات التي شنوها من قواعدهم على الموانئ ، تفهم كيف أن وجود الشعب المغربي أصبح هو أيضا مهددا (28) . كان من المتوقع اذن أن يعرف المغاربة نفس المصير المحزن الذي عرفه

أنداك أهالي القارة الأمريكية الذين أبادهم الاسبانيون ، لولا أن الوحدة التي رأينا كيف أنها نشأت ونضجت منذ ستة قرون والتي بلغت درجة كافية من الكثافة و من الوعي بالنفس ، مكنتهم من أن يجابهوا برد فعل جماعي الضربات التي لم تكن تصيب في أول الأمر الا البعض منهم . وفعلًا كانت القبيلة الحاكمة من قبل هي التي تأخذ على عاتقها جمع القبائل لتوحيد الأمة . أما الآن فكان عكس ذلك ، إذ أن السلاطين من بني مرين الآخرين وأعقابهم من بني وطاس أصبحوا يتراخون ، اما لعجزهم أو لمصلحتهم ، في رد ضربات البرتغاليين ، فلم يبرز انعكاس الوحدة الا من أعماق القبائل . كذلك فقد كانت العادة في الماضي أن تبرز قبيلة من بين القبائل فتفرض نفسها على الجميع . أما الآن فقد نهض الجميع نهضة واحدة في سبيل قضية لا بد من أن نسميها وطنية الا اذا اقترح علينا أحد تسمية أنسب . أما أنا فلا أعرفها . قد يقول بعضهم ان دعاة هذه القضية خصوصا منهم محمد الجزولي ومن جاء بعده ، جاهروا على رؤوس المأل بأنهم مجاهدون في سبيل دين الاسلام ، طبعًا . لكن أليس الاسلام هو الذي عبر منذ البداية عن وحدة القبائل السياسية ؟ هل من المعقول - ولو خطر ذلك بباله - أن يستقني الجزولي عن صلة الوصل هذه خصوصا والمغبيرون الأجانب يرفعون ضد المغاربة شعار الصليب ؟ فلننتبه من جهة أخرى إلى أن الطريقة الشاذلية التي كان الجزولي شيخها لم تكن الطريقة الوحيدة . بل كانت ثمة أخرى لا تقل عنها ايمانًا وتدينًا ، منها القادرية مثلاً . الا أن هذه لم تكن تدعو للجهاد . انظر أيضا الى أن الدفاع - أو قل الجهاد- بدأ ضد البرتغاليين لكنه أصبح فيما بعد موجها ضد الأتراك أيضا مع أنهم مسلمون ، بل كان الجهاد ضد الأتراك المسلمين بمساعدة الاسبانيين المشركين . ما أعجب هذا الجهاد من المعقول اذن أن نستنتج من هذا كله أن الدفاع كان دينيا قالبًا لكنه سياسي بل وطني قلبًا (29) . اذا كان السعديون قد تقلدوا الحكم أنداك بفضل انتمائهم الى سلالة الرسول ، وهذا دون أن تكون لهم عصبية قبلية تشد أزهم كما كان يحدث سابقا ، فذلك لا يرجع لكون المغاربة لم يكتشفوا وجود هذه السلالة بين ظهرانيهم الا مؤخرًا - مع أنها موجودة منذ قرون - بل لأن اختيار هؤلاء الرؤساء الجدد بالنسبة الي الاسلام الذي تشترك فيه جميع القبائل هو الاختيار الأنسب لاقامة الدولة القوية التي لا بد منها لخوض معركة ضارية ضد الغزاة . فظهور سلاطين جدد من الشرفاء - أي السعديين

أولا ثم العلويين - لم يكن كما يزعم البعض وليد عقلية متدنية متحجرة بل هو دليل على خطوة كبيرة قطعها المغاربة في توحيد أمتهم لأنهم أصبحوا يشعرون بشكل أعمق بانتمائهم الى وحدة تتجاوز بكثير حدود القبيلة . من جهة أخرى فان شرفاء آخرين ينتمون بدورهم الى هذه السلالة الشريفة على مستويات متعددة ، كانوا قد غرسوا جنورهم منذ أمد بعيد في مختلف جهات البلاد تقريبا ، وأصبحت ذريتهم المتجمعة حول أضرحتهم محل تكريم وتبجيل من طرف القبائل المجاورة . وبالنظر الى ان هذه الذرية كانت متفانية في اخلاصها للأسرة الحاكمة بحكم قرابة النسب ، فاننا نتصور أي وسيلة جديدة أصبح السلطان يتوفر عليها في شخص هؤلاء الأقرباء المخلصين لترويض القبائل أو ابقائها تحت الطاعة دون اللجوء الى العنف ، بما فيها القبائل الأكثر انزواء وتعتنا .

بهذا ، وبفضل مزيد من الالتحام و التماسك ، قدر للمغاربة أن يتفادوا الخطر العظيم الذي أصبحوا عرضة له . من الحق أن هذا التماسك والالتحام كانا دون درجة الكمال بكثير . ذلك أن الحكام الجدد لم يغيروا بشيء هيكل المخزن العتيق الذي ورثوا عن أسلافهم جهازه الباهظ التكاليف مع موظفيه من ذوي الامتيازات و عادات أفراد حاشيته . كما أنهم لم يدخلوا أي تغيير - وأنى لهم ذلك ؟ - في العلاقات الاجتماعية . كذلك ظل عدم المساواة ثابتا بين المدن والريف بسبب المعاملات التجارية التي قلنا إنها كانت تتم على حساب سكان الريف ، وأيضا بسبب الضرائب التي كانت تجبى منهم من دون أهل المدن تقريبا . وكان الكساد الذي يخيم على التجارة قد أصبح مانعا يعرقل الاندماج الإقتصادي ، مما أبقى القبيلة كهيئة اجتماعية و اطار للحياة السياسية . بالتالي ظلت العلاقات بين القبائل تثير المشاكل كما استمر بالخصوص التناقض بين القرويين والحضرين المفضلين لدى السلطة . هذا التناقض الأخير هو الذي ظل الى النهاية نقطة الضعف الرئيسية في كيان المغرب وجهازه بما أدى اليه من اصطدامات عنيفة . هذا كله صحيح لا شك فيه . لكن هذا الكيان المغربي كان قادرا كما رأينا مع

ضعفه على أن يوقف المغيرين ، بحيث انه حصرهم في الموانئ في مرحلة أولى ثم طردهم بعد صراع دام مائة وخمسين سنة من شاطئ المحيط الأطلسي على الأقل . لا ننسى أن البرتغال فقدت فوق التراب المغربي وجودها ككولة لمدة تناهز قرناً بعد انهزام جيشها في معركة وادي المخازن الشهيرة . بل ظهر في بعض الفترات ، أيام أحمد الذهبي ، مثلاً ، أو أيام المولى اسماعيل ، كئن هذا الكيان المغربي قادر على استئناف تقدمه لاستدراك تخلفه عن أوروبا .

لكن هذا الرأي طبعاً إنما هو من الأوهام . إذ من المستحيل أن يبلغ الأمر الى هذا الحد . بل بالعكس لم يزد التباين الا تعمقا بين المغرب الذي كان انتاجه متوقفاً والذي انقطعت عنه التيارات التجارية القديمة وبين الدول الأوروبية التي ما فتئت تنمو وتزدهر في جميع الميادين . فلتحرير الموانئ مثلاً - ولا يمثل ذلك الا خطوة لفك الخناق تمهيداً لهذا التقدم المحتمل - كان السلاطين في حاجة إلى مدافع وإلى وحدات حربية فكان لا بد لهم منذ تلك الأيام من استحضار المهندسين من أوروبا لصنع المدافع أو من استيرادها بذاتها ، كما كان لا بد لهم من استيراد القلاع والمخاطف والحبال بل وخشب الألواح والسواري . فاستنزفوا بذلك أموالهم ولم يوفقوا الى التخلص النهائي من الخناق. كان سيدي محمد بن عبد الله قد حرر الجديدة ، أما مليلية فكان عليه أن يوقف الحصار الذي ضربه عليها سنة 1774 . فتجلى في هذا التاريخ فشل مشروع تحريري استغرق قروناً ، إذ بقيت في أيدي الاسبانيين المنافذ المطلة على المتوسط خصوصاً منها سبتة (30) .

هكذا وحتى مطلع القرن التاسع عشر كان المغرب من بين البلدان القلائل غير الأوروبية التي تمكنت من صيانة حياة شعوبها ووجود دولها ، وهذا بالرغم من وجود علاقات متينة وعريقة مع أوروبا ، الا أن ذلك كان نتيجة مجهودات كبيرة اعترضتها مصاعب كثيرة . بحيث ان المغرب المستنزف وبالح انحطاط كان مكتوباً عليه أن يبرزح في الأخير تحت عبء ضغوط أشد هولا من قبل قوى أوروبية جديدة . لكن حتى على هذه

الحالة ، لم تكن العملية باليسيرة . حقا لا يمكن أن نقارن المغرب بدولة عصرية . فقد ظلت وسائل الانتاج فيه عتيقة بما يترتب عن ذلك من تقسيمه الى قبائل متعددة ، مما حال دون بلوغ مستوى كاف من الوحدة العضوية . بيد أن نوعا من هذه الوحدة كان قد حدث فيه منذ مدة طويلة بفضل التجارة وبفضل الدولة التي قامت على أساس هذه التجارة والتي جمعت القبائل تحت راية دين واحد ، فأشركتها في غزواتها الخارجية ثم حبستها في شبكة من المصالح الاقتصادية وربطتها نهائيا بالعواصم التجارية . فاذا بالبرتغاليين والاسبانيين يغيرون على البلاد . وبما أن احتلالهم أدى بالتجارة الى الافلاس ، فانه أوقف الاندماج الاقتصادي الذي كان جاريا ، مما أحدث الفسق الذي يتعذر رتقه . لكن بما أن هذا الاحتلال كان يهدد حياة أناس تعودوا المشاركة في مصير واحد ، فانه أثار فيهم غريزة البقاء مما أحدث تماسكا جديدا في هذه الوحدة التي كانت مترتبة من قبل عن وجود الدولة فقط . ان أربعة قرون من الجهاد ضد المغيرين المسيحيين لهو أمر له تأثيره في قلوب القبائل المسلمة لترمق بعين الاجلال رئيسها المشترك ، أي السلطان ، الذي بايعت له بالامارة . له تأثيره أيضا في تكييف عقلية جماعية تحدد هويتها قبل كل شيء كهوية مضادة لهوية المغيرين . وله تأثيره أخيرا في ترسيخ فكرة التضامن في الأذهان كواجب مقدس . وفعلنا ترى أن الوثائق تبرز هذه العواطف - أي الولاء والقراية والتضامن - كلما أصبحت سيادة البلاد في خطر . حقا لقد كان المحتلون يسمون في هذه الوثائق بـ "المسيحيين" و بأعداء الله . لكن أليسوا مع هذا محتلين ؟ أليسوا أيضا وقبل كل شيء مسيحيين ؟ أما بالنسبة للمغاربة الذين كانوا يطلقون على أنفسهم اسم مسلمين ، فينبغي التوضيح أنهم لم يكونوا يعنون بهذه التسمية سوى أنفسهم من دون باقي المسلمين الآخرين سواء أكان هؤلاء في الصين أو حتى في الجزائر .

نظرا اذن لانخداع بعضهم بحرفية الالفاظ ، تراهم يعتبرون دائما ردود فعل المغاربة ضد الأوروبيين منذ مائة سنة وليدة التعصب أو وليدة روح الحرب المقدسة . في

الواقع ، وبالرغم من غياب جميع الخصائص المميزة لدولة عصرية ، فإن الأمر يتعلق منذ البدء بشعور كان يعبر عن نفسه حقا في اطار التعارض بين الاسلام والمسيحية ، بحكم التقليد وأيضا بحكم ما كانت تستلزمه الظروف . الا أن مضمونه كان مبنيا على أساس شعور وطني . كان هذا الشعور من القوة والتجاوب بما يكفي لتأجيج قطاعات واسعة من الجماهير والدفع بها الى الالتفاف حول رؤسائها الذين كانت تنتظر اشارتهم للجهاد (31) . عندما أصبح باديا للعيان أن انتظارها بلا طائل ، اهتزت تلقائيا هنا وهناك ، في حركة متوثبة غير منتظمة الا أنها موجهة ، مستنهضة همم رؤساء جدد لاعادة وحدة الصف بينها ، والدفاع على الأقل عن الاستقلال ، وربما أيضا لتحقيق طموحات أخرى غير واضحة تجمع بشكل غامض بين الحرية والعدالة الاجتماعية.

إن ما قمنا هنا بتلخيص خطوطه العريضة هو ما سيكون عليه ، في الفترة الحديثة ، التاريخ النضالي لشعب ان لم نقل لأمة ، وهو الشعب المغربي .

الهوامش

- (1) التي هذا الخطاب بمدينة نيم في 3 أكتوبر 1925 .
- (2) Eugène AUBIN : " Le Maroc d'aujourd'hui " Paris 1904 . Augustin BERNARD : " Le Maroc " F. Alcan 1921. Henri TERRASSE : " Histoire du Maroc " Ed. Atlantiques , Casablanca, 1950 .
- (3) Robert MONTAGNE : " Les Berbères et le le Makhzen dans le Sud du Maroc " F. Alcan , Paris , 1930 , pp. 402 -404 .
- (4) R. THOMASSY : " Le Maroc. Relations de la France avec cet empire " , 3e édition , Paris 1859 , p. 93 .
- (5) فيما يلي التبرير الذي قدمه ميشو بلير من بين آخرين : " إن عجز المخزن عن فرض سلطته الفعلية في جميع مناطق الامبراطورية هو الذي استدعى تدخلنا وإقامة نظام الحماية "
- MICHAUX - BELLAIRE : "Le Rif "conférence prononcée au cours des Affaires indigènes , Rabat , 1925 p. 3 .
- (6) على الرغم من أن فرنسا خاضت حربا حقيقية طيلة عشرين سنة لاتمام غزو المغرب فإن الكلمات التي يمكن أن تعبر عن هذه الحالة ، مثل « جبهة » أو «عمليات» ، لم تستعمل عن قصد الا في التقارير العسكرية . كان ليوطي في تقاريره الى وزارة الحرب يتحدث بالفعل عن « مختلف جبهات العملية » . أما بالنسبة للعموم فلم يكن الأمر يتعلق إطلاقا الا « بالتهندة » ، وهو المصطلح الذي ظل يستعمل للدلالة على الغزو بدون أن يوضع بين مزدوجتين حتى بالنسبة للمؤرخين اليوم
- (7) جلسة البرلمان بتاريخ 19 نونبر 1903 الجريدة الرسمية ص 2794
- (8) جلسة 23 نونبر 1903 . الجريدة الرسمية ص 838 . 2 .
- (9) خلال جلسة 23 نونبر ، تدخل وزير الشؤون الخارجية دلكاسي، وردا على المتهنئين الذين كانوا يريدون التدخل المباشر لدى القبائل ، اما لاختصاصها أو لاغرائها ، صرح أن الحكومة تفضل " سياسة لها أجل ، تلك السياسة التي قد تكون أبعد زمنا على الأقل في الظاهر الا أنها أكثر ضمانا وأحسن تحضيرا وأقل تكاليف الا أن السياسة لا تكون مع العلم . من البديهي أن هذه السياسة السلمية لا يمكن أن تتم الا مع الحكومة المغربية " . انه لمن الدلالة أن نلاحظ أنه اذا كان المتكلم بلسان الحكومة قد اكتفى بتحديد السياسة الرسمية على هذا الشكل ، فإن أوجين آتين هو الذي تكفل بعده بتقديم الحجج لتبريرها وتعميرها (محضر جلسات المناقشات المنشورة في : " Renseignements Coloniaux " , Supplément au Bulletin du Comité de l'Afrique Française", année 1903, décembre , pp. 312 sqq.)
- (10) تضمن الفصل الأول من ظهير 11 شتبر 1914 : " أن القبائل المعروفة بالعادات البربرية هي التي كانت وما تزال تتناس وتدار وفقا لقوانينها وأعرافها الخاصة تحت مراقبة السلطات " . لا تفلوتنا هنا ملاحظة أن عدم التحديد المقصود بالطبع في الشرط الأخير من الجملة التي تفادت أن تذكر بالاسم السلطان أو المخزن ، كان من شأنه أن يمكن ، وقد مكن بالفعل ، من إحلال السلطات الفرنسية محل السلطات المغربية في ممارسة المراقبة المنصوص عليها .
- (11) كان ليوطي قد أسس لجنة دراسة لتنظيم القضاء البربري. في محضر جلسة هذه اللجنة بتاريخ 8 أكتوبر 1924 نقرا ما يلي : " لا خير بتاتا ... في قسم الوحدة القضائية للمنطقة الفرنسية طالما أن الأمر يتعلق بتعزيز العنصر البربري لتهيئته لنور الموازنة الذي يمكن أن يناط به. بالعكس فإن ذلك ينطوي على فائدة مؤكدة من وجهة النظر السياسية ، ألا وهي تفسير المواة " . ان هذه الكلمات التي لم تزد عن التعبير عن وجهة النظر التي أدلى بها ليوطي ومستشاروه في وثائق أخرى ، قد كشفت عنها " مجلة المغرب " ، وأعيد نشرها في مختلف المناسبات في الصحافة المغربية (انظر على الخصوص " عمل الشعب " . في عددها 20 ماي 1937) . نفس هذه الهموم تتجلى لدى جورج سوربون عندما قال : "إذا ما تعرب البربري فإن ذلك يعني بالنسبة اليه نوعا من المقارعة ضدنا " . ان هذا التصريح لأوضح تعبير عن وجود شعور (وقد قلنا سابقا شعورا وطنيا) لدى البربري المشهور بشراسته ، ذلك الشعور الذي كان يقربه من باقي اخوانه المغاربة ضد المحتل الاجنبي . علاوة على ذلك ، أكد سوربون على ضرورة العمل السريع من أجل عرقلة هذا الشعور عن طريق سياسة التفرقة المعروفة بـ " السياسة البربرية " :
- "إذا لم نأخذ حذرنا من ذلك ، سنكون قد حفرتنا هوة سحيقة بيننا وبين البربر".
- ("Esquisses de droit coutumier berbère marocain " , conférences données au Cours Préparatoire au Service des Affaires Indigènes pendant l'année scolaire 1927-1928. Rabat Felix Moncho, édit. 1928)
- (12) ROBERT MONTAGNE : op. cit. p. 414

14) حول " السياسة البربرية " ، فإن أحدث دراسة وأرضحها هي دراسة :

C.R. AGERON : "La politique berbère du protectorat marocain 1913-1934 " in "Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine", T. XVIII, Janvier-mars 1971,

حول تطور رد اللمل الوطني ، انظر علال القاسي : "الحركة الوطنية بالمغرب العربي" القاهرة (بدون تاريخ ، ربما عام 1948) ،

بالنسبة للتطورات اللاحقة لعام 1947 ، انظر على الخصوص :

Ch. A. JULIEN : "L'Afrique du Nord en marche"

الطبعة الجديدة لهذا الكتاب (باريس 1972) تضيف الى رواية "الأزمة المغربية" بيلوغرافية نقدية غنية.

15) Voir Daniel EUSTACHE : " Les ateliers monétaires , du Maroc " in HESPERIS -TAMUDA, Vol. XI, 1970 (Fascicule unique), pp. 95 -102.

على مجموع 51 معلا نقديا التي تمكن المزال من تحديد وجودها بالمغرب في مختلف العهود من تاريخه ، هناك 21 منها استخدمت منذ عهد الأديسة وهم ملوك المغرب الأوائل ، وكلها أسست من طرفهم . انظر كذلك :

Bernard ROSENBERGER : " Tamdult " , in HESPERIS - TAMUDA , Vol. XI , 1970 (Fascicule unique) , pp. 103-1

16) تمكنا شخصا من دراسة كثير من محاضر جلسات التحكيم التي تمت في القرن الماضي اما في الحضرة السلطانية نفسها ، واما محليا وباسم السلطان من طرف العامل وبمساعدة قضاة من الشرفاء . وقد ذكرنا بعض الأمثلة في كتابنا "دراسات حول تاريخ المغرب" الرباط 1979 .

17) إن ابن رشد عند رنان (Renan) ولو أنه الاقدم عهدا (1852) وغير كاف من زوايا متعددة ، هو الذي يبين أحسن الجانب العقلاني لفكر ابن رشد . وهناك حقيقة مؤكدة لم يسجلها رنان ، وهي أن القديس توماس (Saint Thomas) الذي هضم أرسطر لم يتمكن اطلاقا من هضم ابن رشد . وهذا أحسن دليل على أن ابن رشد كان مفكرا له خصوصياته وأصالته وليس مجرد "شارح" كما يعاند بعضهم في نعته .

18) Voir Jean Michel LESSARD : " Sijilmassa : La ville et ses relations commerciales au Xle siècle d'après EL BEKRI " in HESPERIS - TAMUDA , Vol. X , 1969 fasc. 1 - 2, pp. 5 - 36.

19) - EL BEKRI : " Description de l'Afrique Septentrionale", Traduction M.G. de SLANE, Alger 1913.

IDRISSI : " Le livre de Roger ou amusement de celui qui désire voyager autour de la terre ; extrait : Description de l'Afrique et de l'Espagne " , Traduction R. DOZY et J. de GOEJE , Leyde , 1866 . LEON L'AFRICAIN : "Description de l'Afrique" (XVI è siècle) Traduction de l'italien et annoté par A . EPAULARD, Th. MONOD, H. LHOE et R. MAUNY, A. Maisonneuve, Paris, 1956 .

20) محمد المنوني : « ظهور مقررات الشعور الوطني في عهد المرينيين والوطاسيين » ، هسبريس - تامودا ، المجلد 11 ، 1985 ، ص . 219 - 228 .

21) هذه الأطروحة المقتبسة من ابن خلدون استقلت من طرف :

G. MARÇAIS : " Les Arabes en Berbérie du XI è au XIV è siècle (Paris - Constantine 1913) .

وبخاصة :

E . F GAUTIER : " L'islamisation de l'Afrique du Nord : les siècles obscurs du Maghreb " 1927.

22) انظر حول هذه النقطة جرماني عياش " ابن خلدون والعرب " .

في " ابن خلدون " ، ندوة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط في ماي 1962 (دار الكتاب الدار البيضاء 1962) . في كتابه المعنون ب "ابن خلدون" (باريس 1966) ، يهاجم ايف لاكويست بحدّة ما يسميه "أسطورة" الفرز العربي .

23) Bernard ROSENBERGER : "Autour d'une grande mine d'argent du moyen âge marocain : le Jebel Aouzam", in HESPERIS - TAMUDA, Vol.V, 1964, fascicule unique, pp.15-78

انظر كذلك :

"Les anciennes exploitations minières et les anciens centres métallurgiques du Maroc " in Revue de Géographie du Maroc , Année 1970 n° 17."

إن دراسات روزنبرجي ، التي تعد نموذجية من حيث منهجيتها حيث إنها تزاجر بين دراسة النصوص والأركيولوجيا ، لتسلط أضواء جديدة وكاشفة على الماضي المغربي.

24) B. ROSENBERGER : op. cit.

25) إن المعاهدة التجارية المغربية من طرف بريطانيا عام 1856 هي التي حظرت على السلطان المحافظة على احتكاراته.
26) يسجل لसार (LESSARD) اعتمادا على ابن حوقل (977) مثال تاجر اعترف بدين له يبلغ 42.000 دينار (مرجع سابق ، ص. 14 ، هـ 32) .

27) Voir Robert RICARD : "Le commerce de Berbérie et l'organisation économique de l'Empire portugais aux XVe et XVIe siècles " in Annales de l'Institut d'Etudes Orientales", Faculté d'Alger II, 1936 .

28) حول هذه النقطة ، انظر كذلك :

Vasco de CARVALHO : "La domination portugaise au Maroc du XVe au XVIII e siècle (1415 - 1769), Lisbonne , 1942 .

Damiao de GOIS : " Les Portugais au Maroc de 1495 à 1521" tr. de la chronique du roi D. Manuel de Portugal", tr. par Robert RICARD. Rabat 1937 (Publications de l'I.H. E. M.).

29) On consultera A. COUR : "L'établissement des dynasties des Chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs d'Alger " , Publications de la Faculté des lettres d'Alger , 1904. LEVI-PROVENÇAL : "Le Maroc en face de l'étranger moderne " in Bulletin de l'Enseignement Public au Maroc 1925 pp. 95-112. Mohamed HAJJI : "L'idée de nation au Maroc aux XVIe et XVIIe siècles" , in Hespéris-Tamuda, Vol. IX, 1968, fasc. 1, 109-122.

30) Germain AYACHE : Beliounech et le Destin de Ceuta entre le Maroc et l'Espagne , in Hespéris-Tamuda , Vol . XIII, 1972, fasc. unique , pp. 5 - 36 .

31) G. AYACHE : " Le sentiment national dans le Maroc du XIX e siècle," in , " Revue Historique", oct. déc. 1968, fasc. 488, pp. 393 - 410 .

السيطرة الأجنبية

من الثابت أن المغرب مر باضطرابات خطيرة منذ ما قبل السيطرة الفرنسية. إلا أن المؤرخين الذين يركزون على هذا الجانب من الأمور ، متحدثين حتى عن الفوضى والفساد العام - وهو أمر مبالغ فيه - لا يكفون أنفسهم عناء تقصي الأسباب الحقيقية التي أدت الى هذه الحالة . ذلك أنهم يكتفون بالقول أو تراهم يلحون الى أنها عادة جبلت البلاد عليها ، ونتيجة طبيعية وثابتة لذهنية سكانها ولما يشوب حكومتها من شوائب. بحيث يخيّل لنا ، انسياقا مع مثل هذه الأقوال ، أن الدولة المغربية لم تظهر وتتموت وتستمر منذ عشرة قرون الا في ظل الفوضى والفساد العام.

والواقع أن فترة الازدهار والتقدم التي عرفها المغرب في القرون الأولى قد أعقبتها فترة طويلة من الانحطاط ، كما أفصحت عن ذلك الصفحات المتقدمة . على أن البلاد استمرت مع ذلك في العيش وفي الدفاع عن نفسها . لقد كانت حرة ومهابة الجانب . وكان المسيحيون المهاجرون اليها ينصاعون لقوانينها ، ولا يسلم الأسرى المحتجزون لديها الا مقابل أسرى مغاربة. وجملة القول فقد كان السلطان صاحب النهي والأمر في بلده ، باستطاعته فرض الأمن والنظام. وهو ما كان يقوم به على وجه العموم. حقا لقد تغيرت الأمور في بداية القرن . الا أنها حالة مستجدة لم تبدأ في الظهور بالضبط الا في حدود 1850 . كيف لا يمكن اذن أن نرى ثمة علاقة جدلية بينها وبين التأثير العارم الذي مارسه الدول الأوروبية العظمى منذ نفس التاريخ ؟

* * *

في نهاية القرن الثامن عشر كان السلاطين قد نجحوا في تحرير كل شواطئ المغرب الأطلنكية. ومع أن الاسبان ظلوا بملييلية وسبتة حائلين بينه وبين منافذ البحر الأبيض المتوسط ، فانهم لم يعودوا يهددون على الأقل المناطق الداخلية . فقام بذلك نوع من التوازن ، وتمتع المغرب بمهلة من بضعة عقود خيل له معها أنه قادر على العيش منفلقا على نفسه دون الاكتراث بأوربا.

إلا أن أوربا كانت له بالمرصاد . على أن خطرهما لم يعد يتجسد في البرتغاليين والاسبان . بقدر ما أصبح يتجسد في انجلترا القوية ومناستها فرنسا . فمنذ 1800 أظهر الفرنسي بروفوني في مذكرة مفصلة مدى مصلحة بلاده في غزو المغرب قصد فرض هيمنتها على المتوسط واقصاء انجلترا من مياهه ⁽¹⁾. وفي عام 1808 تطلع بوناپارت الى أن يتخذ المغرب ميدانا يكرر فيه الحملة التي وجهها الى مصر قبل ذلك

بعشر سنوات (2) . بيد أن التهديد لن يتبلور الا بعد تسوية المشاكل القارية الكبرى . والحقيقة أنه لم يستهدف المغرب في البداية . مع ذلك وجدنا السلطان عندما نزل الفرنسيون بالجزائر عام 1830 يأمر في جميع أقاليم مملكته بتلاوة " اللطيف " ، الذي تجرى به العادة في الأوقات العصيبة . وهذا ان دل على شيء فانما على شعوره العميق بأنه كان طرفا معنيا بالأمر . لذا فقد استجاب لنداء أهل تلمسان المتأخمين لحدود مملكته عندما طالبوه بالدخول تحت سلطته ضد الغزاة . كما أنه قبل فيما بعد بيعة عبد القادر ، بطل المقاومة ضد الفرنسيين ، وأمدّه لمدة طويلة بالوسائل لمحاربتهم . الا أن محاولات المقاومة الفعالة هاته سرعان ما باءت بالفشل . وهكذا فقد اضطر المغرب الى الانسحاب من تلمسان بعد فترة احتلال قصيرة . بينما لم يجد الفرنسيون ، الذين طاردوا عبد القادر حتى الى داخل الأراضي المغربية ، صعوبة في تبديد وسحق الجيش المغربي الذي وجهه السلطان ضدهم بواد ايسلي . في الوقت نفسه ، قنبلوا ميناعين من موانئه ، طنجة والصويرة ، دون أية مقاومة .

كشف هذا الحدث المزدوج للعالم والمغرب نفسه عن مدى التغير الذي طرأ على موازين القوى منذ الوقت الذي جاء فيه سبستيان ليلقى مصرعه مع جميع أفراد جيشه فوق الأرض المغربية . فأمام كتائب بوجو المتمرسه بالحرب وتحت القصف المحكم لدفعيته ، تم تفكيك حشود القبائل المستنفرة ، وهذا في الوقت الذي لم تكن توجد فيه أية أنية سواء في البحر أو البر قادرة على الرد على أسطول العدو . ومن ثم ساد الاعتقاد لدى رؤساء العصر في المغرب بأن البلاد أصبحت لقمة سائغة أمام أي معتد قادم من أوروبا . وهو اعتقاد ترسخ في أذهانهم ولم يبارحها على الإطلاق . كيف لا وقد تعرض المغرب بعد 15 سنة لهزيمة أخرى رغم مقاومته المستميتة هذه المرة والأطول أمدا ، وقد مني بها على أرضه وعلى يد إسبانيا التي نعرف أنها كانت أقل خطورة من فرنسا .

باستغلال هذه الحالة وهذا الشعور بالضعف ، تجندت الدول العظمى لانتزاع تنازلات كانت وبالا على اقتصاد البلاد ووحدتها الترابية وأمنها الداخلي . أما بخصوص السلطان فلم يعد يجد وسيلة أخرى للمقاومة عدا الوسيلة الدبلوماسية باستغلال المنافسة بين خصومه . فصد الفرنسيين وإسبان ، اعتمد على انجلترا ثم فيما بعد على ألمانيا . لكن أية فائدة يمكن أن يجنيها من هذه السياسة التي لم يجد البعض غضاضة في نعتها بالخداة ؟ لقد كانت في الواقع مجرد أوام . إذ من البديهي أن دعم الغير يكلف في حد ذاته تقديم تنازلات . والحالة أن الإفادة من كل تنازل كانت تتعمم بشكل آلي على

جميع الدول الأوروبية بحكم شرط الأمة الأكثر تفضيلا الذي كانت تتمتع به كل منها . وهكذا فقد كان المغرب يزداد تورطا بقدر ما كان يحاول النجاة ، مثله مثل المستجير من الرمضاء بالنار .

بدأت انجلترا اللعبة بأن فرضت تحت التهديد معاهدة 1856 التي حددت بشكل نهائي وكحد أقصى الحقوق الجمركية على المستوردات بـ 10 ٪ (3) . ففتحت بذلك الباب على مصاريها أمام المنافسة الأوروبية ، في حين أن السلطان المحروم من حقه في أن يتولى بنفسه تشريع سياسته الجمركية ، أصبح مجردا منذئذ من خاصية هي جزء من الاختصاصات الوطنية .

بعد أربع سنوات جاء دور الاسبان الذين تمكنوا بفضل انتصارهم من إملاء شروط قاسية . لقد طالبوا بأداء تعويض يصل إلى مائة مليون مما شكل استنزافا لن يلتئم جرحه على الإطلاق (4) . أما بخصوص الاتفاقية التي فرضوها بعيد ذلك هي الأخرى ، فقد منحت جميع الاسبانيين حق المجيء والاستقرار بكامل الحرية في المغرب ، مع إعفائهم من الضرائب ، وألا يكونوا مسؤولين عما يرتكبونه من جرائم إلا أمام قنصلهم بدلا من القضاة المغاربة . كذلك فقد تمتع بنفس هذه الامتيازات جميع المغاربة الملحقين بخدمتهم (5) .

كانت هذه الامتيازات بالغة الخطورة سيما لو تذكرنا أنها كانت تنعم على باقي الأجانب الذين كان لهم الحق جميعا في امتياز الدولة الأكثر تفضيلا . لقد جعلت السلطان يقف عاجزا عن إيقاف أو مراقبة حركة الهجرة الأجنبية . بحيث ان جالية أوروبية متكونة من عناصر مشبوه في أمرها ، ستأخذ في النمو بوتيرة متصاعدة ، وستكون قادرة بحكم إعفائهم من الضرائب ، وهذا حتى لو بقيت مستقيمة في سلوكها ، على احتجان الثروات أكثر ما كان باستطاعة اهل البلاد . بيد أن اللاعقوبة التي كانت تتمتع بها تحت غطاء قضائها القنصلي سيدفعها ، في سعيها إلى الاغتناء السريع ، إلى القيام بما لا يعد ولا يحصى من الخروقات والانتهاكات القانونية على حساب السكان . مما زاد الطين بلة تلك الخروقات الأخرى التي كان يمارسها المغاربة من سمسرة الأوروبيين وخطائهم الذين نذروا أنفسهم لخدمة مآرب الأجانب . ذلك أن هؤلاء المغاربة ، أو المحميين بلغة العصر ، كانوا يتمتعون بحكم وضعيتهم بامتيازات الأجنبي ، ويحتفظون في الوقت نفسه ، بوصفهم مغاربة ، ببعض الحقوق التي كان المهاجر مايزال محروما منها : نذكر منها حق الملكية العقارية ، وحق التجول في مجموع البلاد . وبالتالي فإن التحام "الحامي" و "المحمي" أفضى إلى تخويلهما معا جميع الحقوق التي

يتمتع بها المواطن العادي ، لكن من دون التزامهما بما عليه حتما من واجبات . بحيث إن هذه الجالية الأوربية المشبوهة في أمرها والتي كانت تزداد عددا باستمرار وتتضخم "بمحميين" منقادين لها كل الانقياد ويحمون بنورهم أقاربهم وأصدقاءهم وشركاءهم ، ستشكل ، وقد شكلت بالفعل ، سرطانا ينفخ جسم الأمة دون أن يكون للسلطان أو موظفيه أو قضائه أية وسيلة لاستئصال شأفته .

في أقل من عشرين سنة أصبح الداء من الخطورة بمكان إلى حد أن السلطان توجه الى الدول الأوربية مستجديا مساعدتها . وقد استجابت هذه بالفعل لالتماسه ؛ وفي المؤتمر الذي عقدته بمديريد تفضلت حقا في تقريرها النهائي في شهر يوليوز 1880 ، بتوجيه توصية إلى قناصلها بعدم تسليم بطاقات الحماية إلا باعتدال وفي نطاق الشروط بيد أن هذه التوصية الصورية لن تعمل على تحسين مجرى الأمور كما ستبين ذلك الأحداث . على العكس فإن الحماية لم تكن قد استشرت حتى ذلك الحين إلا كنتيجة غير منتظرة لاتفاقيات تم تأويلها بشكل تعسفي . فإذا بها الآن تكتسي صبغة المشروعية بعد أن تم إدراجها في معاهدة خاصة ، فتحوط بذلك من عسف إلى حق مكتسب لا يجوز مسه . وما نحن نرى الدول العظمى تنتزع مقابل هذه الترضية المزعومة حق الملكية العقارية لصالح مواطنيها المقيمين بالمغرب ، ذلك الحق الذي كانوا ما يزالون محرومين منه . والحالة أن هذا التنازل كان حقيقيا وبإلغ الخطورة . فباعتبار أن الأجنبي لم يكن مسؤولا من الناحية القضائية أمام قانون البلاد ، فإن الأرض التي يستحوذ عليها كانت تصبح هي الأخرى في مأمن من هذا القانون ، متحوطة بذلك إلى أرض أجنبية داخل المغرب . ذلك ما جناه المغرب من وراء لجوئه إلى الدول العظمى التي أظهر مؤتمرها وهو يختتم أشغاله أنها هي التي أصبحت من فوق السلطان تقرر وتشرع في البلاد .

على هذا النحو كانت القضية المغربية مطروحة . وهذا يعني أن المغرب كان محكوما عليه بالوقوع تحت السيطرة الأوربية دون أن يعرف بعد من ستكون الدولة المستفيدة . ففرنسا المتواجدة بالجزائر كانت ترى أن من حقها الترامي فيما وراء الحدود الغربية موسعة بذلك ممتلكاتها . بينما كانت انجلترا المهيمنة على أسواق المغرب ترى هي الأخرى أن من حقها أن تبقى سيدة المضيق بالاستقرار قبالة جبل طارق . أما بخصوص اسبانيا ، المتعللة بحصنها سبتة ومليلية ، فكانت متمسكة بحق الجوار وبال حقوق التاريخية الموروثة عن إيزابيل . أخيرا فقد كانت ألمانيا المحرومة من المستعمرات ترى أن من حقها الحصول على تعويضات .

بالطبع فقد احتدمت بين الشركاء منافسة حادة . لكن أن نقول ، كما هو متداول ،

إن تنافسها أنقذ مؤقتا انهيار البناء المتداعي ، فذاك معناه أننا نتجاهل إن لم نكن نخفي هذه الحقيقة ، وهي أن كل دولة من الدول المتنافسة كانت هي نفسها بمثابة معول تهديم . إذ الحقيقة أنها بدلا من أن تعمل على تقادي ضربات الدول الأخرى ، كانت تبذل ما في وسعها لتضرب قبل غيرها وبكل قوة . بحيث إن تاريخ المغرب في نهاية القرن الماضي إنما هو سلسلة من الإهانات من قبل الفرنسيين والانجليز والاسبان والألمان ، إما بشكل منفرد ، أو بتآمر الجميع . لقد كانت التهديدات والإنذارات وتوجيه المراكب المسلحة تقود حتما إلى أداء غرامات وتعويضات مزعومة كانت تفرغ الخزينة أو تؤدي ، وهو ما ليس بالأحسن ، إلى تنازلات ترابية .

بالإضافة إلى هذه الانتهاكات الدورية ، كان المغرب يعاني فيما بين ذلك من تلك المعضلة المتأصلة التي شكلت بنية الحياة اليومية ، ونعني بها معضلة المحميين التي لم تفتأ تستفحل منذ مؤتمر مدريد . فقد وصل الأمر بالمحمي ، وهو الشخص الذي لا يجوز مسه ، والذي نال كل الضمانات القانونية ، الى حد أنه أصبح ينتصب حائلا بين السلطة وبين هذا أو ذاك من الرعايا الذين يظلمهم بحمايته . يمكن أن نذكر المثال التالي : في عام 1894 كانت قبيلة مديونة وحدها تضم أكثر من 260 من سماسرة الأوربيين أو خلطائهم يحمون بدورهم ضد سلطة بلادهم 1606 خيمة تأوي كل منها عائلة بكاملها (6) . لم يعد أي واحد من هؤلاء يؤدي ضريبة أو يقوم بالخدمة العسكرية . كما أن المدينين منهم لم يعوبوا يسددون ما عليهم من ديون . في حين أن آخرين وضعوا رسوم ديون مزورة تولى القنصل الذي يحميهم مهمة تسويتها من طرف السلطان نفسه . ناهيك بأن الكثيرين منهم تحولوا الى نهابين . وكان أكثرهم جرأة من قطاع الطرق . كان كل هذا يتم على حساب السكان الآخرين ويجري على مرأى ومسمع من موظفي السلطان الذين باتوا في الأخير عرضة للازدراء من طرف الضحايا والمجرمين على حد سواء (7) .

لنصف الى أنه كان يوجد بجانب المحميين العاديين محميون آخرون من علية القوم : من ضباط و أعيان بل وحتى من وزراء في المدة الأخيرة ، ناهيك بزعماء الزوايا الذين نعلم أنهم كانوا يلعبون في المغرب دور الوسطاء لسلطة العاهل سواء في الأقاليم أو بين مختلف الفئات الاجتماعية . كان هؤلاء الموقرون قادرين أكثر من أي كان ، بالتحاقهم بخدمة الأجنبي ، على أن يحدثوا رأسا هزات عنيفة في كيان الأمة . يكفي أن نذكر مثال شريف وزان الذي عبد الطريق في توات أمام الفرنسيين و أثار لصالحهم العصيان وسط قبائل الريف (8) . أو مثال شيخ تامصلحت الذي حرص على ثورة الرحمانة الكبرى ، والذي تبين عندما حاول المخزن اعتقاله أنه مستظل بحماية الانجليز (9) .

* * *

ها هي ذي العوامل التي ينبغي أن نرجع إليها جنود الفوضى . وعلى عكس المؤرخين ، فإن الشعب كان غير مخطئ في اعتبارها مصدر الداء (10) . من هنا ذلك الشعور الجامح الذي اعتراه ضد المحميين وسادتهم الأوربيين ، ذلك الشعور الذي أوله الكثيرون بكرهية الأجنبي أو بالتعصب الديني ، بينما هو في الواقع مجرد رد فعل مشروع . وبالطبع ، فقد كانت الأنظار متجهة إلى السلطان ، المعول عليه عادة بأن يقوم برد الفعل . لكن السلطان وجميع الرجال المتبصرين ، كما كانوا يفضلون نعت أنفسهم ، لم يعدوا يؤمنون بإمكانية الصمود أمام إرادة النولة العظمى . وقد كتب الناصري عام 1886 : " فكيف يحسن في الرأي المسارعة إلى عقد الحرب مع أجناس الفرنج ، وما مثلنا ومثلهم الا كمثل طائرین أحدهما ذو جناحين يطير بهما حيث شاء ، و الآخر مقصوصهما واقع على الأرض لا يستطيع طيرانا ولا يهتدى اليه سبيلا ، فهل ترى لهذا المقصوص الجناحين الذي هو لحم على وضم أن يحارب ذلك الذي يطير حيث شاء " (11) . للأسف ، فإن يد العامة كانت تمتد أحيانا تحت تأثير الغضب إلى شخص أو متاع الأوربيين . على أن ذلك لم يكن يحدث الا لعدم تبصرها بعواقب الأمور . إذ أن هذه التهجئات لم تكن سوى الفرصة لعمليات قمع تترك البلاد كل مرة في حالة يرثى لها من الهوان والفقر والضعف . وهل بدأت على نحو آخر الحرب المفجعة مع اسبانيا عام 1860 ؟ لذلك فإن أشد ما كان يخيف المخزن هو هذه الفورة الشعبية التي يعمل ما في وسعه لتلافي وقوعها ، ثم يقوم بقمعها عند اندلاعها بمنتهى الشدة لتلطيف غضب الدول العظمى . على أن الشعب كان حينئذ يردد الزئير في صدره متهما السلطان بالتخلي عن رعاياه والانحياز ضدهم إلى جانب الأجانب . وبقدر ما كانت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ ، بقدر ما كان استياؤه يتحول بسهولة إلى فورة عارمة . فقد كان استيراد السلع الأوربية ينزل الخراب بالصناع ، وتصدير الحبوب يؤدي إلى ندرتها في الأسواق ، و افلاس النولة يدفع إلى مزيد من الضرائب . فقد كان المال ينقص وقيمة العملة تتدهور في نفس الوقت (12) . ساهمت هذه الظروف في ارساء أرضية متينة للتوتر و في اندلاع العصيان في هذه الجهة أو تلك . وكان العاهل يبذل قصارى جهده و يستنزف كل موارده لاستئصال شأفة هذا العصيان أكثر مما كان يفعل في مقاومة المطامع الأجنبية (13) .

تلك كانت الحالة خلال الاحدى والعشرين سنة من حكم المولى الحسن . ومع أن الأوربيين رأوا فيه آخر السلاطين الكبار في مغرب الامس ، فإنه ترك للسلطان الشاب عبد العزيز عام 1894 عرشا متداعيا . فبغية المحافظة على النظام بقمع رعاياه الذين

كانوا مستائين قبل كل شيء من الغزو المسيحي ، أفضى به الأمر الى عزل السلطة . وهكذا فقد كان شيخ الثورة جاثما . لكن علينا أن نفهم جيدا أنها كانت تستهدف ، فيما وراء السلطة العاجزة ، الدخلاء الأوربيين . في ظل مثل هذه الظروف ، كانت الزوايا بالأمس هي التي تتولى استنفار الجماهير وتترشح عليهم قيادات جديدة . أما الآن ، وإذا كان نفوذ هذه الزوايا ما يزال كبيرا ، فإن زعماء صاروا مجرد عملاء لانجلترا وفرنسا . لذلك فقد كانوا يبذلون ما في وسعهم لتضليل سبل الكفاح ، ويلعبون دور الأتنية التي يجري فيها العصيان الشعبي الذي يحرضون عليه قصد توجيهه فقط ضد المخزن ليقوم هذا الأخير نلقائيا وقد أمسك رعاياه أنفسهم بخناقته يطلب النجدة الأوربية . أما إذا كانت الغلبة للشعور الوطني ، فإنهم ينتصبون أبطالاً مزيفين للقضية الوطنية ، كما هو الشأن بالنسبة للص الريسوني والمغامر بوجمارة .

بيد أن ضغط الأخطار تلاحق بوتائر قوية . ومن بين جميع المنافسين المتنازعين ظهر أن الفرنسيين ، الأحسن وضعاً ، هم أيضاً الأكثر عزيمة على السير حتى النهاية مهما كلفهم الثمن . منذئذ لم تعد سياسة المنافسين الآخرين تتوخى سوى استدراجهم لنيل نصيبهم من غنيمتهم المتوقعة ، أو الموافقة على منحهم تعويضات في مستوى الطموحات التي تخلوا عنها . ففي أبريل 1904 أطلقت بريطانيا العظمى يدهم في المغرب مقابل حصولها على المثل في مصر ، لكن مع تعهدهم أيضاً بالتخلي عن الشاطئ المقابل لجبل طارق . إثباتاً لذلك كان عليهم في نفس السنة أن يعدوا الاسبان بالتخلي لهم عندما يحين الوقت عن مجموع شمال البلاد . إلا أن ألمانيا وقد تم تهميشها في هذه المعاهدات كشرت عن أنيابها . ومن ثم نزل امبراطورها غليوم الثاني بطنجة ليعلن أمام الملأ عن عزمه على الوقوف ضد المشاريع الفرنسية . والحال أن مؤتمر الدول العظمى الذي قادت إليه هذه المبادرة لم يعمل ، رغم بعض التحفظات ، سوى على تكريس قرار الهيمنة الوشيكة على المغرب لكل من الفرنسيين والاسبان ، بل وأكثر من ذلك عمل على إرساء دعائمها .

إن الرأي العام المغربي القلق من جراء الاتفاقيات السابقة بين الفرنسيين والاسبان والانجليز ، مع أنها لم تكن معروفة بعد بشكل واضح ، اهتمت مشاعره هذه المرة اهتزازاً كبيراً للمؤامرة التي حيكت من الخارج والقاضية بمشروع إخضاعه البلاد للسيطرة الأجنبية وتمزيق وحدتها الترابية . لا ريب أنه أنحى باللائمة على السلطان لموافقته واعتبره فاقدا الأهلية في الحكم . مع ذلك فقد ظل الخطر الماثل أمام عينيه هو القادم من الخارج . وبشكل أدق من اسبانيا ، ومن فرنسا على الخصوص . نعم فرنسا

التي تتسرب في الشرق بين وجدة وفكيك ، والتي احتلت توات ، والتي كانت تزحف في الجنوب عبر الأقاليم الصحراوية . فكان أن انتفض الشعب انتفاضة عارمة جرفت بنصائح السلطان الداعية إلى التزام الاعتدال وبمحاولات التضييل التي قام بها رؤساء الزوايا . وقد ثارت ثأثرته في مناسبتين على الأوروبيين ، خاصة الفرنسيين ، مما خلق الفرصة أمام فرنسا لتثبيت أقدامها في طرفي البلاد ، في وجدة والدار البيضاء . لكن ذلك كان مؤشرا على بداية مرحلة شعبية من النضال جرت وفق الأنماط التقليدية ، حيث عاينت تأسيس زاوية جديدة على يد الكتاني وظهور مطالب بالعرش ، هو عبد الحفيظ ، ليقوم برشق الفتق الذي أهمله المتربع عليه وقتذاك . على أن عبد الحفيظ إذا كان قد استفاد من التأييد الشعبي على أوسع نطاق ، فإنه لم يبايع بايعاز من الكتاني إلا بشرط التعهد بصيانة استقلال البلاد واسترجاع المناطق المقتسبة .

بيد أن عبد الحفيظ الذي جسد في شخصه أمالا عظيمة ما لبث أن تنكر لالتزاماته الواحد بعد الآخر ، غير متورع حتى عن تعريض الكتاني الذي أملاها للهلاك جلدا بالسياط . ومن ثم انحطت منزلته لدى الشعب من ذلك البطل الذي تقمص شخصيته في البداية إلى "سلطان الفرنسيين" . وبالفعل فقد استتجد بالفرنسيين لتخليصه بعد أن حوصر بفاس من طرف القبائل الثائرة . فكان أن تخلص من شعبه لكن ليصبح سجيناً بيد محرريه . وبذلك ألقى نفسه مضطرا في مارس 1912 إلى التوقيع على المعاهدة التي أبقت جالسا على العرش ، لكن ليعطي فقط مظهرا من المشروعية للسلطة المطلقة التي استولت عليها فرنسا في البلاد .

ذلك ما اصطلاح على تسميته بـ " الحماية " .

كانت هذه الخدعة محبوكة بذكاء . ذلك أن السيطرة الفرنسية أحدثت صدمة عنيفة في شعور المغاربة إلى حد أنه كان من المتوقع أن تجابه بارادة متصلبة من المقاومة . لكن باعتبار الوظيفة التحفيزية التي كان يقوم بها السلطان ، فإنه كان يبدو من الصعب بونه أن يجد الشعب سبيلا إلى توحيد صفوفه .

كان يبدو من الصعب لكن ربما من غير المستحيل . وعلى كل حال فقد ظلت المسألة مطروحة لمعرفة هل كان بالإمكان بدون السلطان وحتى ضده ، أن تتجمع الطاقات المشتتة وتتجسد ، وهل كانت المقاومة التي يتعين على أية حال توقعها ستظل جزئية " متفرقة ، أم أنها ستكتسح تدريجيا مجموع البلاد . جاء الجواب في الحين من الجنوب مع الثورة التي تزعمها الهبة هناك (14) .

* * *

كان السي أحمد الهيبة يتمتع في العصر بشهرة ملحوظة يدين بها لذكرى والده الذائع الصيت ماء العينين ، الذي كان الفرنسيون يعرفونه لكونه هو الذي أوجع المقاومة ضدهم في الصحراء . لم يكن ماء العينين رجل حرب . فقد كانت عائلته المقيمة منذ تاريخ بعيد في بلدة شنجيط بقلب الصحراء ، في موريطانيا الحالية ، منصرفة ولدا عن أب الى ميادين التقوى والوعظ وتعليم المعارف التي كانت وقتئذ تؤهل صاحبها لمرتبة العالم . يصعب علينا اليوم أن نتصور مدى النفوذ الذي كانت تمارسه مثل هذه الشخصيات في بيئة اجتماعية لا يطرأ فيها طارئ من دون استشارتهم . وكانت السلطة الدينية تتحول تلقائيا الى سلطة سياسية . وبهذا فان ماء العينين الذي كان تلاميذه في جميع أنحاء الصحراء يعدون بالآلاف ، نال حظوة كبيرة لدى السلاطين منذ عهد مولاي عبد الرحمن ، في حدود منتصف القرن الماضي . انه العهد الذي كان فيه مولاي الحسن يعمل جادا على حماية شواطئه الصحراوية من الاسبان والانجليز . وقد وجد ضالته في ماء العينين ليكون واسطته في تحذير السكان . في العهد التالي ، كان الوزير الشهير بأحماد وأعيان آخرون يرون فيه قطبهم الروحي . وكانت الحكومة برمتها عند مجيئه الى مراکش تخرج بمعية الشعب لاستقباله . بعد سنوات ، وحينما شرع الفرنسيون في زحفهم في اتجاه فاس انطلاقا من السينغال والسودان ، كان ماء العينين هو الذي تصدى لمقاومتهم بفضل الأسلحة والاعانات التي تلقاها من السلطان . فصارت حينئذ بذكره الركبان في المغرب قاطبة . وتوفي مكرما معززا بسوس حيث كان قد تراجع بعد ضياع الصحراء .

حدث ذلك في نهاية عام 1910 عندما كانت الحاجة ماسة اليه ، نظرا لأن الغزو الفرنسي كان قد بدأ وقتذاك . فكان أن احتجب قبل الأوان على الرغم من أنه توفي طاعنا في السن . الا أن الأنظار استدارت حينئذ الى ولده المفضل الذي اختاره أتباعه ليقوم مقامه جريا على العادة . وبذلك أصبح الشاب الشيخ أحمد الهيبة وهو في الثالثة و الثلاثين من عمره محاطا بنفس التبجيل الذي كان يتمتع به والده الطاعن ، ووجد نفسه مقلدا بمسؤوليات لم يكن قد تمرس بعد ليكون أهلا لها .

في منتصف 1911 كانت سوس في حالة غليان بعد أن زحف الفرنسيون حتى الى فاس . وأصبح حينئذ اسم الهيبة يجري على كل لسان . في السنة التالية ، بعد بضعة أشهر من التوقيع على المعاهدة التي وضعت حدا لاستقلال البلاد ، انعقد مؤتمر يضم قبائل منطقة سوس ، تقرر فيه أن تسند الزعامة للهيبة في حالة الانتفاضة المسلحة ضد الغزاة . وبعد شهر آخر ، وبينما كان عبد الحفيظ يرفض ، بعد توقيعه عقد

الحماية ، أن يلعب دور "سلطان الفرنسيين" ، حدث بتزنيث عند صلاة الجمعة أن تدخلت بعض الشخصيات لطالب بأن يضاف لاسم الهيبة لقب "أمير المؤمنين" . ذلك ما حدث بالفعل ، وانتشر الخبر مثل نثار البارود . بينما هرع مندوبو القبائل لأداء قسم الولاء.

ويرى البعض (15) أن الألمان ربما كانوا وراء صعود الهيبة عن طريق ما قاموا به من تحريض وذلك في المرحلة الأخيرة من منافستهم لفرنسا . تلك المنافسة التي لم تنته الا مع اتفاقية 4 نوفمبر 1911 . ذلك أمر غير مستبعد . الا أن التأيد الكثيف و التلقائي الذي حظي به الهيبة يظل مع ذلك وليد شعور حقيقي وجد عميق لدى الجماهير . لقد كان الانضمام تحت رايته من الشمولية و الحتمية الى حد أن باشا تارودانت لم يجد مندوحة عن ايفاد ابنه اليه مع أنه كان يمثل في الاقليم عبد الحفيظ ، السلطان الرسمي.

بعد أن جند الهيبة الوحدات العسكرية وعين أفراد حكومته ، قرر احتلال مراكش عاصمة الجنوب لاتخاذها مقرا لسلطته . فكان خروجه عبارة عن مسيرة مظفرة أكثر منه حملة ، من البداية الى النهاية . فقد كان الجميع حريصا على ألا تفوته فرصة المشاركة فيها من علماء وأهل فن و رجال دين . بحيث أن موكبه الصاخب و المزيج من عناصر شتى كان يتضخم باستمرار من مرحلة لأخرى . وفي خضم ذلك نسيت القبائل خصوماتها بعد أن التأم شملها بفضل ايمانها بالهيبة . فقد كان يقال أولا انه سيقوم بطرد الأعداء خارج البلاد ، ويقال أيضا انه سستم الاطاحة بالقواد في عهده . وكأنا بالناس وقد انقضت الغشاوة عن عيونهم وانحلت عقدة ألسنتهم ، بحيث لا تراهم الا وهم يدممون بالشتائم ضد الكندافي و المتوكي و الكلاوي و العيادي ، هؤلاء القواد الكبار الذين كانوا منذ عشرين أو ثلاثين سنة سيفا مسلطا على الرقاب في كل الجنوب المغربي . وفيما كان الموكب يشق طريقه اذا به يصل بالذات الى أراضي المتوكي بمر امتنان . فهل سيقوم بقطع الطريق عليه ؟ ذلك ما كان منتظرا منه منطقيا . الا انه لم يكتف بافساح المجال فحسب ، بل وضع أيضا نفسه تحت أمر الهيبة ، منذهلا من التنام شمل القبائل بهذا الشكل العجيب وغير المألوف ، و متخوفا في الوقت نفسه من أن يجرفه السيل . حينئذ نزل الموكب الى مدينة مراكش التي كانت في حالة هيجان . و بالطبع فقد تظاهر الباشا منو بعزمه على الدفاع عنها . الا أنه عندما دنا من حراسه ، كما روى ذلك بنفسه فيما بعد ، سمع رجاله يصرخون متعجبين : "أيظن الباشا أننا سنساعده ضد اخواننا أهل سوس الذين يدافعون عن البلاد . والله لن نحارب ضدهم " (16) . وفي الأخير خرج منو في موكب فخم متبوعا بكبار القواد لاستقبال السلطان الجديد الذي اختاره الشعب ، ألا و هو الهيبة .

بأدائها قسم الولاء ، كانت جميع قبائل سوس و بعدها مدينة مراكش قد وضعت مصيرها بين يدي الهيبة ، الذي امتلك وحده منذئذ ناصية الحكم المطلق . لقد كانت هذه هي التولية التقليدية المعروفة في المغرب ، ولم يسبق للبلاد أن عرفت صيغة أخرى باستثناء السابقة الفاشلة المتعلقة ببيعة عبد الحفيظ . لكن هل سيكون الرجل في مستوى واجباته في أخطر أزمة كانت تمر بها البلاد ؟ لقد رأينا كيف أن اختياره لم يتم إلا تيمنا بذكرى والده الذائع الصيت . الا أنه لم يكن له من هذا الأخير لا التجربة ولا نفاذ البصيرة و لا قوة الشكيمة . كان هذا الفقيه التقى الذي ترعرع بعيدا عن السياسة ، يرى في الاختيار المفاجئ الذي وقع عليه يد الله التي ستقوده الى تحقيق مفاخر يوسف بن تاشفين . فكانت القوة الآتية من فوق تفسر وحدها ذلك النجاح . وكما قال ذات مرة ملوحا بسبخته " ان هذه هي التي ستمكثني من الذهاب حتى الى دمشق والقاهرة " (17) .

مستقويا بهذه النظرة الى الأمور، اعتصم داخل القصور الملكية بمراكش ، تلك القصور التي كانت أبوابها توحد في وجه نواب من رفوعه حتى اليها . وفي أثناء ذلك كان أصحابه الصحراويون يصلون ويجولون في المدينة بما ينشأ عن ذلك من اجحاف بمصالح الناس وأمنهم . وأخيرا فقد كان كبار القواد والأعيان السامون الموالون للمصالح الفرنسية يتفياون ظل حظوته ويعملون على مداراته بفضل ما كانوا يقدمون له من هدايا . وكانت النتيجة أن قواته القبلية سرعان ما تشتتت أيادي سبأ ، وكثيرة هي التي عادت الى مقر سكناها بعضها أنياب الخيبة . من جهتهم فان سكان مراكش ضعف حماسهم بل واتخذوا موقفا عدائيا لا هوادة فيه . أما بخصوص الفرنسيين فكانوا يتقدمون في انتظار أن تصبح الأمور ناضجة . كان يكفيهم في 7 شتبر 1912 ، ويتواطؤ بعض القواد ممن كانوا في المواجهة ، بضع ساعات من رشق المدفعية ليدكوا صرح دولة الهيبة وكأنها قصر من الرمال .

برغم خيبة أمله، فانه لما عاد الى سوس وجد القبائل ما تزال على أهبة الاستعداد لتنصوي تحت رايته ، وسيظل رزما لها تجاه الغزاة خلال سبع سنوات والى غاية وفاته . وسيخلفه أحد اخوته خلال مدة أخرى من خمس عشرة سنة .

لكن فيما كان قد شكل بمراكش شوكة بجانب الحماية ، فانه لم يعد في ملجئه بسوس سوى رجل محاصر من طرف القواد الكبار الذين تزلقوا اليه وأصبحوا من بعد يعملون في خدمة الفرنسيين . فلئن كانت مقاومته بطولية فانها كانت محتبسة ومعدودة الأيام ، كذلك التي كانت تجري في مختلف الجهات الأخرى من البلاد .

ماذا يمكن استخلاصه على أية حال من فشل الهيبة ؟ هل كان هذا الفشل كما اعتقد البعض مكتوبا بطبيعة الأمور، بالنظر الى النزعة القبلية والظفائين بين القرويين والحضرين ؟ حقا لقد كانت هذه تمثل عوامل معوقة. الا أننا رأينا أنها كانت تضطلع أمام الموجه المتدفقة من سوس الى مراكش . فاذا لم يكن المد قد وصل الى مدى أبعد ، واذا كان الجزر قد حدث بشكل جد فجائي ، فما ذلك الا لانعدام القيادة أو ، وهو الأسوأ ، لغباوة القائد . ان الهيبة الذي اختير لمؤهلات لم يكن يتحلى بها هو نفسه وانما والده ، ترك زمام أمره لقواته بدلا من أن يتولى قيادتها. وعندما تدخل في الحكم بعد أن داهنه العدو ، فانه هو الذي أصبح منذئذ يثبط كل الغرائم . على أن عدم كفاءته يتيح للمؤرخ امكانية معاينة المنحى الواضح للقوى التي دفعته . فتجاه الغزو الأجنبي ، انتاب قطاعات واسعة من السكان سواء في البادية أو المدينة شعور كان من القوة بما يكفي لتحريكها دونما حاجة الى جهاز دولة سواء لتحريك مشاعرها بادئ ذي بدء أو لتأطيرها ، بل وحاولت على الرغم منه بالعكس أن توجد جهازا جديدا . على أن الفشل كان لها بالمرصاد في هذه المحاولة بالذات لأنها لم تحسن اختيار الزعيم القادر على توجيهها في معترك الأحداث . وكان فشلا وخيم العواقب . اذ كان من شأنه أن يلغم مستقبلا الايمان بنجاح كل محاولة أخرى من نفس النوع. مع ذلك، وبرغم هزيمة الهيبة وانعدام الآفاق ، فان الشعب لم يستسلم و ظل مشتتلا حماسا كما ستظهر ذلك متابعة النضال في المناطق التي لم تكن قد احتلت بعد . لذا وعندما تنتهيا أمامه ظروف مساعدة ، وعندما سيبرز أيضا زعيم في مستواه ، فان كل شيء يمكن أن يبدأ من جديد ليقود هذه المرة الى نتائج مغايرة تماما .

ذلك ما سيحدث بالفعل بعد تسع سنوات ، وفي الطرف الآخر من البلاد ، في أعقاب سلسلة من الانقلابات . وستكون تلك هي حرب الريف .

هوامش الفصل الثاني

- 1) Jacques P. BROUSSONET : "Mémoire sur la Barbarie" publié par GAILLE in HESPERIS - TAMUDA, Vol. 11, 1961, avec une étude d'ensemble sous le titre "Le vice-consul BROUSSONET et ses "Mémoires" sur le Maroc.
- 2) Jacques CAILLE : " La mission du Capitaine BUREL au Maroc en 1808", Paris, 1953.
- 3) الفصل السابع من المعاهدة التجارية والملاحية المبرمة بين المغرب وبريطانيا العظمى في 9 سجنبر 1856 .
- 4) Germain AYACHE : "Aspects de la crise financière au Maroc après l'expédition espagnole de 1860" in Revue HISTORIQUE T. CCXX, Oct. - Déc. 1958.
- 5) الفصل الرابع والخامس والتاسع والحادي عشر والخامس عشر من المعاهدة التجارية المبرمة بين اسبانيا والمغرب في 20 نوفمبر 1861. بالنظر الى أن المعاهدة المغربية الاسبانية المبرمة عام 1861 كانت تتطابق كثيرا مع المعاهدة المبرمة مع بريطانيا العظمى قبلها بخمس سنوات ، فانه عادة ما يلاحظ انها لم تكن سوى تكرار لصالح اسبانيا. بيد أن هذا ليس صحيحا إلا جزئيا. اذ كيف يمكن التغافل عن الخطوة الكبيرة التي قطعت من وثيقة أخرى ، عن طريق اضافة فصلين الى المعاهدة الثانية : الفصل التاسع الذي انسلخ بموجبه عن سلطة العاهل حتى مرتكبي الجرائم من الاسبان المقيمين بالمغرب ، ثم الفصل الخامس عشر الذي منح لأول مرة المغاربة "المحميين" جميع الامتيازات التي منحت لمواطني الدول الأجنبية .
- 6) رسالة مولاي الحسن الى ممثله محمد الطريس في 24 شوال 1311/30 ابريل 1894. وثائق تطوان ، 26/20 .
- 7) كثيرة هي الامثلة الموجودة في الوثائق المغربية عن مثل هذه المخالفات والجرائم التي لم يكن للمخزن وسيلة امامها عدا تقديم شكوى الى الوزير الاجنبي المعنى بالأمر وهي وسيلة سخيفة طالما انها لم تكن تجدي فتيلا.
- 8) G. AYACHE : "Société rifaine et pouvoir central marocain , 1850- 1921 " , in " Revue Historique " , t . CCLIV - 2 1975 .
- 9) رسالة مولاي عبد العزيز الى محمد الطريس في 12 ذي الحجة 1316/6 يونيو 1895. وثائق تطوان ، 132/13 .
- 10) كما تشهد على ذلك رسائل الطعن المعاصرة.
- 11) احمد الناصري : " كتاب الاستقصا " ج 9 ص 190 ، طبعة الدار البيضاء ، 56 19
- 12) G. AYACHE : "Aspects de la crise financière . . .op.cit .
- 13) G. AYACHE : "Le sentiment national dans le Maroc du XIXe siècle" REVUE HISTORIQUE , fasc. 488 oct. - déc. 1968.
- 14) فيما يخص الشهادات المغربية المتعلقة بانتفاضة الهبيبة ، فقد اعتمدنا على المختار السوسي : "المسؤول" ج 4 ، وكذلك على العباس بن ابراهيم المراكشي : «الاعلام بمن حل بمراكش وأغمت من الاعلام» ج 2 ، فاس 1936 .
- 15) المختار السوسي، مصدر سبق ذكره ، ص 104 .
- 16) المصدر نفسه، ص 132 .
- 17) ادلى الهبيبة بهذا التصريح لقاضي مراكش وقتذاك ، وهو أبو شعيب الككالي . وتجدر الاشارة الى أن شهادة هذا الأخيرة المباشرة هي التي سجلها المختار السوسي. مصدر سابق ، 148 .

النجاج الفرنسي

عند الاعلان عن الحماية ، امتازت فاس بثورة خطيرة ، لا مجال هنا لسرد وقائعها . على أن عنفها ، وهذا ما يهمنا ، أظهر للملأ أنه يتعين بعد أن تم اخضاع السلطان اخضاع المغاربة بدورهم. هذا ما أكدته ثورة الهيبة التي اندلعت بعد ذلك في خضم الوجه الشعبية التي اقتادته في ركابها. ومن ثم اكتسى المشكل الاستعماري صبغته العسكرية من جديد ، وظهر حقا أنه سيحتفظ بها مدة طويلة . لتسوية هذا المشكل في جوانبه المتعددة ، لم يكن يوجد من هو أكثر تأهيلا من الرجل الذي ندب لهذه المهمة ، وهو الجنرال ليوطي. كان هذا الأخير قد تمرس بالحروب تحت راية كالييني (Gallieni) بالهند الصينية ومدغشقر ، وكان سياسيا وعسكريا على حد سواء ، ومرشحا "للحزب الاستعماري" . ومنذ 1903 وجدناه بالجزائر على تخوم المغرب ، حيث أصبح شغله الشاغل طيلة تسع سنوات العمل على غزو هذا البلد . فباستغلال الاتفاقيات التي أصبحت تتيج منذ 1901 امكانية اختراق الحدود المغربية ، وفي اطار رسم "معالم العمل" و"الاسترشاد" في المستقبل (1) ، وضع خطة تقوم على "التسلل البطئ" و "التسرب التدريجي" و " التفكيك المتستر" (2) ، تلك الخطة التي مكنته "عن طريق التوسع كبقعة زيت" (3) ، وعن طريق "انزال الضربات المتكئة وفي الأراضي التي اكتسبت في الخفاء" (4) ، من الشروع سرا... في غزو المغرب " (5) . منذ 1906 أمكنه التبجح بقوله : "أشعر بأنني أحكم قبضتي على هذا البلد...هكذا ... كنت أحلم بغزو المغرب... واثقا بأنني وخطتي" (6) . لذا ، وعندما عين مقيما عاما لفرنسا بالمغرب عام 1912 ، فإن ذلك لم يكن ليشرع في العمل وإنما ليواصل ويتوج مشروعا مألوفاً لديه ويسير سيرا مرضيا .

سيما وأنه الآن وجد أمامه ظروفًا ووسائل جديدة . ذلك أن صيغة الحماية خولته جميع السلط ولم تبق للسلطان سوى الحق أو بالأحرى الالتزام باضفاء صبغة المشروعية عليها بختم القرارات المتخذة بطابعه. فبدون أن يكون سلطانا ، فإنه أمسى سيد القصر. وهكذا أفضل . فمثله كمثل ذنب الحكاية الذي تقمص صورة الجدة بعباءتها ونظارتها، تراه وقد ظن أن في مقدوره "هضم" الفريسة وفق خطته القديمة دون عناء اللجوء الى العنف (7) .

على أنه لم تكن تعوزه لا المخالب ولا الأنياب (8) . فساعة وصوله وجد تحت قيادته

47000 رجل مدججين بأحسن الأسلحة ، وسرعان ما صار لديه منهم 80 . 000 . ذلك العدد الذي لم يكن السلطان ليحلم به بتاتا . زد على هذا أن فرنسا خصصت له حوالي 500 مليون سنويا أي ما يفوق الموارد العادية للدولة المغربية بثلاثين مرة (9) . وذلك ليؤدي رواتب الجند ويبنى من أجل تحركاتهم الطرق والمسالك ، وليمول ما أسماه بـ "خيالة سان جورج" (10) التي اشترت في المغرب ضمائر القواد والوزراء ورؤساء الزوايا ، كما اشترت في فرنسا على الجبهة الباريزية ضمائر الوزراء والصحفيين والبرلمانيين (11) .

بفضل مهارته في توظيف مختلف هذه الوسائل ، قضى ليوطي في البدء على ثورة فاس التي ألحنا إليها آنفا ، ثم خلع عبد الحفيظ الذي أصبح صعب المراس مفضلا عليه أخاه مولاى يوسف الذي بدا له لين العريكة . وباسم هذا الأخير أمكنه أخيرا تفادي الخطر الذي شكلته انتفاضة الهيبة . بعد أن أصبح منذئذ مسيطرا على أكبر مراكز البلاد ومستظلا بمظلة السلطان الذي يدين له بعرشه ، تمكن في ظرف سنتين من مد غزوه الى المغرب الأطلنكي المتكون من السهول والهضاب فيما عدا الكتل الكبرى المحيطة بها . ذلك ما أسماه بلغته "المغرب النافع" . وهو نافع بالطبع مادام يضم الأراضي الخصبة التي يمكن توزيعها على المعمرين والتي يمكن أن ينطلق منها على الفور الاستيطان الأوربي . هو نافع أيضا لأنه يتيح للفرنسيين امكانية العيش في نفس الوقت الذي يمكنهم على هواهم من تنظيم الهجومات التي يتعين شنّها ضد الجبل الثائر في الجهات والأوقات المختارة . انتهت هذه المرحلة الأخيرة في ماي 1912 باحتلال تازة التي تم فيها ربط الاتصال بالجيش الفرنسي بالجزائر . فيما قبل لم يكن الاتصال بـ "المقروبول" متيسرا الا عن طريق الدار البيضاء عبر الطريق البحري . أما الآن فقد أصبحت الامدادات تصل أيضا الى مسرح العمليات عبر الطريق القاري وبكيفية أسرع .

أما بخصوص المنطقة التي كانت ماتزال ثائرة ، فهي مجموع الجبال أي مايعادل في المغرب ثلثي البلاد . كانت القبائل المتحصنة بهذه المنطقة تستفيد بالطبع من طبيعة التضاريس للدفاع عن نفسها . الا أن عقبات جمة كانت تقوم بوجهها لوأنها حاولت ربط الاتصالات بينها لتوحيد صفوفها . أضف الى ذلك أنها لم تكن في وضع يخولها محاصرة المحتلين المرابطين في السهول وهذا على الرغم من تواجدها في منطقة هامشية . على العكس كان هؤلاء هم الذين يأخونونها من الخلف انطلاقا من الجزائر أو من الأقاليم الصحراوية . من الناحية الاقتصادية تراها أيضا في حالة تبعية للسهل . فهي مضطرة إلى النزول إليه خلال السنة لقضاء أوطارها ، ناهيك عن فصل الشتاء حيث لا مناص لها من مغادرة مرتفعاتها المكسوة بالثلوج لانتجاع أراضيها الزراعية

ومراعيا في السفح ، فتصبح في هذه الحالة على مرأى من المحتلين و في متناول مدافعهم . أخيرا فقد أصبح هؤلاء يحولون بينها و بين السلطان و هو الحكم التقليدي في خصوصياتها والرجل الذي لا غنى عنه لإذكاء جنوة حماسها من أجل عملها المشترك. انها عزلة جغرافية واقتصادية وسياسية جعلت من الصعب على القبائل إن لم نقل من المستحيل القيام بأي عملية على نطاق واسع كما كانت تستلزمها متطلبات الهجوم. هذا في الوقت الذي كانت هذه الظروف تعطي ليوطي حرية التصرف لكي لا يواجهها إلا بالناوبة وفي الوقت الذي يختاره ، ليلتقطها يوما ما كما تلتقط ثمار ناضجة .

لقد سد ليوطي منافذ الأودية بواسطة مراكز صغيرة مجهزة بالرشاشات والمدافع. وكانت هذه المراكز قادرة على الصمود أمام المصادمة الأولى في انتظار تدخل تشكيلة مكونة من ستة إلى سبعة آلاف رجل توجد مرابطة في المؤخرة ودائما على أهبة الاستعداد للتدخل . تلك هي "الفرقة المتحركة" التي كانت تضمن في جميع الأحوال التفوق في العدد والعدة . أما إذا لم يبادر العدو إلى الهجوم ، وهي القاعدة العامة ، فقد كان ليوطي بدوره يلتزم جانب السلم في انتظار الوقت المناسب . كان رؤساء مراكزه يفضون الطرف عن الجبليين الخاضعين وغير الخاضعين و هم يخترقون الخطوط في كلا الاتجاهين ، بل ويعملون على تشجيع الاتصالات والمبادلات ، ليخلقوا مناخا مناسباً لالتقاط الأخبار عن القبائل المجاورة ، عن أرضها ، ومواردها ، ووسائلها العسكرية ، وخصوصياتها الأسرية . بهذا يتعرفون هنا وهناك على زعماء الزوايا والأعيان الطموحين الذين تكفي بضعة أكياس من الدراهم المشفوعة بالوعد للتمكن من اصطناعهم . عندئذ ، كان على هؤلاء الأعيان ورؤساء الزوايا أن يستغلوا نفوذهم ليوطدوا في المنطقة سلطة أمير المؤمنين الذي لم يكن الفرنسيون والحالة هذه سوى ممثلين لسلطته الزمنية. وعليهم من أجل ذلك بذل الشقاق بين القبائل بل وداخل كل منها لإجهاض كل محاولة للمقاومة الموحدة. تلك هي المرحلة الضرورية لـ "العمل السياسي" (12) .

عندما يعطي هذا العمل المستتر ثماره ، وعندما يتم تلقيم صفوف القبيلة المزمع إخضاعها وإجهاض تحالفاتها ، عند ذلك لا غير ينتقل الفرنسيون إلى استعمال الوسائل العسكرية وهذا دون اللجوء سواء إلى الهجوم أو إلى المواجهات . يبدأ الأمر بالحصار الذي يقطع المرور بين السهل والجبل محرما القبيلة من تمويناتها الأساسية (13) . بعد ذلك تصبح اتصالات القبيلة وباقي الجبل بأسواقها الموسمية مشلولة كذلك من جراء القصف الموجه انطلاقا من المراكز أو عن طريق الطيران . أخيرا تتعرض جميع وسائل عيشها للتدمير الواحدة بعد الأخرى. فحراثوها يقتلون أمام

محراثهم . بينما تمنع المدفعية على قطعانها ارتياد المراعي و مراكز الماء. والا تكفي غارة لفرقة الفرسان لحرمانها منها بكل بساطة. فبين مرتفعاتها المكسوة بالثلوج وفوه المدافع ، كانت القبيلة التي تعاني من الجوع والعزلة والانشقاق الداخلي تستنزف مقومات عيشها وقد تستسلم ذات يوم (14) .

بيد أن استسلامها لا يضع حدا لمحنها. إذ هناك الشروط القاسية التي تفرض عليها. أولا ، عليها أن تسلم بنادقها العتيقة التي تشعر بفضلها أنها حرة وإن تقادم عهدا. ثم عليها أيضا أن تسلم الرهائن وأن تذبح للمتضرر عددا من الثيران متناسبا مع عدد الأسر. وأن تؤدي تعويضا حربيا باهضا ، وأن تقدم أخيرا الرجال المطلوبين من طرف المحتل لخدماته المتعددة في سلاح الهندسة (15) . وهما هي ذي حينئذ تتهم بالخيانة أيضا من طرف القبائل المجاورة غير الخاضعة وتصبح عرضة لأعمالها الانتقامية. بحيث لا يبقى أمامها وقد جردت من أسلحتها سوى الارتقاء بين أحضان الفرنسيين. أما في مقابل ذلك ، فإن هؤلاء يطالبونها بتقديم "عناصر موالية" تدفع لهم أجرة تصل حتى إلى ثلاثة فرنكات في اليوم للرمي بهم مسلحين ببنادق بمعنى الكلمة ضد القبائل المجاورة بمهمة نهبها وحتى الاحتفاظ بالغنائم. كيف لا يمكن أن ترحب بالعرض وكأنه ربح غير منتظر والحالة أنها تعاني من الهلع والفقر المدقع ؟ (16) بيد أن التباغض الذي يستحكم بعد ذلك بينها وبين جيرانها الأحرار ، ذلك التباغض الذي لا سبيل إلى كبح جماحه ، يدفعها إلى القيام بخطوات جديدة في خدمة الفرنسيين. فتقدم لهم ضمن خدمات أخرى الرماة الذين يستخدمون في الكتائب المعدة في المؤخرة. هنا وفي ظل عبودية مشتركة ، تجري المصالحة بطريقة أو بأخرى مع من مدوا بالأمس يد العون ضدها.

كان إخضاع القبائل بوتيرة متتالية ومتأنية يمكن ليوطي من تثبيت الركائز في الجبل هنا وهناك تبعا لمحور الأودية. وعندما تصبح الثغرات جد غائرة وعملية التضليل التي تقوم بها مصالحة قد أشاعت اللبلة والارتباك في صفوف القبيلة ، كان يقوم بمناورة مزبوجة عن طريق توجيه وحدتين أو ثلاث وحدات من "الفرق المتحركة" التي تندفع كل منها على انفراد . ثم ترتد فجأة نحو نقطة الاتصال المختارة لعزل هذه الكتلة أو تلك عن المجموع. بهذا كان يتم تقسيم الثورة إلى جيوب أو على حد قوله إلى "بقع" تهاجم بعد ذلك على حدة لإخضاعها تبعا دائما لنفس الخطة ، لكن بمزيد من السهولة والنجاح كلما تم تنفيذها.

في عام 1922 عندما دخل الغزو في السنة التاسعة من هذه المرحلة الثانية ، كان

نصف المناطق اللززم إخضاعها ما يزال خارج السيطرة الفرنسية. يتعلق الأمر في الأطلس المتوسط بجيب كبير "بقعة تازة" وكذلك بمجموع الأقاليم الواقعة جنوب الأطلس الكبير ، أي صفرو والأطلس الصغير وتافيلالت. إلا أن الفرنسيين كانوا يحكمون قبضتهم على النصف الآخر خاصة المرتفعات المحيطة مباشرة بالمغرب الأطلنطي ، كان يكفيهم التحلي بالصبر لمد سيطرتهم ذات يوم على المناطق الأخرى. في انتظار ذلك ، كانوا يحتلون ويستغلون مغربا شاسع الأطراف ، مغربا آمنا وغنيا بما يكفي لتعويضهم عن جهودهم وتطمينهم على توطنهم. وهكذا فقد انتقلت أملاك شاسعة إلى أيدي معمرهم ، واستثمرت رساميلهم في الأراضي ، والعقارات ، والنقل ، والمناجم ، والتجارة. ومن أعلى جهاز الدولة إلى أسفله عين بجانب الوزراء والقواد والباشوات مديرون أو مراقبون بيدهم الحل والعقد . زد على هذا أن التقنيين كانوا من الفرنسيين ، وأن الإدارات والمصالح المستحدثة كانت تعج بموظفين ومستخدمين فرنسيين ، وأنه برزت بجانب كل مدينة حاضرة جديدة فرنسية تتجمع فيها الوظائف الرئيسية. أما مقابل هذه الحواضر الآخذة في النمو ، فقد كان المغرب القديم ، أو بعبارة أخرى المغاربة يبدون وكأنما قدر عليهم الانزواء إن لم نقل الاختفاء ، ولو أن عاداتهم ومعتقداتهم ظلت موضع مراعاة رسمية . لقد تعزز الحضور العسكري بهيمنة اقتصادية وإدارية أكثر تغلغلا ونفاذا ، بحيث صارت كل عودة إلى الوراء من الأمور التي لا يمكن تصورها . ولأشد ما تكون الدهشة لو أن أحدهم قام يذكر بأن ثلث البلاد ما يزال رافعا راية المقاومة . ذلك أن الرأي العام كان يعتبر أن المغرب برمته قد تم غزوه أو كما يقال تمت "تهديته" . فهو بلد فرنسي مثل الجزائر بل وإكليل يتوج الامبراطورية الفرنسية . كان الصحفيون ركتاب مرموقون يشدون للرجال إليه لإذكاء جنوة قريحتهم ، فيجدون فيه صورة ناطقة بالعبقرية الفرنسية الصرفة التي تزواج بين القوة والأريحية ، كما كانوا ينوهون بسهولة الغزو الذي تم بزعمهم بدون إراقة دم أو بدونه تقريبا. ذلك أن فرنسا غزت أيضا القلوب والعقول وهو ما كان من شأنه أن يبرر ، حتى بعد فوات الأوان ، ماضي العمل الاستعماري كله بإعطائه صورته الإنسانية الحقيقية. أخيرا فقد كان ليوطي ، صانع المعجزة ، يتبوأ مركز الصدارة في هذه اللوحة المشرقة. وقد كرسست الجمهورية الفرنسية مجده بأن رفته إلى مرتبة مارشال شأنه شأن المنتصرين في الحرب العالمية العظمى . ومن ثم فقد أصبح وجها عالميا ، تستقطب مدرسته الأتباع ، ويفد إليه زوار معجبون وعسكريون سامون من إسبانيين وإيطاليين وحتى من الأنجليز لمحاولة الاطلاع على سره. وبدورهم ، وقع رجال الدولة تحت وقع سحره. فقد كتب رئيس الخارجية البريطانية السير استين

تشاميرلان مذكرة سرية بخط يده يقول فيها :

"إن نجاح المارشال ليوطي ... ليثير إعجابي ... إنه جندي وإداري عظيم .. وأحسن تكريم يمكن أن يقدمه له رجل انجليزي هو القول بأن المارشال لو كان أنجليزيا لا ندرج عمله ضمن أسمى تقاليدنا بل ولزاد من بهاء تاريخنا الحافل" (17) .
كما نرى ، فقد طُفح الكيل .

* * *

مع ذلك لن يكون بمقدورنا أن نفهم شيئا عن العاصفة التي ستهب بعد حين لو أننا أصررنا على اعتبار ليوطي نجما متألقا في سماء زرقاء انسياقا مع الأسطورة التي نسجت حوله. لا جدال في أنه كان يتحلى بالمؤهلات اللازمة ويجنح جنوحا كليا نحو تحقيق مأموريته. لا جدال أيضا في كونه قد عرف كيف يستغل على أحسن وجه الظروف التي كانت في البدء كلها في صالحه. إلا أنه أصبح شديد الاعتزاز بنفسه ، ومخطئا في تقدير أسباب وأبعاد نجاحه ، كما أنه لم يدرك في خضم اندفاعه الطبيعية الحقيقية للقوى التي كان يكبحها اعتقادا منه أنه يتفادى الاصطدام بها.

كانت توجد بفرنسا مجموعات صناعية ومالية تجني منذ عدة عقود أرباحا متزايدة من المغرب وهو ما يزال مستقلا وقتذاك. وكانت الآمال تداعب هذه الأوساط في تحقيق مزيد من الربح لو أن المغرب اندرج في حظيرة الإمبراطورية الفرنسية الإفريقية (18) . حتى يحين الوقت ، كانت ترى في مجرد غزوه صفقة مربحة لها وذلك عن طريق ما يتطلبه هذا الغزو من لوازم حربية ونقل للجنود. إنه الحافز الذي كانت تقاس قوته بأهمية المصالح الموضفة .

على الصعيد السياسي ، كانت هذه المصالح تتوفر على "حزب استعماري" (19) يعبر عنها ويخدمها . وهو ليس حزبا بمعنى الكلمة ، وإنما فريق نفوذ ، أو خلية شبه سرية ، يمارس نشاطه عن طريق زرع عملائه في مختلف الأوساط. كانت لديه علاقات سرية وصداقات نشيطة في عالم الصحافة وفي مختلف الفرق البرلمانية والمصالح الوزارية. وعن طريقها تمكن من تهييء الرأي العام والضغط على الاختيارات السياسية وزرع عملائه في المراكز الإدارية الأساسية . كان يجتهد على مستويات متعددة ليفوز بالتصويت على القروض والقوة العددية ، ثم يسهر ولو بإكراه المسؤولين على استخدامها لخدمة مصالحه على أحسن وجه . إنه هو الذي اختار ليوطي لمنصب القيادة في الجنوب الوهرائي وذلك بفضل جوناك (Jonnart) الحاكم العام للجزائر (20) . وهو الذي عينه برتبة جنرال بفضل نائب وهران أوجين اتين (E. Etienne) (21) . وهو الذي فرضه بعد ثلاث

سنوات ليتولى قيادة كتيبة وهران بفضل جونار أيضا وعلى الرغم من معارضة بيكار (Picquart) وزير الحربية (22) . كان من الطبيعي إذن أن يكون هذا القائد متقانيا في خدمة رؤسائه وسادته من جونار إلى تومسون (Thomson) مروراً بآتين (23) . على أنه كان في المقابل "يستقل" (24) أو قل "يتحصن" (25) بحماهم ويحظى بـ "دعم تام" (26) . ذلك ما جعله قادراً على أن يتحدى بل وأن يستخف بأولئك الذين لم يكونوا رؤسائه إلا بحكم الترتاب وهذا حتى على أعلى مستوى . كان يتمتع فعلاً عن تقديم البيانات المتعلقة بتوظيف غلافه المالي ، ويدفع وحداته إلى الزحف دونما حاجة إلى إذن (27) ، ويخترق الحدود محتلاً داخل المغرب مواقع يرفض فيما بعد الجلاء عنها بالرغم من الأوامر الصريحة التي يتلقاها من حكومته (28) .

بيد أن ليوطي وهو يخدم مخططات سادته يمثل هذه الأملية لم يغفل منذ اللحظة الأولى عن استقطاب من يخدم سياسته هو الآخر. فكان يدعو إلى مقر قيادته الصحفيين ورجال الأدب مكرماً وفادتهم إكرام السادات الكبار. وبجانب مظاهر الأبهة والفخفة التي يحرص على الظهور بها ساعة استقبالهم ، كان يعرف كيف يوحى لهم بمودته الصادقة. أما وقد ودعه ضيوفه منبهرين ومزهوين ، فقد كانوا يضفرون له الأكاليل في باريس التي سرعان ما أصبح يتمتع فيها بنوع من الشعبية .

هكذا نراه بعد أن كان مجرد مستخدم "للحزب الاستعماري" يرتقي إلى مصاف "السادات" قبل أن يصبح حقاً ذات يوم صورة عن الرجل القينوم . ذلكم إذن هو الشخص الذي اختير بمجرد التوقيع على الحماية لكي يمارس السيطرة الفرنسية في عين المكان . ولئن كان بإمكان "الحزب الاستعماري" والمجموعات التي يخدمها أن تكون متيقنة من أنه سيمضي قدماً في خدمتها على أوسع نطاق وعلى نفس النهج الذي سار عليه في الجزائر ، فإنه كان بإمكانه بدوره أن ينطلق قريير العين. لقد كان واثقاً بأنه سيحصل من فرنسا بفضل ضغوط أصدقائه على ما هو في حاجة إليه من مال ورجال لكي يستقل على أحسن وجه سلطات العاهل التي استأثر بها في المغرب ، وهذا دون أن يخضع لمراقبة صارمة ، أو أن يكون تحت رحمة تصويت برلماني. وعلى حين أن البرلمان الفرنسي كان ينشئ ويحل الوزارات. وجدنا ليوطي يدشن في المغرب حكماً طويلاً سيدوم ثلاث عشرة سنة .

من الحق أنه واجه وضعية خطيرة ساعة وصوله إلى بلاد تناصب المحتلين العداء بشكل لا هوادة فيه. لكن جميع وسائل النجاح كانت متوفرة لديه. فالوحدات العسكرية التي تسلم قيادتها كانت كثيرة العدد ومتدربة أحسن تدريب ، وبإمكانها في أية لحظة أن تتلقى التموينات والتعزيزات ، كما كانت تحتل جميع المدن الكبرى باستثناء مراكش .

أضف إلى هذا أنه لم يكن يوجد أمامها أي جيش ، إذ أن الوحدات التي كان السلطان يتولى أمرها وحدات متفككة وقتند وعليها مبدئيا ، وبالنظر إلى الحماية ، أن تنضوي تحت المراقبة الفرنسية. ولئن كانت هذه الوحدات قد تمردت في فاس ، فقد تطلب الأمر مجرد عملية بوليسية لإخضاعها دون حاجة إلى اللجوء إلى حملة حقيقية. أما القبائل ، فكانت قادرة وحدها على أن تشكل خصما خطرا في حالة انتفاضة شاملة. على أنه كان يلزمها إيجاد الطرق المناسبة من أجل المعركة بما تتطلبه من معرفة جيدة بالعدو ومراعاة التباين الهائل في الوسائل ، سيما وأنها مجبرة على القتال في السهل. والحالة أن الأمر كان يعكس ذلك. فبعد استنفارها على عجل ساعة الخطر ، تراها تهرع مرصوفة الصفوف لتواجه بأسلحتها العتيقة نيران العدو الوابلة . إنها معركة ليست يائسة فحسب ، بل وخاسرة ، وتكفي لكي تقود إلى الاستسلام بالنظر إلى نقص المذخرات ونقص الأرض اللازمة لضمان الانسحاب . بحيث إن درس الهزيمة لم يكن ليجدي القبائل المحتلة نفعا ، هذا فيما كان نفس المصير ينتظر القبائل المتواجدة في المؤخرة ، تلك التي لم تستخلص بعد هذا الدرس لأنها لم تخض بعد غمار المعركة. كانت هذه هي الظروف التي قام فيه جيش الاحتلال منذ خمس سنوات وقبل مجيء ليوطي بمد الغزو على نطاق واسع . وليوطي نفسه لم يبق أمامه بعد تخلصه من جيش الهيبة على هذا الشكل سوى أن يتم احتلال السهول دون أن تعترضه مقاومة تذكر. بل وكان يقال في الجانب الفرنسي ان القبائل لا تقوم عند كل مواجهة سوى بإطلاق "بارود الشرف" ما دامت نتيجة المعارك تبدو محققة .

* * *

مع ذلك لا يمكن تفسير الأمور كلها بالتفوق في ميدان التسليح . فمن أجل غزو السهول ، والمحافظة بالخصوص على الاحتلال بأقل ما يمكن من التكاليف ، استفاد ليوطي أيضا وفي المقام الأول من الحالة المرتكبة التي صارت عليها العقول بعد الإعلان عن الحماية . فمنذ مدة طويلة ، كان عجز المخزن أمام التسرب الأوربي قد تسبب في وقوع بليلة عميقة: وفي بداية القرن ، كانت أخطاء عبد العزيز من الخطورة إلى حد أن البلاد قامت أخيرا لخلعه . بيد أن أخاه عبد الحفيظ ، الذي نصبه الشعب على أمل تحرير البلاد ، وجه بنفسه الضربة القاصمة بأن فتح مصاريعها أمام الفرنسيين . في مثل هذه الحالة البالغة الخطورة ، كان تقليد البلاد وواقع أخلاقها ومجتمعها لا يسمح سوى بالالتفاف حول المطالب بالعرش الذي قويته شوكته والقادر بتزعمه النضال على خلع السلطان الذي قصر في القيام بواجباته . بيد أن فشل الهيبة قضى على هذا الأمل

الأخير. وعلى هذا ، ونظرا لعدم وجود البديل ، أصبح السلطان المتربع حينه على العرش الرمز الوحيد للأمة على الرغم من خضوعه الكلي للفرنسيين. بذلك انطرحت مشكلة عويصة على ضماثر الناس وجموعهم. فلئن كانت القلوب تخفق بضرورة الكفاح ولو بالاستغناء عن السلطان ، فإن العقول كانت تظهر لهم أن لا أمل من وراء هذا الكفاح المنشئت الذي قد يؤدي فوق ذلك إلى تفريق شمل الأمة. أين يكمن الداء الحقيقي إذن ، هل في الطاعة أم في التمرد ؟ أين يكمن الواجب ، هل في الانقسام أم في الاتحاد ؟ والحال أن مجرد طرح المسألة يؤشر على وقوع تصدع من شأن العدو أن يجد في تكريسه .

وبالفعل سرعان ما وقع الانقسام . فالتجار الذين دأبوا منذ مدة طويلة على التعامل مع أوربا ، أو الذين كان بإمكانهم التعامل مع جيش الاحتلال ، وأولئك الذين كانوا يعيشون من الدولة أو الذين لا يستطيعون الاستغناء عنها ، من أعيان وموظفين وأثرياء ، أو قل بكلمة مختصرة الحضريين ، كل هؤلاء اختاروا جانب السلطان مستسلمين بالتالي ، ولو على مضض ، إلى التعامل مع المحتلين. بهذا فإن المدن التي خضعت بأدنى التكاليف أمدت ليوطي بنقط ارتكان متينة .

أما القبائل التي تشكل الغالبية الساحقة من السكان ، فقد تملكتها بالعكس إرادة متصلبة للمقاومة ، لكن من دون أن تكون بالإجماع على الإطلاق. فمن بين شيوخ الزوايا الذين لهم سلطة دينية في المنطقة ، هناك من ظل مخلصا للسلطان قلبا وروحا. وهذا الشيخ أو ذاك ممن تم تسليحه وتمويله سرا من طرف ليوطي ، هو الذي كان عليه أن يؤسس حزبا مواليا لفرنسا في هذه المنطقة أو تلك تحت غطاء الولاء والإيمان. وعلى الرغم من أن هذا الحزب كان متكونا من بعض المأجورين ، فإنه قدم ، عن طريق الاستخبارات والتضليل والتفرقة ، خدمات ثمينة لتقليص حجم التكاليف التي كان يتطلبها الغزو. كان يتلقى مكافأته بعد ذلك ، عندما يتم إخضاع القبيلة وتجريدها من السلاح : فأعضاؤه يلجون مناصب القواد ، والشيوخ ، والمقدمين ، و"الشواش" ، مع تخويلهم سلطة استئناسية على الأنفس والممتلكات. وبما أن هؤلاء الرجال ارتقوا إلى مراكز القوة والجاه بتكرم من الفرنسيين وكانوا مهددين بدونهم بأسوأ الأعمال الانتقامية ، فقد كان من الطبيعي أن يتفانوا في خدمة المحتل. لأجل هذا الغرض وضعت تحت تصرفهم فرقة درك متكونة من "مخزنية" منقادين بدورهم ، ومسلحين كما يجب ، ويتقاضون أجرة معتبرة ، وعلى معرفة بالقبيلة وبكل الخبايا والأسرار باعتبار أنهم جنودا من عين المكان . أما رئاسة كل هذا الفريق فقد أنيطت بضابط أو مراقب

ذلك ما جعل ليوطي في غنى عن تشتيت جموعه بغية المحافظة على احتلال كل قبيلة تم غزوها. ومن ثم فقد تمكن بعد بسط ظل سيادته على السهول من أن يبقي القسم الأكبر من قواته تحت تصرفه في المؤخرة وفي بعض الجهات المختارة ، وألا يدفع حتى مشارف الجبال سوى بعدد محدود موزع على مراكز صغيرة تراقب منطقة العصيان. وفيما بين كل مركزين ، كان القواد و"المخزنية" بالإضافة إلى بعض الضباط يتكفون له بضمان الأمن .

إنها ترتيبات متقشفة ، وإليها يرجع الفضل بالخصوص في كون السنوات الأربع من الحرب الأوربية لم تخلف انعكاسات تذكر على السيطرة الفرنسية الجاري بها العمل وقتذاك في المغرب. كان من الطبيعي والحالة هذه أن يحظى ليوطي بأكبر تقدير وسط الأوساط الحاكمة. بيد أن الخطأ هو أن نعتبره صانع المعجزات كما لو أن موهبته وحدها وقد فسرت المعجزة ينبغي أن تكون قادرة على تخليدها. إن ما يعزب عن البال هو أن هذه الموهبة ، التي لا مجال لإنكارها ، كان من الممكن ألا تجدي نفعا لو لم يكن ليوطي قد وظف السلطان في لعبته ، ذلك الرجل الذي لم يكن الشعب في المغرب بدونه يعرف بعد سبيله إلى تحقيق الوحدة . فلتفقد هذه الورقة ذات يوم قيمتها الراحبة ، لنرى حينئذ كيف أن الأمور لن تصبح بالسهولة التي كانت عليها. على أن الأحداث كان من الممكن منذ البداية أن تأخذ مجرى آخر لو أن الهيئة ظهر في مستوى الثقة التي وضعت فيه وعرف كيف يقوم بواجبه كسلطان ؛ أو بكل بساطة لو أن عبد الحفيظ عند استعادته رباطة جأشه استقطب حوله إرادة المقاومة في المغرب كما سيتحقق ذلك على يد محمد الخامس. من الحق أن عبد الحفيظ الذي وقع تحت تقرير الضمير قد أبى على نفسه أن يتشبث بالنور الذي التزم الاضطلاع به ، ورفض بالتالي رفضا باتا توقيع القوانين المحضرة باسمه . إلا أن هذا الرفض ، الذي وضع في الواقع ليوطي في موقف حرج بشله الجهاز الذي تفنن في بنائه ، لم يكن سوى واجهة كاذبة. فسرعان ما ظهر كوسيلة لا لإعطاء نفس جديد للنضال وإنما لمساومة الاستقالة . بحيث ان عبد الحفيظ بعد أن أزمع الرحيل ليترك العرش شاغرا ، أعطى ليوطي على أقل تقدير المبرر الشرعي لاختيار خليفة منقاد له كل الانقياد ؛ أو قل إنه بهذه المبادرة أعطى تفويضا مطلقا وبصفة دائمة. وهكذا فإن فرصة ليوطي لا عبقريته تكمن في عدم أهلية الهيئة وتخوفات عبد الحفيظ .

من الحق أنه عرف بوجه عام كيف يستفيد أيما استفادة من الظروف التي كانت

جد مواثمة. إلا أن الأمر لا ينطوي على أية مأثرة. إذ لا يكفي حتى القول ، كما قدمنا أعلاه ، بأن الفرنسيين كانت لهم وسائل متفوقة . لقد كانوا في الواقع يحاربون لا ضد جيش منظم وإنما - في كل قبيلة - ضد مجموعات مستقلة من الفلاحين لم يروا من العالم غير محيطهم الجبلي ، ولا يملكون من سلاح غير بنادقهم العتيقة التي تشحن بببطء وتخطئ أهدافها فضلا عن أنها ذات مدى ضعيف. وفي مواجهة هذه المجموعات ، كان ليوطي يبدو وكأنه الصاعقة ، بكتائبه ، وبنادقه الفتاكة ، ورشاشاته ، ومدافعه ، التي كان ينشرها أو يركبها كما يشاء في بضع ساعات من سير شاحنة. أضف إلى ذلك استعمال الهاتف والمذيع والطائرة الشيء الذي مكنه من رؤية ومعرفة كل شيء ، والتواجد في كل مكان ، والضرب في أي وقت. هل معنى هذا أنه أحرز انتصاره بدون خسائر ؟ هيهات أن يكون الأمر كذلك. فلقد تكبد حتى بعض الهزائم المبررة في المرحلة الثانية من الغزو. كما حدث عام 1914 في الهرى ، جنوب خنيفرة ، عندما تعرض ما سمي بـ"طابور تاديبي" للاقتصاص هو نفسه على يد موحا أوحامو وقبيلته زيان ، تاركا في الميدان 600 رجل ، و33 ضابطا ، بالإضافة إلى مدافعه. أو كما حدث عام 1919 ، عندما تم إبعاد مقدمة الجيش الفرنسي إلى جنوب ورغة حيث انتظرت خمس سنوات لتأخذ ثأرها بعدما قتل منها 300 رجل وخسرت مدفيعتها. وبينما كانت انتصارات ليوطي تضخم مع الحرص على عدم الكشف عن تكاليفها ، كانت هزائمه تمرر في صمت. ذلك لم يكن متيسرا بالأمس عندما سقط جول فيرى بعد لانغ سون عام 1885 بسبب حادثة أقل خطورة. أما الآن فقد كان هناك الحزب الاستعماري كأشد ما يكون قوة ونشاطا من أي وقت مضى. هذا بالإضافة إلى معطى جديد وبإلغ الأهمية ، وهو أن الخسائر في المعارك لم تعد تسجل ، إذا ما استثنينا الضباط ، سوى في الفرقة الملونة أو المرتزقة الأجانب. أما العناصر الفرنسية فلم يكن يزج بها مطلقا في جبهة النار.

ذلك ما كان علينا توضيحه لنتتهي من رسم ما يحوم في الظل خلف ليوطي ، وليقودنا إلى تقييم أصوب للأمور.

في البدء ، كان ثمة نجاح فرنسي في غزو المغرب. لكن التفسير النهائي لهذا النجاح لا يرجع إلى موهبة رجل أو لمزايا العرق بقدر ما يرجع إلى المجموع الكلي للموارد الاقتصادية والمالية ، والنفوذ السياسي ، والوسائل العسكرية ، والقواعد الترابية ، والمخزون البشري ، تلك الإمكانيات التي كانت الأوساط الاستعمارية تتوفر عليها أكثر فأكثر. أو قل بالاختصار كل ثقل امبراطورية قائمة ، منظمة ، وفي أوج عظمتها تقريبا. هذا ما عبد الأرضية أمام ليوطي منذ مدة طويلة ، ووضع بين يديه الوسائل

لاستغلاله بما فيها الجهاز السياسي الممتاز الذي أقامته الحماية. وهذا ما كان من شأنه أن يعنه فيما بعد بمساعدة دائمة في مرحلة استعمال مختلف هذه الوسائل.

ثم إذا كان من الصواب الإقرار بهذا النجاح ، فإن ما تقدم لا يتفق بالعكس مع ما نسج حوله من ترهات. فقد قيل إن النجاح المذكور يعكس وحدة القلوب بين المستعمرين والمستعمرين. لكن متى تحققت مثل هذه الوحدة ؟ هل في خضم المعارك ، والحال أن القبيلة كانت تؤثر الموت جوعاً أو الاستشهاد أمام طلقات الرشاشات بدلاً من الاستسلام ؟ أم بعد استتباب السلم ، عندما كانت ترزح تحت النير المزدوج للأجانب وللطغاة المحليين من شيوخ وقواد معينين من طرف المحتلين ، فتسحق بالغرانات والمصادرات ، وتسلب منها أراضيها لفائدة المعمرين ؟ هاكم ما كان ينشده الشاعر في السهرات البربرية :

"القايد هورحى المطحنة ،

والفرنسيون هم الماء الحي الذي يقودها ،

"آه ، ويل لنا معشر الحبات المسكينة".

أي ساحر من شأنه أن يخلق المودة بين الحبوب المسحوقة والمجرى المائي الذي يدير الرحى ؟ .

يجيب الشاعر منشداً :

"أنا عطشان للعيش وفق الإيمان ،

عطشان لنعاجي ،

واه ، عطشان لزوجة بهائم لحرثي ،

عطشان للأيام الغابرة ، وللعيش

بدونك أيتها المطرقة المنصوبة فوق رأسي" (29) .

إن حالة الهلع واليأس التي يفصح عنها هذا النواح لهي الحالة التي كانت عليها بدرجات متفاوتة المشاعر الحقيقية للمغاربة نحو الغزاة. من هنا ذلك الموقف الحزين الذي من شأنه حقاً أن يقود إلى الاستسلام . لكن هل يمكن أن يقود إلى الرضى و تأليف القلوب ؟ فكيف حصل التبجح باعتقاد ذلك؟ ليأت يوم ينفك فيه القيد بشكل أو بآخر لنرى حينئذ كم بقي متأججا ذلك التعطش إلى الأيام الماضية. هنا كان الخلل و

التهديد الكامن الذي ستعاني منه السيطرة الفرنسية في المغرب بالرغم من نجاحها .

* * *

علينا مع ذلك الاقرار بأن هذا التهديد كان في حدود 1920 افتراضيا أكثر منه واقعا . لقد كان في حاجة لكي يتجسد الى قيام وحدة . وعلى جميع الاصعدة : داخل كل قبيلة ، بين القبائل المتجاورة ، بين الأقاليم ، بين القرويين و الحضريين . و الحال أن البلاد كانت ماتزال متفككة من جراء الغزو زد على ذلك أن ليوطي كان يدرك أكثر من غيره أن كل الجهاز الذي يخدمه سواء في فرنسا أو المغرب ، والذي يعد الشرط الأول لنجاحه ، قد يبقى مع ذلك قليل الفعالية اذا لم يتوصل بنفسه الى بذر الشقاق و ترسيخه بشكل دائم داخل صفوف الخصم . اذا كان عبقريا على الأقل في ميدان واحد ، ففي هذا الميدان بالذات . فمئذ وصوله الى الجزائر ، فيما قبل بخمس عشرة سنة ، أدرك وهو يرونو بنظره الى المغرب أن سياسة التفرقة هي الخطة التي يتعين انتهاجها . وهي خطة ناجعة وسهلة طالما أنه كان يوجد في كل جهة كما لاحظ منذ غشت 1904 : "ضفان (حزيان) سيكون أجدهما بجانبنا لأن الآخر سيكون ضدنا . وسنجد في كل جهة قواعد ارتكاز " (30) . ولم يكن من شأن التطبيق الموفق الذي قام به فورا لهذا الاكتشاف الا أن يعزز بالطبع تفاؤله .

مع ذلك اضطر بعد سنتين الى إعادة النظر في مجموع المسألة . كان ذلك عقب مؤتمر الخزيرات الذي أدى إلى موجة من الغضب في المغرب . فبالاستناد الى الاستسلام السليبي الذي كان مايزال سائدا في البلاد ، لاحظ وقتئذ بالعكس أنه يكثر الحديث " اليوم " عن قرب اندلاع فتنة " و " عن حرب مقدسة " .

ان ليوطي لم يحاول ايجاد سبب التغير الا في صحوة دينية . لهذا رأى من الواجب أن يؤخذ بعين الاعتبار العامل الديني الذي أهمله لحد الآن . كتب يقول : اذا ما دخل هذا العامل " بصفة نهائية كعلة ، واذا ما قام نوو النفوذ المتنافسون فيما بينهم لحد الآن بالاتفاق قصد تمثيل السلطة الشرعية (أي السلطان) باعتبارها حارسة الاسلام المهدد ، فانه لن يكون بوسعنا ضمان النتائج " (31) . وبالفعل كان من شأن المجازفة بنسف مجهود التفرقة الذي لا غنى عنه أن يعقد مهمته أيما تعقيد .

على أن العلاج لم يكن منعما ، وكان بالامكان استخلاصه من الداء نفسه . من الحق أن ليوطي سبق له أن احتك بهذا المشكل على نطاق محدود هو نطاق احدى القبائل الجزائرية . فخلال زيارته أولاد سيدي الشيخ منذ سنة خلت ، أمكنه أن يقدر هناك مدى

النفوذ الديني الذي كان يتمتع به شيخ القبيلة . أدرك وهو المحترف المقتدر الفائدة التي يمكن جنيها منه . أما الوسيلة فهي كما كتب مصادرتة (النفوذ) لفائدتنا ، و ابقاؤه (الشيخ) في دائرة مصالحنا عن طريق مداراة اعتزازه بالنفس في المقام الاول⁽³²⁾ . ذلك بالضبط هو الحل المسبق الذي ستمكنه الحماية ذات يوم من تطبيقه في المغرب على نطاق واسع . فبما أنه أصبح "يمسك بجميع الخيوط"⁽³³⁾ في هذا البلد، وبما أن السلطان أصبح صنيعته، فقد كان بإمكانه تحقيق كل المكاسب دون أن يتخوف بتاتا من الاحترام الذي يحظى به هذا الأخير وسط رعاياه . لعب اذن الورقة الى النهاية. ففيمما لم يعد السلطان يحتفظ سوى بسلطة اسمية ، كان ليوطي ، وهو صاحب السيادة المطلقة و ممثل فرنسا ، يحرص على الظهور علانية بمظهر الاحترام الذي يكاد يصل الى درجة الورع نحو هذا الولي وورث البيت النبوي . كان على الخاص والعام أن يعلم بأنه ليس سوى سند له ، وصديقه ، و خادمه الأول .

و يالها من فائدة تلك التي جناها من هذا التواضع المصطنع . ففي المناطق المحتلة ، أبقى تحت عصا الطاعة وبكيفة أسهل ساكنة مسلمة تجد عزاءها على الأقل في رؤية أمتها و قد بقيت متمسكة بايمانها . أما بالنسبة للقبائل التي أبت الانصياع لفرنسا ، فلم تكن تعتبر متمردة فحسب بل ومنشقة كذلك . إنها ذريعة رائعة لـ "العمل السياسي" . فعن طريق رسل أميرالمومنين ، كان ليوطي متاكدا من امكانية اشاعة البلبلية في الضمائر حتى في القبائل الأكثر اتحادا والأشد تمردا . ومن ثم انفتح المجال في كل جهة لممارسة هذا النشاط التضليلي الخفي الذي خفف بشكل ملموس من عبء تكاليف الغزو. و لقد نجحت الخطة حقا . فكان بذر الشقاق يجري في المرحلة الاولى ليعقبه الاحتلال في المرحلة الثانية . ان هذه العملية المزدوجة التي كانت تتجدد شهرا بعد شهر ، و من قبيلة لأخرى ، وتتم بشكل دقيق و منتظم كما تتم عملية الحصاد ، جعلت ليوطي يتيه زهوا . و قد وجدناه في نشوة ابتهاجه بخطته يتشوف الى محاولة تطبيقها في العالم بأسره . ألم يصل به الأمر الى حد أنه نصح جديا رئيسه بوان كاري بأن يحرض الأقاليم الروسية وكذلك الألمانية بعضها ضد البعض لجعلها تدور في مدار فرنسا على حساب إنجلترا⁽³⁴⁾ . دون أن نقف بالطبع عند مثل هذه الأحلام ، لا نرى مندوحة عن القول بأن ثمة ما كان يدعو ليوطي على الأقل في نطاق عمله الى الرضى عن نفسه . لكن هل تكفي النجاحات الأولى لتضمن نجاحا نهائيا و سهلا في المستقبل ؟ كان السؤال يفرض نفسه ولو أن أي واحد من المعاصرين لم يكن يرتاب في ذلك النجاح .

من المؤكد أن الحماية التي جعلت السلطان أسيرا بيد الفرنسيين مكنت أيضا من اغتصاب سلطته الدينية . بيد أن هذه السلطة لم تكن تعد في حد ذاتها ، رغم أهميتها ، ضربا من السحر ذات مزايا محققة و ثابتة . فقد تضعف أو تتلاشى كما نشأت . كيف لا يمكن والأمر كذلك ألا تعاني من الظروف المستجدة ؟ لقد قامت على أساس الخدمات التي قدمها السلاطين في الماضي ، بتحقيقهم الوحدة و محافظتهم على السلم الاجتماعي و صيانتهم الاستقلال . فاذا بها تصبح بيد الغزاة أداة تستغل لتحقيق مقاصد هي على النقيض من ذلك . من الحق أن حالة الاستكانة السلبية من شأنها أن تساعد على الاستمرار في هذه الوظيفة المعاكسة لطبيعة الأمور . لكن الحاجة الملحة لصيانة الاستقلال أو تجديده لابد و أن تقود في النهاية إلى اضعافها وكبحها ان لم نقل إلى تحطيمها . اذ ذلك يمكن أن تنطلق العملية التي يتعين عليها أن تقود ، بدون تلك السلطة بل وحتى ضدها ، الى الوحدة ، لكن في ظل الحرية لا العبودية . ذلك ما لم يكن يتصوره ليوطي . لقد فاتته أن مشاعر الاحترام التي يكنها الشعب لعاهلهم ما هي الا تعبير على الصعيد الديني لشعور وطني يضرب بجذوره في الأرض لا في السماء . كان يعتقد أنه سيصبح مؤمنا بما يكفي بمجرد اغتصاب نفوذ السلطان الديني ، فيتفادى بذلك خطر مواجهة " الحرب المقدسة " . أما فيما يخص خطر حرب وطنية فلم تكن تخطر بباله . اذ كيف يمكن تصور وجود وطنية مغربية ؟ و الحقيقة أن بعض الوقائع كذلك التي أدت في 1914 و 1919 الى هزائم ساحقة و التي سبق الحديث عنها ، كانت كفيلا بتنبئيه . الا أن عناده كان فوق الوقائع . وحتى بالنسبة للحوادث التي ستهز بعد حين كل الشمال ، لتتسبب فيما بعد في سقوطه ، فانه لم يفتح عينيه على الاطلاق .

الهوامش

(1) أُرِخ ليوطي في رسالة إلى القائد (Reibell) بتاريخ يناير 1905 ، أن ما يتم إنجازه في الحدود المغربية " سيكون بمثابة معالم ووسائل استرشاد حول الخطة التي يتعين نهجها في جهة أخرى من المغرب . تم نشر هذه الرسالة على يد بيير ليوطي في المراجعة التي تحمل هذا العنوان :

"Vers le Maroc. Lettres du Sud Oranais . 1903-1906", Paris, 1937, p. 165.

(2) كتب ليوطي في 3 أكتوبر 1906 رسالة إلى جونار (Jonart) وهو الحاكم العام للجزائر ، يخاطبه بقوله : " أن ما أطلبه... هو أن تدعوني...أواصل التسلسل ، والتسرب التدريجي ، والتفكيك المستمر الذي مارسه بنجاح إلى اليوم " . المصدر نفسه ، ص 300.

(3) "أن إقامة منظومة الحماية .. لن تتحقق بواسطة القوة أو الفرق العسكرية ، وإنما عن طريق بقعة زيت ، زحف يتم خطوة خطوة... وباستغلال المنافسات القائمة بين القبائل وكذلك بين رؤسائها ... إن هذا العمل الذي يقوم على بذل الشقاق لمن الأعمال التي يتعين القيام بها منذ الآن " . تعليمات ليوطي إلى القائد بيريون (Pierron) ، نهاية نوفمبر 1903 . المصدر نفسه ، ص 25-26 .

(4) " لا أؤمن إلا بالضربات التي تنزل في الخفاء وداخل الأراضي التي تصل إليها في السر " . رسالة إلى ا . م . دي فوكي (E. M. de Vogué) بتاريخ 13 يناير 1904 . المصدر نفسه . ص 35 .

(5) " ذلك التسرب المحتكم إلى المغرب الذي بدأت سرا و الذي أصبح الآن يسير قنما " . إلى نفس المرسل إليه ، بتاريخ 17 يناير 1904 . المصدر نفسه ، ص 81 .

(6) إلى نفس المرسل إليه . 31 ماي 1906 ، المصدر نفسه ، ص 280 .

(7) " ينبغي هضم المغرب لا غزوه " . رسالة إلى ماكس لكرك (Max Leclerc) بتاريخ 29 أكتوبر 1903 . المصدر نفسه . ص 32 .

(8) Les opérations militaires au Maroc, ouvrage collectif publié par le Ministère de la Guerre, Imp. nat., Paris, 1931, p. 53.

(9) تقرير ليوطي إلى وزير الحربية ماجيلو ، بتاريخ 13 غشت 1923 . كان ليوطي يتولى عام 1921 على 496 مليوناً بما فيها مساهمة مؤسسة الحماية . يوجد هذا التقرير ضمن المجموعة التي نشرها بيير ليوطي تحت عنوان :

Lyautey l'Africain, lettres et documents, Paris, 1953-1957, vol. IV, pp. 227-228

كانت مساهمة الحماية وقتئذ ما تزال ضئيلة ، ولم تتجاوز مداخلها 18 مليوناً عام 1912 : انظر :

Albert AYACHE: Le Maroc . Bilan d'une colonisation, Paris, 1956, p. 121.

(10) " إن ما نفتقر إليه هنا أكثر من أي شيء آخر هو خيالة سان جورج " . رسالة إلى أرجين أتين بتاريخ 17 فبراير 1904 . توجد هذه الرسالة في :

Vers le Maroc...p. 38.

كان ذلك عام 1904 ، وألا فإن الأمور تغيرت ابتداء من عام 1912 .

(11) رسالة موجهة من رئيس مكتب ليوطي المدني ، فنان برينيون ، إلى بيير ليوطي ابن أخ المارشال ، في 25 ماي 1925 . إن هذه الرسالة تكشف عن المناورات التي كان ليوطي يلجأ إليها في عالم الصحافة و السياسة ، وقد نشرت في العصر في جريدة "Humanité" تجد تصبها في :

Pierre SEMARD : "La guerre du Rif", Paris, 1925, pp. 125-128

(12) عبارة على المعلومات التي يعطيها ليوطي نفسه في رسائله و تقاريره ، يوجد أدب غزير حول مناهج هذا " العمل السياسي " . يمكن أن نذكر منه على سبيل المثال :

J. Du TAILLIS : Le nouveau Maroc, Paris, 1923.

Capitaine Pierre VALLERIE: La pénétration militaire au Maroc, Paris, 1934.

(13) " لقد قام مبدأ الحصار على أساس منع أي ممثل عن الألفاظ التي تتأصبتا العداء بشكل أو بآخر من التقدم إلى المنطقة الخاضعة . كما كنا نعمل فضلا عن ذلك على قطع التموينات عن الجبل من حبوب و مواد أولية " . مذكرة حررها قائد مكتب الاستخبارات بورغة في 1914 تحت عنوان :

Politique suivie depuis 1912, Archives de Rabat, (sans cote).

(14) حول أساليب هذه الحرب ، نقرأ بفائدة ما كتبه النقيب كوتار

(COUTARD) Au Maroc contre la montagne insoumise. Méthodes d'action politique, économique et militaire, dans "Revue d'Infanterie", décembre 1920, mars 1921, avril 1922.

لنثبت على الخصوص ما ورد في هذا المقطع : " أن القرى و القصبات التي تختزن فيها المحصولات و يأتى إليها الجيليون خلال أقسى أيام الشتاء ، و أن الأراضى الزراعية في المرتفعات و السفوح ، و قطعان الثيران و الأغنام و الماعز التي لا تنقطع حركة انتجاعها ، و الدواير التي تقام على التوالي في السهل و الجبل ، و البساتين ، و نقاط الماء ، و الأسواق ، إن كل ذلك يأتي من بين الأهداف التي كانت عرضة للهجوم . . . إن العمل العسكري يعطي الأولوية لغزو هذه الأهداف بدلا من المطاردة و الهزيمة " (مارس 1921 ، ص 33) .

هاكم من جهة أخرى مثالا يجسد كيفية الخطة : " بعد أن أصبح المتروكون من قبيلة زيان و واشكون و ايت اسحاق محرومين من مراعيهم بالخضفة اليمنى من وادي الربيع تلك المراعي التي منعتها عليهم منعا كليا مراكزنا بطاكا أشيان و واد أمسين و خنفيرة و زاوية ايت اسحاق ، فإنهم لم يجدوا ملأا آخر من قسوة الفصل الا يقدم جبالهم في متناول مدافعنا . و في الرقعة الضيقة التي كان بإمكانهم أن يتمركزوا فيها ، لم تكن قطعانهم التي ضيق عليها الخناق تجد الغذاء الكافي . علاوة على ذلك ، فإنها كانت تتعرض لغارات أتباعنا المساندين بوحداتنا المتفلة و الغارات الجوية التي كانت تشكل امتدادا فعلا لعمل مراكزنا . في عملية واحدة بتاريخ 13 نجنبر ، خسرت امتزانت أكثر من 3000 رأس من البهائم : كشف النقاب عن هذا المثال في "التقرير الشهري للحماية" ، بتاريخ نجنبر 1920 .

لعل أن لطوي الصلحة عن هذه المجاعة من الأمثلة ، اليكم نص بريقة 1530 الموجهة من الكولونيل كولمبات (Colombat) إلى رئيسه بالمرآكز : " المرجو أن تخبروا هل استعديتم إلى إعطاء قائدكم بالمراكز تعليمات مخالفة التي تسمح بها الفقرة الثالثة من بريقيتي 1468 بتاريخ 22 نوفمبر فيما يتعلق برشق الحرائث المتبردين بالرشاشات و المدافع و الذين يبدون في دائرة عمل المراكز . سيكون بالإمكان بعد بضعة أسابيع تعليم جميع الأراضى المبلورة . كما سيكون بالإمكان إذا ذلك أن تقدموا ببيانكم عن الكيفية التي جرى بها تنفيذ و على كل الجبهة المبلورة التعليمات الواردة في بريقيتي 1468 بتاريخ 22 نوفمبر ، و بريقيتي 1481 بتاريخ 25 نوفمبر . في عام 1925 كشفت جريدة "l'Humanité" للجمهور الفرنسي عن نص هذه البريقة .

(15) نقدم فيما يلي ، على سبيل المثال ، الشروط المفروضة على قبيلة مصباح الصنهاجية بعد خضوعها بتاريخ 23 نجنبر 1925 :

(1) "لنح ثور عن كل عشر عائلات .

(2) التمتع بتزويدنا بالعمال لتمديد الطرق و المسالك . و سيكون هؤلاء العمال مأجورين .

(3) ترميم مجاني للطرق التي خربت (القبيلة) .

(4) تسليم 35 من الرهائن الذين سيتكفلون بأمن وحدتنا في تراب صنهاجة .

(5) أداء بنديق و 300 ف لكل عائلة في ظرف شانية أيام ، و الأداء الفوري لـ 12000 ف .

(6) التمتع بتزويدنا بالاتباع من أجل العمليات اللاحقة " .

وردت هذه الشروط في :

Bulletin du Comité de l'Afrique française, "janvier 1926, pp. 52-53.

(16) انظر دراسة العقيد طاريت (TARRIT) حول "توطيف الأتباع في :

Revue de Cavalerie, t. III, mars-avril, 1923.

مما جاء في هذه الدراسة : " أن الهجوم بفتح على الدواير غير الخاضعة و الاغارة على قطعانها هو أفضل ما يطيب للاتباع . " إذ أنهم يطعمون في الحصول على الفرائد التي ستكون النتيجة الحقيقية . فإن يعمروا إلى النار بالثيران و الضان و الماعز ،

- ومن يدري بالملوكات المنهوية حتى داخل خيام غير الخاضعين . . . ان ذلك ما سيكون وأيمة خلال أيام متعددة" (ص 203) .
- (17) مذكرة مخطوطة مؤرخة في 18 جينير 1924 - 371/10584 - 408 For. Off.
- (18) المجموعات الرئيسية في بنك باريس والأراضي المنخفضة وشركة شنيدر وشركاه ، والاتحاد الباريزي. إلا أن اللائحة طويلة جدا. انظر :
- Albert AYACHE : op. cit. chap. V., et passim.
- (19) حول رجال هذا الحزب الاستعماري ، انظر :
- Henri BRUNSCHWIG : Mythes et réalités de l'impérialisme colonial français , 1871 - 1914 , Paris 1960 .
- 20) LYAUTEY : Vers le Maroc..., pp. 1 et 2 n. 3.
- (21) المصدر نفسه ، ص 9. رسالة إلى آتين بتاريخ 1903.
- (22) المصدر نفسه ، ص 347 . رسالة إلى دي فوكي بتاريخ 28 جينير 1906.
- (23) "إنني مدعم تدعيما كاملا من طرف رؤسائي جونا و آتين وترمسون". رسالة ليوطي إلى ج. سيلهول (J. Silhol) بتاريخ 27 نوفمبر 1904. المصدر نفسه ، ص 269.
- (24) "إن جونا لعظيم ، وهو يغطيني حق التغطية". رسالة إلى دي فوكي (E.M. de Vogüé) بتاريخ 16 فبراير 1904 ، المصدر نفسه ، ص 37 .
- (25) "إن صداقة آتين لتحصنتي". رسالة إلى ماكس لكرك بتاريخ 6 ماي 1906 ، المصدر نفسه ، ص 269.
- (26) الهامش 23 .
- (27) بمجرد ما تسلم قيادته ، كتب إلى أخته قائلا : "لقد قررت أمام دهشة ضباطي إنجاز خطتي دون انتظار الإذن" (11 نوفمبر 1903 ، المصدر نفسه ص 11). فيما بعد بثلاثة أيام ، كتب إلى كالييني قائلا : "على الرغم من العداء الظاهر لكبار الرؤساء العسكريين ... فإنني اتخذت موقفي ووجهت إنذاراتي ... طالبا (من حكومة جونا) :
- (1) قيادة قواتي العسكرية.
 - (2) الاستقلال الذاتي لشعبي.
 - (3) التراسل مباشرة معها.
 - (4) تفويضاً بالقروض
 - (5) حق تحريك جموعي دون انتظار الإذن.
- (المصدر نفسه ، ص 13) .
- (28) في بداية يوليوز 1902 ، احتل ليوطي رأس العين داخل التراب المغربي. وفي 30 يوليوز ، قرر مجلس الوزراء الانسحاب من رأس العين. إلا أن ليوطي رفض الامتثال. وبناء على ذلك ، وافقت الحكومة في الأخير على بقائه هناك بصفة مؤقتة. إلا أن ليوطي علق على ذلك بلهجة تهكمية وهو يكتب إلى آتين: "بذلك الكيفية المؤقتة التي ستدوم أطول منا". (رسالة 31 يوليوز 1904 ، المصدر نفسه ، ص 83) .
- (29) "أشعار المقاومة البربرية" ، جمعها :
- J. ROBICHEZ in "Les temps modernes", décembre, 1946 pp. 973-87
- (30) رسالة إلى آتين بتاريخ 6 غشت 1904 ، المصدر نفسه ، ص 87 .
- (31) رسالة إلى جونا بتاريخ 2 مارس 1906 ، المصدر نفسه ، ص 252 و 254.
- (32) رسالة إلى أخته بتاريخ 14 يوتيه 1905 ، المصدر نفسه ، ص 198.
- (33) في 2 مارس 1906 ، كتب ليوطي إلى آتين بأنه لا يتصور سياسة ترتكز على السلطان (الهم إلا بالإمساك بجميع خيراته).

هذا الشرط الضروري سيتحقق كلية. المصدر نفسه ص 255).

(34) لا نرى مندوحة عن أن نستشهد بخاتمة خطته كما عرضها على الرئيس بران كاري : 'وما هي ذي وقتئذ الحزمة المتكونة : لتركيا ستدخل في لعبتنا وعن طريقها أقاليم روسيا الجنوبية ومعها البلقان والوقاق المصغر ، وعن طريق اقاليم ألمانيا الجنوبية والرينية ستربط بنا مجموعة من القوى حول الحوض المتوسطي. ان هذا لجدير بالمراعاة عليه : رسالة فاتح مارس 1922 ، أوردها :

P. LYAUTEY : Lyautey l'Africain ..., t. IV, p. 120.

مشاكل اسبانيا

ماذا ستفعل إذن اسبانيا في مغامرتها الشاقة بالمغرب؟ صحيح أنها كانت ما تزال تحتفظ فيه ببعض المراكز الساحلية على ضفاف البحر الأبيض المتوسط : سبتة على المضيق غربا ، ومليلية شرقا على الطرف الآخر من الهلال الذي تشكله سلسلة جبال الريف ، بالإضافة إلى جُزيرتين من حيث سُلّطت المدافع على السواحل القريبة ، إحداهما في خليج الحسيمة ، والأخرى في جون بادس. بيد أن الوجود الذي حافظت عليه بشق الأنفس في هذه الحصون ، التي أصبحت مجرد معسكرات يقيم بها الجنود وعدد من الرهبان ، كان قد عفى عليه الزمان. ولئن ظل يسد على المغاربة منافذ البحر الأبيض المتوسط ، فإنه نهض دليلا أيضا على الفشل المزدوج للبرتغاليين والإسبان في مشروع غزوهما التقليدي (1) .

من الحق أن اسبانيا كانت تتوفر في بداية هذا القرن على وسائل حديثة جدا ، بينما بقي المغرب كبلد قروسطي. لكن هل كانت هذه الوسائل تستند إلى اقتصاد قوي بما يكفي لجعل من الضروري نهج سياسة توسعية؟ إن التقدم الصناعي لإقليم الباسك أو قطلونيا لم يكن يحجب الطابع الفلاحي والمتأخر لمجموع البلاد. كانت الملكية الكبيرة الخاصة ، والأساليب الزراعية العتيقة ، ومستوى الأجور المتدني ، تمارس تأثيرا له وزنه على استهلاك الجماهير وتكبح بالتالي تقدم الصناعة التي استأثرت المصالح الأجنبية ، فضلا عن ذلك ، بنصيب كبير منها. كما لم يكن يوجد لا فائض للتصدير بتسعيرات منافسة ، ولا فوائض للاستثمار خارج البلاد (2) . في المغرب على الخصوص ، نجد التجارة الإسبانية تأتي جد متأخرة عن تجارة الأنجليز والفرنسيين . ثمة حقيقة أكثر دلالة كذلك ، وهي أن هذه التجارة كانت تعاني إلى حد كبير من النقص ، حيث كانت آتمة مصدرات المغرب إلى إسبانيا تفوق مستورداته منها بحوالي ثماني مرات (3) . أي بالوجه المعكوس للعلاقات الكفيلة بأن تؤدي إلى هيمنة استعمارية. أضف إلى هذا أن اسبانيا ظهرت بعد فقدان الفلبين وكوبا عاجزة عن المحافظة حتى على بقايا امبراطوريتها ، فبالأحرى أن تنصرف إلى الغزوات . وبالتالي فقد كان أورطگا أي كاسيط (Ort́ega y Gasset) على حق عندما كتب يقول ، وهو يرى بلاده تقحم نفسها في القضية المغربية ، بأن ذلك "خطأ تاريخي" ، إذ كيف يمكن "محاولة التوسع دون التوفر على قوة توسعية" (4)

ينبغي مع ذلك أن نأخذ بعين الاعتبار أنه لم يكن بالأمر الهين التنصل من الماضي. فهزيمة كوبا كانت قد رمت اسبانيا بين برائين الأزمة . ففقدت الملكية نفوذها شأنها شأن الحزبين المحافظ والليبرالي اللذين كانت تعمل على إبقائهما في الحكم بالتناوب. وتضرر الاقتصاد من جراء التوقف المفاجئ للطلبات التي تفي بحاجيات الحرب. وأدى تنامي قوة البروليتاريا منذ ذلك الحين إلى اضطراب اجتماعي وسياسي خطر. في قطالونيا الصناعية ، التي لم تكن تحتل هيمنة قشتالة الفلاحية ، كان الشعب بدون تمييز طبقي يرغب في الاستقلال الذاتي. كذلك الحال تقريبا في بلاد الباسك. إزاء هذه المخاطر المتعددة ، لم يكن النظام المهدهد والملك في المقام الأول يريان سبيلا إلى الخلاص إلا في الجيش. غير أن الأزمة كانت ضاربة أطنابها في هذا الجيش بشكل خاص. فبعد أن اكتسب بعار الهزيمة ، احتشد ثانية في شبه الجزيرة محارلا هناك تضديد جراحه وقد زال كل مبرر لبقائه. وبعيدا أن يقوم ضباط بدون جنود وأطر تتقاضى نصف رواتبها بمساعدة النظام ، فإنهم كانوا بالعكس يجازفون بالانقلاب ضده (5) . من هنا الضرورة المحتملة لفتح ميدان عمل جديد أمامهم مع ما ينطوي عليه ذلك من أفاق الحصول على الثأر والتعويض والترقية. والحال أن المغرب القريب كان يبدو يومها مقصيا عليه بالغزو ، وكان يهيج المشاعر الوطنية والدينية داخل اسبانيا حيث كانت ذكريات الحرب على الكفار ما تزال قابضة في الأذهان. ذلك إذن هو البلد الذي رأت فيه اسبانيا إمكانية استعادة عز الجيش التليد وإعادة وحدة الصف داخل الوطن في نفس الوقت .

بيد أن العصر لم يعد عصر سسنروس (Cisneros) وإزابيل. إذ أن الميدان لم يكن خاليا لها كما في الماضي. كان الأنجليز والفرنسيون والألمان يتصارعون فيه من أجل النفوذ. واسبانيا التي لم يكن بمقدورها أن تباريهم ، لم تدخل في الاعتبار لنيل نصيبها منه إلا بفضل المنافسة الأنجليزية. فقد كانت انجلترا لا تقبل بوجه خاص أن تحتل فرنسا الضفة الجنوبية المواجهة لجبل طارق. لهذا اشترطت ، عندما اتفقت معها سنة 1904 على إطلاق حرية العمل لها في المغرب ، أن يؤول شمال البلاد إلى اسبانيا (6). كان على اسبانيا أن تقوم مقام دولة حائزة بين القوتين. هذا مكسب لها بالطبع ، إلا أنه لم يكن مشرفا ولا خاليا من المجازفات. فبعد أن اقتصر دورها على مجرد دولة حائزة ، ولمساعدة الأنجليز قبل كل شيء على الاحتفاظ في عقر دارها بقاعدتهم بجبل طارق ، وجدت نفسها أيضا أسيرة فضلهم ، وعليها بالتالي أن تبقى في هذا الوضع الفارق حتى لو اقتضت عليها مصلحتها ذات يوم بالتراجع إلى الوراء.

ما هو الثمن الذي نالته مقابل هذه التبعية؟ في الحقيقة أن فرنسا التي استأثرت بحصة الأسد ، لم تترك لأسبانيا سوى نصيب ضئيل : شريط ساحلي يزيد طوله قليلا عن مائة كيلومتر ، وعرضه 60 ، يمتد في الجهة الغربية من المحيط إلى المضيق ، وفي الجهة الشرقية حتى ملوية على مقربة من الجزائر ، مغطيا في مجموعه ما يزيد قليلا على 20 000 كم 2 ، أي حوالي 25٪ من مساحة المغرب الحالي (7) . هذه الرقعة الصغيرة التي تشغلها كلها تقريبا الكتلة الريفية ، تتكون في ثلثها من أراض جبلية بالحة (8) . أما الأراضي المنزرعة والخصبة فتقتصر على سلسلة الاكمام المروية جيدا في السفح الجنوبي ، وعلى الشريط الضيق الممتد في الساحل الأطلسي ، وبعض السهول الضيقة في السفح المشرف على البحر الأبيض المتوسط. صحيح أن ثمة في شرق السلسلة سهولا أكثر اتساعا نسبيا ، إلا أنها أحواض ينكبها الجفاف بمعدل سنة في كل سنتين. ولئن كانت هناك في الأخير آمال كبيرة معلقة على ما قد تحتزنه الأرض من ثروات معدنية (9) ، فإن ذلك لم يكن سوى تكهنات سرعان ما تبين أنها مجرد أوام. الأمر إذن لا يتعلق سوى بمنطقة قادرة لا غير على توفير غذاء القلة لساكنة أصبحت يومها جد كثيفة ، يقدر عددها ب 60 000 نسمة ، تعيش أساسا على منتوج الأرض (10). هذا ولم تكن توجد في المنطقة سوى ست مدن ، لكي لا نقول جشرات ، متجمعة كلها في الناحية الغربية لا غير ، مع العلم أن طنجة ، الأكثر أهمية والأحسن موقعا ، شكلت مع نواحيها منطقة حبيسة لا تخضع للمنطقة الإسبانية (11) . أمام مثل هذا الواقع ، كيف نأخذ مأخذ الجد وزير الدولة بريطو (Prieto) الذي رأى أن الهدية المقدمة لاسبانيا عملت دفعة واحدة على تلبية كل أماني شعبه ؟ لقد أوضح قائلا : "إنها تقدم لامبريالينا مجالا كافيا لامتناس طاقاتهم الفائضة منذ عدة سنوات ، في نفس الوقت الذي تعطي الآخرين ، أنصار الانسحاب ، وسيلة لقياس المهمة بالإمكانات التي تقدمها المتروبول ويمتطلبات النهضة الإسبانية" (12). قصارى القول إنه بفضل هذه القطعة من المغرب ستتطابق وتتلاقى معا مشاريع النون كيشوت وسانشوبنسا (Don Quichotte et Sancho Pança). وهذا ما يعني التعامي عن الوضع الإسباني الذي لم نذكر لحد الآن سوى مساوئه الأولى.

منذ أن تعاقدت اسبانيا مع فرنسا ، في نوفمبر 1912 ، لنيل نصيبها من المغرب ، فإنها وضعت نفسها في موقف لا تحسد عليه. كانت فرنسا يومها قد نالت مسبقا ، ومن السلطان نفسه ، امتياز الدولة الحامية بالنسبة لمجموع التراب المغربي. بهذا الامتياز تمكنت ، عوض السلطان ، من أن تسند لاسبانيا إدارة قطعة أرض حرصت

على تسميتها بـ "منطقة نفوذ" ، لا بمنطقة "حماية" ثانية. بقبول مثل هذه المهمة ، ومن يد فرنسا ، تكون اسبانيا قد اعترفت طوعا أو كرها بالامتياز الذي نالته شريكها ، وتقهرت هي نفسها إلى دور من الدرجة الثانية. أو لنقل ، باستعارة الصورة المستهجنة التي كانت تستعملها الصحف وقتذاك ، إنها دخلت الدار لكن بوصفها مستأجرة لفرنسا .

ليس هذا كل ما في الأمر. فبمقتضى نص المعاهدة "كانت مطالبة بأن تحافظ على الأمن في منطقة نفوذها ... وتقدم المساعدة للحكومة المغربية لتحقيق جميع الإصلاحات ... التي هي في حاجة إليها" (13) . يتعلق الأمر هنا بعبارات مطمئنة من حيث إنها تردد الصيغ التي "تعهدت" بموجبها فرنسا هي الأخرى إزاء السلطان . لكن أي وجه للمقارنة بين فرنسا التي فرضت "حمايتها" على السلطان الذي ألقى مقاليد أموره بيدها ، وبين هذه الدولة الإسبانية الضعيفة التي التزمت إزاء دولة مغربية صارت صنيعة للفرنسيين؟ بماذا يتعلق الأمر بالنسبة للدولة الثانية ، هل بامتياز. أم بالأحرى بخضوع؟ فلنكتف تشرف تعهداتها ، ألن تقع تحت ضغط شريكها الفرنسي القوي ، الذي تسلمت منه مأموريتها ، لتكون له منفذا متطوعا ولبن العريكة ؟

ولقد أدركت الخطر ، ومن أجل تفاديه ، نالت امتياز إقامة خليفة بمنطقتها ، هو بمثابة نائب ملك على قدر رقعة نفوذها الضيقة ، يتولى السلطان مهمة تقليده ، إلا أن اختياره يتم على يدها (14) . ذلك إذن هو الرجل الذي أصبحت تتجسد ، وفي شخصه لا غير ، هذه الدولة المغربية التي كانت على اسبانيا أن تمددها بالمساعدة. وهو ما من شأنه أن يمكنها ، بعزل قضيتها عن قضية الفرنسيين ، من التصرف وفق مصالحها الخاصة .

من هذه الزاوية على الأقل ، كانت الوسيلة مجدية . لكن أي سمعة بالنسبة للمغاربة ستكون لمثل هذه الصنعة ، أو قل المليك-البديل ، الذي لم يكن لينظر إليه بعين الرضا لا السلطان الشرعي ولا المغاربة الذين فرض عليهم كعلامة مزدوجة على الخضوع الأجنبي وتمزيق شمل الأمة ؟ بل ان الخضوع للفرنسيين كان يبدو أهون نظرا لتواجد السلطان في صفهم ، بحيث كان بالإمكان التسليم به عند الضرورة . أما الخضوع للاسبان فهو يعني أيضا الانفصال عن الأمة . وهذا ما لم يكن محتملا بتاتا . و فوق ذلك ، كانت فرنسا نفسها تبدو ملاذا واقيا منه .

ذلك إذن ، و منذ البداية ، هو مأزق اسبانيا : فاما أن تفوض الأمر لتقدير الفرنسيين ، وهو ما لم يكن مستساغا على الإطلاق ، وإما أن تصطدم بالرفض القاطع للمنطقة التي يتعين إخضاعها .

الحقيقة أن الاسبان لم يدركوا مطلقا المسألة على وجهها الحقيقي إذ لم يكونوا في هذا الجانب هو الآخر يؤمنون بقوة ، وحتى بوجود شعور وطني لدى المغاربة . لم يكونوا يقدرون الاختلاف الكبير الموجود بين المنطقتين ، المنطقة الفرنسية حيث كانت هذه الوطنية تمر يومها بمرحلة ارتباك وفتر من جراء الاتفاقية التي وقعها السلطان مع المحتلين ، و المنطقة الاسبانية حيث كان الأثر المزيج الذي أحدثه احتجاج السلطان و تجزئة البلاد يعمل بالعكس على انكائها . وبالتالي فقد توهمت أنها ستحصل على ما حصلت عليه فرنسا في الجنوب بممارسة نفس المناهج في الشمال .

و مروهم زكته على أي حال الانتصارات الأولى ، و لو أنها باهتة وغير ثابتة ، و التي تحققت بوسائل شبيهة بشكل غريب بتلك التي استعملها الفرنسيون . هل سبق للاسبان أن اقتدوا بليوطي وقد كان بإمكانهم مشاهدته منهمكا في نشاطه على مقربة منهم بالجزائر ، أم أنهم وجدوا من تلقاء أنفسهم حلولا لما كان ما يزال مشكلا واحداً ؟ في الحقيقة أنهم عرفوا هم أيضا منذ 1908 ، وبالتالي قبل الحماية ، الانتشار عن طريق "بقعة زيت" ، وعن طريق "تسرب بطيء" ، وعملية "تفكيك خفي" ، وذلك انطلاقا من قاعدتهم بمليلية ، وهذا على الرغم مما تكبده من هزائم فادحة سنعود إليها فيما بعد . وكما استحدث الفرنسيون لهذه الغاية " مصلحة الشؤون الأهلية " ، فإنهم استحدثوا في عين المكان " مكاتب الشؤون الأهلية " (15) التي مارست داخل القبائل الرشوة والتضليل والتجسس . وعلى غرار الفرنسيين ، فإنهم استقطبوا في عين المكان ما يضاهي فريق "الاتباع" الذين جندوهم في "الحركات" ، وما يضاهي أيضا فريق "الكوم" و"المخازنية" الذين شكلوا "شرطتهم" (policía) ، وما يضاهي أخيرا "الرماة" الذين استخدموهم في كتابتهم النظامية (regulares) . وكما فعل ليوطي ، فإنهم وضعوا في الخطوط الأمامية ، وبقدر المستطاع ، قوة قليلة العدد ليحتفظوا في المؤخرة باحتياطاتهم المتنقلة . وكما سيستخدم ليوطي "كبار القواد" لشق الطريق في الجنوب ، فإنهم عرفوا ، و من الممكن قبله ، كسب دعم الريسوني ، الباشا وقائد الشمال الكبير ، الذي مكنهم من النزول بدون عناء بميناء العرائش ، ثم من الدخول الى أصيلة ، و الذي سيقدم لهم خدمات كبيرة حتى النهاية رغم مواقفه المتقلبة ازاءهم .

فيما بعد و منذ أن تأكد في الجنوب النجاح الفرنسي ، لم يبق شك في أن مثال ليوطي هو الذي أصبح يلزم تفكير الاسبان في الشمال . اليكم كيف كان الجنرال كوميث يتخيل مهمته خلال سنوات 1912-1915 ، عندما كان يحكم بمليلية . يقول :

" أن خطتي تقوم على عدم تعميق الهوة بين المغاربة و بيننا ، و عدم المجازفة بمشاريع حربية دون أن أكون متيقنا من أننا سنحرز على النصر بدون خسائر ، نصر يتم التهديد له بواسطة النشاط السياسي الذي لا مفر منه . انني لداع مقتنع بهذه الفكرة ، و أنا على يقين من أننا بالتمسك بها و بربط الاهالي بهذه الروابط المادية و الخلقية الناجمة عن حسن المعاملة ، و بهذه العلاقات التي لا مفر من قيامها بين الجيران...سنتمكن من احتلال كل منطقة نفوذنا دون أن يكلف ذلك وطننا تضحيات كبيرة، و من الممكن حتى بدون الجهر بلفظة الحرب " (16) .

عندما عين فيها بعد مندوبا ساميا لا سبانية و رئيسا عاما ، فانه ظل مخلصا الى آخر أيامه لهذه الخطة " التي كان الفرنسيون ينجونها في منطقتهم " . في 1918 ، قتل وفاته ، كتب يقول و هو ما يزال يزاول مهامه : " بش الحرب ...التي تزرع الأرض بالحد و الكراهية ناسفة قنوات التواصل بين الحماة و المحميين . يتوجب علينا الاكتفاء بالعمليات ... اللازمة لشق الطريق أمام الرقي و الحضارة عندما لا يكون هناك سبيل غير ذلك . لأجل هذا يلزم أولا العمل السياسي المكثف الذي يكون بمثابة المخدر . و القيام بعد ذلك بالعملية الجراحية التي يجب أن تقتصر على الحد الأدنى الضروري . ثم تضميد الجرح بفتح المدارس و المستوصفات...الخ " (17) .

أما الجنرال برنكر الذي خلفه في وظيفته أزيد من أربع سنوات ، فقد كان أكثر منه وضوحا . اليكم ما أفصح عنه ساعة تسلمه مهامه :

" أقول لكم منذ الآن إنني أعتبرها بالغة الصواب تلك الخطة التي يطبقها ليوطي الذي يزحف رويدا رويدا ، غازيا بحذر لكن بحزم الاراضي التي تتكفل فرنسا بفتحها أمام الحضارة " .

بعد أن أضاف بأنه سيحاول هو نفسه ألا يستخدم الا فرقا أهلية دون استقدام و لوجندي واحد من المتروبول ، و بأنه سيسند كذلك كل الادارة للأهالي تحت مجرد رقابة عمال اسبان ، بعد ذلك وجه هذه الكلمات التي رنت و كأنها تحد :

" من قال إنه يوجد بافريقيا الشمالية ... مشكل عسكري ؟ لقد قلت أننا ان مشكل افريقيا ليس عسكريا " (18) .

كان علينا أن نورد - على طولها - أقوال هذين الرئيسين اللذين مثلا ، و لنذكر بذلك ، اسبانيا خلال الاحدى عشرة سنة الأولى من حمايتها ، لبنين ، على عكس الرأي الشائع ، تجانس وجهات النظر التي كانت توجههما مع وجهات النظر التي طبقتها

فرنسا في منطقتها. لنصف أنهما معا لم يكتفيا بالتعبير عن مقاصدهما ، بل أدخلها في حيز التنفيذ ، وكان لهما في ذلك باع طويل . لكن حدث فجأة أن خانتها موهبتها و انقلب الوضع الذي كانا يحكما السيطرة عليه بشكل غير مفهوم . لم يبق عندئذ طوعا أو كرها سوى اللجوء الى الأسلحة على الرغم من المبادئ السامية .

لو أن المشكلة اذن لم تخص سوى الاسبان أنفسهم ، لما اتخذت بالفعل صبغة عسكرية ، أو لا اتخذتها فقط بمقدار ما تمت به في الجنوب بالنسبة للفرنسيين ، مقتصرة على مجرد عمليات جراحية تحضر بعناية وتنفذ بسرعة وفق ما تخيله خورداثة . لكن اتفق أن المريضين مختلفان . فما كان أحدهما يحتمله ، كان الآخر يقاومه في النهاية . لذا ، وبالرغم من كلمات برنكر المتبجحة ، فإن الغزو لم يكن ليتم بالمشروط والمبضع . انه لن يتم الا بحد السيف .

غير أنه سيكون مشكلا عويصا . فيقدر ما كانت الظروف الجغرافية مناسبة أمام الفرنسيين من أولها الى آخرها ، بقدر ماكانت معاكسة أمام الاسبان . الأولون تمكنوا من النزول في سهول فسيحة جدا ، و انتشروا فيها كما يطيب لهم قبل أن يصلوا الى قدم الجبال في المنطقة الهامشية . ثم تسنى لهم كل الوقت الكافي للشروع في غزو الجبال باختيار الوقت و المكان ، متوفرين في كل عملية على مجموع قواهم ، مع احتمال اللجوء الى مناورات جانبية وحتى من الخلف انطلاقا من الجزائر . أما الاسبان فكانوا بالعكس يواجهون الصعاب أينما حلوا و ارتحلوا . فسليلة جبال الريف التي تدخل بالذات في اطار حدود منطقتهم وتلفها كلها تقريبا ، تبدأ في الشرق انطلاقا من الشاطئ نفسه ، على شكل مرتفعات منعزلة ، ثم تمتد قطعة واحدة نحو الغرب في كتلة ملتحمة و ارتفاع متزايد ، قبل أن ينحدر ارتفاعها لتنتهي شمالا على المضيق ، حيث تنتصب آخر سلاسلها على ازيد من 800 م . و بحكم الامتداد على 300 كلم ، وقلة وجود الفجاج التي يمكن اختراقها ، ترى القمم تقسم سفوح الشمال و الجنوب الى منطقتين مختلفتين عن بعضها . فالسفح الشمالي، و هو أشد وعورة ، يشرف على الساحل بجرف متصل تتخلله حقا في نقاط متباعدة سهول ضيقة متكونة من منافذ سيول قصيرة . الا أن هذه الاودية السحيقة لا تعدو أن تكون ردوبا لا تقضي الى أية جهة . فلم يكن بالامكان أن يغامر أي مهاجم انطلاقا منها . وبالنسبة للسفح الآخر الواقع في الجنوب ، و هو وعر بدوره ، ويضم أشكالا تضاريسية متماثلة ، فقد كان مدخله عموما لا يشكل خطرا كبيرا . الا أن ولوج هذا المدخل لم يكن ميسرا الا انطلاقا من المنطقة الآيلة للفرنسيين ، و هذا يعني أن الطريق من هذه الجهة كان أيضا مقطوعا

على الاسبان . أما الجزء الأخير المتجه غربا في نواحي المحيط ، فهو الذي كان محفوقا وحده ، على امتداد مائة كلم ، بشريط ضيق من السهول الساحلية .

من هذه الجهة على الأقل ، كان بإمكان الاسبان تثبيت أقدامهم . وهو ما قاموا به على كل حال اقتداء بالفرنسيين و قبل أن تنتهي الأجواء للتوقيع على الحماية . في يونيو 1911 ، نزلوا بحرا بمرقا العرائش ، ثم احتلوا القصر الكبير وأصيلة ، وهما المركزان الوحيدان الآخران في المنطقة . ومنذ ذلك الحين أصبحوا متواجدين بالقرب من مكان العمل على الساحل الأطلسي غربا ، وفي مواجهة الجبل . هذا ما كان عليه الأمر كذلك لكن في السفح الآخر حيث كانت سبتة في الشمال الغربي ومليبية في الشرق تشكلان سلفا بالنسبة اليهم رأس جسر على البحر الأبيض المتوسط في ثنايا القوس الذي يرسمه الريف هنالك . بيد أن هذا هو كل ما كان يتوفر عليه الاسبان من أجل مباشرة الغزو . أي حصيلة قليلة وذات أهمية لا تذكر .

لنلاحظ بدءا أن هذه القواعد الثلاث ، و كل منها في قمة رباعي أضلاع ممتد ، كانت ترغبهم من أجل ابقاء ثلاثة فيالق احتلال على تجزئة قواتهم في نفس الوقت الذي تزيد ثلاثة أضعاف من أعبائهم وحاجيات تأطيرهم . زيادة على ذلك ، فإن حكامها المحليين الذين تفصلهم مسافات بعيدة أو قمم لا يمكن اختراقها ، لم يكن بإمكانهم بتاتا ، في مناسبات جد مختلفة ، ألا يديروا حركتهم في اتجاهات متعارضة أحيانا ، و هذا على الرغم من خضوعهم للرئيس العام . من جهة أخرى كانت سبتة ومليبية قابعتين بين الجبل والبحر مما جعل من الصعب جدا القيام بالخطوات الأولى نحو الداخل . ولئن تم القيام بهذه الخطوات الأولى في مليبية ، ليجد الإسبان أنفسهم مؤقتا في السهل ، فذلك في أرض عديمة الزرع والماء ، من الأفضل أن تكون أمام جيشهم لا من ورائه . أما بالنسبة للعرائش وأصيلة على الأطلسي ، فقد كانت الأراضي الزراعية منعدمة بهما أيضا . وبما أنهما كانتا منعزلتين في آن واحد عن طنجة في الشمال وعن المنطقة الفرنسية في الجنوب ، فقد كانتا تعيشان على حياة الكفاف ولا تسدان أود المحتل من أجل حاجياته الحربية .

زد على ذلك أنه كان يتعين أن يتم الزحف انطلاقا من هذه القواعد تبعا لخط العرض . بناء على ذلك ، فإن محوره لن يلبث أن يتكسر تدريجيا ، وفي كلا السفحين ، في أودية جد متعمقة وفي الدعائم الجبلية التي يقطعها تبعا لخطوط الطول .

ليس هذا كل ما في الأمر . فعلى الرغم من أن جبال الريف وعرة بما يكفي لخلق

حواجز كبيرة أمام جيش زاحف ، وتتميز بمناخ قاس محرق في النهار وشديد البرودة في الليل لخلق كثير من المتاعب أمامه ، فإنها تختلف مع ذلك عن جبال الأطلس ، فهي أقل منها عرضة للثلوج مما يجعلها تتلاءم مع حياة الاستقرار. لذا ، وفيما كان بإمكان الفرنسيين رصد القبائل في قدم جبالها التي يطردها منها فصل الشتاء ، كان الإسبان يضطرون بالعكس إلى شد رحالهم بحثا عن عدوهم في المرتفعات أو السفوح ، في بطون الأودية وفي أية جهة يتحصن بها مهما كان الفصل .

أخيرا فقد سبق أن رأينا كيف أن الفرنسيين كانوا يتوفرون في الحصار على سلاح فتاك. والحال أن الإسبان لم يكن بإمكانهم اللجوء إليه فحسب ، بل كان السلاح يستغل ضدهم . ذلك أن القبائل التي يحاربونها ، كانت تتمون باستمرار من المنطقة الفرنسية في الجنوب. هذا في الوقت الذي كانت فيه القواعد الإسبانية تشتري القوات من القبائل.

تلك هي المعطيات الطبيعية للمشكل العسكري الذي سيصطدم به الإسبان بالرغم منهم . على أنه بالإضافة إلى هذه المعطيات الطبيعية ، هناك معطيات أخرى لم تكن مواتية أيضا . بعضها يتمثل في الطبيعة الخاصة المتعلقة بالخصم الذي واجهه الإسبان في هذه المناطق. وسنعود بعيدا إلى الحديث عنها . والبعض الآخر يكمن في حالة الغزاة أنفسهم. وينبغي أن نخصها ببضع كلمات .

* * *

لن نتوقف طويلا عند الانتقادات التي انهالوا بها على الجندي الإسباني وقادته. فنحن نعرف بالتجربة أنه يمكن دائما تفسير انهيار جيش ، مهما بلغت هيئته ، بما لا يعد ويحصى من الأمثلة الدالة بعد انقضاء الأمر على عدم الكفاءة والجبن والفساد. ذلك ما تلذذ الفرنسيون - منافسو الإسبان - بترديده غداة كارثة أنوال ، وما رددته الإسبان أنفسهم بعد فترة مؤلة من الذهول ، عندما تعين عليهم إمالة اللثام عن المسؤولين عن هذه الكارثة. لكن علينا حينئذ أن نفسر لماذا تمكن نفس الجنود مع قادتهم من تحقيق الانتصارات حتى ذلك الحين ، رغم الشواشب المتعذر إصلاحها التي ينتبها لها والتي لا ينقطع مفعولها ، ثم لماذا تمكنوا بعد أن استردوا رباطة الجأش من تحقيق بعض الانتصارات الأخرى. لو أمعنا النظر ، فإن هذا النوع من التعليل يقتصر على مجرد إثبات الهزيمة دون إبراز مكان الضعف حيث لا تحدث القطيعة إلا إذا تداخلت من الخارج قوة غير منتظرة لتكريسها. لا شيء يسمح بالقول ان القوات الإسبانية لم تكن

لتبلو البلاء الحسن في حرب أخرى ، خاصة بصدد حرب وطنية. إلا أنها كانت تواجه في المغرب غزوا استعماريًا. فهل كانت مستعدة للمغامرة بالرغم من كل ماضيها البعيد ؟ إنه السؤال الذي يتعين طرحه .

سبق أن رأينا كيف تمتع ليوطي دائما في ميدان عمله بحرية التصرف إزاء السلطة والمؤسسات العسكرية. بيد أننا سنرى على وجه أحسن فيما بعد كيف كان يتصور ويقود سياسته ويضع مخططاته مع مساعديه وحدهم ، دون أن يخبر باريس إلا بعد إدخالها في حيز التنفيذ ولم يعد بالإمكان إيقافه . كيف كان كذلك يختار بنفسه مساعديه العسكريين والمدنيين الذين تودد إليهم بفضل الترتيبات السريعة لجعل منهم فريقا متجانسا ، مخلصا ، كله رهن اشارته . كيف كان في الأخير يعمل على اظهار انتصاراته حريصا كل الحرص بالعكس على اخفاء هزائمه . قلنا ان هذا كان ممكنا لوجود حزب استعماري في فرنسا " يحميه ويدعمه كل الدعم ويمسك على "الجبهة البارزية" بقطاعات حساسة في الوزارات والبرلمان والرأي العام . كان ذلك ممكنا أيضا لأن فرنسا كانت تتوفر على جيشها الاستعماري ، جيش شمال افريقيا والسينغال والمرتقة الأجانب ، ذلك الجيش الذي يغني عن الزج بالعناصر الوطنية .

فمن هذا المنظور المزيج ، كيف كانت الحالة في اسبانية ؟ صحيح أنه كانت توجد بها منذ نهاية القرن الماضي عصابة افريقية تقوم بحملاتها بغية دفع اسبانية الى نهج سياسة نشيطة في المغرب . لكن ما هي بالضبط هذه السياسة ؟ من الصعب جدا معرفتها . لأن الذين تحدثوا عنها لم يكونوا هم أنفسهم يعرفونها على وجهها الحقيقي . يتعلق الأمر بمفكرين مكتئبين ألهم انحطاط بلادهم وأصروا ، كل من جهته ، على أن يجنوا في المغرب مفتاح الإصلاح . و لكن كانت أحلامهم تستجيب أيما استجابة لأغراض النظام ، فأنها تبقى مع ذلك مجرد أحلام (19) ، ولا يمكن مقارنتها بالأفكار الواضحة والعزيمة الراسخة والحركة المنظمة المسجلة في فرنسا . بعبارة أخرى ، لا وجه للشبه ، فيما عدا المقاصد ، بين الاستعماريين الفرنسيين وأقارعة اسبانية .

ان ما كان يفتقر اليه هؤلاء الآخرون هو القاعدة التي كان من الممكن أن يوفرها لهم وجود مصالح اقتصادية قوية . فالمجموعات المالية والصناعية الكبرى الاسبانية كانت ما تزال في حاجة الى تركيز قواها داخل حدود بلادها ، على عكس مثيلتها في فرنسا . وبالتالي فإنها لم تكن ناضجة من أجل سياسة استعمارية . وبدون أن تقف مباشرة وبلامدارة حول هذه المسألة ضد نظام هي في حاجة اليه ، فإنها رأت مع ذلك ، وعلى مضض ، المراهنة على مشروع يمتص الملايين التي يمكن توظيفها بشكل أفضل

في الخارج . بمرور الوقت ، أفضى بها الأمر الى الانفتاح علانية على المشروع . الا أن المغرب لم يكن يهتمها منذ البداية . فالمصالح التي حاولت زرعها به خلال الغزو ، في التجارة و المناجم و أراضي الاستعمار ، ظلت عموما من عمل مقاولين متوسطين . أما الرأسمالية الكبيرة فقد بقيت عموما غائبة . هذا ما يفسر في الحقيقة ضعف الحركة الافريقية الاسبانية وعقمها الكلي (20) .

بالاستناد الى المثال الفرنسي ، نتبين ما يمكن أن تتمخض عنه كل العوامل مجتمعة من نتائج بالنسبة لكلا القطبين اللذين كانت القضية المغربية تقع بينهما : المغرب و اسبانيا .

في المغرب نفسه و على الميدان ، لم يكن الحاكمون يجدون من يحميهم و يستخلصهم نوعا ما من الوصاية المزدوجة التي كانت تمارسها عليهم القيادة العامة العليا و الحكومة . عندما لم يكن ليوطي سوى منفذ متواضع الشأن ، وجدناه يجرؤ منذ ذلك الحين على الوقوف علانية ضد الأوامر التي يتلقاها . فشتان بينه وبين مارينا (Marina) القائد العام للجيش و الحاكم بمليية ، الذي كان عليه أن يلتمس الاذن بواسطة برقيته موجهة الى مدريد - و يرى طلبه يقابل بالرفض - ليحتل على أبواب المدينة مرتقعا يحميه من هجوم الخصم . بعيد ذلك ، و عند قيامه بصد الهجوم ، لأنه حدث بالفعل ، نراه يضطر الى تجديد برقيته ليحصل أخيرا على الاذن بالاحتفاظ على الأقل بالارض المحتلة (21) . ماذا يمكن انتظاره من استراتيجية معوقة الى هذا الحد ؟ و الحال أن الامور كان لا بد لها من أن تجري على هذا المنوال . اذ حتى الجنرال سلفستري ، الذي اعتُقد أن له ورقة بيضاء بوضفه صديق الملك ، حتى هو نفسه لم يتسن له القيام بكل ما كان يود القيام به . كانت مخططاته تعرض على الموافقة الأولية التي يتعين أن يعطيها نوريا الرئيس العام في الطرف الآخر من المنقطة ، ثم الحكومة فيما وراء المضيق (22) . بهذه الوتيرة تكون الفريسة قد احتجبت عن الانظار عندما يصل أخيرا الاذن برشقها بالنار .

لنلاحظ فضلا عن ذلك أن ثمة أسبابا أخرى وراء هذه الحالة . لأنه اذا لم يكن يوجد باسبانية حزب استعماري ، فقد كان من المفروض أن يتولى الملك و الحكومة تزويد ممثليهما بكل الوسائل اللازمة ، و قبل كل شيء بحرية العمل ، باعتبار أن المبادرة جاءت منهما . و اذا أحجما عن ذلك ، فلأنهما بدورهما لم يكونا طليقي الأيدي . و هذا ما يدعونا الى القيام باطلالة أخرى على الحالة في اسبانية حيث ينبغي أن نضع في

الحسبان عنصرين هامين ومعاندين معا ، كل منهما بطريقته ، و نعني بهما الجيش و الرأي العام .

قد يبدو من المفارقات في هذا الشأن أن يطرح موقف الجيش مشاكل ، لأن الاسبان ما اتجهوا الى المغرب الا من أجل ارضائه على وجه الخصوص . الا أن هذا المغرب لم يكن في نهاية الأمر سوى متنفس محدود جدا بالنسبة لهذا الجيش الذي ظل معظم ضباطه مقيمين باسبانيا . و تجاه " المغاربة " الذين كانوا يترقون بوتيرة أسرع ، يجعلون الناس يلهجون بأسمائهم ، ساد عداء مكشوف وسط عسكري شبه الجزيرة الذين لم يكن بإمكانهم التباهي على الأقل ، مثل جيرانهم الفرنسيين ، بما يضاهي " خط الفوج الرهيب " . لذلك فقد ركزوا أنظارهم على سبته و مليلية : الضباط أولا ، ليتأكدوا من عدم توجه أي واحد اليهما الا بدوره ، ومن عدم اطالة مقامه بهما لينجح في مهمته على حساب أقرانه . ثم القيادة العامة ثانيا ، لتذكر و تبرر موجودها عن طريق ممارسة امتيازاتها في هذا الميدان الوحيد الذي تبقى أمامها . و هو موقف أفضى الى معارضة مكشوفة من قبل هيئات الضباط التي راحت تنتقد القادة المتطوعين في المغامرة و تقترح مرشحها الخاصين كبديل لهم . أما فيها يخص القيادة العامة ، فكانت تحصى المخططات ، و تكثر من عمليات التفتيش ، و تدقق في التعيينات و الانتقالات . هذا في الوقت الذي لم يكن باستطاعة لا الملك و لا الحكومة استخلاص القادة المعينين من قبلهما من هذا الأخطبوط دون تأليب جيش شبه الجزيرة . و الحال أنهما كانا في أس الحاجة الى هذا الجيش لتلافي ربود فعل الرأي العام . وهنا نصطدم مرة أخرى بعدم مبالاة أوساط الأعمال القوية بنقص الخلايا الاستعمارية النشيطة .

لقد كانت المعارضة في فرنسا تنتقد سياسة الحكومة في المغرب . الا أن صوتها كان يذهب سدى وسط الحملة التي كان الحزب الاستعماري يشنها في المواجهة . و كان الرأي العام يهتم و يضطرم حماسا ، و ينقسم حول العلمنة ، الا أنه يعود فيتلحم للدفاع عن راية فرنسا في افريقيا . على العكس من ذلك ، كان الاشتراكيون و الفوضويون و النقيبويون في اسبانيا لا ينفخون في رمد ، بل كانت هناك أصوات تتجاوب مع أصواتهم ، و يرتفع بعضها أحيانا من جهات بعيدة تقع خارج العالم العمالي ، و غالبا ما تكون أكثر وضوحا و حزما . مثال ذلك صوت الجمهوريين الذين طالبوا ، على غرار مارسيلينو دومنكو (Marcelino Domingo) ب"تخل تام عن العمل بإفريقيا" (23) ، أو أكثر من ذلك صوت بريمو دي رفرأ (Primo de Rivera) ، الرئيس العام و حاكم المنطقة العسكري، الذي ظهر علانية بمظهر البطل لما سمّاه ب "سياسة

التخلي المجيدة⁽²⁴⁾. هل يمكن تصور لحظة واحدة مثل هذا في فرنسا؟

إلى هذا ينبغي أن نضيف عنصرا آخر ذا أهمية قصوى ، وهو افتقار اسبانيا إلى جيش استعماري. من الحق أنها حاولت تأسيس نوع من هذا الجيش على النمط الفرنسي ، مؤملة أن تشكل هذه الوحدات ذات يوم ، وبالنسبة إليها أيضا ، القسم الأعظم من قواتها بالمغرب . وهكذا فقد جدت ابتداء من 1911 في تجنيد المرتزقة من القبائل لتكون منهم "الوحدات النظامية" (regulares) و "الشرطة" (policía) ، أو القوات الإضافية من أجل "الحركات"⁽²⁵⁾. إلا أن المشروع جاء متأخرا ، ولم يكن لينمو نموا حقيقيا في رقعة ضيقة كالمنطقة الإسبانية التي لم تكن اسبانيا قد احتلت منها بعد سوى جزء صغير. ولئن كان دعاة التجنيد يغامرون في الجنوب بمنطقة الفرنسيين ، فقد كانوا يصدون بكل صرامة⁽²⁶⁾ . في حدود 1919 ، تمكن الإسبان أخيرا من إنشاء بعض الوحدات مستغلين حالة البؤس الناجمة عن توالي سلسلة من السنوات العجاف. إلا أن هذه الوحدات لن تشكل إطلاقا سوى جزء صغير من مجموع قواتهم ، بحيث انها لم تكن كافية لتوفر بشكل محسوس دم الجندي الإسباني (27) . سيما وأنه لم يكن موثوقا بها على الإطلاق. لقد كان الفرنسيون لا يستخدمون في الغالب "أتباعهم" المجندين محليا إلا من أجل التغطية وغارات النهب. بينما كانت الفرق الأجنبية ، الجزائرية أو السنيغالية ، هي التي يقدمونها أمامهم في المعارك الحقيقية. أما بخصوص أهل البلاد ، فقد استخدموهم في إقليم الراين. ذلك ما لم يكن متيسرا للإسبان. فقد كانوا مرغمين على استخدام وحداتهم النظامية (regulares) في نفس المكان الذي تم تجنيدها فيه. ولم يكن بوسعهم استخدام أية فرقة أخرى. لذا فإن اللقب المشترك الذي أطلق على "الفرق الأهلية" كان يخفي اختلافا كبيرا بينهم وبين منافسيهم الفرنسيين. ف "أهالي" السينغال أو الجزائر كانوا أجنب تائهين في الأرض المغربية. ورغم أن فرقتهم كانت تحت رئاسة قادة فرنسيين ، فقد كانت بمثابة واحة بالنسبة إليهم في المغرب. بحيث إنهم كانوا مرغمين في هذا البلد المعادي لهم على أن يؤلفوا كلا لا يتجزأ مع أطهرهم. بيد أن الأهلي الريفي كان أهليا بالفعل في الريف ، ويوجد نفسه في عقر داره أينما حل وارتحل. لقد كان ملزما بأداء المهمة المنوطة به طالما أنه كان مؤطرا تأطيرا تاما بالفرق الإسبانية ، ونقول بفرق وليس بالروساء فحسب . لكن بمجرد ما تتراخى القبضه عليه ، فما عليه إلا أن يرجع أدراجة ، ليختلط بذويه الموجودين قبالة .

وهذا ما كان فضلا عن ذلك يحصر دوره في مجرد خدمة إضافية. ومن ثم مست الحاجة إلى أن يؤسسوا أيضا فرقة أجنبية على غرار ما فعل الفرنسيون. بيد أنها لم

تستقطب ، كضرب من سخرية القدر ، سوى المرتزقة الإسبان. بحيث ان هذه الفرقة التي عرفت بـ "الترسيو" (Tercio) والتي شكلت في الحقيقة "فرقة وطنية" منذ تاريخ تأسيسها سنة 1920 ، لم تسهم هي الأخرى إلا بقدر متواضع في حل المشكل (28). وهكذا فقد بقي جيش الاحتلال متكونا في مجمله من مجندين إسبان. وكانت كل خسارة في صفوفه تقابل بالامتعاوض داخل البلاد . نعم تقابل بالامتعاوض ولا تهضم لأن أصواتا مسموعة في مختلف الأوساط كانت تجاهر بأن لا طائل من ورائها. لذا، فمن الملفت للنظر أن نلاحظ كم كان الرأي العام في اسبانيا يبدو أكثر عنادا بكثير منه في فرنسا بصدد المسألة المغربية ، مع أن الطبقة العاملة الإسبانية كانت ما تزال تقل بكثير عن مثيلتها الفرنسية من حيث العدد والوحدة والتنظيم ، وكذلك من حيث التمثيل داخل البرلمان. ففيما لم يسجل بفرنسا خلال هذه الفترة أي احتجاج - اللهم إلا في البرلمان - ضد الاحتلال الذي انطلق آنذاك ، شهدت اسبانيا في يوليوز 1909 انتفاضة رهيبة خلفت أحداثا دامية في مدينة برشلونة طيلة أسبوع بمجرد ما بلغها نذير المعارك. منذ ذلك الحين ، حرص القادة على تتبع العمليات بالمغرب خطوة خطوة ، يلاحقهم ، حسب تعبير الرئيس كنانخاس (Canalejas) (29) ، هذا الرعب من "الاضطرابات العنيفة لرأي عام أسيئت قيادته". فكان أن توافقوا على العجة لكن بدون تكسير البيض. وبالتالي فقد كان الرئيس العام ومساعدوه في مسرح العمليات يجدون أنفسهم مشلولين قبل اتخاذ أدنى مبادرة ليسوا متاكدين - وأنى لهم ذلك - من أنها ستتم بدون خسائر.

جيش مغرر به في حرب استعمارية ، بدون الدعم اللازم وحتى بدون التأييد الصريح من قبل طبقات الأمة التي كان من المحتمل أن يعينها الغزو ، تلك هي باختصار ملامح الورطة التي سيتخبط فيها القادة العسكريون الإسبان لإنجاز مهمة تكتنفها علوة على ذلك مصاعب طبيعية. هذا بالإضافة إلى أنهم كانوا يجهلون أن منافسيهم الفرنسيين سيحبكون لهم الدسائس على نطاق واسع. وهو ما سنعود إلى الحديث عنه في إبانه . كما لم يكن بإمكانهم أيضا التكهّن بتلك الطاقة التي سيكون خصمهم قادرا على بذلها ؛ خصم كانوا يعتقدون مع ذلك أنهم يعرفونه حق المعرفة . أو لم يكونوا محتكين به منذ قرون؟ لكن من كان وقتئذ لا يختلط عليه الأمر بصدد هؤلاء السكان المقيمين بشمال المغرب؟ ومن كان بالخصوص ، في المقام الأول من هؤلاء السكان ، يعرف حقا الريف والريفيين؟

الهوامش

(1) انظر :

2) Germain AYACHE : "Belounech et le destin de Ceuta entre le Maroc et l'Espagne", in HESPERIS-TAMUDA", VOL. XIII, 1927.

(2) في أبريل 1912 ، كتبت دورية "La Correspondancia de España" تقول : "إن نظام الباب المفتوح [بالمغرب] لن يساعدنا على بيع منتوجاتنا التي هي أقل جودة من المنتجات الأجنبية وأكثر غلاء منها". (نقلا عن نشرة لجنة إفريقيا الفرنسية ، 1912 ، ص 137). حول حالة إسبانيا في بداية القرن ، انظر :

Gerald BRENNAN : "Le labyrinthe espagnol, Origines sociales et politiques de la guerre civile", édition française, traduite de l'anglais, Ruedo IBERICO, Paris, 1962.

انظر كذلك اللوحة التي قدمها :

Manuel TUNON DE LARA : "La España del siglo XX", Paris, 1966.

(3) في عام 1904 ، ارتفعت قيمة المبادلات الإسبانية المغربية ، المقدرة بالفرنك ، إلى 7 173 725 ، منها فقط 795825 ف كقيمة لصادرات الإسبانية مقابل 6 377 000 ف للواردات. في نفس السنة بلغت قيمة المبادلات الإنجليزية المغربية المقدرة بالفرنك كذلك ، 43 445 575 ، بينما قدرت قيمة المبادلات الفرنسية المغربية بـ 45 000 000 ، أي ما يفوق عموما ، وفي كلا الحالتين ، المبادلات الإسبانية المغربية بست مرات. مع العلم أن قيمة الصادرات المغربية في هاتين الحالتين كانت تقل في كثير من المناسبات عن قيمة الواردات . فقد ارتفعت قيمة الصادرات الإنجليزية إلى 31 161 550 مقابل 12 184 025 من الواردات . أي ما نسبته 5 مقابل 2 لفائدة إنجلترا. أما بخصوص فرنسا ، وإذا ما اكتفينا بالمبادلات التي كانت تجريها مع المغرب أما عن الطريق البحري ، وإما عن طريق الجزائر (إذ كانت توجد طرق أخرى لا تتوفر بصدها على أرقام مفصلة) ، فإن الأرقام هي التالية : صادرات فرنسا : 19 676 425 ، وصادرات المغرب : 9 766 650 ، أي بنسبة 2 مقابل واحد تقريبا لفائدة فرنسا. (وردت هذه الأرقام في :

André LEBLANC : "La politique européenne au Maroc", thèse , 1906 .

(4) في مقال ظهر في "EL IMPARCIAL" سنة 1912. وقد ردد بدون تحديد للتاريخ في "نشرة لجنة إفريقيا الفرنسية"، 1912 ، ص 137.

(5) في سنة 1900 كان الجيش الإسباني يضم 24 705 ضابطا بينما كان مجموع قوته العددية يصل إلى 80 000 رجل. أي ما يقل عن أربعة رجال لكل ضابط. هذا وقد كان كثير من الضباط العاطلين يزاولون مهنة ثانية. اقتبسنا هذه الأرقام من :

Stanley G. PAYNE : "Los militares y la política en la España contemporánea", édition espagnole, traduite de l'anglais, Ruedo IBERICO, Paris 1968, p. 76.

الفصل السادس من هذا الكتاب مخصص بكامله لحالة الجيش الإسباني في بداية القرن.

(6) "إن الحكومتين اللتين تعملان بروحي من مواطنهما الودية الصداقة نحو إسبانيا ، تأخذان باعتبار خاص المصالح التي يؤولها لها موقعها الجغرافي وأملاكها الترابية على الساحل المغربي من البحر الأبيض المتوسط ، تلك المصالح التي ستتأثر بصدها فرنسا مع الحكومة الإسبانية. وسيتم تبليغ حكومة صاحبة الجلالة البريطانية بالاتفاقية التي قد يمكن التوصل إليها في هذا الموضوع بين فرنسا وإسبانيا". الفصل الثامن من اتفاقية 8 أبريل 1904 الفرنسية الإنجليزية.

(7) وهذا دون أن نأخذ بعين الاعتبار أقاليمها الصحراوية. وقد كانت مساحة المنطقة الإسبانية بالشمال تصل بالضبط إلى

Rafael DE RODA JIMENEZ dans "Economía marroquí : los problemas del campo", Imprenta Imperio, Ceuta 1941, p. 9.

(8) 1 300 000 هكتار من الأراضي الجبلية وغير المزروعة. وعلى مجموع 681 100 هـ التي كانت تعتبر صالحة للزراعة ، هناك فقط 351 000 هـ صالحة للزراعات العشبية. أما الباقي فلم يكن يصلح إلا للمغارس (أقيمت هذه الأرقام بعد الفز من طرف المصلحة الزراعية للمنطقة ، وقد أوردتها :

R. DE RODA JIMENEZ, op. cit., pp. 9 et 10).

(9) في عددها الأول الصادر في يناير 1924 تحت عنوان :

"Revista de Tropas coloniales" كانت دورية "Es necesario llegar a Alhucemas"

ما تزال تردد أن جميع الرحالة ، بدءا من رولاند فرجوس (R. Fréjus) في القرن السابع عشر إلى أوغست موليراس في نهاية القرن التاسع عشر ، نوهوا بالثروة المنجمية المدهشة في منطقة الحسيمة بقلب الريف. وقد أشارت الدورية إلى أن الأمر يتعلق ، بالنسبة لموليراس ، بترانسفال جديد لا أقل ولا أكثر.

(10) إحصاء مؤقت أجراه الإسبان عام 1927. أوردته :

Le général GODED dans "Marruecos : las etapas de la pacificación", Madrid, Barcelona, Buenos-Aires, 1932.

(11) نعدنا هنا عدم الإشارة إلى الأقاليم الصحراوية التي منحت أيضا لإسبانيا جنوب المغرب لأنها لا تهمنا هنا من جهة ، لأن إسبانيا ، من جهة أخرى ، لم تفكر في احتلالها مطلقا قبل 1934. هذا وسيتم تعيين الحدود بين المنطقتين الفرنسية والإسبانية ، أولا ، بمقتضى الاتفاقية الإسبانية في 27 نوفمبر 1912 ، ثم سيقع ضبطها وتثبيتها في 25 يوليوز 1925 و 10 يوليوز 1926.

(12) أوردته :

Carlos HERNÁNDEZ HERRERA et Tomás GARCÍA FIGUERAS dans "Acción de España en Marruecos", Madrid, 1929, t. I, p. 197.

نبا لم يرد بيان مخالف ، فإن النصوص الإسبانية المعتمدة هي من ترجمة المؤلف.

(13) إن حكومة الجمهورية الفرنسية تقر بأنه من حق إسبانيا في منطقة النفوذ الإسبانية أن تسهر على أمن المنطقة المذكورة ، وتقدم مساعدتها للحكومة المغربية من أجل إدخال جميع الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والمالية والقضائية والعسكرية التي هي في حاجة إليها. الفصل الأول من اتفاقية 27 نوفمبر 1912 بين فرنسا وإسبانيا.

(14) نستم إدارة هذه المناطق ، وتحت رقابة مندوب سام إسباني ، من طرف خليفة يختاره السلطان ضمن لائحة بمرشحين تقدمها الحكومة الإسبانية. وإن يتم استبقاء وظائف الخليفة أو سحبها من المرشح إلا بموافقة الحكومة الإسبانية. وسيقلد الخليفة بتفويض عام من السلطان ، وسيؤازر بمقتضاء الحقوق التي يختص بها هذا الأخير - وسيكتسي هذا التفويض صيغة دائمة. الفصل الأول من الاتفاقية المذكورة سابقا .

(15) بدأت مكاتب الشئون الأهلية تزاوُل مهامها عام 1908. حول أنشطة هذه المكاتب ، راجع الشهادة التي أدلى بها العقيد رلمي (Riquelme) - الذي كان رئيسا لها لمدة طويلة - أمام لجنة التحقيق المعنية من طرف الكورتس لتقصي المسؤوليات المتلفة بهزيمة أنزال، هذا وقد أدرجت هذه الشهادة من جديد ضمن محاضر جلسات اللجنة المذكورة والمنشورة تحت عنوان :

De Anual a la República. El expediente Picasso. Las responsabilidades de la actuación española en Marruecos, Javier Morata, Madrid, 1931.

(16) أوردته :

HERNÁNDEZ HERRERA y GARCÍA FIGUERAS op. cit., t. I, p. 227.

(17) المصدر نفسه ، ص 249 .

Simon LEVY dans "La guerre du Rif sous le règne d'Alphonse XIII", mémoire pour le diplôme d'Etudes Supérieures, Institut d'Etudes Hispaniques de la Faculté de Paris, mars 1958.

(20) في 7 غشت ، لاحظ قنصل فرنسا العام ببرشلونة ، في برقية إلى وزارة الخارجية الفرنسية بباريس ، ما يلي :

"إن نشاط إسبانيا بالمغرب لا يحظى إلا بشعبية جد محدودة في قطالونيا. فرجال الأعمال بمنطقتي يرون أنه يقاد بطريقة سيئة ، وأن النفقات التي يتسبب فيها لا تتناسب مع الفوائد التي يمكن جنيها منه. بينما يرى الوطنيون أسفهم ما يكلف منطقتهم من تضحيات في الرجال والمال وذلك من أجل أهداف لا تهمهم. ولا يوجد سوى التجار المرتبطين بعلاقات تجارية بالمنطقة الإسبانية وحزب الاتحاد الملكي الذين لا يتقاسمون حول هذه النقطة مشاعر القطلانيين الآخرين ، الأولون بدافع المصلحة ، والآخر لأسباب وطنية. في المدة الأخيرة ، تبني المجلس العام (Diputación) لإقليم خيرون (Gerona) اقتراحا يطالب بإدانة الاتفاقية الدولية "التي أسندت للدولة مهمة دائمة بإفريقيا" والتخلي "نوع تمييز ولا تحديد...عما يسمى بالملكيات الإسبانية بشمال أفريقيا". في 6 شتبر التالي ، أشار القنصل العام في برقية جديدة إلى أن المجلس العام لطاراكون (Tarragone) في 20 غشت ، ومجلس صباديل في 27 ، كانا قد أعربا - بعد مجلس خيرون - عن أمتية تتادى بالتخلي عن المنطقة الإسبانية بالمغرب". (وثائق الشؤون الخارجية ، باريس ، المغرب 2-11 الوثيقة 90)

في أبريل 1924 ، وجه المجلس الأعلى للغرف التجارية بإسبانيا ، وقد كان مشغولا بانخفاض قيمة البسيطة ، اقتراحا إلى مجلس الإدارة ، نقرا فيه :

"أن تجد الفزنية مطلقا في المغرب ما يقابل النفقات التي فرضت عليها [لنلاحظ استعمال الماخسي في الجملة الموصولة ، فهو يدل بما يكفي من الوضوح على أن شجب السياسة الإسبانية في المغرب لا يقتصر فقط على مرحلتها الراهنة]. بيد أنه إذا كان علينا البقاء في المغرب إلى ما لا نهاية لتشريف التعهدات الدولية أو لسبب آخر مهم ، فسيكون من اللازم ومن المستعجل تعديل الوضع القائم ولا يكلف البقاء في المغرب وطننا تضحية تتجاوز 100 مليون بسيطة سنويا خلال السنوات الخمس الأولى القادمة ، و50 مليون فيما بعد". ثم بعد أن نعت التقرير المسألة المغربية بكونها "مشروعا عقيما" ، ختم بهذه الكلمات : "لا يتعلق الأمر بالنسبة إلينا في المغرب بتاتا بمسألة كرامة وشرف" ، هناك - كما يضيف الاقتراح - الضرورة الأسمى في أن نفكر أولا في "الوطن الأب" وأن نعيش ونعمل من أجل إسبانيا". (أوردته في ترجمته الفرنسية" نشرة لجنة إفريقيا الفرنسية" ، أبريل 1924 ، ص 250-51).

(21) Jeronimo BECKER : "Historia de Marruecos", pp. 507-16.

(22) يمكننا أن نتأكد من ذلك عندما يحين أوانه في الفصول التالية.

(23) "إن غالبية الجمهوريين ... تتأصل من أجل تخطي تام عن نشاطنا بإفريقيا". أوردته :

HERNÁNDEZ HERRERA et GARCÍA FIGUERAS, op. cit., t. I, p. 258.

(24) أوضح بريمو دي ريفرا موقفه لأول مرة سنة 1917 في خطاب استقبله بالأكاديمية الملكية الإسبانية الأمريكية بقادس ، حيث صرح قائلا : "إذا كانت ثمة بالأمس سياسة إفريقية مجيدة ، فقد كانت هناك أيضا سياسة التخلي عن إفريقيا التي لم تكن تقل عنها مجدا".

(La cuestión del día : Gibraltar y Africa, discurso del general Miguel Primo de Rivera y Orbaneja, Cadiz, Alvarez, 1971)

خلف هذا الخطاب ، بعد إلقائه ونشره فيما بعد ، تأثيرا كبيرا. وقد أقيمت الجئزلات من قيادته ، إلا أن ذلك لم يمنعه من المعارضة ، مما أدى إلى عزله مرة ثانية.

(25) راجع مقال : Emilio MORA : " Los primeros regulares"

" Revista de tropas coloniales", juin 1924.

في :

(26) في برقية بتاريخ 30 مارس 1914 (no 899. CM) ، قدم ليونبي بيانا عن المباحثات التي أجراها لساعته مع الملك الفرنسي الثالث عشر. وجوابا على الشكوى التي تقدم بها ليونبي ، أقر الملك بأن التجنيد السري الذي كان يقوم به العملاء الإسبان بالدار البيضاء غير جائز. إلا أنه طلب من الفرنسيين أن يتخلوا بالارادة الحسنة ، مصرحا بأنه يمكن للفرنسيين أن يجنحوا بقدر ما يريدون في منطقتهم ، في حين أن الإسبان لا يتفهمون إلا على منطقة صغيرة جدا ، لم يحتل سوى جزء صغير منها ، و يقيم بها بربر جليليون يصعب تجنيدهم. وفي رسالته إلى الوزير ، أقر ليونبي بما يلي : حقا

"لأننا نحن أنفسنا لا نقوم بالتجنيد داخل مثل هذه المجموعات ، ولا نجد المتطوعين إلا ضمن قبائل السهل أو سكان الجنوب". ثم أضاف : "من جهة أخرى ، نحن نجد بسهولة في منطقتنا بقدر ما نريد ، ويمكننا أن نجد بما يزيد عن حاجياتنا". هذا وقد وعد ليوطي الملك بالعمل على إيجاد صيغة ترضى الإسبان. لكن بعد 10 سنوات ، وعندما كان الإسبان يتخبطون في أسوأ المصاعب ، صدر منشور عن الكتابة العامة للحماية بالرباط بتاريخ 30 يونيو 1924 ، مذكرا بأنه "يمنع على أهالي منطقتنا الالتزام ... بالتطوع في القوات المساعدة للمنطقة الإسبانية" :

"Recueil des Actes internationaux et à incidence internationale concernant le Maroc", Rabat, Imprimerie officielle, 1936, pp. 114-115.

(27) في أكتوبر 1924 ، كانت القوات المتخفية في قطاع سبتة/تطوان تضم 52 143 رجلا ، ومن هذا العدد الإجمالي ، كانت هناك لقط لفرقتان نظاميتان تضمان معا 4 484 رجلا ، بما فيهم الأطر الإسبانية. أي ما يزيد قليلا عن 12/1. (قائمة الفياق والوحدات الدائمة والمتقلة لقطاع سبتة/تطوان ، وقد تم تسليمه إلى الرئيس العام في 29 أكتوبر 1924 :

Archivo Histórico Militar, Madrid, Comandancia general de Ceuta, 1924, legajo 71).

(28) وهذا يوزن أن نأخذ بمعين الاعتبار أن "الترسيو" ، حتى لو كان متكونا في غالبية من إسبان ، لم يمثل ، مثل الجند النظاميين ، سوى نسبة ضئيلة من عدد القوات الإجمالي . وبالنسبة إلى القائمة المذكورة في الإحالة السابقة ، فإنه لم يزد عن 4 131 رجلا على مجر 52 143 . أي ما يزيد قليلا عن الجزء الثالث عشر لا غير .

(29) تصريح لكورتيس في 7 مارس 1912 ، أوردته "نشرة لجنة إفريقيا الفرنسية" ، أبريل 1912 . هذا وسيهلك كانالغاس نفسه مقالا بعيد ذلك.

الريف والريفيون

كانت القبائل المقيمة بالمنطقة الآيلة لاسبانيا ، وعددها ست وستون قبيلة ، تنشط إلى أربع مجموعات متحدة من مختلف بطون السلالة البربرية ، تقطن كل واحدة منها في قطاع خاص من الكتلة الريفية. منها مجموعتان تعيشان في السفح الأطلنكي وتتقاسمانه مناصفة بينهما ، هما صنهاجة في الشرق وجباله في الغرب. أما بالنسبة للسفح المتوسطي المأهول بغمارة في نصفه الغربي ، فهو الجزء المتبقي الذي كان يشكل في الشرق الريف بحصر المعنى ، أو بلاد الريفين.

في حمى شاطئهم الشديد الوعورة ، لم يحس الغماريون بالتهديد الإسباني إلا في وقت متأخر. كذلك الحال فيما يتعلق بصنهاجة في القمة المواجهة ، لأن الريفين في الشمال ، وجباله في الغرب ، كانوا ينتصبون حائلا بينهم وبين الغزاة. لذلك فإن الغزول يستهدف في بدايته سوى جباله والريفين. إلا أن الأولين كانوا وقتئذ خاضعين للبasha والقائد الكبير أحمد الريسوني ، الذي مد الجسور بينه وبين الإسبان ، ومهد لهم الطريق، مجهضا منذ البداية تنظيم كل مقاومة منسقة . على العكس من ذلك ، كانت القبائل مستقلة بالريف وتعرف الإسبان حق المعرفة. فمنذ قرون كان هؤلاء يحتلون أو يراقبون جميع النقاط السهلة البلوغ من شاطئهم. زيادة على ذلك ، كانت النزاعات الدامية قد تعددت بين الطرفين منذ ما قبل الحماية بمدة طويلة . كانت هذه إذن هي الجهة التي يمكن أن يندلع منها الحريق. ومنها اندلع بالفعل .

في الحقيقة ، لم يكن الريفيون يشكلون سوى ساكنة متواضعة لا يتجاوز عدد أفرادها 300 000 نسمة ، ومجموع قبائلها ثمانى عشرة قبيلة (1) . مع ذلك تناقل العالم فجأة أخبارهم في القرن الماضي بوصفهم قراصنة متوحشين ، يتجاسرون على مهاجمة السفن الأوربية . ريفيون في نفس الوقت في الإفلات من عقوبتها. أما إذا قامت الدولة المعنية ، بعد عجزها عن ردعهم ، بمطالبة مولاها السلطان بضمان الأمن في شواطئه ، فإن هذا الأخير يقف مكتوف اليدين ، بحيث أن هذه القبائل كانت تتحدى في أن واحد كلا من العالم المتمدن والسلطة المتغيبه لعاهلها ، الذي لم تكن تعترف إلا بسلطته الاسمية ، هذا في الوقت الذي كان مجرد وجودها يخلق وضعا شاذا على أبواب أوروبا .

بما أن الأمور كانت مطروحة على هذا الشكل ، فقد نشأ تيار حقيقي من التخيلات حول موضوع شراسة الريفين. إذا صدقنا مولييراس ، الذي كتب سنة 1895

فإن الريفيين كانوا يذبحون بلا رحمة ، وينسبة تسع مرات على عشرة ، ذلك المسيحي التمس الذي يقع بين أيديهم .

إنه ادعاء ينسجم على أية حال مع ما يشاع عنهم من خطورة وشراسة. إلا أن موليراس ما لبث أن أظهرهم في الوقت نفسه ، بدون الانتباه إلى وجه التناقض ، بنفس الضراوة في علاقاتهم بعضهم ببعض ، تمزقهم الحروب الداخلية ، والحال أن هذه الحروب من شأنها أن تؤدي بهم إلى الانقراض تماما بدلا من أن تجعل منهم خطرا على غيرهم . وانسياقا مع مزاعم موليراس ، فإن هذه السوق أو تلك ، من الأسواق التي تعد عادة كل أسبوع في كل قبيلة ، تعتبر عادية جدا إذا لم يحص بها سوى عشرة قتل إثر المعارك التي غالبا ما تكون مسرحا لها ، بدل الخمس والست دزينات التي يستوجبها النصاب (2) . ثم ظهرت بعد كتابات موليراس روايات ملحمية من نفس الطينة ، تتعلق ب "حروب السنوات السبع" التي كانت تندلع لا بسبب إيلين الحسناء ، وإنما بسبب مقتل كلب (3) . من جهة أخرى ، هناك من لاحظ أن المسكن الريفي المجهز ببرجه الصغير إنما هو في الواقع مركز على أهبة الاستعداد للمعركة. لإجمال القول في الأخير ، نشير إلى أن الكثيرين من الكتاب تبنا ذلك التأكيد الغريب الذي جادت به تريشة وسترماك ، معتبرين إياه حقيقة مسلما بها ، ومفاده أن الريفي لم يكن في نظر إخوانه كامل الرجولة أن هو تزوج دون أن يقتل على الأقل مرة واحدة في حياته (4) . نرى إذن تبعا لهذه المزاعم أن المجتمع الريفي كان مصابا بسعار من الشراسة ويعيش حياته اليومية ، إن صح التعبير ، في حركية انتحار دائم .

إنها بالطبع لوحة لكاتب في علم الأخلاق. لكنها تفتقر إلى ميتافيزيقي ليضفي عليها بعدها المساوي. تلك كانت مؤخرا مهمة دافيد هارت. كان هذا الأخير يرنو بنظره إلى الماضي والمدى البعيد. بالنسبة إليه ، لم تكن شراسة الريفيين وراء مجازهم. إذ الحقيقة أنهم لا يعدون أن يكونوا لعبة بأيدي خفية. ذلك أن الريف ، وهو إقليم يعيش في فقر مدقع ، لم يكن قادرا على ضمان الغذاء لجميع أبنائه . فكان على المجتمع الريفي أن يقدم ، بلا وعي منه ، ضريبته اليومية للموت قربانا لامتنصاص الفائض من سكانه (5). من هنا قانون الثأر الذي يعد بمثابة مؤسسة رئيسية (6) . فباستثناء حالات محدودة في الزمان والمكان ، لم تكن ثمة - فيما يقول - عقوبة اجتماعية على القتل الذي كان مباحا على هذا الأساس بل ومنصوصا عليه ضمنا (7) . لنقل جملة ، لتلخيص نظرية هارت دون تشويه مضمونها ، إنه بدلا من وصية (لا تقتل) السائدة لدى القبائل الموسمية ، فإن القبائل الريفية ، أبناء عمومتها ، أحلت بشكل ضمني وصية (تتأخروا

فيما بينكم) . على أن تاريخ هذه الوصية لا يرجع إلى الأمس القريب . ذلك أن منظومة الثار نفسها كانت ، حسب اعتقاده ، تنبئ دائما بكلكها على الريفيين. هذا ما دفع هارت إلى أن يصحح ، فيما اعتقد ، خطأ وقع فيه الريفيون أنفسهم عندما ذكر له شيوخهم أن قلائلهم حديثة لا ترجع إلا إلى نهاية القرن الماضي في الظروف التي استعرضوها. كلا ، لقد عانى الريف من الفوضى - فيما يقال - منذ ألف سنة على الأقل (8) . وهي فوضى تنهض دليلا في حد ذاتها على أنه لم يسبق له أن خضع للمخزن. لأن هذا الأخير كان من الممكن لا محالة أن يضع حدا لها لو كانت له في عين المكان أدنى سلطة فعلية.

تلك هي آخر كلمة عن مسألة قادت إليها تدريجيا ، وإلى هذه النتيجة ، الأعمال المتقاربة لمختلف السوسيولوجيين. وبما أنه سبق لنا أن تناولناها في موضع آخر (9) ، فإننا لن نعود هنا إلى المآخذ التي يمكن صياغتها حول المنهاج الذي اتبعوه ، ذلك المنهاج الذي يستقصي موضوع البحث مهما الظروف المحيطة به ، والذي يرسم الماضي السحيق على ضوء ماض قريب تم استحضاره بدوره بدون حذر انطلاقا من روايات مشكوك فيها أو من أقوال شهود ذوي أفق محدود. على أنه من واجبنا بالمقابل ، أن نحاول تقديم رؤية أقل خيالا وفي الوقت نفسه أقل جمودا عن العالم الريفي الصغير. ذلك أنه كيف أمكن لهذا المجتمع أن يعيش بدون نظام داخلي ، وبدون الدولة التي يشكل طرفا منها؟ ثم كيف تمكن أخيرا من أن يلتئم من جديد وبشكل ، لما فيه صالحه هذه المرة ، قوة مذهلة لا تتناسب بتاتا لا مع موارده ، ولا مع مستواه ، ولا حتى مع رقعته ؟

* * *

من الثابت أن المجتمع الريفي كان بدائيا جدا. صحيح أننا نجده متكونا من مزارعين مرتبطين بالأرض ، منهم الفلاحون المتعاطون لزراعة الحبوب والخضروات ، وغراسو الأشجار المثمرة ، ومربو الماشية ، والمهرة في أعمال السقي. إلا أن وسائل العمل كانت ما تزال بدائية ، أساسها المحراث الخشبي العتيق ، والفأس ، والرحى اليدوية ، والطاحونة المائية ، والمغزل ، والخزانة الخشنة. أما الطرق ، فمنعدمة ، وكذا الأمر بالنسبة للعربات . وبما أن الدواب قليلة ، فإن النقل على ظهر الإنسان هو الشائع .

لا ريب أن مثل هذا التأخر كان يسود أيضا في باقي جهات المغرب. إلا أن المستوى المتدني في عديد من المناطق الأخرى اقترن بتركيز أكبر لوسائل الإنتاج . يضاف إلى هذا أن التجارة بعيدة المدى ساعدت في جهات أخرى على ازدهار مدنية

حضرية . على العكس من ذلك ، ظل التعمير زراعيا في الريف ، وهو إقليم هامشي جبلي ، سبق للأسبان فضلا عن ذلك أن سيطروا على منافذه البحرية لعدة قرون . فإذا كان هذا التعمير مركزا في سهل من السهول الشاطئية ، فإنه كان متناثرا بصفة خاصة في بطون الأودية ، وعلى جوانب السفوح . كما أن المدن منعقدة ، باستثناء حصن مليلية ، وهو موقع إسباني كان يعيش مستقلا . بيد أن المؤشر الحقيقي على الخصوصية الريفية يكمن في الصيانة القوية للهجات البربرية بصورة لا يكاد يشوبها انقصاص ، بحيث لم يكن يوجد سوى بعض النساخ الذين تقتصر معرفتهم للغة العربية على المبادئ الأولية اللازمة لتحرير العقود الشرعية (10) .

بمثل هذا المستوى ، وعلى الرغم من وجود ملكية خاصة للأراضي الزراعية ، وعلى الرغم أيضا من كون الأنشطة موسومة بتقسيم ملموس للعمل ، فإن القبيلة البدائية تظل هنا ، أكثر مما هي عليه في أية جهة أخرى ، الإطار المتين لكل المجالات الحياتية (11) . كانت هذه القبيلة مقسمة إلى أفخاذ ، ومتفرعة إلى مجموعات من الأسر ، يجمع بينها الشعور بالانتماء إلى رابطة القرابة ، مما جعلها تشكل كيانا اجتماعيا متميزا . وهي أيضا وحدة اجتماعية تتوفر على مقاطعة واضحة المعالم ، تتكون حسب رقع متوازنة من الأراضي المنزرعة والغابة والمراعي . ضمن هذا الإطار ، وحول مختلف الأسواق الأسبوعية ، كانت الحياة الاقتصادية تجري بين القبيلة أولا ، إلا أن المبادلات كانت تقوم أيضا مع القبائل المجاورة ، وتمتد تدريجيا حتى إلى مدينة فاس . نتج عن ذلك أن الحياة السياسية انحصرت بدورها في نفس الإطار ، إلا أنها كانت تتدرج حسب مختلف المستويات المتميزة داخل القبيلة ، أي الأفخاذ ، ثم مجموعات الأسر في مستوى أدنى .

أما بالنسبة لأشكال هذه الحياة السياسية ، فكانت تقوم على توزيع الأراضي بين أعضاء القبيلة . وحيث إن هؤلاء لم يكونوا كلهم ملاكا في الفترة المعاصرة ، فقد كان الفلاحون المحرومون من الأرض مجرد أتباع لمشغليهم . من جهة أخرى ، فإن الملكيات كانت متفاوتة من حيث مساحتها . إلا أنها لم تؤد إلى ظهور ملاك كبار وإنما إلى وجود فلاحين ميسورين ، نظرا لضيق المساحات المتوافرة وكثرة الملاك ، الشيء الذي أضفى على المجتمع الريفي طابع الاتزان والاستقرار ، أو طابع الركود إن جاز التعبير . ذلك أن الملكية العقارية كانت تنتقل في الغالب من يد إلى أخرى ، خاصة في زمان الأوبئة عندما تضرب الموت بطريقة عشوائية ، فنجد أن هاته الأسرة أو تلك من الأسرة المالكة تصبح بدورها تابعة لأسرة أفقر منها أبقى عليها الوباء ، لكن دون أن تؤدي هذه الحركية إلى

إحداث تغيير في الوضعية العامة. فالحركة تسير ، لا في خط مستقيم ، وإنما على شكل دورة (12) . فقد كان الفلاحون الميسورون ، المعضون بوفرة ذريتهم وثلة أتباعهم ، يتقاسمون السلطة داخل المجالس التي يؤسسونها ، وغالبا ما كانوا يتنازعونها ، سواء عن طريق المشاركة الجماعية ، أو عن طريق التفويض ، وذلك في المستويات المشار إليها أعلاه ، أي مجموعة الأسر ، والفخذ ، ومن الممكن أحيانا القبيلة بأسرها .

تساعدنا مجموعة من الوثائق المكتوبة ، هي عبارة عن محاضر جلسات الاجتماعات ، على تسليط أضواء كاشفة على المنظومة. فعلى أدنى مستوى ، كانت جميع المشاكل التي تواجه مجموعة الأسر من اختصاص "الجماعة" ، وهي مجلس يضم جميع الملاك من رؤساء الأسرة . فالجماعة هي التي كانت تشرع القوانين ، فتحدد مثلا العقوبات المفروضة على الإخلال بحرمة الجوار أو واجبات الضيافة ، وهي التي تقلد أيضا سلطتها للشيخ المكلف بتمثيلها أو تطبيق إرادتها . كان هذا الأخير ، الذي يختار من بين أعضاء الجماعة ، يسلم مهامه بمجرد انتهاء مدة صلاحيتها (13) .

على مستوى أعلى ، فإن مجلسا آخر هو الذي كان يدير المصالح العامة لمجموع الفخذ. كان يضمن على الخصوص في كل أسبوع انعقاد السوق التي من الواجب أن تمر في جو من النظام. وباستثناء بعض الأعيان ، كان يتألف أساسا من شيوخ تنتخبهم مجموعات الأسر (14) .

هذا التسلسل المنطقي للمنظومة يفترض حسب الظاهر أن نجد أيضا ، في مستوى أعلى ، وهو مستوى القبيلة كلها ، إدارة من نوع جماعي ، يتم انتخابها هذه المرة على ثلاث درجات. إلا أن الوثائق أو الشهادات الأخرى ، لم تساعدنا على الإطلاق على تجاوز مستوى الفخذ المتوسط هذا ، سواء عند معانيته على انفراد أو في الحالات العرضية التي يكون فيها مرتبطا بفخذ مجاور. يمكن أن نفترض أن هذه الهيئة العليا قد انحلت في وقت ما ، على الأقل كجهاز منتظم ، بعد أن كانت موجودة بالفعل في الماضي . ذلك أن القبيلة تشكل بالتأكيد وحدة متميزة ، لكنها توجد مندمجة منذ زهاء عشرة قرون داخل الدولة المغربية ، تلك الدولة التي مهما قيل عن ضعفها فإنها بقيت صامدة إلى يومنا هذا وإن تغيرت قيادتها. ومن ثم وجدت سلطتان سياسيتان متعارضتان ، يتوقف عليهما في الواقع مصير القبيلة : السلطة الأولى ، وهي محلية محضة ، تنبع من القاعدة ، أما الثانية ، وهي واردة من الخارج لمقابلتها ، فتصدر عن المخزن ، أي عن الدولة. أما الالتحام بين السلطتين ، فيتم في شخص القائد. هذا الأخير الذي يعينه السلطان ، أو يختاره من أعضاء القبيلة ، هو الذي شغل المكان الذي أصبح

شاغرا بعد انحلال المجلس الحاكم في الماضي.

نرى مما سبق أن هذا الارتباط ، الذي سنعود إلى الحديث عنه ، لم يكن يلحق على أية حال أي مساس بأساس المنظومة السياسية داخل القبيلة. فقد كانت مجالس ابتدائية هي التي تشرع القوانين على الصعيد الداخلي ، وتفوض سلطتها لشيوخ يتولون الحكم باسمها وتحت إشرافها ، ويمثلونها في مجلس الفخذ للإسهام داخله ، على قدم المساواة ، في الإدارة الجماعية. إن الأمر يتعلق هنا بمؤسسات جمهورية على غرار ما قاله البعض عن قبائل مغربية في مناطق أخرى (15) . إلا أنه يمكننا أن نضيف ، فيما يخص الريف على الأقل ، أننا أمام نوع من الديمقراطية ، ديمقراطية الفلاحين اليسوريين. وهي بالطبع ليست بديمقراطية مطلقة ، إذ نجد أولا - كما يتسنى لنا استنتاج ذلك من المستندات - أن رؤساء الأسر وحدهم هم الأعضاء الرسميون في المجالس ، من دون أبنائهم حتى الكبار منهم . ثم ثانيا ، وعلى الأخص ، لعدم مشاركة الفلاحين الذين لا أرض لهم. مع ذلك فهي ديمقراطية واسعة نسبيا ، لأن تقارب المصالح على صعيد الأسر أقوى من التناقضات ، ولأن اتخاذ القرارات على الصعيد العملي يتم حسب الروايات بصورة جماعية داخل تلك الأسر. أما بالنسبة للفلاحين المعدمين ، فلا يمثلون أكثرية تجاه أقلية من كبار الملاك. فالملكيات كثيرة ومتواضعة إن لم نقل مفتتة ، ولا يمكنها بالتالي أن تشكل القاعدة الاقتصادية للعسف الفظيع الذي يتطلبه كل استغلال فاحش . فعلى عكس ما كان عليه الأمر في أثينا أو روما ، فإن الفلاح الذي لا أرض له كان تابعا دون أن ينحط إلى مستوى القنانة . حقا فقد كان مستغلا لاشتراكه فقط مقابل الخمس من الإنتاج ، إلا أنه يظل شريكا. فهو تابع خضوع ، ولكنه يشعر بأنه حليف لسيدته عندما يقوم بمساعدته. فتلك علاقات أبوية تذكرنا رأسا بجمهورية ساكني الكهوف التي تخيلها بالأمس منتسكيو . هل هذا يعني أن الريفيين لم يستلهموا سوى المبادئ الفاضلة في تسيير جمهوريتهم ؟ كلا ، بيد أننا لا نفهم كيف يمكن أن تنطبق عليهم صورة "الهمجي الشرير" التي اختلقها مؤخرا أقطاب الإيديولوجية الاستعمارية . وهذا يعني أيضا أن الريفيين ، وبدون محاولة إضفاء صبغة الكمال المثالي عليهم ، لابد وأن يكونوا قد احتفظوا بتلك الخصال الإنسانية التي ثبت وجودها لدى كثير من الشعوب البدائية ، والتي تجرد منها عموما إنسان المجتمعات العصرية. من ذلك هذا الشعور الذي يجعل من الضيف رسولا من السماء ، حتى لو كان غريبا ، يتوجب إكرامه مهما كانت الظروف. ولم يكن ذلك يعني بالنسبة للريفيين ، وبشهادة الوثائق ، مجرد واجب وإنما فريضة يعاقب من تملص منها أمام الجماعة كما لو تعلق

الأمر بجنحة (16) . لقد صرح الفرنسي دي طايي (Du Taillis) حتى في حدود 1923 ، عندما كان متجولا بالريف ، وبدون تحيز أو إيديولوجية مسبقة ، بأنه لم يلاحظ إلا الوفاء بالعهد ، وحسن معاملة الضيوف وأمن التجوال (17) . وإلى اليوم ، ما يزال المسافر الضمان يجد في مسالك الجبال ما ينقع به غلته من الماء هنا أو هناك ، لكن بعيدا عن أي منبع مائي ، حيث توضع جرة ماء في مخابئ من أشعة الشمس ، تتولى أيد خفية مهمة ملئها في كل يوم . أما إذا توقف على عتبة كوخ طالبا جرعة ماء ، فيلزمه الدخول لتناول وجبة كاملة (18) . إن هذه المبادرات لم تكن تتخذ ، وبشهادة أصحابها ، إلا في سبيل الله . وباعتبار أنها ليست سوى من بقايا تقاليد الماضي ، فإنها تتنافى مع الفكرة القائلة بأن هذه التقاليد كانت مرتكزة على كراهية القريب . على كل حال ، فإن حكايات مولييراس تبدو سخيقة وهي تتحدث عن تلك الجثث المتراكمة في السوق كل أسبوع ، إذ تكفي على هذه الوتيرة بضعة عقود لينقرض جميع الريفيين . أما أطروحة هارت التي تجعل من السوق ، بالعكس ، مكانا آمنا ، لكن في وسط عالم تسوده بمقتضى القانون نفسه روح الثأر والتناحر ، فهي لا تركز بدورها على أي أساس . فقد كان كل قتل يستوجب عقابا اجتماعيا ، سواء أتم في السوق أو في جهة أخرى . وهو عقاب قاس يصل إلى حد إنزال الخراب بالقاتل وينفيه مع أسرته جمعاء . وكانت العقوبة بالإعدام هي وحدها التي لا يجري العمل بها . وهذا استثناء ملفت للانتباه بالنسبة لمجتمع يقال عنه إنه كان في حاجة إلى امتصاص دم أبنائه (19) .

علينا إذن بالاختصار أن نتخلص من الرؤية الرهيبة التي كانت تسود منذ 24 سنة . لقد عرف الريف كأي مجتمع آخر صراعات داخلية . لكنه عرف كأي مجتمع آخر كذلك كيف يجد سبيله إلى مواجهتها . كما أنه كان يفرض عقوبته على الجرائم والجنح ، ويرعى السلم الاجتماعي على الرغم من المصاعب . فهذه الوسيلة عرف الريفيون على الأقل كيف يحافظون على وجودهم إن لم يكونوا قد تطوروا بشكل ملموس . حقا لقد عرفوا في عهد قريب من السهل تأريخه قلاقل خطيرة . إلا أن هذه القلاقل كانت بمثابة أزمة طارئة قطعت بصورة مفاجئة المجرى العادي للحياة التي عاشها الريف في السابق ، مما جعلها توسم في عقول الأجيال الحديثة بطابع مأساوي وتعطى لها تأويلات ملحمة . والحال أن السوسيولوجيين لم يأخذوا هذه الحكايات الأسطورية كأحداث تاريخية فحسب ، بل وأصروا كذلك على أن يفسروا على ضوءها تاريخ الريف كله منذ العهود الغابرة ، ضاربين عرض الحائط بشهادات الريفيين أنفسهم . فتعين عليهم إذن إرجاع سبب الفوضى إلى إحدى الشوائب الأصلية الكامنة على الدوام في قلب

الرجل الريفي أو في مجتمعه ، مما جعلهم يمررون في الظل التدخل الأوربي الذي تغفل مع ذلك في جميع الشؤون المغربية خلال القرن الماضي ، ووجد في الريف بالذات إحدى الأماكن المفضلة لممارساته. ولم ينتهبوا إلى هذا التدخل إلا في نهاية المطاف ليصرخوا بأنه هو وحده الذي وضع حدا لهذه الفوضى المزمنة. إن هذا الطرح يعني تقديم صورة معكوسة تماما عن الواقع. لقد عاش المجتمع الريفي وبقي قائما على الرغم من ركوده بمستوى جد متدني . ولئن كان يدين بذلك ، كما أسلفنا القول ، إلى مؤسساته الداخلية الملائمة ، فإننا سنرى أنه يدين بها أيضا إلى انتمائه إلى الدولة المغربية . أما الضغط الأوربي فهو الذي أدى إلى اختلال المنظومة بأسرها وهو الذي تسبب في الأزمة التي سبقت الإشارة إليها ، والتي سنحاول في الختام التعرض لها لبلورة جوانبها الرئيسية .

* * *

إن مثال الريف لمن الأمثلة التي عادة ما يستشهد بها لتجسيد تلك الأطروحة المتداولة التي تجعل سيادة السلطان في المغرب القديم مقصورة على بلاد "المخزن" ، من دون بلاد " السبية " التي كانت قبائلها ، مع اعترافها بسلطته الدينية ، ترفض الخضوع لحكمه ، كما ترفض أداء الضرائب . إذ حتى لو غرضنا الطرف عن الفوضى الضاربة أطنابها دوما هناك ، كيف يمكن تعليل وجود هذه السلطات الواسعة التي تتولى ممارستها في ميادين متعددة ، بما فيها الميدان القضائي ، مجالس منبثقة من السكان المحليين ؟ سيما و أن السلطان نفسه كان يتعلل بعجزه عن إخضاع هذه القبائل وذلك خلال النزاعات التي قامت منذ 1860 بين الأوربيين والقبائل الريفية. قبل الإجابة ، يجدر بنا أن نعيد النظر عن كتب في المسألة.

إن الكثيرين من الكتاب المعتادين على أمور العصر الحاضر لا يسلمون بوجود دولة إلا إذا كان حضورها مجسدا بجانب كل جشرة في شخص الدركي والقاضي والجابي والموظفين الآخرين المعينين مباشرة من العاصمة. بيد أنهم يتناسون أن هذه المركزية القوية ما هي إلا بذخ حديث ، أثارت منذ بدايتها ردود فعل قوية. كما يتناسون أن كثيرا من المدن ، حتى في أوروبا وفي دول جد منظمة ، كانت بالأمس تتمتع بالبراءات الإعفاية، وأن كثيرا من الأقاليم حافظت على مجالسها ، التي كانت تساوّم الملك في مساهماتها سنة بعد أخرى. لقد استنتج الكثيرون على ضوء الحرية التي كان الريفيون يديرون بها مقاليد حياتهم اليومية ، أن السلطان ، وهو مستبد في التعريف الذي أعطي له ، قد عانى الأمرين في محاولة إخضاعهم. ولم يتفطنوا إلى أن المخزن الذي كان يقوم بوظائف اجتماعية إيجابية ، كان قادرا على كسب القبائل بدون اللجوء إلى العنف من

أجل إخضاعها. وإن السلطان كان يرى أن من مصلحته احترام مؤسسات تستجيب أيما استجابة لحاجيات شعبه في نفس الوقت الذي تعفيه من عناء تولي الإدارة بنفسه ، شريطة أن يتحقق هدف كلا الطرفين. ما هي متطلبات السلطان من قبائله الريفية؟ إنها الضريبة أولا وبكيفية منتظمة. وهي ثانيا ، ولكن عندما تدعو الحاجة إلى ذلك ، تقديم مساهمة عسكرية . أما بالنسبة للقبائل ، فما هي متطلباتها؟ إنها تريد سلطة قوية لجسم مادة النزاعات القائمة بينها ، والقابلة للانفجار ، وتريد دعما للبلاد في مواجهتها للمسيحيين الذين يحتلون شواطئها ، حيث لم يكن بإمكانها إيقاف زحفهم بالاعتماد لا غير على قوتها . فهل التزم كل طرف بشروط هذا العقد ؟ هذا هو الطرح الحقيقي والوحيد للسؤال. فإذا لم يكن الأمر كذلك ، وأقررناه معززين بالوثائق ، سيحق لنا الكلام حينئذ عن السبية والعصيان وحتى عن الاستقلال . لكن الوثائق تفيدنا كلما عثرنا عليها أن الأمر كان على النقيض من ذلك ، وهذا إن لم يكن دائما ، فعلى الأقل إلى فجر هذا القرن ، كما سبق القول . تفيدنا هذه الوثائق بادئ ذي بدء أن السلطان كان ينتدب دائما في الريف عاملا من أجل تمثيله ، وأنه كان يتوفر على مجموعة من القصبات ، هي عبارة عن ثكنات محصنة. كيف كان إذن بإمكان الريف "المستقل" أو "المتنرد" أن ينظر بعين الارتياح إلى وجود هاتين العلامتين اللتين كانتا تكرسان حضور السلطة المخزنية في عقر داره ؟ لنصف أن هاتين العلامتين لم تكونا رمزيتين. فقد كان العامل يمارسهما بالفعل بمقتضى السلط التي يتقلد مهامها. فقد كان يمارس سلطات عسكرية تجاه الوحدات الإسبانية المرابطة على الشاطئ ، والتي تراقب تحركاتها نصف القصبات. في حين كان النصف الآخر الموجود في قلب المنطقة ، يزوده بالجند من أجل ممارسة سلطاته المدنية. فما هو الطابع الذي اتسمت به هاته السلط ؟ ثمة مثالان سيفصحان لنا عنه .

قام ذات مرة نزاع حول تقسيم مياه السقي بين ثلاثة أفخاذ من قبيلة بني ورياغل . فكان أن سارع الأفخاذ للذان اعتبرا نفسيهما متضررين من طرف الأفخذ الثالث ، إلى إيفاد ممثلين عنهما إلى العامل. بعد أن استدعى هذا الأخير الأطراف المتنازعة ، قام بحسم مادة النزاع بينهما بمساعدة مجلس من القضاة ، ثم تعهد الجميع باحترام الاتفاق الذي تم التوصل إليه (20) .

في مرة أخرى قام نزاع بين قبيلتين متجاورتين ، إحداهما ريفية ، وهي متيوة ، والأخرى تنتمي إلى اتحادية غمارة. فقد ساورت مجموعة أسر داخل القبيلة الثانية فكرة الاحتماء بمتيوة المجاورة لها ، وحتى بالانضمام إليها مع أراضيها ، نظرا لأنها كانت

مسؤولة عن جريمة قتل اقترفها أحد أفرادها. وهكذا فقد حاولت الانسلاخ عن السلطة القضائية لقبيلتها المحضة. إلا أن هذه ، وندرك سلفا ضغينتها ، استدارت ضد متيوة التي ساعدت على حيك الدسياسة . فما نحن إذن أمام مشكل يهدد باندلاع الحرب. بيد أن عامل غمارة تدخل باسم القبيلة المتضررة ، لا بشكل مباشر وإنما بإحالة القضية على السلطان نظرا لأن متيوة لا تندرج ضمن سلطته. وقد أصدر هذا الأخير فور اشعاره أوامره إلى عامله بالريف ليقوم بإلزام متيوة باحترام جيرانها الغماريين (21).

في كلا الحالتين ، كان الأمر يتعلق بقضايا تواجهت فيها إما أفخاذ أو قبائل. وهذا هو المستوى الذي ينحصر عنده بالفعل تدخل العامل الذي كانت مهمته تقوم على السهر على السلم العام دون التدخل ، على مستوى أدنى ، في الشؤون الداخلية للقبائل. وهذا يجعلنا نفهم كيف أن عاملا واحدا كان كافيا للقيام بهذه المهمة إلى حدود 1880. وباستثناء الحالة المتعلقة بالقبائل الصغيرة جدا ، فقد كانت له علاقة مع الأفخاذ عن طريق أحد الشيوخ الذي أصبحت له بمقتضى ذلك حظوة بل وحتى سلطة ميزته عن نظرائه. ومما لا شك فيه أن العامل كان يلجأ إلى جنده لتسوية النزاعات ، لكن هؤلاء كانوا فيما يبدو أشبه بالمرسولين بالنظر إلى قلة عددهم. أما حقيقة قوته ، فتكن في السلطة التي يجسدها في نظر الجميع بوصفه ممثلا للسلطان ، تلك السلطة التي تلمس القبائل تدخلها تلقائيا عند الحاجة. كان بإمكانه أيضا أن يعتمد داخل قبيلة على بعض "الشرفاء" أو "الطلبة" ممن لهم شهرة دينية ، والذين كان تأثيرهم في المجتمع المغربي القديم أشد وقعا من جيش بكامله. إنها بالطبع سلطة على جانب كبير من المرونة والتكيف ، لكنها سلطة على كل حال. وإذا كان قد حدث تغيير على عهد مولاي الحسن ، فما ذلك إلا من أجل تقريب السلطة المركزية من القبائل ، عن طريق تعويض العامل الوحيد بقائد ، وأحيانا بأكثر ، على رأس كل منها. ففي أي وقت إذن حدث ثمة تنكر من جانب المخزن لامتيازاته؟

أما بالنسبة للريفيين ، فلم يثبت أحد إلى اليوم أنهم لم يكونوا يؤبن ضريبتهم إلى الدولة، إما نقدا أو جنودا. على العكس ، وأثناء حرب تطوان ضد اسبانيا سنة 1860 ، وجدنا وحدات الريفيين تتقاطر على جبهة سبتة على الرغم من بعدها عن الريف (22) ، بينما كان إخوانهم في عين المكان يضطلمون بعبء جبهة مليلية ، ويوجهون فيها للعدو ضربات قوية. هذا ما دفع بمحمد الخطيب ، النائب السلطاني ، عند تبليغه أخبار هذه الحوادث ، إلى أن يقترح تعبئة جيش ريفي بكامله ولو اقتضى الحال مكافأة الريف عن ذلك بإعفائه من الضرائب لمدة عشر سنوات (23) . فنرى من خلال هذا أمرين : أن

الريفيين كانوا يرتضون بالتضحية من أجل النود ليس فحسب عن إقليمهم الضيق الرقعة ، وإنما عن مجموع التراب المغربي. وهذا نود دلالة في حد ذاته. أما فيما يخص رفضهم دفع المال ، فينبغي أن نقتنع إن كانت تلك هي عادتهم ، بأنها على الأقل لم تكن شائعة ، طالما أن ممثل السلطان نفسه كان على غير علم بها ، كما يتبين من اقتراحه المتعلق بإعفاء الريفيين من الضرائب .

وبالفعل فقد كان على علم بها لأنها مجرد افتراء . ففي 1889 . أي بعد 29 سنة حدث أن بعض القبائل الريفية لم تمتثل للأمر بتوجيه جنودها للالتحاق بالمحلة السلطانية التي كانت تقوم بحركة عبر مجموع الشمال الغربي من البلاد . وعلى الرغم من أن امتناعها كان لعامل الزمن الذي انطبق مع موسم الحصاد ، فإن السلطان قام بمعاقبته عن تخلفها ، بأن فرض غرامة على كل منها (24) . أليست مثل هذه المواقف ، من أولها إلى آخرها ، دليلا على أن السلطان كان يعامل الريفيين كما يعامل رعاياه الآخرين ، وأنه كان قادرا على القيام رأسا بذلك ؟

* * *

هذا مع العلم أن الحادثة الأخيرة وقعت في فترة تميزت بوقوع هزات عنيفة زعزعت مشاعر السكان الريفيين. لقد كان الشعور بالتبعية والولاء لدى هؤلاء السكان البسطاء يظهر حيال سلطانهم فيما يكونون له من تقدير ديني . وهكذا وحتى بداية هذا القرن ، كان يقال في الريف عندما يحتبس المطر: "إن سيدنا غاضب علينا". لنشر في سياق حديثنا إلى كم هو طريف أن نسمع البعض يردد أن سلطة العاهل في بلد متمرّد ، كالريف ، لم تكن تكتسي سوى طابع ديني ، كما لو أن هذه السلطة الدينية ، الممارسة إزاء سكان مطبوعين بالطابع الديني ، لم تكن تتجاوز السلطة الزمنية. ولكن ، لاستئناف الحديث عن الريفيين ، المستعدين بكامل الخضوع لتقبل غضب سيدهم الذي يحبس عنهم المطر بسبب معاصيهم ، نقول إن هؤلاء الريفيين سيقعون في الحيرة لو قدم السلطان بالعكس لمعاقبته بما هم أهل له. وبالتالي كيف كان بإمكانهم أن يفهموا بوجه آخر المجري الجديد للأحداث بعد 1860 ؟ لقد كانوا حتى هذه السنة بالذات قد حالوا دون تقدم الإسبانيين المحاصرين في مليلية وراء أسوارهم ، كما فعل أجدادهم منذ ثلاثة قرون. فإذا بالسلطان نفسه يلزمهم ، بعد استتباب السلم ، بالتخلي للدعو عن جزء من أراضيهم ، من حقول ومسكن ومسجد. وكما لاحظ ذلك شاهد عيان إسباني : "كان أمرا مقلقا للغاية بالنسبة للقبائل وهي ترى جيوش السلطان ، وعلى رأسها أمير ، تصل

لفرض إرادة أمة أجنبية عليهم. إنه لمشهد لم يسبق له نظير في هذه المملكة⁽²⁵⁾. كان حقا قلعا عميقا وجد معقد بلا ريب ، نجم عن حدة الغضب ضد الغزاة ، وكذلك عن الشعور بالآلم من جهة ، وبخيبة الأمل من جهة أخرى ، حيال السلطان ، عندما ستتجدد مثل هذه الحوادث حتى نهاية القرن. ذلك أن جيوش السلطان ستعود إلى الريف في أربع مناسبات لقتل الناس وتحطيم المساكن⁽²⁶⁾. وكان ذلك في كل مرة بسبب النزاعات المحلية مع الإسبان. فهل يصح القول ببناء على ذلك ان الريفيين أصروا على ألا يكونوا مغاربة؟ أو أن نقول بالأحرى أنهم كمغاربة لم يرتضوا بالغزو الإسباني ؟

* * *

نحن على يقين بأننا سنصطدم في هذا الصدد بوجهة النظر التقليدية التي نجد بمقتضاها أن الشعب الريفي كان ، على العكس ، يثير بشكل إلزامي رد فعل الإسبان ، ومعهم الدول الأوربية الأخرى. إلا أن الحجة الرئيسية التي تقدم لتدعيم هذه الأطروحة تكمن في هذه القرصنة الشهيرة التي تكلمنا عنها في البداية ، والتي أثارت ضجة كبيرة آنذاك. بيد أن الوثائق المغربية التي أهملت إلى اليوم ستساعدنا ، كما سنرى ، على تسليط أضواء جديدة على هذه القضية .

لقد كانت التجارة البحرية في المغرب تتم عن طريق الساحل الأطلسي وحده تقريبا ، نظرا لأن النقاط المتوسطة سهلة البلوغ كانت ، لمدة عدة قرون ، بيد الإسبان أو تحت مراقبتهم. لذلك وعلى الرغم من وقوعه بمحاذاة بحر يعد من أكثر بحار العالم روجا ، فإن الريف ، طريق المغرب المسدودة ، كان يعيش منعزلا عن العالم. لا ريب أن سبب تأخره الكبير راجع إلى هذا الوضع أكثر مما هو راجع إلى جباله أو تربته المجربة. لكن مع 1860 ، عندما احتدمت المنافسة بين مختلف الدول الأوربية طمعا في غزو السوق المغربية ، فإن الريف الواقع تجاه جبل طارق وملقا قدم شواطئه المهجورة لتجارة تهريب هامة في عدة مجالات. فقد كان يعفي بالطبع من الرسوم الجمركية ، لكنه يفتح المجال أيضا لترويج البضائع المحظورة ، خاصة الأسلحة عند الوصول ، والماشية عند الإقلاع. أخيرا فقد كان يتيح إمكانية حيك الدسائس وسط القبائل الساحلية وفتح المجال أمام التسرب الأوربي. وكان التهريب ، بالإضافة إلى الأضرار التي يلحقها بمالية البلاد واقتصادها ، يتسبب في قيام اضطرابات داخلية تلغم سلطة الدولة ، كما كان يتسبب في وقوع اصطدامات تعمل على تبرير التدخل الأجنبي. وكل هذا كان يسهم في بلورة ما يسمى بالقضية المغربية .

أثار هذا الوضع الشاذ قلق السلطان الذي وجه نداءات ملحة ومتكررة إلى الحكومات الرئيسية المعنية لتكف عن تغطية المهربين الذين ينتمون إلى كل منها. لكن دون جدوى (27). كانت العمليات تتم في الغالب في جون الحسيمة. في هذا الجون ، على مسافة قريبة من الشط ، كان يوجد محل إسباني تم تشييده فوق جزيرة. وتحت إشراف القبطان ، تقوم السفن القادمة من ملقا أو من جبل طارق بإفراغ شحناتها من البترول ، والشموع ، والبنادق ، والرصاص . بعد ذلك تتم إعادة نقل البضائع حتى الشط على متن بعض القوارب يمتلكها أفراد من قبيلة بقيوة ، لا يتجاوز عددهم 12 رجلا. هؤلاء هم الذين كانوا يتقاسمون احتكار هذه التجارة (28). أحيانا قد يحدث ما لم يكن في الحسبان. قد يُدفع ثمن بضاعة مسبقا دون أن يقع تسليمها بتاتا ، أو أن يتم العثور على أحد الريفيين مقتولا على الحرفش بعدما كان انطلق إلى الجزيرة حيا يرزق. فنظرا لانعدام أي ملاذ ، كان يتعين حينئذ أن يصفى المرء بنفسه حساباته بالوسائل التي تسنح بها الفرصة. أحسن وسيلة هي أن يقوم بأسر بعض رهائن مركب أوربي صغير قد يكون انحبس على مقربة من الشاطئ بسبب ضعف الرياح ، ثم المساومة فيهم للحصول أخيرا على التعويضات (29). حقا لا يتم ذلك إلا بعد ضجة صاخبة. من جهة ، كانت الصحافة الأوربية تقوم بشن حملة مسعورة ، ومن جهة أخرى كانت القطع البحرية تحضر أمام مرسى طنجة ، في حين ينتاب القلق السلطان فينفجر مهددا ، ويقاوض ، ويتوسل ، وينتهي به الأمر إلى تسديد الفاتورة على أن يحمل جميع أهل بقيوة وحتى جيرانهم على أداء ثمنها ، يوما ما ، دفعة واحدة ، عندما تسنح له الفرصة بذلك .

ذلك هو السيناريو الذي كانت الأمور تجري بمقتضاه في الغالب في التسعينات ، إلى أن عقدت المسألة سنة 1896 . في هذه السنة احتجز الإسبان ثلاثة عشر ريفيا ، بينما احتجز أهل بقيوة فرنسا ويونانيا ، بالإضافة إلى بعض البرتغاليين . في هذه المرة ، لم يحصل السلطان من البقيويين على أي تنازل ، على الرغم من رصيده الدبلوماسي. ولكم كانت دهشته عندما اكتشف أن هؤلاء المتمردين لم يكونوا يعملون من تلقاء أنفسهم. ذلك أن جزائريا ، يتقلد سلطات قنصلية من قبل دولة أوربية ، قدم إلى عين المكان لتأجيج مقاومتهم ، بالاشتراك مع الفرع المحلي للزاوية الوزانية ، التي كانت محمية بدورها من طرف نفس الدولة ، ومنقادة لخدمتها. لم يقتصر الأمر على هذا ، إذ عندما لم ير السلطان منفذا إلا باستعمال القوة ، ووجه حملة تأديبية إلى عين المكان ، كان المجرمون قد لانوا بالفرار " فهؤلاء القراصنة الذائع الصيت ، وعائلاتهم ، ويطانتهم ، أبحروا بسلام في اتجاه الجزائر ، على متن سفينة بخارية قدمت حتى إلى

ديارهم لتنتقلهم على متنها (30) .

إن هذا ما يعطي القرصنة أبعادها الحقيقية ومدلولها الصحيح. ففي ديار أزموين وهم فخذ من قبيلة بقبوة الصغيرة ، كان حوالي اثني عشرة من المجرمين يظلمون في عقر ديارهم بحركة التهريب الأوربي ، الذي كانوا ثمرة له ، تغطيمهم وتحركهم دولة هي أيضا أوربية ، لخدمة أغراض الغزو . فالى هؤلاء يدين الريفيون قاطبة بالضرارة التي اشتروا بها ، والتي كرسها المؤرخون وأورثوها من بعدهم للسوسيولوجيين كإحدى معطيات العمل .

* * *

حوالي نفس الوقت تقريبا ، عندما تزعزعت في البلاد الريفية الثقة بالمخزن تحت تأثير الأحداث المذكورة أعلاه ، طرأت تغيرات هامة حتى وسط القبائل. فيما مضى كان كل رجل في الريف ، كما هو عليه الأمر في باقي جهات المغرب ، على الأقل في القبائل ، يقتني بندقيته بمجرد ما تتوفر له الوسائل بذلك ، بيد أن البندقية العتيقة ، التي كانت تفتقر من الناحية العملية إلى أسلوب التصويب ، والتي تسند بمشقة إلى الكتف لتخطئ هدفها على بعد عشرين قدما ، كانت ملائمة جدا في حرب بين فريقين تتوخى إسماع دوي البارود دون إراقة الدماء ، ولإنقاذ شرف الطرفين لا غير ، وإتاحة الفرصة حينئذ لتدخل الوسطاء المصالحين.

بيد أن الأمر سيختلف عن ذلك كثيرا عندما ستبدأ البندقية الحربية الأوربية ، التي تقتل ، ومن بعيد ، في التسرب عن طريق التهريب ، ابتداء من الثمانينات . بامتلاك هذا السلاح ، كان بإمكان أي شخص أن يتحدى الإرادة الجماعية داخل الفريق الذي ينتسب إليه. بالطبع ، وبعد ظهور بندق أخرى بأيدي أفراد آخرين ، كان يتم إعادة التوازن. إلا أنه توازن من نوع خاص ، لا باعتباره غير قار ككل سلم مسلح ، وإنما لأنه كان يلزم ، بالنظر إلى الثمن ، أن يكون المرء غنيا لاقتناء السلاح الجديد والحصول على الذخائر بقدر كاف . بالتالي كانت أخطار الحرب محدودة. والظاهرة الحقيقية المستجدة هي أن الأقلية من الأغنياء لا يمكنها ، بعد التسليح ، إلا أن تدرك أن من مصلحتها التفاهم ، رغم أسباب النزاع بينها ، لتفرض إرادتها الجماعية على الأغلبية الساحقة من "إخوانها" العزل أو ناقصي التسليح. بالفعل ، وحتى في أشد الفترات اضطرابا ، والتي ينبغي حصرها - كما سنرى - بين 1910-1920 ، وهو الوقت الذي لم تعد فيه البندقية أداة نادرة في البلاد ، لم يحدث إطلاقا ما يذكر بالمجازر التي رواها أو أوحى

بها موليراس ووسترمارك (Mouliéras- Westermarck) . ظلت السوق بالنسبة لهؤلاء الجمهوريين المتأصلين ساحة للنقاش حتى في الوقت الذي احتدمت فيهم أهواؤهم السياسية ، تتخذ فيها المعركة شكلا كلاميا ، ولا يلجأ إلى السلاح إلا في الحالات القصوى . على العكس فإن جمهوريتهم هي التي اتخذت الآن شكلا مخالفا ، وجه أولغارشية تمكنت فيها الفئة الأكثر غنى ، والتي استقوت بأسلحتها ، ولكن أيضا باتفاقها ، من أن تزداد ثراء على حساب الكتلة الساحقة . استطاعت بدون تغيير المؤسسات ، وبتحريف مجراها لا غير ، أن تحول نفوذها إلى سلطة سياسية حقيقية (31) . أما بالنسبة للفلاحين الميسورين سابقا ، فقد انتقلوا إلى حالة أتباع بعدما تقلصت وضعيتهم الاقتصادية والسياسية .

* * *

نتصور مدى البلبلة التي تمكنت في هذه الظروف من الاستحواذ على عقول الريفيين في بداية هذا القرن . فعلى مستوى القمة والقاعدة من حياتهم تزعزعت كل مفاهيمهم التقليدية . إذ بينما كان السلطان ، في المستوى الأول ، قد تركهم وشأنهم ، ويبدو لهم منحازا ضدهم إلى جانب إسبانيا ، كان عليهم ، في المستوى الثاني ، هم الرجال الأحرار ، أن يطأطئوا الرأس أمام عدد قليل ممن كانوا أندادا لهم في الماضي . أي شيء إذن يحمل على الدهشة إذا كان الريف قد استجاب بسرعة وعلى نطاق واسع لنداء بوحماره الشهير ، بوكاشيف المغربي (Pougatchev) ، الذي انتصب ضد المولى عبد العزيز سنة 1902 ؟ لم تكن هذه الاستجابة بالنسبة للريفيين ، كما قيل فورا ، بدافع من الميل إلى الانشقاق ، ذلك أن الدعي كان يمثل في نظرهم الوريث الشرعي ، الإبن الأكبر للعاهل الراحل ، وكانوا يعتقدون أنهم سيجدون سلطانهم بالضبط في هذا البطل المزيف للقضية الوطنية . ولم ينبذوا عنهم هذا الوهم إلا ليعلقوا آمالهم ، مع جميع المغاربة ، على ابن آخر من أبناء المولى الحسن ، هو عبد الحفيظ ، الذي كان الأمل معقودا عليه لإنقاذ البلاد . لكن ها هو ذا السلطان بدوره ، بعد أن تركهم وحدهم يقارعون الإسبان ، لا يتدخل في نهاية المعارك إلا لقبول الهزيمة بالتوقيع على اتفاقيات 1910 . ثم بعد سنتين ، كان هو الذي وقع أيضا معاهدة الحماية التي سلمت البلاد كلها . بالتأكيد ، لقد انهارت كل الآمال المعقودة على هذا الجانب .

هل كان بإمكان القبائل على الأقل أن تعتمد على نفسها بالنظر إلى الحالة الجديدة السائدة في كثير منها ؟ إن صغار الأوليغارشيين ، الذين فرضوا منذئذ أنفسهم عليها بأسلحتهم ، ومتاعهم ، وأتباعهم ، لم يكونوا آخر من استخلص العبر من فشل

الملكية المغربية. فيما أن الهيمنة الآتية لاسبانيا على الريف ، لم تعد توضع موضع شك ، فان آفاقا وأسعة انفتحت أمام أولئك الذين سيساعدون ، وبشكل فعال ، على مجرى الأحداث. مسبقا ، حدث بينهم تنافس حول الامتيازات والمكافآت التي كان الإسبان يقدونها قبل الأوان ، وقدموا أنفسهم لهم كأعوان نشيطين.

منذئذ لم يبق أمام عامة الشعب ، الذين لم يكونوا يتوسمون أي خير في الإسبان ، ويقفون بقوة ضد سيطرتهم ، إلا أن ينضوا لمقاومتهم ، تحت راية أي قائد جديد يظهر على مسرح الأحداث. وهكذا فقد ظهر بالفعل منذ 1910 محمد أمزيان ، الذي بدأ معه تكتل أولئك الذين سيطلق عليهم "فريق عامة الناس". إلا أن وفاة أمزيان في المعركة في ماي 1912 أحدث فراغا كبيرا كان الإحساس به شديدا خاصة وأن المخزن كان قد ارتضى حقيقة هذه المرة في أحضان الحماية ، وترك بصفة نهائية هذه الوحدات القبلية وشأنها ، بعدما كان دائما عنصر تماسكها. كان يتعين على هذه الدويلات أن تتلمس طريقها بحثا عن بعضها البعض ، وأن تجد من الآن فصاعدا سبل الوحدة. بيد أن الفئة القليلة من الأعيان ، المأجورة من طرف اسبانيا ، والتي تتلقى الأوامر من مليلية ، كانت تعمل بالعكس على تأجيج الخلاف ، مستغلة نفوذها الذي تزايد شأنه. إذا ذاك ، إذ ذاك لا غير ، أخذ الريف يتسم بالمعالم المشابهة ، ولكن من بعيد - وهذا ما ينبغي توضيحه - للصورة الرهيبة التي يود البعض رسم خطوطها العريضة. سنورد في هذا الصدد شهادتين لا يمكن أن نجد ما هو أوثق منهما. الأولى صادرة عن ضابط قاد بنفسه ، ولحساب اسبانيا ، أعمال التخريب التي نحن بصدد الحديث عنها. ففي التوضيح الذي قدمه فيما بعد أمام لجنة التحقيق المعنية من طرف الكورتس ، صرح هذا الضابط ، وهو العقيد ريكليمي ، متحدثا عن أحد عملائه من أعيان قبيلة بني ورياغل :

"كانت الخطة تركز على العمل بشكل تصحيح مع قبيلة بني ورياغل في حالة حرب مستمرة ، عن طريق تحطيم المنظومة المسماة بـ "منظومة الغرامات". لقد كانت القبيلة تفرض غرامة عندما تقع جريمة قتل ، وبذلك يستتب السلم. إلا أن الخطة التي اعتمدتها كانت تقوم بالضبط على الحيلولة دون أداء هذه الغرامة. منذئذ وقع اللجوء إلى التراشق بطلقات النار في الأسواق التي تعطل جمعها ، وتمخضت عن ذلك المطالبة بالثأر ، وبديون الدم. كان القتل يتم من قرية لأخرى ، ولم تتمكن القبيلة إطلاقا من التوصل إلى اتفاق بينها للإلتحاق بأولئك الذين كانوا يحاربوننا. لقد تمكنا من الحفاظ على هذا الوضع طوال سنوات عدة. كانت الحرب دائما بينهم ، ولم تكن أبدا ضدنا" (32).

الشهادة الثانية صادرة عن مستوى أعلى . إنها رواية كوميث خوردانا Gomez Jordana الذي كان قائدا عاما خلال ثلاث سنوات لوحدات الاحتلال في قطاع مليلية ، ثم وإلى غاية وفاته سنة 1918 رئيسا للحملة الإسبانية في المغرب. في 1914 كتب إلى السيناتور الدون توماس ميستيري (Don Tomás Maestre) متحدثا عن الريف الذي كان يعمل جادا لغزوه :

"إن هذا الفريق الموجود رهن إشارتي في مجموع أراضي العدو ، هو الذي يتبع بسهولة تفكيك التكتلات المسلحة التي كانت قد احتشدت في جو حماسي لإبادتنا. فأعضاء هذا الفريق لا بد وأن ينفنوا داخل هذه التكتلات لكي يزرعوا فيها روح الهزيمة قبل أن نتعرض لأي هجوم. وهذا الفريق هو الذي يثير أيضا بينها ، وحسب رغبتني ، صراعات دامية ، كذلك التي تمزق مثلا ، في هذه الآونة ، قبيلتي بقبوة وبني ورياخل بغية شل الريف عن إرسال أي وحدة للقتال على وادي كرت. فبالنسبة لهؤلاء الأهالي تبقى الحرب المستمرة دائما مثلا أعلى. لا أدل على ذلك من أنهم لا ينفكون عن القتال فيما بينهم ، قبيلة ضد قبيلة ، أسرة ضد أسرة ، رجلا ضد رجل. لكن ما يلاحظ هو أن نشاطنا السياسي يعمل على تحريف إرادتهم عن الهدف الذي ارتضوا بأنفسهم أن يكون مخصصا لها. لذلك فإنهم يقضون كيانهم ويحطمونه بأنفسهم ، بلا وعي ، وكضرورة أولية للكفاح الذي يريدون خوضه فيما بعد ، في حين أننا نتابع طريقنا بعزم وسكينة" (33) .

* * *

في التصريح الذي قرأناه الساعة نجد حقا إشارة إلى " مثل أعلى لحرب مستمرة" ، من شأنه أن يعمل على إشغال الريفيين ، وهو يشابه كثيرا ما ذكره جميع المؤلفين الذين نخالفهم في الرأي. لكن ، لنلاحظ أن الجنرال خوردانا لا يعبر ، عند تقديمه ، إلا عن رأي لا نجد مندوحة عن القول بأنه يفتقر إلى التفكير الرصين ، نظرا لأن شهادته نفسها مناقضة له من أولها إلى آخرها ، ولأن الشهادة المتطابقة للعقيد ريكلمي تناقضه أيضا في جميع النقاط. يبقى إذن أن الشاهدين المذكورين يضعاننا ، بصراحتهما الجديرة بالتقدير ، أمام عنصر تعمد البعض تجاهله ، مع العلم أنه يشكل المفتاح نفسه للقضية. إن دراسة المجتمع الريفي بمعزل عن التدخلات الأجنبية سيكون بمثابة التوقع داخل البيضة والتغافل عن الدجاجة التي تحضنها. عندما يخبرنا هارت بأن أهل الريف يفضلون إشاعة دين الدم بدلا من قبض ثمنه (34) ، فإنه لم يكن يعلم أن هذا كان من عمل العقيد ريكلمي. من هنا جاء تفسيره القائم على التربة الجدد ، والإنجاب الريفي

المفرط. إن أميليو بلانكو إيزاكا (Emilio Blanco Izaga) يرق قلبه لمجتمع تعجز مؤسساته، كما يقول ، عن انتشاله من الفوضى⁽³⁵⁾ . ويزايد دافيد هارت ، نظرا لأن هذه المؤسسات ما وجدت في نظره إلا لتكريس الفوضى. أما العقيد ريكلمي الذي كان يوجد في مكان مناسب ، ويدفع الثمن ، بالمعنى الحقيقي للكلمة ، لمعرفة ذلك ، فقد أعاد وضع الأمور في نصابها : "كانت القبيلة تفرض غرامة عندما تقع جريمة قتل ، وبذلك يستتب السلم". بكلمة أخرى ، فإن القبيلة لم تكن تستهدف سوى صيانة السلم الاجتماعي ، وفق التحليل الذي قمنا به أعلاه به ، وكانت تصونه بالفعل في الظروف العادية. لهذا لم يكن بالإمكان زرع الفوضى إلا بشل المنظومة من الخارج. بكلمة أخرى ، لكن هذه المرة من وجهة النظر المتعلقة بالتسلسل التاريخي ، كان الريف يعيش في سلام، ولم تشتعل الحرب تدريجيا إلا بعدما حل فجأة الأجنبي. وهذه النتيجة تلتقي مع ما سبق أن قلناه عن الطابع الحديث للاضطرابات ، وأيضا مع ما يقوله الريفيون .

من أجل تأريخ أحسن للأحداث ، ينبغي القول اننا لا نعني بالأجنبي هنا الإسباني وحده ، خاصة في البدايات. فكما رأينا ، كان الممثل الرسمي لفرنسا هو الذي نظم منذ ما قبل 1900 قضية القراصنة الشهيرة. وعلى فرض أن نشاط الفرنسيين توقف يوما ما ، فإنه استمر على الأقل زهاء عشر سنوات أخرى. تجدر الإشارة في هذا الصدد ، فضلا عن ذلك ، إلى أمر غريب. فمن أجل الدلالة على هذه الفترة ، التي تهمنا، اختار الريفيون لفظا غريبا ، هو "ريبوليك". كيف نفذ إلى المنطقة ولكي يلعب هذا الدور؟ إن دافيد هارت لم يندهش كثيرا عند اكتشافه إياه. مع ذلك فمن الأهمية بمكان استجلاء هذه النقطة التي تدخل ضمن علم الدلالة والاشتقاق. من الواضح أن الريفين لم يتمكنوا من تلقاء أنفسهم من الغوص وراءه . أما فيما يخص معرفة من الذي أوحى إليهم به في عين المكان ، فذلك أمر ليس بالسهل . لكن من بين جميع الألفاظ الدخيلة المشتقة في العصر من اللغات الأوروبية ، يلاحظ أن هذا اللفظ وحده ، أو وحده تقريبا ، كان لا ينطق على النبرة الإسبانية ، وإنما على الطريقة الفرنسية ، كما وقف على ذلك هارت : "ريبوليك" ، وكما وقفنا عليه نحن بأنفسنا "ريفوبليك".

لنوضح مع ذلك أن الاضطرابات الواقعة قبل 1910 لم تكن سوى مؤشرات ، بالرغم من أهميتها، سواء أتم توظيفها لصالح الفرنسيين أو لمناقسيهم الإسبان. بالمقابل، فقد تم تأسيس "مكاتب الشؤون الأهلية" (Oficinas de Asuntos Indigenas) سنة 1908 ، وابتداء من هذا التاريخ تحددت الأزمة ، واتخذت بسرعة طابعا حادا ، إلى درجة أن الجنرال خوردانة سيتبجح بعد ست سنوات بأنه أذكى نيران الحرب حسب مشيئته هنا

وهناك . هذه هي الحقيقة . وسيستمر الوضع على هذا المنوال إلى غاية 1920 .

أما بخصوص الفريق الذي كان الاسبان يستخدمونه لهذه الأغراض ، فأننا سنراه يقوم بعمله في الصفحات التالية . لنكتف بالقول الآن ان الاسبان كانت لهم منذ ما قبل 1908 بكثير علاقات متصلة مع صغار الأوليفارشيين الذين برزوا في غضون العقود الأخيرة . ونعرف فيما يخص هؤلاء الآخرين أن ظهورهم جاء متزامنا مع ظهور البندقية العصرية وبالتالي مع التهريب والتدخل الاجنبي . لم يفت الاسبان من جهتهم ، تدعيم نفوذ هؤلاء بواسطة امتيازات متعددة ، خاصة عن طريق السماح لهم باقتناء الأسلحة من اسبانيا ، وجعلهم وسطاء الزاميين بينهم وبين السكان الريفيين في علاقات الجوار ، الحسنة منها والسيئة ، تلك العلاقات التي كانت تنمو شيئا فشيئا . وعلى الأعيان (Hombres de prestigio) ستتوزع قريبا ، على قدر الاستحقاق ، المعاشات الشهرية لتشكيل فريق أصدقاء اسبانيا وتعاطي النشاط الذي نحن على علم به .

ماكان هذا ليحدث بسهولة لولا الفراغ الذي طرأ في الريف لسلطة العاهل . وهو فراغ فعلى نجم ، بادئ ذي بدء ، كما رأينا ، عن ضعف الدولة المغربية المتزايد من جراء الاغتصابات الأجنبية . وهو فراغ رسمي بعدما فصل شمال البلاد عن سلطته التشريعية سنة 1912 . فبعد غيابها لم تعد السلطة المذكورة قادرة ، كما كانت عليه في الماضي ، على سد الطريق أمام كل علاقة غير قانونية بين اسبانيا وبين أمثال تلك الفئة من رعاياه . وهكذا لم يعد بإمكانها أن تقوم بدور التحكيم في النزاعات والحيلولة دون وقوع الاصطدامات وتحذير المحرضين على الفتن . لذلك ، وعلى عكس الرأي الشائع ، لم تكن فوضى الريفيين المزعومة هي التي أدت الى حركة عصيان مزمنة ضد المخزن ، بل بالعكس كان العجز الذي اعتري هذا الأخير في الفترة الحديثة هو الذي فتح المجال أمام فوضى حقيقية .

يبقى أن نحدد على كل حال المضمون الحقيقي لوضع نتعته تساهلا ، كما فعل آخرون ، بكلمة الفوضى هاته والمأخوذة بمفهومها العام . انه وضع تصورناه حتى اليوم كفوضى ضاربة أطنابها لا تخضع وقائعها لأي منطق بشري ، لا هدف لها ولا اتجاه لها ، الا أنها تقود المجتمع الى حافة الدمار وتحطيم كيانه بنفسه . كانت أتفه حادثة تؤدي الى نشوب الحرب فتنتشر نيرانها انتشار النار في الهشيم بمقتضى منظومة بالغة التعقيد من التحالفات التي نجد مشقة في استجلاء تشابكاتها السلافية العويصة . أما بالنسبة للأفراد ، وهم أدوات مسخرة بيد الأقدار ، فلم يبق لهم الا القتل أو الاستلام

للقتل حتى الفناء . نرى أن الصورة أجيد رسمها لتذكيرنا بمأساة أشيل (Eschyle) - ومن الممكن أن الامر هنا لم يكن مجرد صدفة - بيد أن روابطها بعيدة أشد البعد والحقيقة التاريخية . أولا ، وقد سبق أن أفصحنا عن هذا ، انها تتطوي على كثير من الغلو . ففي التقارير الوافية الموجهة في طراوتها من طرف ضباط المخابرات الاسبانية لا نجد أي أثر لهذه المذابح . أحيانا ، كان يتم احراق عدد من المساكن . لكن القتل كان يحدث بدرجة أقل . وعلى سبيل المثال ، فقد ترك اغتيال الشريف بورجيلة أثرا عميقا الى حد أن الناس لا يزالون الى اليوم يتحدثون عنه في الريف . وثانيا ، وهذا هو الأهم ، لم تكن الحرب الحقيقية نتشعب بسبب هلاك كلب ، ولا بسبب مشاكل الجوار ، كما أنها لم تكن بلا هدف . انما كانت دوافعها توجد في مستوى أعلى . يقول خوردانه : " ان الهدف الذي ارتضاه الريفيون ، هو خوض الكفاح ضدنا " . فالأمر يتعلق هنا لا أقل ولا أكثر بطموح وطني . وهو شعور شائع على نطاق واسع مادامنا نرى ، حسب نفس الشاهد ، أن " التكتلات كانت قد احتشدت في جو حماسي لبادتنا " . من ثم ضرورة العمل السياسي عن طريق العملاء الريفيين الذين عملوا جادين على اثارة صراعات هامشية . وهكذا فقد انتقصوا بالطبع من مستوى الكفاح في نفس الوقت الذي لفوا أهدافه بهالة من الغموض . فكان الريفيون يتقاتلون فيما بينهم بدلا من التوجه إلى القتال على وادي كرت . لكن ، إذا كان عدد كبير قد انساق وراء الدعوة إلى الفتنة ، فإن عددا كبيرا آخر قد أطاق اللثام عنها وانتصب ضد محركها : " فإنهم يقضون بأنفسهم كيانهم كضرورة أولية للكفاح الذي يريدون خوضه ضدنا فيما بعد " . لنعدل قليلا من حدة الغلو التي تتطوي عليها بداية الجملة هاته ، باعتبار أن الريفيين لم يقن بعضهم بعضا ، ولنتنبه كما يدلنا على ذلك الجنرال خوردانه ، ولكن بعبارة أخرى ، إلى أن الكفاح الوطني الذي تعين شنه ضد اسبانيا قد واكبه كفاح سياسي تعين خوضه في الداخل ، بادئ ذي بدء ، أو جنبا لجنب ، ضد دعاة الفتنة .

إذا كانت روح الانتقام قد طغت بإغراء من هذه الفئة الأخيرة ، مؤلبة جماعات بكاملها بعضها ضد البعض الآخر ، بمقتضى منظومة التضامن ، فإن العناصر الواعية كانت تتدخل أكثر فأكثر لإعادة استتباب السلم . حينئذ كانت النزاعات القائمة بين الأفراد أو العشائر تختفي لتحل محلها بالتأكيد أعمال عنف ، لكنها تقوم ضد هذا أو ذاك من الأعيان الموجودين في خدمة اسبانيا ، ضد متاعه الذي ينهب ، أو ضد شخصه ولكن بدرجة أقل في الغالب . كانت مثل هذه الآمال تؤدي بدورها إلى اضطرابات ، إلا أن هاته بالذات قوبلت بعدم الرضى من طرف اسبانيا . وبعدم التمييز بينها وبين

الاضطرابات الأخرى ، تلك التي كانت هي نفسها تحرض عليها ، سنكون في موقف يتعذر معه علينا تماما استيعاب التحول العميق الذي طرأ داخل القبائل الريفية ، والنتائج التاريخية المتمخضة عنه. في الخلافات المحبوبة من طرف مأجوري اسبانيا ، فقد تم توظيف الروابط القديمة للتضامن المجموعة أو الفخذ. لكن في الكفاح ضد اسبانيا ، فإن مقياسا جديدا ذا طابع اجتماعي سياسي هو الذي قاد التجمعات. من جهة ، هناك فريق الأعيان ، إن لم يكونوا في مجموعهم فعلى الأقل في غالبيتهم ، سواء أكانوا ينتمون إلى مجموعة أو فخذ أو قبيلة . في الجانب المقابل ، هناك فريق "حزب عامة الناس" ممن يسعون إلى ربط الصلات بينهم ، ويجدون بعضهم بعضا فيما وراء حدود المجموعات. وبين الفريقين ، تنتصب كتلة مترددة ما تزال خاضعة لمنظومة التضامن ، وتدخل إذن في إطار لعبة الأعيان. لكنها تستيقظ تحت ضغط الظروف لتعي الواقع الجديد ، وستقابل بأذان صاغية أكثر فأكثر نداءات الفريق المعارض. إنها حالة مضطربة بالطبع ، نظرا لأن الكفاح السياسي كان على أشده . وهي حالة يشوبها ظاهريا الغموض ، لكن بالنسبة لملاحظ تعوزه الخبرة. إلا أنها لم تكن غامضة لا بالنسبة للإسبانيين ، ولا بالنسبة لكلا الفريقين الذين كانا يتجاوبان بصددهم. وهي أيضا حالة كفاح غير منظم في ظاهره ، لأنه غالبا ما يتكرر ، مع ذلك فقد كان يتجه نحو منفذ بمقدار ما كانت الكتلة المترددة تتحرر من هيمنة الأعيان لتتقلب يوما ما إلى جبهة المعسكر الآخر. ولقد حل هذا اليوم . فبعد سبع سنوات من التصريحات الشافية التي أدلى بها خورداثة ، وعلى الرغم من الآثار التي خلفها عجز المخزن وخيانة أعيانهم ، فإن جميع الريفيين وجدوا أنفسهم متحدين في مختلف أطراف الاقليم ، وبدون تمييز قبلي. فاذن لم يكونوا قد أفنوا بعضهم بعضا ، بل بالعكس فإن وحدتهم أعطتهم قوة كان أعداؤهم هم الذين اختبروا فعاليتها في النهاية ، على الرغم من أنها تمت في ظروف جد مستجدة .

وبهذا يكون الدليل قد أقيم على الحيوية وعلى فضائل التكيف التي كانت تنطوي عليها منظومتهم العتيقة .

الهوامش

(1) حسب احصاء تقديري بالطبع أجرتها حكومة محمد بن عبد الكريم الخطابي خلال حرب الريف ، وقد استند اليه محمد أزرقان في مخطوطه : "الظل الريف في محاربة الريف" ، ص 3 و 4 .

2) Auguste MOULIERAS : Le Maroc inconnu, Oran , 1895 , pp .132 et 83.

3) Jacques DUMAINE : Les éléments du problème rifain ; in Renseignements Coloniaux " , fév. 1926 ; Robert MONTAGNE : Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc , pp . 238-241 ; (Paris, 1930) , et " La vie sociale et politique des Berbères (Leçons professées à la Faculté des Lettres de l'Université de Paris ; nov-déc. , 1930) Paris 1931 , p. 32.

4) Edward Westermarck : Ritual and belief in Morocco ; 2 vol. ; Londres , 1928 , vol. II , p. 12.

5) "In the last century the Ait Wuryaghil found blood feuding a sure outlet to reduce their over-population" ; David MONTGOMERY HART : An ethnologic survey of the rifian tribe of Ait Wuryaghil, in Tamuda, II, 1954, pp. 51-86.

لبي مريض آخر :

كان الريف الأيسر دائما منطقة مكتظة بالسكان. ولمعالجة هذا المشكل كان يلجأ دائما الى حلين :

(1) الهجرة العمالية الى الجزائر... (2) شريعة النحل ، الانتقام ، أخذ الثار ، ودين الدم ، التي كانت سائدة على الأرجح لدى بني رباغل أكثر مما كانت عليه في سائر القبائل المغربية الأخرى :

De Ripublic à République : Les institutions socio-politiques rifaines et les réformes d'Abdelkrim , communication présentée au Colloque international d'Etudes historiques et sociologiques tenu à Paris du 18 au 20 janvier 1973, pp. 36-37, des Actes dudit colloque publiés sous le titre "Abdelkrim et la République du Rif" , Maspero , Paris : 1976.

6) De Ripublik à République ; p . 37

(7) الهدف الرئيسي من هذا القانون هو جعل السوق ويوم السوق اليوم الوحيد و المكان الوحيد للسلم داخل أسبوع يكون مشحونا بأعمال الانتقام " ، (المراجع نفسه، ص 37) .

(8) اضاف هارت بعد ان ذكر بأن كلمة : "ريپوبليك" Ripublik تعني عند الريفين حالة "الفوضى القبلية" : " اذا كان بعض مخبرينا قد اعرا على أن "ريپوبليك" بدأت بعد الحملة التي قامت بها الحملة الشريفة على الريف بقيادة بوشتة البقادي لتأديب القراصنة البقيويين سنة 1898.... فاننا نعتقد شخصيا أن شعار ريپوبليك يلخص القسم الأكبر من تاريخ الريف الاجتماعي..." (المراجع نفسه، ص 35) .
لبي مريض آخر حدد بداية هذه المرحلة من الفوضى بتحطيم مملكة النكور من طرف يوسف بن تاشفين عام 1084م (نفسه ، ص 36) .

9) Germain AYACHE : "Société rifaine et pouvoir central marocain, 1850-1920", in Revue Historique, CCLIV 2 ; 1975.

(10) لانتظار على معطيات كتابية عن ظروف الحياة الاقتصادية في الريف فيما قيل الحماية . بيد أنه قد ظل بالامكان رصد جوانبها حتى بعد الاحتلال الاسباني والتغيرات التي تمكن من احداثها ، خاصة فيما يتعلق بمستوى الانتاج ، وتوزيع الاراضي ، والعلاقات المرتبطة بالانتاج . ينظر في هذا الصدد :

Emilio BLANCO IZAGA : La vivienda rifeña (curso de perfeccionamiento de oficiales del Servicio de Intervención , Revista " Africa " , Ceuta 1930), Andres SANCHEZ PÉREZ : Aprovechamientos comunales y formas de cooperación en las Yemaas del Rif , "Africa", Madrid, nov. 1947, et G. MAURER, Les paysans du Haut Rif central, in "Revue de Géographie du Maroc", n 14, 1968.

(11) في الحدود الضيقة لهذه الدراسة التي تكتسي طابعا تاريخيا أكثر منه سوسيوإلوجيا ، نقتصر على إبراز السمات العامة للحياة الاجتماعية والسياسية ، متحاشين على وجه الخصوص ، فيما عدا بعض الاستثناءات الضرورية أو المناسبة ، استعمال المصطلحات العربية أو البربرية ، للدلالة على المؤسسات . لمزيد من التفاصيل ينظر أساسا :

Robert MONTAGNE , op. cit. ,

الذي قدم تبرجحا عديدة حول الريف ، وخاصة : هارت David HART الذي يعد بحق أفضل خبير بالحياة الريفية بفضل مراسه الميدانية الطويلة لها . هذه الدراسة موجودة حاليا تحت الطبع [صدرت تحت عنوان :

The Ait Waryaghar of the Moroccan Rif. An ethnography and history ; Tucson , the University of Arizona Press , 1976 , in 4, 556P.]

الا أن المؤلف تفضل بتزويدنا بفصل من مخطوطه تهمننا مباشرة .

هذا وقد اذاع المؤلف وجهة نظره من المسالة في الدراسات التي اشرفنا اليها سابقا وكذلك في الدراسات التالية :

'Emilio Blanco Izaga and the Berbers of the central Rif', in "Tamuda", VI, 1958, pp.171-237, et "Clan, lignage et communauté locale dans une tribu rifaïne", in "Revue de Géographie du Maroc" no 8, 1965, pp. 25 -33.

اخيرا فقد اعتمدنا على مجموعة من الوثائق المكتوبة بالعربية وفي نفيسة ، جمعها في الريف اميلار بلانكو ايزاكا ونشرها بنفسه بـ ترجمتها الاسبانية وتعليقات عليها ، تحت عنوان :

El Rif, 2a parte : La ley rifeña , II. Les canones comentados, Ceuta, 1939 .

وان اعادة التمهين المباشر لهذه الوثائق النفيسة ، التي قمنا بها شخصيا ، ثم الانكباب على تمهين وثائق مغربية أخرى غير منشورة هو الذي مكنتنا من الترحيل الى النتائج المخالفة لتلك التي استخلصها كل من بلانكو ايزاكا ودافيد هارت .

12) في دراسة حديثة ، اظهر الباحث المغربي المقتر أحمد الترفيق ، وعلى احسن وجه هذه الدورة التي تقضي الى تطور ، وذاك بخصوص اينولتان ، القبيلة المغربية المقيمة بجهال الأطلس الأوسط والتي تكثرنا حالتها من بعض الوجوه بحالة القبائل الريفية : 'مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر : اينولتان ، 1850-1912' ، منشورات كلية الآداب و العلوم الانسانية بالرباط ج 1 ، 1978 ، ج 2 ، 1980 .

13) الوثيقة رقم 4 من المجموعة السابقة الذكر التي نشرها اميلار ابلانكو ايزاكا .

14) المصدر نفسه (Canon de los Ait Jattab)

15) Robert MONTAGNE : Les Berbères et le Makhzen....:

ch. IV et V du livre II.

16) نفس المصدر المذكور في الهامش 13.

17) J. du TAILLIS : "Le nouveau Maroc" ; Paris ; 1923 ; p. 327.

18) شهادة شخصية للمؤلف .

19) لمزيد من التفاصيل نستسمح للحالة على دراساتنا السابقة الذكر :

Société rifaïne et pouvoir central marocain...

حيث قمنا بتقديم الشكل ومناقشته من مختلف جوانبه .

20) الوثيقة المنشورة من طرف بلانكو ايزاكا ، مصدر سبق ذكره ، ص 120.

21) رسالة أحمد بن مزيق ، عامل غمار ، الى السلطان المولى عبد الرحمن ، بتاريخ 5 ربيع الاول 1263/22 فبراير 1847 ، مع الملاحظات المثبتة على ظهرها (مجموعة الوثائق المصورة الموجودة في حوزة المؤلف) .

22) رسالة محمد الخطيب الى محمد الزيدي ، بتاريخ 27 جمادى الاولى 1276/20 سبتمبر 1859 ، أوردها : ابن زيان 'اتحاف اعلام الناس' ج 3 ، ص 429 ، 430 ، الرباط 1931 .

23) رسالة محمد الخطيب الى السلطان سيدي محمد ، بتاريخ 8 شعبان 1276/21 مارس 1860 . الوثائق الكتانية ، الرباط ، 1 ، 5 ، زي .

24) بيان الغرامات المفروضة على القبائل الريفية ، وثيقة مؤرخة في 14 ربيع الثاني 1307/8 نوفمبر 1889 . الوثائق الملكية بالرباط ، محظفة ب ، غير مرقمة .

25) رسالة ميري اي كولون (Merry y Colon)، الوزير المقيم لاسبانيا بطنجة، الموجهة الى وزير الدولة بمغريد، في 19 نوفمبر 1863، أوردها :

J.BECKER : " Historia de Marruecos " ; p. 286.

26) في 1864 جردت حملة تالبيبية ضد سكان الحسيمة بناء على استعراء الاسبان، بعد احتجاز ذوق اسباني وقتل بحارته. في 1871 اضطر السلطان الى تجريد جيش الى نواحي مليلية لإرغام قلعية على قبول تحويل مجرى مائي بمحادة المدينة، من طرف الاسبان. في 1893 رعد احتجاز سفينة صغيرة من طرب بقبيرة، كانت في الظاهر تتماطى تهريب الأسلحة، ثم ارسال حملة تالبيبية جديدة. أخيرا، جردت حملة أخرى سنة 1898 في ظروف ستعرض اليها فيما بعد.

27) في 9 نوفمبر 1896 اصدر احمد بن موسى تعليمات المخزن الى محمد اللبادي، من أعضاء دار النيابة بطنجة، لاحاطة وزير بريطانيا علما بحركة التهريب التي تتم انطلاقا من جبل طارق، والتي كان هذا الأخير على حد قوله على علم تام بها (رسالة مؤرخة في 3 جمادى الثانية 1314/9 نوفمبر 1896. وثائق تطوان، 26/23). وتبيننا رسالة مؤرخة في 27 يوليوز موجهة أيضا من احمد بن موسى الى اللبادي بأن هذا الأخير كان قد أجرى مباحثات جديدة مع وزيري اسبانيا وبرتانيا اللذين نصحا بان يتولى السلطان بنفسه حراسة الساحل المغربي، في الوقت الذي كان مطلوبا منهما أن يتدخلوا لدى جبل طارق وجزيرة الحسيمة (حجرة النكدر) لوضع حد لتجارة التهريب بين هاتين النقطتين (رسالة 26 صفر 1315/27 يوليوز 1897، تطوان 29/24).

28) في 16 غشت 1897 كتب احمد بن موسى الى النائب السلطاني بطنجة، محمد الطريس، ليخبره خاصة بوصول مراكب من جبل طارق في 13 يوليوز المنصرم الى جزيرة الحسيمة حيث يوجد المحل الاسباني، وأنه أنزل به أكثر من 700 برميل من التبزل، وكمية كبيرة من التسيج. ثم نقل كل هذه المواد على متن مركب ريفية ولو كان ذلك كله محصنا عنهم لما أفضى بهم الحال الى مالنكر. (رسالة 17 ربيع الأول 1315/16 غشت 1897، تطوان 39/24). في 19 يوليوز 1898 اخبر احمد بن موسى محمد الطريس بوصول مركب الى الساحل الريفي من حيث شحن خفية 300 ثور سلمها مهريو قبيلة بقبيرة (رسالة احمد بن موسى الى محمد الطريس، متم صفر 1316/19 يوليوز 1898، تطوان 28/28).

29) ناول ما يصدر منهم أهل الريف انما ينشأ عن المنازعة مع من يخوض معهم من الأوروبيين في أمور الكليرياتش* (احمد بن موسى الى اللبادي، 3 جمادى الثانية 1314/9 نوفمبر 1896، تطوان 26/23). ولا يخفى أن منشأ فساد هؤلاء هو ترويج باركيات الصبنيول التي تتصارع معهم ويتعاملون مع رؤسائها في الكليرياتش ويفيرون عن أهل الريف بالبعض من أعيانهم وبالدراهم التي يتصارفون بها معهم فيترتب على ذلك ترصد أهل الريف لأخذ الثأر منهم وقد صرحوا في هذه القضية بأن السبب فيها هو ما لهم عليهم من التبعات كقضية الرجل الذي قتل من أغنيائهم ببلاد الصبنيول وأخذوا متاعه داخل حجر النكور ولم يتقابلوا لاعطاء حق لأولاده بعدما أكثر من الشكايات عليهم وكقضية أحد أغنياء أهل الريف الذي تقاعد له أحد رياس الصبنيول على خمسة آلاف ريال فيما كان تعامل معه به من الكليرياتش ولم يجدوا سبيلا للانصاف منه*. (رسالة احمد بن موسى الى الطريس، 17 ربيع الأول 1315/6 غشت 1897، تطوان 39/24). إذا صغر من أرباب المراكب تقاعد عن الوفاء من حقوق أهل الريف المترتبة لهم عليهم يحمل ذلك أهل الريف على ترصد مركب جنس المطالبين بحقوقهم فينشأ عن ذلك ما يكثر الخواطر بدليل أن هؤلاء [أهل الريف] لا يمدون اليد في شيء من المرسوق بتلك المراكب ولا بشيء من حوائجها وإنما يلحفون بعض الأشخاص الذين بها كفافا في حقوقهم ولو وقف ثواب الأجناس الذين تروج مراكبهم بتلك الناحية في منعها من المعاملة مع أولئك القبائل الفساد لبقى هم وجانب المخزن في الراحة وبقيت خواطر الجانبين سالمة من شوائب المكدرات بما يدعي تجارهم وبما يلحق جانب المخزن من الضرر بكثرة الغرامات*. (رسالة احمد بن موسى الى محمد الطريس، بتاريخ 7 ربيع الثاني 1315/4-5 شتنبر 1897، تطوان 48/24). نلاحظ أنه كان من السهولة بكان الاستجابة لطلب المخزن، لأن السفن المهربة كانت تفرغ بضائعها حتى في مركز الحسيمة نفسه.

30) توجد مجموعة كامل من الرسائل تدعنا نتبين كيف تمكنت الحكومة المغربية تدريجيا من اماطة الثام عن الدور الذي لعبه في هذه القضية كل من : (1) الفرع المحلي للزاوية الوزانية. (2) الزاوية الام التي تشككت منها الحكومة المغربية لدى حاميتها، هو سفير فرنسا. (3) المدعو علل العبدى الذي كان يعتقد وخطائف قنصلية والذي أقل الى عين المكان على متن طراة فرنسية. (4) وزير فرنسا نفسه. ينظر على الخصوص : رسائل احمد بن موسى الى محمد الطريس، 16 جمادى الأولى 1315/13 أكتوبر 1897، تطوان 69/24، 23 جمادى الأولى 1315/20 أكتوبر 1897، تطوان 76/24، 17 جمادى الثانية 1315/13 نوفمبر 1897، تطوان 88/24، 17 شعبان 1315/11 يناير 1898، تطوان 125/24، 10 شوال 1315/10 مارس 1898، تطوان 143/24، ربيع الأول 1316/22 يوليوز 1898 : تطوان 37/25. في هذه الرسالة الأخيرة يستعري انتباهنا على وجه الخصوص أن وزير فرنسا كان قد اكد خلال سفارته الى أنه منع علل العبدى من مواصلة حشر أنه في هذه القضية :

غير خفي عن جناب الباشدور ما أنجر اليه الكلام معه فيهم فساد [قبيلة بقبيرة] بسبب ما دار معه في شأن العبدى الى أن لكر أنه رده عن الخوض فيهم... وإنما الذي كان في بال المخزن أعزه الله لما تبرأ الباشدور منهم ولفروا من القبيلة بسبب نزول المحلة عليها أنهم

دائمين وأن المخزن في طلبهم حتى يظفر بهم ولم يخطر ببال المخزن من جهة القانون النظامي أن يقبلهم أحد على ما هم عليه إذا فرأى حتى توجه المدد الأول بعد الأوامر الشريفة اليهم بالتحذير والانتذار ولما وصل المدد الثاني وجههم فرأى وعند الضرب فر المتكلم عليهم وتقبلهم البابور وحملهم لوفران مع أنهم من اكابر العتات وفيهم رؤساء أصل الفساد بل فيهم الذين كانوا قابضين على مساجين النصري (من بينهم ريان سفينة فرنسية) تحت أيديهم ومنهم الحاج على عمر وزيان والحاج عمر شعيب وداودي ابن سعود الذي كان يغريهما على عدم تسريح النصري حتى يسرح اخوانهم المسجونون على يد المخزن أعزه الله حيث تكفل العبيد بتسريح اخوانهم... ولهذا أشكلت هذه القضية على جانب المخزن أعزه الله كما استشكل موجب التكلم فيها أصالة فضلا عن اظهار التعرض فيها على طائفة من رعية المخزن في بلاده وأرضه وقد شاع بغيرها وعلم فسادها الخاص والعام وأرادت سريان فسادها في الأقارب والأبايع ودفع في المغارم المترتبة على فسادهم أموال عريضة ولما وجه المخزن لمعاقبتها وردما للجادة أريد إيقاعه في الحرج والتشفيب بزيادة القليل والقال والتعرض على رؤساء الفساد بسبب الباشدور نفسه بضمن ذلك لما رفعت اليه الشكوى بالأعتاب الشريفة حيث صرح بكونه على علم من أنه... صدر منه ما لا يصدر من العقلاء مع أنه هذا الباشدور قد رفع لجانب المخزن... في سفارته هذه قضايا عديدة كلها ساعد المخزن فيها وراعى خاطره في مياشرتها

(31) ليس من قبيل الصدفة أن نرى ابتداء من هذه الفترة ظهور كبار القواد في جنوب المغرب . وقد سبق لروبر مولتاني أن لاحظ وجود علاقة بين قيام هذه القيادات الكبرى في الجنوب وظهور البندقية العصرية :

Les Berbères et le Makhzen..., p.355.

ولكنه في نفس الوقت الذي لاحظ أن تهريب الأسلحة كان يتم في ان واحد على سواحل الريف وموسى ، لم يكلف نفسه عناء التتصال حول أثر هذه الظاهرة داخل المجتمع الريفي .

(32) شهادة العقيد ريكلمي أمام لجنة التحقيق التابعة للكونتس بتاريخ 29 يوليوز 1923 ، في :

De Anual a la República , Documentos relacionados con la información instruida por la llamada : Comision de Responsabilidades acerca del desastre de Anual ; Madrid ; Javier Morata ; 1936.

(33) نفس المرجع ، رسالة موجودة بين الوثائق الملحقه ، ص 28 وما بعدها .

(34) D.M.HART : An ethnographic survey...p.63.

(35) E. BLANCO IZAGA : op.cit.; Commentaire du document n° 1.

الريفيون والاسبان

ذلك ما يمكن أن يساعد على كشف الغموض عن الوضع الريفي . فالى اليوم ، لم يفهم المؤرخون كيف حل الاتحاد والنظام ، اللذان أثارا انتباه جميع المراقبين خلال حرب الريف ، محل الفوضى السابقة . ذلك أنهم لم يكونوا على بينة من مصدر الفوضى . والا فان الحياة في الريف كانت دائما مرهونة بحضور الاسبان الذين كانت كل طاقات الريفيين معبأة بالأمس ضدهم بدعم من باقي كل المغاربة . كانت الأمور يربما بسيطة للغاية ومغزاها واضحا . لكنها التبست على الأجيال الأخيرة . ومنذ ذلك الحين ، تبلور التهديد الاسباني في مجموعة من المخاطر تداهم من كل جانب ، وهذا في الوقت الذي تراخت فيه الروابط التقليدية بين الريف وباقي أنحاء البلاد . طرحت هذه الظروف أسئلة تتميز بحدة خاصة : هل مايزال النضال ممكنا ؟ وضد من ، وبمعية من ينبغي خوضه ؟ كان من شأن التجربة وحدها أن تساعد على الإجابة عن هذه الأسئلة ؛ ولم يتأت استخلاص هذه التجربة خطوة خطوة الا بفضل تراكم سلسلة من المحاولات الفاشلة ، وسط المجادلات والمصادمات والصراعات الداخلية . لكنها حالما أصبحت مكتسبا ، فانها فرضت نفسها على الجميع ، وانقطع معها دابر الفوضى .

فالامر اذا لا يتعلق بقطيعة ، كما اعتقد الكثيرون ، وانما بتعاقب منطقي ، وكان مدقنات التواصل بين هذه المرحلة أو تلك أمرا ممكنا تماما ، بل ومحتما . اننا سنتبين بشكل أوضح بكثير حقيقة حرب الريف اذا ما نحن تتبعنا في البداية مرحلة نضوجها في خضم الاضطرابات السابقة .

* * *

كان الاسبان قد تمكنوا بين نهاية القرن الخامس عشر ومنتصف القرن السابع عشر من تثبيت أقدامهم في ثلاثة أماكن رئيسية من الساحل الريفي . يتعلق الأمر في البدء بحصن مليلية الواقع في الشرق على شبه جزيرة صغيرة ؛ ثم بجزيرتين تنتصب كل منهما مباشرة قبالة الساحل ، احدهما غربا في الجون الذي كانت تقوم فيه مدينة بادس ، والأخرى وهي (صخرة النكور) في قعر الخليج الأوسط الكبير الذي تكونه الحسيمة (1) .

من الحق أن الاسبان لم يكن في مقدورهم ، انطلاقا من هذه القواعد غير الهامة في الظاهر ، شن غارات عميقة داخل البلاد . لكن هذا شريطة ألا تتهاون مطلقا القبائل

المتاخمة في الاضطلاع بواجب الحذر والاحتراس . من جهة أخرى ، كانت المنافذ البحرية محظورة ، وهو الأمر الأكثر خطورة . ففي الشرق ، كان الطريق القادم من الصحراء عبر وادي زيز ونهر ملوية يصطدم بحاجز مليلية ؛ بينما كانت النكور في الوسط تسد خليج الحسيمة أمام تجارة تازة ؛ أما في الغرب ، فلم تعد بادس المتوقعة في جونها بقادرة على أداء وظيفتها كهزمة وصل بالنسبة الى ريفها ، مع العلم أنها تعرضت للتخريب باكرا (2) .

ندرك اذا كيف بذل السلاطين قصارى جهودهم لتحرير هذه المراكز . غير أنهم لم يظفروا بطائل نظرا لافتقارهم الى اسطول بحري . ففيما كانوا يحاصرون عدوهم عن طريق البحر ، كان هذا الأخير يتمون بفضل عمائره التي تدعمه أيضا بمدافعها . والمحاولة الأخيرة ، التي جرت عام 1774 ، باءت بالفشل مثل سابقتها (3) من ذلك الحين ظهر أن لا مناص من التسليم بوجود هذه الحصون ، لكن مع الحرص على الأقل على حصر ضررها . من ثم تكفلت قبائل الناحية بالآ ترفع عنها الحصار مطلقا ، وهي المهمة التي قامت بها خير قيام ؛ بحيث بات على الحصون أن تستورد من اسبانيا كل ما هي في حاجة اليه ، بما في ذلك الماء عندما تنضب صهاريجها . ذلك ما أذكى في كل أرجاء الريف جوا من الحماس الوطني . وكانت قبائل قلعية الخمس المقيمة حول مليلية ومعها قبيلة بني ورياغل الكبرى قبالة النكور تختزن للأسبان بالخصوص حقدا لا يشفى غليله . ولا غرو ، فقد كان ثمة شعور يخامر القبائل بأنها تضطلع بواجب الدفاع عن الجماعة في الواجهة الأمامية (4) .

ظل الوضع على حاله خلال نصف قرن . فالاسبان لم يرحلوا ، لكنهم لم يتقدموا . وإلا ، اذا حاولوا ، فان القبائل كانت تقف لهم بالمرصاد بمواقفة ودعم السلطان . غير أن حالة جديدة طرأت بعد 1830 مع احتلال الجزائر وتقدم الزحف الفرنسي . لقد شكل هذا الغزو تهديدا بالنسبة للبلاد بأسرها ، كما ظهر ذلك بوضوح في معركة ايسلي التي اندحر فيها جيش السلطان . الا أنه دفع بالريف مرة أخرى الى مركز الصدارة من الأحداث . ذلك أن الريف هو الملجأ الذي استجار به عبد القادر بعد انهزامه ، وفيه تمكن بفضل رجال القبائل ومالها من انشاء القاعدة التي استأنف منها غاراته في الجزائر (5) .

كان الدعم الراسخ الذي قدمه الريفيون على هذا النحو للقضية الجزائرية يرتبط في أنظارهم ارتباطا وثيقا بنضالهم الخاص ضد الاسبان . فكيف يشكون والحالة هاته

في أن اخوانهم كانوا يرمقونهم بعين الاجلال على كلا الواجهتين ؟ بالفعل كان عبد القادر يحظى بشعبية كبيرة وسط جميع المغاربة . وكان فوق ذلك يتمتع بكفالة السلطان . الا أننا وجدنا هذا الأخير يقدم ذات يوم على توجيه جنده لطرده من الريف وارغامه بذلك على الاستسلام للفرنسيين (6) . كانت الصدمة قوية على نفس الريفيين الذين سبق لهم أن أجاروه . ومع أنهم امتثلوا لأوامر سلطانهم ، كما يقتضيه واجبهم ، فإن السؤال هو هل كان في مقدورهم أن يتبرأوا من سلوكهم الأخير ؟ وهل كان في مقدورهم بفكرهم البسيط أن يفهموا كيف تأتى للواجب أن يتمخض عن مستلزمات متناقضة الى هذا الحد ؟ كان ذلك بمثابة الصدمة الأولى التي هزت الضمائر .

بيد أن أنظارهم سرعان ما استدارت الى جهة أخرى . فقد أخذت اسبانيا تعمل من جديد على تثبيت أقدامها في المنطقة ، تستحثها فيما يظهر المشاريع الفرنسية . في أبريل 1845 ، أوجبت على السلطان توسيعا لحدود سبته ، وهي القاعدة التي تحتلها على الساحل الغربي عند مدخل المضيق (7) . وماهي الا فترة يسيرة حتى انتزعت منه أيضا الجزر الجعفرية الثلاث التي تحمي في الشرق حصن مليلية ، قبالة ملوية . بالتدريج أصبح تهديدها أكثر جلاء ، ليفضي عام 1860 الى حرب اجتياحية . بفضل النصر الذي نالته في أعقاب ستة أشهر من المعارك ، فرضت على المغرب تعويضا ساحقا وضم قطعة أرض بمحاذاة سبته (8) . وهكذا فقد تمخضت القضية عن حرب خاسرة . الا أن الريفيين وجدوا فيها السلطان ثانية بجانب الشعب ضد أعدائهم كما كان دأبه في الماضي . وكانوا بالتالي ، كما رأينا (9) ، قد ألقوا بأنفسهم في المعركة بكل قواهم ، وأبلوا فيها البلاء الحسن بشكل ميزهم عن الوحدات القادمة من مناطق أخرى . لذا فقد عابوا الى ديارهم تحوهم روح الانتقام بدلا من روح الاستسلام لقوم منهزمين .

لكن بمجرد عودتهم علموا أنهم مطالبون بالتخلي بدورهم ، وبدون معركة ، عن أرض بجوار مليلية ، وذلك بناء على اتفاقية بين الاسبان والسلطان (10) . فكان أن أثار الخبر زوبعة من الغضب ، الى حد أن الاسبان وقد غامروا داخل الأرض قصد رسم حدودها ، اضطروا بسرعة الى العودة على أعقابهم . ثم كان عليهم الانتظار طيلة سنة قبل أن يقرر السلطان توجيه أخيه على رأس قوة مسلحة لفرض الطاعة على قبائل قلعية الخمس . فكان أن خضعت القبائل . غير أن شاهدا اسبانيا يسجل مدى المرارة التي استولت على القبائل . فقد صرحت قائلة :

"لم نكن نعلم أن اسبانيا يمكنها أن تكرهنا على التكنيل بنا بأيدينا ذاتها" (11) .

على أن هذا لم يكن بالنسبة للريفيين سوى بداية عملية ترويض طويلة ستستمر الى نهاية القرن . كان يغيب عنهم أن السلطان ، المنهزم ، والمفلس ، والغارق في الديون ، سينقاد أكثر فأكثر الى الاذعان أمام التهديدات والاندازات ، وأن ذلك سيؤدي الى سلسلة جديدة من التنازلات على حسابهم . وبوقوفهم بعناد واصرار ضد هذه التنازلات فانهم سيجبرون السلطان على الاختيار المر الذي لا مفر منه ، وهو التنازل بهم ليقودهم بعضا الاكراه الى الرضوخ في عقر ديارهم لارادة أجنبية .

في يوليوز 1866 علموا أن السلطان تنازل للاسبان عن اقامة مركز جمركي كان هؤلاء يطالبون به منذ مدة طويلة . وهذا يعني ، بعبارة أخرى ، رفع الحصار الذي تكفلوا بمهمة ابقائه في مليلية . لذا فقد انبروا طويلا يعارضون الاجراء وبكل ما أوتوا من قوة ، بحيث أفضى الأمر في الأخير ، بعد مضي سنة واستنفاد كل الوسائل ، الى اقامة المركز الجمركي - وهو مركز مغربي- داخل مليلية ، في مأمن من نيرانهم (12) . كان ذلك ترجعا من دون شك . لكن يبقى أن الحصار ألغي قانونيا ، وأن المعاملات ستتوطد لا محالة مع مرور الزمن بين الحصن والقبائل .

بعد ثلاث سنوات طرأت قضية جديدة . فقد شرع الاسبان في تحويل مجرى الوادي الذي يجري في الأرض المتنازل عنها مؤخرا ، خارقين بذلك التعهد الذي يلزمهم بعدم ادخال أي تغيير فيها . استشاط الريفيون حينئذ غضبا ، فحفروا الخنادق ، وحاصروا ورشات العمل ، مجمدين بذلك الأشغال (13) . أما السلطان الذي تم الاستجداد به من جديد ، فقد تردد في التدخل . لكن بعد أن قض الاسبان مضاجعه انطلاقا من مدريد خلال سنتين ، وبعد أن رأى الانجليز يحشرون أنفسهم في القضية ، فانه وجه في الأخير قوة من ثلاثة آلاف رجل لردم الخنادق المغربية ، مما مكن الاسبان من انتهاء الأشغال (14) .

* * *

رغم الاطار الضيق الذي كانت فيه هذه الحوادث ماتزال منحصرة ، فمن الخطأ التقليل من أهميتها واعتبارها وليدة العقلية الضيقة والمتأخرة للريفيين المعادين - كما يقال - لكل تجديد . ان اسبانيا ، الدولة الأوروبية ، لم تكن لتهدد بالدخول في الحرب جريا على عاداتها ، بسبب خصومات تتعلق بقرية أو بأخرى (15) . الحقيقة أن كلا من الطرفين كان على بصيرة بالمرامي الحقيقية للصراع ، والتي تتجاوز بكثير علته الآنية . لنقتنع بذلك ، حسبنا أن نورد شهادة سبق أن ذكرنا بعض مقاطعها ، وهي لسفير

اسبانيا بالمغرب ميرى اى كولون (Merry y Colón) . فقيما كان يجري بحضوره طرد الريفين من الأرض المتنازل عنها قرب مليلية ، وجه اليه أحدهم هذه الكلمات :
"اننا معشر المغاربة سنصبح كلا شيء . لن يبقى علينا سوى الانعزال في الصحراء" .

إلى هذا أضاف الدبلوماسي في تقريره التعليق التالي :

"أن هذا العجز يتذكر بلا ريب ذلك الخفير ، الذي كان منذ أربع سنوات خلت بطل برأسه سهوا فوق أسوار مليلية ، ويسقط من حينه صريعا . وبمعاناة المرحلة التي طوتها اسبانيا ، فانه يستشعر أن أحداث اليوم ما هي الا بداية لما سيتحقق حتما ذات يوم : امتداد ممتلكات اسبانيا على سواحل... هذه الامبراطورية الافريقية...التي عليها قد صارت منهارة وخائرة القوة... أن تنهي حياتها في رمال الصحراء " (16) .

هكذا وفيما وراء حامية مليلية الوديعة ، كانت ترايض اسبانيا الغازية ؛ وفيما وراء الريفين ، كان الغزو يستهدف المغرب قاطبة . وعليه ، كيف يمكن أن ندعى بأن هؤلاء الآخرين كانوا يفعلون لأسباب تافهة ؟ إن مالم يكونوا يحتملونه في قضية التخلي عن قطعة أرض للأسبان لا يرجع الى تخوفهم من أن تسلب منهم بعض أراضيهم ، سيما وأن السلطان أظهر استعدادا لتعويضهم عنها ، وانما الى ادراكهم أن مليلية ستوفر فدهم في المستقبل على حادور ؛ كانوا يدركون أيضا أن الحامية سيزداد عدد قواتها أضعافا بممارسة التجارة وبالتالي بالتمون في عين المكان واستغلال ماء الوادي ، وأن خلق روابط اقتصادية سيعمل من جهة أخرى على تشتيت صفهم بأن يجتذب عددا منهم الى الفك الإسباني؛ وكانوا في الأخير يستشعرون أن الحادور الجديد ، المخصص ببنيها لمنعهم من الاقتراب ، سيزود ذات يوم بقلع من حيث يمكن للعدو أن يهاجمهم عن قرب . فبعد أن كانوا محاصرين ، سيصبحون وقتئذ محاصرين ، وهذا دون ان تكون لهم ، مثل الاسبان ، حتى تلك الأسوار المنيعة التي يمكنهم الاحتماء بها . من ثم رفضهم انخال أي تغيير في الأرض المتنازل عنها . وحرصهم على الكشف عن أدنى خطوة يقوم بها العدو نحوهم ، ورفضهم في وجهه راية المقاومة ، فانهم كانوا يدافعون أولا عن أنفسهم وممتلكاتهم ، لكنهم كانوا فيما وراء ذلك يحاربون أيضا في سبيل البلاد . لأجل هذا فان حوادث مليلية التي بدت وكأنها لا تهم سوى قبائل قلعية المجاورة ، ستستقطب بالتدريج اهتمام كل القبائل الريفية .

بيد أن هذا الاستقطاب الواسع كان يتطلب إن لم نقل رئيسا ، فعلى الأقل

مرشدا أو ملهما . وكما هي العادة ، فقد آل الدور الى رجل صالح أهله نفوذه الروحي المهمة . يتعلق الأمر بالمدعو الشيخ ميمون ، الذي نعرف اسمه من دون صورته ، لكنه أثر فيما يبدو في الاحداث طيلة الأربع السنوات من حياته النضالية . لم يكن يتمتع في البداية سوى بنفوذ محلي في اتجاه النكور وبادس ، وبالتالي في جهة بعيدة جدا عن مليلية . في 1889 احتجز أتباعه مركبا يتعاطى للتهريب . وحسب السيناريو المألوف ، قامت اسبانيا بالاحتجاج بينما تكفل السلطان بانزال العقاب . وهكذا فقد أحرق بيت الشيخ ميمون وقتل ابنه ونفر من رجاله (17) . الا أنه تمكن من الفرار وانتقل الى جهة أخرى لا ستنفار القبائل . وقد بث أنصاره بالفعل ، وبشهادة الاسبان ، روح الانتقام في كل جهة تقريبا . الا أن هذا لا انتقام كان موجها ضد اسبانيا لا ضد السلطان ، و هي ملاحظة ينبغي أخذها بعين الاعتبار (18) . بعد سنة ، وجدناه على أبواب مليلية . و عندما هاجم الريفيون فرقة من الخيالة وقد توغلت بعيدا ، عرف الاسبان أنه من وراء الهجوم . وسيعرفون دوره هذا بمزيد من الوضوح غداة حوادث خطيرة ستقع بعد ثلاث سنوات .

في 1893 ، وكما توقع الريفيون منذ مدة طويلة ، أخذت اسبانية في بناء قلعة في حدود الحاور . غير أن رد الفعل لم يتأخر بتاتا . فاندلعت معركة انتهت بانهزام الفرقة التي خرجت من مليلية . كان ذلك ، وبشكل أخطر ، صورة لما حدث منذ 23 سنة في نواحي سبتة وقذف يومها المغرب و اسبانيا في أثون الحرب . هل ستتكرر إذاً المواجهة ؟ ذلك ما ساد اعتقاده مدة معينة ، سيما بعد دخول اسبانيا في المواجهة . ففيما نشبت أيضا معارك ضارية بين الحامية والريفيين ، وجدناها تنزل جيشا حقيقيا بمليلية بقيادة قائد عسكري كبير . الا ان السلطان تغيب عن الميدان . أو بالأحرى ان جيشه رفع راية بيضاء ساعة وصوله ؛ و اذا بهذا الجيش يستدير ضد الريفيين ، ويطاردهم ، و يخرب خنادقهم ، و يعتقل الشيخ ميمون ويسلمه للاسبان . من جهته ، تعهد السلطان بالتكفير عن خطأ رعاياه بواسطة تعويض من 20 مليونا (19) .

من الملفت للنظر أن نلاحظ أن الريفيين المشهورين بقوة شكيمتهم ، و كانوا كذلك بالفعل أمام الاسبان ، طأطأوا الرأس بوداعة أمام جند السلطان . لكن مهما كان كبيرا الولاء الذي أظهروا مرة أخرى بعد حدوده ، فان هذه المحنة كانت كفيلة دون شك بزعرته بشكل عميق . تنهض دليلا على ذلك حوادث مماثلة وقعت في نفس السنة في ناحية أخرى من البلاد . ففي 1893 قام الفرنسيون قرب فكيك بدفع بعض القبائل الخاضعة لهم الى داخل التراب المغربي بعد أن طردوا منه سكانه الأصليين . ولما حج هؤلاء لانذار

السلطان ، اكتفى هذا الأخير بمحاولة تلطيف مخاوفهم و تقديم التطمينات حول حقيقة نوايا الفرنسيين . بيد أنه كتب يقول ، مشيراً الى عدم جدوى هذه المساعي :

" ولكنهم على يقين من أن مخاوفهم مبنية على أساس . وقد استشاطوا غضبا ضد الجزائريين كما استشاطوا غضبا ضد مخزننا ، لأنهم يعتقدون أنه على اتفاق مع الجزائريين و سلطاتهم التي طردتهم من أرض أجدادهم " .

هذا بالنسبة للحاضر . أما بالنسبة للعواقب المتوقعة ، فقد أضاف العاهل :

" اذا لم تعمل فرنسا على اعادة الأمور الى نصابها ، بحمل القبائل على التزام جانب النظام ، فان قبائلنا ستتقلب لا محالة ضد مخزننا ، بأن تحمله محمل السوء . ويشقها عصا الطاعة ، فانها ستضرب عرض الحائط بنداواتنا كلما دعوناها الى التبصر لتتكفل بنفسها بالدفاع عن حقوقها " (20).

ذلكم تحليل يمكن سحبه حرفا بحرف على الريفيين ، باستثناء أن السلطان في مثالهم ذهب الى حد بعيد في المجازفة بسمعته ، و باستثناء أيضا أنهم أخذوا مسبقا على عاتقهم مهمة الدفاع عن أنفسهم ، وقاموا بها بنجاح ، فكبدوا العدو خسائر فادحة ، بل و قتلوا منه جنرالا (21) و بقوا سادة الميدان . فلو لم يكن المخزن ، لأمكن للريفيين تحقيق النصر بالاعتماد على النفس : ذلك ما يمكن أن تعتقده القبائل مستقبلا ، سواء عن خطأ أو صواب .

و الحال أن قضية بالغة الخطورة طرأت كذلك بعد خمس سنوات لتدفع بغضب الريفيين الى مدهاء . سبق أن رأينا كيف تحولت المراكز الاسبانية في السنوات الأخيرة من القرن ، خاصة النكور ، الى مراكز تهريب . و حول هذا التهريب ، انضافت قضية " القراصنة الريفيين " المحركين من الخارج ، و الذين يرفضون تحرير اسراهم الأوروبيين مستخفين بأوامر سلطانهم . في نهاية المطاف ، تمكن هذا النفر من الاشرار المنتمين إلى قبيلة بقيوة من الافلات من القصاص بفضل سفينة فرنسية أقلتهم على متنها (22) . بيد أن المغامرة التي انتهت بالنسبة إليهم لم تكن سوى بداية بالنسبة لإخوانهم الأبرياء . فقد أمر السلطان مغضبا بتجريد حملة تأديبية ضدهم أسند قيادتها إلى ابن بوشنة بن البغادي . ومنذ وصول هذا القائد المعروف بشراسته ، كشف لرؤساء القبائل المجاورة عن عزمه على اعتقال المجرمين ، لكن مع القيام بالخصوص بجولة صاعقة ليظهر للدول العظمى أن السلطان هو صاحب السيادة في الريف ، تلك السيادة التي كانت تتظاهر بتشككها فيها . على أنه كان مفهوما ، و ان لم يصرح بذلك ، أنه سيسعى قبل كل شيء

الى ارضاء الاسبان بانزال عقاب يكون عبرة (23) . أما وقد أفلت المجرمون الحقيقيون من بين يديه ، فلم يبق له -بالغضب الذي نستشفه - سوى تنفيذ ما تبقى من برنامجه و هو ما قام به الى حد أن الأسطورة تناوات حركته فيما بعد لتقصي تفاصيلها مضخمة وقائعا (24) . مهما يكن ، فقد أوقع البغدادي في شباكه بحوالي 200 رجل من زعماء الأسر وجرهم الى سجون الداخل . حتى ذلك الحين ، كان المخزن يكتفي بالحيولة بين الريفيين و الاسبان ولم يسبق له أن نكل برعاياه ، باستثناء بعض الخواص منهم الذين ثبتت ادانتهم . أما الآن فقد أوقع على العكس ، بالجملة ، بأناس لا سبيل الى اتهامهم بأية تهمة . ناهيك باقدامه على نفيهم . ويا له من عار بالنسبة الى الريفيين ذلك السجن الذي لا عهد لهم به ولا مكان له في مؤسساتهم ! إذا أضفنا أن السجن المغربي كان حينئذ عبارة عن محنة تنفطر لها القلوب ، فإننا ندرك مدى القلق الذي أثارته روايات المسجونين الأشقياء لدى عودتهم بعد سنة أو سنتين (25) . فلا بدعُ إذا كانت الذاكرة الشعبية في الريف تُرجع إلى هذا العصر ، الذي تحدد تاريخه بالضبط ، نهاية عالم وبداية عهد من البلايا العظمى (26) .

* * *

علوة على ذلك فقد أخذ المغاربة قاطبة يتقاسمون الشعور ، بدرجات مختلفة ، بأن بلادهم تمر يومئذ بمنعطف في حياتها . ففيما قبل بوضع سنوات ، عندما توفي مولاي الحسن فجأة دون أن يتمكن من تسوية مسألة ولاية العهد ، فإن صبيا من أصغر أبنائه ، مولاي عبد العزيز ، هو الذي ولي على العرش ، بإجحاف حقوق ورثته الراشدين ، وذلك بتدبير من الحاجب الداهية أحمد بن موسى (27) . وهو الأمر الذي مكن هذا الأخير من السيطرة على زمام الأمور طيلة ست سنوات . لكن عند وفاته عام 1900 ، وجد عبد العزيز نفسه وحيدا ، بدون خبرة ، وسلطته فوق ذلك موضع نزاع ، ليتحمل أعباء تتجاوز بكثير إمكانياته . والحال أن الظرفية كانت تكتسي طابعا خاصا من الخطورة . ففيما كان المغاربة يستشعرون استئثار التغلغل الأجنبي في جميع شؤون البلاد الداخلية ، لم تتردد فرنسا في الترامي علانية على الأراضي المغربية . وهكذا فقد احتلت غورارة في الوقت الذي لفظ فيه أحمد بن موسى أنفاسه . ثم بعد ستة أشهر استولت على توات . وبُعِيدَها أوجبت على المخزن التخلي لها عن زفانة (28) . من جهتها ، طالبت اسبانيا بافني وتشوقت إلى ضم الساقية الحمراء (28) . ومع أن جميع وسائل الإخبار العصرية كانت منعدمة وقتذاك ، فإن هذه الوقائع كانت معروفة وكانت تثير في كل جهة موجة من القلق والاضطراب . وقد أُلقيت تبعيتها شخصيا على عبد العزيز . كان

الناس يعرفون حياته الطائشة. وكان يقال بأنه منحاز للعدو المسيحي ، بل وراجت إشاعات تقول إن الفرنسيين تمكنوا من أن يخلوا محله شخصا يشابهه تماما (29) .

في هذا المناخ من الهياج ، حيث كان الرأي العام مهياً لتصديق أي خبر كان ، أُلْتُ الطامة الكبرى الكفيلة أكثر من غيرها بإثارة البلبلة في العقول. في نهاية 1902 تراسى الخبر إلى الناس بأن مولاي امحمد ، الأخ الأكبر لعبد العزيز ، وهو الأمير الوريث المحروم من العرش ، تمكن من الفرار بعد أن ظل سجيناً طيلة ثماني سنوات ؛ ومن ملجئه وسط القبائل المقيمة بين تازة وفاس ، أعلن أنه سيطرده عبد العزيز المغتصب ، ويسترد عرش أجداده للدفاع عن بلاده وإنقاذها (30) .

الحقيقة أن الأمر يتعلق بمجرد خدعة ، فالوريث المزعوم ما هو إلا رجل من عامة الناس ، يدعى الجيلالي الزرهوني ، وسيلقب فيما بعد ببوحمارة. لكنه رجل جريء ، على جانب من الدهاء والحكمة ، وعلى معرفة بالمخزن ورجالاته بفضل خدمته في السلك المخزني مدة طويلة. ولم يكن من المستبعد ، بابتكاره في هذه الظروف المواتية جداً نفس الخدعة التي ابتكرها بوكاتشيف (Pougatchev) في روسيا ، أن يستقطب المخووعين في بلد لا يعرف فيه الرعايا ، ولو عن طريق الصورة ، لا السلطان ولا أي أمير من الأسرة المالكة. لذا ، وعندما شمر المخزن عن ساعد الجدل لإثبات الحقيقة ، فإنه تمكن إلى حد ما من فضح أمره. لكن ليس في كل جهة . بحيث إن الأمير المزيف تمكن من أن يضم إليه عدداً من الأنصار ؛ مما ساعده على فرض نفسه كدعي خطير ، والصمود في وجه جيوش السلطان طوال ست سنوات.

ذلك ما يعود بنا إلى الريف. لأن الريف هو الإقليم الذي وجد فيه الدعي بسرعة أنصاره الأشد تحمسا. وفيه وجد الموارد والرجال لخوض الحرب. وفيه أخيراً تمكن من إنشاء قاعدة لمخزنه بعد أن حاول ذلك عبثاً في جهات أخرى. منذ نهاية يناير 1903 ، ولما مضى وقت قصير على ظهور الزرهوني ، كتب القائد بوزيان بن علي السعيد إلى السلطان يقول :

«لقد وجدنا الناس ، ونحن نقترّب من الريف ، في حالة قصوى من الهيجان من جراء الأخبار الصادرة عن الثائر الذي فتن المسلمين ... وعند وصولنا أردنا تائب جماعتنا لكن مسعانا لم يسفر إلا على تأجيج روح التمرد ... وخلاصة القول ، انه لم يعد يوجد اليوم في المنطقة شريف ، أو قاض ، أو عدل ، إلا وقام بزيارة الفتان ، أو كاتبه على الأقل » (31) .

في 12 أبريل ، أي بعد شهرين ، نتبين من تقرير للقائد ابن سناح ، أن الوضع الذي كان بالأمس ما يزال غير مستقر ، أصبح منذئذ متبلورا ؛ نقرأ فيه :

«إن كل الريفيين انحازوا كرجل واحد إلى جانب الفتان الجبلاي الزهوني ، وعبثا حاولنا ان نبين لهم وجهه الحقيقي والأغراض التي ينشدها» (32) .

بالفعل ، وفي اليوم التالي بالذات ، أي في 13 إبريل ، تخلصت قبائل قلعية من قائد السلطان ابن سناح ومن الحامية التي يقودها ، ورحبت بالزهوني (33) . من ذلك الحين أصبح في أنظارها السلطان الحقيقي . وسوف تحارب بجانبه أكثر من سنتين لتمكنه من الاستيلاء على وجدة . بعد فشل المحاولة ، فإنها ستأويه بين ظهرانيتها وسترتضي خلال ثلاث سنوات أخرى بأن تبقى من رعيته .

ليس من المعقول تماما أن ندعي ، كما هو شائع ، أن اختيار الريفيين جاء بالمناسبة بدافع من الرغبة في الاستقلال عن السلطان. لو جاز افتراض ذلك ، فلماذا سيتحرقون هم وحدهم شوقا للحرية من دون الآخرين ؟ كأنكاد وبني يزناسن على سبيل المثال ، وهم جيرانهم بالشرق الذين وحدهم المتمرد دائما في مواجهته ؟ أو كأنجرة وآخرين من جيرانهم بالغرب ، الذين توصلوا بنداواته لكنهم بعد إمعان النظر ، لم يستجيبوا لها (34) ؟ ثم لماذا سيستبدلون عاهلا متناثيا ، وقليل الطلبات ، ويترك لكل فرد منهم ضمن قبيلته استقلالا ذاتيا على أوسع نطاق ، بطاغية فظ ، يعيش منهم وبينهم ، مت دخلا مع مرتزقته من سفالة القبائل الأخرى في شؤونهم الداخلية ، جامعا باستمرار الضرائب والوحدات من أجل تجريد حملاته ؟

الحقيقة على طرف نقيض من ذلك . لقد شددوا النكير على السلطان لأنه أصبح بالعكس متناثيا عنهم ، ولأنه تركهم يقارعون الإسبان وحدهم ، إن لم يتدخل بعد فوات الأوان وبجانب العدو لا بجانبهم. لقد تحملوا مع الجبلاي الزهوني تضحيات جسيمة. لكن ذلك هو الثمن الذي يتعين دفعه من أجل توحيد صفوفهم . وطيلة المدة التي سيكون فيها هناك ، في سلوان ، قبالة مليلية ، فإنه سيوقف الإسبان عند حدهم. إن استقلال البلاد ، لا استقلال القبائل ، لهو الفصل الذي استهواهم من برنامجهم. وهو الذي أحبط تماما الدعاية المضادة التي قام بها عبد العزيز. هل يمكنهم اعتبار الزهوني دجالا ؟ كغالبية المغاربة ، كان من الممكن أن يقرؤا بذلك ، إلا أنهم لم يقبلوا. فيما أن اختيارهم كان مرهونا بالمنازعات القائمة بينهم وبين الإسبان ، وبالتخوف الذي كان ما يزال يساورهم من اسبانيا ، تراهم قد ظلوا وحدهم في البلاد يعاندون في ضلالهم . سيما

وأن عبد العزيز ، بدلا من أن يستعيد رباطة الجأش، بدا متقاعسا أكثر فأكثر أمام أوروبا. وكان عقد الجزيرات الذي رسم منذ 1906 الخطوط العريضة لتجزئة المغرب بين فرنسا وإسبانيا ، قد استقبل في مجموع البلاد كآته ناقوس خطر. على أن الريفيين اعتبروه بالخصوص تخليا لا أكثر ولا أقل عن الريف لأعدائهم التقليديين الإسبان. كيف يمكنهم أن يروا ظلا من الشك في هوية وبالتالي في مشروعية زعيمهم امحمد المزعوم ، الضمانة الأخيرة لاستقلالهم ؟

* * *

على الأقل كان ينبغي على هذا الأخير أن يضطلع فعلا بهذا الدور. وهو ما أوهمهم به أمدا طويلا من الزمن. فقد ربط علاقات وطيدة مع فرنسيي الجزائر ، تلك العلاقات التي لم يتم حتى الآن استجلائها ، والتي مكنته من الحصول على السلاح والمعدات (35) . على أنه تعلل بأن الغرض منها إنما هو بالذات إيقاف الأجنبي عند حده. والحال أنه لم يحرك ساكنا عندما احتل الجيش الفرنسي وجدة في مارس 1907 ، وهي على أبواب الريف نفسه. فكان ذلك أول ضربة تعرضت لها سلطته ، ولو أن أمرها لم يظهر في حينه . بيد أن حوادث أخرى أكثر خطورة تلاحت فيما بعد. في يوليو ، تنازل الزرهوني شخصيا للإسبان والفرنسيين عن منجمين يقعان في قلب أراضي قلعية (36). وبعدها بدأت فيهما الأشغال وبدأ العمل أيضا في بناء خط حديدي لربط المنجمين بمليلية. ووجدنا رجال الزرهوني أنفسهم يتولون السهر على أمن مجموع الأشغال. وكما لاحظ دلبزل (Delbrel) الذي شغل لدى هذا الأخير وظيفة مستشار رسمي ، فقد كان ذلك بالنسبة إلى الريفيين كدلالة كاشفة . فقد كتب يقول :

"إن التنازل عن المناجم ... وإدخال العنصر الأوربي في المنطقة ، لم يصادفنا هو في نفوس الفريق المتعصب الذي أخذ يعتبر منذئذ الدعي (محمد المزعوم) حليفا خطيرا للمسيحيين" (37).

بيد أن هذا لم يكن سوى الاندهاش الأول. بعد ستة أشهر ، في يناير 1908 ، تجرأ الإسبان على الخروج من مليلية بقوة كبيرة ، وهو ما لم يقوموا به طيلة قرون من تواجدهم. وخلال زحفهم بمحاذاة الساحل ، على بعد عشرين كيلو مترا ، استولوا على منشآت مرفا (38) . كان هذا بشكل لا جدال فيه الخطوة الأولى في الغزو. ولو أن الحادث وقع من قبل ببضع سنوات ، عندما كان الريفيون لا يخضعون إلا لسلطان فاس ، لتكفلت القبائل حتما بإعادة الأمور إلى نصابها. إلا أن الزرهوني ، المنوط به استنفارها لطردها

الغزاة ، لم يبق حتى بمبادرة احتجاج. كلا ، إن القبائل لم تخضع لسلطته لكي تقول الأمور إلى هذا المآل.

* * *

في نفس الوقت الذي استسلم فيه الريفيون للندامة ، واستشعروا دبيب الغضب المتصاعد ، طرأت أحداث خطيرة في الجنوب ستحفزهم إلى إعادة النظر في موقفهم . في نهاية يوليو 1907 ، عندما تنازل الزرهوني عن المناجم للأجانب في عقر ديارهم ، كانت الدار البيضاء قد انتفضت ضد تنصيب مراقب فرنسي في المصالح الجمركية بالميناء ⁽³⁹⁾ . وبعد سقوط المدينة في أيدي الفرنسيين ، فإن قبائل الشاوية المجاورة - التي كان في تقاعس سلطانها ما خيب آمالها - رنت بأنظارها إلى أخيه عبد الحفيظ ، الذي توطدت شهرته بفضل وظيفته كنائب ملك بمراكش. منذ 16 غشت ، رحب عبد الحفيظ بطلبها ، وكتب يقول :

"لقد نهضنا لنستمع إلى شكايي المسلمين ونأخذ مصالحهم على عاتقنا ، وذلك ليقبوا في بلادهم مستقلين عن الكفار" ⁽⁴⁰⁾.

في 4 شتنبر ، نادت به سلطانا منطقة مراكش برمتها. وبالجمل ، فقد وجدنا نفس التجربة التي قام بها الريفيون أو توهموا القيام بها مع أخ السلطان الآخر ، تتكرر بعد انسلاخ خمس سنوات ، بهذا الفارق وهو أنه لم يكن هناك الآن من يجادل في هوية عبد الحفيظ ، وأن الترحيب الذي خُص به من أول مرة يمكنه لا محالة أن يمتد إلى مجموع البلاد. وبالفعل فقد انضمت إليه المدن أو المناطق الواحدة تلو الأخرى. في 5 يناير 1908 ، جاء دور فاس. وجاءت بيعتها مشروطة بصفة صريحة بالتزام المرشح بإبطال عقد الجزيرات واسترجاع الأراضي المغتصبة ⁽⁴¹⁾ . منذئذ بدا عبد الحفيظ بالنسبة إلى الريفيين البديل البشير لسلطانهم المحلي الذي انزلق هو الآخر في نفس المنحدر الذي انزلق فيه عبد العزيز ، والذي تحققوا أخيرا ، وبكل طيبة خاطر ، من أمره القائم على التدليس والبهتان.

لكن ما حيلتهم الآن لكي يرفعوا عن كواهلهم كابوس وصايت ؟ لقد كانت له فرقة من المرتزقة ، وله في القبائل أنصار متعصبون ، استمالهم عن طريق الروابط الشخصية ، وعن طريق منحهم امتيازات أو وظائف في مخزنه. وهو ما مكنه طوعا أو كرها من أن يجرد الوحدات المجندة من القبائل ويمسك بزمام الكل بمساهمة كل واحد. هذا ولو يكن من المتوقع أن يقوم عبد الحفيظ نفسه بمقارعة ، فقد كان في شغل شاغل مع عبد

العزیز. من ثم التباطؤ والتردد في اختيار موقف .

مع ذلك كان نفوذ الزرهوني يضعف شهرا فشهر ، وكان كل نصر يناله منافسه الجديد يؤلّد الإحساس حتى في الريف بأن مصير المغرب سيقدر بدونه ، وبالتالي ضده. ذلك ما دفعه فيما يبدو ، بعد دخول عبد الحفيظ إلى فاس في يونيو 1908 ، إلى القيام برد الفعل وتشديد قبضته من جديد وبصرامة على قبائله الريفية المترددة . على أنه تشوف بالخصوص إلى قبائله بالغرب التي صار يصعب التمكن من أعنتها بفعل ثاني المسافة ؛ خاصة منها قبيلة بني ورياغل . من الحق أن هذه القبيلة ، الأوفر عددا والأكثر قوة ، كانت قد خضعت لسلطته. لكنها لم تقنع أبداً عن نزعة تنجح قليلا إلى العصيان. هذا علاوة على أن أغنى مناجم الحديد كانت تُحدد في أراضيها بجبل الحمام ، تلك المناجم التي من شأن التنازل عنها للأوربيين أن يملأ خزينته. وهو سبب آخر لضرورة ترسيخ سيادته المطلقة هنالك (42) .

في غشت 1908 ، وفيما كان عبد الحفيظ في الجنوب يتخلص للمرة الأخيرة من أخيه عبد العزیز ، أنفذ الزرهوني نحو الغرب جيشا بقيادة قائد مرعب يدعى مول ودو. وعند وصول هذا الأخير إلى بني توزين ، قام فيما يقال بمجزرة ضد موكب أطفال خفوا لاستقباله (43) . إذ ذاك ، وتحت وقع الرعب الذي زرعه على هذا النحو بالمنطقة ، جمع الضرائب والوحدات في بني توزين أنفسهم ، ثم في تافرسيت ، وبني أوليشك ، وبني سعيد ، وأخيرا في تمسمان. بعد ذلك عسكر مع قواته وإمكاناته المتزايدة في ديار هؤلاء الآخرين ، على أبواب بني ورياغل أنفسهم ، لأنهم هم المستهدفون من حملته. لكن ما هنا سيتغير مجرى الأمور.

بالفعل ، فقد احتفظ بنو ورياغل برياسة جأشهم أمام الترهيب. وبما أنهم كانوا متاكدين من أن مول ودو إنما جاء لقمعهم مهما كانت الكيفية التي سيستقبلونه بها ، فقد بادروا إلى إخبار عبد الحفيظ بالدخول في طاعته ، طالبين منه العون (44) . إلا أن العون لم يصل ، ولم يبق لهم إلا أن يدافعوا عن أنفسهم بالاعتماد على النفس ، مجازفين بالكل في مجابهة على أكثر ما يمكن من المخاطرة .

كان خصمهم كثير العدد ، منظما ، مسلحا ، يتوفر على المدفعية وعلى عدد كبير من الفرسان ، لا يفصله عنهم سوى وادي النكور الصغير الذي يسهل اجتيازه حتى في هذه النقطة القريبة من مصبه. وكانوا هم أنفسهم قد تجمعوا في السهل الساحلي بين نكور في الأمام ووادي غيس الذي يقع مجراه الموازي وراءهم ؛ وهو موقع تمتد فيه

البساتين ، ويتميز بتربة خوارة ، وتتخلله قنوات السقي في كل جهة. كانوا كلهم مشاة ولا يتوفر سوى عدد قليل منهم على بنادق جيدة. إلا أنهم عرفوا كيف يعصمون من وراء الوادي ، ولم يطلقوا النار إلا من قرب. زيادة على ذلك ، فقد عمدوا إلى إغراق الأرض عندما عبر عنهم وادي النكور ، بأن فتحو عيون القنوات. فكان أن تورطت الخيول وأبيد فرسانها أو اعتقلوا ، بينما تم طرد باقي الجيش إلى ما وراء الوادي. ومع حلول المساء ، جاء دور القبيلة لتتقدم نحو الأمام ، لتهاجم ليلا المعسكر الذي لم يستطع مول ودو الخروج منه. في الفجر التحق بمرابضه (45).

بالطبع كان جيش الزرهوني ما يزال قادرا على استئناف القتال. لكن لم يحدث حتى الآن أن تجرأت القبائل الخاضعة له على الوقوف ضده. وهو ما تجرأت عليه قبيلة بني ورياغل. وقد كللت معركتها الأولى بالنصر. كان للحادث صدى كبير. ومنذ الشوط الثاني من المعركة ، التحق محاربو بني توزين بمحاصري المعسكر. وفي اليوم التالي ، بدأت الوحدات الأخرى تنفض من حول مول ودو ، الذي قرر الانسحاب في الأخير بعد أن أصبح غير واثق من مؤخرته. والحال أن الانسحاب جرى بخوض معارك وسط القبائل التي لم تكن تتوفر ، من يمن طالعه ، على الأسلحة تقريبا ، لكنها ظهرت منذئذ معادية له علنا. بسرعة دخلت في العصيان حتى قبائل قلعية المخلصة. في 6 أكتوبر 1908 ، وفي سوق بني سيدل ، تمت إبادة مرتزقة الزرهوني المتواجدين هناك مع صاحبه المكلف بجباية الضرائب (46). فكان أن قام الزرهوني برد فعل قوي. لكن بعد بضعة أيام ، وجد أمامه مجموع القبائل التي مر مول ودو عبرها وقد خفت إلى المعركة. وبالنظر إلى ضعف وسائلها النارية ، فإنها اكتفت باحتلال المرتفعات المشرفة على سلوان مقر حكومته ، والبقاء فيها لتسد عليه مدخل مليلية في الشمال ، وأراضيها في الغرب . وقد اضطر الزرهوني إلى التخلي عن اقتحام هذا الحاجز بعد حوالي شهرين من المعارك الضارية. كان ذلك نهاية لدولته في الريف ، ولم يبق له إلا أن يُولَّى الأديار. في 4 دجنبر شدَّ رحاله مع مرتزقته ميمما وجهه شطر الجنوب ، حيث كانت تنتظره خاتمة مطافه في سجن عبد الحفيظ .

* * *

كان فشل الزرهوني فشلا أيضا للتجربة التي حاول الريفيون القيام بها عندما مدوه بيد المساعدة. كان هدفهم حينذاك أن يجدوا في مخزن مجدد الزعامة التي كانت قبائلهم في حاجة إليها للدفاع عن نفسها متحدة ضد الإسبان. كان الهدف أيضا ،

وبنفس المناسبة ، تجديد الروابط مع مغاربة المدن والبادي الذين كان من حقهم انتظار الدعم منهم. بيد أن النتيجة جاءت بالوجه المعكوس. فقد وجدوا أنفسهم خلال خمس سنوات يتصرفون وحدهم. وإذا كانوا قد اختاروا لهم زعيما في شخص الزرهوني ، فإن هذا لم يعمل إلا على إثارتهم ضد إخوانهم المغاربة ، في حين أن الأمر انتهى بإسبانيا إلى مدّ غزوها في ديارهم أكثر بكثير مما فعلته في الماضي.

بيد أن شخصية الزرهوني هي التي كانت دون شك ، وفي نظرهم ، العلة الكامنة وراء هذا الفشل. إنه لم يكن ابن العامل الراحل كما أفلح في إيهامهم. ولم يكن في مقدوره بالتالي ممارسة وظيفة أمير للمومنين. أما وقد ظهر مرشح آخر يتحلى بدون منازعة بالمؤهلات اللازمة ، فقد كانوا على يقين من النجاح بتجديد الرهان على اسمه. ذلك هو مغزى المبادرة التي قامت بها قبيلة بني ورياغل في الغرب منذ شهر أكتوبر ، عندما انضمت إلى عبد الحفيظ. ولما تمردت قبائل قلعية بدورها في الشرق ، فإنها اعتمدت به هي الأخرى (47). وعليه ، وبرؤية الريفيين يعادون تجربتهم السابقة على حالها ، فقد يخيل إلينا أنهم سيجدون أنفسهم وقد عانوا لا أكثر إلى الوراى بخمس سنوات. لكن هذا ليس سوى مظهر . في الواقع أن تجربتهم غيرتهم كثيرا من حيث لا يلمون ، ولو أنها انتهت بالفشل . بالأمس ، إذا كانت القبائل في مشادات مع الحامية الإسبانية ، أو إذا ما كانت قبيلة معينة تقوم هنا أو هناك بهجمة ضد الإسبان المهربين ، فإنها كانت تعمل منفردة. ورغم الاهتمام الذي أثارته ، كانت كل القبائل غير المعنية مباشرة لا تشارك في حركتها. لكن شتان بين الأمس واليوم. لقد كان الزرهوني يطمح إلى البقاء سيدا في الريف حتى بعد انفضاح أمره . وبعد أن أحس بتصاعد موجة العداء وسط القبائل ، فإنه عمد إلى السلاح ليقوم بقمعها في عقر دارها الواحدة تلو الأخرى. وهذا إلى الوقت الذي جمعها كلها ضده خلال انسحابه بعد أن فشل أمام أكثرها بعدا. فبدون تشاور فيما بينها ، ولجرد مطاردة جرت من طرف المنطقة إلى طرفها الآخر ، فإنها وصلت إلى نهاية الجولة - وكلها خليط من عناصر شتى - حيث ستقوم خلال شهرين بالقتال سويا وتحقيق النصر. كل هذا جرى تلقائيا وبوسائلها الخاصة ، وبدون العون المألوف الذي كان من الممكن أن يقدمه المخزن لها ، بل وحتى بدون تعليماته. وفوق ذلك ، وفيما كانت تترقب عبثا هذه التعليمات أو هذا العون من عبد الحفيظ ، فإنها هي التي مكنته من الوسيلة التي كرسست فوزه عن طريق إيقاعها في شباكها بسلطانها المزيف المنبوذ . منذئذ ، ألا يمكن للوحدة التي تحققت عفويا تحت ضغط الأحداث ، ومن أجل هزم الزرهوني الذي كان يتعين عليه مبدئيا أن يكون زعيمها

ضد الإسبان ، ألا يمكنها أن تتحقق من جديد ، بدونه مرة أخرى ، وبدون عبد الحفيظ ، لكن بشكل منظم وطوعي ، لخلق جبهة واحدة ضد الإسبان أنفسهم ؟

بالطبع كان هذا يتطلب زعامة. إلا أن الأحداث الأخيرة أظهرت أيضاً أن القبائل تستطيع من تلقاء نفسها إنجاب رجال قادرين على الاضطلاع بها ، بل وكشفت هذه الأحداث عن الرجل الذي سيظهر منذئذ ، وخلال أربع سنوات ، كمجسد لروح وإرادة الجميع ، ألا وهو محمد أمزيان .

محمد أمزيان الذي ما يزال ، خارج الريف ، مجهولاً من طرف مواطنيه ، كان يومها رجلاً في الخمسين . إنه سليل أسرة من "الشرفاء" أسس أحد أجدادها ، وهو أحمد بن عبد السلام ، زاوية أزغنغان على مقربة من مليلية. تمتع دائماً في قبيلته بني إيفرور بالصدارة التي تمنح لمن يتصل نسبه بالرسول . كان يشرف على العقود الجماعية ، ويقصده الناس لتسوية النزاعات. غير أننا نستشف ، بالطريقة التي يثير بها الريفيون ذكراه ، أنه تحلى فوق ذلك بمجموعة من المزايا الشخصية ، من ذكاء واستقامة وحب لبلاده وقوة العزيمة وعبقورية في التنظيم ومعاشرة الناس ، أي كل الخصال التي تميز شخصية فذة. مع ذلك ، فإنه لم يجد لجميع هذه الخصال ، لمدة طويلة ، سوى مجال ممارسة متواضع في إدارة أملاك أسرته. إلا أن التجارة كثيراً ما قادتته إلى الجزائر منذ حدثته. وطوال طريق رحلته ، كان يستقبل بمنتهى التبريل كما هو الشأن في قبيلته ذاتها. لذا ، فإن العمال الموسمين المتقاطرين من كل أنحاء الريف ، في طريقهم إلى الجزائر للصيد وجني العنب ، كانوا يوثرون السير في ركابه لضمان أمن سفرهم. وتلك هي بالفعل الكيفية التي كان يتم بها المحافظة على أمن الطرق تحت إمرة نوتي العبور ، المعروف وقتذاك بـ "الزطاط". ونظراً لأن أمزيان قام بهذه الوظيفة مدة طويلة ، فإنه تمتع في مجموع الريف ، منذ السنوات الأولى من القرن ، بشهرة على أوسع مدى (48) .

يحكى اليوم أن أمزيان ، عندما انضم الريف إلى الزرهوني منذ 1903 ، تمرد بالعكس عليه. غير أنه لا يوجد ما يثبت ذلك ، وهو على كل حال بعيد الاحتمال. إذ أنه قد يغرر بنفسه لو وقف ضد الدعي الذي كان قد قوي سيله وقتذاك. لكن من المؤكد أنه من الأوائل الذين تقطنوا إلى تواطؤ الزرهوني مع الأجانب وعملوا على فضحه. وقد اضطر حينذاك إلى الفرار لكي لا يقع في الأسر ، والتحق بجند السلطان - وهو يومئذ عبد العزيز - الذين احتلوا مؤخراً - في ماي 1907 - موقعا مجاورا للمليلية. بعد ثمانية شهور ، عندما اضطرت هذه الوحدات ، وقد جاعت وتركت وشأنها ، إلى طلب المأوى من

الإسبان ، فإنه دخل معها إلى الحصن. وإن يبارحه إلا في شهر أكتوبر 1908 (49) عندما تدفق كل الريفيين في أعقاب مول وبو المهزوم . وبسرعة اضطلع بالأنوار الأولى ليوجه وينظم كل هذه الجموع ، ليتولى التحكيم بين ممثلي مختلف القبائل ، ليحضر أخيرا ويقود بنفسه المعارك. بعد شهرين ، عندما أخلى الزهوني المكان ، كان الريف الذي وجد نفسه ثانية وحيدا تجاه الإسبان ، يعرف أنه له في أمزيان الزعيم القادر على استقطاب الجميع تحت رايته. بحيث انه في نفس الوقت الذي عاد فيه الريفيون إلى حظيرة الجماعة بجانب عبد الحفيظ ، تبلورت في أذهانهم إمكانية اللجوء إلى الاستقلال الذاتي إذا ما اقتضت الظروف ذلك في المستقبل .

* * *

مرة أخرى كان حسم الموقف مرهونا بالإسبان .

في الحقيقة أن كثيرا من التحولات كانت قد طرأت بين هؤلاء وبين الريفيين بفضل العلاقات التجارية التي تمت منذ أربعين سنة بين حصن مليلية والقبائل المجاورة. فبعد أن كانت بالأمس مجرد مركز تأديب و مدينة حامية مقطوعة عن الخارج ، استحالَت إلى مدينة تجارية تمارس جاذبية لا جدال فيها (50) . كان الفلاحون الريفيون يرتادونها يرموا لبيع منتجاتهم وشراء الحبوب والسلع الأوربية. أما أفضلهم مركزا ، أولئك الذين حققوا ثروة في هذه التجارة واكتسبوا من هنا بالذات نفوذا متزايدا وسط قبيلتهم ، فقد تضاعفت كثيرا في نفوسهم حوافز الجفاء ضد إسبانيا. فاتخذوا شركاء وأصدقاء لهم من بين تجار مدينة مليلية وعسكرييها ، ناهيك بأن المدينة أصبحت تضم ضمن سكانها عددا من المغاربة. إنها حالة مستجدة ساعدت الإسبان على التوفر داخل القبائل على شبكة من الأنصار ، الذين وإن كانوا ما يزالون متكتمين فإنهم كانوا من نوي النفوذ ، يقوم الإسبان باستشارتهم وتكليفهم بتلطيف ردود الفعل العنيفة لعامة الناس ضد مشاريعهم. إنه - كما سبق أن رأينا (51) ، عنصر لن يظهر كل تأثيره إلا في السنوات اللاحقة. إلا أنه كان يمارس بعض التأثير منذ نهاية عام 1908 .

في 6 أكتوبر ، أي في نفس اليوم الذي رفعت فيه راية العصيان ضد الجيلاي الزهوني ، هاجمت قبائل قلعية الإسبان المستخدمين في المناجم المتنازل عنها ، وطردهم طردا شرسا واضعة بذلك حدا لكل استغلال (52) . وهكذا ظهر منذ البداية أن الثورة موجهة في الحقيقة ضد إسبانيا التي شكلت المناجم وقتنت رهان الشجار معها. فهل سيرضى الإسبان بفشلهم ، أم أنهم سيحاولون فرض استئناف الأشغال ؟ الحقيقة

أنهم أثروا في الوقت الحاضر العمل بحذر بعد أن استشاروا أصدقائهم في القبائل. كانوا يريدون أن يتركوا العاصفة تمر (53) . لكن ها هي ذي العاصفة لم تهدأ. على العكس فإن الزرهوني ، الذي تكفل حتى الآن بالدفاع عن الأشغال ، احتجب من الميدان بعد أن جرفه التيار. بقيت إذا محاولة إصلاح ذات البين عن طريق تفاهم مباشر مع أهل المكان. لكن إذا كان التفاهم سهلا مع "أصدقاء اسبانيا" الذين يتمتعون هم أنفسهم ببعض النفوذ ، فكيف سيكون رد فعل الكتل أمام نداءات أمزيان ؟ ذلك لأن هذا الأخير كان معاديا كما نعلم (54) . مع ذلك حاولوا الحصول على موافقته . إلا أنه صرح بعدم صلاحيته ، معتصما بسلطة عبد الحفيظ ، العاهل الجديد الذي خضع له الريف مؤخرا . علاوة على ذلك ، فقد أرسل في بداية 1909 رسلا إلى فاس لطرح القضية. إلا أن الشهور مرت ولم يصل الجواب (55) . لذا فقد عيل صبر الإسبان سيما وأن الفرنسيين كانوا يستحثونهم مهددين بأن يحلوا محلهم لاستئناف الاستغلال المنجمي (56) . رد على ذلك أن الصحافة في اسبانيا كانت تشكو من الكساد الذي تعاني منه مليلية (57) . بحيث إن مدريد قررت في 31 ماي 1909 وبموافقة فخزين يههما الأمر مباشرة ، هما فرخانة وبني امزار ، قررت التخلص نهائيا من القضية بأن أعطت أوامرها باستئناف الأشغال حتى لو اقتضى الأمر حمايتها بجيش اسباني (58) . كان ذلك امتحان القوى. بيد أن فرنسا كانت على كل حال قد احتلت وجدة والدار البيضاء ومنطقة الشاوية . كل ذلك مر بدون إشكال . قد يقوم عبد الحفيظ بالاحتجاج ليس إلا ، إذ كانت تعوزه الوسائل للقيام برد فعل . أما بالنسبة للريفيين ، فلم يكن هناك أيضا ما يدعو إلى التخوف منهم في الوقت الحاضر ، بالنظر إلى أن كثيرا منهم كانوا في طريقهم وقتنت نحو الجزائر حيث من المنتظر أن يبقوا حتى فصل الخريف. من جهة أخرى فقد تعززت مليلية ببضعة آلاف رجل تحسبا للطوارئ. في حين اتخذت الترتيبات في اسبانيا لتوجيه النجدة إذا اقتضى الأمر.

هكذا فقد تم استئناف العمل سواء في المناجم أو في السكة الحديدية التي كانت في طور الإنجاز. وكان الجيش من جهته على أهبة الاستعداد للتدخل في الميدان من حين لآخر. بيد أنه لم تحدث أية مقاومة كما كان متوقعا. على الأقل في الوقت الحاضر. إذ سرعان ما بدأ الهيجان في ديار بني سكار أولاد سطوط ، حيث كان أمزيان قد طاف بالأسواق مستنفرا الناس. في 5 يوليوز ، تقرر حمل السلاح عقب اجتماع عام انعقد في قبيلة مزوجة. ومنذ 9 يوليوز هاجم المحاربون فريقا من سلاح الهندسة يعمل بأرض بني يفرور ، وأجلوه بعد أن فتكوا بستة أفراد من رجاله. حينئذ ، وفي اللحظة ذاتها ،

تدخلت حامية مليلية بقوات كبيرة وكانت تنتظر الإشارة ، وأفنت المهاجمين ، وأبقت الأرض محتلة تحت مراقبتها (59) .

بانفراج القضية على هذا النحو السار ، فإنها أبرزت في الظاهر صورة لما يجب أن يحدث ثانية في المستقبل. فقد كان ثلثا الريفيين لا يتوفران سوى على دبابيس مسمرة. ولئن كان الباقون منهم يملكون بنادق ، فقد كانت تعوزهم الذخائر. وهي عموما عبارة عن رصاص مستعمل يحشونه بأنفسهم بمسحوق أسود وبطانة من رصاص (60) . بحيث لم يكن من المنتظر أن يغرروا بأنفسهم ليصطلوا بنيران الرشاشات والمدافع. من الحق أنهم قد يهاجمون هنا أو هناك عمالا عزلا . لكن يكفي الرد بمنتهى الصرامة ، كما حدث هذه المرة ، والبقاء في الأرض المحتاجة.

في الواقع لم يحصل شيء مما كان المنطق يدل مسبقا عليه. منذ المساء نفسه ، اشتعلت على جميع المرتفعات مواقد هي عند الريفيين أشبه ما تكون بناقوس الخطر ، وبإمكانها نشر الإنذار حتى في أقاصي البلاد. وهكذا تقاطر المحاربون من كل حذب وصوب ، وتجمعوا في بضعة أيام في قبيلة مزوجة. ومع ما لهم من المعدات أو الذخائر التي اقتنوها بأموالهم في السوق المحلية ، كانوا يتسلقون الجبل المطل على مليلية من جانب سفحه المتوارى ، وينزلقون ليلا من السفح الآخر ، ويحفرون الخنادق في أسفل ، من حيث يمكنهم الوقوف بالمرصاد عندما تصل قوافل تموين المراكز الأمامية. وإلا فقد كانوا يهاجمون هذه المراكز الأمامية نفسها تحت جنح الليالي البهيمية ، ويقتلون أفرادها وهم نائمون ، ويستولون على الأسلحة (61) .

لم يكن الأمر يتعلق بعد بحرب حقيقية. مع ذلك كان الإسبان ملزمين بوضع حد لهذه الغارات المرهقة. لذا قرروا القيام برد الفعل. وفي 23 يوليوز ، اندفعوا في هجوم قوي شنوه قبل الفجر لخلق عنصر المباغته. بيد أن الريفيين كانوا عينا لا تنام. انتظروا في قعر خنادقهم ولم يظهروا إلا عندما أصبح عدوهم فوقهم بحيث لم تعد المدفعية تجدى نفعا. فحينئذ أثخنوا في العدو بينادقهم عن قرب ، ثم هاجموه بالسلح الأبيض. وبعد أن طما سيلهم أمامه ، طردوه حتى إلى أسوار مليلية و قاموا في صفوفه بمذبحة حقيقية .

ما كاد خبر هذه النكبة الأولى بالغة الخطورة يصل إلى اسبانيا ، حيث كان الرأي العام مناهضا للحرب ، حتى أثار موجة خطيرة من الاضطرابات. في برشلونة حدثت انتفاضة حقيقية كانت من الحدة والامتداد إلى حد أنها سميت فيما بعد بـ "الأسبوع

الدامي". أما بالنسبة إلى الريفيين ، فقد تشجعوا ولما تترام إليهم أصداء هذه الانعكاسات ، وبعد أربعة أيام كبدوا العدو ، في معركة واد الذيب (Barranco del Lobo) نوعا من الهزيمة سقط فيها الجنرال بنطوس (Pintos) ، الذي يقود الجيش ، وقسم من أركان حربه.

مكن هذا النصر الجديد أمزيان من رفع مستوى المعركة ، بفضل ما غنمه من ذخائر وبنادق. لكن اسبانيا ، وقد قضت على المعارضة ، حشدت ووجهت أكثر من أربعين ألف رجل. منذئذ ، ورغم حماية الريفيين ، ورغم الهزائم المريعة التي سيلحقونها من جديد بالعدو ، كما حدث في 30 شتنبر في معركة سوق الخميس ، أصبح يخيل أن الأمر سينتهي بهم إلى التراجع خطوة خطوة بعد أن طما السيل أمامهم . سيما وأن كل شيء لم يعد يسير وفق ما يرام في صفوفهم. كان عليهم في إبان الابداز أن يفكروا في العودة إلى الحقول إن هم أرادوا ضمان قوتهم في السنة القادمة. في الجزء من الأرض الذي وقع في أيدي العدو ، لم يعد هناك من ينتصب في وجه هؤلاء الأعيان من "أصدقاء اسبانيا" القدامى، الذين أصبحوا يعملون علنا على تثبيط العزائم. وعندما انضمت قرية أولى إلى الإسبان ، قرية فرخانة ، قامت قرى أخرى تحذو حذوها. بينما عمل أعيان من قلعية على تحريض إخوانهم على التطوع كمرتزقة في صفوف العدو . في المنطقة المستقلة ، حيث شاع الخبر بهذا الارتداد ، طلب المحاربون القادمون من جهات نائية الانصراف إلى حال سبيلهم وقد عضتهم أنياب الخيبة . أما القادمون منهم من القبائل التي انقلبت إلى جانب العدو ، فلم يعودوا يعرفون أي جانب يتحازنون إليه . وكان الجيش يتفكك . وعندما احتلت اسبانيا شبه جزيرة قلعية في نوفمبر 1909 ، فإن أمزيان الذي تراجع إلى غرب وادي كرت في قبيلة مطالسة المجاورة ، لم يعد يحتفظ بجانبه سوى بأخر تربية من المخلصين .

تلك محصلة ثقيلة بالنسبة إلى الريفيين بعد جولة من أربعة أشهر قاموا فيها مع ذلك ببطولات رائعة. لم يبق لهم جنود بعدما تفككت صفوفهم. ناهيك بانضمام بعض القبائل إلى اسبانيا ، وهو الأمر الذي لم يكن تصوره بالأسس ممكنا. أخيرا ، فإن الآمال المعقودة على السلطان الجديد انهارت بكل مرارة. فبدلا من أن يمددهم عبد الحفيظ بالعون الذي كانوا ينشدونه ، وجه إليهم رسولا يستحثهم على عقد السلم ؛ أو قل ، بعبارة أخرى على الاستسلام (62) .

لكن هل يتعين أن يتوقف الكفاح بسبب ذلك ؟ إن الأرض المفقودة لا تمثل شيئا

بالمقارنة مع باقي الأراضي الأخرى المستقلة. وأن التكاليف والوسائل التي استعملها العدو لتتجاوز الحدود : 100 مليون بسيطة ، وجيش من 43 000 رجل (63) . أما خسائره فكانت مريعة حتى بين الضباط ، وهذا دون استثناء القادة. دون شك لم يكن الناس في الريف يعرفون بعد تفاصيل الاضطرابات التي عانت منها أيضا شبه الجزيرة (64) . إلا أن إعادة ترحيل الجنود الإسبان ، التي تمت على نطاق واسع ، تدل بوضوح على أن الإسبان لم يكونوا مستعدين في الوقت الحاضر للمضي قدما. هذا وكانت "الصوصية" التي أخذوا ينددون بها في المنطقة المحتلة منذ ذلك الحين ، مؤشرا على أن المقاومة بدأت ، وأن التحاق بعض القبائل بصقوفهم بتحريض من الأعيان يظل واهي الأساس. أخيرا فإن رجالا كأمزيان لم يكن ليجهل كم كانت الحياة في الريف متأثرة بدورة الفصول ، وأن الصيف يمكنه أن يصلح ما أفسده الشتاء . لم يكن لتفوقه بالخصوص ملاحظة كون كل القبائل وجدت نفسها ملتزمة لقطع الطريق أمام الغزو ، وهذا بدون زعيم آخر إلا هو بالذات ، زعيم مختار من طرفها ومنبثق من صفوفها . وإذا كانت الوحدة التي تحققت تلقائيا قد تعرضت للانحلال تحت ضغط قوي للأحداث ، فمن واجبه ، وهو الزعيم المختار ، والمؤتمن على الفكرة ، أن يعمل من جديد على إيجاد ظروف بعثها ويسهر على ضمان استمراريتها من الآن فصاعدا. لكن عليه هذه المرة أن ينبذ كل وهم. فعلى الريف أن يدافع عن نفسه بالاعتماد على النفس ، بدون الدعم الذي يمكن أن يقدمه له السلطان. الأسوأ من ذلك أن نتائج المفاوضات الجارية بين الإسبان والمغرب أسفرت في نوفمبر 1910 عن وضع المنطقة المحتلة تحت المراقبة المشتركة للإسبان والسلطان (65) . معنى هذا أن الريفيين عندما سيصبحون السلاح من جديد في وجه الإسبان الذين ظلوا في الواقع سادة الموقف في المنطقة المحتاة ، سيدخلون على نحو ما في حالة تمرد ضد سلطانهم بالذات ، وهو الأمر الأكثر خطورة من بقائهم وحدهم في الميدان ، إذ أنه يجازف بفراقهم للجماعة. والحال أن الحجة ستكون ذات وزن كبير بالنسبة للأعيان المنحازين للإسبان ، وهذا حتى في القبائل التي بقيت مستقلة . فالآن وقد بدأ أن الأمور تقررت ، تراهم لم يعودوا يذخرون حميتهم لخدمة الأجنبي بإثارة الفرقة ، وهذا في الوقت الذي كانت فيه ضرورة الساعة تتطلب الاتحاد أكثر من أي وقت مضى . بحيث إن الريفيين وقد أصبحوا وحدهم ، ومقصيين عن الجماعة ، سيكون عليهم أيضا أن يعانون من الانشقاق عن طريق أولئك الأعيان .

* * *

لقد شنت أسبانيا حربا من أربعة أشهر ، مع أن حالة السلم كانت مستتبة قانونيا.

بينها وبين المغرب ، ومع أن أية "حماية" كذلك لم تكن تبرر بعد الغزو سواء في نظر الدول العظمى أو في نظر الإسبان أنفسهم. فوق ذلك ، وبمعكس الحروب التقليدية التي لا يكون فيها عموماً على المنتصر سوى احتلال الأراضي التي تخلى عنها العدو ، كان ما يزال باستطاعة كل قبيلة في الريف أن تختار مواصلة الكفاح في أرضها بعد فشل المقاومة المشتركة. لذا فإن الغزاة ، بعيداً عن أن يستفيدوا من تفوقهم بعد انسحاب أمزيان ، أوقفوا الحرب وشرعوا حيناً في ترحيل جندهم لتهدئة الرأي العام . مع ذلك فقد حددوا عدد القوات الدائمة لجيش الاحتلال بمليية في 25 000 رجل. كذلك فقد اجتهدوا في تجنيد العناصر الأولى من الجند الأهالي وفي تنظيم المنطقة المجتاحة بغية عمليات لاحقة. في انتظار ذلك ، أحلوا العمل السياسي محل العمل العسكري . بقيامهم بقتل الأعيان بعمليات إخضاع محلية ، فانهم زحفوا عن طريق " بقعة زيت " ، حسب صيغة ليوطي ، خلال سنة 1910 و الأشهر الأولى التالية (66) . لكن بمقدار ما كانوا يقتربون من واد كرت ، بمقدار ما كانت تنطرح أمامهم مسألة أمزيان مع المجاهيل التي تتضمنها .

ليس بوسعنا خلال هذه الفترة الوقوف مباشرة على حقيقة نشاط أمزيان . من الجانب المغربي فإن المصادر تعوزنا . أما بالنسبة إلى إسبانية ، فلم يكن لها هي الأخرى في هذا التاريخ ما يكفي من المجسات لتموضع خصمها في أية لحظة ، أو لتزن بالضبط مدى نفوذه . لكنها لم تكن تعدمها وبما يكفي لتحس به دائماً حاضراً ومؤثراً بوزن متزايد على اختيار القبائل . كانت تتوفر ، كما رأينا ، فيما وراء كرت بكثير ، و بجانب البلاد التي تسعى بالذات إلى إخضاعها ، على القاعدتين الجزيرتين اللتين كانتا لها بمثابة مرصدين ، وهما صخرة بادس المعروفة بالإسبانية بفلث ، و صخرة النكور ، وتعرف بالإسبانية بالحسيمة . من هذه الصخرة الأخيرة على الخصوص إلى أراضي بقيوة و بني وريغل القريبة مباشرة ، أفضى الأمر إلى قيام حركة مكشوفة من تنقل البضائع والأشخاص في كلا الاتجاهين ، تلك الحركة التي بالإضافة إلى الأخبار التي تمكن الإسبان من التقاطها ، قامت في حد ذاتها بوظيفة مضغوط بما يطرأ عليها من مد و جزر . فإذا لم يعد الأعيان يقدمون إلا فرادى ومتسللين خلسة ، أو إذا ما جرت المعاملات بوتيرة متحفظة ، فهذا يدل على أن نفوذ أمزيان في الجهة المقابلة أخذ في التنامي . على هذا النحو علموا بتزايد نفوذه اثر الارتباك المحتم الناجم عن الهزيمة . و عندما قام قائد جبهة مليية بزيارة الحسيمة في يناير 1910 ، خصص له الأعيان المنحازون للإسبان استقبالا حاراً ، بل وذبوا له ثورا كعلامة على الخضوع (67) . لكن لما وصل خلفه بدوره في أكتوبر ، فانه لم يحظ سوى باستقبال فاتر و متحفظ ، و عاد

أدرجه يخامره الشعور بأن أي انزال للقوات الاسبانية في هذه المناطق ، لتشكيل جبهة إنما هو سابق لأوانه (68) . ذلك ما لا شك فيه . غير أنه لم يكن يخطر بباله فيما يبدو أن عليه بدلا من الهجوم ، أن يكابد مصادمة الجيش الجديد الذي حشده أمزيان . في الحقيقة أنه راجت اشاعات تفيد بأن الوحدات تحتشد داخل القبائل . وفي ماي 1911 تعرضت فرقة من المدفعية تابعة للقوات الاسبانية لهجوم شُن انطلاقا من الساحل الذي كانت تسير بمحادثاته مباشرة . بينما اغتيل في ديار بني ورياغل القائد عمار ، وهو " صديق " لا سباتيا (69) . ان هذه الوقائع وهذه الاشاعات تدل حقا على تنامي موجة العداء ضد الغزاة . لكن أن يكون هذا الشعور قد تمكن من افراز مقاومة قوية ، فذلك ما لم يكن الاسبان يؤمنون به بثباتا . لذا ، وفي 24 غشت عندما تعرضت بعثة طوبوغرافية تعمل في اتجاه واد كرت للهجوم انطلاقا من الضفة الأخرى ، و طوردت و ألحقت بها خسائر غم القوات التي كانت تحميها ، فانهم نسبوا الهجوم الى "لصوص " تجاوزت جراً تم الحد المعتاد ، واعتقدوا أنه يكفي القيام بعمليات قمع تكون من القوة للحيلولة دون تكرره . وبالفعل فقد عبر الاسبان الوادي و عاثوا فساد في البلاد دون أن يصطدموا بمقاومة تذكر ، و سلبوا الزرع و البهائم و أضرموا النيران في القرى و تركوها قفرا بلقعا (70) . بعد انجاز المهمة ، التحقوا بقواعدهم و هم على يقين بأنهم أصبحوا في مأمن لمدة طويلة . بيد أنهم لم يعملوا في الحقيقة الا على التعجيل بمجرى الأمور وتسريع بداية مواجهة جديدة كان من الممكن طوعا أن يكفوا أنفسهم مشقتها .

لم تكد تمضي سوى ثمانية أيام حتى ظهر جيش ريفي من حيث لا ندري ، و عبر في 7 شتنبر واد كرت و انقض كالصاعقة على كل الجبهة التي يحتلها الخصم . بعد أن أوقف الهجوم بجهد جهيد و تم ابعاده بمشقة ، فانه تكرر مرتين في أقل من أسبوعين و بشكل أعنف . بفضل الانجادات الموجهة بسرعة انطلاقا من شبه الجزيرة ، تمكن الاسبان الى النهاية من الاحتفاظ عموما بمواقعهم (71) . لكن كيف لا نرى الاتجاه الجديد الذي اتخذه الوضع بالنسبة اليهم ؟ ففيما قبل بسنتين ، و رغم ما تكبده من هزائم كبرى خاصة في البداية ، كانت لهم المبادرة الى النهاية ، و لم يكن الريفيون حتى في الهجوم المضاد يقاتلون إلا متراجعين . في حين أن أمزيان هو الذي أخذ الآن يشن الحرب عليهم ، وهي حرب حقيقة ، هجومية ، و قوية . صحيح أنه لم يتمكن بعد من زحزحتهم من مواقعهم ، الا أنه أرغمهم على موقف دفاعي .

اعتبرت الحالة في مدريد خطيرة بما يكفي لتستلزم ارسال وزير الحرب الى عين

المكان ، الذي درس مع الأركان العامة خطة شاملة للقيام برد الفعل . من ثم تقرر تنظيم عملية مزدوجة : بادئ ذي بدء ، شن هجوم جبهي ، ثم انزال القوات العسكرية في منطقة الحسيمة التي عليها في أوج المعركة أن تباغت الريفيين من الخلف . إلا أن هذه الخطة باءت بالفشل . فالهجوم الجبهي الذي شن في 9 أكتوبر ، تم إيقافه منذ البداية ، و اضطر المهاجمون الى عبور كرت من جديد بعد أن اجتازوه في نفس اليوم . أما بالنسبة الى الانزال ، فقد ألغى بكل بساطة بعدما لم يبق هناك مبرر له (72) .

هكذا فان الاسبان لم يتمكنوا مرة أخرى من أخذ زمام المبادرة . لكن هل كان بإمكان أمزيان في المواجهة الاحتفاظ بها ؟ أَلن يتفكك جيشه في موسم الابدال كما حدث منذ سنتين ؟ ذلك ما كان بالامكان توقعه . غير أن شيئا منه لم يحدث . وهذا عنصر جديد آخر ، و دليل قاطع على حدوث تقدم كبير في مستوى التنظيم و توزيع الأدوار داخل المجموعة القبلية . و اذا كان أمزيان قد أرخى قبضته حقا خلال شهرين ، فما ذلك إلا لتحضير هجوم شنه في قلب الشتاء عند نهاية دجنبر . إلا أن الهجوم باء بالفشل رغم شدته المتزايدة ، نظرا لان الاسبان عرفوا مقدما كل ترتيباته (73) . بعبارة أخرى ، إذا كان الريفيون قد أخذوا في التمرس بخوض الحرب ، فإن عدوهم احرز تقدما هو الآخر .

النتيجة إذ ذاك هي ان أمزيان أصبح يتحرك بكل حرية على ضفتي كرت و ان لم يتمكن من اختراق جبهة العدو ، و كانت الضربات المتكررة التي ينزلها بالاسبان تذكي ارادة التحرر في المؤخرة داخل المنطقة المحتلة . هذا فيما كانت الاتصالات قد تمت بالمنطقة التي بقيت مستقلة ، و بدأت الاستعدادات من هذه الجهة و تلك من أجل القيام بانتفاضة كبرى . بحيث ان وضع الاسبان تدهور بما يكفي ليرى القائد الاسباني الحاكم بملييلية في 6 أبريل 1912 ضرورة توجيه نداء الى قبيلة قلعية و الى قبائل كرت الخاضعة ليناشدها بالوقوف ضد رعيانها الأشرار (74) . لكنها محاولة سخيفة لم تكن لتسفر عن أي نتيجة . و عليه فانه لا يمكن التكهّن بما كانت ستؤول اليه الأمور لو لم يطرأ حادث مفاجئ ليوقف مجراها .

ففي 15 ماي اصطدم أمزيان ، وهو يقوم فيما يظهر بجولة استطلاعية ، بجند من العدو لم يكن بإمكانه مواجهتهم أو تفاديهم نظرا لكثرة عددهم . على أنه لما تقطن الى أنهم ريفيون ، من هؤلاء " النظامين " المجندين من طرف اسبانيا ، تقدم نحوهم وهو يقوم بإشارات كبيرة كأنما ينوى التحدث اليهم . غير أنه سقط صريعا قبل أن يتسنّى

لهم التعرف عليه أو الاصغاء اليه . وبعد ذلك لا غير اقترب منه أحد النظاميين ، و تفحصه ، و تعرف عليه (75) . بعد التأكد من هوية الجثة ، تم نقلها في الحين الى مليلية حيث عرضت على الجمهور حسب ما تقول الرواية الريفية (76) . الا أن القائد ألدافي (Aldave) لم ينتظر حتى هذا الحين ، اذ قام منذ اليوم التالي ، أي في 16 ماي ، بتوجيه خطاب الى القبائل أذيع على نطاق واسع ، يقول لها فيه :

" ان الله سيد الكون قضى البارحة بأن يميت في ميدان المعركة الشريف أمزيان الذي كان يحرضكم على الحرب . فكأنما به تعالى ينصحكم على العكس بالسلم . أذعنوا اذا لمشيتته و تقبلوا ما قدره " (77) .

وكانت نظرة ألدافي سديدة . فقد أدرك أن أمزيان هو الرجل الذي كانت تتجسد فيه وحده آنذاك حاجة الوحدة و الروح الهجومية للقبائل ، و أن الريفيين بعده لن يأنسوا قط من أنفسهم القدرة على الحفاظ على تماسكهم و بالتالي على ابقاء الكفاح في مستواه . و بالفعل فقد ترجمت وفاته عمليا و منذ 16 ماي بنهاية جولاتهم الحربية التي و إن لم تبلغ غايتها فانها فتحت مع ذلك آفاق النصر بعد ثمانية أشهر من الهجومات المتكررة .

سيما وأن الإسبان لم يقوموا من جهتهم بشيء لاستغلال الحادث في الميدان ، بل قاموا بما هو عكس ذلك . فقد أوقفوا فجأة تنفيذ خططهم الحربية بعدما كانت قد انطلقت منذ اليوم الذي قضى فيه أمزيان نحبه تلك الخطة التي استهدفت احتلال الضفة اليمنى من واد كرت . إنه قرار يدعو إلى الاستغراب . على أن كوميث خوردهان (Gomez Jordana) الذي خلف الجنرال الدافي ، سيحاول تعليقه بعد سنتين ؛ فبعد أن ذكر بهذه الخطة المقررة والتي كان العمل بها قد بدأ ، كتب يقول :

"إلا أن وفاة أمزيان خلال هذه المعركة الأولى ، والأثر الذي خلفه هذا الحادث داخل المنطقة المحتلة التي بقي فيها الأهالي أياما طويلا متحيرين مترددين في الموقف الذي ينبغي عليهم اتخاذه لفرط ما ألم بهم من وهن ، بل ومن ذهول من جراء فقدان أمزيان ، ذلك المعلم الأكبر الذي يعتبرونه مبعوثا من الرسول لتخليص المسلمين من احتلالنا ، وكذلك ذكرى المعارك الأولى التي كان فيها العدو يدافع بضراوة عن الأرض متسببا لنا في خسائر كبيرة وسط الاستنكار الشديد للرأي العام عندنا ، وأخيرا يقيننا شبه التام بأن الأمور كانت ستسير على هذا المنوال لو أننا غامرنا بمشروع شائك كالذي كنا نعتزم القيام به ، كل هذا أظهر وقتذاك ... أنه من غير الحكمة الإقدام عليه

وأدى إلى إلغائه ليس إلا" (78) .

على الرغم من أن هذا التعليل يبدو للوهلة الأولى غير واضح ووضوحا كافيا ، وأنه يخطئ من حيث عدم دقته في بيان بعض الوقائع ، فإنه يوضح لنا الأمور. في الحقيقة أن الجنرال الدافي كان قد شرع في تنفيذ الخطة رغم ما يحيط بها من مخاطر ، ولئن أوقفها فجأة إثر وفاة أمزيان ، فذلك لا يرجع إلى كون هذه الوفاة شكلت بالنسبة إليه ظرفية غير مواتية. على العكس فإنه حاول كما رأينا أن يجني منها في الميدان كل الفوائد الممكنة عن طريق تحطيم معنوية الريفيين: إلا أنها فوائد ذات صبغة سياسية. ولم يكن تحقيقها ممكنا إلا شريطة عدم دفع القبائل إلى المواجهة ، إذ أن ذلك سيرغمها على ترصيص صفوفها بينما كام من المفروض أن تؤدي وفاة أمزيان إلى زعزعتها . كان الإسبان يعرفون أو يستشعرون أن زعيما مثل أمزيان لم يظهر إلا لكي يستجيب لحاجة الوحدة هاته التي كان حضورهم الاجتياحي يزيد لها حدة في القبائل . فبالنظر إلى وضعهم المهزوز سواء في المؤخرة أو المقدمة ، وهي حقيقة لا تخفيها بأي حال شهادة كوميز خوردانه ، فقد كانت الحكمة تقتضي ألا يعملوا تهورا على تعميق حدة الحسرة على أمزيان في قلوب الريفيين ، بل بالأحرى أن يتركوا ذكراه تنطمس ، مع العمل في الوقت نفسه على تشجيع الفتور المحترم الذي نجم عن احتجابه. هذا ما جعل الجانب الإسباني يوقف بدوره المعارك منذ 16 ماي ، ويستعيز عنها بعمل سياسي محض يقوم على الاستخبارات والرشوة والتخريب. وعلى حين أن "الحماية" التي طرأت بعد ذلك فتحت لهم البلاد - وهذه نتيجة غير متوقعة - وعلى حين أنهم زحفوا بالفعل في الطرف الآخر من جهة العرائش وسبته ، واحتلوا تطوان ، فإن كرت في الريف سيظل بالعكس الخط الأقصى أمام زحفهم ، متخذًا بمرور الوقت طابع حدود ممتنعة بينهم وبين كل الريف تقريبا الذي بقي مستقلا .

* * *

بفقدان أمزيان فقد هدأ الريف المستقل مباشرة كثيرا من حميته. فالضغط الجماعي المنظم ، المتزايد ، الذي مارسه منذ ثمانية شهور ، توقف كما رأينا منذ 16 ماي . إلا أن الشهور الثمانية من المعارك الهجومية لا يمكن أن تمر دون أن تترك بصماتها . فقبائل الساحل والجبل والسهل التي كانت تتجاهل بعضها البعض بالأمس ، وجدت نفسها تقف مختلطة على طول جبهة من بضعة كيلومترات ، مما أدى إلى مدّ جسور التواصل فيما بينها. وبالخصوص سيظل كرت مستقبلا مسألة تهتم جميع

القبائل ، وسيعتبر التوجه للدفاع عنه واجبا قوميا مشتركا . كذلك فإن الشهور الثمانية من الحرب التي قضتها في جبهة النار كانت بالنسبة إليها كلها مدرسة حافلة علمتها مجابهة العدو مجهز بالرشاشات والمدافع ، دون أن تترك له التفوق بسبب ذلك . أخيرا فإن تلك الشهور الثمانية من الحرب عجلت بازدياد تسليحها بشكل كبير . ففي ميدان المعركة ، ومن أيدي العدو أو أحزمته ، كان الريفيون ينتزعون البنادق ويحتجون الرصاص من أجل معاركهم اللاحقة بعدما كانوا في البداية لا يتوفرون إلا على السكاكين والدبابيس (79) . فلئن كان الريف قد تعرض حقا لخسارة جسيمة في شخص أمزيان ، فإن الريفيين من بعده لم يعودوا كما كانوا عليه من ذي قبل .

سيما وأنهم بعيدا عن نسيانه ضخمه في ذاكرتهم . فهذا الرجل الذي عرف كيف يجد الكلمات للتأثير عليهم واستخلص منهم أفضل ما فيهم ، هذا المرشد نو اللهجة الأمرة بكثير من الوداعة ، هذا الزعيم المغوار الذي وقف دائما في الصف الأول ساعة المعركة ، هذا الشهيد الذي حرّمته الموت من النصر ... دخل بسرعة إلى الأسطورة وأصبح بمثابة رولان (Roland) بالنسبة للريفيين . يحكى في السهرات الريفية كيف عبر راد كرت مخفورا بعدد كبير من الحرس وأقام في قرية عند بني سيدل لقضاء ليلته . فإذا بالإسبان يكتشفون أمره عن طريق أحد جواسيسهم ، ويتقاطرون من كل جهة تحت جنح الظلام ويطبّقون عليهم الدائرة . ولما فطن أمزيان للأمر ، جمع رجاله وطلب متطوعين ليستشهدوا معه في معركته الأخيرة . وهكذا فقد بقي معهم ، ثم قاتل في الصباح منتظرا الموت . وعندما همّ العدو بنقل جثمانه وجد - ويا للمعجزة - فرسه يبكي عليه ولا يريد فراقه (80) . يقال أيضا إنه لم ينبئ شيء مطلقا حول المكان الذي استشهد فيه لأن الطبيعة لم تجد عزاءها في حدادها عليه (81) .

إن ملحمة أمزيان لهي حلم بوحدة تلاشت في نفس اللحظة التي تحققت فيها . حلم سيظل يراود أذهان الريفيين لأنهم لم يفتنوا بالأمل في تحقيقه مرة أخرى . لكن متى ؟ وعلى يد من ؟ من الحق أن هناك رجالا كانوا يقومون خطباء في إخوانهم كل أسبوع في كل جهة داخل الأسواق ، داعين إلى السلام بين المسلمين للتوجه سويا إلى محاربة العدو الكافر ؛ فيقابلون بالتصفیقات ؛ بل وتتكون بناء على تحريضهم جماعات صغيرة تتولى مناوبة الحراسة في مخافر الحدود بكرت . ثم تحدث فجأة تجمعات كبيرة مسلحة كذي قبل . إلا أنها سرعان ما تنحل - دون أن نعرف كيف - قبل التوجه إلى الجبهة . وهكذا وبصورة إجمالية كان كل واحد ينشغل بشؤونه الخاصة ، سيما وأن الخطر

ابتعد على ما يظهر. فباستثناء الغارات التي تشن من وقت لآخر ومن طرف الريفيين أنفسهم على مراكز العدو ، ساد هدوء كبير هناك في الجبهة. إلى حد أنه كان بالإمكان عبور الخط بكل حرية في كلا الاتجاهين. وهكذا فقد كان بإمكان الحصاد التوجه إلى الجزائر تماما كذي قبل . بحيث ظهر الإسبان في نهاية الأمر جيرانا متساهلين. لماذا التخوف منهم والحال أنهم أوقفوا زحفهم ؟ هذا على الأقل هو رأي فريق له كلمة مسموعة جدا ويتقوه بكثير من الثناء على رؤوس الملائكة عند الحديث عنهم. خاصة وقد أصبحوا الآن على ما يظهر أصدقاء للسلطان. وعليه ، من سيصدق الريفيون وأي رأي سيستقرون عليه ؟ ثم كان ينبغي عليهم قبل محاربة الإسبان إعادة تنظيم صفوفهم بذاتها. والحال أن ثمة ما كان أشبه بروح شريرة أخذت فجأة في إثارة الأسر والأفخاذ والقبائل بعضها ضد البعض الآخر ، وكل خصومة بين الجيران ، حتى التافهة منها ، كانت تحتد وتتزايد كما لو أن الناس فقدوا رشدهم. بحيث يخيل أن الريفيين بعد أن فقدوا أمزيان وبقوا وحدهم لم يعودوا يصلحون لشيء .

وإذا كانوا ما يزالون يصفقون لأولئك الذين يحاولون المحافظة على الحماس ، فقد أصبح ذلك من باب الرتابة ليس إلا. إذ أن الكثيرين أحسوا بانسياقهم في تيار أخذ في الانحسار . وبعبارة أخرى ، فإن الريف سيصبح بالأحرى ميدانا مناسباً لنشاط عكسي : وهو الذي كان يقوم به مسبقا وبشكل علني "أصدقاء اسبانيا". إلى متى ولاية نتائج ؟ ذلك ما كان من الصعب جدا التنبؤ به آنذاك .

الهوامش

(1) احتلت مليلية عام 1497 . انظر :

Sources inédites de l'Histoire du Maroc , 1ere série Espagne , t.I. l' introduction

تتوفر صخرة بادس بالإسبانية بينيون دي فلت وقد احتلت عام 1564 : المصدر نفسه ، ج 3، ص 59 وما يليها . أما صخرة النكور فتعرف بالإسبانية بالحسيمة ، وقد احتلت عام 1673 : المصدر نفسه ، السلسلة الثانية ، فرنسا ، ج 1، ص 391 ، هـ .

(2) بدأ الإسبان في تخريب أسوارها منذ بداية احتلال الصخرة :

Sources inédites de l'Histoire du Maroc , 1ere série, Espagne, t.III, p. 27.

(3) قام بها سيدي محمد بن عبد الله. ويرجع المؤرخون المغاربة تاريخها خطأ إلى عام 1771 ، كما فعل مثلاً الزياتي والتامري. انظر :

- Germain AYACHE : "Belounech et le destin de Ceuta entre le Maroc et l'Espagne", in "Hespéris-Tamuda", vol. XIII, 1972.

- Ramon LOURIDO DIAZ : "Estrategia militar y diplomática previa al asedio de Melilla 1774-1775", in "Revista de Historia militar", año XVIII, n 36 (1974).

(4) لا تتوفر على شهادات مكتوبة حول حالة القبائل الأهنية هاته. على أنه يمكن أن نستنتجها من سلوكها العام ومن الذهنية السائدة حول سبتة حيث كانت الحالة ماثلة وحيث تتوفر بصدها على إحدى الشهادات. يحكي أحمد الغزال الذي رحل إليها عام 1766 أنه كانت توجد على مرمى حجرة من هذا المركز مواقع يربط بها باستمرار محاربين القبائل المجاورة. هؤلاء المحاربون الذين يسميهم بالمجاهدين كانوا يقومون بمحاصرة المدينة سميًا وراء البركة : كتاب نتيجة الاجتهاد في المهادة والجهاد ، النص العربي ، نشر فريد البستاني ، 1941 ، ص 13. ومما هو جدير بالذكر أن الشاطئ المواجه لصخرة النكور يحمل هو الآخر اسم المجاهدين.

(5) انظر :

Philippe DE COSSÉ BRISSAC : "Les rapports de la France et du Maroc pendant la conquête de l'Algérie, 1830-1847", in "Hespéris", t. XIII, 1931, fasc. I et II .

(6) نفس الدراسة ، الفصل 10.

(7) هذا ما لا يستخلص من قراءة أولية لنص اتفاقية 6 مارس 1845. ونقرأ بالفعل في الفصل الأول منها : "تلق الوكيلان [المغربي والفرنسي] على إبقاء الحدود بين أياتي المغرب والجزائر كما كانت سابقا بين ملوك الترك وملوك المغرب". وبصورة إجمالية نجد وكأننا الأمر لا يتعلق بتوسيع وإنما بإعادة إقامة الحدود الموجودة سابقا. هذا وقد سبق أن أظهرنا في إحدى الدراسات (بليوش ومصير سبتة... مرجع سابق) مدى التحريف الذي تضمنته هذا النص للحقيقة التاريخية.

(8) انظر :

- Germain AYACHE : "Aspects de la crise financière au Maroc après l'expédition espagnole de 1860", in "Revue historique", t. CCXX, oct-déc., 1958 ; et "Belounech et le destin de Ceuta ...", loc. cit.

(9) انظر ما مر في صفحتي 105 و 106 .

(10) نص على هذا التنازل بمقتضى اتفاقية أبرمت منذ ما قبل الحرب في 24 غشت 1859. بيد أنه لم يتحقق في حينه بعد بدء الحرب. ثم جددت معاهدة الصلح الالتزام به عام 1860 ، وتم بالفعل تحديد الحدود في 26 يونيو 1862 ، وكرم تماما خمسة الخاخذ من القبائل من أراضيها. أخيرا فإن التنازل تم عمليا في نوفمبر 1863 بفضل تدخل جيش مغربي أجبر القبائل على إخلاء المحل. انظر :

Jeromino BECKER : "Historia de Marruecos", Madrid, 1915, pp. 286-290 '

انظر كذلك رسالة مولاي العباس أخ وخليفة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن ، إلى محمد بركاش النائب السلطاني بطنجة بتاريخ 2 يونيو 1862 ، ورسالة سيدي محمد إلى بركاش بتاريخ يونيو 1869 ، وقد نشر محمد نهليل صوري هاتين الرسالتين في "رسائل شريفة" باريس 1915 ، الوثيقتان 10 ، 25.

(11) بريقة وزير اسبانيا فرنسيسكو ميري دي كولون إلى وزير الدولة بمغريد ، مليلية 19 نوفمبر 1863 : بكر (J. BECKER) مصدر سبق ذكره ، ص 290.

(12) بكر (J. BECKER) ، مصدر سبق ذكره ، ص 350.

(13) في الرسالة السابقة الذكر الموجهة من سيدي محمد إلى بركاش بتاريخ 29 يونيو (انظر الهامش 10) تم التنكير من جديد بأن قلعة لم تقبل التنازل عن جزء من أراضيها إلا بشرط ألا يقوم الإسبان بإدخال أي تغيير فيه. حول رمود فعلها وتفاصيل الحادثة ، انظر : بكر ، مصدر سبق ذكره ، ص 309 .

(14) بخصوص الضغط الإنجليزي على السلطان ، راجع محضر الجلسة المحرر من طرف وزير إنجلترا درومنت هاي والذي سجل فيه النتائج التي أفضت إليها وساطته بين الإسبان والمغاربة في 12 يونيو 1871 (انظر محمد داود : "تاريخ تطوان" ، المجلد 6 ، ص 152-154) والوزير المذكور هو الذي دافع عن وجهة النظر الإسبانية ومطالب بإرجاع الريفيين إلى جادة الصواب إذا ما أصرروا على عنادهم.

(15) في 19 سبتمبر 1863 ، وجه ميري اي كولون باسم حكومته الإنذار التالي إلى محمد بركاش : "إذا لم تستجب الحكومة المغربية بسرعة وحرفيا لجميع مطالبنا لتقديم ترسية للإسبان عن الإهانات الوحشية التي قامت بها القبائل تجاه فرق صاحب الجلالة الملكة ، فإن الحكومة الإسبانية ستعطي الأمر إلى الجيش الذي يوجد على أهبة الاستعداد للإبحار في ملقا باكتساح الريف دون إبطاء (وثيقة محررة بالعربية وكذلك محضر الجلسة السابق الذكر لدرومنت هاي ، والذي أعيد نشره في محمد داود ، مصدر سابق ، المجلد 6 ، ص 139) .

(16) بريقة إلى وزير الدولة موجهة من مليلية بتاريخ 19 نوفمبر 1863 ، وردت في : بكر (J. BECKER) ، مصدر سبق ذكره ، ص 290 .

(17) حول هذه الحادثة وتسويتها ، انظر : بكر ، ص 370-376 .

يضيف هذا المؤلف ، وهو مؤرخ اسباني ، إلى روايته التعليق التالي : "نمتنع كليا عن إبداء رأينا حول هذه الحادثة . لكن يحق لنا كل الحق أن نلاحظ بصورة إجمالية أن الحكومة الإسبانية وجدت نفسها مرغمة تحت ضغط رأي عام عديم التبصر على أن تصعب بشكل ما شريكا لأناس يتعاملون تجارة مهيمنة محتتمين بالراية الوطنية لنيل تمريضات عن الفسائر التي لحقتهم في عملياتهم غير المشروعة" ، مصدر سبق ذكره ، ص 372 ، ه 2 .

(18) بكر ، مصدر سبق ذكره ، ص 382 .

(19) حول أحداث 1893 ، راجع : بكر ، الفصل 39 .

أما بالنسبة إلى الرواية المغربية عن المعارك الأولى ، فنقدمها فيما يلي كما وقفنا عليها في رسالة من السلطان مولاي الحسن إلى نائبه بطنجة محمد الطريس بتاريخ 22 جمادى الأولى 1311/ فاتح ججنير 1893 ، والرسالة المذكورة تكرر ما جاء في التقرير الذي أرسله عامل الريف إلى السلطان في 25 ربيع الأول 1311/ 6 أكتوبر 1893. يقدم هذا العامل ، وهو أحمد بو شنانة الجامعي ، بيانا عن زيارته مع ولد من الأعيان لحاكم مليلية بعد أن تنامى إليه عزم هذا الأخير على بناء قلعة. فكان أن طلب منه تأجيل المشروع ريثما تصل تعليمات السلطان. لكن طلبه قوبل بالرفض. وبعد ذلك اقتحم الإسبان خريب سيدي أورياش وشرعوا في اغتراق الماء والتصرف هناك كما لو كانوا في بلدهم ، إلى حد أنه اندلعت مشاجرة في السوق المجاورة ، جرح خلالها كثير من المغاربة ، بينما أطلقت مدافع مليلية نيرانها وحطمت عددا من المساجد والمساكن بالإضافة إلى الضريح. ثم بدأ الإسبان في بناء قلعتهم متمادين في سوء معاملتهم للمغاربة. وعندما جمعت قبائل قلعية من جديد في نفس السوق ، أطلقت المدافع نيرانها من القلاع وقتلت منها أربعة أشخاص. فكان أن انتقلت مع الإسبان على بدء الأعمال الحربية. وأمدتها قبيلة أولاد سطوت بجميع فرسانها. واجتمعت خيالة القبيلتين واختبأت في منعرج أرض ، بينما نصب المشاة كمينهم في منعرج آخر. ثم تقدم فريق من الفرسان في أرض مكشوفة. فخرج الإسبان من مليلية لمقابلتهم رافعين الراية السوداء. بعد تبادل طلقات النيران ، عانت قلعة أدرارها ولاذت بالفرار والإسبان يطاردونها. وعندما

تجاوز هؤلاء المنعرجين ، برز فجأة الخيالة والمشاة. ففر الإسبان بدورهم نحو مدينة مليلية التي وجدوا أبوابها موصدة. فحينئذ فتكت بهم عن آخرهم (وثائق تطوان ، 22/20).

(20) رسالة مولاي الحسن إلى محمد الطريس بطنجة بتاريخ 22 شعبان 1310/11 مارس 1893. (وثائق تطوان ، 16/20).
(21) خلال معارك 27 و 28 أكتوبر 1893 ، قبل الجنرال ماركايو (Margallo) حاكم حصن مليلية : بكر ، مصدر سبق ذكره ، ص 386.

(22) انظر ما مر في صفحات (107 - 109) .

(23) محمد أزرقان : "الظل الريف في محاربة الريف" ، ص 7 من المخطوط. على الرغم من أن أحمد السكيرج هو الذي حرر هذا المخطوط ، فإننا ننسبه إلى أزرقان لأنه هو الذي أملاه.

(24) ذلك ما رده دافيد مونتكومري هارت في مؤلفه الهام :

D. M. HART : "The Aith Waryagher of Moroccan Rif" ;

تفضل المؤلف فسلمنا نصا مخطوطا قبل نشره يتعلق بالفصلين الثاني والثالث من الجزء الأول الذي يحمل عنوان : "A history".

(25) محمد أزرقان ، مصدر سابق ، ص 12 من المخطوط.

(26) ذلك ما لاحظته بكثير من الوضوح د. هارت ، إلا أنه رفض تصديقه. انظر ص ، 97 . كذلك يمكن أن نقرأ في المؤلف الإجمالي المشار إليه في الهامش 24 ما نصه : "إن الكثيرين من مخبري المسنين صرحوا لي بأن آيت ورياغل قبل هذا التاريخ عاشوا في جو يسوده الاحترام والوفاء المتبادلين".

(27) راجع الرواية المتعلقة باستئثار أحمد بن موسى بالسلطة المطلقة في : ابن زيدان "تحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس" ، الرابط 1929 ، ج 1 ، ص 373 وما يليها.

(28) احتلت كدرة في ماي 1900 ، وتوات في يناير - فبراير 1901. أما بخصوص واد زفافنة الذي يربط فكيك بتوات فقد ألحق بالتراب الجزائري بمقتضى الفصل الرابع من اتفاقية 20 يوليوز 1901 بين المغرب وفرنسا.

* (28 م) انظر :

Germain AYACHE : "Les visées sahariennes de l'Espagne en 1900 : la question de la Saquia el Hamra", in "Hespéris-Tamuda", vol. XVI, 1975.

(29) يذكر مارتان أن وفدا عن قبيلة أيحمد في توات الموفد إلى السلطان عبد العزيز ، عاد إلى إقليمه حاملا الخبر بأن "السلطان افتتن بامرأة أوفدت من طرف الفرنسيين ، وبواسطتها تم وضعه في صندوق نقل إلى باريس بينما عوض السلطان بيلم".

(30) أخذ يدعي أنه مولاي محمد (فتحاً) ، ابن السلطان الراحل مولاي الحسن ، وأخ السلطان الحالي . مولاي عبد العزيز ، وأنه إذا ما تذكر تحت اسم مستعار ، فذلك من أجل الاحتراز لا غير من الرجل الذي اغتصب عرش والده ، والذي يستغل مركزه لاستعباد رعاياه ، والحال أن الله يلمس بصماتهم ، والافتخام بهم ، والدفاع عنهم ، والعمل من أجلهم . إلا أن هذا الرجل ، كما يقول ، يضرب عرض الحائط بالأخلاق والدين مساقا كليا وراء أهوائه ورغباته ونزواته . أما هو ، فيسقيهم بالعكس بإعادة الأمر إلى نصابها بضمأن الحقيق بالعدل . ابن زيدان ، مصدر سبق ذكره ، ج 1 ، ص 401 - 402 .

(31) رسالة من القائد بزيان بن علي السعيد إلى السلطان مولاي عبد العزيز بتاريخ 2 قعدة 1320/31 يناير 1903. الأصل العربي للرسالة محفوظ بخرانة القصر الملكي بالرباط ، وهو غير مفهرس ، نقله المؤلف بنفسه.

(32) رسالة من القائد البشير بن سناح إلى السلطان مولاي عبد العزيز بتاريخ 14 محرم 1321/12 أبريل 1903. وثيقة غير مفهرسة محفوظة بوثائق القصر الملكي بالرباط ، نقلها المؤلف.

33) Eduardo MALDONADO : "El Rogui", Tétouan, 1940, p.138.

34) في رسالة إلى السلطان بتاريخ 14 حجة 1320/14 مارس 1903 ، أخبر الصديق بن محمد بركاش من طنجة بأن قبائل المنطقة من أجرة ويني مصدر ويني يد وغيرها اتلفت على الاجتماع في خريبج مولاي عبد السلام بن مشيش للنظر في اقتراحات الجبلاي الزهوني التي قدمها لها مؤخرا الذي قصد الالتحاق بصفوفه : وثائق القصر الملكي بالرباط . وثيقة غير مفهومة ، نقلها المؤلف . هذا وإن القبائل المذكورة لم تنضم إلى الوعي .

35) انظر على الخصوص ، في المرجع المذكور في الهامش 33 ، الفصل الأول (ص 285-310) المتعلق بإنشاء وكالة في أركان (الصميمة) على يد الفرنسي سي (Say) مؤسس ميناء سي في الحدود المغربية الجزائرية ، بمساهمة فرنسي آخر يدعى دابلر (Delbrel) الذي كان أليفا للزهوني ومستشاره النافذ الكلمة .

36) منح الزهوني رخصة استغلال مناجم حديد الوشان لجماعة مغربية ، تلك التي أسست الشركة المعروفة باسم "Sindicato español de Minas del Rif"

أما رخصة استغلال مناجم الرصاص ببوعزة ، فقد منحت لـ : "Compania Norte Africana" ويوجد مقر هذه الشركة أيضا بأسبانيا ، إلا أن جل رساميلها فرنسية . انظر بكر (J.BECKER) مصدر سبق ذكره ، ص 507-516 ، وكذلك ملدونانو (E. MALDONADO) . مرجع سبق ذكره ، ص 346-351 .

37) أورده ملدونانو ، مرجع سبق ذكره ، ص 349 .

38) يتعلق الأمر بوكالة رستنتكة التي أقامها سي (SAY) ودابلر (DELBREL) في هور أركان (Mar Chica) احتلها جند السلطان ، وعندما غادرها في 18 فبراير 1908 ، خرج الإسبان من مليلية للاستيلاء عليها . انظر : ملدونانو ، مرجع سبق ذكره ، ص 341 .

39) انظر .

Germain AYACHE : "Le sentiment national dans le Maroc du XIX^e siècle," in "Revue historique", fasc. 488, ect. -déc., 1968.

في هذه الدراسة تبدو رواية هذه الأحداث كما هو الشأن بالنسبة إلى مغزاها بصورة مختلفة اختلافا كبيرا عن الروايات التقليدية المتعلقة بها .

40) أورده ج ب مرتان (A.G.P. MARTIN) ، مصدر سبق ذكره ، 446-447 .

41) انظر الشروط التي تضمنتها بيعة فاس عند ابن زيدان ، مصدر سبق ذكره ، ص 449-453 .

42) السبب الثاني هو الذي يركز عليه دابلر لتعليل الحملة ضد بني ورياغل ، حيث يقول : "وجه الوعي [الزهوني] أنظاره نحو مناجم الحديد والرصاص بجبل الحمام في ديار بني ورياغل اعتقادا منه ... بأنه سيضاعف مداخيله ثلاث مرات بفضل استغلال الأوربيين لمناجم جديدة...وقد قرر قبل كل شيء توجيه حملة ضد قبيلة بني ورياغل ، التي كان موقفها لا يتجاوب بتاتا مع أغراض الوعي... ليجهزها على الطاعة ويخترق ديارها بالحديد والنار" أورده : ملدونانو ، مرجع سبق ذكره ، ص 351 .

43) يروي الواقعة القاضي العربي محمد الورياشي في كتابه غير المنشور : "الكشف -إليان من سيرة الشريف الفاني بطل الريف الأول سيدي محمد أمزيان" الذي تفضل المؤلف بإطلاعنا على نصه المخطوط . لكن بما أن ملدونانو لا يشير إلى الواقعة ، فيؤسفنا أن نتساءل فيما إذا لم تكن هي الأخرى مجرد واقعة أسطورية . وهو الأمر الذي يؤكد على كل حال طابع العنف المفرط الذي اكتسبه حملة مول ودم منذ البداية .

44) نشر ملدونانو في كتابه "الروكي" ، وفيما بين صفحتي 418-419 . صورة لرسالة موجهة من مولاي عبد الحفيظ إلى محمد أخمليش ، أحد الشرفاء الذي كان يمارس نفوذه على بني ورياغل ، وقد جاء فيها : "توصلنا بالكتاب الذي تخبرنا فيه بأن قبيلة بني ورياغل سارعت إلى الخول تحت سلطتنا وأنها أعلنت في الأسواق التحاقها بجانبنا... ملتصقا منا فيها كذلك تقديم الدم العسكري... هذا وقد كنا قد علمنا بأن القبيلة المذكورة قدمت ولاها في المكاتب التي كتبها إلينا بنفسها" . الرسالة مؤرخة في 3 شعبان 1326/30 غشت 1908 .

45) لم يتسن إقامة هذه الرواية إلا اعتمادا على الروايات الشفوية ، كما نجد لدى ملدونانو نفسه أو لدى العربي الورياشي في مخطوطه المذكور سابقا . إلا أننا لم نثبت منها إلا ما ظهر لنا مؤكدا بالفعل من خلال التتابع بين روايتي هذين المؤلفين

والروايات التي التقطناها بنفسنا. وبالنسبة للملوندو ، وهو أكثر اطلاعا ويتوفر على نقاط معالم كرونولوجية ، فإنه يرجع تاريخ المعركة الحاسمة إلى 9 شتنبر 1908 .

(46) نظرا لأن هذه الوقائع وما تلاها من أحداث جرت مباشرة على مقربة من مليلية ، فقد أحيط الإسبان علما بها على الفور ، وظل تاريخها عندهم مدرجا خطيا. الأمر الذي مكنتنا من ذكرها عن يقين : ملوندو ، مصدر سبق ذكره ، ص 433. أما الورياشي ، فقد ذكر بدوره الواقعة ، إلا أنه لم يتمكن من إثبات تاريخها.

(47) ذلك ما أعلنته صراحة خلال مقابلة أجراها بعض أعيانها مع الجنرال مارينا (Marina) حاكم حصن مليلية : إنهم عازمون على أن يتكفلوا بالمركز الجرمكي متذرعين بأنهم أصبحوا الآن الأكثر قوة ، وبأنهم قضوا نهائيا على الدمي [الزوهوني]. ولما سألهم الجنرال عن السلطان الذي يدينون له بالطاعة ، أجابوه بصوت واحد : إنه مولاي عبد الحفيظ. كانت المسألة واضحة : ملوندو ، مرجع سبق ذكره ، ص 439 .

(48) من المؤكد أن محمد أمزيان كان شخصية عظيمة. بيد أننا لا نكاد نعرف عنه شيئا. وجل المعلومات التي تسنى لنا جمعها عنه قدمها القاضي الورياشي في كتابه السابق الذكر والمكرس بالذات لذكرى الرجل ، مع العلم أن هذا الكتاب ما يزال مخطوطا. هناك معلومات أخرى تستخلص من الإشارات المتفرقة التي يقدمها الإسبان. لكن من الواضح أن هذه المعلومات الأخيرة ليست سوى معالم كرونولوجية. وفي الفترة التي احتك فيها الإسبان بأمزيان ، لم يكن هذا الأخير بالنسبة إليهم سوى شخصية لا شأن لها .

(49) سبق له في الواقع أن خرج لمدة معينة من مليلية بإذن من الإسبان قصد التوجه إلى رأس الماء الذي كان هؤلاء قد احتلوه مؤخرا. وعلى العموم فقد كان هناك في مامن أيضا من سلطة الزوهوني. وحيث إن الإسبان كانوا يؤاخضونه على القيام بدعاية ضدهم ، فقد أرجعوه إلى مليلية. وهناك دافع من نفسه متعللا بأن دمايته موجهة في الحقيقة ضد الزوهوني. لكن على ماذا كان يوسعه مؤاخضة هذا الأخير ، اللهم إلا على توطئه بالذات مع الإسبان ؟ هذا ويدعي ملوندو اندي يري هذه الوقائع (مرجع سبق ذكره ، ص 413 ، هـ 1 ، ص 450) أن الإسبان حصلوا له آنذاك على عفو الزوهوني. على أننا لا نفهم كيف يكون الإسبان ، الذين كانوا يؤاخضونه على موقفه المعادي لهم ، قد تشفعوا له لدى الزوهوني والجال أنه صرح لهم بنفسه باتخاذهم موقفا معاديا له .

(50) أخذت مليلية حتى في القيام بدور همزة وصل مع المناطق الداخلية في اتجاه تازة وفكيك. ونظرا للمنافسة التي أصبح يقوم بها الميناء لتجارة المستعمرة الفرنسية ، فإن شركات فرنسية بالجزائر أقامت به فروعها : ملوندو ، مرجع سبق ذكره ، ص 368 وما يتبعها .

(51) انظر ما مر معنا في الفصل المتعلق ب "الريف والريفين"

(52) ملوندو ، مرجع سبق ذكره ، ص 433.

(53) المرجع نفسه ، ص 438.

(54) لا يوجد في الوقت الحاضر من يقف ضد استئناف أشغال بناء السكة الحديدية ولا حتى أشغال المناجم. لكن من ذا الذي يمكنه حماية هذه الأشغال من دون أن تتولد الأخطار عن ذلك ؟ إذ أن الصوت المتعصب لسيد محمد أمزيان أصبح يرتفع في المجالس : ملوندو ، مرجع سبق ذكره ، ص 450.

(55) شهادة الشريف محمد التبا ، ابن أخ محمد أمزيان ، وهو من بين أعضاء الوفد المبعوث إلى فاس. التقت روايته مباشرة منه من طرف القاضي العربي الورياشي الذي دونها في مخطوطه : "الكشف والبيان". وبخصوص هذا الوفد ، فقد تكفلت به السلطة ساعة وصوله إلى فاس ، إلا أنه تلقى الأوامر بانتظار التعليمات. وبعد انتظار طويل لم تحدد مدته ، استدعى السلطان عبد الحفيظ التواب واكتفى بالتصريح لهم بقوله : "إن إخوانكم دخلوا في الحرب مع الإسبان ، فعودوا إلى بلادكم"، وهذا بدون أية تعليمات أخرى.

(56) بعد قنومه من الجزائر في ماي 1909 ، تقدم الفرنسي مسني (Massenet) داخل التراب المغربي مع فرقة مسلحة ،

ثم عبر ملوية ووصل حتى إلى جهة لا تبعد إلا ببضع كيلومترات عن سلوان وعن موقع المناجم مظهرها ، حسب "نشرة لجنة المريقيا الفرنسية" أن بإمكانه الوصول إلى المنطقة المنجمية انطلاقا من الحدود الفرنسية. أورد الرواية : بكر (J.BECKER) ، مصدر سبق ذكره ، ص 510 .

57) في كراسة تحت عنوان "المشكل الريفي" (كتب لوپرا(Candido LOBERA) - مدير "تفراغة الريف" - اليومية الصادرة آنذاك بمليية - ما نصه : "إن النشاط الذي بدا للعيان والرواج الكثيف الذي كان موجودا قبل أحداث بني بويغرد تحولوا إلى ركود ممل، فالتجار لا يبيعون ، والقوافل لم تعد تصل خروفا من الفوضى السائدة في الريف، والعمال يجدون عاطلين بالمتات. وحتى الأشغال البلدية تعاني من الركود العام. إن الأمر لا يتعلق هنا بحماية أشغال المشاريع المنجمية فحسب ، وإنما بحماية كثير من المصالح المتواجدة التي من حقها أن تجد من يحميها". أورد : بكر (J.BECKER) ، مصدر سبق ذكره ، ص 510 - 509 .

58) برقية من وزير الدولة إلى حاكم مليية العسكري : "إن المشاريع المنجمية..ستكون محمية عند الإقتضاء من طرف حكومة مليية العسكرية بالكيفية اللازمة والتي لك بشأنها حرية التصرف الكاملة" : الكتاب الإسباني الأحمر لعام 1911 ، ص 251 ، أورد : بكر (J.BECKER) ، مصدر سبق ذكره ، ص 251 .

59) بالنسبة إلى أحداث 1909 التي سبق ذكرها أو التي سترد فيما بعد ، فقد اعتمدنا على : بكر (J.BECKER) ، مصدر سبق ذكره ، وكذلك على :

Général DE TORCY : "Les Espagnols au Maroc en 1909", Paris-Nancy, 1910.

Eduardo GALLEGO RAMOS : "La campaña del Rif", 1909, Madrid, 1909 ?

Simon LÉVY : "La guerre du Rif sous le règne d'Alphonse XIII", Mémoire de D.E.S. à l'Institut d'Etudes hispaniques de Paris, mai 1958.

60) ملونانو ، مرجع سبق ذكره ، ص 440 .

61) توضيحات يقدمها "الكشف والبيان" للفاخي العربي الورياشي.

62) وهو القائد البشير بن سناح ذاك الذي طرده الريفيون منذ ست سنوات خلت عند وصول الجيلالي الزهروني. وقد ظهر على الفور عميلا للسياسة الإسبانية ، وسبق ذلك إلى عام 1912 . بكر (J.BECKER) ، مصدر سبق ذكره ، ص 520 . انظر كذلك :

Carlos HERNÁNDEZ HERRERA Y Tomás GARCÍA FIGUERAS : " Acción de España en Maruecos" , 2 vol., Madrid, 1929, vol. I, ch, XI, pp. 133 et 140

63) قدم هذه الأرقام :

HERNANDEZ HERRERA Y GARCIA FIGUERAS, op. cit., pp. 85 et 88 du vol. I.

64) حسب النقيب :

BARBETA : "Gronica artillera de la campaña de Melilla",

فإن انتفاضة برشلونة تم التعرف عليها في شهر غشت عن طريق يهودي من تطوان ، وقد علق الناس عليها بحمية وحدة. ذكر ذلك : سيمون ليفي (Simon LÉVY) مرجع سابق ، ص 66 .

65) نص الفصل 13 من اتفاقية 16 نوفمبر 1910 بين المغرب وإسبانيا على أن المولخفين في المنطقة التي يحتلها الإسبان وكذلك في القبائل الهامة الثلاث من المنطقة المحتلة سيعينون سويا من طرف مندوبين ساميين أحدهما إسباني والآخر مغربي. من جهة أخرى تقرر الإبقاء على الإحتلال الإسباني إلى أن يتيسر تعويض الجيش الإسباني بقوة مغربية يتولى ضبط أسبان مهمة تدريبها وتأطيرها. وهذا يعني من الناحية العملية إضفاء صبغة المشروعية على احتلال دائم. انظر . بكر (J.BECKER) ، مرجع سبق ذكره ، ص 525 .

(66) اعتمدنا بالنسبة إلى أحداث 1910-1912 على :

Teniente Coronel CALVO GONZALO : "España en Marruecos Crónicas de las campañas del Rif de 1911-1915", Barcelona, 1913 -1914

وخاصة على : هرنندت هيرره وكريسيا فيكرس ، مصدر سبق ذكره (HERNÁNDEZ HERRERA Y GARCÍA FIGUERAS)

الذين يعطيان عرضا مفصلا تفصيلا دقيقا عن الأحداث كما تيسر للإنسان معرفتها ، وكما كان يودهم الكشف عنها أو تقديمها .

(67) هرنندت هيرره (HERNÁNDEZ HERRERA) ، مصدر سبق ذكره ، ص 94 من الجزء الأول.

(68) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 106.

(69) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 106.

(70) "مغيرين على القرى ، مصادر دين الحبوب التي كانت قد تركت في المغمورات ، مضمعين النيران في الدور التي أتم تخريبها رجال الهندسة العسكرية". هرنندت هيرر (HERNÁNDEZ HERRERA) ، مصدر سبق ذكره ، ص ج 1 ، ص 133 .

(71) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 133-140 .

(72) إن فشل الإسبان بالطبع هو الذي دفعهم حتى بعد فوات الأوان إلى إخفاء وجود هذه الخطة العامة. فالهجوم الجبهي قدم على أساس أنه مجرد عملية قمع بسيطة ومنعزلة كان من الممكن أن تنجح نجاحا بينا باعتبار الهدف جد المحدد الذي يكون قد خصص لها. بيد أن القيام بمجرد عملية قمع في الوقت الذي كانت فيه الحالة تتطلب هجوما مضادا حقيقيا لا يعدو أن يكون ضربا من العبث. علاوة على ذلك فإننا لا نفهم لماذا كان من المفروض أن يتم التخطيط لمثل هذه العملية العابرة بتسيق مع عملية إنزال ضخمة تأخذ الريفيين من الخلف ويشارك فيها أزيد من 6 000 رجل. من الأكيد جدا أن هذا الإنزال الفاشل لم يكشف عنه البتة رسميا. بيد أنه لا مجال للشك في أن هذا المشروع وجد ، وأنه أُلغِيَ في آخر لحظة. أما تفاصيله فقد استقاهما هيرره وفيكريس كرسيا من دراسة :

E . QUINTANA : "La marina de guerra española en Africa". التي رجع فيها المؤلف إلى وثائق الوحدات العسكرية التي كان عليها أن تشارك في المشروع. وأنه لمن الدلالات الكاشفة أن قائدين سامعين كالعقيد وكلمي ، رئيس مكتب الشؤون الأهلية في السنوات التالية ، والجنرال برنكر الذي سيصبح فيما بعد مندوبا ساميا وقائدا لمدة عشر سنوات ، والذين اضطرا إلى التحدث عنه (الإنزال) ، قدماء معا كما لو أنهما لم يحاطا علما به إلا عن طريق السمع ، مصرحين بأنهما عاجزان عن تفسير السبب الذي دفع إلى إلغائه فجأة رغم النتائج السياسية الوخيمة التي قد تترتب عن ذلك. أما بالنسبة لهيرره وكريسيا فيكرس ، فلم يضعوا موضع شك لا مشروع الإنزال ولا وجود الخطة المنسقة التي شكل جزءا منها. بحيث إنهما اضطرا كذلك إلى التنازل عن الأسباب التي دفعت إلى إلغاء الإنزال ، فإنهما عبرا عن رأيهما بأن ذلك راجع على الأرجح إلى أن عنصر المباغتة لم يراع بصورة كافية. وهذا يعني أنهما يريدان إغماض العين عن إخفاق الخطة برمتها. مصدر سبق ذكره ، ج 1 ، ص 145-147 .

(73) هرنندت هيرره ... ، مصدر سبق ذكره ، ج 1 ، ص 150 .

(74) المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 163.

(75) نفسه ، ص 153.

(76) يروي الواقعة محمد أرتزان في "الظل الوريث" (المخطوط) ، والعربي الوريثي في الكشف والبيان ، وهو مخطوط كلاك.

(77) نشر نص هذه الاتفاقية من طرف هرنندت هيرره ، مصدر سبق ذكره ، ص 166-167

(78) اقتبس هذا النص من رسالة وجهها الجنرال كوميذ خوردايه إلي السيناتور ميستري توماس (Tomás Maestre)

بتاريخ 29 أكتوبر 1941 ، والتي سيستند إليها سنة 1923 أمام لجنة تحقيق تابعة للكرتس. نشرت قرارات أشغال هذه اللجنة تحت عنوان :

De Anual a la República ; Documentos relacionados con la información instruida por la llamada Comisión de Responsabilidades acerca del desastre de Anual , Javier Morata , Madrid, 1931.

هذا وتوجد الرسالة في الملحق ، ص 32.

(79) منذ أن أصبح من اللازم على الريفيين أن يتجهزوا بالمعدات بشكل أقوى ليتمكنوا من مواجهة حرب حقيقية ، لم يعد التهريب يلي إلا جزئيا بحاجياتهم من السلاح. لذلك اعتبرت المعركة في حد ذاتها الوسيلة الرئيسية للتسلح. كانت الأسلحة تنتزع بالخصوص خلال الهجومات الليلية ضد المراكز المنعزلة ، وخلال المناوشات ضد العناصر المنعزلة أيضا. كان المهاجم يظهر فجأة من مخبئه ويعمي خصمه بحفنة من الرماط ويطعنه ويجرده من السلاح. إليك على كل حال ما يمكن أن نقرأه في تقرير إسباني رسمي : "إن قبائل الريف خاصة قبائل منطقة مليلية والحسيمة لتبرهن على حس سياسي عسكري كبير حيث إنها تسعى جاهدة دائما للتوفر على الأسلحة وبإمكانها أن تستعمل نفس الرصاص الذي يستعمله جنودنا... إن التجربة علمتها أن مركز نخائرها يمكن أن يوجد في حزام خرطوش الجنود وفي مخازن الحصن. إن الريفيين يتوفرون حاليا (1920) على كمية كبيرة من سلاح موسر (Mausser) ، وقد أخذ قسم هام من هذا السلاح من جنودنا خلال المعارك ، حينما يؤخذون علي حين... كما أن قسما آخر لا يستهان به يأتيهم عن طريق الأهالي الفارين من الجندية ، بينما يصل بعض القطع عن طريق التهريب". وبعد أن لاحظ كثرة الرصاص من نوع موسر وانخفاض ثمنه في الأسواق الريفية ، ثم بعد أن فسر ذلك بكونه "يسقط في ساحة المعركة ، ويحمله الفارين من الجندية ، ويحول من المخازن ، ويصل عن طريق التهريب" ، أضاف صاحب التقرير موضحا : "إن المصدر الأول (ساحة المعركة) هو الأهم بكثير. إن ثمن رصاص موسر يهبط بـ 75٪ على إثر بعض المعارك ، مما قد يبدو من المفارقات ، إذ أن "الحركة" [الجيش الريفي] تكون قد استهلكت هي الأخرى كمية كبيرة من الرصاص في المعركة. تقرير كارلوس دي لاملا (Carlos de Lamela) ، رئيس مكتب المغرب بالوزارة الحرب الإسبانية ، بتاريخ 27 غشت 1920. وثيقة أوردها وزير الحرب الفيكنت دي إيتا :

Visconde De EZA : " Mi reponsabilidad en el desastre de Melilla como Ministro de la guerra", Madrid ; 1923 ; pp . 91 et 140 .

(80) وهي الرواية التي يقدمها العربي الوريثي في "الكشف والبيان" ، السابق الذكر.

(81) صورة عن الأسطورة لوردها أحمد البوعياشي : "حرب الريف التحريرية وما طرأ من انضال" ، طنجة 1974 ، ج 1 ، ص 416.

القاضي عبد الكريم وولده محمد

إن فقدان أمزيان ونهاية المعارك على كرت سيمكنان الإسبان من إعطاء الأولوية من جديد للعمل السياسي على العمل العسكري ، سيما وأن الحماية التي أقامها الفرنسيون مؤخرا كانت تعطيهم مبدئيا الوسيلة للتدخل وإن بشكل غير مباشر كمنفتحين عن السلطان. وكان جون الحسيمة ملائما كل الملازمة للقيام بمساعيهم الجديدة. فكما سبق أن رأينا ، فقد كانوا يتوفرون سواء في الجون نفسه أو على مقربة منه نحو الغرب على القاعدتين الجزيرتين بادس والنكور ، اللتين كانت علاقتهما مع النواحي المجاورة قد نمت منذ أزيد من ثلاثين سنة. فحركة التهريب التي أصبحت تمارس الآن علانية في كلا الاتجاهين كانت قد أفرزت علاقات أعمال وصدقات سياسية. وبتنمية هذه العلاقات ، كان "مكتبا الشؤون الأهلية" (Oficinas de asuntos indigenas) العامل كل منهما في إحدى الجزيرتين منذ 1908 ، قد استقطبا وسط القبائل ثمة من الأتباع على استعداد لتعبيد الأرضية أمام المحتل القادم . وفيما يخص الإنزال ، كان الجون يقدم شواطئه الجميلة ، كما كانت السهول المجاورة تساعد على ترسيخ الاستيطان وتشكل في قلب الريف منطقة متميزة بخصوبتها وبأهمية سكانها وبموقعها الذي من شأنه أن يساعد في المرحلة الأولى على تصفية جبهة كرت بمهاجمتها من الخلف ، ثم بعد ذلك على تعزيز الوحدات التي قد تزحف نحو الشرق انطلاقا من العرائش وسبتة . أخيرا ، وإذا كانت القبائل المتاخمة تحتضن عددا من الأنصار المتحمسين للاحتلال الإسباني ، فإنها بالمقابل هي التي كانت تواجه في مجموعها بأعنف مقاومة تلك المقاومة التي كانت قبائل الداخل تحنو حنوها. ومن ثم كان إخضاعها يكتسي أهمية قصوى خاصة قبيلة بني ورياغل ، وهي أقرب القبائل وأوفرها عددا والتي نتذكر مدى الصيت الذي اكتسبته قبل أربع سنوات بطردها جيش الزرهوني .

في هذا الوقت كان الريف قاطبة قد أعاد ربط الصلة بعاهله في شخص مولاي عبد الحفيظ معلقا الآمال على دعمه. وبعد أن خابت آماله وترك وشأنه ، تمكن من إعادة توحيد صفوفه تحت سلطة أمزيان. لكن بعد وفاة هذا الأخير لم تبق في الجزء غير المحتل من الريف أية زعامة عامة سواء على الصعيد الوطني أو الإقليمي ، بل ولم تبق حتى زعامة جزئية ذات امتداد معين. وهكذا لم تكن توجد في المنطقة المتاخمة لجون الحسيمة أية سلطة مؤهلة لاستنفار أية قبيلة فأحرى جمع القبائل لمواجهة أي إنزال

محتمل . ففي أعلى مستوى ، لم تكن مجالس الأفخاذ تبسط سلطتها إلا على قسم من القبيلة الذي تعبر عن إرادته . بيد أننا لاحظنا مدى النفوذ الذي اكتسبه في حضنها منذ بضعة أجيال الأوليفارشيون الصغار الذين غالبا ما أصبحوا أصدقاء لاسبانيا (1) . وبالتالي ، فقد كان يكفي الإسبانيين أن يكفلوا تواطؤ بعضهم داخل الأفخاذ المقيمة مباشرة بالساحل لكي ينزلوا ويمدوا رأس جسر دون أن يصطدموا بمقاومة موحدة . وبالفعل ، كان ثمة ما لا يقل عن عشرين أو ثلاثين رجلا من بين البقيويين وبني ورياغل ممن يقبلون على الرغم من كونهم أعيانا المعاش الشهري البالغ 75 بسيطة الذي تخصصه اسبانيا لمن يتعهد بخدمتها . من أبرزهم في قبيلة بقبوة دادى بن مسعود الذي سبق له أن عمل مدة طويلة لصالح فرنسا إلى أن أصبح الريف من نصيب اسبانيا ، ثم شريكه صبيرة . وكان هذا الأخير ، الذي انضم هو الآخر في أواخر العمر بعدما ساند أمزيان على أيامه ، قد أصبح بعد ذلك حليفا موثوقا به . وسيقول عنه فيما بعد رئيس "مكتب مليلية" : "إن هذا "المورو" ، الحازم ، القوي الشكيمة ، النافذ الكلمة ، والذي كان فيما مضى قرصانا (أي مهربا) ، والذي غدا اليوم ملاكا ثريا ، قد أصبح محافظا حسب التاموس الطبيعي وبوده أن تحتل اسبانيا بلاده ليستثمر ثروته التي اكتسبها سواء بالطرق النزيهة أو الدنيئة . لذلك ، وبالنظر إلى مصالحه ، يمكننا الاعتماد على تعاونه الصادق " (2) . يمكن أن ينطبق نفس الرأي على زعماء حزب "أصدقاء اسبانيا" في بني ورياغل ، وبشكل أدق في فخذ آيت خطاب حول جشرة أجدير المقابلة بالضبط لجزيرة النكور . لنذكر منهم أربعة "بوسلهام ، وبوبكر ، وبلحاج هاشم وخاصة محمد أبو كواي ومحمد شدى (3) .

مع ذلك ، كانت سلطة هؤلاء الرجال محدودة للغاية شأنها شأن ثروتهم التي تعد سندا لها . وكان نفوذهم يتضائل بشكل محسوس خارج فخذهم ويزداد تضائلا خارج قبيلتهم . ولم يكن بإمكانهم بالتالي تقديم مساعدة كبيرة في عملية احتلال موسعة تستهدف قبائل بكاملها . في هذه الحالة كان بإمكان الأفخاذ ، وإن كان كل منها لا يتخذ إلا القرارات التي تهمة ، أن تتحد من أجل المقاومة الجماعية ضد غزو جار فيه العمل ويهددها قاطبة ، كما حدث هذا أنفا في قطاع مليلية . ولحثها على ذلك ، أو لمساعدتها عليه ، كانت ثمة في المنطقة كذلك عائلات الشرفاء المتحدرة من سلالة الرسول والتي تحظى بالاحترام بموجب هذه الميزة وتتقاسم فيما بينها ولاء القبائل . ونتذكر أنها كانت تمارس نفوذها جريا على العادة كقوى مساعدة لسلطة العاهل على الصعيد المحلي . ونظرا لعجز هذا الأخير ، فقد أصبحت مهمة حشد الطاقات تقع منذئذ على عاتقها ،

وكان على المحتل أن يحسب لها حساباته . فمن أجل الزحف والبقاء في البلاد بدون مخاطر كثيرة ، كان على الإسبان أن يعملوا على شل نفوذها ، وهو ما لم يكن بالأمر الهين ، أو بالأحرى على توظيفه لصالحهم . لقد جربوا كلا الوسيلتين بدءا بالوسيلة الثانية أسوة بمثال الفرنسيين. فنجحوا بدون كبير عناء في الحصول على مساندة أحد هؤلاء الشرفاء وهو عبد السلام بورجيله الذي تبنى منذئذ مع ابنه أحمد قضيتهم علانية وبدون مرأ (4) . بيد أن عائلة بورجيله لم تكن تتمتع سوى بنفوذ محدود في منطقة أجدير وهي المنطقة بالذات التي كانت تتوفر اسبانيا فيها على حزب قوى ومنظم . فعلى الرغم من أن انضمامه كان ذا قيمة كبيرة على الصعيد المحلي ، فإنه سيبقى ضعيف المفعول على صعيد أوسع ما لم ينضم أيضا الشرفاء الآخرون أولئك الذين كانت قبائل الداخل تتبعهم بشكل أوسع . كانت توجد منهم عائلتان. الأولى منهما تقيم بسنادة ، وهي جشرة على حدود بقبوة وبني يطففت في الممر الذي يصل جون الحسيمة بشجرة بادس ، وتتمتع مع رئيسها السي حميدو بسلطة كبيرة بين القبائل الشاطئية المحادية لبادس ، إلا أنها كانت مرتبطة عن طريق العمومة بالشرفاء الوزانيين الذائعي الصيت. وكما هو معروف ، فقد كان هؤلاء الذين تتلقى منهم التعليمات منقادين كل الانقياد لفرنسا . لذلك فقد خدم فرع سنادة في الريف ، وإلى حدود الحماية ، المصالح الفرنسية ضد المصالح الإسبانية (5) . صحيح أنه أصبح الآن بعد تقسيم المغرب ضمن المنطقة الإسبانية . لكن كان يبدو من غير المحتمل أن ينضم زعيمه حميدو إلى الإسبان نظرا لأن رزان ظلت مع الزاوية الأم في المنطقة الأخرى التابعة لفرنسا. وبالفعل فقد اختار في الوضع الجديد جانب العمل ضدهم ولم يخرج عن إجماع القبائل (6) . فلم يغضب بذلك لا الفرنسيين ولا السكان المحليين .

أما بالنسبة للعائلات الأخرى ، وهي عائلة أخمليش - وبالجمع خمالشة - فكانت تقيم في زرقت بالجبل غير بعيدة عن منابع ورغة ، وكان رئيسها محمد الصديق أخمليش يحظى بنفوذ كبير وسط مجموع كنفدرالية صنهاجة على سفح السلسلة وحتى في بني ريباغل الجبل. إلا أن محمداً الصديق كان من هؤلاء الشرفاء المتواجدين في الداخل الذين لم تغلج بعد أية دولة أجنبية في ارتشائهم. وكان أجداده قد خاضوا دوما غمار الكفاح ضد الكفار ، كما قاتل أبوه ضد الإسبان في حرب تطوان سنة 1860. وبدوره فإنه لم يكن يفكر الآن إلا في طرد الغزاة دون التمييز بين الفرنسيين والإسبان. وستتاح الفرصة للأوليين في الجنوب لمعرفة عما قريب. أما الآخرون في الشمال فكانوا يعرفون الدور الفعال الذي لعبه تحت راية أمزيان. فلم يكن بالإمكان إذن أن يؤملوا في الحصول

على مساندة منه (7).

لذلك ، ونظرا لتعذر التوصل في أخمليش والسي حميدو إلى اجتذاب القوى الروحية التقليدية ، فإن الإسبان واثام الحظ في توظيف رجل في لعبتهم كان قد اكتسب على الرغم من أنه لم يكن شريف النسب نفوذا كبيرا بفضل ممارسة وظائف ذات طابع ديني وهو القاضي عبد الكريم.

لا ينبغي الخلط بين عبد الكريم هذا وبين ذاك الذي سيصبح فيما بعد ذائع الصيت بترغمه حرب الريف. إن التجانس الاسمي بينهما لمن شأنه أن يضللنا بقدر ما كان الرجلان معاً قاضيين ، وأبا وابنا ، ويقدر ما كان الابن وطيلة 15 سنة وإلى وفاة الأب انيد انيمنى لهذا الأخير. لنلاحظ مع ذلك ، لكي نرى الأمور على حقيقتها ، أن هذا التجانس الاسمي المزعج لم يكن موجودا في الأصل وأنه لم يوجد مطلقا بالنسبة للمعنيين بالأمر. فالأب هو وحده الذي كان يسمى حقا عبد الكريم ، وهو اسم كان يعرف به وحده من دون أبنائه على غرار الاسم الشخصي الفرنسي. أما ولده ، فله اسم آخر وهو محمد . وبتحديد النسب حسب الصيغة العربية فإن النتيجة التي نصل إليها هي محمد بن عبد الكريم وهو ما يترجم بولد عبد الكريم. إن الإسبان هم الذين جعلوا من "ابن عبد الكريم" الولد عبد الكريم على الطريقة التي يقولون بها "الولد كارسيا" أو "الولد برناندت". فبتحويل اسم الأب إلى اسم أسرة ، فإنهم سمو الابن بمحمد عبد الكريم ثم اقتصروا على عبد الكريم . وكان التغيير تاما . وهذا الاسم هو الذي أشاعوه في العالم.

أما وقد دخل اليوم هذا الاسم الأخير حيز التاريخ ، فإنه فات الألوان بلا ريب لإخراجه منه. إلا أن هذا لا ينبغي كون الريفيين لم يعنوا مطلقا بعبد الكريم سوى الأب ، وأن الابن من جهته كان بالنسبة إليهم هو السي محمد أو السي محمد ، وهو التصغير الريفي للاسم ، ليصبح مولاي محمد في عز مجده أي مولاي محمد.

هذا أيضا جزء من التاريخ ولا مناص من أخذه بعين الاعتبار. وسنكون أمام مفارقة تاريخية صرفة إن لم نعط كل واحد اسمه في الحقبة التي نلجها عندما كان الأب والابن ما يزالان غير معروفين إلا في الريف. وعلى كل حال فإن من شأن ذلك أن يجعل مهمتنا بالغة التعقيد طالما أنه يتعين علينا التحدث بإسهاب عن كل واحد منهما في أن واحد . فممنذ 1912 كان القاضي عبد الكريم وولده محمد يشاركان جنبا إلى جنب في جميع ما يحدث وسط القبائل مؤثرين على الأحداث وموجهين لها. بحيث يتعذر علينا استجلاء مغزى الأحداث لو قمنا بالفصل بين شخصيتهما. وسيلزم تسليط كثير من

الأضواء عليهما بقدر ما أن الأمر لا يتعلق فحسب برسم صورتها وإنما بإعادة إنشائها بكاملها نظرا لأنها لم ترسم لحد الآن إلا عن طريق الخيال .

* * *

كما هو الشأن في جهات أخرى من المغرب ، كان يوجد عدد قليل من العائلات المنبئة في قبائل الريف يتوارث أفرادها مشعل العلم ابنا عن أب. وكان العلم في هذا المستوى وفي وسط ناطق بالبربرية يعني أولا اللغة العربية ، اللغة الوحيدة المكتوبة التي لا غنى عنها بالتالي في المراسلة وتحرير الرسوم أو محاضر الجلسات. فمعرفة القراءة والكتابة بالعربية ، ومعرفة القراءات السبع كان يشكل رصيда معرفيا هاما يخول صاحبه الحصول على لقب طالب مع إجازة في التعليم. فإذا أضيف إلى ذلك الحساب والنحو ونبذ من الآداب ومبادئ الشريعة الإسلامية فإن المرء ينتقل إلى مرتبة الفقيه أي العالم والمفتي.

كان الدور الاجتماعي للفقيه من الأهمية بمكان. ذلك أن العرف الذي يفصل في النزاعات البسيطة كان عديم الجدوى في الحالات المعقدة. ومن ثم اللجوء إلى الفقيه كمستشار أو كحكم ، وهو المؤتمن المحلي على الشرع أي على الشريعة الإسلامية المكتوبة والمهياة بعناية . وفي الحياة الاجتماعية ، كانت مجالس الأفخاذ أو مجموعات الأسر تقوم هي الأخرى باستشارة الفقيه سيما وأنه معروف على وجه العموم ، زيادة على كفاءته ، بالحصافة والفتنة. لكي يصبح المرء عالما إلى هذا الحد رغم ظروف الدراسة البدائية جدا ، كان عليه أن يتحلى فعلا بعقل ثاقب واستعدادات فكرية سليمة ؛ حتى أنه كان بإمكان الفقيه ، باعتباره مندمجا في القضايا العمومية منها أو الخاصة ، يفارضا نفسه بما يتحلى به من مؤهلات خاصة ، أن يصبح ذا تأثير كبير على إخوانه ، وأحيانا على من سواهم وسط القبائل المجاورة .

كان القاضي عبد الكريم أحد هؤلاء الفقهاء ، وكانت عائلته أيضا من تلك التي كانت تنجب في كل جيل أحد أفراد النخبة. فعمه سيدي زيان كان ، على ما قيل ، قد عين بفضل أهليته عاملا للسلطان على منطقة الريف المحادية لجون الحسيمة ؛ وأخوه السي محمد الذي بلغ من نجابته أن عائلته تحملت عبء إرساله إلى فاس لاستكمال دراسته العليا ، كان قد أثار هناك الانتباه أيضا إلى حد أن السلطان اختاره لتدريس أبنائه (8) . وهو أخيرا ، أي عبد الكريم ، كان مثار إعجاب لذكائه. وسيقول عنه صحفي من مليلية تعرف عليه جيدا ، إنه أذكى الريفيين (9) .

قبل 1911 ، فإن معلوماتنا عنه محدودة. لقد ولد حوالي 1860 في جشرة أجدير المجاورة للجون في أراضي آيت خطاب ، فخذ قبيلة بني ورياغل . ومن ثم جاء الاشتقاقان الخطابي والورياغلي اللذان أُلصقهما باسمه ، عبد الكريم ، الشائع البسيط ، تجنباً لكل خلط. لم يكن ذلك سوى طريقة في تحديد الهوية بالانتساب إلى المجموعتين اللتين ينتمي إليهما ، تماماً كما هو الشأن في الأصل بالنسبة لاختيار اسم لدوبيي (يعني الجبلي Dupuy) أو دو شاطو (القصري Duchâteau) انتساباً إلى بعض المعالم. إنها طريقة أو أخرى للدلالة على هوية المرء . بيد أن المسألة أفرزت أسطورة لم تنقطع آثارها إلى يومنا. فبما أنه لم يحتفظ إلا بأول هذين النسبين وهو الخطابي ، فقد زعم البعض أنه مشتق من الخطاب ، النسب الذي حمله قديماً عمر ، أحد صحابة الرسول ومؤسس الإمبراطورية الإسلامية. ومن هنا ارتفعت الأصوات منددة بالخديعة. لأن هذا الاسم ، الذي انتحل عمداً على ما قيل من طرف محمد بن عبد الكريم ، أي من طرف الابن ، سيمنح هذا الأخير بانتحاله نسباً شريفاً من تعزيز ادعاءاته في السلطنة (10) .

نجهل أين ومتى زاول عبد الكريم دراساته التي ارتقت به إلى منزلة فقيه. إن الشهادة الأولى المتعلقة به تقدمه وقد أصبح قاضياً محددة بأن تعيينه جاء على يد مولاي الحسن. وهذا ما يجعلنا نرجع تاريخ تعيينه في مثل هذه الوظيفة الهامة إلى 1894 أو إلى ما قبل ذلك (11) . في ذلك الوقت لم يكن قد ناهز الأربعين من عمره ، مما جعل ترقيته مبكرة بالنسبة لمغرب العصر ، خاصة وأنه لم يكن يتوفر على ركائز قوية داخل المخزن . ويمكننا أن نستنتج من ذلك أن عبد الكريم الفقيه ، كما كان ينعت دائماً حتى بعد تعيينه قاضياً ، قد عرف كيف يفرض نفسه منذ وقت مبكر على أقرانه في المنطقة . في الحقيقة ، لم يكن من شأن التعيين المذكور أن يؤدي إلى نتائج عملية . فقد رأينا أن اختيار الفقيه مستشاراً أو حكماً يتم تلقائياً من طرف السكان . وكان الطرفان المتخاصمان يتعهدان ضمناً بالخضوع لحكمه بالتجائهما إليه لحسم مادة النزاع بينهما . إلا أنه لم يكن يتوفر على أية وسيلة لإرغامهما على الرضوخ في حالة ما إذا قاما ، بالرغم من ذلك ، برفض أحكامه . وبهذا فقد وجد نفسه معضد الجانب مبدئياً بهذا الامتياز الجديد. لكن ، أية سلطة حقيقية يمكن الاستعانة بها في الريف ؟ فلئن كان العامل يتقلد فعلاً السلطة التنفيذية على الصعيد الإقليمي ، فإنه لم يكن يهتم عموماً إلا بالنزاعات التي تحدث بين الأفخاذ والقبائل لا بين الأفراد. أما بالنسبة للمجالس التي تسير على كل مستوى الحياة الداخلية للقبيلة ، فكانت تعاقب هي نفسها ، بعد الإدانة ، على الجنح والجرائم. غير أنه لم يكن متوقفاً منها أن تقوم بتنفيذ أحكام القاضي.

وبالتالي فإن اللقب الجديد لم يخول عبد الكريم أية سلطة حقيقية لتدعيم السلطة الروحية أنتي كان يتمتع بها بفضل دوره في ميدان التحكيم والمصالحة. وهذا ما يمكن أن يفسر من جهة أخرى كيف بقي دائما في نظر الريفيين فقيها أكثر منه قاضيا.

مع ذلك فمن الواضح أنه إذا لم يكن قد تغافل مطلقا عن التجاهر بلقبه "قاضي بني ورياخل" (12) ، فذلك لما وجدته فيه من امتيازات. فاختياره من طرف حاشية السلطان كرس وضعيته المحلية على صعيد البلاد. وهو تكريس يشرفه بالطبع إلا أنه يجعله بالخصوص في نظر الجميع وسيطا لدى السلطان . وكان مندوبو هذا الأخير يقومون بإخباره واستشارته عند قدومهم إلى الريف كما حدث غداة حملة البغدادي الشهيرة ضد بقيوة (13). زيادة على ذلك فقد كان يتقاسم مع العامل والشرفاء المرموقين وبعض القواد الامتياز الجليل الشأن ألا وهو القدرة على الكتابة إلى السلطان بأن يرفع إليه تقارير عن كل شيء وعن كل شخص (14).

هذا ما كان يخول للرجل أهمية خاصة في المنطقة. لقد كان الأعيان المحليون يبنون نفوذهم على الجاه وعلى إنجاز مهام سياسية . أما بالنسبة إليه ، فإنه لم يكن بالغ الثراء ولو أنه لم يكن معدما. ففي 1917 ، وقبل وفاته بثلاث سنوات ، قدر مجموع ثرواته بـ 25 000 بسيطة ، بما فيها بيته بأجدير وثلاث ملكيات قروية (15) . وهذا شيء قليل جدا حتى في الريف بالنسبة لمن له طموح في أن يصبح رجلا من المقام الأول. أما على الصعيد السياسي ، فإن وثيقة مؤرخة في 1907 تخبرنا بأنه لم يكن في هذا التاريخ ضمن مجلس الفخذ المنتمي إليه (16) . بيد أن كل هذا لم يكن في حالته علامة على انحطاط الشأن . وعلينا أن ننتبه إلى أن الثروة الكبيرة لم تكن بالنسبة لقاض علامة مرضية . من جهة أخرى ، هل كان بإمكان قاضي القبيلة كلها ، ذاك الذي ينفرد بهذا اللقب في المنطقة ، أن تكون له مكانته داخل مجلس الفخذ ؟ إن تواضع الثروة والترفع عن المزاولة المباشرة للوظائف السياسية لا يمكن إلا أن يرفع بالعكس من شأن القاضي عبد الكريم في نظر جميع الريفيين ، ويجعله قادرا إن اقتضى الأمر وإن قرر بنفسه ذلك على أن يلعب دورا من الطراز الأول .

يبدو من الجلي الواضح أنه هو نفسه لم يكن من نوي الطموح أو الدسائس . فلعدة طويلة لم يعكف إلا على شؤونه المهنية والعائلية . كان له ولدان وعدة بنات يسهر على تربيتهم ، وهذا ما نهض به أيضا تجاه أخ صغير له في سن ولده البكر بقي تحت كفالة . وحسب تقاليد العائلة كان عليه أن يتولى تعليم هؤلاء الأولاد بعد حفظهم القرآن .

اضطلع بهذا الواجب في آن واحد تجاه الابن البكر محمد والعم الصغير عبد السلام الذي ترعرع في المنزل. نقل إليهما على مر السنين ما تعلمه هو نفسه من توحيد ونحو وتاريخ وشريعة ، وهذا بجانب إشراكهما مبكرا وعن قرب في مباشرة جميع شؤون الحياة الريفية. على هذه الوتيرة سارت الأمور إلى غاية 1902 عندما رحل الولدان إلى الجامعة بفاس بعد بلوغهما سن العشرين (17).

كانت هذه السنة ، كما نتذكر ، هي السنة التي بدأت فيها ساعة الاحتضار بالنسبة للمغرب المستقل . فتورة الزرهوني الذي استقبله الريف بالذات كسلطان ، والعقد النهائي للجزيرة الخضراء الذي كان بمثابة مؤشر على نهاية المولى عبد العزيز واستقرار الأجانب في البلاد ، وثورة المولى عبد الحفيظ ضد أخيه ، كانت ثلاث هزات زعزعت المشاعر في ظرف خمس سنوات ، وأرغمت كل منها على ضرورة اختيار جديد .

لا نعرف شيئا من اليقين عن موقف القاضي عبد الكريم خلال المغامرة التي دفعت بالريف إلى السير في ركاب الزرهوني. بناء على الشهادة المتأخرة التي سيرويها عنه ولده ، فقد يكون ناهض التأثير مناهضة لا هواده فيها إلى حد أن تأثيره كان حاسما على نتيجة الصراع (18). والحقيقة أن الأمر يتعلق هنا بإعطائه حصه الأسد. فإن يكون قد بقي في دخيلة نفسه مخلصا للعاهل ، باعتباره منتشيا هو نفسه إلى جهاز الدولة ، وأن يكون وجه له خلال الأزمة تقارير سرية ، فهذا أمر غير مستبعد . لكن أن يكون قد شارك حقا مشاركة فعالة في المعركة ، فإننا لا نفهم لماذا لم يصلنا صدق عن ذلك. ألم يقل بالعكس ان قبيلته تسارعت إلى سلاحها في اللحظة الحاسمة ، بدونه ورغما عنه ، لمجابهة جيش الزرهوني (19) ؟ مهما يكن من أمر هذا الادعاء - الذي قد يكون عداثيا - فيبدو جيدا أن دوره في هذه الحوادث المضطربة - هذا إذا كان له دور - اتسم بالحدز والتستر حتى لا يظهر موقفه مطلقا مملى عليه ، وهو ما كان عليه الأمر ، من زاوية المصلحة وحدها ، تلك المصلحة التي كانت تربطه قبل كل شيء بشخص المولى عبد العزيز ما لم يصل به الأمر بالطبع إلى التضحية بنفسه. إن الحمية التي كانت تثير عامة الشعب ضد الإسبان وتحفزهم إلى الانضمام تارة إلى الزرهوني وطورا إلى المولى عبد الحفيظ لم تكن لتجرف وجيها حريصا قبل كل شيء على المحافظة على وضعيته ، وحريصا بالتالي على الاتجاه عبر الأعاصير في الوقت المناسب نحو جهة المنتصر المحتمل في المعركة الجارية (19 مكدا) .

بيد أنه يتعين إزاء هذه النقطة أخذ الأجانب بعين الاعتبار من فرنسيين وإسبان علاوة على المتنافسين الثلاثة في الداخل : عبد الحفيظ والزرهوني وعبد العزيز. فإذا

كانت العامة غير الواعية تعتقد إمكانية الاحتراز من هؤلاء الأجانب باختيار زعيم عوض آخر ، فإنه لا عذر للنخبة في أن تبقى متعامية عن الحقيقة. إن المغرب العتيق سيرضخ لا محالة إن طوعا أو كرها أمام علم أوربا وقوتها ، ومهما يكن سلطان الغد فلن يكون سوى سلطان تحت الوصاية. فينبغي فيما وراء شخصه الذي ما يزال مجهولا أن يخطو المرء الخطوات الأولى نحو الوصي (20) . إن التبصر ليقنضي ذلك بقدر ما تقتضيه الحكمة. أولا يمكن بربط علاقات ودية منذ البداية أن نجعل من المحنة التي يبيتها القدر للبلاد وسيلة للخلاص والإصلاح ؟

بالنسبة للفقير عبد الكريم فقد كف الإسبان منذ مدة طويلة عن أن يكونوا بمثابة وحوش. فلم تكن توجد في جزيرة النكور الثكنات لا غير. كان يوجد بها بعض الحوانيت الزاخرة بالبضائع من حيث تقتنى الحبوب والمنسوجات والأجهزة أي كل ما يجعل الحياة أكثر يسرا ونعومة. كيف لا تتملك المرء الرغبة في التوجه بنفسه لقضاء أوطاره منها ؟ إن غالبية الأعيان لم يجنوا غصاضة في ذلك . ومع أن الأمر كان أكثر إحراجا بالنسبة لقاض ، فإن عبد الكريم أذعن في الأخير للتقليد. فتم استقباله هناك بحفاوة وأصبح بسرعة في بلد صديق. ارتبط في الجزيرة ارتباطا وثيقا ببعض التجار. منهم المسيحيان لاس ادراش وأنطونيو إيباكوس ، ثم اليهودي مسعود بنحيم (21) . ومن جانبهم ، قابله العسكريون بمنتهى اللباقة وعاملوه باعتبارهم رجلا ذا سمعة كبيرة. ثم شجعوه على القيام بخطوة أخرى بالتوجه إلى مليلية حيث لا يخلو بريق مدينة إسبانية من الأخذ بلبه مهما بلغ من تواضعها. ومنذ 1902 أديت له حتى تكاليف السفر (22) .

لكن يبدو أن فرنسيسكو مارين (Francisco Marín). هو الذي تولى مهمة فتح آفاق جديدة أمامه بأن أطلعه على الوضع العالمي وأظهر له كل ظروف وملابسات المسألة المغربية. كان مارين هو المترجم العسكري لقاعدة النكور. فكان بإمكانه إذن أن يجري مذكرات مباشرة ومطولة مع ذاك الذي سرعان ما أصبح صديقه الحميم . استطاع أن يبين له كيف كان المغرب موضوع مساومة بين الفرنسيين والإنجليز والإسبان ، تلك المساومة التي لا تترك مجالا للشك حول مستقبل البلاد. لكنه تمكن أيضا من أن يبلور له مدى مصلحة الريفيين في أن يجنوا أمامهم بعد التقسيم ليس دولة قوية مثل فرنسا وإنما إسبانيا المتواضعة التي ستكون مضطرة من أجل الاستقرار إلى اللجوء إلى الوسائل السياسية بدلا من القوة والعنف. من هذا المنظور ألمح له إلى ذلك الدور البارز الذي سيسند لأمثاله ممن يعرفون كيف يجنبون إخوانهم ويلات حرب ميؤوس منها ، ويقررون هم أنفسهم السير بهم في معارج الرقي التي ستتحصر مهمة إسبانيا فيما يخصها على

مجرد رسمها لهم. وبما أن هذه هي الاحتمالات ، فلماذا لا يرسى منذ الآن ، وأيا كان الأمر ، الركائز الأولى عن طريق ولديه اللذين بإقامتهما في مليلية سيتكونان بها ، هما أنفسهما ، من أجل مهام الغد ، ويحيطانه علما في كل حين بما يستجد من أحداث (23) ؟ لم يكن عبد الكريم تاجرا أو مهربا ، وكان صاحب مبادئ . فندرك كيف أن هذه الأحاديث في نفس الوقت الذي أسالت لعبه ، أوقعته في قلق عميق. لأن ما عبرت عنه كان بديها إلا أنه سيفضي به إلى التكرار للمقدسات. فما مصير الدين والمؤسسات ؟ وألا يصبح منبوذا من طرف الجماعة بتورطه في المغامرة ؟

لا ندري كم مضى عليه من الوقت وهو فريسة لهذا التردد. إلا أن تردده زال فجأة منذ 1906. ففي هذه السنة انعقد مؤتمر الجزيرة الخضراء ، واتخذت الدول المجتمعة فيه من أجل تسوية القضية المغربية إجراءات استقبلتها البلاد قاطبة تقريبا بسخط وكنها نذير بالخضوع الوشيك للأجانب. بيد أن النخبة الواعية لم تر فيها من جانبها سوى تأكيد لحمية كانت تتوقعها منذ مدة طويلة وعرفت كيف تهين نفسها لها . فضلا عن ذلك فقد كان المستقبل يلوح في نظرها أخف وطأة مما كانت تخشاه. فقد اكتفى الأجانب بإرسال مدربين لطابور بوليس سيكون مغربيا وخاضعا لسيادة السلطان. وتعهدوا بالمقابل بتقديم رساميل لإنشاء بنك لخدمة الدولة المغربية (24) . فإذا أمعن المرء النظر ، فإنه سيرى أن ما كانت أوروبا تقدمه للمغاربة لانتشالهم من اليأس والفوضى التي كانوا يتخبطون فيها هي كفاءتها التي لا جدال فيها ، وثرواتها التي طالما تآقت النفوس إليها. وأن تكون هذه الإجراءات ثمرة لإرادة جماعية ، وأن تكون وضعت بالتالي ، على مستوى التنفيذ ، تحت إشراف الأمم ، فذلك ما كان يحول أخيرا دون إقدام إحداها على تجاوز حدودها. فبالنظر إليه هكذا من الجانب الملائم لمساعدة أوربية في دائرة الاحترام ، وحتى مع ضمان الاستقلال الذي تمت المحافظة عليه ، فإن عقد الجزيرة الخضراء لم يترك أي شك للقاضي عبد الكريم في صحة وجدية الآمال التي ألمحوا إليه بها . وبما أن السلطان شارك في تحضير هذا العقد النهائي وطالب بالتالي ، بالمصادقة عليه ، بمساعدة إسبانيا على الخصوص ، فلم يبق مانع أمام خادمه عبد الكريم من قبول عرض التعاون الذي قدمه له الإسبان بالذات في قطاعه ، بل أصبح ذلك من واجباته .

بالفعل ، ومنذ هذا الوقت ، وجدناه يسلك مسلكا جديدا. والمؤشر الدال على ذلك هو أولا اختياره المفاجئ للدراسات التي جعل ابنه الثاني امحمد يزاو لها . فبينما كان محمد ، الابن البكر ، قد توجه منذ أربع سنوات إلى فاس لاستكمال دراسته العربية

والإسلامية التي كان هو نفسه قد لقنها إليه ، اتجه الابن الأصغر إلى مليلية ليبدأ بها دراسته الإسبانية وهو ما زال في صدر شبابه. ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد . لأن الابن الأكبر الذي عاد من فاس بقي عاطلا بجانب والده لمدة سنتين . وفي هذه السنة بالذات ، بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء ، قرر توجيهه هو الآخر إلى مليلية التماسا للرزق في خدمة الإسبان (25) . ونتصور التأثير الذي أحدثه هذان القراران . فبالنظر إلى حالة الرأي العام في الريف ، فلا بد وأن يستقبلا كمبادرة في اتجاه العدو من شأنها أن تخلف وقعا مؤثرا جدا بقدر ما كان صاحبها شخصية مرموقة . ولم يكن عبد الكريم ليتجاهل ذلك . وإذا كان بالتالي قد قبل أن يصدم بهذا الرأي العام فلأنه اختار موقفه النهائي . فيما أن الإسبان لم يعودوا أولئك الغزاة الذين كان الناس يتصورونهم ، وإنما قدموا فقط بموافقة السلطان لمساعدة النخبة المغربية على أن تجعل من بلادها وطنا عصريا ، لينبغي له باعتباره من هذه النخبة أن يرحب بهم بل وأن يساعدهم على الاستقرار. وكان من شأن هذا أن يتسبب له في بعض المتاعب . فلئن كان يعلق الآمال على اجتذاب بعض الأتباع ممن يشاطرونه الرؤية ، فقد كان واضحا بالمقابل أن الكتلة الجاهلة غير مستعدة للتخلي عن معارضتها القوية . وكانت سياسة الأمر الواقع هي الكفيلة وحدها بأن تجعلها ، بالنظر إلى النتائج ، ترجع عن ضلالها. لذلك ، وعلى الرغم من اللاشعبية التي لا مفر منها والتي عليه تحمل مخاطرها ، فإنه يتوجب تسخير كل الإمكانيات للوصول إلى هذا المآل .

هذه هي ما أصبحت عليه منذ ذلك الحين طريقة تفكير عبد الكريم كما تشهد على ذلك شهادة ابنه محمد ذاتها (26) والسلوك الذي سينهجه إلى النهاية تقريبا . لكن منذ متى بالضبط كيف سلوكه وفق هذه الطريقة الجديدة في الرؤية ؟ باستثناء توجيه ولديه إلى مليلية ، فإنه لا علم لنا بذلك. أولى معلوماتنا الأكيدة ترجع إلى نوفمبر 1907 وهو التاريخ الذي تسلم فيه تذكرة دائمة للسفر مجانا على متن سفينة بريد تربط النكور بحرا بمليلية. هذه التذكرة الدائمة ، القابلة للتجديد بعد انتهاء أجلها (27) لا تترك مجالا للشك في كون علاقات عبد الكريم مع قاعدة النكور عرفت على الأقل منذ 1907 منعطفا جديدا. لقد تحول صديق الأمس إلى عميل.

وكما سبق أن رأينا ، فإنه بانسياقه جر معه ولديه في المغامرة. كان أحدهما وهو احمد الذي لا يتجاوز عمره 12 سنة ، ما زال صغيرا لكي يتمخض عن ذلك نتائج على المدى القريب. إلا أن الابن البكر كان يبلغ 24 سنة. وكان قد أكد شخصيته في نفس الوقت الذي بقي تحت سلطة والده كما هو شأن كل ريفي. لذلك فإن النشاط الذي دشنه

الآب حتى وسط القبائل ، واكب في الخارج وبسرعة فائقة النشاط التوأم للابن محمد الذي كانت شهرته وإمكاناته في مليلية تسير في خط متصاعد باستمرار. ومنذئذ لا يمكن الحديث عن أحدهما دون الحديث عن الآخر.

* * *

ولد محمد - السي محمد في الريف - سنة 1882 (28). بيد أننا لا نعرف عن سنوات صباه وشبابه سوى أنه أنفقها بمنزل أجدير في كنف والده مما جعله يحتك عن قرب بحياة الريفيين ولو أن ثمة ما كان يحمله على الشعور بأنه متميز عنهم بفضل دراساته. أما أن يكون قد توجه منذ هذه الفترة للتجول على هواه - كما قيل - في قاعدة النكور ، راصدا الطريقة التي يصوب بها مدفع ، وواقفا هنا أو هناك على أحاديث انهزامية حول عجز اسبانيا بعد كوبا عن القيام بمأمورية استعمارية (29) ، فهذا ما يستحيل تصديقه. إنه ينم عن الرواية التي لفقت فيما بعد للتبديد بالخيانة المبكرة لرجل لم تكن صداقته إطلاقا إلا ستارا . وعلى فرض أن محمدا الطفل زار النكور مرتين أو ثلاث مرات ، فلا يمكنه أن يعود منها إلا بانطباع عابر قائم على مجرد المشاهدة حيث إنه كان يجهل الإسبانية (30) . من جهة أخرى فإننا لا نرى ما يدعو إلى الشك في التقدير الحقيقي الذي لابد وأن يكون قد تقاسمه مع أبيه حيال اسبانيا كما صورها أصدقاء النكور . على أن هذه نقطة أخرى كان من المفروض أن يشعر معها - بوضوح أكثر أو أقل - بأنه متميز عن إخوانه في القبيلة .

مما لا شك فيه أن المنعطف الكبير في حياته هو إقامته سنتين طالبا بفاس . ما زلنا لا نعرف بالضبط طبيعة الأفكار الرائجة بفاس في سنوات 1902-1904 (31) . ولكن في أية جهة عدا فاس كان بإمكان الريفي الشاب ذي الأفق الضيق أن يكون هذه الفكرة الإجمالية ، الواضحة ، المتسقة ، والتي لن يتأخر عن صياغتها بعد قليل من عودته ، والتي سيبقى مخلصا لها في كثير من نقاطها إلى النهاية ؟ كان عليه أن يكون في فاس ليرى أن مناهضة الإسبان وحدهم ، كما كان يفعل الريفيون ، يعني تجاهل الخطر الحقيقي باعتبار أن العدو هو فرنسا. فبينما لم تحتل اسبانيا في ظرف أربعين سنة سوى بعض القدايين من الأرض المغربية لحماية قواعدها ، كانت فرنسا قد ضمت أقاليم بكاملها في ظرف سنتين لا غير ، و تراها الآن وقد جاءت حتى إلى فاس ممارسة ضغوطها على السلطان لاستعجاله بتسليمها ما تبقى من البلاد. كان عليه أن يكون في فاس ليمعن النظر مع زملائه وبعض أساتذته في أسباب البون الحضاري الشاسع الذي

جعل المغرب تحت رحمة هذه الدولة أو تلك من الدول الأوروبية. ومن بين هذه الأسباب هناك المعرفة التي بانتشارها في كل أرجاء أوروبا أدت إلى ازدهار الصناعة والحرية بها ، في حين كان النصيب المحتوم بالنسبة للمغرب الغارق في الجهالة والظلمات هو الاستبداد والبؤس (32) . ومن ثم وجود شعور مزدوج وبألغ التناقض إزاء أوروبا المخوذة في مجموعها : شعور عدائي بسبب ما تمثله من خطر ، وشعور انبهارى بسبب ثقافتها ومؤسساتها. وبما أنه لا يمكن البقاء على طرفي نقيض ، وبما أنه لا يمكن كذلك ، كما فعل بروميتي Prométhée انتشال مشعل النور من أوروبا القوية ، فبالإمكان إيجاد منفذ بأن يحاول في حضن أوروبا ، وعلى ضوء المظاهر ، إيجاد الدول الوصية لضرب الدول الشريرة . بوقوفه موقف العداء من هذه ، فإنه أصبح يتمنى وبيبارك تدخل الدول الأخرى

ستستوفي النظرية كامل أبعادها بمجرد عودة محمد من فاس عندما سينزل الإمبراطور غليوم الثاني بطنجة وينقذ المغرب من الكابوس الفرنسي. وهكذا أقيم الدليل على أنه إذا كان كل شيء يدعو إلى التخوف من أوروبا ، فإنه يمكن أيضا انتظار الكثير منها . من هذه الزاوية أيضا قيم محمد في السنة التالية نتائج مؤتمر الجزيرة الخضراء معتبرا إياها حاجزا منصوبا أمام الهيمنة المباشرة لفرنسا . إنه رأى مخالف لرأي والده الذي كان فيما يبدو أقل منه قلقا من الخطر الفرنسي . غير أن تسليط نقمته على فرنسا ، تلك النقمة التي كان عليه أن يضمها كرفي أصيل للإسبان ، جعل محمدا يصنف هؤلاء ضمن الأوروبيين "الأخيار". إذ أنهم كانوا هم أيضا ، كما كان ملحوظا ، معارضين لفرنسا . صحيح أن هذه المعارضة لم تكن توازي معارضة الألمان في قوتها وصخبها ، إلا أنها كانت حسب طريقتهم ووفق إمكاناتهم . بحيث ان الابن انتهى بخصوصهم في الواقع إلى نفس النتيجة التي انتهى إليها والده ولو أنه سلك مسلكا آخر : إن التعاون مع الإسبان بعيد عن أن يكون غير مشروع ، سيكون وسيلة فعالة لخدمة بلاده .

هل ثمة في هذه التقديرات حيز مخصص للطموح الشخصي ؟ وهل كان الفتى بترك إلى أي حد يمكن أن يقوده اختياره ؟ ما من أحد يستطيع الإجابة. ولكننا ندرك أنه لم يصدر في موقفه عن نزعة مأكرة بقدر ما صدر عن إيمان صادق. لأنه لم يكن في سلوكه ، على الأقل في البداية ، ما من شأنه أن يصدم مثله الأعلى .

في هذا الوقت كان الإسبان قد شرعوا في سياسة الاستقطاب المألوفة لدى الفرنسيين. وكانوا قد فتحوا مؤخرا في مليلية مدرسة صغيرة لأبناء المغاربة المقيمين بالمدينة وجلهم من التجار . ولاختيار مدرس مغربي بها، رشحوا لهذا المنصب ولد القاضي عبد الكريم . فهل يمكن أن يتردد محمد وهو الذي كان يرى في التعليم مفتاح

الإصلاح بالنسبة لبلاده ؟ لقد وافق ، وسيتولى تعليم مواطنيه الفتيان من 1907 إلى 1913 يغمره الشعور بالقيام بأقدس الواجبات (33) .

لكن ها هي ذي على الفور مهمة جديدة تعرض عليه . لقد كانت تصدر في مليلية يومية تدعى "تلفرامة الريف" مخصصة إلى هذا الحين لاسبانيي المدينة . بيد أن محررها لوبرا ساورته فكرة جريئة بالنسبة لذلك العصر وهي اجتذاب قراء مغاربة كذلك عن طريق إدراج أخبار يومية في أول صفحة محررة بالعربية . فوقع اختياره بدوره على محمد بن عبد الكريم بغية تأمينه .

لكي نقيم مدى تأثير مثل هذا الاقتراح على الفتى ، تجدر الإشارة إلى أنه لم تكن توجد وقتئذ في المغرب كله سوى صحيفة باللغة العربية ، وهي "السعادة" الصادرة بطنجة . إلا أن السفارة الفرنسية هي التي كانت تصدر هذه الجريدة . فكانت بالتالي تخدم في البلاد أبغض قضية في نظر الوطنيين دون أن يتمكن أي واحد من الرد عليها . لقد طالما حاول بعض المثقفين تأسيس جريدة سنة 1902 ، جريدة مغربية من شأنها أن تجهر بالحقيقة . إلا أنه اصطدم بالخطر السخيف من قبل سلطة مستبدة . وبالتالي ساد الاعتقاد فيما بعد بضرورة التخلي عن المشروع (34) . فماذا إذن عن الفرصة المتاحة أمام محمد ؟ ألا يمكنها أن تزيل ولو قليلا رداء الظلمات الذي كانت بلاده تختنق تحت وطائنه ؟ لقد رأى ضرورة القيام بالتجربة (35) .

ليستهل عمله ، اقتصر على نشر العجالات غير الشخصية لسرد أبرز الوقائع عن الحياة المغربية . لكن بالنسبة للريف حيث لا تتسرب إلا أخبار نادرة ومتأخرة فإن الخبر في الوقت المطلوب كان في حد ذاته خطوة هامة تتيح إمكاناً للإسهام بشكل فعال في الحياة الوطنية . وهذا ما أحسنت به "السعادة" واستاعت منه . لذلك فقد هاجمت انطلاقاً من طنجة كاتب مليلية الرديء الذي كان يسيء إلى أهل الذوق بتشويبه اللغة العربية . لأنه ينبغي القول إنصافاً للحقيقة أن مؤلفنا لم يكن يعتني بالمحسنات البديعية . بيد أن النقد كان له الفضل في أن مسه في الصميم . فأجاب بأنه بإمكانه لو أراد زخرفة أسلوبه كأبي كاتب آخر ، لكن ، بما أن الكتلة الساحقة من الريفيين ليست مثقفة ، فقد نزل إلى مستواها ليكون متأكداً من فهمها له ، وهذه هي الحدود التي يقف عندها طموحه (36) .

بمقارعة "السعادة" على هذا النحو ، فإنه استطرد ، من حيث لا يدري في الحديث عن ذاته فيما يكتب . لقد عبر عن هدفه ، وبتعبيره عنه ازداد وعيه وضوحاً .

علاوة على ذلك ، فقد أمكنه أن يلاحظ كون الهجوم لم يأت من جهته وإنما من جهة الخصم . أي خصم ؟ الأخرى أن نقول الفرنسيين . إنهم إذن قلقون . يا لها من دلالة . لقد كان على صواب في محاولة القيام بالتجربة وسيواصلها . فيما أنه ضايق الفرنسيين ويدون وعي منه فماذا سيكون عليه الأمر مستقبلا لو أنه كرس جهده لذلك ؟

لكن كيف ينسى أنه وجد وسائل عمله في مليلية في كنف الإسبان ؟ هل كان بمقدوره في قبيلته ، وحتى في فاس ، أن يجد حواليه تلاميذه مع كتب ومقاعد وسبورة ؟ هل كان بمقدوره هناك أن ينشر فكرته لتبليغها إلى مواطنيه ؟ إن مصيبة المغرب أنه يسير حتما إلى الهاوية إن لم يستتر بنور الفكر المعاصر ، بل ومصيبته أن السلطة الاستبدادية تنيخ عليه بكلكها للحيلولة دون بزوغ فجره . والأدهى أنه يجهل ، ما دام أعمى البصيرة ، أنه عاجز بإمكاناته وحدها على إيجاد سبيله إلى الخلاص . ومن هنا هذا العناد الملحوظ خاصة في الريف في طرد الإسبان دون التمييز بينهم وبين الفرنسيين . والحال أن اسبانيا إذا ما كانت ترى بالطبع أن مصلحتها القنوم إلى المغرب ، فذلك لا بهدف السيطرة عليه وإنما للبيع والشراء لصالح الطرفين . وكانت تحمل معها خبرات أوروبا التي كان المغرب في أمس الحاجة إليها . ألم تسمح لمحمد وإن كان ريفيا بأن يستغل لفائدة إخوانه أحسن هذه الخبرات : الجريدة والمدرسة ؟ هذا ما كان ينبئ بما سيكون عليه المستقبل في كل جهة تمكن الحضور الأسباني من الامتداد إليها في البلاد انطلاقا من مليلية . وإذا كان أبوه عبد الكريم يخطئ خطأ فادحا بالثقة بالفرنسيين ، فإنه بالمقابل على كامل الصواب في أن يفتح ذراعيه للإسبان . ففرنسا تعني العبودية . في حين أن الأمر مع الإسبان يتعلق بإنقاذ الأهم وشق الطريق نحو الإصلاح . فلماذا إذن لا يكون المرء منطقيا بأن يساعد هو الآخر على استقرارها بكل الوسائل الممكنة ؟

* *

بيد أن سلسلة من الأحداث المؤلة ستتعاقب على الحياة الريفية وسترغم محمدا لدة معينة على مراجعة مخططة بكامله .

حقا ، كان من شأن الوقائع في البداية أن تثبت بالأحرى صحة وجهة نظره . وهكذا فإن الإسبان ، بعدما نالوا امتياز استقلال منجم الحديد بقلعية في يوليوز 1907 ، شرعوا في مد سكة حديدية لربطه بمليلية (37) . أفلا ينبغي أن يكون المرء ممثنا للإسبان عن هذا المشروع الذي يشكل منطلقا لتحديث كان المغرب للأسف عاجزا عن القيام به

بإمكاناته وحدها ، والذي سيكون مع ذلك أكبر مستفيد منه ؟ وكانت الدار البيضاء في نفس التاريخ مسرحا لفتنة دموية اندلعت بسبب تواجد مراقبين قدموا لمراقبة الجمارك. وكان رد فعل فرنسا على الفور احتلال المدينة (38) . وهكذا انتهى الأمر إلى تسليم العدو الثغر مع أن الهدف كان هو مدافعتة عنه . أفليس هذا دليلا ، وبعد احتلال وجدة في نفس الظروف ، على أن المغرب الجاهل الفقير لا قبل له في الظروف الراهنة بمواجهة الجهاز الجهنمي لدولة أوروبية ؟ وحيث أنه لا يمكن الخروج من هذا الوضع اعتمادا فقط على النفس ، ألا يتعين ، مثلما فعل مع اسبانيا محمد وأبوه عبد الكريم ، التماس مساندة دولة أقل خطورة من الفرنسيين وبالطبع مع ارتضاء تعويضها عن ذلك ؟

هذا مما لا ريب فيه. لكن ، على عكس ما كان متوقعا ، ظهر فجأة أن المغرب قد يكون متوفرا في حد ذاته على إمكانيات أوفر مما يعتقد. وبدءا ، وعلى عكس الهجمة الشرسة التي أعقبت احتلال وجدة ، أربعة أشهر من قبل ، فإن ضربة الفرنسيين الجديدة لم تمر دون أن يدفعوا الثمن ، حيث أن قبائل الشاوية المجاورة للدار البيضاء انتفضت مرغمة العدو على حملة عسكرية حقيقية. كان هذا في حد ذاته رائعا جدا بالنظر إلى ميزان القوة. على أن ثمة مظهرا آخر لا يقل فجائية بدوره وهو أن قبائل الشاوية دخلت الحرب ضد أوامر السلطة الشرعية. وفوق ذلك ، فإنها خلعت بيعه السلطان عبد العزيز المتربع على كرسي الحكم لتختار هي نفسها أخاه عبد الحفيظ مرشحا للعرش (39) . إنها لضربة قاسية أن يأخذ السكان مقاليد مصيرهم بهذا الشكل حتى ولو بدا اختيار المناسبة قابلا للطعن. لقد زعزعت الحكم المطلق الذي كانت البلاد تحتضر في ظله. فإذا تمكن خلف المولى عبد العزيز من الوصول إلى العرش فإنه سيكون مرشح الشعب. وهذا ما كان يفتح بالتالي آفاقا بعيدة . وبالفعل ، فقد هب نسيم الحرية على المغرب . والحدث الذي لا مثيل له في تاريخه أن عبد الحفيظ لم يتمكن من الحصول على بيعه العاصمة فاس إلا بشروط تحدد حقوق الأمة وواجبات السلطان .

فبالإضافة إلى الشروط المتعلقة بإدانة العقد النهائي للجزيرات ، واسترجاع الأراضي المحتلة من طرف الجيوش الأجنبية ، ألزم السلطان ببرنامج عمل من الإصلاحات يتضمن ، ضمن نقاط أخرى ، ضرورة استشارة الأمة في جميع ما يتعلق بالشؤون الخارجية ، وحماية الفرد في شخصه وأملاكه ، وضمان استقلال العدالة من عسف السلطة ، وإعادة تنظيم الدفاع عن البلاد ، وأخيرا إصلاح التعليم وتعميمه (40)

كان هذا نصرا لأفكار لم يكن يجرؤ الوطنيون إلى هذا الحين على التعبير عنها إلا في الخفاء . وفي خضم الفوران السياسي الكبير الذي واكبه ، خاصة في فاس ،

برزت شخصية محمد الكتاني الذي تمكنت فيه النزعة التقليدية من الاستحالة إلى طموح متعطر للتغيير. لقد نسبت إليه ، وهذا أمر صحيح بلا ريب ، الشروط المدرجة في وثيقة البيعة ، وكان معروفا عنه أنه كان يخطر السultan الجديد عبد الحفيظ بنداات متوالية للقيام بالواجبات التي يلزمه بها ميثاقه . أخيرا ، فلم يكن هناك من يجهل أنه كان يلهم من بعيد "لسان المغرب" ، الجريدة الجديدة التي ظهرت مؤخرا في طنجة بفعل الظروف لترد على "سعادة" الفرنسيين. وفيما يلي نقدم نموذجا لما كان يقرأ في هذه الجريدة :

" بما أن الوقت قد دعا إلى الإصلاح ، والشبيبة العصرية قد هلت قلوبها ، وانشرحت صدورنا له ، وجلالة سلطاننا الجديد (عبد الحفيظ) يعرف لزومه . فنحن لا نألو جهدا في المناذاة بطلبه على صفحات الجرائد من جلالته ، وهو يعلم أننا ما قلناه بيعتنا ، واختارناه لامامتنا ، وخطبنا وده رغبة منا وطوعا من غير أن يجلب علينا بخيل ولا رجال ، إلا أملا في أن ينقذنا من وهدة السقوط التي أوصلنا إليها الجهل والاستبداد ، فعلى جلالته أن يحقق رجاءنا ، وأن يبرهن لكل على أهليته ومقدرته على ترقية شعبه ، وعلى رغبته في الإصلاح ، وجدارته بإرادة ما قلته أمته .

والذي نرجوه منه قبل كل شيء هو فتح المدارس ونشر المعارف ، وأن يكون التعليم الابتدائي إجباريا ، وأن يولي ذوي الكفاءة والاستحقاق والاهلية ويقرب إليه ذوي العقول الراجحة والافكار الحرة الراقية ، ويحترس من الوشاة والجواسيس الذين يشوهون له رعاياه ، ويحاولون بينهم وبينه ، وفي بلاطه الشريف من هذه الميكروبات القتالة جيش كبير ، فإن لم يحترس منها ويقاومها نقلت إليه جرائم وبيئة معدية . وبما أن يدا واحدة لا تقدر على إنهاء شعب من وهدة السقوط ولا على إصلاح إرادة مختلفة كإرادة حكومتنا فيجب أن تكون الايدي المتصرفة والعقول المفكرة والافكار المدبرة كثيرة متكاثفة على العمل . وعليه فلا مناص ولا مجيد لجلالته من أن يمنح أمته نعمة الدستور ومجلس النواب ، ومن إعطائها حرية العمل والفكر لتقوم بإصلاح بلادها اقتداء بدول الدنيا الحاضرة المسلمة والمسيحية . والدول الحاضرة يوم كانت مستبدة ، وكانت سلطتها مطلقة لم تكن لها كلمة مسموعة ، ولا ما يدل على أنها دول قديرة ، وحيث خلص الله تلك الارواح من شبكة الاستبداد والرق نهضت تلك الدول من وهدة سقوطها ، وتنتقلت في أطوار الكمالات حتى وصلت اليوم إلى ما وصلت إليه ، وكفى حجة على هذا أمة اليابان ، تلك الشمس المشرقة في آفاق اسيا التي كانت في مؤخرة الدول قبل أربعين سنة ، وأصبحت اليوم في مصاف الدول العظيمة ، وانتصرت ذلك الانتصار العجيب الذي حصل في دولة تركيا العلية اثر منح جلالة أمير المؤمنين لشعبه الدستور ، وأمره بجمع (مجلس

المبعوثين). فعسى أن تقتدي به وتقوم بخدمة بلادنا ونسعى جهدنا في إصلاح حالتها' (41).

أجل من يدري بالفعل ؟ لقد كانت جميع العقول المستنيرة تطرح نفس السؤال . في مليلية ، كان تحرير جريدته مرصدا ممتازا بالنسبة لمحمد من حيث كان يواظب على تتبع المسار الجديد للأحداث . يا لها من أحداث مدهشة ، يا لها من عبرة بالنسبة لجميع الذين يشعرون مثله من بلادهم ! لقد اعتقد مثل كثيرين آخرين أنه لا يمكن القضاء على الاستبداد من الداخل . فإذا به ينهار تلقائيا في بضعة أشهر . دون شك ، كان الناس ما يزالون ينتظرون صدور دستور حقيقي . بيد أن عقد البيعة كان يتضمن صيغته الأولية ، ومنذ كان الشعب قاطبة يطالب به . لأن هذا الشعب الذي اعتقد بأنه أصيب بسكرة الموت ، فتح عينيه هو الآخر ، وإذا به ، فضلا عن ذلك ، يجد في حضنه رجلا في قوة محمد الكتاني منيرا له السبيل .

ليس بمقدور أي واحد تحديد الجبهة الجديدة التي كان سينحاز إليها محمد لو أن الأحداث تابعت المجرى الذي توقعه لها . ولكنه في الوقت الذي كان غارقا في أحلامه المستقبلية على هذا النحو ، كان لا يعرف أن عبد الحفيظ الحريص في آن واحد على إرضاء القوى العظمى وعلى ألا يتخلى عن امتيازاته ، لم يكن ينتظر سوى الفرصة للانتقام من الكتاني وحزبه . وهكذا علم فجأة في أحد الأيام أن الرجل الذي يعني اسمه الاستقلال والعظمة والحرية جلد بالسوط جلدا فظيحا ، وهلك تحت وقع التعذيب . وبعد بضعة أسابيع من هذه الحادثة الفظيعة ، حكم على "لسان المغرب" بدورها بالاحتجاب . ولكن ما الجدوى من بقائها بعدئذ ؟ فيما أنه كان فجرا بالذات ، فإن البلاد غرقت من جديد في لجج ظلامها الأزلي (42) .

كانت الخيبة في مستوى الآمال الضائعة . وها هو ذا محمد وقد عاوده تشاؤمه القديم . حقا لا ينبغي تعليق أي أمل على المغاربة طالما بقوا كما كانوا أعينا معصوبة وأيدي مصفدة بالأغلال . إنهم لا يعرفون إلا المقاومة بصورة عمياء دون القدرة على النيل من أعدائهم ، بل يتضاغون في أغلالهم ويصدون النولة التي كان بإمكانها أن تخلصهم وتحررهم . على أن تعاطف محمد مع إسبانيا استحال إلى انبهار ، سيما وأنه أصبح الآن يقرأ الإسبانية ويحسن نسبيا التحدث بها (43) .

كانت الصحف المديرية خاصة المجلات الجميلة المزدانة بالصور تتلمه وكأنه أعمى رد إليه بصره . ذلك أنه انتقل فجأة عن طريق النص والسورة إلى عالم يتجاوز

واقعه بعشرة قرون. هذا العالم الذي حاول لحد الآن تمثله بدون جدوى ، ما هو ذا الآن يسبح فيه ويتأقلم معه ويحس بأنه مواطن فيه. لقد أصبح على الأقل رجلا آخر. وإذا كانت اسبانيا أحدثت فيه مثل هذا التغيير بمجرد الاحتكاك ، فماذا سيكون عليه الأمر بالنسبة لبلاده لو أنها تمكنت من استغلال كل وسائلها ؟ لقد أصبحت اسبانيا أكثر من أي وقت مضى ، بعد الانتكاسة المؤسسية التي نكبت بها البلاد ، الوسيط الذي لا غنى عنه للتجديد ، إن لم نقل صانعه.

ذلك عموما هو المناخ الفكري الذي كان فيه محمد عندما حدث هجوم كومندو ريفي على زوارق إنزال اسبانية في يوليو 1909 مشكلا نقطة انطلاق لحملة من العمليات الدموية استغرقت أربعة أشهر (44) . ما من أحد يمكن أن يكون أكثر تأثرا منه بما وقع نظرا لأن قلبه كان موزعا بين الطرفين. مع ذلك فعلى إخوانه ألا يعولوا على رضاه فأحرى على مؤازرته. فما دامت اسبانيا قوية وقادمة كصديق ، فمن الحماسة ومن الخطأ الجسيم الوقوف ضدها. وسيكون النصر حليفها. وهو ما حدث بالفعل.

والواقع أن الأمور لم تتم كما هو معروف بمنتهى السهولة. لأن الريفيين كانوا ذوي شجاعة ما نظن الحديث عنها يحتاج إلى توضيح أو بيان. وكانت اسبانيا هي التي أبانت بالعكس عن معالم الضعف سواء على ساحة المعركة أو في شبه الجزيرة. فماذا يقال خاصة عن فتنة برشلونة التي اندلعت منذ الإعلان عن المعارك ؟ هل كانت إذن اسبانيا تعاني الأمرين من النكبات التي كان يعتقد بأن المغرب هو الذي يكابدها وحده ؟

كان لابد وأن يمر محمد من جراء ذلك بلحظات من التردد ، إلا أنها لم تدم طويلا. لأن فتنة برشلونة تم قمعها قمعا تاما. كما تم بسرعة السيطرة على الوضع من جديد في عين المكان. كلا إن الأمور في المغرب قد تحدث على غير هذا الوجه. وهكذا فقد كان الأمر يقضي بمحمد كل يوم إلى تبني قضية الإسبان في الصراع الذي كان لا ينبغي ألا يحدث مطلقا بينهم وبين الريفيين. هل يعني هذا أنه كان من الممكن أن يحمل السلاح ضد إخوانه ؟ إنه لم يصل إلى هذا الحد . ولكن ألا يمكنه بالعكس أن يسدي إليهم معونة بصرفهم عن اختيار الحرب ؟

* * *

في هذا الحقل الصغير المسيح الذي كانت تبدو عليه مليية في ذلك العصر ، كان من السهولة بمكان على السلطات الإسبانية أن ترصد المسلك الذي سلكه ابن القاضي عبد الكريم منذ وصوله. وعلى الرغم من رأسه المعمم ، وجلبابه الخشن ، وقدميه الحافيتين في نعليه ، فإنها سرعان ما نظرت بعين الاعتبار إلى هذا الريفي الشاب الذي كانت تميزه على أية حال أهليته ووضعيته : ابن قاض وهو نفسه صاحب دبلوم. كان يبدو متواضع الشأن ومن الممكن زري الهيئة ، إلا أن نظرت كانت حادة على نحو غريب (45). وفي نفس الوقت الذي نهض فيه بدوره التربوي الصغير ، انكب على تعلم الإسبانية وما

لبث أن استوعبها . وكذلك عرف أن الأخبار العربية المنشورة في "التلغرام" كانت من إنجازهِ وإن لم تحمل توقيعه. ولم يفت مدير هذه الجريدة ، لوبرا ، التبجح هو نفسه بموظفه الجديد : إن هذا "المورو" الذي كان على ما يظهر فظا ، أدرك من الوهلة الأولى ما هو مطلوب منه ، إنه لصحفي بالفطرة ، وعلى كل حال فهو مثابر ومنضبط وصديق ، وما أكثرها من مؤهلات لا تتوفر في بني جلدته . ما القول أيضا عن نهمة في معرفة كل ما يتعلق بالحياة الإسبانية وحياة أوروبا والعالم ؟ أو عن استعداده لإبداء رأيه فيها في اعتدال وحصافة ؟ كان الإسبان ينسون أنهم أمام مغربي عند مجاذبته أطراف الحديث .

كان هذا في الوقت الذي تم فيه تنظيم "مكاتب الشؤون الأهلية". وكان دور هذه المكاتب يقوم على جمع المعلومات المتعلقة بالوضعية داخل القبائل وتسريب النفوذ الإسباني إليها. إلا أنه لم يكن تحت تصرفها وقتئذ سوى مترجمين باللغة العربية بينما كان العملاء أو المخبرون يتكلمون باللغة البربرية. وباعتبار ما هو معروف عنه ، فقد تطلعت إسبانيا إلى أن ابن القاضي عبد الكريم هو الرجل الذي تتوفر فيه الشروط المطلوبة. فبالإضافة إلى أهليته المزبوجة سواء باللغة البربرية أو الإسبانية ، فقد كان على معرفة وثيقة بالرجال ومؤسساتهم ، ويسعى هو نفسه إلى الأهداف التي كان الإسبان يرمون إليها. وبالفعل ، فقد قبل محمد بصدر رحب وظيفة المترجم المعروضة عليه (46) . وبناء على ثناء رؤسائه وعلى ترقياته المستقبلية ، فمن الواضح أنه نهض بها لا بوصفه وسيطا سلبيا ، ولكن بوصفه شريكا إن لم نقل مستشارا. بيد أنه لم ينصرف لا عن مدرسته ولا عن جريدته. بل بالعكس ستستأثر هذه المدرسة بنصيب متزايد من اهتمامه إذ أنها كانت تزوده بأداة ثمينة للنهوض بمهمته الجديدة على أحسن وجه .

على أنه كيف نشك في كون هذه المهمة نفسها زادت وإلى حد كبير من تفاقم مشاكله الوجدانية ؟ فإلى هذا الحين لم تكن إسبانيا قد ملكت سوى قلبه بينما كان يكرس جهده لإخوانته عن طريق المدرسة والجريدة. فإذا به يصبح الآن ملزما حقيقة بخدمة إسبانيا. دون شك ، كان هو نفسه مقتنعا بأنه سيبقى على هذا النحو وفي مصالح بلاده الحقيقية ، إلا أن كتلة الريفين لم تكن مؤهلة لفهمه على هذه الحالة إلا بعد مدة طويلة. وسيبقى بالتالي في الحالة المزرية لرجل يتنازع في القيام بواجبه مفهومين متناقضين ، إن لم يتخلص ويحسم باختيار حكيم. إلى هنا يتعين دون شك إرجاع بواكير فكرة أقل ما يقال عنها أنها محيرة . ذلك أن محمدا ، المعروف تاريخيا بعبد الكريم ، ذلك الذي سترى فيه إسبانيا ألد أعدائها ، ذلك الرجل قرر ، على ما سيعتقده البعض ، التحول هو نفسه إلى إسباني. وإذا لم تر الفكرة النور ، فإن المسؤولية لا تقع عليه بتاتا وإنما

على الإدارة التي احتفظت بملفه مدة طويلة قصد دراسته بمدريد ، إلى الوقت الذي تبدل فيه الوضع تبدا محسوسا وظهر من الأنسب للذين يوظفونه أن يتركوه على حاله بدلا من تغيير جنسيته (47) .

ماذا كان سيحصل لو أن الطلب قبول بالترحيب ؟ هذا ليس من اختصاصنا . لأن التاريخ لا يهتم إلا بالواقع . لكن بما أن الطلب نفسه قدم بالفعل ، فهو يستأهل على الأقل أن يثير انتباهنا . لقد أرجعناه إلى هواجس رجل يحاول أن يعيد السكنية إلى ضميره باعتبار أنه قدم في غضون سنة 1910 (48) ، أي في الوقت الذي كان فيه هذا الرجل محجورا عليه في دوامة الخدمة الإسبانية . على أنه كان بوسعنا اللجوء إلى فرضيات أخرى . وعلى سبيل المثال فقد كتب فيما بعد في "التفغامة" :

" أكادت الشمس أن يعمي نورها من كثرة فتن التي عمت هاته النواحي المغربية ... ولا يملك الرجل في هاته المدة راحة لنفسه الا اذا دخل تحت حماية و الا من قضى نحبه " (49) .

ألا يمكننا أن نستنتج أنه اذا كان قد لاذ على هذا النحو بالملاذ الاسباني ، فلكي يبتعد إثارا مفردا للنفس عن سفينة تبدو له مشرفة على الفرق ؟ ألم يكن كذلك مدفوعا بطموحات مهنية ؟ وبشكل أبسط ، ألم ينصع لتعليمات أبوية ؟ ذلك أنه حدث عن طريق اتفاق لا يمكن أن يكون وليد الصدفة أن الفقيه عبد الكريم قدم طلبه حوالى نفس التاريخ للحصول هو نفسه على الجنسية الاسبانية (50) . هذه الفرضيات جائزة . تماما . لكن حتى لو سلمنا بأنها تكونت على درجات مختلفة فلا يمكنها أن تشكل في الرصيد الوطني الكامن في محمد ، ذلك الرصيد الذي كان يملي عليه في نهاية الأمر مواقفه مهما بدت لنا هذه المواقف شاذة من بعيد وبعد انقضاء الأمر . و الا فاننا لن نفهم كيف أنه تمكن من ايجاد سبيله الى الخلاص ، كما فعل ذات يوم عوض أن يبقى الى النهاية أداة تنفيذ طيبة في يد اسبانيا أو في يد أي كان يجزل له العطاء .

إن مثل هذه الرؤية قد تبعث على الضحك . كيف نجترء على اضفاء هالة من المشاعر الوطنية على رجل أنذر نفسه لخدمة إسبانيا و هي الدولة التي تحتل بلاده ؟ نشة نقيضان لا سبيل اليوم الى التوفيق بينهما . لكن من واجب المؤرخ استحضار نظرة العصور الماضية . فمنذ ستين سنة خلت كانت كثير من المفاهيم أقل وضوحا مما هي عليه اليوم . لقد كان المغربي المطلع على الوضع العالمي يرى جميع المنافذ مسدودة أمام بلاده ما لم يأتها مدد قوى من الخارج ، و كان بوسعها أن يمضي النفس بالأوهام

حول استعداد هذه الدولة أو تلك من الدول الأوربية لتقديم هذا المدد بالذات . و عليه ، وبما أن الكتلة الساحقة من المغاربة تقابل هذا المدد بالرفض ، ألا يقضي الواجب بأن تُقاد إليه بعضا الاكراه ؟ لقد عرفت أوروبا عصرا أمن فيه الناس بالمستبد المستنير لضمان مصلحة الشعوب ، تلك المصلحة التي ما كانت لتعرف سبيلها من تلقاء نفسها . و بشكل مماثل ، كان محمد يعتبر أن القوة المستنيرة لا سبانيا ستعطي المغاربة ، ولو ضد ارادة الأغلبية منهم ، المدلول والوسائل لاصلاح يجنبهم الوقوع تحت السيطرة الفرنسية أو يخلصهم من الكارثة إن هم ابتلوا بها . لقد لجأ أوليس (Ulysse) الى القوة لتخليص رفقائه من سحر سوسي (Circe) .

* * *

كما نتذكر ، كان الاسبان قد طردوا حوالي نهاية 1909 أمزيان وأتباعه حتى فيما وراء كرت ، و تمكنوا من اخضاع أغلبية القبائل في هذه المنطقة . و بعد أن أوقفوا آنذاك زحفهم ، كرسوا كل جهودهم على امتداد المنطقة المحتلة من أجل العمل على اخضاع القبائل التي ظلت معادية لهم ، وارساء الدعائم لادارتهم (51) . ففي هذا الاطار، تم ترشيح محمد في يونيو 1910 لمنصب القاضي في " مكاتب الشؤون الأهلية " التي كانت توجه من مليلية كل النشاط السياسي (52) .

بالنظر اليها عن كثب ، فانها لم تكن ترقية و انما تحولا . لم يكن محمد المترجم سوى مستخدم لدى المصالح الاسبانية ، بينما تحول مع منصبه الجديد الى موظف للدولة المغربية . كان التحول ذا مدلول كبير ، لأنه إذا كان يحق للإسبان توظيف محمد أو أيا كان في مصالحهم الخاصة ، فإنه لم يكن بمقدورهم مد اليد إلى الأطر المغربية دون اغتصاب اختصاصات السلطان في عقر داره . كان محمد يدرك ذلك . ويتسلمه لقب القاضي من ملك اسبانيا لا من السلطان ، فإنه أقر لا أقل ولا أكثر بأن المنطقة استبدلت عاھلھا . وهذا صحيح إلى حد أنه لم يكتف بمجرد اعتقاده ، بل كتبه علانية خصيصا لأولئك الذين كانوا ما يزالون يقاومون المحتل متذرعين بالسلطان. فذكر :

"كانت قلعية في ذلك الوقت من غير حكومة والآن تحكم عليها الدولة الصبنيولية. ونحن والدولة المذكورة تصافحنا على الصلح والفصال" (53).

مع التجنس أو بدونه ، ها إلى أين كانت تقوده جدليته وجها لوجه حيال اسبانيا . مع ذلك ، فمن المثير للاستغراب أن نلاحظ أن ما كان يملك عليه حسه وشعوره هو مستقبل بلاده وأن المغاربة ، أو المسلمين حسب التعبير الذي كان هؤلاء يتعارفون به ،

ظلوا محور أفكاره المتحمسة . "أصلحوا أنفسكم ، حدثوا بلادكم على النمط الأوربي" :
دأك ، حسب صيغ مختلفة ، هو مدار وعظه في "التلغرامات" :

"هذه نصيحة للمسلمين أيها الإخوان أن أريد الإصلاح ما استطعت وما توفيقني
إلا بالله عليه توكلت وإليه أتيت ولا تظن أننا أردنا النصيحة لكم والإصلاح لبلادكم لكي
تستقو بها كثيرا كثيرا لأنكم رأييناكم أجل منكم ضعفا ولأجله أردناكم أن تستمعوا لما
نحن قد واضعناه لكم قبل هذا وبعد وما يأتي ذكره لأن بلادكم لو كانت مثل بلاد أوروبا
لراجعت عليكم بضاعات الريح أقل من لمح البصر لأن بلادكم تأملنا ما فيها من كثير
المنافع وما أحسن تربتها وأطيب بلادها لولا كانت مخدمة بما تخدم به بلاد الورييون
لأنكم مثل ما تخدمون به أنتم اليوم مثل الزوايل والمحاريث وغير ذلك" (54).

بالطبع ، فإن هذا المرافع عن قضية الرقي كان بعيدا عن ألا يروق المحتل الجديد
الذي كان يقدمه في صورة مشرقة ، سيما وأن محمدا كان في الغالب الأكثر يبحث عن
نموذجه الأوربي في اسبانيا . وكان بوسع قرائه المغاربة أن يمينوا النفس بالأمال عند
قراءة الموازنة التي أقامها في لحظات أخرى بينهم وبين الإسبان :

"لأن الاصبنيول سعى في تسهيل طريقته فمد السكك الحديدية من مكان إلى
مكان لأن في ذلك رواج التجارة واحكام اللاتاق بين قطر وآخر . والمسلمون إذا أجادوا
تنظرة هدموها أو طريقا مطروقة خسروها أو محجا سلطانيا قطعوها فتعدم المواصلات
تتفقد التجارة وتقل الخيرات . اصبنيول إذا وجد في بلاده مفسدة قطعها أو فتنة
أخمدتها . المسلمون يوقدون الفتن فتاكل أحشاهم وتقني أولادهم وتهلك أموالهم
ينصبون على بساط الذل وبين أنياب الفقر والجوع" (55) .

نستنتج أن مهمة الإغراء التي نهض بها محمد على هذا النحو كانت تعود بفوائد
جمة على المحتل الإسباني . على أنه هو نفسه لم يكن ينكر ذلك . بالعكس ، لم يكن بوسعه
إلا أن يقر به عينا . إلا أننا نجازف بالآ نفهم شيئا مما سيأتي ذكره إذا لم ننتبه كذلك
إلى أنه كان هو نفسه ضحية الأوهام التي روجها . لم يكن من الممكن أن يكون إلى هذا
الحد مساعدا متحمسا لاسبانيا ، وإلى هذا الحد مخلصا لها ، لو لم يكن عميلا لها
بالمعنى العامي للكلمة . في اليوم الذي سيتبين له بعد مدة طويلة أنه ضل الطريق ، فإنه
سيقلب لها ظهر المجن . ذلك أن حبه لوطنه لم يفتأ في المدة الفاصلة ، على طريقته دون
شك ، وليس دون معاناة كثيرة ، يحمي حميته ويأخذ بلبه .

* * *

بالنسبة لمحمد بن عبد الكريم ، فإن الخطر الحقيقي يكمن ، وهذا ما رأيناه ، في الجانب الفرنسي. وكان الشعور بضعف المغاربة وهم يواجهون وحدهم هذا الخطر الداهم هو الذي حمله على السعي بحثا عن مساعدة إسبانيا بدلا من أن يحاربها هو الآخر كما فعل أمزيان وأصحابه بدون تبصر. ونحن لم تكن الأحداث قد كذبت تحليله في أية لحظة ، فإن سنة 1911 جاءت بالعكس لتقدم له الدليل القاطع. فبعد مدة من التسرب المقنع الذي مكنها من السيطرة على المرافق الأساسية للدولة المغربية ، رأت فرنسا في هذه السنة أن الساعة حانت لتسديد ضربتها الكبرى. فانطلاقا من الدار البيضاء توغلت وحداتها في الداخل واستولت من ماي إلى يوليوز على فاس ومكناس والرباط. كان غزوا حقيقيا رغم التكتيكات والتعليقات (56). وكان محمد ، وفي قلبه ما فيه من غضب ، ولكن فيه أيضا ما فيه من شعور بالعجز ، يتأمل في الهزيمة من بعيد مثل كثيرين آخرين. لقد تحقق من وقوع ما كان يرتاع له أيما ارتياح.

مع ذلك كان عزائه في هذه المحنة أن استوثق على الأقل من صداقة الإسبان. ذلك أن هؤلاء لم يكتفوا بالاحتجاج بل تحركوا بقوة ، فنزلوا هم أنفسهم بالعرائش حيث كان الريسوني في انتظارهم ، ليمدوا بعد ذلك غزوهم إلى القصر الكبير ويوقفوا زحف الفرنسيين . من جهة أخرى ، فقد أظهرت صحفهم استنكارها القوي (57). كما أن لوبرا نفسه سمح لمحمد بصدر رحب بأن يصب جام غضبه في "التلغرام". وهكذا ارتفع صوت مغربي ضد الغزو ، صوت واحد على الأقل ، وهو إن كان ضعيفا لا يقوى بالطبع على تغيير مجرى الأحداث ، فإنه كان مسموعا وسيبقى بالنسبة للتاريخ وثيقة ثمينة (58). في "تلغرام" 9 يوليوز 1911 ، نشر محمد نداء إلى جميع إخوانه المسلمين وبخاصة إلى المغاربة. فقال تحت عنوان "فرنسا والمغرب" :

"هذه هي الدولة التي عزمت على ضم قطرنا العزيز إلى مستعمراتها الأخرى في إفريقيا وغيره. هذه هي الدولة التي تصدرت للقضاء على العالم الإسلامي لتكون لها عليه السيادة . عملت دولة فرنسا لهاته الغاية سنينا طويلة فلم تغفل في مساعيها ولم تنجح في أعمالها بما يعترضها خلال ذلك من تزامم الدول الأوربية غيرها رغما من اختلاقاتها التي تختلقها للحوق هاته لم تصل دولة فرنسا لغرضها فيما مضى ولكن قد تقدمت خطوة طويلة إلى الأمام قطعت فيها عقبات شتى وحصلت فيها على درجة كبيرة من ضالتها.. لم تكتف دولة فرنسا في مسألة اختلاس مملكة المغرب الأقصى بسياستها التي أست حملتها (استعملتها) في استعمار البلاد الإسلامية الأخرى من المعاملة بالقسوة والشدة

والضرب على يد زعماء الإسلام وتحريض بعضهم على بعض وتمزق جموعهم وأثار الشقاق والعداوة بين القبائل وبيت الجواسيس في الأنحاء واستطلاع أسرار المسلمين وتضليل أكابيرهم وترغيبهم في موالاتها وإغراقهم وإغرائهم بالدراهم ووعدهم بالمراتب السامية والدرجات العالية لمن دان لها واختار مودتها وأجاب دعوتها وبالعكس لمن جفاها وأعرض عنها. فما لبثت أن أسست في هذه الايالة جريدة عربية (59) . وجلبت لها كتابا لا يعرف نسبهم ولا ديانتهم ووضعتها باسم مخزن المغرب. وقد حاولت بذلك أن تستهوي الطبقة العالية من المغاربة وتستميل قلوب الخاصة من العلماء والأكابر والأشراف ببدع العبارات وزين الجمل والمقالات. وقد فات أولئك الكتاب أن هاته الفئة الغربية التي يوجهون إليها سهامهم المملوءة سما قتالا هم فية قليلة ولكن يحلون عقولهم عن أن يعيها سحر الساحرات وقلوبهم عن أن تؤثر فيها مغازلة الباغيات لا تبرح عن فكر أحد منا نحن معاشر المغاربة قصة المغفور له العلامة الجليل الشريف سيدي محمد بن الفقيه البركة السيد عبد الكبير الكتاني مع تلك الجريدة زمن انقلاب الحكومة لما تصدى للرد على خزعبلاتها الساقطة وخرافات الواهية في هذا السيل استشهد ذلك الرجل الغيور والبطل الغيور وبهذا السبب قد فقدت الأمة المغربية ركنا من أركان دولتها وخسرت رجلا وطنيا من رجالها".

وكتب يقول في مقال جديد مهاجما الجريدة التي سماها الفرنسيون في نظره ب "السعادة" من باب تسمية الشيء بضده :

"يا صاحب السعادة إذا كان قد غرك جهلنا نحن المغاربة وانفسح لك الميدان في هاته الايالة فرشقت نحونا سهام التدليس والغش والسخرية والتهمك فهؤلاء علماء الشرق وكتاب جرايد مصر والشام والقسطنطينية العظمى الذين نهضوا ليستصرخوا ويحملوا على السياسة الفرنصوية بالمغرب. هذه جريدة «الموید» قد كررت لهجتها وأسفها الشديد على صفا الجو لفرنسا في المغرب وهاتان جريدتا "العمل" و "اللو" ينتقدان على دولتك وأنت نفسك قد أدرجت من مقالهما في جريدتك على سبيل الرد وفي معرض الانتقاد وحررت في أمرك حتى نسبت مقالتي الرصيفتين إلى كتاب صغار حملهم على ذلك التعصب الديني كما رميت وبهذا الكلام أيضا لمدير جريدة الاتحاد العثماني. هاته أربع جرائد إسلامية تعد في مصاف الصحف الكبرى قد رمت بسهم واحد ورأي متفق على أن دولة فرنسا خائنة للمغرب فاغرة فاها لا يتلعه وجعله من أملاكها الخاصة ولعل هاته الصحف قد أخطأت الصواب ولم تدر من السياسة الفرنصوية شيئا أو حملها على ذلك التعصب الديني" (60).

لم يمر هجوم محمد دون إثارة الانتباه في الأوساط المعادية حيث خلف بوجاهته وحدته ما يكفي من التأثير لكي ترى جريدة "الحقيقة" من تونس ، وهي موالية بدورها للفرنسيين ، ضرورة التعقيب عليه برد أعيد نشره فوراً في "سعادة" طنجة. هذا الرد ، الموقع من طرف المسمى عثمان ، جمع بين التنويه بالعمل الاستعماري الذي أنجزته فرنسا ، وبين التعريض بشخص محمد الذي تعامل مع صحيفة اسبانية. وكانت فرصة ثمينة بالنسبة لهذا الأخير ليصوغ علانية وجهات نظره من المسألة ويعبر عن المبادئ الجلية التي تملي عليه اختياراته :

قال التونسي : "إن دولة فرنسا أينما مرت تركت المدنية والعلم والأمن العام". وأجاب محمد :

"إذا كانت فرنسا حقاً بلداً متمدناً ومثقفاً فإننا نرى الجزائر وتونس مرت عليهما دهور وأعوام تحت سلطة فرنسا.. فلم نشاهد أثراً لما يتملق به المتملقون ويكتبه المتشدقون وما ثمرة التمدن والعلم إذا لم تتدرج به الأمم إلى معرفة إدارة أحكامها وإصلاح أمورها واستقلالها بمصالح بلادها والتمتع بخيراتها. لا أعرف كيف يترجم الكاتب الغيرة الوطنية ولا كيف يشرح الحرية التي تطالب بها الأمم حكومتها وهي متحدة الجنس والدين فكيف بها وهي متباينة فيما بينها (لعله) يقول دع عنك الوطنية والحرية التامة وهلم بنا إلى المدنية والعمران والتمتع بالأكل والشرب ونقلب في الملاذ النفسانية غير مبالين بما وراء ذلك فأقول ما سر الاستقلال حينئذ وما حكمة تألف الحكومات واجتماع الأفراد حول الملوك والوزارات ومباهاتها بقواتها ومنافستها" (61).

أما فيما يخص كلام الكاتب الذي زعم أن محمداً ليس بـ "المسلم الغيور" حيث إنه اتخذ للدفاع عن مصالح وطنه جريدة اسبانية ، فإن هذا الادعاء لم يضايقه بتاتا :

"هل علمت يا عثمان أن في إيالة مراكش جريدة وطنية تدافع عن مصالح المغاربة وتنتشر آراء الساسة وتدون تصاريح الوزارات أو هل سمعت يا كاتب أن حكومتنا سمحت لأحد بذلك فيما مضى من الزمان. نهضت فيه فئة من الأدباء وأبطال المغاربة عام 1318 لتأسيس جريدة وطنية فتصدى لها الاستبداد وأشهر سيفه في وجهها محتجا بأن التعصب الديني لا يخولها ذلك وأنها من لهو الحديث بقيت في يدها وقالت لنتنظر ساعة أخرى يلتل (يزيل) الله فيها الاستبداد والتعصب . عرفت يا عثمان أنه حتى الآن لم يكن بإمكانيتنا نحن معشر المراكشيين أن نباري الأمم المتقدمة طالما لم نوفق لفتح المدارس الوطنية لتهيء فينا (كذا) شبيبة عسى أن تتدرج في معارج التقدم ونصعد إلى

أفق العلى والمجد والكرم. عندئذ يا عثمان نفوس جرايد غير مشوبة بدسياسة ولا بتهمة جاسوسية ولا مقيدة بقيود أجنبية مثل جريدتك" (62) .

أدرك التونسي أيما إدراك أن محمدا بانفجاره غضبا ضد فرنسا كان يخدم أيضا دون أن يبوح بذلك مصلحة اسبانيا ، الشريك والمنافس في القضية المغربية. كيف امتنع عن مسها في هذا الجانب الحساس ؟ وعلى حد قوله : لنفرض أننا نخدم فرنسا وأن هذه آفة ، لكنك تخدم اسبانيا وهو ما ليس بالأحسن ، على العكس ، عند الاختيار ، فإن فرنسا متحررة ومتجردة عن القضايا الدينية كما أنها تحترم عقيدتنا الإسلامية ، هل بوسعك قول مثل هذا عن الإسبان ؟ تذكر اضطهادهم لإخواننا في الأندلس .

أمام مثل هذا الاستفزاز ، كان على محمد أن يعلن عن رأيه ، وهو ما قام به بالفعل. ولكن بدون أدنى ارتباك لأنه لم يؤخذ على حين غرة باعتبار أنه لم يكن يرسل الكلام على عواهنه. فأجاب :

عندما نقارن ، ينبغي أن تكون الأمور قابلة للمقارنة. إنك تستشهد بالأندلس. أو نسيت أن المسلمين كانوا يومئذ هم الذين يشغلون مكان الغزاة ؟ وبالتالي ، إذا كان الإسبان قد عمدوا إلى القوة لاسترداد ما أخذ منهم بحد السيف فلا يحق لأي كان أن ينحي عليهم باللائمة. هذا فضلا عن أن المسألة تضرب بجنورها في العصور الخوالي بنحو أربعة قرون :

"إن ذاك الزمن كان زمن جهل وهمجية وهذا عصر العلوم والمدنية فلا تصح مقابلتهما فالمعاملات حينئذ كانت تقضي على التعصب الديني أما اليوم فالسياسة الدين من جميع الوجوه" (63) .

على الرغم من طولها ، لم نر بدا من سرد هذه الفقرات المثيرة بحماسها وقوتها ووضوحها. فبفضلها يرتسم بجلاء الوجه الأول لرجل ظل إلى هذا الحين مغمورا تقريبا برغم دوره التاريخي المستقبلي. لقد كتبت ، ولنذكر بذلك ، سنة 1911. وكان صاحبها يبلغ 29 سنة ، لم يسبق له أن تعرف بعد خروجه من دشرته سوى على فاس ، المدينة القروسطية ، وعلى مليلية ، التي كانت معسكرا محصنا أكثر منه مدينة. في ذلك الحين ما من أحد كان قد أفشى بعد الروح الحقيقية للمستعمر ومناهجه. في فرنسا وحتى في صفوف المعارضين ، كانت الصيغ اللطيفة ما تزال رائجة ملبسة الغزو لباس "التسرب السلمي" و "الدفاع عن المصالح الفرنسية". فإذا بهذا الفتى ، شبه الفلاح ، يعيط اللثام عن المستعمر ، ويكشف عن مناهجه : الرشوة ، الشقاق ، الجاسوسية، التهديد،

استعمال العنف، ثم الإشادة الريفية بالقيم الدينية لتنويم إرادة الحرية. إنها مسبقا مبادئ ليوطي الأكثر مكررا وتسترا .

أليس من المفروض أن يكون المرء ذا موهبة فذة لكي يتوصل رأساً إلى مثل هذه النتيجة ؟ أجل ، لقد استبان محمد نابغة منذ هذا التاريخ. وكانت روح نبوغه هنا هي محبة بلاده. صحيح أن مواقفه المناهضة لفرنسا كانت تسير في معظمها - وقد قلنا هذا - في نفس اتجاه المصالح الإسبانية. إلا أنها كانت تتجاوز على نطاق واسع الحدود التي رسمتها لها اسبانيا على فرض أن هاته هي التي كانت قد حرصت عليها. على أن ثمة حول هذه النقطة نبرات لا يمكن أن يخطيء معها ظننا. إن وطنية حقبة لها القدرة وحدها على أن توحى بها.

إن الوطنية هي الكلمة الملائمة لأن الأمر يتعلق بالوطن لا بالدين. وهذا لا يعني نبذ الإسلام. بالعكس ، إنه يخلق بين الشعوب التي تدين به تآزرا بات لا بد منه بقدر ما باتت جميع هذه الشعوب خاضعة أو مهددة بالخضوع لنفس السيطرة الأوربية. إلا أن لكل منهما وجوده الخاص . وإذا كان السكان في المغرب مسلمين بالطبع ، فهم على الخصوص مغاربة من جهة التاريخ . وهذا ما كان عليه إحساسهم حتى عندما كانوا فيما مضى يتمادون تجاه أوربا في نعت أنفسهم باسم "المسلمين" لا غير. كانت هذه الكلمة التقليدية تفي بالمعنى وحدها وقتذاك لأنه لم يكن يشغلهم سوى مشكلهم ولم يكونوا يتحدثون عنه إلا فيما بينهم . أما وقد اتسعت الآن دائرة أفقهم ، وتعرفوا على مشكل الشعوب الإسلامية الأخرى ، وتوجب التحدث معها عنه ، فإن الاقتصار على هذه الكلمة أصبح من شأنه أن يخل بالمعنى المقصود . وترى محمدا الذي كان يستعملها منذ عهد قريب قد أصبح يميز الآن ، كلما أراد الدلالة عليهم ، بين المغاربة والمسلمين الآخرين. وإن كلمات "وطن" و "أمة" و "وطنية" المتعاقبة بقلمه، لتزيل في نهاية الأمر كل التباس بصدد الموضوع الحقيقي لفكره ومشاعره .

سيما وأن الوطن بعيد لديه عن أن يكون غامضا تتركز فيه ما لا ندري من التحسرات على الماضي. إن الوطن بالنسبة إليه هو بالعكس مفهوم عقلاني متجه نحو المستقبل . وبصورة أوضح ، فإنها الأرض التي يمكن فيها لجميع المغاربة ، الملاك بالاشتراك ، التمتع الكامل والقسرى بها ، لكي يجنوا منها لأنفسهم لا لغيرهم كل الفوائد التي تتيحها اليوم التقنية والعلم. هذا هو المهم. أما فيما يخص الدين ، فبئس ما يترك لك إن أنت سلبت الباقي.

وبالتالي ينبغي الفصل بين المسألتين. فعلى كل فرد أن يضبط بنفسه علاقاته مع خالقه. لكن على الجميع أن يتحد ويعمل أولا على انقاذ الاستقلال ثم على المضي بعد ذلك في معارج التقدم. من سوء الحظ ، فإن المشروع ميؤوس منه تقريبا في الحالة التي كان عليها المغاربة ، لأن الشعب غير قادر على فك الحصار الذي ضربه الفرنسيون ، وهو ما زال غارقا في جهالته . وبدلا من الأخذ بيده نحو المنافذ ، كما هو المفروض ، فإن سلطة مستبدة تعمل جادة على أن تعمي بصيرته عنها. أنى السبيل إلى تكسير الطوق ، وأنى السبيل إلى تعليم الشعب ومنحه حريته اللهم إلا بفضل عنصر طارئ؟.

هذا العنصر الطارئ هو المدد السماوي الذي جاء فجأة في صورة اسبانيا الوصية. من اسبانيا لم يسبق لمحمد أن رأى إطلاقا سوى وجه ودي واحد ، وذلك منذ طفولته لدى المدنيين ولدى العسكريين الذين كانوا يستقبلون والده ، وفي مليية على الخصوص ، حيث زود بجميع الوسائل ليصبح ما هو عليه الآن وحيث قدر حق قدره وعقد في أحسن وسط صداقات حقيقية. على أنه كيف يمكن لاسبانيا أن تثبت نوايا عدوانية ضد بلاده ؟ إن هذا لضرب من الأوهام. إذ أن فرنسا كانت في المواجهة. على أنه يمكنها بالمقابل أن تطمح إلى الفوز بامتنان المغاربة لها إذا ما هي ساعدتهم على التكيف بمتطلبات عصرنا ، وبعبارة أخرى إذا ما هي ساعدتهم على التمدن وجعلتهم بالتالي قادرين على الإفلات من قبضة فرنسا ، أو إذا فات الأوان ، على التخلص منها في يوم من الأيام.

وإلى ذلك الحين ، فإن كل شبر من الأرض استقرت فيه سينجو على الأقل من السيطرة الفرنسية. ومن ثم الثناء على الريسوني الذي مكن الإسبان من النزول واحتلال العرائش والقصر الكبير وأصيلة دون طلقة نارية واحدة. لكن كيف لا يجب التنديد بالمقابل بقصر نظر أمزيان الذي انقلب في الشمال مناهضا بكل ما أوتي من قوة حليفه الوحيد الطبيعي في الوقت الذي كان العدو الحقيقي ينتشر في الجنوب بلا حسيب ولا رقيب؟

إن مثل هذا المنطق ، ولنردد ذلك ، يمكن أن يبدو مستغريا بعد مرور ثلاثة أرباع قرن على الحادثة. على أنه ينبغي أن نتذكر ، بالنسبة لعصر أقرب منا ، الخلاف الذي نشب خلال الحرب الأخيرة بين الفرنسيين إزاء الحلفاء ، عندما كانت جميع الأمور أكثر وضوحا وبنحو لا نظير له ، وسنفهم حينئذ كيف أن مغربيين ، محمد أمزيان ومحمد بن عبد الكريم ، اللذين كان يباعد بينهما فارق السن والتكوين ، مع أنهما يضطرمان بعاطفة واحدة ، كيف قدر لهما بالأمس في خضم محنة وطنهما أن يجدا نفسيهما بدون

لعب على الحبلين ولا خيانة ، مناهضين أحدهما للآخر. أمام التاريخ ، كان الصواب بجانب أمزيان. فهل علينا لهذا أن نسبغ على محمد بن عبد الكريم لباس الخيانة لبلاده ؟ أو نقول بالعكس ، كما فعل في الماضي الأوروبيون الذين كانوا يحطون من شأنه ، أو كما يفعل اليوم مادحوه المغفلون والسذج ، إنه لم يخدم اسبانيا إلا ليتعلم كيف يحاربها ؟ لن نأخذ لا بهذا ولا بذاك. قبل كل شيء ، كان محمد يحب بلاده . وإذا ما خدم اسبانيا ، فلأنه اعتبرها صديقة وحليفة وبإمكانها مساعدة المغاربة على النجاة. كان يؤمن بذلك بل وفي حاجة إلى الإيمان به . ولولا هذا الإيمان ، لعضته أنياب اليأس. ولكنه كان متسلحا به ، كما أنه لم يكن بالرجل الذي يقف في منتصف الطريق. ما دام متمسكا بتحليله للوقائع ، فإنه سيثابر بدون أن يرف له جفن إلى أقصى النتائج التي ستفرض نفسها فوراً على أية حال .

* * *

بعد بضعة أسابيع من الجدل بين محمد وزميله عثمان ، استؤنفت الحرب بين الريفين والإسبان. فقد خرج أمزيان من السرية التي كان يتحرك في ظلها منذ سنة ونصف ، وشن في بداية شتنبر 1911 هجومه على كرت مجبرا العدو على تعبئة جميع إمكاناته . وبالفعل فقد قدم وزير الحرب بنفسه من مدريد لدعم خطة هجوم مضاد يجمع بين هجوم جبهي وإنزال ضخم على مؤخرة الريفين . وكانت الجهة المختارة للإنزال هي بالطبع جون الحسيمة حيث كانت المهمة المنوطة في هذه الحالة بأصدقاء اسبانيا هي العمل برا على إحباط أو شل كل محاولة للمقاومة . وبوصفه رئيسا للحركة ، بذل القاضي ما في وسعه ليفي بالفرض المتوط به. وكضمانة لعدم تحرك الأفخاذ الشاطئية ، توصل إلى أن يتم تسليم الإسبان قبل العملية ثلاثين رهينة من أبناء الأعيان. إلا أن السر لم يبق طي الكتمان ، وسرعان ما نظم أنصار أمزيان صفوفهم للمقاومة إلى الوقت الذي تم فيه إلغاء الإنزال كما نتذكر (64).

كانت نتيجة غير متوقعة وتركت القاضي عبد الكريم بلا ملاذ للقصاص الشعبي . ففي 6 نوفمبر احتشدت الجموع أمام بيته ، ولئن لم تعتد لا على حياته ولا على حياة أهله ، فإنها أضرمت النيران في البيت ونهبت الأملاك الأخرى . ولم يبق أمام القاضي المنكود اختيار آخر عدا الاحتماء مع جميع أفراد أسرته بأصدقائه في قاعدة النكور (65) . وهناك تقرر أن يرحل للإقامة في تطوان ، وهي يومئذ ما تزال غير محتلة من طرف الجيش الإسباني ، ليستأنف بها من جديد المهمة التي لم يعد بإمكانه النهوض بها في

كانت محنة قاسية بالنسبة له . فبدون موارد عدا معاش 75 بسيطة الذي يتقاضاه من اسبانيا ، فإن حالته ساءت وأدى به الأمر إلى أن ينحط إلى مرتبة السائل اللجوج . ففي غشت 1912 ، وجه إلى كوميز خردانه ، حاكم مليلية ، ملتمسا مثيرا للشفقة :

"إنها لغبطة لا ريب فيها أن يضحى المرء كما فعلت بكل ثروته في سبيل خدمة هذا البلد العظيم ، ألا وهو اسبانيا . إلا أنني أوجد مع ذلك في عوز كبير ، سيما وأن جميع المواد في تطوان غالية الثمن والمتطلبات كثيرة . وتراني مع عائلة بكاملها على كاهلي بينما لا يكفيني معاشي لوحدي . فهل هذا إذن جزائي عن مودتي الصادقة التي جعلتني منذ مدة طويلة أنحاز إلى قضيتكم ؟ مع ذلك فإنني أرى أعداء لم يقاسوا (ما قسيت) إلا أنهم يستفيدون من نعمكم ؟ إنني لم أعد سوى أضحوكة لمن هم أعداؤكم بقدر ما هم أعدائي . وعليه ، فإنني أتوسل إليكم في أن تنتظروا في أمري" (66).

وقد صادف النداء أذنا سمعية ، حيث أن كوميز خردانه كتب في الحين إلى مدريد : "إن هذا الشيخ ليتمتع بصيت كبير ونفوذ كبير . حتى أن الفرنسيين حاولوا اجتذابه إليهم عارضين عليه 225 بسيطة معاشا شهريا . هذا فضلا عن أنه كان في جميع المناسبات مخلصا لقضيتنا بشكل راسخ ، على حساب ثروته ومصالحة" (67).

إثباتا لذلك ، تمكن من الحصول على 250 بسيطة عوض 75 (68). وبعد بضعة أشهر منحت له ميدالية الاستحقاق العسكري مقرونة بمكافأة هي الأخرى شهرية تبلغ 75 بسيطة (69) . وبعبارة أخرى ، فإن الجانب الإسباني لم يتباخل عن مكافأة خدماته .

لنلاحظ مع ذلك أن الإسبان في نفس الوقت الذي اعترفوا فيه بتفانيه الراسخ ، كانوا يرمقون بعين شذراء الاتصالات التي كان يجريها معه في تطوان اما الفرنسيون (70) واما الألمان كما راجت الإشاعة بذلك (71) . كما قابلوا بالاستياء سماحه لابنه الصغير امحمد بالاختلاف إلى مدرسة الرابطة الإسرائيلية لتعلم الفرنسية (72) . وعلاوة على ذلك ، فقد لاحظوا بأنه عندما طابت له العودة للإقامة في النكور ، كان يطيل بها مقامة بدون سبب متصرفا تصرفات مشبوها فيها . وكانت الأسرار التي تسر إليه لا تلبث أن تتسرب . وحتى الأعيان كان يبدو أنهم يترددون في القوم من القبائل وكأنهم يخشون أن تقع عيناه عليهم (73).

من المؤكد أن بعض الجوانب من الحقيقة كانت وراء هذه الشكوك . كيف نتصور أن نكبة عبد الكريم لم تزعزع ولو قليلا ثقته باسبانيا ، تلك الثقة التي كانت عمياء إلى

هذا الوقت ؟ لقد كشف عن نفسه بشكل متهور أمام الريفيين متاكدا من الحصانة التي سيضمنها له هؤلاء بعد نزولهم، فإذا بالارمادة المنتظرة تغيب عن الأنظار في اللحظة الحاسمة .

أما بخصوصه في القضية فقد خسر كل شيء ، أملاكه وسمعته ، بل ووجد نفسه تحت رحمة أولئك الذين انهارت فيهم ثقته. ولئن أصبح منذئذ مرغما على السير في ركابهم ، بعدما كان في السابق هو الذي يقرر وحده ذلك ، فإنه كان يتشوف في ظروف منفاه القاسية إلى الوسائل الكفيلة باسترجاع حريته ووضعته السابقة. دون شك فإنه بعد تمكنه من ذلك سيواصل تعاونه مع إسبانيا ، لأنه لم يعد هناك سبيل آخر. سيما وأن المغرب خضع بعد وقت وجيز من محنته للحماية والتقسيم بين الفرنسيين والإسبان. إلا أنه في هذه المرة سيتصرف بحكمة مع الحرص بوجه خاص على الاحترار من العاصفة الشعبية. سيسلك إذن مسلكه الخاص به . أو قل بكلمة مختصرة إنه سيلعب على الحبلين . وهو ما كان عليه أن يقوم به دون أدنى انتظار ، باعتبار أن المسألة الأكثر إلحاحا هي أن يتقبل الريفيون عودته.

وهكذا يتضح سلوك أصبح منذئذ ملتويا ، لن ينفك يطمئن أصدقاءه الإسبان تارة ويقلقهم تارة أخرى. كان يحيطهم في الفترة التي تهمنا بكل ما يطرأ في تطوان التي كانوا يخططون لاحتلالها. ثم بعد الاحتلال ، كان يسدي لهم نصائحه الوجيهة (74) .

من جهة أخرى كان يفتنم كل فرصة ليثبت لهم أنه يساهم أيما مساهمة ، وإن لم يكن حاضرا ، في مشروعهم بالريف حيث كانت تحزنه انتكاساتهم عند الاقتضاء ، وحيث كان على الخصوص يصفق لانتصاراتهم . ولكي لا نورد إلا مثالا واحدا ، إليكم ما كتب إلى الجنرال ألدافي (Aldave) عندما كان الريف قاطبة يبكي وفاة أمزيان :

"عرفنا بمزيد المسرة انتصاركم على الريفيين ومن كمال السعد عثورك على زعيم الحركة أمزيان. بهاته المناسبة نهني لسعادتك بهذا الفوز الباهر ونتمنى لكم دوام الترقى والنجاح وتمام السلامة والعافية لكم ولعائلتكم" (75) .

إنها وثيقة من شأنها أن تخزي ذكراه لو أن دورنا كان يقوم على محاكمته. بيد أن الرجل نفسه ، وفي الوقت عينه ، كان يعمل على إعادة ربط الصلة بالريف حيث كانت استخباراته ترد لمساعدة المناضلين. بالطبع ، فقد كان يحاول تبرئة ساحته ليحمل الريفيين على تقبل عودته.

ولئن توصل بدون عناء إلى تبديد الشكوك الإسبانية ، فقد كان عليه أن يتحلى

بمزيد من الصبر والحذر لإخماد العداء الذي بقي متقددا ضده في الريف. في مارس 1913 ، أي بعد أكثر من سنة على فراره ، كان يرى أن ظهوره ثانية ما زال محفوفا بالأخطار بالنسبة إليه. صحيح أن الإسبان كانوا وقتئذ يفضلون استبقائه بتطوان حيث يسدي لهم مؤقتا مزيدا من الخدمات (76) . إلا أن رأيهم ما لبث أن تغير بعدما استأنفوا مشروع إنزالهم بالجون في ماي 1913. وبالطبع ، فإنه لم يكن بوسعهم التفكير في هذا المشروع إلا بفضل تجدد نشاط حزبه في المنطقة بعد سنة من وفاة أمزيان . فبالنسبة لهم كانت هذه الظروف تجعل عودة القاضي عبد الكريم ممكنة بقدر ما تجعلها محبذة. وعليه فقد جاءت المبادرة منهم. فعملوا على إعادة بناء بيته ، ثم حملوه على العودة إلى اليااسة رغم تحفظاته. ولدى اقترابه ، كان ما يزال يوجس في نفسه خيفة من أن يكون خصومه قد اجتذبوه إلى كمين (77) . إلا أن شيئا لم يحدث ، وما لبث أن استعاد الثقة بالنفس . مع ذلك ، وبما أن الإسبان وقعوا في نفس الخطأ بالتخلي في آخر لحظة عن مشروع إنزالهم المقرر (78) ، فإنه رأى من الحكمة أن يلتزم أكثر من أي وقت مضى بنهجه الجديد : خدمة المشروع الإسباني بالطبع ، لكن مع إبقاء رجل هنا وأخرى هناك حتى لا يزل مرة أخرى. فما وجه الغرابة إذن لو تم بعد مدة وجيزة توزيع منشور بين القبائل بخط يده لإذكاء المقاومة ضد الإسبان ؟ لكن قبل أن يعلم أي شخص من هؤلاء تولى بنفسه إخبارهم. فأوضح بأنها مجرد مراوغة تمكنه ، بكسب ثقة الريفيين ، من خدمة الإسبان على هواه. إنه تعليل مقبول (79) . مع ذلك ، وبما أن نفس اللغة يمكن أن تستعمل كذلك مع الريفيين ، فمن كان بوسعه أن يقرر فيما إذا كان عبد الكريم القاضي علوا أو صديقا صرفا ؟

* * *

إن مصاب والده ونكبات أسرته زاد من التقدير والثقة التي لم يفتأ محمد هو نفسه يكتسبها في مليية. فقد تميزت السنتان التاليتان بالنسبة إليه بنجاحات شخصية وامتيازات تشريفية وترقيات يحسد عليها. فلذلكاته واجتهاده في مهامه التربوية تراه بدأ يحصل على وسام من رتبة فارس في هيئة تتولى رئاستها - يا لها من سخرية - إيزابل الكاثوليكية (80) . وتراه بعد انصراف ثلاث سنوات ، في سارس 1912 ، يقلد هذه المرة وسام الاستحقاق العسكري لدوره الحاسم في إطلاق سراح أسرى اسبان لدى أمزيان (81) ، ثم يحصل في ماي 1913 ، ودائما في وسام الاستحقاق العسكري ، على ترقية تخوله حقا في المعاش (82) ، وهي في آن واحد مكافأة عن الخدمات التي أسداها بفضل علاقاته الطيبة مع القبائل الخاضعة وتعويض عن الخسائر التي لحقت مع والده.

أخيرا ، وفي نفس السنة ، جاءت ميدالية افريقيا في أكتوبر لتكرس كل نشاطه منذ انحيازته إلى جانب القضية الإسبانية (83) . ولعدم توافر الوقت ، فقد تخلى من ذي قبل عن مهامه التعليمية ، إلا أنه بالمقابل تقلد في غشت 1913 مهمة في منصب استحدث من أجله ، منصب القاضي الأول المختص بالنظر في القرارات الصادرة في المنطقة الإسبانية (84) . وإذا أضفنا أن شركة عقارية ببلباو اختارته كرجل أعمال لاقتناء الأراضي في الريف (85) ، فإننا نرى أن محمدا اكتسب مكانة مرموقة وأن كل شيء كان يحثه ، ضد المثل الأعلى الذي كان يهدف إليه في شبابه ، على أن يحتجج لا أقل ولا أكثر الامتيازات التي ما انفكت توفرها له علاقاته بإسبانيا . سيما وأنه كان من اللازم وقد أناخت الحماية بكلها على بلاده بعد ذلك أن يستسلم ويتكيف بالتالي وفق وضعية كانت تبدو تسير لمدة طويلة في خط لا رجعة فيه. ولا شيء يدل على أن محمدا لم يستسلم في بعض اللحظات لليأس استسلامه للنزوة. فيما أنه لم يعد بإمكانه خدمة إسبانيا بأمل إنقاذ بلاده ، فإنه سيخدمها على الأقل لما فيه صالحه و صالح المغاربة القاطنين بالمنطقة التي ستستقر فيها .

لكن مهما كانت المبررات التي تمكن من أن يجدها لنفسه ، فإن طعم نجاحه لم يخل من مرارة بقدر ارتسامه وفق منحني الرفض الذي كان يقابله به أصدقائه. فمهما كان المرء على حق ، فمن العسير عليه أن يكون وحيدا ضد الجميع وأن يتحمل عبء الازدراء العام . من كان بمقدوره أكثر من والده أن يتباهى بالتكريم الذي كان محاطا به ؟ لكن ما هو ذا وقد طرد طردا مخزيا بعد أن نهبت أملاكه. ولئن لم تكن الضربة قد أصابت محمدا هو نفسه ، فإنها كانت قاسية عليه وأعطته فكرة أكثر دقة عن حاجز كان يتوهم سهولة التغلب عليه . أما فيما يخص ثقته بتفوق القوة الإسبانية فقد خابت هي الأخرى بعد فشل مشروع الإنزال. ناهيك بأنه أصبح يشك حتى في مزية ومغزى المنجزات الإسبانية. فبعد سنوات طويلة من الاحتلال ، لم تظهر بين القبائل الخاضعة أية علامة من شأنها أن تدل على التغيير المنشود. فلا مدرسة ولا ورشة عمل باستثناء بعض الأشغال العسكرية. وبدلا من تنظيم الحياة العمومية وفق روح عصرية ، فإنها تركت لبطرسة الضباط الصغار الذين كان عسفهم معروفا لدى الجميع (86) . وكان أبوه يوافيه أيضا من تطوان ، التي احتلت دون أدنى معركة ، بتظلمات السكان المضطهدين (87) . دون شك كان ينبغي مزيدا من التريث قبل إصدار أي حكم ، إلا أنه لا مفر من أن يلاحظ المرء بأن البداية لم تكن حسنة .

وهكذا ، عندما قدم في غضون صيف 1913 للسلام على والده الذي عاد أخيرا

من منغاه ، فإن محمدا كان مهياً لينضم إلى وجهة نظر هذا الأخير الذي ألى على نفسه عدم خدمة الإسبان مستقبلاً إلا على طريقته بنهج أسلوبه الخاص ، إلى حد أن الناس سمعوه بعد مدة وجيزة ، وفي الوقت الذي تم فيه تحضير مشروع إنزال جديد ، سمعوه يوصي فجأة إخوانه المشبوهين بالمقاومة وعدم تسليم بلادهم على الإطلاق (88) . كيف أمكنه اعتماد هذا الوعظ الجديد بينما كان هو نفسه يتأهب للعودة إلى مليلية ؟ ذلك يبقى من أسرارهِ . إلا أنه يمكننا أن نكون متأكدين من أنه توصل إلى ذلك ، كما فعل والده ، على الأقل بما فيه الكفاية لإعادة ربط علاقات محتملة مع المناضلين .

وكانت النتيجة جد ثمينة إذا ما علمنا أن "أصدقاء اسبانيا" على الرغم من عودتهم بقوة لم يكونوا سادة الموقف . فقد ظل "المتعصبون" ، كما يسمون في المعسكر الإسباني ، قوة فاعلة وقادرة كل المقدرة على أن تثير على حين غرة الكتلة التي كانت ما تزال مترددة . وهكذا فقد نجحوا بعد شهرين ، أثناء إقامة محمد من جديد في القبيلة ، في التصويت على قرارات خطيرة : كل من ضبط متوجهاً إلى النكور ، سيعاقب بالموت ؛ كل من قتل من أجل الثأر ، منسفاً بذلك الاتحاد الذي تحتاج إليه القبيلة ، سيعدم هو نفسه ؛ أما بالنسبة للمدفع المحتجز من الإسبان على سفينة كانت مشرفة على الغرق ، فسيبقى دائماً جاهزاً للاستعمال وعلى أهبة لإطلاق نيرانه (89) .

ضد اسبانيا التي ستستعمر البلاد إن عاجلاً أو آجلاً ، فقد كان من الواضح بالنسبة لمحمد أن هذا المدفع المصوب إنما هو تهديد تافه . ولكن ضد أولئك الذين يعيشون أو يقيمون في الغالب في القبيلة ، والذين عليهم ، كما هو الحال بالنسبة لعائلته وبالنسبة له ، أن يكونوا على اتصال بالإسبان ويحرضوا على التفرقة للتعجيل بمجرى الأحداث ، فإن القرارين الأولين كانا يكتسيان طابعاً جدياً في حالة ما إذا تأخر وقوع هذه الأحداث. كان بوسع الإسبان كما يطيب لهم أن يرجئوا نشاطهم ويتراجعوا ، كما فعلوا ، عن تنفيذ مشاريع إنزالهم الأول بعد الآخر. فبالنسبة لهم لم يكن هذا يؤدي إلى عواقب . إلا أن "أصدقاءهم" في اليايسة كانوا في وضع غير آمن باستمرار وينطوي مع الزمن على أخطار متزايدة (90) . ولئن كان اللعب على الحبلين الذي كان يقوم به كل من محمد ووالده يشكل ضماناً لهما ضد هذه الأخطار ، فإنه لم يكن ليحميها مع ذلك إلى الأبد .

* * *

بعد عشرين شهراً من الركود في قطاع مليلية ، فكر الإسبان مع اكتمال سنة

1913 في القيام بقفزة جديدة لتأمين تغطية المواقع المعرضة كثيرا لنشاط الريفيين. في الحقيقة ، كان الأمر يتعلق بزحف حذر موجه نحو الجنوب لتجنب مجابهة مع مجموع القبائل. مع ذلك ، ورغم جميع الاحتياطات ، كان من المتوقع أن تتوافد قبائل الغرب إلى المعركة لو تدخل بنو ورياغل أنفسهم ، وهم نواة تكتلها ، واقتادوها ساعة مرورهم . وبما أن قبيلة بني ورياغل كانت بالذات هي قبيلة القاضي عبد الكريم ، فمن ذا الذي يمكن اختياره ليعمل هناك على خلق ظروف معاكسة للتدخل في القتال المرتقب ؟ وكانت النتيجة تفوق كل التقديرات. ففي كل فخذ من القبيلة ، نجح محمد بالفعل في استمالة مجموعة من الأعيان لصالح القضية الإسبانية ، وصل عددهم الإجمالي إلى 28 رجلا وضعوا أنفسهم تحت إمرة والده (91) . وبعد ذهابه ، في بداية 1914 ، جاء هذا المدد الكبير لمساعدة القاضي عبد الكريم في المهمة التي كان يجهد فيها نفسه منذ مدة طويلة والتي أتاح لنا فصل سابق فرصة التعرف على طبيعتها (92) . ذلك أنه كان هو بالذات الذي أشارت إليه شهادة العقيد ريكلمي المذكورة آنفا . فهو الذي ، بسوء استعمال وظائفه القضائية ، حال دون تسديد الغرامات التي كانت النزاعات عادة ما تهدأ عن طريقها في المنظومة القبلية. ومن ثم ضرورة الانتقام وما يتبعها من قتل وحروب لا يمكن التكفير عنها بين الأسر والمجموعات والأفخاذ : "إن القتل يتم من قرية إلى أخرى ولا تتمكن القبيلة مطلقا من التوصل إلى اتفاق لتلتحق بأولئك الذين يحاربوننا" (93) . وإذا ما كان المقاتلون يتمكنون مع ذلك من الاتفاق ، والاحتشاد للتوجه إلى كرت ، فإن القاضي عبد الكريم كان يوفد إليهم رجاله. ولكن ، كما شرح الجنرال خردانه بدوره : "من أجل زرع روح الهزيمة فيهم قبل أن يبدأ أي عمل ضدنا" (94) . يمكننا القول إذن بدون مبالغة إنه إذا كان الجنرال خردانه نفسه قد تمكن فيما بعد بأربع سنوات من إنجاز زحفه نحو الجنوب بأدنى ما يمكن من الخسائر ، فإن القاضي عبد الكريم وولده محمد لم يكونا غربيين عن هذا النجاح السار .

من يرى ، ولتأكيد هذا الحكم ، إليكم كيف قيم العقيد كاريكو (Garrigo) ، في السنة التالية ، في تقرير سري حول محمد ، نشاط الحزب الذي أنشأه. فقد كتب يقول :

"لقد بقي هذا الحزب منظما زهاء سنتين. ومن بداية الفترة إلى نهايتها ، تمكن من التوصل إلى هذه النتيجة وهي أن أي حامية لم تقدم من الريف الغربي ، ولم يتم أبدا الإعلان عن التعبئة في بني ورياغل. ومن هنا التحول جد المحسوس لهذه القبيلة نحونا بعدما كانت تبو لنا لا تقهر".

وهي نتيجة ردها حرفيا لصالحه قاضي التحقيق الكولونل سانت (SANZ) ، ولكنه زاد عليها بقوله :

"هذا ليس كل ما في الأمر. لأنه إلى جانب نشاط هذا الحزب ، ينبغي كذلك أن نأخذ بعين الاعتبار مفعول السياسة التمهيدية الهادفة إلى تمكيننا بدون إراقة دم من إخضاع القبيلة بالقوة" (95).

وهكذا ، وعلى الرغم من خيبة الأمل التي استولت على محمد ووالده ، فإنهما ما فتئا ظاهريا ، يستحقان كلاهما في هذا التاريخ ، 1915 ، امتنان الإسبان. مع ذلك ، وفي الساعة التي بقيا فيها معا بالتالي موضعاً لمثل هذه التنويهات ، كانت اسبانيا قد قطعت مع الأب ، وكان محمد يوجد سرا في زنزانة إحدى القلاع. لقد اتهموهما في مليلية بالخيانة .

الهوامش

(1) راجع اعلاه 110 - 111

(2) تقرير العقيد مورالس Morales إلى الجنرال سلفستري بتاريخ 13 فبراير 1914 ، أورده :

Luis DE EZA : Mi responsabilidad en el desastre de Melilla como Ministro de la Guerra , Madrid , 1925 , p.323.

أما بالنسبة لـ: ادي بن مسعود ، فإن أزرقان يذكر أنه هو الذي توجه باسم القبيلة ، غداة حملة ابن البغدادي ضد بقيرة سنة 1898 .
يلتزم مساعدة القنصل فرنسا بوهران ("الظل الريف في محاربة الريف" ، ص 10-11 من المخطوط).

(3) راجع على وجه الخصوص وثيقة 30 ماي 1914 الموقعة من طرف ثلاثة منهم ، وحيث تمهد هؤلاء على البقاء بدا واحدة لمراصلة خدمة إسبانيا : "المصلحة التاريخية العسكرية بمدريد" ستكون الإحالة فيما يلي على الشكل التالي : (S.H.M.) وثائق مليلية ،
مجموعة 1 ، ملف 7 ، وثيقة 57 ، 57 ، Mel 1, 7, 57

راجع تقرير حاكم مليلية إلى الحاكم العام ، بتاريخ 29 يناير 1917 :

S.H.M. Mel. III, 9, 14, 1917.

(4) راجع تقرير 29 يناير 1917 المشار إليه في الهامش 3 .

(5) راجع اعلاه (ص 113) العدد الذي لعبه الفرع المحلي للوزانيين في "مسألة القراصنة".

(6) تقرير حول النشاط السياسي المنجز في الحسيمة بين 20 ماي - 10 يونيو 1915 : S. H. M., Mel. II, 9, 68

(7) حول محمد أخمليش وخمالشة ، راجع :

E. LÉVI PROVENÇAL : Les influences religieuses au Rif et chez les Djبالا de l'est,

منكرة غير منشورة أعدت لإدارة الشؤون الأملية لدى الإقامة العامة لفرنسا بالمغرب ، ص 12 وما يليها ، يناير 1926 (وثائق الرباط ، غير مفهرسة)، راجع كذلك :

Robert MONTAGNE , Notice sur les Khemlalcha

المصلحة التاريخية لجيش بفرنسا بفانسين (سترمز لها فيما يلي بـ S.H.A.) وثائق فاس ، مجموعة 156. راجع أيضا التقرير المذكور اعلاه ، الهامش 6 .

(8) استقينا هذه المعلومات من المذكرة التي وضعها محمد بن عبد الكريم في بداية متفاه بجزيرة لارنيون والتي لم نتمكن من مراجعتها إلا من خلال الترجمة الفرنسية غير المنشورة تلك التي أنجزها المرحوم التهامي الزموي. سنشير إليها فيما يلي بـ "منكرة لارنيون"

(9) Candido LOBERA : Abdelkrim el Khettabi a muerto, in "Telegrama del Rif" du 11 août 1920.

(10) هذه الشائنة التي تم ترويجها في كل جهة تقريبا غداة حرب الريف ، لكنها من جديد دافيد هارت الذي زاد فنسب إلى فخذ أيت خطاب بكامله الادعاء بانتسابه إلى الخليفة عمر. بيد أنه أخاف :

"this claim...was.. very strongly supported by Abdelkrim himself"

(الفصل 15 من المخطوط الذي تقلص صاحبه بتسليمه لنا قبل نشره والذي استندنا إليه اعلاه ص 104، هامش 11) وهذا ما أباح لدافيد وولمان (David S. Woolman) تبني نفس الرأي في كتابه الحديث :

Rebels in the Rif , Oxford University Press , London 1969 p. 75.

أما المارشال ليوي فقد أعطى صورة أخرى عن هذا الادعاء : "بما أن التقاليد الدينية ما تزال تستوجب في المغرب أن يكون السلطان من نسب شريف ، فما هو ذا عبد الكريم يتحلل نسبيا إندريسيا". تقرير الجنرال إلى الرئيس هرويت 20 جنتير ("الوثائق الخاصة الرئيس بالهولندي" ، وثائق فرنسا ، مجموعة 3/205 ، وثيقة ملحقة برسالة 2403 المؤرخة في 21 جنتير 1924 . هذه الوثائق (أوراق بالهولندي) سترمز لها فيما يلي بـ P.P.

(11) أزرقان ، مصدر سبق ذكره. ص 8 من المخطوط. والحقيقة أننا عثرنا بعد كتابة هذه السطور على وثيقة جديدة مكنتنا ليس لحسب من تأكيد شهادة أزرقان التي اعتمدنا عليها ، وإنما كذلك من أن نرجع إلى الوراء بإحدى عشرة سنة التاريخ المسجل هنا . ويتعلق الأمر برسالة مولاي الحسن الموجهة إلى "عبد الكريم بن محمد الورياغلي" المخاطب بالفقيه والقاضي. هذه الرسالة مؤرخة في 2 رجب 1300/9 ماي 1883 ، وزارة الشؤون الخارجية بفرنسا (A.E.P.) المغرب ، 520 ، 154.

(12) وهو الاسم الذي يذيل به توقيعه في الوثائق التي تمكنا من قراحتها بخط يده.

(13) أزرقان ، مصدر سبق ذكره ، ص 8 من المخطوط.

(14) كانت هذا الحالة العامة. إلا أن ولده يؤكد هذا بالنسبة إليه بشكل خاص في "مذكرات لارنيون" حيث يقول : "كم من مرة وجه نصائح إلى السلطان وإلى عمال مختلف الأقاليم" . بل ويقول محمد إن والده كلف من طرف مولاي عبد العزيز بمراقبة نشاط قواد بني ورياغل وأنه أصبح "رجل ثقة السلطان في الريف". "مذكرات لارنيون" ، فصل : "والدنا سيدي عبد الكريم". كما أننا عثرنا بعد كتابة هذه السطور على وثائق تؤكد هذه الأقوال ولو أنها خلفت قليلا من غلورها. وثمة على الخصوص ظهير عزيزي بتاريخ 20 حجة 1324/4 فبراير 1907 يمنح عبد الكريم "أمينا" أي لفة يوليه ثقة السلطان ليكون واسطة بين قبيلة ورياغل والسلطة :

A.E.P. Maroc 520 ، 4 .

تنيلي الإشارة إلى أن هذا الظهير يرجع إلى الأشهر الأخيرة التي سبقت سقوط عبد العزيز.

(15) ملتمس قدمه محمد بن عبد الكريم لتعويض والده عما أنفك له من أملاك :

S. H. M. , Mel . II , 2 , 216.

(16) محضر جلسة مجلس أيت خطاب الذي قام في 11 يونيو 1907 بتأسيس سوق الأربعاء. نقله اميلير ازاكا في كتابه المذكور انفا ، ص 99 :

Los Canones Rifeños comentados doc. n° 7 .

(17) "عندما بلغنا سن العشرين ، أرسلنا والدنا إلى فاس حيث تمكنا خلال سنتين من متابعة دروسنا التكميلية بجامعة القرويين على يد مختلف الأساتذة خاصة منهم المرحوم الشريف سيدي محمد القادري والمرحوم سيدي التهامي ككون : "مذكرات لارنيون" ، فصل : طفولتي وشبابي.

(18) محمد بن عبد الكريم : لقد رأيتاه حينئذ يهمل شؤونه الخاصة ويضعي بثروته الشخصية ويكرس جميع جهوده للقضاء على الانشقاق. ويعرف المصير النهائي الذي لقيه الثائر بعد انهزامه على أرض بني ورياغل" . فصل "والدنا سيدي عبد الكريم".

(19) "El fakih Abdelkrim el Jatabi que capitaneaba el llamado partido españolista y, por lo tanto, se inclinaba a la paz, ahora no se mostraba fuera de la casa y procuraba pasar desapercibido" Eduardo MALDONADO : EL Rogui, Instituto General Franco, Tétouan , s.d. p. 427.

(19 مكرر) حول هذا السلوك الانتهازى للقاضي عبد الكريم ، تساعدنا وثيقة جديدة في حوزتنا على تجاوز التفسيرات . فمن رسالة وجهها إليه السلطان عبد الحفيظ في 5 حجة 1326/29 جتنير 1908 ، نعلم بالفعل أنه اضطر إلى تقديم تقرير أمام إخوانه عن موقفه وأنه فرضت عليه عقوبة على شكل غرامة : A.E.P. Maroc 520, 100.

(20) "بيد أنه... كان يرى بوضوح أن الدولة في المغرب... انركت مرحلة الشيخوخة والهرم وأن التدخل الأجنبي بات فيها محتما. وقد قادت هذه الرؤية والدنا... إلى الاهتمام بمستقبل هذه المنطقة (الريف) بالنسبة للدولة الأوربية المنتدبة من قبل الدول الأخرى لإسخال الإصلاحات ليها وإق المعاهدات التي تعرف". "مذكرات لارنيون" ، مصدر سبق ذكره.

(21) هكذا كان أندري سانغيت بيرث بيرث يسمى الأولين :

"Selección de conferencias y trabajos realizados por la Academia de Interventores durante el curso 1949-50" , Imprenta del Majzen, Tétouan, 1950.

أما بالنسبة لسمعه بنحيم ، فيشار إليه في الوثائق بـ "صديق كبير لسيدي عبد الكريم"

(gran amigo de Sidi Abdelkrim)

راجع خاصة : S.H.M. Mel, I, 7, 38.

S.H.M., Mel, I, 4, 19 (22)

23) يخبرنا أنزقان (مصدر سابق ، ص 13 من المخطوط) عن الجانب الذي كان دي مرين يؤثر في اتجاهه على القاضي عبد الكريم : "يا صديقي العزيز ، إذا كانت لي من نصيحة غالية إليك ، فهي أن تختار ما يؤمن مستقبلك ومستقبل أولادك. ستحدث في البلاد تحولات كبيرة". ويضيف المؤلف : "نبهه إلى المشاكل السياسية". وهو ما ساهم في القرار الذي اتخذ به إرسال ولديه (إلى مليلية) لتعلم اللغة (الإسبانية) وربط علاقات مع السلطات الإسبانية (ترجم عن النص العربي. باستثناء بعض البيانات المخالفة ، فإن الترجمة الفرنسية للنصوص والوثائق العربية والانجليزية والإسبانية هي من وضع المؤلف). [نصوص "الثقافة" الواردة في هذا الفصل نقلت من أصلها العربي : المترجمان] . وتحدث سانشيث (مصدر سابق) عن مترجم يسمى فرنسيسكو مرتين ، لامرين . وهذا خطأ. فباستنتاج الوثائق العسكرية ، نجد أن ثمة مترجمين عملا في قطاع مليلية في نفس الحقبة . أحدهما هو فرانسيسكو مرين ، صديق القاضي عبد الكريم ، والآخر بومونكو مرتين. ومن هنا الخطأ الذي وقع فيه سانشيث يرث برث . وقد ساعدنا على توضيح هذه المسألة الكولونيل رامون سانشيث دياز (Ramón Sánchez Díaz) من إدارة المصلحة التاريخية بمدريد.

24) الفصلان الأول والثالث من العقد العام للآثر الجزيرة الخضراء .

25) راجع أعلاه (ص 21) العناصر التي مكنتنا من إثبات هذا التاريخ. ننبه القارئ أولا وأخيرا إلى أن الأحداث والتواريخ التي أوردها أعلاه تستند فيما عدا بعض الاستثناءات إلى فحص نقدي للوثائق ، الشيء الذي سيفتحنا عن مناقشة العدد الكبير من الروايات المختلفة التي أعطيت عن هذه الأحداث مع اختلافات مستمرة في تحديد تواريخها.

26) نقرا في "مذكرات لارتيون" : "لا أرى من الحكمة والطفة مساعدة إسبانيا في المهام التي أنيطت بها تطبيقا لقرارات الجزيرة الخضراء... إلا أن هذا الموقف جلب عليه أسوأ النتائج بالنظر إلى أن الريفيين لم يفهموا شيئا من العقد الدولي". فصل "والدي سيدي عبد الكريم". وأيضا : "لم يكن والدنا يرى مصلحة مواطنيه في مقاومة الإسبان وإنما في الخضوع للحماية. وبالنظر إلى الأمور على هذا النحو ، فإنه قدم خدمة كبيرة للإسبان بمقدار ما كان نشاطه يحول دون اتحاد الريفيين من أجل مقاومة مسلحة". فصل "نشاط والدنا في الحرب مع إسبانيا".

27) S.H.M. Mel., III, 3, document du 9.11.1907

28) يرجع أنزقان (مصدر سابق ، ص 85 من المخطوط) تاريخ ازدياده إلى 1304 من الهجرة أي بين 30 شتبر 1886 و 18 شتبر 1887. إلا أنه أورد هذا التاريخ اعتمادا على الذاكرة ، وكثيرا ما أخطأ في مثل هذه الحالة. أما ليون كبريال Léon GA-BRIELLI الذي كان مكلفا بجمع المعلومات عن الريف وزعمائه لخصاب سلطات الحماية الفرنسية فإنه يرجع تاريخ ازدياده إلى حوالي 1883 :

(Abdelkrim et les événements du Rif, Casablanca, 1953 p. 42.)

وقد أخبرنا إدريس الخطابي ، ابن محمد بن عبد الكريم ، أن عائلته تجهل تاريخ ازدياده بالتفصيل إلا أنها ترجمه إلى 1882. انظر كذلك أعلاه ص 31.

29) أندري سانشيث برث في المحاضرة المذكورة سابقا هـ 21.

30) يخبر (أنزقان انظر أعلاه هـ 23) أن القاضي عبد الكريم أرسل ولديه إلى مليلية "لتعلم اللغة" ، أي اللغة الإسبانية. ويخبر محمد نفسه بأنه "حاول" في مليلية تعلم الإسبانية (مذكرات لارتيون ، فصل نخولي إلى الإدارة الإسبانية).

31) في "مذكرات لارتيون" يخبرنا محمد بأنه توجه في سن العشرين للدراسة بفاس حيث بقي هناك سنتين (فصل طفاوتي وشبابي). وبإرجاع تاريخ ازدياده إلى سنة 1882 ، فإن هذا يرجع تاريخ دراسته إلى سنوات 1902-1904. بالطبع ، إذا قبلنا تاريخ ازدياده الذي يعطيه أنزقان أي 1887 ، فإن هذا سيفضي بنا إلى سنتي 1907-1909. وهو أمر مستحيل لأن محمدا كان في نهاية 1907 ، قد وصل آنفا إلى مليلية. من جهة أخرى ، يخبرنا محمد كذلك بأنه بعد سنتين من انتهاء دراساته ، عاد إلى فاس مكلفا من قبل والده بـ "همة سياسية متعلقة بالثائر الزهروني". ويقبول التاريخ الذي يقدمه أنزقان ، فيسكون علينا أن نرجع هذه المهمة إلى سنة 1911 ، وهو التاريخ الذي كان فيه الزهروني قد اختلى منذ مدة طويلة. على أن هذا يؤكد اختيارنا لسنة 1882 كتاريخ لازدياده.

32) سنرى في بقية هذا الفصل كيف أخذت هذه الرؤية العامة دلالتها بقلم محمد نفسه.

33) كتبت في هذا العهد ممثلا حماسا وأملا. لذا فإنني لم أنتبأ إلا بالخير العظيم لمشروع المدرسة هذا البالغ الأهمية والذي كان يمثل في عيني النشاط الوحيد الذي يليق بالأمم المتمدية تجاه الناس وأشرف وسيلة لنيل العطف والتقدير. بشكل يعمل على نشر الوفاق ، وعلى تشجيع الصداقة بين الأمم وتقارب الشعوب .. إلخ". لم تتمكن من إثبات تاريخ دخول محمد إلى مدرسة مليلية على وجه الضبط ويكتفي

موتلسه بالقول : "عينت مدرسا قبيل 1809" ، المصدر نفسه. ويتضح من حالة خدماته التي تمكنا من العثور عليها

(37) (S.H.M Mel, II, 9, 37) أنه "زار مهمة الأستاذ المساعد بمدرسة التعليم الابتدائي في يوليوز 1907". إلا أن هذه الإشارة من سره الطالع غير صحيحة لأن التاريخ كان جد متأخر. وبالفعل ، وعلاوة على أنه لا يمكننا أن نتصور كيف يمكن لمدرسة أن تفتح أبوابها في شهر يوليوز ، فقد عثرنا على وثيقة (S.H.M Mel, II, 8, 64) تدل حرفيا على أن الأستاذ "المريد" السي محمد بن عبد الكريم من مدرسة الاماني طلب في 17 يوليوز بالضمبط إجازة للتوجه إلى قبيلته. كيف أمكنه أن يأخذ إجازة في نفس المدة التي التفت فيها بوظيفته ؟ علينا أن نعتبر أنه بدأ في بداية السنة المدرسية التي كانت تنصرم وقتئذ ، أي حوالي أكتوبر 1906 ، أو في الأشهر الأولى من 1907 ، وهو التاريخ الذي نحن فيه متأكدون بأنه كان في مليلية. انظر أسفله هـ 35.

(34) انظر ص 182 من هذا الفصل.

(35) أول مقال من هذه المقالات التي ذكرناها - يرجع تاريخها إلى مارس 1907. إن مسالة هذه المساهمة في "التفراغة" طرحت علينا مشكلة. لقد أشار إلى هذه المساهمة كثير من المؤلفين ولكن بترجمات جد غامضة أو جد متباينة من حيث الدقة مما يحق لنا أن نعتبر أن الأمر يتعلق بأسطورة. وبالتالي فقد بحثنا وعثرنا في مليلية من حسن الحظ على المجموعة الكاملة للجريدة. وهي لا تشتمل بالفعل على "صفحة عربية" كما كتب ، ولكن على مقال يومي في الصفحة الأولى ذي مقطع متغير. وهذا فيما بين مارس 1907 وأبريل 1915 ، أي لمدة ثماني سنوات. بيد أن أي مقال من هذه المقالات لم يكن موقعا. فما الذي يسمح لنا بإسنادها إلى محمد بن عبد الكريم ؟ من جهة أخرى فإن لها حسب الأرقام نعمتين متنافرتين إلى حد أن البادرة الأولى كانت هي الاستنتاج بتعاقب محررين على الأقل. في هذه الحالة ، وإذا كان أحدهما هو ابن عبد الكريم ، فأيهما يمكننا اختياره ؟ هذه الأسئلة لم تتضح إلا تدريجيا. في 1970 سلمت لنا حديقتنا المزيخة السوفياتية Nathalie Loutskaia محضر جلسة المقابلات التي أجرتها مع ابن عبد الكريم في القاهرة عام 1958. وقد أكد لها وقتئذ هذا الأخير دون تحفظ أنه كان محررا في القسم العربي من "التفراغة". ولكن حتى بالنسبة لشهادة من هذا الوزن فإنها تبقى شهادة شفوية ومتأخرة. فكان أن وقفنا في "التفراغة" نفسها على الشهادة المكتوبة والمعاصرة لمدير الصحفية وهولورا. فقد كتب هذا الأخير في مقال خاص بالوثائق ، مخصص في 11 غشت 1920 للقاضي عبد الكريم ، والد محمد : "الابن الأكبر لعبد الكريم [محمد] شغل في مليلية مهام هامة. فقد كان القاضي الأول في "مكتب الشئون الأهلية" والمحرر العربي لـ "تفراغة الريف". إن هذه الشهادة الحقيقية لتزيل الشك بصفة نهائية. لقد كان محررا ، ولا شيء يحمل على الاعتقاد من خلال تعبير لورا بأنه كان مجرد "أحد المحررين". أخيرا ، فإن النقد الداخلي لمختلف المقالات مكنتنا تماما من مدم الفرضية المتعلقة بثنائية المحررين بأن أبرز الخيط الرابط بين المراحل المتعاقبة لنفس التطور. على أن هذه النتيجة لم يتسن الحصول عليها إلا بفضل مصاعب أخرى. انظر أسفله هـ 58.

(36) "تفراغة الريف" عدد 1 نوفمبر 1907.

(37) انظر أعلاه ص 131 .

(38) راجع جرمان عياش . "الشعور الوطني في مغرب القرن 19".

(39) انظر أعلاه ص 132.

(40) نص هذه البيعة منشور لدى ابن زيدان. "إتحاف أعلام الناس بجمال وأخبار حاضرة مكتاس" الرباط 1939 ، مجلد 1 ، ص 449 وما يليها .

(41) للأسف أصبحت اليوم المجموعة المحدودة من "لسان المغرب" مفقودة. أما هذا النص الفريد فقد أعيد نشره في جريدة حزب الوحدة والاستقلال الصادرة بتطوان على عهد الحماية. ثم نقله ثانية الباحث الكتاني في مؤلفه المخصص لترجمة حياة والده محمد الكتاني : "الشيخ محمد الكتاني الشهيد" ، بدون ذكر الناشر (الرباط دون شك) ، 1962 ، ص 205-206. بيد أن تاريخ هذا المقال الهام لم يوقع من طرف تاشريه ، ويمكن القول فقط أنه سابق لـ 19 يوليوز 1908 ، وهو تاريخ الإعلان عن الدستور التركي المشار إليه هنا .

(42) الكتاب المذكور في الهامش 41 لصاحبه الباحث الكتاني يعد مصدرا هاما لمعرفة الحركة السياسية التي كان والد هذا المؤلف ، محمد الكتاني ، المحرض عليها.

(43) يخبرنا في "مذكرة لارنئين" بأنه لم يوافق كثيرا في تعلمه الإسبانية ، ثم يضيف قائلا : "اللهم أنه كان بإمكانني التحدث بها لحاجاتي الخاصة". هذا وقد عثرنا على رسالة طويلة بالإسبانية بخط يده في العصر ، تناقض تماما هذا الحكم المالكس :

(S.H.M., Mel. II , 8 , 28 du 23 février 1919).

(44) انظر اعلاه ص (138)

(45) بعد ثلاث عشرة سنة ، عندما كان في عرشبابه ، وبعد مسيرة تميزت بتجاهات مستمرة ، وبعد مضي سنة على زعامته لحرب الريف ، كان ما يزال يحافظ على الذي نفسه وعلى هيئته المتواضعة ونظرتة العادة. وفي هذا التاريخ ، التقطت له بالفعل أحسن اللقطات من الصور النادرة التي لنا عنه في هذا العصر. التقطها المصور لويس دي (وليطه Luis de Oteyza

مصور جريدة "Libertad" المدينية.

(46) حسب قائمة خدماته ، فقد تقلد وظيفته الكاتب المترجم في أكتوبر 1910 ، إلا أن هذا خطأ مطبعي آخر. (انظر اعلاه ص 33). وبالفعل ، وحسب نفس قائمة الخدمات ، فقد كان تخلى عن هذه الوظيفة في يناير 1910 ، وعين قاضيا في نفس التاريخ المشار إليه للمرة الثانية. هذا التاريخ المذكور مرتين بنفس الكيفية لا يمكنه إذن أن يكون هو التاريخ الذي وقع نكح خطا. فنستنتج أنه تقلد وظيفة مكاتب مترجم قبل يناير 1910 حتى يتسنى له الوقت الكافي لدليل تقدير رؤسائه .

(47) جواب قيادة مليلية على طلب التحقيق الذي تقدم به المقيم العام بططوان في تاريخ 14 غشت 1915.

(48) تشير الوثيقة المذكورة في الهامش 47 إلى أن الطلب قدم "منذ خمس سنوات" ، على أن الوثيقة مؤرخة في غشت 1914.

(49) "تلفرام" 1910.10.14.

(50) S.H.M. Mel., I , 5 , 7

مذكرة بتاريخ 1 أكتوبر 1912 ، تنص على مزيد من التحقيق بصدد طلب التجنس للقاضي عبد الكريم .

(51) انظر اعلاه ص 139 - 140 و 141 - 142

(52) انظر اعلاه الهامش 46

(53) "تلفرام" 12 أكتوبر 1910 .

(54) "تلفرام" 4 أكتوبر.

(55) "تلفرام" 11 أكتوبر 1910 .

(56) راجع رواية وتحليل هذه العواث في : Jean - Claude ALLAIN : Agadir 1911, Publications de la Sorbonne, Paris, 1976, ch. 8.

(57) جان كلود الان ، مرجع سابق ، ص 10 .

(58) إن ما ساهم في إضعاف تأثير هذا الصورت أنه كان يصل عبر مقالات يتم طبعها بشكل رديء تماما. فقد كانت تسند إلى طبع اسباني مجهل مطلقا معنى النص العربي ، فيخل بذلك بترتيب النسخة ويخلط السطور ساعة التركيب. والنتيجة أن بعض المقالات ، وهي في الغالب الأكثر طولا وأهمية ، تخرج بعد طبعها على شكل لحم مفروم حقيقي. فكان يلزم صبر أيوب للتحقق من الفكرة الأصلية وإعادة إنشاء المفاصل.

(59) "السداة" ، راجع اعلاه ص 170 .

(60) "جريدة فرنسا بالعرب" ، "التلفرام" ، عند 11 يناير 1911

(61) "التلفرام" 26 يناير 1911.

(62) "التلفرام" 27 يناير 1911.

(63) "التلفرام" 29 يناير 1911.

(64) انظر اعلاه ص 143 - 144

(65) خلال إدارته بضمادته سنة 1923 أمام اللجنة البرلمانية المكلفة بالتحقيق في مسؤوليات هزيمة أنوال ، قام العقيد ركلمي بمرض هذه الأحداث على الشكل التالي : ذات مرة ، وقد يكون ذلك سنة 1912 أو 1913... تم إلغاء مشروع إنزال قبل تنفيذه ب 48 ساعة . ويانظر إلى أن عملا في اليايسة كانوا متورطين في القضية ، خاصة منهم عملاء أجدير ، وأقبل الجميع والد عبد الكريم باعتبار تورطه بصفة أخص بتسليمه وهائن إلى الجزيرة . ويالنظر أيضا إلى أن السر ذاع بعد أن تم التراجع عن العملية وعلم الجميع

بما كان منيرا ، فإن عبد الكريم أخطر إلى الاتجاه إلى الجزيرة بجميع أفراد أسرته بينما قتل بعض أقاربه وخرّب منزله ، وقد لحقه ضرر عظيم بسبب قضيتنا " :

De Anual a la República : Documentos relacionados con la información instruida por la llamada "Comisión de responsabilidades" acerca del desastre de Anual, Madrid, Javier Morata, 1936, p. 117.

رواشرح بلا ريب أن العقيد ركلي يعني في الواقع بوالد عبد الكريم والد من ما زال مجرد محمد بالنسبة لنا . وبعبارة أخرى القاضي عبد الكريم . وولادته بدوره بشهائنه أمام اللجنة نفسها ، فإن الجنرال Damaso Berenguer المقيم العام السابق والقائد الأعلى ، قدم نفس الرواية إلا أنه أرحها بشكل أدق في 1911 موضحا أن عدد الرماثين (وهم الأطفال) يبلغ زهاء 30. نفسه ، ص 328. أخيرا ، فإن تاريخ 6 نوفمبر 1911 كتاريخ لإحراق أملاك القاضي عبد الكريم يعطيه لنا :

66) Carlos HERNANDEZ HERRERA et Tomás GARCIA FIGUERAS dans Acción de España en Marruecos, Madrid, 1929, t. I, p. 141.

(66) رسالة بالعربية موجهة من تطوان بتاريخ 16 غشت 1912 :

S . H . M., Mel., 3 .

(67) رسالة من حاكم مليلية إلى وزارة الدولة بتاريخ 28 غشت 1912 :

S . H . Mel., 1 , 2 .

(68) الرسالة نفسها .

(69) امر ملكي بتاريخ 21 ماي 1913 : S . H . Mel., I , 6 , 13

(70) انظر اعلاه رسالة كرمز خورّدانة التي تشير إلى محاولة الفرنسيين ، سواء أكانت ثابتة أو لم تكن ، الرامية إلى جذب القاضي عبد الكريم إلى قضيتهم .

(71) رسالة من حاكم مليلية إلى الجنرال ألفو (Alfau) ، الحاكم العسكري بتطوان ، بتاريخ 22 مارس 1913 ، المطالبة ، بتحسيس الأخبار الواردة حول الاتصالات المحتملة بتطوان بين القاضي عبد الكريم وممثلي شركة مانزمان Mannesmann :

S . H . M., Mel . I , 6 , 7

(72) « مذكرة لارنون » فصل : « مقام أخينا بتطوان » . « وقد أخطر الأب إلى إخراج محمد (بالفتح) من المدرسة . ويبدو أن هذه الواقعة كانت، بعد سنتين ، من وراء الاتهامات التي وضعت محمداً بنفسه بأنه «محمي فرنسي» : رسالة المقيم العام إلى قائد مليلية ، بتاريخ 27 فبراير 1915 ، وجواب هذا الأخير بتاريخ 6 أبريل 1915 : S . H . M . Mel., II ' , 8 .

تقرأ في جواب حاكم مليلية : «المرّة الوحيدة التي اتصل فيها بالفرنسيين [يتعلق الأمر بمحمد بن عبد الكريم] ، حدثت عندما كان أخوه الأصغر ... يحضر في الفروس الفرنسية بمدرسة الرابطة الاسرائيلية بتطوان أثناء عطلة فصل الصيف » .

(73) رسالة حاكم المصيمة (النكور) إلى حاكم مليلية ، بتاريخ 10 يناير 1913 : S . H . M ., Mel., I , 6 :

(74) الرسالة السابقة الذكر ، الموجهة من حاكم المصيمة (النكور) إلى حاكم مليلية ، 10 يناير ، 1913 (هـ 73) ، والرسالة الجوابية بتاريخ 26 مارس 1913 : S . H . M ., Mel., I , 6 , 47 :

(75) رسالة بالعربية : S . H . M ., Mel., I , 3 , 16 ,

(76) الرسالة السابقة الذكر ، الموجهة من حاكم مليلية إلى حاكم المصيمة (النكور) ، 26 مارس 1913 (هـ 74) .

(77) برقية من حاكم المصيمة (النكور) إلى حاكم مليلية ، وهي غير مؤرخة ، إلا أنها تجد ما يزيكها في رسالة تلقاها مليلية بتاريخ 24 ماي 1913 : S . H . M ., Mel ., I , 6 , 6 . et 49 :

(78) تموزنا المعلومات حول مشروع الإنزال الثاني هذا . لا نذكر ، هنا وهناك ، إلا على تلميحات تشير إليه ، بعد مدة طويلة ، وبصورة غير دقيقة . بيد أنه توجد إشارة دقيقة وموثق بها باعتبار أنها صادرة عن قائد قاعدة النكور ، العقيد كافيللا . ففي شهادة أدلى بها أمام لاضي التحقيق العسكري ، ثبتت هذه العبارات : «ملك سنتين ونصف ، عندما تم التخطيط للإنزال ...» (شهادة أدلى بها أمام قاضي

التحقيق الكولونيل لويز سانز Lopez Sanz بتاريخ 5 نوفمبر 1915 :

S . H . M ., Mel ., II . 12 , 32 à 38 .

وبما أن الشهادة المذكورة ترجع إلى نوفمبر 1915 ، فإن « المشروع » ، أو قل قرار انجاز عملية الإنزال ، يرجع إذن إلى ماي 1913 كان كافيللا وقتها بمركزه بالفنكر ، وكان ما يزال فيه ساعة الإدلاء بشهادته . فلا يمكننا بالتالي الشك في روايته . أما فيما يخص بالتاريخ المقرر لعملية الإنزال ذاتها ، فيقع على الأرجح بين يونيو و غشت و هي فترة مناسبة جدا . [نعرف الآن أن عملية الإنزال تقدر بالضبط في يومي 14 و 15 يونيو 1913 ، وأنه الذي في 9 يونيو . هذا التأكيد ، وهذا التوضيح الإضافي زودنا بهما كتاب الجنرال كومن خورداث ، ابن المقيم العام الذي يحمل نفس الاسم ، والذي كان وقتها قد شارك مباشرة في تحضير خطة العملية المذكورة :

Teniente General Francisco Gómez- JORDANA SOUZA : La tramoya de nuestra actuación en Marruecos, Editoria nacional, Madrid, 1976, pp . 28 et 99-100]

(79) برفقية من حاكم الحسيمة (النكور) إلى حاكم مليلية ، بتاريخ 28 غشت 1913 : S . H . M ., Mel ., 7 , 6 , 14 .

(80) لائحة خدمات السي محمد بن عبد الكريم الخطابي المدة في 30 أكتوبر 1915 لفائدة الكولونيل لويز سانز ، قاضي التحقيق العسكري : S . H . M ., Mel ., II , 9 , 27 à 40 .

(81) المصدر نفسه .

(82) المصدر نفسه ، والأمر الملكي بتاريخ 21 ماي 1913 :

S . H . M . Mel ., 6 , 5 .

(83) لائحة الخدمات السابقة الذكر.

(84) لائحة الضمات السابقة الذكر ، تشير إلى 11 فبراير 1914 كتاريخ لصعود الظهير الذي وقاه إلى رتبة " قاضي فريخانة ، مع اختصاص النظر في الأحكام التي يصدرها القضاة الآخرين في المناطق [غير المحتلة] بناء على دعوة من أحد الطرفين المعنيين " . في الحقيقة ، إذا كان الظهير يحمل حقا التاريخ المشار إليه ، وهو ما نجهله ، فقد صدر بعد عدة أشهر من تسلم القاضي الجديد وظيفته . توجد بالفعل ، رسالة بالعربية من القاضي عبد الكريم ، الوالد ، إلى الجنرال خورداث ، بتاريخ 23 غشت 1913 ، يشكره فيها لأن الخير وإياه ، كما يقول ، برفقية ولده وتعيينه « من طرفكم في وظيفة قاضي مليلية » :

S . H . M ., Mel ., I , 3 , 37 .

(85) برفقية من حاكم الحسيمة (النكور) إلى حاكم مليلية (S . H . M ., Mel ., II , 2 , 138)

وهذه البرقية غير مؤرخة إلا أنها تجيب على السؤال الذي طرحته مليلية فيما إذا كان السي محمد قد توسط في شراء الأراضي لفائدة الألمان أو لفائدة الفرنسيين . هذا ما يرجع بنا إلى شتبر 1915 ، عندما سيخضع محمد ، كما سنرى ، لتحقيق قضائي . وحيث إنه تم العشر لديه في هذا التاريخ على حوالي 300 رسالة تتعلق بعمليات شراء الأراضي ، فمن الواضح أن هذه المراسلات امتدت ، على الأقل ، على مدى سنتين أو ثلاث سنوات ، وبالتالي ابتداء من 1912 أو 1913 على أبعد تقدير . لنلاحظ أن البرقية المذكورة تنفي بكل وضوح تدخل محمد في عمليات شراء الأراضي لفائدة الألمان أو الفرنسيين . وهذا ما يحضّر تماما ادعاء رجته على نطاق واسع المصالح الفرنسية فيما يخص ثقاته في خدمته شركة مانزمان الألمانية .

(86) سيقول في «مذكرة لاريتون» ، بعد أن ينكر بمدى الأمل والحماس الذين انتاباه من جراء مشروع فتح مدارس من طرف الأسبان : ' إلا أن أملي ضعف تدريجيا ، لأن الحكومة ، بدلا من أن تظهر كل التشبث اللازم بهذا المشروع الهام ، فضلت عليه وسائل أخرى : وهي وسائل العنف « (دخل في الإدارة السبانية) . بعد سنة من هذا التاريخ ، سينساق إلى القول لضابط إسباني ، في فترة غضب ، إنه لا يطمح أن تتعرض قبيلته للاحتلال « لأنه يرى جيدا كيف يتصرف الأسبان في القبائل التي تم احتلالها » (تصريح للقيب سست ، 15 غشت 1915 : S . H . M ., Mel ., II , 9 , 9)

(87) «مذكرة لاريتون» : فصل : والدنا بطونان .

(88) شهادة حاكم الحسيمة (النكور) ، العقيد كافيللا ، أمام قاضي التحقيق ، العقيد لويز سانز في نوفمبر 1915 : « منذ سنتين ونصف [ماي - يونيو] ، عندما تم التخطيط لعملية الإنزال ، قدم القاضي [محمد] إلى الحسيمة ، إلا أن المصرح اضطر إلى أن يطلب من الجنرال إرجاعه إلى مليلية ، لأنه علم حسب ما ترسل به من أخبار - وهذا ما كان كل واحد يتحدث عنه على أية حال - أن القاضي يحرض الريفيين على إقامة حرس للوقوف ضد الزحف الإسباني . منذ هذا التاريخ ، لم يعد المصرح يومن بإخلاص هذا الموظف » :

S . H . M . , Mel , II , 12 , 32 à 38.

(89) تقرير محمد ، لدى عودته من إجازته بالجدير ، بتاريخ 18 نوفمبر 1913 :

S . H . M . , Mel., II, 2 , 132 .

(90) سنعهد إلى الحديث عن ذلك فيما بعد .

(91) مذكرتان متعلقتان بالمهمة التي أنيطت بالقاضي محمد بالتوجه لتشكيل حزب إسباني في «الريف الغربي» ، إحداهما بتاريخ 27 ،
والأخرى بتاريخ 31 يناير 1914 :

S . H . M . , Mel., I . 9 .

وكذلك :

Mel . , II , 2 , 148

أيضا لائحة خدمات محمد ، بتاريخ 30 أكتوبر 1915 :

S . H . M . , Mel., 9 , 37 à 40

(92) المصدر نفسه .

(93) نفسه

(94) نفسه

(95) لائحة خدمات القاضي محمد المذكورة في الهامش 91 .

الخلاف مع اسبانيا

على الرغم من أن الريف كان يعيش في عزلة كبيرة عن العالم ، فإن أصدقاء الحرب الأوربية ملأت دياره حماسا وتوثبا منذ الأسابيع الأولى من بدايتها . فقد ترامت إليه الأنباء باكرا بأن فرنسا التي تعد وحدها صاحبة السيادة الحقيقية في المغرب تعرضت هي نفسها للغزو وكتبت لها الهزيمة في أرجح الظن (1) . بناء على ذلك بات من المتوقع أن ترخي قبضتها على البلاد . ألم يكن يقال من يومئذ أنها اضطرت إلى الجلاء عن تازة وعن جهات أخرى (2) . أما إذا ما انسحبت فرنسا بالفعل ، فأي شأن سيكون للإسبان حتى في الحالة جد المحتملة من بقائهم هم أنفسهم في الحياد من المواجهة الأوربية ؟ وعليه فقد آن الأوان لإذكاء الكفاح من جديد بعد أن دخل في مرحلة من الفتور منذ 1912 . تلك هي الأقل الفكرة التي أصبحت تشغل بال القطاع العريض من الريفيين . لذا ، وقبل نهاية هذا الشهر التاريخي (شهر غشت) ، وعلى الرغم من أن الناس كانوا في منتصف شهر الصيام ، فإن مندوبي مختلف قبائل كرت حجوا سويا إلى قبيلة بني ورياغل ، تلك القبيلة التي لم يكن ممكنا بدونها القيام بأية خطوة هامة في الريف ، غير أن "أصدقاء اسبانيا" كانوا يعملون على شل طاقتها عن طريق زرع الفرقة فيما بينها . هنا تمكن هؤلاء المندوبون فوراً من تسوية النزاعات الداخلية ، الشيء الذي أتاح من يومئذ توجيه وحدة أولى من المتطوعين إلى الجبهة (3) . بعد انطلاقهم ، تواصل العمل داخل القبيلة حيث ارتفعت الأصوات منادية بالجهاد والانتفاضة كتلة واحدة ضد الإسبان بمجرد انتهاء شهر رمضان (4) .

حيال هذه الموجة من احتياج الخواطر ، وجد "أصدقاء اسبانيا" أنفسهم في وضع لا يحسدون عليه . لكن ما من أحد كان أشدهم قلقا من زعيمهم الرئيسي القاضي عبد الكريم ، خاصة وأنه كان عن طريق ولده السي محند المقيم بملييلة أكثر اطلاعا من الجميع بالأوضاع الأوربية . كيف سيكون مصيره في حالة ما إذا انهزم الفرنسيون حقا وهو الذي يساند قضية شركائهم الإسبان ؟ صحيح أن مساندته لهم أصبحت مستترة الآن من وراء اللعب على الحبلين . لكن كيف يكون على يقين من المحافظة على النوم على دوره المبهمة بهذا الشكل ؟ ولم تجشم كل هذه المخاطر إذا ما كانت حظوظ اسبانيا قد أصبحت غير أكيدة ؟ فبدون أن يقلب ظهر المجن لأصدقائه بالأمس لأجل هذا ، أليس حريا به بالأولى أن يقلع نهائيا عن مساندتهم ؟ كان يكفي مطارحة السؤال ليتضح

الجواب. غير أن اتخاذ القرار كان أسهل من إبلاغه إلى حسن الختام كما سيتقطن إلى ذلك.

أمام دهشة الإسبان ، بدأ يمتنع عن اتخاذ أدنى مبادرة من شأنها عرقلة التجنيد أو تجمع الوحدة التي صعدت بعد ذلك إلى الجبهة (5) . ثم أخذ يباعد بشكل ظاهر بين مواقبت زيارته لقاعدة النكور ، متعللاً فجأة بتقدمه في السن ويمتاعب شهر الصيام (6). من الحق أنه قام بزيارتها في آخر يوم من رمضان ، لكنها كانت هذه المرة زيارة وداع. إذ أخبر حاكم الحصن ، العقيد كافيل (Gavila) ، بأنه عازم أشد العزم على قطع صلته بالإسبان في المستقبل. بوده ، كما صرح له ، مواصلة إخباره إذا دعت الضرورة إلى ذلك. لكن لا أقل ولا أكثر. لماذا هذا التحول المفاجئ ؟ هل فقط بسبب النفقات الباهظة التي يتطلبها العمل السياسي ؟ إنها بالطبع مجرد ذريعة.

عندما سرد كافيل على رؤسائه وقائع المحادثة ، فإنه عمل في نفس الوقت على طمأنتهم ، فقد صرح لهم بأنه عرف كيف يقنع القاضي بمدى الأضرار التي ستلحق به هو نفسه من جراء قراره. وبالفعل ، وعلى الرغم من أن حجج الحاكم الإسباني لم تحدد بكيفية واضحة ، فإننا نستشف بعضها. ألن يخاطر القاضي عبد الكريم ، عن طريق مبادرته ، بمركز ولديه ، ومن يدري حتى بحريتهما ، علماً بأنهما يقيمان معاً بمليلية ، الأكبر منهما يتقلد بها وقتئذ وظائف مرموقة ، والأصغر وهو محمد (بالفتح) يبني بها مستقبلاً زاهراً عن طريق متابعة دراسته هناك ؟ لقد اعترف القاضي بواقع الحال. وليعطي الدليل ، فإنه لم ينصرف لشأنه إلا بعد أن أفضى لكافيل أسرار الإجراءات المتعلقة بالانتفاضة الجماعية الوشيكة ضد الإسبان . زيادة على ذلك فقد قام بقراءة نداء محرر بهذا المعنى على زعماء أميين وذلك بناء على طلبهم. وهو تصريح أبى كافيل إلا أن يعتبره بمثابة اعتراف متهور من قبله بتواطئه مع الطرف الخصم (7) . نرى إذن أن القاضي عبد الكريم حاول حقاً استعادة حريته ، لكنه بدلاً من أن يبلغ مراده لم يعمل في الواقع ، بعد أن كشف عن حقيقة نواياه بشكل أوضح ، إلا على دفع الإسبان إلى أن يظنوا به الظنون ، مضيقاً بذلك مجال عمله الخاص .

* * *

في الحقيقة أنه كان مراقباً منذ مدة طويلة ، على الأقل من النكور. لم يكن لسلوكه المشبه فيه ليبقى هناك دون إثارة الريبة ، وهذا بمقدار ما كان محاطاً بالحساد حتى وسط "أصدقاء إسبانيا" ، خاصة منهم المدعو شدي الذي كان يعتقد بفضل ثرائه أنه

مؤهل كل التأهيل ليكون الرجل الأول ولا يهضم أن يبرز من طرفه (8). لذا راح يرصد حركاته وسكناته ويفشيها لكافيلاً أو للتقيب سست (Sist) ، رئيس الاستخبارات بالجزيرة. كان عبد الكريم على علم بالأمر ، ويصرح في محاولة لتبرئة نفسه بأنه يعمل على مخادعة الريفيين حتى يتسنى له خدمة الإسبان على أحسن وجه. لكن من كان المخدوع في نهاية الأمر ؟ ذلك ما لم يكن في الميسور معرفته.

إن ما كان يسم المسألة بطابع أكثر إزعاجاً كذلك هو أن محمداً ، الابن الأكبر للقاضي عبد الكريم ، كان يوجد هو نفسه في "المكتب المركزي" بمليلية (Oficina Central) ، أي في المكتب الذي يراقب عموماً كل مصالح الاستخبارات والعمل السياسي . كان يتمتع فيه بوضع لا غبار عليه. وكان الرئيس الأول نفسه (العقيد ركلمي) يوليه بالتقدير ويخصه بالثقة والصدقة كما لو تعلق الأمر بأقرب وأفضل مساعديه الإسبان . لم يكونوا هناك يخفون عنه شيئاً. وكانوا بالخصوص يأخذون بنصيحته . لذلك فإن أي ادعاء صادر من الحسيمة ، وبعبارة أخرى من النكور ، لإثارة الريبة حول إخلاص القاضي عبد الكريم ، لم يكن ليؤخذ هناك مأخذ الجد . كان يدرج في عداد ضغائن كافيلاً ومحكوميه المذاهنين من طرف منافسين حساد يقلون موهبة عنه . ألم يحاول كافيلاً على كل حال ، وبدون الاكتفاء بإثارة الشكوك حول الأب عبد الكريم ، ألم يحاول إثارتها أيضاً في غضون 1913 ضد الابن (القاضي محند) الذي كان كل واحد في مكتب (Oficina) مليلية على وفاق معه ؟ لقد اتهمه وقتذاك وبمناسبة إقامة له بأجدير بتحذير الريفيين من عملية إنزال كان من المتوقع أن تتم في تلك السنة (9). إن هذا ليعطي الدليل حقا على مدى عداوته.

بما أن الأمور كانت على هذا النحو ، فقد فكرت الأوساط العليا في إيجاد حل عن طريق شطر الفريق الموالي للإسبان في أجدير إلى تشكيلتين يقود إحدهما المدعو شدي والأخرى الفقيه عبد الكريم. الأولى وحدها بقيت على الصعيد المحلي تحت رئاسة قاعدة النكور . في حين تقرر أن ترتبط الثانية مباشرة بمركز مليلية عن طريق محند (10) .

لم يكن من شأن هذا الإجراء إلا أن ينظر إليه ، على الصعيد العام ، بعين الرضى والارتياح . سبق أن رأينا بالفعل كيف أن الفريق الذي شكله محند في بداية 1914 ، ثم قاده والده فيما بعد ، كيف عمل في شهر ماي على تيسير زحف الجنود الإسبان ، وكيف قام فيما بعد ولدة طويلة بإجهاض المقاومة في ديار بني ورياغل (11) .

على العكس من ذلك فإن نفس الإجراء لم يصادف هوى في قاعدة النكور التي

حرمت من جانب من اختصاصاتها ، والتي أخذت تبدو فيها نجاحات محمد ووالده وكنتها تحد كبير. ذلك ما نستشعره بوضوح من خلال اللهجة الحانقة التي راح يستعملها كافيلًا للتقليل من أهميتها. تقول بالاختصار برقية موقعة من طرفه : انطلق القاضي مؤخرًا إلى مليلية حيث سيقدم في أغلب الظن تقريرًا عن الدور الذي قد يدعي أنه لعبه وحده في الأحداث خلال الشهر الذي قضاه هنا. عليكم ألا تثقوا به. أؤكد لكم أن الآخرين اللذين سيلوكنهما بالسوء - شدي وبوكراي ، وهما منافسا ولده - قد جدا كثيرا في العمل بدورهما (12) .

بيد أن هذا الحقد الذي كان يخترنه كافيلًا انطلاقًا من دوافع شخصية محضة ، كان مقترنا لديه أيضا باعتبارات وطنية . وهذا بمقدار ما كان يشعر بأن هذين الرجلين (محمدًا ووالده) لا يتعاملان معاملة صريحة. وحيث إن كل نجاح من نجاحاتهما كان يعزز الثقة العمياء التي يوحيان بها في الحقيقة في مليلية ، فإن خيانتهم في يوم من الأيام لن تكون إلا أشد وقعًا. من اللازم إذن ، وقبل أن تتكسر ، كشف القناع عنهما. تلك هي المهمة ، وهو الذي تولى أمرها. فبهذه العقلية كان قد استقبل يوم 21 غشت القاضي عبد الكريم الذي كانت تحدره الرغبة ، كما رأينا ، في وضع حد لخدمة إسبانيا (13) . وبدلًا من أن يستجيب لهذه الرغبة ، أو على الأقل أن يأخذ بعين الاعتبار الصراحة التي عبرت بها ، فإنه ناهضها دون أن يسترعي نظره شيء لدى الرجل الذي يخاطبه عدا الجانب الذي رآه قمينًا بتوريطه أمام السلطات التي يخضعان لها معا.

لكن الأوان لم يكن قد حان بعد لبلوغ هذه الغاية. إذ جاء الرد سريعًا من مليلية بأن إسبانيا في حاجة الآن أكثر من أي وقت مضى إلى القاضي عبد الكريم الذي كانت دبلوماسيته وحكته في إدارة دفة الأمور قادرتين وحدهما على التغلب على الأزمة الراهنة (14) . من جهة أخرى فإن محند ، الذي نزل بأجدير ليعيدَ بها بعد انتهاء شهر رمضان ويفتتم فرصة إجازته لشد أزر والده ، سلم لهذا الأخير رسالة شخصية من الجنرال خوردايه يثني عليه فيها الثناء العاطر وينعم عليه فوق ذلك بمنحة إكرامية (15) . وكما هو الشأن في الأخير بالنسبة لمحند الذي كان يرى هو نفسه أن لا سبيل ممكن لعائلته إلا في خدمة إسبانيا (16) ، فإن عبد الكريم تخلص على الأقل في الوقت الحاضر عن رغبته المترددة في الاستقلال. وباستئنافه العمل ، فإنه قام به بمساعدة ولده على أحسن وجه ، بحيث تم إجهاض التدابير المتخذة من أجل التجنيد ولم يلتحق أي رجل في الجبهة بالوحدة المتواجدة هناك في عين المكان. والحال أن الفضل في هذا النجاح نسب إليه حقا في مليلية على حساب كافيلًا ، إذ أن خوردايه الذي كان يحكم كل المنطقة ، ولنتذكر

ذلك ، تفضل من جديد بالكتابة إليه بنفسه ، مخاطبا إياه بـ "الصديق الحميم" :

"إنك تعرف بنفسك حالة الاضطراب التي توجد القبائل الريفية مسرحا لها. وتعرف أن الريفيين يريدون إرغام بني بو ياحي على الدخول في الحرب ضدنا. لأجل هذا تكون كل سوق فرصة لدعوتها إلى حمل السلاح. لذا فإنني أكلفك بإلحاح بأن تواصل عملك للحيلولة دون تجنيد قبيلتك مهما كلف الأمر ، تماما كما علمنا بتمكنك من ذلك في المناسبة الراهنة. وإننا لمدينون لك بامتنان لا حد له" (17) .

علوة على ذلك ، فإن محاباة خوردانة هاته ومداهناته ومظاهر ثقته ستتكرر مرارا مشفوعة بالإنعامات . فبمناسبة عيد الأضحى وجه إليه متمنياته مع مبلغ مالي معتبر (18) . في مناسبة أخرى ، وقد احتدم التوتر من جديد بين أجدير والنكور ، فكر ثانية في معاودة هديته ، مدخلا عليها عنصرا جديدا هو أن يتولى كافيلا نفسه مهمة تقديمها بيده كما لو أن المبادرة جاءت منه. بحيث إنه لم يتردد من أجل ملاطفة "صديقه الحميم" في إذلال أحد ضباطه (19) .

لم يكن القاضي عبد الكريم يرى منفذا له إلى الخلاص وهو مقيد على هذا النحو بولديه الرهينتين وبالعناية المتيقظة لخوردانه . سيما وأنه كان يتخبط أيضا في غمرة من الارتباك فيما سيفعل بحريته إن هو استعادها . فلئن أصبح الآن يرى من الأفضل عدم مساعدة المشروع الإسباني شخصيا ، فإن فكرة محاربته كانت تبدو له اليوم ، كما بدت بالأمس ، فكرة غير معقولة . إذ لو رحلت اسبانيا ذات يوم ، فإن دولة أخرى ستحل محلها ، غير أنه لن يكون في مقدور الريفيين بتاتا طردها لا هي ولا أولئك الذين قد يقصونها. فبينها وبين الريفيين كان يفكر إذن في اتخاذ موقف الحياد. لكن هل كان مسموحا له بهذا الاختيار ؟ ألن يشترط الفريق المواجه له تبرئة ساحته بواسطة الأعمال ؟ وهل يقبل أن يصبح مجهولا وهو الرجل الذي لم يتخل قط عن احتلال الواجهة الأمامية من الأحداث ؟

مستغرقا في هذا الضرب من التفكير ، كان لا بد وأن يشعر بأن وضعه حيال الريفيين سيزداد تدهورا ، إذ حتى نجاحه الأخير الذي كلفه تحقيقه الشيء الكثير ، لا يمكن أن يؤذن إلا بالعاصفة. بالأمس كانت ربود الفعل من جانب المعارضين تقتصر على إضرام النيران في البيوت. أما الآن فقد قتلوا رئيسي شبكته في بني بو عياش ، حماد ابن محمد ابن الحاج وحمادى مونة (20) . كانت العقوبة شديدة. وساعة الاقتصاص منه آتية لا ريب فيها .

* * *

في هذه الأثناء وقع حادث حاسم مع دخول تركيا الحرب بجانب ألمانيا. كان من شأن هذا الحادث أن يعمل رأسا على إعادة النظر في الأمور بشكل محسوس. من قبل ، عندما لم تكن الحرب تهم سوى الدول الأوروبية ، لم يكن من الميسور جني فائدة منها ضد الهيمنة الفرنسية بالمغرب إلا بدعم من دولة أوروبية أخرى . وكانت هذه الدولة آنذاك هي ألمانيا التي لم تعد تخفي منذ بضع سنوات ما تضمهر بدورها من مطامع. بحيث إن المتعامل معها وقتذاك كان يجازف كثيرا بأن يتهم بالتواطؤ مع هذا السيد الجديد. خاصة إذا سبق له مثل الفقيه عبد الكريم أن خدم اسبانيا. أما وقد دخلت تركيا بدورها الآن في الحرب ضد فرنسا ، فإن العون الذي يمكن انتظاره منها سيكون مدعوما بالضمانة الإسلامية . وهذا حتى لو كان مصحوبا بكفالة برلين. وبغض النظر عن مشكلتهم مع فرنسا ، ألم يكن المغاربة ملزمين بحكم الروابط الدينية بأن يساعدوا بدون تردد تركيا المسلمة ؟ ذلك بالذات ما طالبت به السلطة العثمانية في نداء وجهته منذ الأسبوع الأول إلى كافة المسلمين في العالم (21) .

هل كان للقاضي عبد الكريم ، ومن تلقاء نفسه ، تصور واضح عن هذه المعطيات الجديدة ؟ ليس بوسعنا تقرير ذلك. إلا أنه كان مستعدا على كل حال لاكتساب هذا التصور شريطة مساعدته عليه. هذا ما حصل عندما قام ضابط تركي كمبعوث سري بزيارته في أجدير في شهر نوفمبر من عام 1914 في أرجح الظن. كان الزائر يريد أن يعرف هل يمكن الحصول في المغرب نفسه على دعم من أجل القيام بعمل ضد فرنسا. ذلك انطلاقا من الأقاليم التي لم تكن اسبانيا قد احتلتها بعد في منطقتها. وقد أجبب بأنه سيكون من السهل جدا إثارة الريف بالمساعدة المادية التي قد تقدمها تركيا (22) . وهو جواب مشجع ويظهر حقا لدى صاحبه ما سيبدله من حماس لدعم المشروع شخصيا. لماذا اتخذ القاضي فجأة مثل هذا الموقف والحال أنه لم يسبق له إلى الآن أن أظهر ضد فرنسا هذا العداء الذي كان يذكي بالعكس ولده محمد ؟ هل تمكن هذا الأخير في نهاية الأمر من التأثير عليه ؟ من المحتمل جدا ذلك. على كل حال فإن محمدا سيقوم بنفسه بعد بضعة أشهر بتوضيح المسألة مع رئيسه وصديقه ركلي . فقد أسر إليه حينئذ "بأنه هو و والده على السواء سيقدمان عن طوعية مساعدتهما من أجل القيام بعمل ضد فرنسا التي يبغضانها لشراستها حيال المغاربة" (23) .

لنقرر إذن أن بغض فرنسا ساهم كثيرا كما يقول محمد في إقناع والده هو الآخر. بيد أن هناك تفسيرا ثانيا أكثر توضيحا في الحقيقة ولو أننا لم نتمكن من أن نحدد هل هو صادر عن محمد نفسه أم هو من صنع العقيد ركلي . يقول النص في

سياق سرده المحادثة بين الرجلين : "لن أن نأخذ في الحسبان أنه إذا ما شارك الأب مع ولده في هذه الانتفاضة ذات الطابع الإسلامي البارز - ولو أن الملهمة في الحقيقة هي ألمانيا بوصفها حليفة للأتراك - فإنهما سيتمكنان من أن يستعيدا جزئيا الاعتبار والسمعة اللذين تمتع بهما دوما عبد الكريم وأفراد أسرته بين إخوانهم" (24) .

ها هو ذا مفتاح القضية . فرغم تستره باللعب على الحبلين ، فإن القاضي عبد الكريم أخذ يدرك أكثر فأكثر أنه فقد الاعتبار وأصبح عرضة للازدراء بل وللتهديد وسط إخوانه الريفيين بوصفه عميلا للإسبان. لتفادي الكارثة ، واسترجاع سمعته ، لم يكن بوسع في الحالة التي هو عليها التماس راحة البال في الاعتزال. فإن الريفيين لن يبرثوا ساحته إلا إذا غير معسكره وقام بوجه مكشوف بضرب أولئك الذين خدمهم بالأمس. وحيث إنه كان يفتقر إلى الرغبة والوسائل لاتخاذ مثل هذا الموقف ، فإن العمل ضد فرنسا ، وهي عدوة للمغرب ولكنها عدوة أيضا للإسلام منذ اللحظة التي حاربت فيها الأتراك ، من شأنه أن يشكل بديلا ممتازا إذا ما عرف كيف يلعب في آن واحد على الشعور الوطني والديني. علاوة على ذلك فإن هذا العمل سيكون عبر تركيا وسيلة لإثارة اهتمام ألمانيا العتيدة التي لم يكن انتصارها ليوضع موضع تشكك ، والتي ستكون إرادتها مهيمنة بعد انعقاد الصلح . أما بالنسبة لاسبانيا فلا يسعها إلا أن تقر عينا إذا ما وجدت طبيعة الريفيين الحربية ، التي كان عليها وحدها أن تكابدها ، منفذا آخر في اتجاه الفرنسيين . والحال أنه كان على القاضي لتمكين أصدقائه من هذا الامتياز الكبير أن يكف بالذات عن تعاونه المباشر معهم. ها هو ذا إذن الحل الذي يجعل من الممكن ومن المقبول ضرورة الانفصال ، وهو الذي سيدأب منذئذ على تطبيقه شيئا فشيئا .

كان الأمر الأكثر استعجالا هو الانغماس في مجرى المقاومة الذي ما انفك يتضخم. وكانت العملية ما تزال ممكنة رغم ما بذله من جهود لعرقلة هذه المقاومة . فلعبه على الحبلين ساعده بالفعل كما رأينا على المحافظة منذ ثلاث أو أربع سنوات على نوع من الإبهام (25) . زيادة على ذلك فقد كانت الحاجة ماسة من أجل التسيير وفرض الهيبة على الجميع إلى شخصيات مرموقة ، مع العلم أن المقاومة لم تكن قد استقطبت في الأساس سوى عامة الناس. والحال أنه بغض النظر عن الشريفيين الأكثر احتراما في المنطقة ، وهما محمد أخمليش وحמידو الوزاني ، فإن هذه الشخصيات كانت على وجه العموم قد تورطت كثيرا مع الإسبان. فيما أن للضرورة أحكاما كما يقال ، فإنه لم يكن بالإمكان أن يتشدد الريفيون كثيرا بصدد صدق نوايا المنضوين المتأخرين. وعلى كل حال إذا كان التيار قويا بما يكفي لفرض هذه الانضواءات ، ألن يكون قويا أيضا بما

يكفي لإلزام المنضوين ، وقد احتلوا أماكنهم وأصبحوا مؤطرين ، بالقيام أخيرا بواجبهم ؟ ذلك ما كان عليه الأمر خلال الأشهر الأولى من عام 1915 بالنسبة للشریف بورجيلة الذي كان يوما من أخلص أصدقاء اسبانيا . وهذا ما سيكون عليه بالنسبة لصديقهم الأقل إخلاصا ، وهو القاضي عبد الكريم .

في ماي من هذه السنة لم تكن ثمة بعد أية علامة تؤثر على احتمال تدخل الأتراك الذين كان عبد الكريم قد رهن عليهم منذ ذلك الحين. بيد أن الحماية التلقائية ضد الإسبان التي نجح في تحطيمها بمساعدة ولده في فصل الخريف (26) ، استؤنفت في فصل الربيع على قدم وساق. والحال أنه لم يحاول هذه المرة إيقافها. ذلك أنه كان قد أدخل قراره في حيز التنفيذ بفضل ما بذله من جهد لوضع حد لتردداته الأخيرة. في اليوم الثالث من الشهر ، قبل مرة أخرى المال الإسباني . إلا أن يده لم تمتد إليه موطلا العزم على إعادته. ثم توجه بعد ذلك إلى النكور لزيارة كافيللا . ولئن لم يجرى على مصارحته بشيء ، فإنها كانت مع ذلك زيارة وداع بالنسبة إليه ، كما أفصح عن ذلك بعد زمن يسير إلى صديقه القديم بنحاييم وبحضور ولده محمد. بل ووصل به الأمر إلى أداء القسم بأن كل شيء انتهى بالنسبة إليه مع اسبانيا (27) . كان هذا بالطبع بنية أن يتولى بنحاييم إبلاغ قراره إلى النكور التي كان يمارس فيها تجارته . هذا فيما يخص الجانب الإسباني من موقفه الجديد.

أما بخصوص الجانب الريفي ، فكانت الأمور في نفس الأثناء تسير وفق ما يرام. في الأسبوع الأخير من ماي والأيام الأولى من يونيو (1915) ، قام الشريهان محمد أخمليش وحميدو الوزاني ، اللذان لم تتمكن اسبانيا أبدا من تدجينهما ، بعمل مشترك نجح في وضع حد للنزاعات التي كانت تفرق هنا وهناك شمل القبائل التي كانا يمارسان نفوذهما مباشرة عليها : صنهاجة ، بقيوة ، بني يطف ، بني بوفراح. وقد أقر هذا العمل المشترك التصويت على أداء مساهمة حربية خلال ثلاثة أشهر ، وجمع ألف رجل على أساس خمسين رجلا لكل فخذ انطلقوا نحو الجبهة. زيادة على ذلك فإن العمل المنسق نجح بفضل إلحاحه الشديد في إقناع بورجيلة ، وهو شريف آخر لكنه معروف فيما يخصه بكونه من أخلص خدام اسبانيا ، بأن يقوم بنفس العمل في ديار بني ورياغل بالنظر إلى أن كلمته كانت نافذة هناك (28) .

من البديهي أن بورجيلة كان في هذا الطرف الأقصى قد بث في الفرقة التي جندھا عددا لا يستهان به من أصدقاء اسبانيا وذلك من أجل شلھا. لكن العنصر

الأساسي الذي سارع هو نفسه إلى إحاطة كافيلا علما به هو أنه لم يستطع أمام الإنذار لا الرفض ولا المراوغة. وما هذا بالطبع إلا لأن السيل كان جارفا. ثمة أمر آخر هام جدير بأخذه بعين الاعتبار هو أن أحمد بورجيلية فكر قبل الإذعان في استشارة سادته بالنكور. غير أنه تخطى عن الفكرة. من الذي صرفه عنها ؟ إنه القاضي عبد الكريم (29) .

كان من المحتمل فيما مضى أن ينغمس القاضي عبد الكريم في المعترك موظفا جميع وسائله لتسكين هذا الغليان المقلق . لكنه الآن ، وأمام دهشة كلا الطرفين ، بقي ساكنا بعزم وإصرار. على أن حضوره كان ملموسا وإن لم يظهر للعيان . كان بيته يعج بالزائرين من "أصدقاء إسبانيا" ، أصحاب المعاشات ، من كبار وصغار ، الذين كانوا ينتظرون منه التعليمات وهم في منتهى الارتباك . لم يسبق مطلقا أن جرت ممارسة مثل هذه الضغوط القوية لجمع الأموال وتجنيد المحاربين. بأية وسائل جديدة يتعين مواجهة هذه الزوبعة ؟ إلى جموعه المتحيرة ، كان عبد الكريم يصرح بأن لا علم له بهذه الزوبعة التي يحدثونه عنها. إن كل شيء بسيط في نظره وفي غاية السهولة. هل تم إنذار بورجيلية بتجنيد المقاتلين ؟ علام الاستياء إذن. ما عليه إلا الإذعان. هل يتلف الناس للتجنيد ؟ لتتجننوا إذن. ذلك ما كان يقوله لهم عبد الكريم. وعندما كانوا يسألونه هل من المفيد كما جرت العادة نفس التجنيد من الداخل ، كان يجيب بصدر منشرج : "لماذا ؟ ألا تعلمون أنه ينبغي معاملة الإسبان بوضعهم بين المطرقة والسندان ؟ " (30) .

بسرعة لم يعد الحديث يجري إلا عن التحول المفاجئ الذي طرأ على موقف القاضي عبد الكريم. كان المقاومون يفدون عليه للاستخبار. فيظهر في حضورهم تفاؤلا كبيرا ويخاطبهم بقوله : "إن مليلية هدف معروف جدا بالنسبة إلينا. إنها في متناول أيدينا" (31) . ومن بين المستمعين إليه كان هناك من يعود شاكا مرتابا. ومنهم من كان بالعكس يجهر بأنه لم يفاجأ لأنه كان يحس منذ مدة طويلة بأن المحتال يخدع في الحقيقة الإسبان. تماما مثل ولده السي محمد - ويسمونه بالأحرى "السي مخند" - الذي أخذت الإشاعات تجري عن عودته الوشيكة من مليلية ، كما هو الشأن بالنسبة لأحمد (بافتح) وهو الابن الأصغر ، وذلك للمشاركة في المعركة بل وإقيادتها ، لأن هذا الرجل كان يفرض هيئته على الجميع من خصوم وأصدقاء بمقدار ما كان أبوه إن لم يكن أكثر (32) .

* * *

في يوليو كان بإمكان القاضي عبد الكريم أن يعتقد أنه أصبح مقبولا مع جميع أفراد حزبه المنظم من طرفه في صفوف من كان بالأمس يبذل قصارى جهوده لتشتيتهم. بل وكان بإمكانه أن يتيقن من أن كلمته ستكون نافذة بينهم ، إذ أن بعض الجماعات ، كأهل إيزفراقن من بين آخرين ، انضوت من يومئذ تحت لوائه تحوفا الرغبة في أن تاتمر بأوامره (33) .

لا نعلم في أية لحظة وبأية طريقة حصل على الإيضاحات اللازمة المتعلقة بالعمل الذي كلف بالقيام به وفقا لاتفاقه مع الأتراك. لكننا نعرف أنه منذ الأيام الأولى من يوليو (1915) طمأن المترددين الذين كانوا يتخوفون ، إن هم ساروا في ركابه ، من أن تنقطع عنهم المعاشات التي يتقاضونها من الإسبان (34) . وحيث إنه أكد لهم بدون أية إيضاحات أخرى أنهم لن يخسروا هذه المعاشات ، فما ذلك إلا لأنه كان ينتظر فيما يبدو الحصول من مصدر آخر على الاعتمادات التي تمكنه من مواصلة دفعها. من جهتهم علم الإسبان في يوليو أن من كان يسير من عملائهم وراء عبد الكريم أصبح الآن منهمكا في نشر نداءات متعددة يحث فيها محمد رشيد الخامس انطلاقا من القسطنطينية القبائل على طرد الفرنسيين من المغرب (35) . أخيرا ، وفي هذه الأثناء بالذات علم الفرنسيون أنفسهم بظهور شخص أصبح يشغلهم في حدود منطقتهم الداخلية ، هو عبد المالك بن محيي الدين .

وعبد المالك هذا هو حفيد عبد القادر ، الزعيم الجزائري المعروف ، الذي دافع في القرن الماضي عن استقلال الجزائر. نشأ بسوريا في الإمبراطورية العثمانية ، عمل على ما قيل في فيلق تركي ، قبل أن يعود في بداية القرن ليحرب حظه في الجزائر في وقت لم يعد قادرا على إقلاق الفرنسيين . من هنا انتقل إلى المغرب وقدم خدماته إلى المتمردين الجليلي الزرهوني وساعده على محاربة مولاي عبد العزيز ، لكنه بعد أن تخلى عن الزرهوني بعد زمن يسير تمكن من الالتحاق بجيش السلطان الذي عينه فيما بعد مفوضا لقوات الأمن التي أنشئت في الموانئ المغربية بمقتضى عقد الجزيرة الخضراء . ظل متقلدا هذه الوظيفة حتى بعد 1912 لكن بالنسبة إلى منطقة طنجة وحدها ، التي بقيت بمقتضى قانون خاص غير خاضعة لنظام الحماية . كان ما يزال يتقلدها عندما اختفى فجأة في مارس 1915 لمدة ثلاثة أشهر . عندما شوهد فيما بعد في المنطقة الأيالة لاسبانيا ، ليظهر ثانية في يوليو وسط القبائل المجاورة لتازة ، فإنه أثار عن حق قلق الفرنسيين . فقد وصل من أجل أن يتزعم ضدهم الكفاح المسلح الذي كان القاضي عبد الكريم يحاول من جهته إقحام الريفيين في غماره (36) .

* * *

سيتبين على كل حال أن الأمر يتعلق بالخصوص بمشروع ألماني مستظل بالراية التركية ؛ لأنه في الوقت الذي حاول عبد المالك الاستقرار في اتجاه تازة ، وجدنا رجلا ألمانيا يدعى فارل (Farle) يعود ثانية إلى مليلية ، وكان معروفا من قبل لأنه عمل قبل الحرب مهندسا في مناجم بني بو يفرور (37) . بعد أن اتصل بالسلي محمد ، ناشده بادئ ذي بدء بإعلان قدومه ومصاحبته إلى والده عبد الكريم بأجدير (38) . لكن من الواضح أنه اغتتم هذه الفرصة ليخبره كذلك بالعروض التي يحملها بغية تسليح وأداء أجور ألفي رجل من الريفيين الذين عليهم أن يضعوا أنفسهم رهن إشارة عبد المالك (39) . هذا بالطبع على أساس أن يكافأ الريف عن مشاركته ، بحيث ان معاهدة الصلح ستحافظ على الأقل على استقلال القبائل التي لم تكن اسبانيا قد أخضعتها بعد (39) مكند) . من الحق أنه لا توجد أية وثيقة تثبت أن الوعد صيغ على هذا النحو من طرف فارل. لكن كيف نفسر بشكل آخر أن محمدا قام بعد بضعة أسابيع ، وسرى هذا ، بإدراج الاحتمال المذكور ضمن المخططات السياسية التي كان ينوي في المستقبل إدخالها في حيز التنفيذ (40) .

عندما استقبل القاضي عبد الكريم بدوره الرجل الألماني ، فإنه لم ينزعج هو الآخر من ظهور هذا الأخير في الجولة كما تم طرحها من قبل. فمئذ أن أحيط علما باستعداداته ، استضافه لدى أحد أقربائه ، المدعو أحمد الحاتمي ، ليملكه هناك على مهل من استقبال الأعيان الرئيسيين من بني ورياغل. وخلال 18 يوما سارت الأمور على هذا النحو إلى الوقت الذي تلقى فيه الحاتمي تحذيرا شخصيا من الشريف بورجيله (41) . أمن بو رجيلة ؟ الأولى بنا القول إن كافيلا في النكور علم بالأمر واستنكره .

* * *

رأينا أن كافيلا كان يضم أشد الشكوك خطورة للأب عبد الكريم ولولده محمد على حد سواء. فإذا بالأب على الأقل يتصرف منذ شهرين وكأنما يريد بنفسه تبرير هذه الشكوك . كان كافيلا إذن يسجل مظاهر تصرفاته غير المتوقعة الواحدة تلو الأخرى ، ويقوم بإبلاغها إلى مليلية عن طريق التلغراف . هنالك أدت في الأخير دقة الشهادات وخطورتها وتراكبها إلى تزكية الارتباب السائد هنالك حول القضية . كان ثمة على الخصوص العنصر الجديد للدعاية التركية التي لم يكن بالإمكان نفيها بالنظر إلى الأدلة التي تم الحصول عليها من رسائل ومنشورات . غير أن الحديث أخذ يجري الآن حتى عن حضور ألماني. وبالنظر إلى أن الجنرال خوردانه رقي إلى مقيم عام ، علينا أن

نلاحظ في الأخير أن خلفه بمليلية ، أيتبورو (Aizpuru) كان لابد وأن ينظر منذ منتصف يونيو 1915) نظرة جديدة وأقل انتقائية إلى مختلف المشاكل التي أحيت عليه. كل هذا دفع في الأخير ركلمي ، رئيس "المكتب المركزي" ، إلى أن يقوم في 3 غشت باستفسار مساعده وصديقه محمد عما يعرفه عن الحركة الموالية للأتراك الملحوظة في الريف.

بمظهر رجل لم يكن هو نفسه ليهتم بالحركة إلا اهتماما عارضا ، فإن السي محند - وكذلك كانوا يسمونه هناك - أدلى بقدر لا يستهان به من المعلومات. كل هذه الضجة في نظره إنما هي إنجاز لمشروع ليس وليد الساعة ، إذ أن مبعوثا تركيا سبق له منذ تسعة شهور أو عشرة أن قدم لاطلاع والده عليه. والأمر يتعلق بخصوص الريف بالرمي بالريفيين في اتجاه الجنوب ضد المواقع الفرنسية ، وذلك في إطار خطة شاملة تستهدف إثارة الثورات ضد فرنسا وانجلترا في مستعمراتهما المأهولة بالمسلمين. لأجل هذه الغاية انتدب زعيم يدعى عبد المالك تقديرا لسوابق كان محمد على علم بها. في ذلك الوقت كان يحوم في نواحي تازة بمساعدة أتراك أو حتى بمستشارين ألمان حسب بعض الإشاعات .

كانت لهجة محمد ترمي إلى الإيهام بأنه لم يشارك لحد الآن في هذه الحركة ، لا هو ولا والده. لكن ليس في الوسع القول إن الأمر سيبقى على ما هو عليه في المستقبل. إذ كمغاربة أختيار - وعندئذ ثارت حمية محمد - كيف نضيع هذه الفرصة لخلع النير الفرنسي ؟ زد على ذلك أنه إذا لم يشارك في الحركة إلا أولئك الذين ييغضون الإسبان من بين الريفيين ، فبإمكانهم أن يعملوا على مهل على قلبها ضدهم (42) .

حاول إذن محمد بعد أن أرغم على الكلام ، وبدون أن ينكر مع ذلك أي شيء ، إبقاء الشك حول دوره الفعلي ودور والده . وحيث إنه كان متيقنا من كون الحقيقة ستتكشف في نهاية الأمر ، فإنه أحاطها مقدما بالحيثيات التي من شأنها وحدها أن تجعلها مستساغة .

بالفعل فإن غاية ما كان يريده العقيد ركلمي على ما يظهر هو دفعه إلى الاقتناع . من الممكن بحكم الصداقة ، لكن بالخصوص بحكم العوامل السياسية . في الحقيقة أنه لم يكن مستاء من احتمال حدوث انحراف قمين بإزاحة العبء عن الإسبان وإلقائه على الفرنسيين الذين كانوا في نظره ، لا شركاء ، وإنما منافسين محظوظين بشكل وقح. فإذا اضطر حقا في سياق تقريره إلى أن يظهر دور القاضي عبد الكريم كبور أكيد في هذه القضية ، فإنه تغافل ببساطة عن أن يورط أيضا ولده الذي كان على بينة بالأمر

منذ عدة شهور وملتزم مع ذلك حول كل شيء بصمت حقيقي يبعث على الحيرة. عندما تسأل بالمقابل عن الموقف الذي ينبغي أن تتخذه بلاده كقولة محايدة ، فإنه لم ير ، حسب قوله ، بأية صفة قد تقوم اسبانيا بمنع تركيا من محاربة فرنسا والتضييق على خصمها انطلاقا من المناطق التي بقيت غير محتلة إلى اليوم. أما إذا ما فكرت على الرغم من ذلك في اتخاذ هذا الموقف ، فينبغي أن تعرف حق المعرفة أن المشروع سيكون محفوقا بالمخاطر. إذ ما لم تستقطب صفوف الحركة أصدقاء مخلصين ، قادرين على فرض هيبتهم ، فإن كل ما سيتم الحصول عليه لن يسفر ، حسب تعبيره ، إلا عن "اجتذاب هذا المد الثوري ضدنا بما ينطوي عليه ذلك من فائدة جمة بالنسبة إلى نشاط الفرنسيين ومضرة كبيرة بالنسبة إلى نشاطنا" (43) .

وجملة القول إما البقاء مكتوف اليدين - وهذا أنسب - وإما المجازفة بوضع حد للحركة. كان من الواضح في كلا الحالتين ، وعلى الرغم من عدم الإفصاح عن ذلك ، أن حضور القاضي عبد الكريم في الحركة المشجوبة حضور مجد إن لم يكن ضروريا . أخيرا ، وبالنظر إلى أن القرار كان يستوجب مزيدا من المعلومات ، فإن العقيد ركلمي ختم تقريره برغبة أفصح عنها محمد الذي رشح نفسه للقيام بتحقيق دقيق في قبيلته خلال إجازته الرمضانية الوشيكة (44) . وهكذا فقد أفضت جدلية ركلمي نوعا ما إلى إعطاء القاضي عبد الكريم وكذلك إلى السي محند ورقة بيضاء ليراقبا سرا ولصالح اسبانيا الحركة المضادة للفرنسيين التي أوحى بها الأتراك .

* * *

كان الاقتراح واضحا للغاية. إلا أنه وصل متأخرا قليلا. إذ أن خيارا مخالفا كان قد تبلور من يومئذ على الصعيد الذي تتخذ فيه القرارات. فإن الخطر المباشر ، كما تم إدراكه على هذا المستوى ، هو رؤية الأتراك يحصلون على ولاء الريفين بما ينتج عن ذلك من انهيار المؤهلات الإسبانية. وإذا كان ينبغي اتخاذ تدابير معجلة لتفادي الضرر ، فإن الوسيلة الوحيدة إذن هي فرض الحفاظ على الحياد بكيفية صارمة. تلك هي أحسن وسيلة في نفس الوقت لتحافظ اسبانيا أيضا على حظوظها بالنسبة إلى المستقبل. لقد كانت تمارس منذ عقد الجزيرة الخضراء مهمة كلفتها بها وقتذاك الدول الأوروبية بدون تمييز ، تلك الدول التي دخلت فيما بعد في الحرب فيما بينها. لن يكون إذن بوسع برلين في حالة انتصار ألمانيا ألا تسامح الإسبان إن هم لم يرتضوا خيانة المأمورية التي تسلموها من أوروبا جمعاء. أما إذا ما انتصر الحلفاء ، فلا يوجد ما هو أخطر من إتاحة الفرصة لفرنسا لتلتصق باسبانيا هذه الخيانة بذاتها.

كانت هذه هي القناعات التي جاء مزودا بها مفوض اسباني ، هو الجنرال اندافي (Indave) الذي تم إيفاده إلى مليلية ليصلح ما اعتور الحالة من فساد .

بعد وصوله في 6 غشت ، كتب منذ اليوم التالي رسالة إلى القاضي عبد الكريم بخط يد والده محمد ، وهي رسالة يظهر بجلاء أنها مملاة ، ومعبرة في تفصيلها عن موقف اسبانيا الرسمي . تطالعنا في خاتمتها الأوامر التالية :

"من الضروري إذن ، لأن هذا أمر يوجهه إليك الجنرال ، أن تمتنع عن مساندة أي عمل سواء لفائدة تركيا أو لفائدة أية دولة أخرى . عليك بالعكس أن تناهضه بكل ما أوتيت من قوة ، وأن تحث أصحابك على أن يفعلوا نفس الشيء ، مكرسا نفسك بثبات وإصرار وبدون تقصير للقضية الوحيدة التي هي القضية الشرعية في المنطقة المحددة للحماية الإسبانية ، ألا وهي قضية اسبانيا . هذا ما ينتظره منا الجنرال" (45) .

نرى من خلال الجملة الأخيرة أن محمدا يوجد هو الآخر مع والده ، وبشكل عرضي ، طرفا معنيا بالشجب والتحذير العام . معنى هذا أن الدوائر العليا لم تعد من يومئذ وديعة حياله بنفس ما كان عليه رئيسه المباشر العقيد ركلي . أما بالنسبة إلى والده ، فلا يفوتنا أن نلاحظ الصرامة شبه الجافة التي اتسمت بها اللهجة المستعملة معه والتي تنم عن فارق أكيد بين الاستعلام الإسباني والحالة الحقيقية . فإن القاضي عبد الكريم لم يعد بتاتا ما كان عليه بالأمس مجرد منفذ يكفي توبيخه . لقد عرف منذ أربع سنوات خلت ، وبعد أن تمرس أولا بمزاولة اللعب على الحبلين ، عرف كيف يجعل نفسه صعب المنال بعض الشيء . وعلى الخصوص فإن هذا اللعب على الحبلين كان يدل في حد ذاته على المقاومة المتصاعدة التي يصطدم بها المشروع الإسباني بين القبائل ، وعلى أن الوسائل الموظفة من أجل التغلب عليها أخنى عليها الزمان تدريجيا . وفيما عدا بعض الاستثناءات القليلة ، ومنها العقيد ركلي ، فإن الإسبان لم يدركوا هذا التطور الرئيسي . لذا لم يروا في السلوك الراهن للقاضي عبد الكريم سوى هفوة ، بينما كان يستجيب لحاجة لا يمكن كبجها .

ماذا نقول حينئذ عن هذه الحقيقة ، وهي أن القاضي عبد الكريم لم يعد في الساعة الراهنة مهتما ، وهويساند الأتراك ، بمحاولة استرجاع شهرته المفقودة ؟ ذلك أن اتصالاته بالألماني فارل ، مع ما فتحتة من أفاق جديدة ، بعثت في نفسه وطنيته القديمة التي كانت ما تزال كامنة في أعماقه . فيما أن ألمانيا قدمت نفسها للمحافظة على استقلال الريف ، فإن الحرب ضد فرنسا لم تعد مشروعا تضليلا لأنها ستساعد حقا ،

وبفضل النصر الألماني ، على إيجاد الظروف الكفيلة بجعل إنجاز الوعد أمرا ممكنا . وإذا لم تعد إرادة الاستقلال لدى الريفيين ضربا من الخيال ، فإنه لم يعد بالإمكان الاقتصاد ، كما جرى لحد الآن ، على مداراتها للعمل أكثر على تضليلها . كان من اللازم إنقاذها تمهيدا للهزيمة الفرنسية التي لا بد منها ، ولكن تمهيدا أيضا ، وفي غضون ذلك ، لتوجيه ضربة قاسية للزحف الإسباني في الريف .

لم يكن من شأن هذا التحول الجديد الذي لم يتكهن به أحد بعد في مليلية إلا أن يقود إلى القطيعة مع اسبانيا . بيد أن القاضي عبد الكريم ما كان ليكشف عن نواياه ، ويقطع علاقاته من تلقاء نفسه ، إما دهاء منه أو لعدم توفره على الضمانات الكافية ، وهذا في الوقت الذي كان فيه ولداه ما يزالان بين يدي خصمه المقبل . لذلك رد بجواب معتدل على الأوامر التي نقلت إليه . فيما أن سيادة الجنرال طلب منه البقاء في الحياض ، فإنه وعد بالامتناع عن كل تدخل مباشر مكشوف في الحملة التي يساندها الأتراك . بيد أنه لم يجد منوحة عن القول ، وبصراحة ، إنه قد لا يتمكن من التنصل منها تماما : أولا ، لحاجته هو نفسه إلى تطبيع علاقاته مع رجال قبيلته . وثانيا ، لاقتناعه بأنه يخدم في الحقيقة اسبانيا بحمايتها من عواقب هذه الهيجان الذي ألى على نفسه أن يبقيه موجها ضد فرنسا (46) . وهكذا ويمزجه بلباقة بين روح التمرد وإرادة الخضوع فإنه كان في أرجح الظن يأمل في كسب الوقت . إذ أن تمرده نفسه الذي أظهره كنتيجة لصداقته الخالصة كان يتوخى إحداث التأثير أكثر من إثارة القلق . كان يفسح مجال الأمل لبلوغ الهدف عن طريق الصبر والحجج المعقولة . وهذا ما قد يفضي به إلى غاية شهر الصيام ، حيث يمكن أن يلتحق به ولداه بمناسبة إجازتهما ، وحينئذ سيكون في مقدوره مع ولده الأكبر أن يقرر بحرية ما يتعين عليه أن يسلك من طريق .

لكن ما غاب عن باله هو أن الإسبان في مليلية كانوا ينوون من يومئذ عدم تمكين ولديه من الفرار تحت غطاء إجازتهما وأن القرار بذلك سرعان ما اتخذ بالفعل (47) . كما أنه لم يأخذ في الحساب أن المواجهة التي كانت محصورة بينه وبين مليلية ستتسع بالتدخل المفاجئ للمتباري الإضافي الحاد الطبع الذي سيمثله كافيلان انطلاقا من النكور .

من المؤكد أن كافيلان لم يكن يعرف شيئا هو الآخر عن كل النوايا الأخيرة التي أضمرها عبد الكريم وولده محمد ، تلك النوايا التي ستقودهما ، للمرة الأخيرة ، وبعد سنوات طويلة من التعاون الذي ظل صادقا دائما حتى بعد تلاشي الحماس ، إلى الوقوف بالمرصاد في الطريق الذي حددته اسبانيا لنفسها . إلا أنه (كافيلان) كان قد جعل

منذ مدة طويلة من قضية هذين الرجلين قضية شخصية. كانت عداوته لهما تحته على ألا يرى في اللعب على الحبلين الذي تعين عليهما نهجه إلا ما يظهر عداهما لبلاده. والحال أنه لاحظ بالخصوص في هذه الأشهر الأخيرة تجدد نفوذهما فجأة وسط المقاومين. وبعيدا عن أن يرتقي إلى بعد نظر العقيد ركلمي ، فإنه لم يدرك إمكانية إبعاد الحريق عن طريق تأجيج النار. من هنا الذعر الذي أوقعه فيه تدخل الأتراك الذي أخذ فوق ذلك زمام الموقف كله من يده. وهو ذعر تضاعف بعد ظهور مبعوث ألماني في الريف. ناهيك بأن القاضي عبد الكريم نفسه هو الذي استضاف هذا المبعوث وشمله برعايته (48) . كيف يبقى مجال للشك في المؤامرة ، في أبعادها ، في تمحورها حول القاضي عبد الكريم الذي كان ولده محمد يحميه ويواصل مهمته إلى آخر لحظة في قلب "المكتب المركزي" ، أو قل في دماغ الاستعلام الإسباني ؟ فإذا لم يؤخذ محمد كرهينة قبل التحاقه بالثورة ، وإذا تمكن في الوقت الذي يريد من قطع علاقاته بمليلية ، فإن الكل سيصبح في حصن حصين. ذلك ما كان يخشاه كافيليا قبل كل شيء. وقد عبر عنه منذ فاتح يوليوز (1915) بهذه العبارات : "تؤكد لي معلومات جديرة بالثقة أن الفقيه عبد الكريم ينتظر قدوم ولده محمد قاضي مليلية ، لكي يعمل هذا الأخير علانية ضد اسبانيا. لأنه لن يعود مطلقا إلى مليلية. وقد أظهروا لي الخطر الذي يمثله قدوم السي محمد إلى بني ورياغل بمثل هذه النوايا نظرا للنفوذ الذي اكتسبه وسط المتعصبين" (49) .

كان كافيليا يجهل أن تحذيره سيكون له مفعوله هذه المرة على الأقل. لذلك بقي متيقظا. فقد انصرم شهر يوليوز حاملا مجموعة جديدة من الشهادات عن دسائس الوالد دون أن يظهر بعد أي رد فعل وسط الدوائر العليا . وها هو ذا شهر غشت قد بدأ متطابقا مع شهر رمضان . معنى هذا أن الابن بعد أسبوع أو أسبوعين ، وعلى أية حال قبل العيد ، سيأخذ بكل بساطة إجازته العادية ، اللهم إلا إذا اتخذت اجراءات فورية . ومنذئذ سيصبح في مأمن مثل والده . ولن يعود بالإمكان مطلقا رتق الفتق. ينبغي إذن العمل دون اضاءة مزيد من الوقت . تلك هي الغاية من المهمة التي سيتولى القيام بها في مليلية النقيب سست (Sist) .

منذ وصوله من التكرور حيث كان يشغل منصب رئيس للاستخبارات ، سارع سست زوال يوم 15 غشت إلى بيت محمد ، وأخذ بتلايبه ، ممطرا إياه بالأسئلة والتلميحات ليخلص منها إلى الاتهامات الصريحة . وعلى ما يظهر فإن محمدا الذي اعترته الدهشة وفقد برودة دمه ، أظهر حيال الاستفزاز كل ما هو قادر عليه : كل ما يعرفه سست ، ولكن أشياء أخرى تتجاوز بكثير شكوكه (50) . وهو ما صاغه سست في تقرير وجهه مباشرة إلى الجنرال ايشورو . نقرأ في هذا التقرير الكلمات التالية .

«إن الضابط الموقع أسفله ، أجرى .. مقابلة مع القاضي السي محند من "المكتب المركزي" ، والتقط من لسانه الكلمات التالية .

(1) إنه ييغض الفرنسيين ، ويسعى بالتالي إلى محاربتهم بجميع الوسائل التي هي في متناول يده .

(2) إنه يحلم بعظمة الأمة الاسلامية ويتمنى من أعماق قلبه استقلال الأقاليم الريفية التي ما تزال غير محتلة .

(3) إنه يمكن بالتأكيد مع نهاية الصراع الأوربي الحالي إدخال تعديلات على المنطقة وشكليات الحماية الاسبانية : فالمنطقة ستصبح محدودة وستقتصر الحماية على الأقاليم المحتلة لحد الآن .

(4) إن حزب " تركيا الفتاة " يبذل جهده لاثارة كل العالم الاسلامي ضد الحلفاء .
(5) الانتفاضة تعني إعلان الحرب المقدسة ضد جميع أولئك الذين يحاولون اضطهاد الاسلام .

(6) إن والده ، الفقيه السي عبد الكريم ، وهو نفسه ، انضموا إلى الفكرة تحمسا لها وجعلوا من نفسيهما بطلين لها ، ولا شيء يمكن حملهما على التخلي عن عزمهما .

(7) إن المهمة الأولى التي يجب إنجازها تتمثل في تعيين حكومة في المنطقة غير المحتلة يكون بإمكانها التفاوض مع اسبانيا بمجرد تشكيلها .

(8) إن النتيجة الأولى للعمل الذي سيقوم به مع والده هي فرض مساهمة حربية على بني ورياغل وسائر القبائل .

(9) ثم سيتم إنشاء جيش قصد توجيهه ضد فرنسا دون أن ينطوي هذا على أي

تهديد لاسبانيا . من الحق أن قوة كبيرة من الحرس ستمركز في كرت . إلا أنها لن تقوم بأية مباردة مناوئة ما دامت قواتنا تُمسك عن الزحف . إنها لن تقف إلا ضد هذا الزحف على أمل أن تعترف إحدى المعاهدات الموقعة بعد استئجاب السلم في أوروبا باستقلال الريف غير المحتل .

(10) إن والده لن تطأ له قدم مطلقا شبه جزيرة الحسيمة (النكور) ، كما أنه لن يقدم أبدا إلى مليلية لزيارة سيادتكم .

(11) إنه يعتبر هو نفسه أن الاحتلال سيكون بمثابة ضربة قاتلة بالنسبة لبني ورياغل . وسينتصب ضده .

(12) على اسبانيا أن تكفي بالأرض المحتلة وتتخلى عن الباقي " (51) .

كان لهذه الكلمات طنين مخالف تماما للاعترافات الحذرة المحصل عليها لحد الآن . فهي تبين أولا أن محمدا كان شريكا لوالده على طول الخط . وتظهر ثانيا مدى تورط الوالد بما لا يرقى إليه شك . حيث انه كان منهما من يومئذ في جمع المقاتلين . فحتى لو جاز الافتراض ، انسياقا مع مزاعمه ، أنه لن يوجه هؤلاء المقاتلين إلا ضد الفرنسيين . فإنه لن يتيسر له جمعهم إلا بوضعه حدا في القبائل للانشقاقات ، هذه الانشقاقات التي تقوم مهمته بالذات على التحريض عليها . وكان سست ، الذي أحس طبعا باختفاء هذه الصراعات الداخلية التي تمزق شمل القبائل " . يتخوف بالذات من الخطر الدائم " الذي سيتخضض عن ذلك " في صورة أعمال حربية ضد اسبانيا (52) .

لكن ما الفائدة على كل حال من طرح هذه الأسئلة ؟ إذ أن الأمر لم يعد يتعلق بتقدير ما يمكن أن يسفر عنه المشروع المدبر ضد فرنسا من انعكاسات داخل منطقة النفوذ الاسباني . ألم يصرح محمد ووالده بأنهما سيأخذان على عاتقهما قضية الريف الذي ما يزال مستقلا ؟ صحيح أنهما لن يضعوا موضع جدال الحضور الاسباني داخل القبائل التي سبق إخضاعها . لكن إذا كانت خطتهما هي الوقوف ضد مواصلة الغزو المنصوص عليه من طرف الحماية ، فهذا لأنهما على الرغم من تأكيداتهما لن يلبثا أن يوجها ضرباتهما في البداية إلى اسبانيا . كيف لا يمكن إذن الموافقة على توصيات سست الذي طالب مندوبا ب " الموقف الخطر لعائلة الفقيه عبد الكريم " باتخاذ إجراءات من أجل وضع حد ، للمرة الأخيرة ، للنشاط الهدام الذي تقوم به هذه الأسرة " (53) .

مهما يكن فقد اعتبرت القضية خطرة ، إذ أن ايتبوررو أحالها فورا إلى خوردهانه - المقيم العام - الذي قام من جانبه بتحذير وزارة الدولة بمدريد . ما من شك في أنه

كان من اللائق تحييص أقوال سست المعروف عنه مشاطرته كافيلا بغضه لعبد الكريم وولده . لكن كان من اللازم بالنظر إلى خطورة التهم اتخاذ إجراءات احتياطية بونما ابطاء . وإن رفض منح الاجازة لمحمد ولأخيه لواحد من هذه الإجراءات الذي سبق اتخاذه . لكن كم هو مجد الإجراء المتعلق بإلقاء القبض على القاضي عبد الكريم نفسه والذي تم التفكير بالفعل بالقيام به في 24 غشت بمناسبة زيارة الجنرال أيبورو إلى النكور . فإذا قدم من بين " أصدقاء اسبانيا " القاضي عبد الكريم للسلام على الزائر جريا على العادة ، فإن التعليمات التي أعطيت لأيبورو هي القبض عليه والمجنى به إلى مليلية (54) . إلا أن عبد الكريم الذي خامره الشعور بوجود الفخ لم يوجه تحياته إلا عن طريق الغير . إذ أنه لم يكن ليقبل ، كما أسر بذلك ، بأن يعتقل بدون سبب مثل ولده (55)

سيؤدي إخفاق هذا السعي إلى وضع معقد لن يتراشق فيه الطرفان مع ذلك إلا في حدود معينة . كان الاسبان يرون في محمد ضمانا تفوق التقدير . إلا أن الفائدة الوحيدة التي كانوا يسعون إلى جنيها منه هو وضع حد لنفور الأب لكي ترجع العلاقات إلى سالف عهدا . كان عليهم إذن أن يتجنبوا بخصوصه ما من شأنه أن يصل بالأمور إلى مرحلة يتعذر معها رتق الفتق . أما بخصوص الأب عبد الكريم ، فقد أصبح شغله الشاغل هو التوصل إلى تحرير ولده . وليتسنى له مفاوضة الاسبان في الأمر ، كان عليه بحق إزعاجهم أكثر من أي وقت مضى بتهديدتهم بتوجيه أقسى الضربات لهم باستمرار ، لكن دون أن يتجاوز هو الآخر نقطة اللا رجعة . إنه بالاختصار امتحان القوي . لكن مع رغبة كل طرف في التوصل إلى اتفاق .

* * *

على هذه الوتيرة جرت الأمور طيلة سنة تقريبا .

كان من اللازم أن يقوم الجانب الاسباني بداء بتحقيق في قضية محمد . في البداية استدعى العقيد ركلي صديقه للإدلاء بروايته عن الحديث الذي دار بينه وبين سست . فآقر له محمد بأنه في غمرة احتداد الغضب الذي أوقعته فيه اتهامات سست أظهر استياءه من الجحود الذي قولبت به خدمات عائلته بعد سنوات عديدة تعرضت فيها لشتى الخطوب . فإذا كانت اسبانيا تكافئ على هذا النحو أصدقاءها الأكثر اخلاصا ، فماذا تهينه لأولئك الذين كان من الممكن أن يحاربوها إلى النهاية بأعداد وافرة ؟ كيف لا يتخوف على الريفيين من فقدان استقلالهم ؟ من الحق أن هذه الكلمات كانت فلتات لسان ، لكنها لم تنزلق إلا بتأثير الغضب لأنها لا تتمشى مع اعتقاداته . فلئن كان

يتحسر كسائر المغاربة على خضوع بلاده للمسيحيين ، فإنه يدرك بكل أسف أن هذا هو الأمر المحتوم الذي لا مفر منه في المستقبل . وبما أنه يتعين في كل الاحوال الخضوع لسيد أجنبي ، فإنه يفضل اسبانيا ولن يخونها أبدا . صحيح أنه تحدث إلى سست عن حكومة مستقلة في الريف أو اللجوء إلى مساهمة حربية . إلا أن الأمر يتعلق بمجرد أفكار كانت تناقش بالفعل بين القبائل ولا ضلع له ولا لوالده في الأمر . وجملة القول ، فقد أبدى تكذيبا قاطعا (56) .

من كان بوسعه ، باستثناء العقيد ركلي ، أن يؤمن بمثل هذا التكذيب ؟ سيما وأن محمدا بدا ضعيف الذاكرة بشكل غريب . فأن تكون قد أثرت مثلا مسألة " تركيا الفتاة " فذلك ما لا يتذكره . إنه ينكر على كل حال . ومن ثم وجه خوردهانه من تطوان أوامره إلى الجنرال أيتورو باستقدام سست مرة أخرى إلى مليلية ومواجهة الرجلين . هذا وقد اعتبرت نتيجة المواجهة في غير صالح محمد كما يثبت ذلك التقرير الذي وجهه إلى مدريد المقيم العام خوردهانه والذي نقرأ فيه :

"بالفعل ، ظهر جليا أن (السي محند) يكن لألمانيا عطفًا عميقا وفرنسا حقدا متأصلا . وحيث إن دسائس والده عبد الكريم لا تقف بكل أسف عند البوح بهذا التعاطف ، ولا عند العمل في حدود ما يوحي به هذا الحقد ، بل تستهدف أيضا مسائل تعينا كثيرا ، مثل تحقيق الاستقلال في المستقبل لكل الريف الذي ما يزال إلى اليوم غير محتل من طرف اسبانيا ، فإنه لا مجال للشك في أن الابن شريك في كل هذه الدسائس ولو أنه ما يزال في غير المستطاع القول إلى أي حد ، وتتأكد بذلك صحة تصريحات النقيب سست . إن الموقف المتكلف للسي محند ، الذي كان متضايقا خلال المواجهة ، اللهم إلا عندما كان يعبر عن عواطفه المتحمسة التي يكنها لألمانيا أو عن عداوته لفرنسا ، لا ينطلق إلا من تخوفه من أن تتأكد أيضا المسائل المتعلقة بنشاطه الهادف إلى المحافظة على استقلال الريف ، وهي مسائل تهم اسبانيا ، لا الدولتين المذكورتين وتشكل ذبلا للمخططات المضادة لفرنسا التي يحضرها سيدي عبد الكريم وأصحابه " (57) .

الخلاصة التي استخلصها خوردهانه من كل هذا هي استحالة السماح لمحمد بالاستمرار في وظائفه أو المحافظة على حريته . من ثم قرر إقالته ، واتهامه بالخيانة العظمى ووضعه في معقل في انتظار محاكمته ، وهذا مع كمال الاعتبار الذي يليق بمقامه (58) . في هذا الصدد . وجه في 6 شتنبر (1915) أوامره عن طريق التلغراف إلى مليلية مبينا ضرورة اخبار حاكم الحسيمة (النكور) ليتم بذلك ارغام القاضي عبد الكريم

نفسه على العودة إلى جادة الصواب (59) . في نفس هذا اليوم تم اعتقال السي محمد ، وكان العقيد ركلمي نفسه هو الذي كلف بتنفيذ العملية " رغم صداقته الحميمة " (60) . مما كان شجبا مذلا للثقة العمياء التي أظهرها حيال المتهم حتى النهاية .

كما نرى ، فإن السبب الحقيقي في سوء بخت محمد يكمن فيما نسب إليه وإلى والده على حد سواء من إرادة الوقوف منذئذ ضد الزحف الاسباني في الريف . إنه سبب مرتبط بالسياسة الداخلية لاسبانيا ولا علاقة له البتة بالمطالب المزعومة التي تكون الرباط قد تقدمت بها وفق ما تقوله أسطورة اختلقت مؤخرا (61) . الحقيقة أن ليوطي كان يجهل في هذا الوقت كل شيء عن محمد ، وسيظل فوق ذلك على غير علم بأمر اعتقاله (62) .

من المؤكد أن الإجراء كان قمينا بأن يوافق هوى الفرنسيين شريطة تزكيته بالمبررات المناسبة . وقد بادرت مدريد إلى الاستظهار به أمام فرنسا متحاشية مع ذلك الإشارة بالاسم إلى المعنى بالأمر (63) . بيد أن تلك طريقة لإصابة عصفورين بحجرة واحدة . إن هذا لا يعني بالمقابل أنه يتوجب علينا تصديق احتجاجات ليوطي المتعلقة بتعاطف الاسبانيين بل وبتواطئهم مع النشاط المضاد للفرنسيين في الريف (64) . إن الأمر بخلاف ذلك بكثير . فبعد مرور عشرة أيام على اعتقال السي محمد ، قام خوردا نه خلال زيارة له إلى الرباط بتقديم التأكيد التالي لليوطي :

" سأبذل كل طاقتي لمنع عناصر المنطقة التي تمارس فيها اسبانيا حمايتها من أحداث أدنى اضطراب في السبيل المتبع من طرف فخامتكم " (65) .

إن الموقف المتخذ لحد الآن حيال القاضي عبد الكريم ليظهر لنا أن هذه الكلمات ما هي إلا تعبير صادق عن ممارسة فعلية حددت بكامل الحرية . وكل ما سيطراً من أحداث فيما بعد سيؤكد ذلك كما سنرى .

* * *

لقد فوجئ القاضي عبد الكريم وولده محمد وتأثرا وتأثرا واضحا من جراء حدة وتساوة رد الفعل الاسباني ، مع العلم أن الأول ظل متمتعا بحريته في أجدير بينما أصبح الثاني معتقلا بإحدى القلاع التي تحمي مليبية (Cabrerizas altas) . وكان الأب منذ أن علم بمدى الغضب الذي استولى على أيثورو بسبب تهريبه من ملاقاته يوم زيارته التفقدية لقاعدة النكور قد رأى من المناسب توجيه رسالة إلى الجنرال للاعتذار وطلب العفو . وهي رسالة مرتبكة لم يكن بالوسع الإفصاح فيها عن كل شيء ، كما لم يكن

مسموحا فيها حتى فيما يخص العموميات إلا بالتلميحات .

فعندما حاول صاحبها مثلا تبرير تغييه ، فإنه تعلل بـ " الحسد ، والتعصب ، والجور والجهل " الذي يسود وسط القوم الذين يعيش بينهم ، وكتب يقول : " يلزم هناك كثير من المراوغة والدماء ، وكثير من الدعم ، لكي يحمي المرء نفسه ومتاعه ويصون شرف أسرته " (66) . فكيف كان في مقدوره القول : إن "التعصب والجور " إنما هما الحماية الوطنية وإنه هو نفسه استسلم أمام مدّ المقاومة المتصاعد بعد أن عجز عن الوقوف ضده ؟

والحال أن ذلك ما كان عليه حقا أن يحاول توضيحه ويطلب الصفح عنه . ولئن ذكر في هذا الصدد بخدماته الجليلة الماضية ، فإنه لم يشر مع ذلك بما يوحي بأنه سيقدم خدمات أخرى في المستقبل . والالتزام الوحيد الذي التزم به ، سواء بالنسبة إليه أو إلى ولده محمد ، هو عدم الانقلاب أبدا ضد اسبانيا : " إن الخيانة ليست من شيمتنا ولا من عادتنا . وعندما جئنا نحوكم ، فإن ذلك لم يكن تصرفا يكافأ عنه مكافأة مالية . إننا لم نحاول خيانة بلادنا ولا ديننا . وإن الظروف هي التي اقتضت الأمر وقتذاك " . وهذا نوع من التلميح إلى أن الظروف تغيرت اليوم .

ويقول المؤلف في الختام : " لكن مهما رأيتمونا نسلك من طريق ، فإن ذلك سيكون في مصلحتنا ومصلحتكم في آن واحد ، أو على الأقل في مصلحتنا دون الاجحاف بكم " (67) .

لم تكن هذه الكلمات - وهيئات ذلك - لتعمل على تسكين الغضب الاسباني . إلا أن طلب العفو ، والرغبة المتكررة في إبقاء روابط الصداقة القديمة في حالة سالمة ، بل والحاجة إلى توضيح موقفه وتبرئة نفسه ، كل هذا يبين إلى أي حد كان القاضي منزعا منذ ذلك الحين لمجرد الغضب الاسبانية . فندرك إذن حيرته عندما وافاه الخبر الصاعق المتعلق بالزج بولده في السجن والتهمة العظيمة التي عليه أن يتحمل مسؤوليتها . وقد كتب في الحين إلى الجنرال أيثورو قائلا :

"خلال مناسبتين سلمتك ولدي كرهينتين لتتمكن من النزول بساحل قبيلتي . لقد أحرق بيتي ، وأديت الغرامات ، ووجدت نفسي مضطرا إلى الهروب بعيدا مع كافة أسرتي ، كما احتقرت علنا ، وطردت من جميع القبائل . وسلبت بلا موجب من نتاج أرضي ، وحرمت من حق استيفاء ديوني ، وهذا دون اعتبار أعمال أخرى باعثها الحقد كذلك " . ذلك هو الجزء الذي هيأته له اسبانيا الآن . ويضيف معترفا : " لا يمكن لي

نفي مشاركتي في الأحداث الراهنة ، لكنني لم أكن أعلم أن ذلك سيلحق ضررا بكم ' (68).

إن اللهجة المريرة ، الشاكية ، المشوبة بمسحة من الندامة ، أظهرت للأسبان أن ضربتهم أصابت أهدافها كاملة . ودفعتهم بالتالي إلى الاكتفاء بالخطة التي رسموها . وهكذا فإن أيشبورو لم يتفضل حتى بالإجابة . أما بالنسبة إلى المقيم العام خودانه ، فقد ترك المبعوث الذي أوفده ' صديقه الحميم ' عبد الكريم حتى إلى تطوان ، ينتظر أمام بابه مدة شهر بدون جدوى (69) .

* * *

بالنسبة إلى محمد هو الآخر ، شكل الحادث صدمة قاسية . إن أهميته الذاتية ، وصدقاته ، ونفوذه على الصعيد المحلي ، كل ذلك كان قد أثمله وأوهمه بأنه رجل له وزنه في حد ذاته . فإذا بجدران سجنه تذكره فجأة بأن وضعيته ، وحرية ، وحتى حياته ، متوقفة في نهاية المطاف على حسن إرادة الاسبان . على أنه لم يكن يختزن لهم أي بغض . على العكس كان يعني النفس ، وسيمنيها كذلك لمدة طويلة ، بهذا الأمل الساذج وهو أن مشاريعه يمكن أن تتحقق في ظل الوفاق عن طريق تعزيز عرى الصداقة القديمة . كل هذا دفعه عبر مزيج من الندامة والغيبض الحقيقي إلى أن يدافع عن نفسه ضد تهمة الخيانة . هل يمكن لبضع كلمات انزلقت في نوبة غضب خلال محادثة خصوصية أن تمحو تلك الخدمات الجمة الحقيقية المتراكمة منذ عدة سنوات ؟ أو بالأحرى هل عليه أن يعاقب بسبب هذه الخدمات نفسها حيث إنها هي التي أثارت قلق حاكم الحسيمة الذي ظهر الآن المدير الحقيقي للمكيدة وراء سست ؟ مهما كان الأمر فإنه كان على استعداد ، كما أخبر الجنرال أيشبورو ، لتقويض التهمة الملتصقة به من أساسها عن طريق دعوة والده إلى الكف عن كل عمل سياسي سواء في هذا الاتجاه أو ذاك ، وأن ينزوي ليعيش عيشة خاصة في مليلية أو في تطوان أو في أي مكان يعين له (70) .

نتذكر أن الأب لما وعد الاسبان بعدم الوقوف ضد مصالحهم ، كان قد أومأ مع ذلك إلى أنه لن يتخلى عن خوض الكفاح المسلح ضد فرنسا تحت رعاية الألمان أو الترك . فإذا به مهياً الآن لهذا التخلي طالما أنه سيحتجب نهائياً عن الحياة السياسية كما وعد ولده باقتناعه بذلك . إنه تنازل هام من شأنه أن يطمئن الاسبان سواء فيما يخص أمر الحياد في الصراع العالمي أو فيما يخص المشاريع الحقيقية أو المفترضة للقاضي عبد الكريم والمتعلقة بوقفه في سبيلهم . لكن بالرغم من كونه مطمئناً فإنه لم يكن ليرضيه .

فلئن كانوا ينتظرون من عميلهم التخلي عن كل نشاط مستقل ، وأكثر من ذلك عن كل نشاط معاد ، فإن هذا لا يعني إحالته على المعاش . كانوا في حاجة كبيرة إليه . ورغم نفوره الذي بات واضحا منذئذ ، فإنهم كانوا يؤملون لا أقل ولا أكثر أن يحملوه على استئناف خدمته معهم . أما عروض محمد المخيبة لهذا الأمل فلم تؤخذ بعين الاعتبار ، ولم توقف أو تعرقل التحقيق في القضية .

هوامش

- (1) "تجري إشاعات مفادها أن ولد عبد الكريم كتب لوالده مصرحاً له بأن الألمان هم الذين يحققون النصر في الحرب". برقية من الصيمة (التنكرد) إلى مليلية بتاريخ 18 غشت 1914 (S.H.M.I, 7, 37)
- (2) "لك أن الفرنسيين تخلوا عن تازة ومواقع أخرى". برقية من الصيمة (التنكرد) إلى مليلية بتاريخ 21 غشت 1914 تتعلق برواية الأخبار الرائجة بين القبائل (S.H.M.I, 7, 42)
- (3) رسالة بالعربية من محمد بن عبد الكريم إلى العميد خرومي بريتا (Jose Barbeta) بتاريخ 29 غشت 1914 (S.H.M.II, 2)
- رسالة غير مفهرسة في الملف الفرعي، ولكنها مسجلة تحت رقم 897 عند وصولها إلى مكتب مليلية (Subinspección de tropas y Asuntos indígenas)
- انظر كذلك برقية من الصيمة إلى مليلية بتاريخ 18 غشت 1914 المشار إليها في الهامش 1.
- (4) نفس المصدر الوارد في الهامش 2.
- (5) "إن سيدي عبد الكريم مصر على الانزعال ولم يتم بأية محاولة لمنع الرجال من التوجه إلى كرت". برقية من الصيمة إلى مليلية بتاريخ 18 غشت 1914، وهي مذكورة في الهامش 1.
- (6) تقرير شفوي لـ محمد بن عبد الكريم، مسجل في "المكتب المركزي" بتاريخ 18 غشت 1914 (S.H.M., Mel.I, 7, 43)
- (7) برقية من الصيمة بتاريخ 21 غشت 1914 (S.H.M., Mel.I, 7, 217)
- (8) شهادة التقيب خرومي بريتا، وهي مدرجة في ملف التحقيق المتعلق بقضية محمد بن عبد الكريم. في نوفمبر 1915 (S.H.M., Mel., II, 12, 32 à 38)
- في برقية الجنرال أيتيبيرو (حاكم مليلية) إلى المقيم العام خورداة بتاريخ 28 يناير 1917 نقرا كذلك مايلي: "يؤكد لي ركمي متاورات شدي لبت التفرقة بين الخطابي (عبد الكريم) ووردجيلة وإثارة أصحاب المعاشات اللدعاء التابعين للقبلي (عبد الكريم) ضد هذا الأخير وضد السي محمد (ولده)" (S.H.M., Mel, II, 10, 43)
- في شهادته أمام لجنة التحقيق التابعة للكرديتس بتاريخ 29 يمايوز 1923، عزز العميد ركمي عداوة حاكم الصيمة (التنكرد) للقاضي عبد الكريم إلى بسائس منافسه "شدي" الذي كان يتمتع بامتياز التحدث بالاسبانية ويقض مضاجع حاكم القاعدة بالوشايات:
- De Anual a la República ... ; op. cit. ; p. 17.
- (9) شهادة العميد روبرتو (Roberto)، وهي مدرجة في ملف التحقيق المتعلق بقضية السي محمد بن عبد الكريم، والمشار إليه في الهامش 8.
- (10) شهادة التقيب بريتا المشار إليه في الهامش 8.
- (11) انظر ما سبق ذكره في ص (192 - 193).
- (12) برقية الصيمة إلى مليلية بتاريخ 20 شتبر 1914 (S.H.M. ; Mel.; II, 2 ; 129)
- (13) انظر ما تقدم في 202 - 204.
- (14) برقية من خورداة، الحاكم العام للمليية، إلى الصيمة (التنكرد) بتاريخ 23 غشت 1914 (S.H.M., Mel., I, 7 ; 33)
- (15) رسالة من القاضي عبد الكريم (بالعربية) إلى الجنرال خورداة بتاريخ 13 شوال 1332 / 4 شتبر 1914 (S.H.M. ; Mel.;...).
- لا تعرف أسوة العطر رقم الملف الذي استخرجت منه هذه الرسالة لتصويرها. إلا أننا نترار على هذه النسخة المصورة وأصلها مسجل عند وصولها إلى (S.T.A.I) بتاريخ 8 شتبر 1914 تحت رقم 0909 من "الرسالة العربية".

(16) " يصرح السي محمد بن عبد الكريم .. بأن عائلته تعمل اليوم أكثر من أي وقت مضى بكل إخلاص لصالح القضية الإسبانية ، لأن لويه ملقتهون كل الاقتناع بأن لا سبيل آخر لهم إلا العمل في هذا الاتجاه " . تقرير شفوي سبقت الإشارة إليه في الهامش 6 .

(17) رسالة الجنرال خورداث إلى القاضي عبد الكريم بتاريخ شتبر 1914

(S . H . M . , Mel . , I , 7 , 20)

(18) رسالة بالعربية من القاضي عبد الكريم إلى الجنرال خورداث بتاريخ 29 ذي القعدة 1332 / 18 نوفمبر 1914 ، وهي مسجلة في (S . T . A . I) بتاريخ فاتح أكتوبر 1914 تحت رقم 1083 ضمن ملف " رسائل عربية " وتوجد محفوظة في (S . H . M) بنفس الحالة التي سبق ذكرها في الهامش 15 .

(19) قرار القطاع الثالث من القيادة العامة للميلية (Comandancia general de Melilla) بتاريخ 15 فبراير 1915

(S . H . M . , Mel . , I , 8 , 4 et 6)

(20) نفس المصدر المذكور في الهامش 18 .

(21) تم التصريح بهذا القرار في 7 نوفمبر 1914 من طرف شيخ الإسلام في الامبراطورية العثمانية ، وجدد في ميثاق موجه إلى العالم الإسلامي في 23 من نفس الشهر تحت كناية السلطان : George ANTONIUS : The Arab Awakening
الطبعة الثالثة من الترجمة العربية " بقظة العرب " ، بيروت 1969 . ص 222 .

(22) تقرير حول تصريحات محمد بن عبد الكريم إلى العقيد وكلي بتاريخ 3 غشت 1915 .

(S . H . M . , Mel . , II , 9 , 15)

(23) المصدر نفسه .

(24) المصدر نفسه .

(25) انظر ما تقدم في ص 193 - 194 : 195 : 197 .

(26) انظر ما تقدم في ص 205 - 206

(27) رسالة من كافيل (حاكم قاعدة النكور - الحسيمة -) إلى الجنرال خورداث بتاريخ 15 ماي 1915

(S . H . M . ; Mel . , II , 6 , 38)

تفضل بنسخ هذه الوثيقة للمؤلف الكوازل الفون رامون سانخيس دياز (Ramón Sánchez Díaz)
من مصلحة التاريخ العسكري بمدرسة (Servicio Histórico Militar de Madrid)

(28) تقرير حول العمل السياسي المنجز بالحسيمة (النكور) بين 20 ماي و 10 يونيو 1915

(S . H . M . , Mel . , II , 9 , 68)

(29) المصدر نفسه .

(30) نفسه .

(31) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليية بتاريخ فاتح يوليوز (S . H . M . , Mel . II , 9 , 81)

(32) المصدر نفسه .

(33) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليية (S . H . M . , Mel . , II , 14 , 8)

هذه البرقية غير مؤرخة ، لكن حسب مضمونها يمكن إرجاعها إلى ما بعد 15 ماي وبالنسبة قبل 3 غشت 1915 .

(34) نفس المصدر المذكور في الهامش 28 .

(35) شهادة التلقت من طرف مصلحة الاستخبارات بالحسيمة (النكور) بتاريخ يوليوز 1915

(S . H . M . , Mel . II , 14 , 8) انظر كذلك المصدر المشار إليه في الهامش 22 .

(36) كثير من المؤلفين ، وكذلك عدد من المصادر المتنوعة ، يقدمون عبد المالك على أساس أنه ابن للزعيم الجزائري عبد القادر . وهو نفسه ادعى ذلك . إن الأمر يتعلق دون شك بخطأ لدى البعض وبمخاطبة من جانيه . هناك ما يؤكد بأنه كان في الحقيقة ابنًا لمحيي الدين الذي كان هو نفسه ابنًا لعبد القادر . فقد وجهت إليه رسالة رسمية من طرف مولاي عبد الحفيظ عثرنا عليها في " تلغرافة الريف " وقد نشرتها في حينها بتاريخ 6 أبريل 1911 ، وخاطبه فيها السلطان بقوله : " محبنا وخديمنا الأرض وكيل وزيرنا في القوات الأمنية بمراني مملكتنا الأسعد الطالب عبد المالك بن محيي الدين " . حول بداية حركة عبد المالك انظر " نشرة لجنة أفريقيا الفرنسية " ، غشت - شتبر 1915 ، ويناير 1916 . وكذلك محمد أزرقان : " الظل الوديف في محاربة الريف " ص 18 وما يليها من المخطوط (مصدر سبق ذكره) . وكذلك عبد الرحمن ابن زيدان " اتحاف إعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناش " ، الرباط 1929 ، ج 1 ، ص 407 و 410 . هذا وقد تم اشعار الفرنسيين في يوليو 1915 بمجيء عبد المالك إلى نواحي تازة : " التقرير الشهري للحماية " ، يوليو 1915 .

(37) في 7 يونيو نهبت مصالح الاستعلامات الفرنسية إلى وصول رجل إلى ملقا ، ذلك الذي عرفته " ب " المهندس الألماني (Lang) لاندس فارل " : Lyautey l'Africain, op. cit., p. 285 note du vol. III .

وكان الريفيين بالفعل يسمون هذا الشخص بالاسم المختصر " فار " . انظر كذلك مخطوطة " لارينون " ترجمة التهامي الزموري ، مصدر سبق ذكره ، فصل : " وصول فارل " .

(38) رواية شفوية لأحمد الحاتمي بلجدير ، التقطها المؤلف بنفسه . والحاتمي هذا هو أحد أقرباء القاهسي عبد الكريم ، وكان عليه هو نفسه أن يستضيف الألماني ويراقبه في تنقلاته ويسميه " قنصل ألمانيا المسمى فر " .

(39) يخبرنا محمد أزرقان أنه قدم بالفعل هذه الاقتراحات إلى قبيلة بني سعيد ، مصدر سبق ذكره ، ص 18 - 19 .

39 مكره) في 11 يناير 1916 سلمت الإقامة العامة بالرباط باريس نص منشور تقول إنه ضُبط عند بني مستارة ، وهي قبيلة بمنطقة زوان ، جاء فيه أن ألمانيا تريد أن تضمنا الاستقلال المغاربية (المصلحة التاريخية للجيش بنانسين ، S . H . A . , E . 12 bis)

(40) في مخطوطة " لارينون " (مصدر سبق ذكره) ، سيؤكد محمد بن عبد أنكرم جزينا لا غير زعمنا متحاشيا القول بالطبع ، بالنظر إلى الظروف التي كتب فيها المخطوطة ، بأنه حائل باقتراحات الأتاني : " لقد استخدم هذا الزعيم (فارل) كـمهندس في بني يفرور من طرف شركة ألمانية قبل الحرب العظمى . إلا أننا لم نكن نعرفه . عندما سألته عما ينتظره منا ، قال لي : " أريد أن تساعدني على السفر إلى الريف وعلى أن أقوم هناك ببعائتي ضد فرنسا " . وقد بينت له أن الريفيين ، بالنظر إلى حالة الريف بمنطقة الحماية الإسبانية ، لن يستجيبوا لنشاط من هذا القبيل وأن عدوهم الوحيد هو إسبانيا التي جاءت لاحتلال بلادهم . فقال : " ووالدك ؟ فاجبت بأن تصريحات والأخبار التي تلقيتها في هذا الموضوع ، كل ذلك على حد سواء يدعو إلى الاعتقاد بأن والدي يريد أن يحافظ على موقف الحياد " (وصول فارل) . هذا التحفظ المزعوم لأحمد أمام اقتراحات فارل يكذب تكذيبا قاطعا كل ما سنورده فيما بعد والذي أتمناه بناء على مجموعة وثائقية لا يمكن الطعن فيها .

(41) شهادة أحمد الحاتمي المشار إليها في الهامش 38 .

(42) تقرير العقيد وكلمي حول التصريحات التي قدمها له محمد بن عبد الكريم بتاريخ 3 غشت 1915

(S . H . M., Mel., II, 9, 15)

(43) المصدر نفسه .

(44) نفسه .

(45) رسالة من القاهسي محمد إلى والده عبد الكريم بتاريخ 7 غشت 1915 (S . H . M., II, 9, 22 à 29) الترجمة الإسبانية

(46) محضر المحادثة التي دارت بين السي محمد ولديته زكريا بتاريخ 21 غشت 1915

(S . H . M., Mel . II, 9, 5)

(47) الوثيقة رقم 18 الملحق بتقرير وكلمي حول تصريحات محمد بتاريخ 3 غشت 1915

(S . H . M., Mel . II, 9, 15)

هذه الوثيقة تتضمن طلب الرخصة الذي تقدم به محمد . لكننا نقرأ فيها الملاحظة التالية المكتوبة بقلم الرصاص : " رخصة مرفوضة

من طرف سيادة المقيم العام * . هذا يعني أن المسألة وقعت من يومئذ إلى أعلى سلطة .

(48) * عندما سألت ابن أخ السي عبد الكريم فيما كان معه حقا قد أجرى اتصالات مع الألمان ، قال لي إنه في ليلة وصولهم نزلوا عند السي عبد الكريم ثم رحلوا في اليوم التالي عند الحاج السي محمد بن علي حيث ظلوا إلى اليوم ، وهو تاريخ انطلاقهم ... كان عددهم ثلاثة * . رسالة من أنطونيو إيبانكوس Antonio Ibancos ، تاجر بالنكود وصديق للقاضي عبد الكريم ، موجهة إلى الجنرال أيشورد بتاريخ 31 غشت 1915 (S . H . M , Mel . II, 12, 13) .

(49) برقية من الحسيمة (النكود) إلى مليلية بتاريخ فاتح يوليوز 1915

(S . H . M . , Mel . , II, 9 , 81) .

(50) سيسرح العقيد وكلمي فيما بعد أمام اللجنة البرلمانية للتحقيق حول " المسئوليات " بصدد هذه المقابلة الغربية . " أن رئيس المكتب بالحسيمة (سست) ظهر بمليلية التي قدم إليها في بشكل لا جدال فيه في مهمة مطاوعة ... يلتقي فيها بعبد الكريم (السي محمد) ليحاول أن ينتزع منه الاعترافات حول أفكاره ومواقفه الخاصة المتعلقة بالحماية ويعمل الأسباب " .

De Anual a la República , op. cit . : p. 118 .

(51) تقرير النقيب سست حول تصريحات القاضي السي محمد بن عبد الكريم بتاريخ 15 غشت 1915

(S . H . M . , Mel., II, 14, 10)

(52) المصدر نفسه .

(53) نفسه .

(54) عندما سأل أيشورد المقيم العام في برقية يوم 22 غشت فيما بعد إذا كان عليه عندما يأتي القاضي عبد الكريم السلام عليه في الحسيمة (النكود) أن يقوده إلى مليلية أو فضاء أن يثق بوعده بالترجى إليها من تلقاء نفسه ، أجاب المقيم العام في اليوم التالي . " خذه إلى مليلية وانتظر تعليماتي " ، مذكرة حول قضية محمد بن عبد الكريم

(S . H . M . , Mel . , II, 10) .

(55) نفس المصدرين المشار إليهما في الهامشين 49 و 55 .

(56) تقرير العقيد وكلمي حول الشروح التي قدمها السي محمد بن عبد الكريم بخصوص تبليغ سست ، بتاريخ 21 غشت 1915 (S. H. M. , Mel., II, 9, 5.)

(57) رسالة من المقيم العام خورداة بطلوان إلى وزير الدولة المركزي دي لا (de Lema) بمدريد بتاريخ 7 شتنبر 1915

(S . H M : Mel . : 12 ; 104)

(58) المصدر نفسه .

(59) مذكرة حول قضية السي محمد بن عبد الكريم وقد سبقَت الإشارة إليهما في الهامش 55 .

(60) المصدر نفسه . وكذلك شهادة العقيد وكلمي أمام لجنة التحقيق البرلمانية :

(De Anual a la República, op. cit., p. 118)

(61) أسطورة متداولة لدى عديد من الكتاب الفرنسيين والاسبان . وهكذا فإن سنشس برز (Sanchez Perez) الذي يعرف عنه أنه يأخذ الخير من مصوره صرح في محاضرة تدريب عبد الكريم وأمام ضباط اسبان للشؤون الأهلية : « إن البيطلي بعد أن علم بالأحوال المضادة للفرنسيين ظهر بها علنا السي محمد ، عمد إلى قلمه ليطالب الاسبان باتخاذ الاجراءات التأديبية ضده ، كاتبا "كاتبها بهذا الصفحة الأولى من مأساة أنوال " ..

Andres Sánchez Pérez : Abdelkrim ; in " Selección de conferencias y trabajos realizados por la Academia de Interventores durante el curso 1949 - 50", Imprenta del Majzen, Tetouan, 1950 .

(62) سيغل البيطلي ومصلحه على نفس هذه الحالة من الجهل التام بأمر محمد بن عبد الكريم وهذا إلى أن يصبح معروفا على الصعيد العالمي بعد معركة أنوال . من الحق أن بعض الإشارات وردت بصدد في الوثائق الفرنسية قبل هذا التاريخ ، لكن لنبت فيما : " الأولى مؤرخة في 28 يونيو 1960 أي بعد زهاء سنة من الأحداث التي ترويها . وفيما يلي نصها الكامل : " تم نقل 600 بندقية من نوع مرسر (Mauser) وستة بغال محملة بالرصاص إلى عبد المالك من طرف ولد سيد السي عبد الكريم ، كاتب المخزن بمليلية " .

(تقرير الحماية الشهري " ، يونيو 1916 . إنه بالتأكيد خير لا يترك أي مجال للشك فيه بالنظر إلى دقته . لكن من سمي هنا يولد عبد الكريم رزعت خطأ بوصفه " كاتب المخزن " ، كان في 28 يونيو 1916 قد اعتقل منذ عشرة شهور . ذلك ما يؤكد لنا هذا الجهل الذي تحدثنا عنه ويظهر في نفس الوقت حدود الثقة التي ينبغي أن نؤيدها في القضية لادعاءات ليوطي في المستقبل والمتعلقة بالحالة في المنطقة الاسبانية .

(63) " لقد بيئت مسبقا أمام سفير فرنسا أنكم اعتقلتم زعيما ، لكن دون أن أشير إلى من هو " . رسالة من وزير الدولة إلى المقيم العام خوردهاته بتاريخ 11 سبتمبر 1915 (S . H . M., Mel., II, 13, 1)

(64) منذ 11 أبريل 1915 أبرق ليوطي إلى باريس : " منذ بضعة أيام ، فإن النشاط الألماني يمارس على جميع العناصر المنشقة ويوجد في المنطقة الاسبانية كل التسهيلات إن لم تقل الدعم "

(télégramme n° 118 G ., S . H . A ., à Vincennes, 12, bis)

في مناسبة أخرى سيتحدث عن " لا مبالاة أو تراوط السلطات الاسبانية " بريقة إلى الشؤون الخارجية

(n° 138 du 25 juin 1917 ; S.H.A. ; Vincennes ; E ; 12 bis)

ذلك ما سيكون عليه المحور الثابت لتقاريره عن المنطقة الاسبانية حتى نهاية الحرب العالمية .

B . C . A. F., Septembre 1915, p. 262 (65)

(66) رسالة بالعربية من القاضي عبد الكريم إلى الجنرال إيثوريو بتاريخ 30 غشت 1915

(S . H . M., Mel., II, 12 n 118)

(67) المصدر نفسه .

(68) رسالة (بالترجمة الاسبانية) من القاضي عبد الكريم إلى الجنرال إيثوريو 9 سبتمبر 1915

(S . H . M., Mel., II, 12, 91)

(69) شهادة شفوية من المبعوث المعني بالأمر السي أحمد الحاتمي . التلطفها المؤلف .

(70) تصريحات السي محند التلطف في السجن من طرف العقيد وكلمي وأبلغت بواسطته إلى الجنرال إيثوريو

(S . H . M., Mel., II, 9, 35, 36)

القطيعة

كان السي محند متهما بخيانة القضية الاسبانية وذلك بتحريضه الأهمالي على مقاومة اسبانيا فيما تبذله من جهود لاحتلال الريف وإدراجها ضمن حمايتها ؛ صحيح أن والده كان يقود هذا العمل بين القبائل ، إلا أنه هو الذي كان يذكي لهيبه ويوجهه انطلاقا من مليلية (1) .

على أي أساس قام الاتهام ؟ في الحقيقة أنه لم يستند سوى إلى تقرير سست (Sist) الذي لم يأت أي عنصر مادي لتدعيمه . فانه لم يتم العثور على ما يستحق الذكر لدى المتهم عدا بعض منشورات "تركيا الفتاة" التي لا علاقة لها بالقضية ولا يمكن أن يشكل وجودها في حد ذاته اثباتا للتهمة (2) . من الحق أن هناك شهادة تقول ان السي محند قام منذ سنتين بتحريض القبائل ضد عملية انزال بحري . لكن هل يمكن أن يكون لهذه الشهادة اليتيمة الصادرة عن كافيل ، رئيس سست ، وزن كبير ؟ سيما وأنها ليست مباشرة ولا تعوان تكون تذكيرا بمعلومات لا سبيل الى التأكد من صحتها (3) .

على عكس سست وكافيل ، فان الذين كانوا أكثر تأهيلا منهما لتقييم نشاط السي محند ، بحكم تواجده بجانبهم أو تحت اشرافهم ، لم يترددوا في الدفاع عنه .

ف رئيسه العقيد ريكلمي كان يذكر بالنكبات التي أدت بها أسرته ثمن تفانيها في خدمة اسبانيا ، ويؤكد أن السي محند قام دائما بمهامه بذكاء واخلاص . ومما أضافه في هذا الصدد : بالطبع أن بعض التغيير انتابه منذ الحرب العالمية إذ انحاز بكل عواطفه لصالح ألمانيا وضد فرنسا بعد اندلاعها ببضعة شهور ، بل وأبدى حتى استعداداه للتخلي عن وظيفته القضائية لينضم بكل حرية إلى جانب الألمان ؛ بيد أننا أقمناه بالعدول عن موقفه هذا وحملناه على التعهد بالتزام الحياد التام ، وقد وفى بوعده ؛ أما بخصوص اخلاصه للقضية الاسبانية فانه لم يطرأ عليه تغيير من جراء تأييده هذا لألمانيا ؛ ولئن تذرع بالدعاية الجرمانية التركية فلأنها كانت دائما في نظره وسيلة لتخفيف العبء عن اسبانيا والقائه على كاهل الفرنسيين (4) .

أما بالنسبة للتقيب بربطا (Barbeta) ، وهو أيضا عضو في "المكتب المركزي" ، فانه لم يستبعد أن يكون السي محند قد مارس نوعا من التأثير على والده لكن من دون أن يخطر بممارسته ضد اسبانيا ؛ لقد كان اخلاصه صادقا كل الصدق كاخلاص أي

رجل اسباني قح ؛ بيد أنه كان ضحية مع والده لحسد قديم تفاقم أمره منذ أن شجعت
ملييلة بشكل ظاهر القاضي عبد الكريم على حرية العمل بدون رقابة من سلطات النكور ؛
فمن عدم الحكمة اذن أخذ الأقاويل الرائجة حول الرجلين بدون تبصر كما فعلت هذه
السلطات (5) .

تلك كانت أيضا أطروحة السي محند الذي كان يحتج بأن نجاحه الشخصي في
ملييلة ساهم كثيرا في استثارة الحسد بين اخوانه الريفيين ؛ صحيح أن والده لم يحجم
عن تقديم مساعدته لألمانيا ؛ صحيح أنه لم يكن ليتعاطف مع فرنسا التي جزأت بلاده
واستعبدت أهلها ؛ لكن مادخل كل هذا في موقفه من اسبانيا التي سيواصل خدمة
قضيتها بنفس الاخلاص الذي بذله الى اليوم ؟ وحتى لو سولت له نفسه أن يخونها
حقا ، فمن ذا الذي سيصدق بين الريفيين ، ناهيك بقبوله بين صفوفهم ؟ لقد كان
اخلاصه اذن ضرورة بقدر ما كان واجبا وتعبيرا عن الاعتراف بالجميل (6) .

من كل هذه المعطيات ، من تصريحات وشهادات ، استخلص القاضي المكلف
بالتحقيق في 5 نوفمبر 1915 أن القاضي محند ، الذي انساق وراء فكرة احتمال النصر
الألماني السابقة لأوانها بالطبع ، لم يتحل بما يلزم من الفطنة والحذر المفروض توفرهما
في رجل ملحق بخدمة دولة محايدة . على أن هذا في نظره لا ينفي كون التهم المصققة به
لا تركز على أساس سليم باعتبارها كلها معلومات واتهامات صادرة عن مغاربة
يناصبونه ووالده العداء . اثباتا لذلك ، قرر قاضي التحقيق أن ملف القضية لا يتضمن
أية جنحة أو مخالفة ينص عليهما قانون العدالة العسكرية ، وعبر بالتالي عن وجهة نظره
بامكانية وضع حد لمتابعة التحقيق (7) .

إذا كان قاضي التحقيق قد بدا مرتاحا لتمكنه من التوصل الى نتيجة تتماشى
في هذا الاتجاه ، فإن القاضي "المستمع" وقد تسلم ملف القضية ، رأى نفسه بالعكس
مضطرا وعلى مضض الى تقرير نفس النتيجة . اذ أنه كان ملزما بوصفه رجل قانون
بعدم تجاوز الميدان القانوني . إلا أنه رأى أن القضية تكتسي في الواقع طابعا سياسيا
. وهو ما قاده الى صياغة أحكام مثيرة جدا أصبحت تكتسي اليوم مظهرا تنبئيا .

لاحظ في البداية أنه لا مجال للشك في كون السي محند :

" يجمع أبرز الصفات التي تميز أبناء جلدته . فهو داهية ، ثاقب الفكر ، تظهر

تصريحاته أنه لا يقول إلا ما يطيّب له قوله ، وكلما طرح عليه سؤال محرج إلا وتهرب وجر مخاطبه إلى عكس ما ينتظره منه تماما . لم يكن بالإمكان إذن التوصل إلى نتيجة تساعد على الحسم فيما إذا كان السي محند ولد السي عبد الكريم مخلصا أو غير مخلص لاسبانيا * (8) .

إذا لم يكن بإمكان القاضي الماضي الى مدى أبعد ، فقد كان له مع ذلك رأيه الشخصي ولم يتردد في التعبير عنه ، إذ تابع تقريره قائلا :

"كيف يمكن الشك في كون السي محند ولد السي عبد الكريم كان قد اتخذ موقفه بكامل الوضوح ، مقاربا حتى حدود التعصب ، من مغزى حضور قوة أوروبية مسلحة في المغرب ؟ فانه لم يخف تعاطفه مع "تركيا الفتاة" ومع الألمان في الصراع الأروبي الحالي . بالطبع كلما جرى على لسانه اسم اسبانيا إلا وأظهر حيالها كامل الاحترام والاحلال مصرحا بأنه لن يخونها أبد الدهر ، ولن يقف في وجهها اطلاقا لا هو ولا والده . انه يزعم أن والده ، وقد شارك في الحركة المضادة للفرنسيين الملحوظة اليوم في المغرب ، لم يكن يستهدف سوى فرنسا التي من حقه أن ييغضها كأني مسلم قح بيد أن السي محند مخطئ لو أنه تصور امكانية القيام بهذا العمل ضد فرنسا دون الاجحاف بالتخنية الاسبانية . فذلك نقطة بالغة الخطورة ، تمارس مفعولها في غير صالحه . إذا كان حقا ييغض فرنسا كما يدعي ، وإذا كانت مصالح هذه الدولة مرتبطة في المغرب بمصالح اسبانيا ، فهل يمكن الشك في أنه يتآمر ضد الفرنسيين في المغرب انما يتآمر أيضا ضد اسبانيا رغم كل ادعاءاته بالاخلاص والوفاء ؟ اذا كان قاضي "المكتب المركزي" يكن حقا لاسبانيا تلك المحبة العظيمة التي يتذرع بها ، لكان أحجم عن رعاية هذه الحركة أو المشاركة فيها . والحال أن العكس هو ما يقوم به . فهو يعترف بكل صراحة أنه يدلي بدلوه ليزيد اللهب اشتعالا ضد فرنسا ، حامية المغرب . من هذا يتضح إذن أنه لا يكن لاسبانيا ما يدعيه لها من محبة . انه بالعكس يختزن رغبة دفيئة تحين الفرص لتتحول الى بغض وحقد ضد الفرنسيين وضدنا نحن الاسبان على حد سواء ، تلك الرغبة التي يمكن أن تهيه الأجواء في نفس الوقت لنهوض كاسح ضد جميع الأروبيين بدون أي تمييز بينهم . على أنه لا سبيل لنا في حدود القانون الى فرض العقوبة على هذا . فقوانيننا لا تنص عليه " (9) .

لقد صدرت القرارات بناء على هذه النظرة المزدوجة الاتجاه . ففي 20 نوفمبر 1915 أعلن الجنرال أيشورو عن انتهاء المحاكمة القضائية⁽¹⁰⁾ . بيد أن المقيم العام تدخل بعد عشرة أيام كسلطة عليا وأمر بابقاء السي محند رهن الاعتقال الى أن ييث بنفسه في أمره بحكم آخر أو يقوم الجنرال أيشورو باقتراح اصدار العفو عنه ان اقتضت الظروف ذلك⁽¹¹⁾ . في انتظار ذلك ، ألغي الراتب الشهري المخصص للقاضي عبد

الكريم كما ألغيت المنحة التي كان من المقرر أن يستفيد منها ولده الأصغر محمد ليتوجه الى مدريد قصد متابعة دراسته في الهندسة (12) .

أقرت وزارة الدولة كل هذه التدابير ، الا أنها سرعان ما نصحت "بتجنب كل عنف مفرط في الأقوال والأفعال من شأنه توليد الحقد والرغبة في الانتقام وبالتالي سد الباب الى الأبد أمام احتمال المصالحة" (13) . معنى هذا ان اعتقال السي محند كان يعتبر سواء في مدريد أو مليلية أو تطوان اجراء مؤقتا يرمي الى ارجاع القاضي عبد الكريم ذات يوم الى جادة الصواب . الا أن هذا الأخير مع ولده السي محند لم يكونا يريان سوى آفاق مسودة . ولا غرو فقد اصطدمت مساعي الأول لحد الآن بجدار من الصمت بينما بقي الثاني دائما في سجنه رغم استفادته من عدم المحاكمة . من ثم سلوكهما المطبوع بالارتباك والمتأرجح بين الانتفاضة والاستكانة كما يحدث عادة في الحالات الميؤوس منها .

كان اليأس بالفعل هو الذي حفز السي محند إلى التفكير في الفرار رغم ما ينطوي عليه فراره من مخاطر . حاول تنفيذ العملية في 23 دجنبر باستعمال حبل شدة الى احدى شرفات السجن . لكن الحبل انقطع لسوء الحظ وهوى صاحبنا الى خندق يبدو أنه كان مفروشا بالنشطايا . وقد قام أصحابه الذين كانوا في انتظاره بانتشاله وهو بلا حراك ، قد لطحته الدماء وأصيب بكسر في ساقه الا أنهم لم يجرؤوا على حمله على هذه الحالة التعساء فتركوه قرب الحصن في مكان باد للعيان الى أن التقطته دورية الحراسة (14) . بعد شهر من العلاج ، خرج من المفامرة بساق معطوبة سيعرج عليها مدى الحياة . أما بخصوص حريته ، فقد أصبحت أكثر من أي وقت مضى رهنا بمشيئة الاسبان . فكان لا مناص له بالتالي ، هو ووالده ، من استدرار عطفهم في خضم محتئهما .

ما نعرفه هو الملتمس الذي تقدم به والده بعد خمسة أسابيع من محاولة الفرار الفاشلة مقترحا فيه القبول شخصيا الى مليلية للمثول أمام الجنرال أيبورو ، شريطة أن يتم أولا إطلاق سراح ابنه (15) . أما الملتمس الذي اضطر السي محند الى تقديمه قبل ذلك فلا نعرفه الا من خلال التلميحات الواردة في المراسلات التي دارت بشأنه . المهم انه قُدم بالفعل . المهم أيضا أن نعرف أن حرية السي محند كانت لا بد وأن تمر في نظر أيبورو بجملة شروط في مقدمتها أن يقوم والده بتصريح علني مؤيد لاسبانيا وأن يتعهد هو بنفسه بعدم العمل لصالح ألمانيا (16) . المهم في الأخير أن خورداثة قرر ابقائه رهن الاعتقال في انتظار معرفة موقف الوالد بكل وضوح (17) .

كان ذلك في 19 فبراير 1916 .

بيد أن القاضي عبد الكريم كان في هذا التاريخ يعمل على قدم وساق وبشكل علني لدعم قضية الألمان بتنسيق مع عميلهم عبد المالك . ولئن كان عمله هذا متوافقا مع الخيار الذي حدده لنفسه قبل اعتقال ولده ، فإنه أصبح الآن يقوم به ليعين للأسبان كم هي كثيرة المتاعب التي يمكنه خلقها لهم . تمشيا مع هذا الاتجاه ، ووط نفسه في دوامة لن يكون من السهل عليه مرة أخرى الخروج منها .

كما نتذكر فإن الصراع المسلح ضد فرنسا تحت إشراف تركيا كان في البداية قد لاح له كوسيلة يطوي بها ماضيه في طي النسيان ، وهذا دون أن يكون ملزما بمناهضة إسبانيا التي اعتقد أنه سيواصل مساندتها حتى بهذا السلوك . ثم جاء الظهور الفجائي للألمان ليغير موقفه من الأسبان حيث بدا له حينئذ من الأفضل إبقاؤهم في الحدود التي يوجدون فيها . بيد أن هذا الهدف يبقى ثانويا أمام أولية العمل ضد فرنسا التي كان كل شيء متوقفا على هزيمتها . كان الألمان حاضرين في عين المكان ليزكروهم بهذه الأولوية أن هو تغافل عنها صدفة . فإن المال الذي كانوا يقدمونه له لم يكن موجها إلا لاستمالة قدماء أصحاب الرواتب الإسبانية قصد تعبيتهم في كتائب عبد المالك . بالفعل ، فإن دوره كرئيس يقوم بجمع المتطوعين وبالدعاية للقضية الألمانية هو الذي كرس له جهوده حصرا منذ سنة 1915 ، وذلك قبل زمن يسير من اعتقال السي محند (18) . وحتى بعد هذا الاعتقال ، كان من الممكن أن يركز نشاطه على هذا الدور بعد أن تبين له شدة إقلاقه للإسبان . لكنه ما لبث أن تفتن أيضا إلى أنه كان يثير حفيظة الريفيين ، وهذا في الوقت الذي كان يفكر في العودة إلى صفوفهم .

ذلك أن الريفيين رفضوا بحس سليم وإرادة عنيدة تحويل أنظارهم عن عدوهم الحقيقي . منذ غشت 1915 ، عندما بدأ ظهور الألمان في المنطقة ، كتب كافيل من النكور مخابرا بزحف وحدات كبيرة في اتجاه كرت : "لقد قرروا قبل انطلاقهم أنهم عند وصولهم إلى جبهة كرت سيطلبون من الألمان المتواجدين هناك أن يوضحوا لهم الغاية من مهمتهم على أن يشترطوا عليهم ارغامنا [نحن الإسبان] على الجلاء من الأقاليم المحتلة . أما إذا رفضوا فإنهم سيقومون ضدهم بأعمال انتقامية" (19) .

بعد زمن يسير حلّ الألماني فارل ، إثر تقاضيه مع القاضي عبد الكريم ، بقبيلة بني سعيد ، وهي قبيلة ساحلية تقع تجاه الخطوط الإسبانية . لكنه لم يقلع في إقناعها بالتنازل عن مرفأ لافراغ الأسلحة المخصصة لعبد المالك ، على الرغم من أنه وعدا

بتسليح أفرادها : "ففي هذا ، كما صرحت له ، ما سيصرفها عن مقاومة عدوها المستعد للانقضاض عليها " (20) .

أخيرا فإن عبد المالك جاء بنفسه إلى قلب الريف لجمع المتطوعين . جرى ذلك بتفريسيات ببني تونن ، في غضون شتتبر 1915 على أرجح الظن . غير أن مساعيه أخفقت هو الآخر . إذ خاطبه الزعماء الذين خفوا لسماع أقواله : "أنا لا نفهم الفرنسي الذي تريد الوصول إليه هناك في الداخل بينما يوجد الاسبان هنا وعلى مقربة منا متاهين لاحتلال أراضينا" (21) .

ليس بغريب في مثل هذه الظروف أن يصبح القاضي عبد الكريم عرضة للتشهير بين المقاومين بعد أن سبق لهم الاحتفال بانضمامه إليهم طيلة شهرين أو ثلاثة أشهر . فقد اشتطوا عليه بالغض منه والازدراء له في أهازيج من هذا القبيل :

ان عبد الكريم لعندليب بقوائم النخام .

كان اسبانيا الباردة مساء وإذا به ألماني هذا الصباح (22) .

لكن هل كان عبد الكريم قد تحول حقا ؟ ذلك ما لم يكن الريفيون يومنون به . كانوا في غالبيتهم يعتقدون خطأ - وهذا ما ينبغي توضيحه - أنه بانغماسه في دسائسه التخسيلية الداعية إلى مقاومة فرنسا إنما يعمل سرا مرة أخرى على تخفيض أوامر اسبانيا (23) . كانت النتيجة غير متوقعة . فإنه أصبح هدفا مشتركا لكل من الفريق الموالي للإسبان الذي أمكنه هذه المرة أن يجد أذانا صاغية ، وللمقاومين الذين كانوا يهددون بمداومة داره (24) . بحيث لم يسبق للقاضي أن وجد نفسه وحيدا بهذا الشكل وبالتالي ضعيفا إلى هذا الحد عندما احتدم الصراع بينه وبين اسبانيا ، ذلك الصراع الذي شكلت رهانه حرية ولده السي محند . ومن يدري لعله كان يتوهم أن دعم ألمانيا سيكفيه للدفاع عن نفسه في كل الجبهات ؟

مهما يكن فقد تورط ووصل إلى حد اللارجعة . إذ أنه جر وراءه شبكة من المأجورين الذين ، وقد تخلوا عن الرواتب الإسبانية ، كانوا ينتظرون بلهفة الحصول على ضعفها ، وهو ما أخذ بنفسه في تسديده لهم فيما بعد (25) .

هكذا وبعد أن أصبح رسول الألمان والترك تراه يحتفل بصمودهم في معركة الدردنيل (26) . وفي سعيه لاستئناف مشروع فارل الفاشل تراه يلتمس مساعدة تسمان ، وهي قبيلة ساحلية أخرى ، قصد الحصول منها على المرفأ اللازم لإيصال الأسلحة حتى إلى عبد المالك (27) .

* * *

يظهر مع ذلك أنه سرعان ما أدرك مدى الأخطار التي قد تحقق به إن هو لم يخرج من عزلته. لذا راح يبذل مساعيه قصد التقرب من المقاومة طالما أن التقارب مع الإسبان أصبح مستبعدا الآن. لأجل هذا وجدناه ابتداء على الأقل من منتصف يناير 1916 يكيل الضربات أكثر فأكثر لاسبانيا دون أن يتوقف عن توجيهها ضد فرنسا. وسنجد بعد زمن يسير يستتفر القبائل ضد عملية إنزال ، تلك العملية التي خططت لها اسبانيا فأمكنه بثاقب بصره إماطة اللثام عنها. حينئذ وجد نفسه يعمل يدا في يد مع "المتعصبين" للحصول على الاعتمادات من أجل تسليح الحامية التي وكلت إليها مهمة الدفاع عن السواحل وكذلك لتسليح وحدات أخرى قصد إرسالها إلى جبهة كرت (28) . وهكذا قادته الحكمة التي تعامى عنها لحد الآن إلى أن ينتصب علانية ضد اسبانيي بعناد وإصرار. لكن على الأقل فإن التهديدات التي كان المقاومون يوجهونها إليه بالأمس لم يعد يوجد ما يبرر بقاءها. أخيرا فإنه أصبح يتوفر ضد اسبانيا التي رفضت الإفراج عن ولده على وسيلة ضغط حقيقية.

على أثر ربه فعل الجانب الإسباني سرعان ما تبلورت ضده. في النكور ، حيث كانت قضية عبد الكريم تستثير الأعصاب ، بلغ القلق حدا دفع بسلطاتها حتى إلى التفكير في اغتياله أو انتياله ولده الأصغر امحمد الذي ارتكب الأسبان - في نظرها - خطأ فادحا بشأنه عندما تركوه ينصرف لحال سبيله ؛ إذ أنه أصبح الآن بفضل تكوينه الإسباني يضاعف من وسائل عمل والده (29) . بيد أن المقيم العام خوردانة أظهر امتعاضه منه على الفور. كذلك سارع أيثورو من مليلية إلى شجب المبادرة ملقيا مسؤوليتها حصرا على "المكتب" المحلي لقاعدة النكور (30) .

ذلك أن فكرة خوردانة كانت تقوم لا على التخلص من القاضي عبد الكريم بل بالعكس على استمالته من جديد. إذ أن الإنزال الذي تمكن هذا الأخير من إفشاء أمره للقبائل تم التخطيط له من جديد على أساس تنفيذه في غضون فصل الصيف. لم يكن بالإمكان بالطبع إنجاح المشروع إلا إذا لم يكن القاضي عبد الكريم في المعسكر المضاد. على أنه كان يلزم ما هو أكثر من ذلك لتنفيذه بأقل ما يمكن من التكاليف ومن الممكن حتى بدون عناء . لأجل هذا كان الإسبان ما يزالون يعتقدون بأن لا غنى لهم عن المشاركة الفعلية لعبد الكريم وبدون قيد ولا شرط (31) . أن الاوان إذن لا لاغتياله - والعياذ بالله - وإنما للتوصل إلى مصالحته لقاء حرية السي محند الذي يمكن أنذاك إعادته إلى وظيفته .

بما أن العقيد ريكلمي كان هو الشخص الأكثر تأهيلا للنجاح في هذه المهمة ، فإنه هو الذي قدم شخصيا إلى النكور حيث تطلب الأمر ما لا يقل عن شهرين من الجهد للحصول على مقابلة سرية مع القاضي عبد الكريم أسفرت عن نتائج حاسمة . تعهد الاسبان بالإفراج عن ولده وإحاقه بوظيفته ، كما تعهدوا بتتحيه المسؤولين بقاعدة النكور الذين أصبح التفاهم بينهم وبين القاضي عبد الكريم مستحيلا (32) . مقابل هذه التعهدات ، تخلى هذا الأخير عن فكرة الريف المستقل ، تلك الفكرة التي داعبته في وقت من الأوقات ولينهمك كسابق عهده في جمع شتات الفريق الموالي للاسبان . حينئذ أصبح بالإمكان تحديد التدابير التي من شأنها تيسير استقبال الجنود المنتظر انزالهم على الساحل الريفي . كانت لائحة الرهائن المطلوبين من أجل هذه العملية قد تحددت عندما تم أخيرا الإفراج عن السي محمد في بداية غشت 1916 وفي الوقت المناسب ليقتضي بجانب أسرته عيد الفطر (33) .

انتهت الأمور إذن على أحسن ما يرام على الأقل فيما يخص هذا الجانب . على أنه كان من الواضح أن مشكلا جديدا سينشأ من هنا بالذات . إذ كان يتعين إخفاء الانقلاب الجديد عن الريفيين ، ذلك الانقلاب الذي بفضلله أمكن الحصول على هذه النتيجة . فعندما كتب القاضي عبد الكريم في 6 غشت الى الجنرال أيتوررو لتقديم تشكراته وطمأنته على ما يبذله من حماس في اتخاذ كل الترتيبات المتعلقة بعملية الانزال البحري ، أضاف قائلا : " لكن يتعين لأجل هذا التسلح بمنتهى الحذر وبأقصى ما يمكن من الحذر حتى لا يتفطن أحد إلى الدور الذي أقوم به في العملية إلى أن يكمل مشروعكم بالنجاح بعون الله " (34) . نرى إذن أنه كان واعيا بما يكتنف موقفه من صعب ؛ إلا أنه كان يعتقد أن مدتها لن تطول ؛ فإنه بمجرد ما سيضع الاسبان أقدامهم في اليابسة لن يعود في حاجة في ظل أسلحتهم إلى الاحتفاظ بالقناعات .

من سوء طالع أنه الغزاة ترددوا من جديد ، للمرة الثالثة في ظرف خمس سنوات ، مما أدى إلى انهيار هذه التوقعات . فإنهم ألغوا مشروع انزالهم مع أن كل شيء كان مهيا في اليابسة لتعبيد الطريق أمامهم (35) . معنى هذا أن المصاعب التي كان يواجهها ، والتي اعتبرها عابرة ، ستستمر في الحقيقة إلى ما لا نهاية . من ثم أحس بضرورة اتخاذ تدابير فورية لتأمين نفسه .

بالفعل شاع خبر في نهاية شهر غشت ارتاع له الاسبان ، مؤداه أن القاضي عبد الكريم خرج لمقابلة عبد المالك عدو الفرنسيين بمعية مائة إلى عدة مئات من المقاتلين

- لم يكن عددهم معروفا بدقة - (36) . هذا ما لم يسبق له أن قام به اطلاقا حتى في فترة الخلاف معهم . لماذا إذن أقدم عليه الآن وبعد المصالحة ؟ .

لم يفت أيشورو أن أشعر السي محند المتواجد وقتئذ بأجدير بأنه غير مرتاح تماما (37) . ولم يستعد اطمئنانه إلا عندما عاد هذا الأخير إلى مليلية وأجرى معه مقابلة قدم له فيها تفسيراً رويت وقائعه في الحين بهذه العبارات :

"صرح لي السي محند أن والده عازم الآن على وضع حد لكل نشاط مع أية دولة أخرى ليعمل معنا ، ومعنا لا غير . انه لا ينتظر لتنفيذ هذا القرار سوى الظروف المناسبة التي تمكنه من العمل بدون إثارة المتعصبين الذين قد يبعونه من صفوفهم مما يجعل تعاونه معنا مستحيلا ، وهذا دون اعتبار الأخطار التي يتعرض لها في أملاكه وربما حتى في شخصه . إنه يعمل لحسابنا منذ أن قدم سرا لاستئناف اتصاله بنا . لكن عليه أن يتخذ التدابير لكي يوهم إخوانه بأنه ما زال متفانيا في خدمة مصالح الألمان والترك " (38) .

من جانبه ، حرص القاضي عبد الكريم ، بعد عودته من زيارة عبد المالك ، على أن يطمئن أيشورو حيث كتب إليه بأن عليه ليبقى مخلصا لتعهداته حيال اسبانيا " اللجوء إلى الحيلة والسياسة " (39) . وما الحيلة هنا سوى توظيف عبد المالك والألمان والأترك لدر الرماد في العيون قصد حجب تعاونه المتجدد مع الاسبان .

لكن مع مرور السنين انفضحت هذه الأحاييل ولم تعد تنطلي سوى على قلة قليلة :

"إن عبد الكريم الأجاديري يشكل في الساعة الراهنة الموضوع الوحيد لثثرة القبائل المجاورة كلها . فبعضها يراه صديقا لاسبانيا ، بينما بعضها الآخر يراه صديقا للألمان نظرا لزيارته الأخيرة لعبد المالك محيي الدين . لكن الرأي السائد منذ عودة ولده [السي محند] هو أنه صديق لنا " (40) .

نرى إذن أن سياسة التضليل أخطأت هدفها فيما يخص الأهم . وحتى لو كانت قد أصابته ، فإن بقية البرقية تقودنا إلى الاعتقاد بأن الفشل كان تاما في جميع الأحوال . نقرأ فيها بالفعل :

"إن الرأي السائد يوم الاثنين بسوق الرواضي هو أن جميع المسيحيين أعداء بغض النظر عن انتمائهم إلى هذه الدولة أو تلك . والريفيون إذن ينتظرون عودة عبد الكريم وجميع من رافقوه إلى عبد المالك . وإذا تبين لهم آنذاك أنهم متوطنون مع المسيحيين فسيعاقبونهم كلهم وستصرم النيران في منازلهم " (41) .

ظهر بالتالي أن الرأي العام الريفي خطا خطوة جديدة على درب تطوره . فبعد
أزيد من سنة على ترده بشأن الألمان تراه فجأة ، وقد انقشعت الغشاوة عن عينه ،
ينبذهم نبذه للأسبان وبكل عزم وإصرار . لقد تقادم الزمن على موقف اللامبالاة الذي
استفاد منه عبد الكريم لحد الآن عندما كان يسانداهم . قد يغض الريفيون الطرف عنه
إن هو استمر في تعامله مع الأتراك أو مع عبد المالك . لكن إذا تبين لهم أن وشائج هذا
التعاون تشمل الألمان فلا بد أنذاك من معاقبته . معنى هذا أن القاضي عبد الكريم ، وقد
أعلن عن رهانه الجديد وأقام الدنيا وأقعد لها ، إنما خاض لعبة لا طائل من ورائها .

* * *

على أنه ما لبث أن تلقى تحذيرا من الريفيين . ففيما كان يتباهى أمام أيثيرو
بالحيل التي يجيد حبكها ، أقدم هؤلاء على هدم بناية له قرب الشاطئ لمجرد ماجرت
اشاعات بأنه سيخصصها للألمان⁽⁴²⁾ . هل من المعقول والحال هاته أن يتمادى في حمل
القناع الذي لم يعد يجدي نفعا في أحسن الأحوال ، بل ومن شأنه بالخصوص أن يجر
عليه مزيدا من الأخطار ؟ الأولى له أن يزيحه عنه ويواجه المقاومين بوجه مكشوف
بالاعتماد على الأقل على تنظيم الفريق الموالي للإسبان .

يبدو من المؤكد أن خبر انقلابه أصبح معروفا منذ منتصف نوفمبر 1916 . هذا ما
تفصح عنه برقية صادرة من قاعدة النكور ، وقد جاء فيها :

" إن المتمردين ما يزالون عازمين على إضرار النيران في منزل الفقيه السي عبد
الكريم ، إلا أنهم لا يجرؤون على الإقدام على العمل علما منهم بأنه يستطيع الاعتماد
على جماعة بورجيلة [رئيس الفريق الاسباني] الذي لن يذخر وسعا للحيلولة دون تنفيذه ،
وكذلك لأنهم لاحظوا أن أصدقاء اسبانيا تكتلوا وأخذ بعضهم بتلايبب البعض للدفاع عن
أنفسهم"⁽⁴³⁾ .

بعد مرور شهر لم يبق هناك مجال لأي شك . إذ أصبح القاضي عبد الكريم
يصرح علانية بأنه لم يعد يساند قضية الألمان والترك . أشعر بذلك عبد المالك بنفسه
معلنا لرجال شبكته بأنه لن يتكفل قط بتسديد رواتبهم⁽⁴⁴⁾ . وحيث ان الريفيين كانوا
يعرفون المأزق الذي وقع فيه بين القضية الألمانية والقضية الاسبانية ، فإنهم لم يكونوا
في حاجة بتاتا إلى تحديد الجهة التي سيكرس نفسه منذئذ لخدمتها . على أن الأمر لم
يعد يتعلق نهائيا ، بالنظر إلى ما وصلت إليه الحالة ، بالعمل في الخفاء كما فعل بالأمس
، أو بدر الرماد في عيون الريفيين. فيما أن هؤلاء اكتشفوا أمره بكامل الوضوح ، فإنه

لم يبق له من سبيل سوى مواجهتهم بوجه مكشوف ، وينحط بلا حياة إلى مستوى بورجيلة الذي لم يخف مطلقا أنه يعمل على تحضير الاحتلال الاسباني . سئى القاضي عبد الكريم يحضر شخصا إلى السوق محفوقا ببورجيلة وزمرته من المأجورين لاسكات الخطباء الذين يتحدثون عن المقاومة أو لاستعمال القوة ضدهم . أما بالنسبة لولده محمد ، الذي سيصبح بعد خمس سنوات رمزا للريف المستقل فيتوجب القول ، وإن كان في هذا القول ما يشوه صورته المشرقة ، بأنه لم يكن فحسب يحذو حذو والده بل وكان يرشده إلى الطريق . كتب في ذلك العصر الجنرال أيتوررو قائلا "لدي أخبار مفادها أن الفقيه يعترم اليوم العمل علانية لصالح اسبانيا كما فعل ويفعل ولده السني محمد" (45) .

أين هو إذن ذلك الخطاب المتبجح الذي وجهه إلى سست منذ ستة عشر شهرا ، والذي أطلق فيه النفير ببناء التحصينات العسكرية على كرت وتأسيس دولة مستقلة بالريف تتولى التفاوض مع اسبانيا ؟ إن أحد عشر شهرا من الاعتقال في الحصن العسكري ، وإصرار الريفيين على عدم الثقة بالقوة الألمانية عندما اتضح لهم أن الحرب الأوروبية لا تعنيهم في شئ فضلا عن كونها تعثرت في معركة فردان ، وإن الآمال العظيمة التي انهارت منذ أمس البعيد والقريب إثر ثورة عبد الحفيظ ، وإن الشعور بكونه بات معزولا عن الجميع وعن كل شئ ، وبأنه يدور في حلقة مفرغة ليقع دائما في يد الاسبان الذين بيدهم الحل ، حلوه ومره ، كل هذا وذاك أرغم هذا الرجل الذي أنفق خمسا وثلاثين سنة من عمره ، والذي كان واقعا رغم انفعاله ، إلى الإذعان للظروف ليجني منها ما يستطيع جنيه من فوائد شخصية .

* * *

كان الاسبان مرتاحين أشد الارتياح من نتائج الضغوط القوية التي مارسوها على عائلة عبد الكريم . فإن إعادة تدجين الفقيه وولده مكن من إعادة تنظيم الفريق الموالي لهم. بالناحية المقابلة لنكور التي كان ما يزال من المقرر أن تتم فيها عملية الانزال . تكون هذا الفريق من مجموعتين : أما أكثرهما عددا ، تلك المجموعة التي ضمت عناصر من كل قبيلة بني ورياغل تقريبا ، من بينها عائلتا شدى والبقوي من أجدير ، فكانت خاضعة للشريف بورجيلة الذي كان ولده عبد السلام يشد عضده . لم تكن هذه المجموعة تخفي بشكل من الاشكال تفانيها في خدمة اسبانيا . أما المجموعة الأخرى التي ترأسها القاضي عبد الكريم مع ولده محمد ، فكانت بالعكس قد حاولت على الأقل في البداية ، الإيهام بأنها تساند القضية الجرسانية التركية . كانت تتلقى على أية حال

وهذا ما أدى إلى تقليص أهمية الخدمات التي تؤديها للإسبان ، لكنها الآن ، أمام فشل مناورتها ، اضطرت بدورها إلى رفع الراية الإسبانية بدون أي تستر . بحيث ان المجموعتين لم تعودا تخفيان جهودهما المتضافرة ، وستدخلان في الأسواق وفي التجمعات بفعالية أكثر . أضف إلى ذلك أنه كان بإمكان القاضي عبد الكريم الحصول أيضا على الدعم من الرجال الذين كان عبد المالك ينقدهم عن طريقه ليعملوا فقط لصالح الألمان والترك ، وهذا في حالة ما إذا تكفلت اسبانيا بتسديد رواتبهم . وهكذا وبعد أن انتضحت أكثر أفاق العمل السياسي أصبح بالإمكان الاعتقاد بأن الانزال الذي فشل في الصيف المنصرم قد توفرت له كل حظوظ النجاح عام 1917 .

في ظل هذه الظروف المواتية ، اعتقد الجانب الاسباني ضرورة تكريس المصالحة التامة مع عائلة عبد الكريم . لأجل هذا تقرر الانعام عليه من جديد براتبه الذي حرم منه منذ 1915 ، بل وتقرر مضاعفة قيمته . كما اتخذت الاجراءات اللازمة لرفع العقوبات المتخذة ضد ولديه ، والسماح للابن الأصغر بالتوجه إلى مدريد بمنحته الدراسية ، بينما تقرر أن يعود الابن الأكبر إلى مليلية ليستأنف وظيفته داخل "المكتب المركزي" . أما وقد تم من جديد استقطاب الولدين ، فإنهما سيكونان بمثابة رهينتين من شأنهما ضمان التعاون الفعال لوالدهما الفقيه ، سواء أكان هذا التعاون صادقا أو غير صادق (46) .

* * *

ما كاد يمضي شهر على إلقاء الفريق الموالي للإسبان بكامل ثقله في المعركة ، بعد أن أعاد تنظيم صفوفه ، حتى لحقت به هزيمة لم يسبق أن عرف لها نظيرا من قبل ، كانت بمثابة ضربة قاصمة له . حدث ذلك في أوائل عام 1917 عندما هاجمت جماعة مدججة بالسلاح الشريف عبد السلام بن أحمد بورجيلية ، الرجل المعروف بطول باعه في ممارسة القيادة ، وأردته قتيلا . لم نتمكن من استجلاء ظروف هذه الحادثة بكامل الوضوح . كل ما نعرف هو اسمي فخذي بني ورياغل اللذين ينتمي إليهما المهاجمون واسمي الرئيسين اللذين قاد كل منهما جماعته (47) . بيد أن هذا يكفي لإبراز الطابع المبيت والمنظم للهجوم الذي نفذ على يد عدد وافر من الرجال للتمكن من السيطرة على فرقة الحرس التي عادة ما ترافق السي عبد السلام . أما بخصوص دواعي الاعتداء ، فلم تكن لتخفى عن أحد . حسب ما سيخبرنا به السي محند ، فإنه "لم يقع إلا لكون

الريفيين رأوا في الشريف السي عبد السلام صديقا لاسبانيا وركيزة فعالة لخطتها الهادفة إلى بسط حمايتها ، وهذه الحقيقة مسلم بها" (48) .

كانت هذه الحادثة في حد ذاتها بالغة الخطورة من حيث انها حرمت الفريق الموالي لاسبان من رئيسه الأكثر شهرة ونشاطاً ومن حيث إنها أظهرت بالمقابل ، قوة وإصرار المقاومة النضالية . على أنها كانت مؤشرا على تصاعد وتأثر العنف التي تعرض لها ، بدرجات متفاوتة ، جميع "أصدقاء اسبانيا" . كان القاضي عبد الكريم وولده مستهدفين أكثر من غيرهما . وهذا ما تأكد بالفعل عندما احتشدت جماعة من الريفيين تنتمي إلى قبائل الناحية حول أملاكهما ثم أضرمت فيها النار وتركتها قاعا صقفا (49) . إنها حادثة تذكرنا بالهجوم الذي تعرضا له منذ ست سنوات ولو أنها تقع على مستوى آخر . فيا لخيبة أملهما من تحالفهما العلني مع الشريف بورجيله ! وأكثر من ذلك ، بينت لهما الحادثة أن اختيار الموقف كان صعبا إن لم نقل مستحيلا . ففي البداية ، وأمام موجة المقاومة المتواصلة والمتصاعدة ، حاول القاضي عبد الكريم وولده التحرر من اسبانيا بالنهوض ضدها ولو بالبحث عن ركائز من الخارج . إلا أنهما تلقيا على يدها ضربة قاصمة . ثم بعد أن عادا إلى الارتقاء بين أحضانها ، تلقيا ضربة قاصمة أخرى ، لكن على يد الريفيين ، وهذا على الرغم من المدد المنتظر من بورجيله .

فلماذا والحال هاته وجدنا عبد الكريم يخرج فجأة لزيارة عبد المالك الذي أكد أنه قاطعه بصفة نهائية ؟ أليس ليجد لنفسه مخرجا من تلك الورطة التي وقع فيها (50) ؟ ان المعطيات تعوزنا للإجابة . لكن كيف يمكن الشك في الأمر ولو أنه يصعب علينا أن نفسر لماذا سيفامر من جديد في طريق مسدودة مع أن محاولاته السابقة لو لوجها باء بالفشل ؟ هل اندفع في هذا الاتجاه تحت تأثير اليأس ، أو أنه اندفع فيه عمدا بغية إقلاق الاسبان الذين تباطأوا كثيرا في تنفيذ وعودهم ؟

مهما يكن فقد قام هؤلاء برد الفعل دونما إبطاء . أخبر خوردا أن هذه الزيارة تعرقل سياسته بصورة جدية وتنسف الاتفاقيات التي انبثت على أساسها مسألة إعادة السي محند إلى وظيفته . بعد ذلك صرح بضرورة اقناع عبد الكريم بأن يعود أدراجه في الحين . وفي الأخير أمر بالاعتقال الفوري للرهائن الذين كان السي محند قد سلمهم عند إطلاق سراحه والذين كان الاسبان قد احتفظوا بهم في مليلية (51) .

يبين أن الاسبان صمموا على منع عبد الكريم من استئناف اتصالاته بعبد المالك . على أن عبد الكريم من جهته لم يكن يستهدف أن يتحداهم في الحقيقة . لهذا اقتنع

فيما يظهر بما أثاره فيهم من فزع وأذعن فوراً لانذارهم ، متظاهرا في الوقت نفسه بأن نيته حسنة (52) .

لاندري كيف تمكن ، بعد عدوله عن التسلل من المعسكر الاسباني ، من إعادة السيطرة على الوضع المضطرب الناجم عن تصفية عبد السلام بورجيلية وإحراق ما في حوزته هو نفسه من أملاك . لكن بما أن السي محند التحق أخيراً بمنصبه في 15 ماي 1917 (53) فهذا يدل على أن الاسبان كانوا مرتاحين في هذا التاريخ من سلوكه .

بالفعل ، كان الفريق الموالي للاسبان قد استرجع خلال هذه الفترة ما يكفي من القوة بأجدير ونواحيها لمواجهة بقية بني ورياغل التي كانت تحاول عن طريق التهديد منعه من تموين قاعدة النكور بالماء الذي لا غنى لها عنه (54) . وبعد شهر كان بمقدور حاكم هذه القاعدة أن يكتب في أحد تقاريره :

" ان الحالة بأجدير تبعث على كثير من الارتياح . فقد تم تدريجياً تصفية الرجال الذين قاموا بإشعال الحرائق أو باغتيال السي عبد السلام [ولد بورجيلية] . إن الفكرة التي تترسخ في الأذهان والتي تقوم على أن أجدير والسواني تحظيان بالدعم اللامشروط لاسبانيا لتخلق حاجزاً وقائياً بين جيراننا [سكان أجدير] والأفخاذ الجبلية" (55) .

* * *

من الحق أن هذه العبارات توحى بهدوء لم يكن يؤمن به القاضي عبد الكريم . بالطبع ، كان هذا الأخير يفضل ، بدلاً من هذا الحاجز الوقائي المزعوم ، الحضور الفعلي للجيش الاسباني القادر وحده على وضع حد نهائي لمتاعبه . وبالفعل فإنه منذ ست سنوات لم يكن يعيش إلا على أمل أن يتحقق هذا الانزال الوهمي الذي تم الاعلان عنه مراراً ، ووقع تأجيله في كل مرة . في هذه السنة أيضاً تقرر من جديد . إلا أن فصل الصيف بدأ دون أن تتخذ أية إجراءات لتحضيره . لذا فقد نفذ صبر القاضي كما تجلى ذلك خلال مقابلة له مع الحاكم الجديد لقاعدة النكور سيفنتوس (Civantos) . يقول هذا الأخير : "أخبرني أنه يرى أن الظرفية الراهنة ممتازة جداً لتحقيق مقاصدنا بسبب حالة التفسخ التي تعاني منها القبائل ، وأن علينا اغتنام الفرصة قبل أن تطرأ طوارئ من شأنها عرقلة مخططاتنا" (56) .

واضح إذن أن صبر عبد الكريم كان قد نفذ ، وما ذلك إلا من جراء تخوفه من الأعمال الانتقامية المحتملة جداً في ظل تنامي نشاط الريفيين الهادف إلى مقاومة

العنوان . بيد أن صيف 1917 مر هو الآخر من دون أن تكون للأسبان الجراءة أو الوسائل لاغتنام الفرصة .

عثرنا بخصوص هذا الموضوع على وثيقة نفيسة تمكنتنا من التعرف على واقع الأحاسيس والأفكار التي كانت تعتمل في الفقيه عبد الكريم ، والتي كنا قد أحسنا باختمارها فيه فإذا به يعبر عنها بنفسه بعد أن حنكته التجربة . حدث ذلك خلال مقامه بتطوان وأثناء مذاكرته مع العقيد كوكولودو (Cogolludo) بديوان المقيم العام خوردانة . سجل هذا الضابط محضرا لهذه المذاكرة نرى من الواجب أن نثبت فيما يلي مقطعاً منه على طوله : « صرح لي الفقيه بأنه عازم كل العزم على العمل لفائدة اسبانيا بجد ونشاط ، بدون قيد ولا شرط ، وبوجه مكشوف ؛ على أنه علينا ، إن كنا نريد التوصل إلى نتائج ملموسة ، أن نقوم باحتلال الخليج لنمد منه نفوذنا إلى القبائل الأخرى ، مستغلين فيه الظروف المواتية الناشئة عن ضعف المحصول الفلاحي في الريف هذه السنة والنقص النسبي في ذخيرة الريفيين .

ولما تبين لي أنه متمسك بضرورة تدخلنا السريع والاحتلال العاجل بما يترتب عليه من واجبات ، فإنني رأيت من واجبي أن أذكره بأنه علينا أن نتقدم بحذر ونقتصر في الساعة الراهنة على تقوية ركائز الفريق الموالي للأسبان ومد إطار نفوذه إلى المداشر والقبائل الأخرى تمهيدا لاختضاع القبائل تدريجيا لسلطة المخزن دون أن نكلف أنفسنا عناء اللجوء إلى استعمال العنف . لأن هذا ما ترمي إليه اسبانيا .

عند سماعه هذه الكلمات ، بدا منزعجا أشد الانزعاج وصرح قائلاً : أصغ إلي إنني منذ اتصالي بكم وأنا أسمع النغمة ذاتها : لا ينبغي استعجال الأمور . إنكم بهذا تضيعون وقتكم وأموالكم . إذا كنتم تريدون منع الريفيين من الالتحاق بعبد المالك من دون أن تحركوا ساكناً ، فاعلموا أن عليكم دفع أموال طائلة ، وإلا فإنهم سيحصلون عليها منه ، وحينئذ ستضيع أموالكم ، إذ لن تحصلوا على طائل من ورائها . ناهيك بما سيقال عنكم بين القبائل من أن القوة والأموال تعوزكم لبسط سيادتكم في الريف . إن هذا بالضبط هو ما فتى الناس يسمعون من أفواه الفرنسيين . إذا كنتم ترغبون حقاً في توطيد سلطة المخزن في الريف ، فلا توجد وسيلة أخرى إلى ذلك سوى أن تعجلوا بالتدخل مفتنمين الفرصة السانحة ، وأن ترفعوا من أجور من يخدمكم ، وتضربوا بقوة على أيدي من يعاديكم ، وتظهروا قوتكم باستمرار على الملأ . أما من جهتي ، فإنني على كامل الاستعداد للعمل . لكنني لا أريد مخادعة الجنرال خوردانة . وأقول لك هذا ليكون هو بنفسه على علم بالامر . إذا لم يعطني الامر بجمع رجالي لتعبيد الأرضية

لاحتلال هذه الجهة أو تلك ، فما عسى أن أقوم به ؟ هل أظل مكتوف اليدين ؟ ليكن . بيد أنني لن أقوم والحال هاته بشئ ذي طائل لصالح اسبانيا . وإذا قال لكم أحد بأنني أقدم لكم خدمات في ظل هذه الظروف ، فإنه يسخر منكم .

"تلك هي الكلمات ، وبالحرف تقريبا ، التي أدلى إلي بها بلهجة قوية ورنه عميقة من الانزعاج . لقد ناشدته أن يتحلى بالصبر إلى أن يحين الأوان الذي يمكن فيه أن يجد مجالا لنشاطه . غير أنه أجابني بأنه سينصرف على أسوأ حال من انشغال البال ، لأنه يرى أن اسبانيا لن تقوم أبدا بعمل يشفي الغليل في الريف طالما لم توطد العزم على توظيف الوسييلتين اللازمتين ، وبما فيه الكفاية ، وهما القوة والمال ، والوقوف يوما على أهبة الاستعداد للانقضاض كلما لاحت ظروف مناسبة . وفيما عدا هذا لا ينبغي أن نعمل على وضع أقدامنا على شاطئ الحسيمة . ناهيك بأن الفريق الموالي لنا سيأخذ في الضعف باستمرار بالنظر إلى أن الزعماء الريفيين لن يجرؤوا على توريط أنفسهم من أجل قضية ليسوا متاكدين من نجاحها في الغد القريب " (57) .

من هذا الدرس السياسي الشيق ، علينا أن نسجل بالخصوص هذا التحذير الصريح ، أو قل المتكتم بعض الشئ ، الموجه من صديق لاسبانيا قد أعياه النزول وحيدا إلى عرين أسود . فكانما لسان حاله يقول : "إما أن تقدموا في الحين لانتشالي من هذا العرين وإما لن أكون مسؤولا عن عدم الوفاء لكم " . لكن ينبغي ألا يعزب عن بالنا ان الاسبان كانوا يتوفرون وقتذاك على رهينتين آخرين لضمان إخلاصه ، ويتعلق الأمر بولديه اللذين كان أكبرهما ، وهو السي محند ، قد التحق بمنصبه في مليلية ، بينما أصبح الوالد الأصغر محمد في مدريد منذ أكتوبر (58) . فبسماحه لولديه معا بالعودة إلى سابق وضعيتهما كرهينتين ، يكون قد قيد يديه بنفسه ، ولم يبق له من سبيل للخروج من وزطته إلا على يد الاسبان ان هم قرروا في الأخير ضرورة التدخل .

* * *

على أن الأحداث المحلية تداخلت لتزيد من همومه وأتاعابه . فمئذ نوفمبر ، ولمايمض سوى سبعة أشهر على إحراق جميع أملاكه ، أصبح من جديد عرضة للتهديد بالاعمال الانتقامية . وثمة حقيقة تسترعي الانتباه ، هي أن هذا التهديد تصاعد من أجدير نفسها . معنى هذا أنه أصبح الآن وحيدا حتى في عقر داره وبين أقربائه (59) .

كل هذا حفزه إلى استباق الأحداث . لماذا لا يحاول إكراه الاسبان على التدخل طالما أنهم لم يوطدوا العزم عليه من تلقاء أنفسهم ؟ لقد تركز مشروعه لحد الآن على

ناحية أجدير ، وهي وإن كانت ملائمة جغرافيا ، إلا أنها وكر للمقاومة التي تنتعش دائما فيها بعد أن يكون الاعتقاد قد ساد بخمودها . ذلك ما يفسر كيف أن الاسبان تراجعوا مرارا عن مشروعهم وفي آخر لحظة . على أنه بالإمكان شحذ عزيمتهم لو اقترح عليهم النزول في ناحية أبعد في اتجاه الشرق ، وفي شاطئ بلوغه سهل جدا ، يقع في أراضي قبيلة أقل عتوا من بني ورياغل ، وبالإمكان كسب تعاملها .

هكذا وبعد أن سدت في وجهه جميع الأبواب داخل قبيلته ، اتجه القاضي عبد الكريم بانتظاره ، في بداية 1918 ، نحو قبيلة تمسمان المجاورة ، التي أصبح أقرب أفخاذها إلى الشاطئ ، وهو فخذ تروكوت ، هدفا لدهائسه . كانت النتيجة أنه تمكن من التوجه إلى قاعدة النكور حاملا معه عروضاً لا تدع مجالا للتردد ، مؤداه أن فخذ تروكوت يطالب الاسبان ، بناء على اتفاق جماعي ، بإزالة جنودهم بشاطئه ، مقترحا تقديم دعمه المتمثل في 900 مقاتل ، بالإضافة إلى رهائن يقدمون كضمانة لتعهداته ، مؤكدا في الأخير أنه لا ينتظر سوى الجواب ليشرع في اتخاذ الترتيبات اللازمة في عين المكان (60) .

جاء الرد الاسباني بالموافقة . فإن خورداة بعد إشعاره ببرقية مؤرخة في 4 أبريل ، أجاب منذ اليوم التالي بأن الاقتراح هام وسيوضع قيد البحث . وكلت هذه المهمة إلى السي محند المتواجد وقتذاك في إجازة له بأجدير . في 24 أبريل أبلغ هذا العقيد ركلمي بنتائج تحرياته . صرح له في البدء بأنه بالامكان في نظره وضع الثقة في جميع شيوخ فخذ تروكوت وقائده علل الذين اقترحوا أن يتم الانزال على شاطئهم . ثم قدم قائمة بأسماء المواقع المتعين احتلالها ، مشفوعة بتوضيحات حول الرهائن المفروض أخذهم ، وعدد المقاتلين من سكان الشاطئ الذين سيقدمون دعمهم ، والمبالغ التي ستخصص من أجل مكافأتهم وكذلك من أجل كسب حياض المتعاطفين من سكان أجدير . أما إذا حدث هيجان في باقي قبيلة بني ورياغل والقبائل المجاورة الأخرى ، فلن يكون له ، فيما يرى ، تأثير كبير نظرا لعدم توفر هذه القبائل سوى على عدد محدود جدا من البنادق (61) .

أهم تعديل أدخله العقيد ركلمي على خطة السي محند هو اختيار يوايوز لادخالها في حيز التنفيذ بدلا من يونيو . إذ أن العمال الريفيين سيكونون في هذا الشهر (يوايوز) قد التحقوا بالجزائر من أجل الحصاد ، مما سيقصص كثيرا من قوة المقاومين . لأجل هذا قام الاسبان حتى باستأجار السفن لنقلهم بحرا على أساس أن تجلي سفينتان

ركابهما في اتجاه ملقا لكي يحتجزوا هناك كرهائن (62) .

نرى إذن أن الأمور قد بدت على أحسن ما يرام فيما يخص هذا المشروع الانزالي الخامس الذي كان من المفروض أن يضع حدا لطول انتظار القاضي عبد الكريم . مع ذلك ، وفيما كان كل شيء جاهزا مرة أخرى على اليابسة لاستقبال " الحماة " ، تكرر نفس الموقف بما ينطوي عليه من حسرة وأسى بالنسبة للقاضي عبد الكريم ، إذ جاءت الأوامر مرة أخرى بإلغاء العملية (63) .،

هل كان بوسع القاضي ، عندما انتصب بطلا للقضية الاسبانية منذ اثنتي عشرة سنة ، أن يتصور أنه سيورط نفسه في مغامرة طويلة بهذا الشكل ؟ الحقيقة أنه كان يعتقد ، بالعكس ، وبالنظر إلى الهيبة التي كانت أوروبا تتمتع بها في نظر المغاربة " المستعيرين " ، أنها سيرورة ستقود اسبانيا بين عشية وضحاها إلى أن تغمر منطقتها بالمزايا التي توفرها الحضارة اليوم ، وتلقي في نفس الوقت بمقاليذ الحكم بين أيدي النخبة الصغيرة التي ينتمي إليها . ذلك ما يفسر تحمسه وتحمس ولده السي محند . سيما وأنهما معا لم يقوما في البداية سوى بأنشطة هامشية أو سرية غير قادرة على إثارة زوابع الغضب الصريح ضدتهما . إلا أن السنوات مرت ، وكان سراب الغزو الذي يتلاشى يوما ساعة الاقتراب منه يفسح المجال في كل مرة لواقع صعب محفوف بالعقبات والشدائد . بناء على ذلك ، وصل القاضي عبد الكريم تدريجيا إلى مرحلة الإعياء والسأم إلى حد أنه قرر ، غداة الحرب الأوربية ، قطع صلته بالاسبان ليحرب حظه في اتجاه آخر ، مع الأتراك والألمان ، وهذا من دون أن يتقلب ضدّهم . بيد أن محاولته هاته أوقعته فيما هو أشر وأدهى ، إذ انتهى به الأمر بعد شتى المحن إلى مزيد من التبعية نحو الاسبان الذين تسببوا من جديد في تعريضه لنقمة الريفيين دون أن يحسموا الموقف بالتدخل مباشرة ليستظل بمظلة حمايتهم الموعودة . إنها إذن حالة يائسة تلك التي عاشها بعد فشل مشروع الانزال الأخير بتروكوت . فإنه هو الذي دعا إلى هذا المشروع وعمل على توفير حظوظ نجاحه . بحيث ان عمله هذا ، وقد ذاع أمره ، شكل عنصرا جديدا لا بد وأن يضيفه الريفيون إلى ملفه .

وهكذا فقد بات أمنه جد محفوف بالمخاطر في أجدير نفسها إلى حد أنه طلب من الاسبان ، وبدون جدوى ، السماح له بالإقامة في قبيلة أخرى (64) .

وفيما كان على هذه الحالة التعساء ، غارقا تقريبا في قاع الشرك ، حدث أن انتهت الحرب الأوربية فجأة بالهزيمة الألمانية . معنى هذا أنه كان خاسرا حتى في هذا

الرهان بما يترتب على ذلك من مخاطر جديدة ، ألا وهي الأعمال الانتقامية التي ستقوم بها فرنسا ضده وضد ولده . إن فشله المزيج مع الاسبان والألمان لم يعد يسمح له بتاتا بتصدر الأحداث وتعريض نفسه للخطر في سبيل خدمة هذه الجهة أو تلك . الأولى له إذن أن يحتجب وينوب بين الجماهير ليتصالح مع إخوانه الريفين ان هو استطاع إلى ذلك سبيلا . ثم عليه فيما بعد ، إذا ما صفت له الأيام وابتسم له وجه الحظ ، أن يتدبر أمره من جديد .

* * *

هناك ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذه القناعة تولدت لديه بمجرد ما علم ، في نهاية يوليو على أبعد تقدير ، بتأجيل عملية الإنزال البحري . لكن يظهر أنه لم يترجمها عمليا إلا فيما بعد . فإنه لم يكن بالامكان اتخاذ القرار في هذا الشأن ما دام ولدها الرهينتان لم يعودا إلى مسقط رأسهما ، وقد كان أحدهما بمدريد والآخر بمليبية . على أن الأمور تصبح متيسرة بمجرد تواجدهما معا بأجدير بمناسبة إحدى الإجازات ، حيث يمكن أن يقوم والدهما باستبقائهما . على أننا لا ندري لماذا لم تستغل الفرصة الأولى التي جاءت مع اجازة عيد الأضحى . مهما يكن فقد تمكن السي محند في منتصف دجنبر من مغادرة مليبية لقضاء عيد المولد النبوي مع أسرته . في أثناء ذلك جاءت الهزيمة الألمانية مضيئة على الوضع بالريف طابعاً أشد اقلاقاً . فزيادة على الاقتناع التام أو شبه التام بأن اسبانيا ليست مؤهلة للاضطلاع بمأموريته في الريف ، فإن الفكرة التي سادت بعد استتباب السلم في أوروبا وحسب شهادة الجنرال أيثورو نفسه هي أن الاسبان على كامل الاستعداد للتخلي عن منطقتهم للفرنسيين (65) . لقد ازدادت الآفاق اكتظاظاً بالغيوم أمام السي محند ووالده المعدودين ضمن أصدقاء الألمان ، سيما بعد أن أقدمت اسبانيا ، بدون روية ، على تسليم الفرنسيين ستين رجلاً من أتباع عبد المالك الملتجئين بمنطقتها . ولئن لم تكن هذه الحادثة ، كما اعتقد البعض ، السبب الرئيسي فيما سيطرأ من جديد ، فإنها ساهمت على الأقل في تسريع مجرى الأمور (66) .

بعد عودة السي محند إلى أجدير ، كان من اللازم أيضا انتظار عودة أخيه من مدريد . بيد أن الظرفية لم تكن مناسبة بتاتا ، إذ تم وقتها بالضبط قبول محمد بالمدرسة المعدنية للمهندسين (67) . مع ذلك ، تمكن هذا الأخير من الحصول على رخصة استثنائية بالتغيب . وفي منتصف يناير ، التأم شمل العائلة بجميع أفرادها بأجدير ، بعيدا عن متناول يد الاسبان (68) .

في هذا الوقت وقد مر شهر على غياب السي محند ، أخذ المسؤولون في "المكتب المركزي " بمليية يستغربون أمر تأخره ، هذا التأخر الذي أصبح مدعاة للقلق بسبب الزيارة التفقدية للقطاع المنتظر أن يقوم بها المقيم العام برنكر في شهر فبراير ، والتي تستلزم تواجد جميع كبار الموظفين في مراكز عملهم في 8 فبراير ، وحيث إن السي محند لم يكن قد عاد بعد ، فقد وجه الجنرال أيتبورو استدعاء له ولأخيه ، عن طريق برقية إلى قاعدة النكور ، للقوم على جناح السرعة قصد تحية الضيف المنتظر (69) . ثم بعد أن لم يرد جواب بشأن هذه البرقية ، وردت برقية جديدة في 19 فبراير (70) أجاب عنها قائد القاعدة في 20 فبراير 1919 بما نصه :

"أخبرني الفقيه عبد الكريم ، عن طريق أحد أقربائه الموفد من قبله ، بأن الذي حمله على عدم السماح لولديه بالالتحاق بمقر شغلها هو كون الأفخاذ الثلاثة ، وهي فخذ آيت علي ، وفخذ المرابطين ، وفخذ آيت يوسف أو علي ، أوفدت إليه رجالها لتحذيره من مغبة السماح بخروج ولديه في اتجاه النكور ، بحجة أن الاسبان ينوون احتجازهما كرهينتين . وبما أنه تخوف من التعرض من جديد للأعمال الانتقامية على يد قبيلته ، فقد منع ولديه القاضي السي محند والطالب المهندس من مغادرة البلد . بحيث إنها يمكنان بجانبه كمجرد شخصين عاديين ، دون أن يحركا ساكنا ضد الاسبان . إنها - فيما يقول - لضرورة تبعث على الأسى بالنسبة لهم جميعا ، خاصة بالنسبة للولدين " (71) .

بعد أن أرق سيفنتوس المبعوث باستجواباته ، علم منه أن عبد الكريم ولديه يتخوفون من التعرض للاعتقال ان ظهر لهم أثر في مليية . ثم استخلص أن السي محند يخالجه الشعور بارتكاب خطيئة يخشى أن يحاسب عليها . على أنه كتب إليه في الحين ، من دون إظهار شكوكه ، منا شدا إياه بتقدير العواقب التي ستمخض عن حدوث القطيعة طالما أنها لم تنكسر بعد (72) . بيد أن المسعى لم يجد فتىلا ، إذ أجاب السي محند منذ اليوم التالي مؤكدا كتابة أقوال والده . وما هي ذي رسالته المترجمة عن الأصل الاسباني ، وستقدمها بنصها الكامل نظرا للمنعطف التاريخي الذي تؤثر عليه وللأسوء التي تسلطها على حيثيات هذا المنعطف :

"جناب السيد دون مانويل سيفنتوس ، وصديقي الحميم

تلقيت رسالتك التي وجهتها بالأمس وتوليت ترجمتها لوالدي . لقد تبادلنا وجهات النظر حول المشكلة المطروحة ، وإليك الآن جوابي .

أشكرك في البدء جزيل الشكر على كل نصائحك الحكيمة والأخوية . إنه لمن

لواعي الأسف الشديد بالنسبة لوالدي وبالنسبة لي أن ينقطع أخي عن متابعة دراسته ،
وأتخلى أنا بدوري عن منصبي . بيد أن هذا هو قرار والدي الذي اتخذته بناء على
الأسباب التالية :

إننا بالنظر إلى علاقتنا الوطيدة باسبانيا ، وإلى أن أي عائلة أخرى في كل
الريف لا توجد على هذه الحالة ، نتوقع ما سيحل بنا من خطوب وما سنتجشمه من
تضحيات كبيرة كتلك التي سبق أن تعرضنا لها . وهذا في الوقت الذي نرى فيه أن
اسبانيا لا تقدم لنا ما يكفي من المساعدة والحماية لمجابهة العداء المتنامي الذي يجره
علينا موقفنا السياسي المخرج بين الريفيين والاسبان . إنها الضرورة إذن هي التي
تفرض علينا القرار الذي نتخذه .

تبصر في الأمر مليا وقل لي ماذا يستطيع حتى أحد منكم القيام به في مكاننا ؟
لقد نصحتني في رسالتك بأن أقدر الأمور حق قدرها قبل اتخاذ القرار . وأجيبك بأن
مبادرتنا ليست نزوة من النزوات ، بل هي مرتبطة بمشكلة درسناها بعناية بالغة ، اللهم
إلا إذا قامت اسبانيا بتصحيح سياستها في هذه المنطقة . على أنه من المفروض ، فيما
أعتقد ، أن تكون السلطات الاسبانية بهذه المنطقة على علم بوضعيتها .

على أية حال ، فنحن الآن كما سنكون دائما من أنصار الرسالة الحضارية التي
تضطلع بها اسبانيا ، وهذا ما تعرفه حق المعرفة . أما بخصوص الكيفية التي سيقم
بها إخواننا سلوكنا ، فإننا لا نحفل بها ، لأنهم أناس متأخرون ، نؤو أفق محدود ،
يقولون دائما على الغير .

إننا لنتأسف كثيرا لعدم التشرف باستقبال المقيم العام . أما من جهتك ، فليس
لدينا بتاتا ما نؤاخذك عليه . نحن بالعكس أصدقاء حميمون ، عملنا معا من أجل قضية
مشتركة . وبإمكانك أن تعتبرنا رهن إشارتك كأصدقاء حقيقيين ، دائما وأبدا .

هذا هو كل ما لدي أن أقوله لك الآن . وتقبل تحيات صديقك .

محمد عبد الكريم « (73) » .

من الجانب الاسباني ، لم يقبل المسؤولون أن يأخذوا مأخذ الجد الأسباب التي
قدمها السي محند ووالده . فأنهم لم يكونوا يتصورون أن تقدم العائلة على التوضيح بما
تتمتع به حقيقة من امتيازات وفوائد بحكم تعاملها مع الاسبان ، بسبب أخطار وهمية

يبدو أنها ضُخمت فوق الحد والتي توجد على أية حال حظوظ لتبديدها نهائيا بمجرد ما يقوم الحلفاء بتسوية القضية المغربية . إن السبب الحقيقي في نظرهم هو تخوف العائلة ، وهو تخوف حقيقي هذه المرة ، من أن تقدم اسبانيا على تسليم السي محند إلى الفرنسيين . فلقد لاحظوا أن هذا الأخير حرص في ختام رسالته على القول بأنه مع والده سيبقيان مخلصين للقضية الاسبانية . معنى هذا أنه ترك الباب مفتوحا ليقوموا بالتوصل إليه بالعدول عن قراره . آنذاك يمكنه أن يضع كشرط التزام الاسبان بضمان عدم تسليمه إلى الفرنسيين إن هم طالبوا به . وبما أن تقديم مثل هذه الضمانة لم يكن وارداً ، وأن العهد لم يعد عهد خوردانة وريكملي للاشادة بمزايا التعاون مع عبد الكريم وولده ، فقد قر قرار سلطات مليلية على وجوب اقالة السي محند وأخيه من المهام التي تخليا عنها ، إن هما لم يلتحقا بمقرها في الأجل المحدد (74) .

إن هذا التفسير الذي ساد بين الأوساط الاسبانية لبعيد عن اقناعنا . فأن يكون السي محند قد رأى من باب الحذر العودة إلى قبيلته حتى لا يقع بين أيدي الفرنسيين ، فذاك أمر محتمل جدا . لكن لماذا سيضحى بنفس المناسبة بكل المكانة الامتيازية التي تتمتع بها عائلته ؟ ألم يكن بمقدور الوالد الاستمرار في دعمه للاسبان انطلاقا من أجدير ؟ وهل كان محمد (الولد الأصغر) مجبرا على التخلي عن دراسته ؟ على ماذا كان يأخذه الاسبان ؟ وحيث إن السي محند ووالده ، تركا الباب مفتوحا لتطبيع العلاقات ، فقد كان أمر استرجاع مكانتهما التي يحسدان عليها منطابا بهما وحدهما ، إن كانت لهما الرغبة بعدما تبين لهما مع الشهور أن الفرنسيين ، بدلا من أن يعبأوا بهما ، كانوا يجهلون حتى وجودهما . لكي ندقق في الأمور ، يتعين القول إن ثمة مسعى على الأقل سيقوم به القاضي عبد الكريم ، كما سنرى ، يمكن تأويله كأخر محاولاته للتقرب من اسبانيا .

بيد أن الشرط الوحيد الذي سيضعه من أجل احتمال عودة العلاقات إلى سابق عهدها ، هو أن تقوم اسبانيا ، لا كما قيل بتقديم ضمانتها ضد الفرنسيين ، وإنما بتغيير سياستها في الريف (75) . لذا لا يوجد ما يدعونا إلى تبني أطروحة الاسبان واعتبار الأساليب التي قدمها المعنيون بالأمر بأنفسهم مجرد حجج ملفقة . سيما وأن هذه تتوافق أيما توافق مع الوقائع التي تتبعنا مجراها منذ بدايتها .

* * *

على أننا ننتوهر على وثيقة أخرى تبين هذا التوافق بكيفية أدق وأكثر تفصيلا من

جميع الوثائق السابقة . يتعلق الأمر برسالة من محمد (بالفتح) إلى مدير " دار الطلبة" التي أقام بها بمديريه ، والتي برز فيها القرار الذي اتخذته والده باستبقائه بجانبه . إن هذه الرسالة ، التي تم تحريرها على مهل بعد رسالة السي محند السابقة الذكر ، تعطينا فكرة مختصرة عن المسار الطويل الذي اتبعه عبد الكريم وولده في ركاب الاسبان . وفيها يفسر محمد ، استنادا إلى الضغوط التي مارستها القبيلة على القاضي عبد الكريم قصد اقناعه بالعدول عن ارسال ولديه إلى الاسبان ، كيف اضطر هذا الأخير تدريجيا إلى الإذعان لمثل هذه الضغوط :

"قبل مؤتمر الجزيرة الخضراء حول حماية المغرب ، كان والدي مقتنعا بأن المغرب غير قادر على المحافظة على استقلاله نظرا لتدني مستواه الثقافي . بيد أن موقعه على الخريطة ، وعلاقته بالجزء الأكبر من اسبانيا ، وأوجه التشابه الكثيرة في نمط العيش ، كل هذا قاد والدي إلى الاعتقاد بأن الدولة التي يحتاج إليها المغرب ، خاصة شماله ، لتكون حليفة له ، أو بعبارة أوضح حامية له ، هي اسبانيا لا غيرها .

لذا وعندما تم التوقيع على معاهد الجزيرة ، انهمك والدي في العمل بكل ما أوتي من قوة وذكاء ، وبكل امكاناته ، لصالح العمل الحضاري لاسبانيا ولنفوذها الاقتصادي والسياسي . وقد قام بذلك رغم ما تعرض له نفوذه من تدهور في الريف بسبب الصداقة المخلصة التي تربطه بكم . وإلى اليوم لم يتوان عن الاضطلاع بهذا العمل بحماس ، وسيستمر في الاضطلاع به كما سنستمر نحن بدورنا . إلا أن هذا العمل لم يعط النتائج المرجوة منه لأن المسؤولين الاسبان ، الذين أنيطت بهم دوريا مهمة تنفيذ سياسة الحماية ، كانت لهم وجهات نظر ضيقة وقاموا بأنفسهم ، بسبب انعدام القيادة الرشيدة ، بتعويق مجهودات الدعاية لصالح اسبانيا .

إليك مثالا توضيحيا : عندما يدرك شيخ من شيوخ القبائل جنوى العمل الاسباني ، يقع بالطبع استدعاؤه إلى أقرب قاعدة منه ، وهناك يقوم المسؤولون بعقد اتفاقيات معه . لكنه بمجرد ما يتورط ، ترى نفس المسؤولين يتركونه وشأنه دون أن يقدموا له أي عون لآخراجه من ورطته ؛ وإذا بهذا الشيخ يفقد نفوذه ، وغالبا ما يفقد أيضا مسكنه ومتاعه ، ويتحول من غني إلى فقير ، بل ويفقد أحيانا حياته . على هذه الوتيرة تنهار سياسة التسرب . أما النتيجة فهي أنكم تنفقون كثيرا دون أن تحققوا أي تقدم .

لقد تعرضنا من جهتنا لأضرار جسيمة في إطار هذا الوضع . لكنني أعتقد أن

والذي ضاق ذرعا اليوم بهذه السياسة المترددة التي لا تعطي أية نتيجة ، بينما تترتب عليها عواقب وخيمة . إننا نريد ، نحن الآخرين ، أن نعمل من أجل تعبيد الأرضية في هذا البلد أمام حضارة أوروبا ، خاصة حضارة اسبانيا . نريد أن نعمل من أجل ازدهاره الفلاحي والصناعي والتجاري . غير أن الدولة الحامية لا تمدنا ، للأسف ، بالوسائل الكافية وبالمساعدة الضرورية التي من شأنها أن تضيف صبغة الفعالية على مجهوداتنا . لقد التمسنا ، أنا شخصيا ، من وزارة الدولة مساعدة لاقامة بناء عصري هنا يكون بمثابة حصن صغير قادر على صد غارات الريفيين المستعدين دائما لصب حمم غضبهم على اسبانيا وعلينا . فقبل مشروعنا بالترحيب ، لكن من دون أن نتخذ أية مبادرة لتنفيذه .

إنها حالة أوردتها على سبيل المثال لا الحصر .

لأجل هذا وجد والذي نفسه مضطرا إلى اعتزال السياسة ، كما اضطررنا نحن إلى البقاء بجانبه . إن الريفيين متأخرون جدا . وقد أقضوا مضاجعنا بضرباتهم لأننا نساند اسبانيا . وبما أن هاته الأخيرة تتركنا وشأننا تجاههم ، فقد بات من المستحيل علينا تحمل العبء على كلا الوجهتين " (76) .

إن هاته الكلمات في غاية الوضوح . فإن القاضي عبد الكريم كانت له دائما نفس النظرة عن الريفيين العاجزين ، في نظره ، عن الخروج من تلقاء أنفسهم من حالة التأخر التي يوجعون عليها . وبالتالي فقد كان يرى أن التدخل الأوربي يبقى دائما أمراً لاغنى عنه ، باعتبار أنه لا يستهدف بالطبع الغزو ، وإنما تمكين هذه النخبة التي يمثلها من تقلد مقاليد الحكم ومدها بالوسائل لتنمية البلد . لكن بما أن الريفيين وقفوا ضد هذا التدخل مستمرين في ضلالهم ، فقد كان من اللازم منذ البداية قمعهم بواسطة عمل سريع وحازم . والحال أن الاسبان تماذوا في تردددهم منذ سبع سنوات على الأقل ، مؤكدين ما يشاع عنهم من ضعف ، ملهين بالمقابل جنوة حماس المقاومين . بالنسبة إليه (عبد الكريم) ، وهو الذي كان يناصر قضيتهم بين إخوانه ، فقد هدمت وأحرقت أملاكه ثلاث مرات . على أنه ما كان ليتحمل هذه النكبات لولا إيمانه بالنصر الوشيك للجيش الاسبانية . فإذا به هذه المرة يفقد هذا الإيمان ، وفي الوقت الذي تعاظمت المخاطر المحدقة به . كيف يستمر إذن في تعريض نفس للتهلكة ؟ الواجب عليه أن يتخلى عن قضية أصدقائه القدامى وإن لم يوافق ذلك مزاجهم . لقد فكر طويلا في هذا الأمر ، بل وقام بالمحاولة . إلا أنه لم يفلح في التخلص لافتقاره إلى التجربة . أما هذه المرة ، فقد اتخذ كافة الاحتياطات . فإن ولديه أصبحا الآن بجانبه ، وسيفيان معه . صحيح أن

بقاعهما سيكلفهما تضحية كبيرة . إلا أن ذلك هو ثمن الحرية التي ستمكن على الأقل من انقاذ المهم .

إنها إذن مجرد عملية انقاذ لا تنال بتاتا من المشاعر التي كان القاضي عبد الكريم وولدها يكتونها للأسبان منذ مدة طويلة . وإذا كانوا ما يزالون يعبرون عن امتنانهم لاسبانيا عما أغدقته عليهم من نعم ، فهذا راجع لا إلى رغبتهم في إبقاء الباب مفتوحا أمام المساومات كما اتهموا بذلك ، وإنما لكون قلوبهم ما تزال تنبض بحبها . تمشيا مع هذا الاتجاه ، فإنهم لم يكونوا ينوون الالتحاق بصفوف المقاومة التي لم يحتكوا بها سابقا إلا في إطار مناورتهم السياسية . أما بالنسبة لمشروع الريف المستقل ، ذلك المشروع الذي لم تكتب له الحياة والذي كان من المفروض أن يتولى التفاوض مع اسبانيا لتعيين الحدود بين الطرفين ، فقد أقبر في المهد قبل أن تقضي الهزيمة الألمانية نهائيا على كل أمل في إحيائه . كلا ، لن تلتصع تباشير المستقل إلا إذا صممت اسبانيا على نهج الأساليب الملائمة لفرض حمايتها .

ومن يدري ؟ فعلمها تصمم على ذلك ذات يوم . آنذاك ، وخاصة إذا ما زودت أصدقائها بالتغطية اللازمة لمقاومة غضب " المتعصبين " سيكون بإمكان القاضي عبد الكريم وولديه العودة من جديد إلى الميدان ليضعوا أنفسهم رهن إشارتها . أما في حالة الارتباك التي يوجدون عليها الآن ، فلا مخرج لهم إلا بمحاولة الانزواء ، والانصراف إلى شؤونهم الخاصة ، بعيدا عن الصراع المتجدد دوما بين الاسبان والريفيين .

ونقول إنها حقا "محاولة الانزواء" . إذ هل كان في مقدورهم ، بعد أن أصبحوا في مأمن من الاسبان ، أن يجنوا راحة البال أمام هيجان محيطهم الريفي ؟

الهوامش

(1) تقرير قاضي التحقيق ، الرائد أنريكي لوبيث سانت (Enrique Lopez Sanz) . يوجد الملف الكامل لقضية القاضي عبد الكريم في :

Mel.; II ; 12 , 32 à 38 ,

وهذا الترقيم صالح لجميع الوثائق التي يتكون منها الملف ، والتي إن نذكر بها إذن في الهوامش اللاحقة التي يحيل إليها . يتضمن الملف الوثائق التالية :

(أ) تقرير الرائد لوبيث سانت الذي أجرى التحقيق بين 8 سبتمبر و5 نوفمبر 1915 .

نذكر من مواده : عناصر الاتهام ، شهادات شهود الإثبات والنفي ، استخلاصات القاضي .

(ب) تقرير القاضي المستمع سنتي فابريكاس (Sente Fabregas) الذي وجه في 13 نوفمبر 1915 إلى الجنرال إيثيورد تقرير قاضي التحقيق ، وهو التقرير الذي قدم يصدد كل ما ورد فيه وجهات نظره الخاصة .

(ج) رسالة الجنرال إيثيورد بتاريخ 19 جينير 1915 والتي استندت إلى القرار المتخذ في فاتح جينير 1915 من طرف المقيم العام خورداثة على الصعيد السياسي .

(د) رسالة وزير الدولة إلى المقيم العام ، التي أقرت في 20 جينير الاجراءات التي اتخذها هذا الأخير .

(2) تقرير قاضي التحقيق .

(3) شهادة حاكم قاعدة الصسيمة (النكور) إلى العقيد روبرتو كافيللا أمام قاضي التحقيق ،

(4) شهادة الملازم الأول العقيد خوسي ريكلمي

(5) شهادة النقيب خوسي بريتا . (Jose Barbeta)

(6) شهادة القاضي محمد بن عبد الكريم

(7) نتائج تحريات قاضي التحقيق

(8) تقرير القاضي المستمع إلى الجنرال إيثيورد

(9) التقرير نفسه .

(10) قرار الجنرال إيثيورد

(11) رسالة الجنرال إيثيورد إلى المقيم العام بتاريخ 19 جينير 1915 .

(12) رسالة المقيم العام إلى الجنرال إيثيورد بتاريخ 20 أكتوبر 1915 .

S . H . M. , Mel. , II , 12 , 43

(13) رسالة وزير الدولة إلى المقيم العام الموجودة في ملف القضية .

(14) برقية من إيثيورد إلى المقيم العام بتاريخ 23 جينير 1915 .

S . H . M . , Mel, II , 9 , 34 ,

(15) تصريحات المبعوث محمد بن الحاج السي محند الذي قدم إلى "المكتب المركزي" موقفا من قبل القاضي عبد الكريم ، بتاريخ فاتح فبراير 1916 .

S . H . M., Mel , II , 9 , 30 ,

(16) رسالة من الجنرال إيثيورد إلى المقيم العام بتاريخ 15 فبراير 1916

S . H . M., Mel , II , 12 , 15 .

(17) جواب المقيم العام إلى الجنرال إيثيورد بتاريخ 19 فبراير 1916 :

S . H . M ., Mel , II , 12 , 2 .

(18) رسالة انطونيو ايبانكوس (Antonio Ibanco) إلى الجنرال ايشبورد بتاريخ 31 غشت 1915 :

S . H . M ., Mel , II , 12 , 13 .

(19) برقية من الحسيمة (النكود) إلى مليلية بتاريخ 29 غشت 1915 :

S . H . M ., Mel , II , 9 , 100 .

(20) محمد أزرقان ، مصدر سبق ذكره ، ص 18 و 19 من المخطوط

(21) المصدر نفسه . وكذلك " نشرة لجنة إفريقيا " (B . C . A . F)

" في التقرير الشهري للحماية " شهر شنتبر 1915 ، نقرا : " إن الدعاية الألمانية في الريف ليس لها تأثير كبير ، لأنها توجه العمل ضد فرنسا بينما توجد اهتمامات القبائل موجهة خاصة ضد الاسبان " .

(22) " السي عبد الكريم أخضر حيان أوبا رعمان إيرايجه شيا صبياتوروخا إرتار شيا إيمان " .

ومعناها بالعرف : إن لعبد الكريم لحية عصفور دوري ، ولقد كان اسبانيا ثم أصبح اليوم ألمانيا . سجل لنا هذه الأفرجة الريفية صديقنا يوسف السويكي بعد التقاطها من عمه شعيب أفلاح الذي قمنا من جهتنا باستطاقته . كان هذا الأخير أحد القادة العسكريين خلال حرب الريف ، وقد شاهد في العصر الذي نتحدث عنه عدة عشرات من الألمان عند القاضي عبد الكريم .

(23) " إن الألمان الذين استقدمهم اللقيح إلى بني ورياغل قد انصرفوا هذه الليلة مع رجال تابعين له ... ويطلق جل الأمازي على الوقائع الحالية قائلين إنها من نتائج المهمة التي كلفت بها اسبانيا السي عبد الكريم ، وهم يحذرون منه رغم تصريحاته الدائمة المعادية للاسبان " برقية من الحسيمة (النكود) إلى مليلية بتاريخ 29 غشت 1915 :

S . H . M ., Mel., II , 9 , 100.

(24) كان هناك جمهور غفير البارحة بسوق الأريعاء بإجدير . وقد عرقل أصدقاؤنا نشاط السي عبد الكريم وصرخوا بأن جميع المسلمين يشجبون تصرفاته . وقد دار نقاش حاد حول ضرورة معاقبة بتاريخ 2 شنتبر 1915 .

S . H . M ., Mel., II , 9 , 99

(25) برقية من الحسيمة (النكود) إلى مليلية بتاريخ 20 يناير 1916 :

S . H . M ., Mel., II , 9 , 112 .

(26) البرقية نفسها .

(27) برقية من الحسيمة (النكود) إلى مليلية ، بتاريخ 16 يناير 1916 :

S . H . M ., Mel., III , 8 , 11 .

(28) برقية من مليلية إلى المقيم العام خوردهانة ، بتاريخ 13 أبريل 1916 :

S . H . M ., Mel., III , 8 , 90

وبرقية الحسيمة (النكود) إلى مليلية ، بتاريخ 28 مارس 1916 .

S . H . M ., Mel , III , 8 , 96 .

(29) برقية من المقيم العام خوردهانة إلى الجنرال ايشبورد بتاريخ 10 فبراير 1916 :

S . H . M ., Mel , III , 8 , 106 .

وكذلك الرسالة الجوية على هذه البرقية بتاريخ 29 فبراير 1916 :

S . H . M ., Mel., III , 8 , 106 .

(30) رسالة من الجنرال ايشبورد إلى المراقب السامي بتطوان ، بتاريخ 29 فبراير 1916 :

S . H . M ., Mel., III , 8 , 102 .

(31) " فيما كان عبد الكريم [السي محند] ما يزال في السجن بعد المتابعة القانونية ، جاءت الأوامر بالاستعدادات لاحتلال الحسيمة ،

- بكيفية سلمية ، بالاعتماد على رجال عبد الكريم [والد السي محند] ، وإذا أمكن بالاعتماد أيضا على رجال قبيلة بقبيلة المجاورة .
شهادة العقيد ريكلي أمام اللجنة البرلمانية للتحقيق حول 'المسؤوليات' :
- De Anual à la República ..., op. cit ., pp. 118 , 119 .
- (32) 'بعد الافراج عنه [السي محند] ، تم نقل موظفي الحسيمة [النكور] الذين يتحملون مباشرة مسؤولية الأزمة مع عائلة عبد الكريم ' .
شهادة العقيد ريكلي التي سبق ذكرها ، نفسه ، ص 120 .
- (33) نفس المرجع المذكور في الهامشين 31 و 32 .
- (34) رسالة القاضي عبد الكريم (الترجمة الاسبانية) إلى الجنرال أيتوبو ، بتاريخ 6 غشت 1916 .
- S . H . M., Mel., II , 10 , 24 .
- (35) نفس المصدر المذكور في الهامش 31 .
- (36) برقية من حاكم إلى مليكة الجنرال المقيم العام خورداثة ، بتاريخ 12 شتنبر 1916 :
- S . H . M., Mel., III, 8 , 58 .
- (37) المصدر نفسه .
- (38) رسالة من الجنرال أيتوبو إلى المقيم العام خورداثة ، بتاريخ 24 شتنبر 1916 :
- S . H . M., Mel ., II , 10 , 104 .
- (39) رسالة من القاضي عبد الكريم إلى الجنرال أيتوبو ، بتاريخ 26 شتنبر 1916 (الترجمة الاسبانية)
- S . H . M., Mel ., II , 10 , 100 .
- (40) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليكة ، بتاريخ 13 شتنبر 1916 :
- S . H . M., Mel ., I , 8 , 51 .
- (41) المصدر نفسه .
- (42) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليكة ، بتاريخ 30 شتنبر 1916 .
- S . H . M ., Mel., I , 8 , 41 .
- (43) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليكة بتاريخ 17 شتنبر 1916 :
- S . H . M., Mel., I ., 8 , 36 .
- (44) برقية من الجنرال أيتوبو إلى المقيم العام خورداثة ، بتاريخ 21 دجنبر 1916 :
- S . H . M ., Mel., II , 10 , 94 .
- (45) المصدر نفسه .
- (46) تقرير الجنرال أيتوبو إلى المقيم العام خورداثة حول الحالة السياسية في بني وريغل ، بتاريخ 29 يناير 1917
- S . H . M., Mel ., III , 9 , 14 .
- (47) وهما السي عمار المحمدي من فخذ آيت يوسف وألي والحاج الحادي من فخذ المزابطين : ملتمس السي محند بن عبد الكريم الموجه إلى خليفة السلطان بطوان قصد الحصول على تعويض عن الخسائر الناجمة عن احراق املاك عائلته من طرف اعداء اسبانيا ، بتاريخ 14 دجنبر 1917 .
- S . H . M., Mel., II , 2 , 216 .
- (48) المصدر نفسه .
- (49) المصدر نفسه .
- (50) برقية من الجنرال أيتوبو إلى المقيم العام خورداثة ، بتاريخ 8 مارس 1917 :

S . H . M ., Mel ., III , 9 , 2

(51) برقية من المقيم العام خوردانة إلى الحاكم مليلية ، أيشبور ، وهي غير ملوثة ، إلا أنها ترجع إلى الفترة الممتدة بين 8 و 11 مارس 1917 :

S . H . M ., Mel., III , 9 , 6 .

(52) رواية عن المذاكرة التي دارت بين القاضي عبد الكريم والعقيد بابلو كوكويرو (Pablo Cogolludo) ، بتاريخ 4 نوفمبر 1917 :

S . H . M ., Mel., II , 13 , 53 à 56 .

(53) في ماي 1917 عاد عمليا إلى منصبه بقرار اسباني : تقرير الجنرال أيشبور المذكور في الهامش 46 . إلا أن الاجرمات الأصولية لم تتخذ إلا فيما بعد ، وذلك بظهير خليفي مؤرخ في 22 أكتوبر 1917 ويقرر وزاري مؤرخ في 16 نوفمبر 1917 : ملتصق السي محند بن عبد الكريم المتعلق بنفس الموضوع المشار إليه في الهامش 47 ، غير أنه موجه في 17 جينر 1917 إلى رئيس لجنة التعويضات (وثيقة تفضل فتسخها لنا العقيد دون رامون سانتشيث ديات ، وهي ضمن وثائق S . H . M .

(54) رسالة من الحسيمة (النكود) إلى الجنرال أيشبور ، بتاريخ 11 غشت 1917 :

S . H . M ., Mel., III , 9 , 50 .

(55) المصدر نفسه .

(56) رسالة من الحسيمة (النكود) إلى مليلية ، بتاريخ 11 يونيو 1917 .

S . H . M ., Mel., III , 9 , 60 .

كانت الحالة المزجية في القبائل ناجمة عن انعدام محصول سنة 1917 .

S . H . M ., III , 9 , 60 ;

(57) محضر عن المذاكرة التي دارت بين القاضي عبد الكريم والعقيد كوكويرو ، بتاريخ 4 نوفمبر 1917 ، وقد سبق ذكره في الهامش 52 .

(58) رسالة من وزير الدولة بمغربي إلى الجنرال أيشبور معلنة إقامة الطالب الشاب بدار الطلبة (Residencia de Estudiantes)

S . H . M ., Mel. II , 13 , 42 .

(59) برقية من الحسيمة (النكود) إلى مليلية ، بتاريخ 15 نوفمبر 1917 :

S . H . M ., Mel., III , 9 , 36 .

(60) برقية من الجنرال أيشبور إلى المقيم العام خوردانة ، بتاريخ 4 أبريل 1918 .

S . H . M ., Mel ., III , 9 , 36 .

كان الفرنسيون على علم بما يجري في قبيلة تسمان . وفي 10 أبريل كتب المقيم العام إلى وزارة الشؤون الخارجية يقول : " إن المفاوضات من أجل شراء مرزا إيريس تتواصل بشكل حثيث بين عبد المالك والامان عن طريق برقدور قائد تسمان ، القبيلة التي يدخل هذا المرزا ضمن ممتلكاتها :

P . LYAUTEY : Lyautey l'Africain ; op . cit. , III ., 297 , 298 .

يبد أننا نلاحظ أن معلومات الفرنسيين كانت ما تزال غير مضبوطة تماما ، سواء فيما يتعلق بالتفاصيل أو بجوهر القضية ، كما أنها كانت تستهدف ، تبعا لمقاصد ليوطي ، تضخيم الخطر الألائلي في الريف وشجب ضعف أو مجاملة الاسبان .

(61) شهادة العقيد ريكلي أمام اللجنة البرلمانية للتحقيق .

De Anual a la República ..., op . cit. , p. 121

(62) تقرير العقيد ريكلي حول مشروع الانزال ، بتاريخ 4 يونيو 1918 ، وقد ذكره مؤلفه في الشهادة المشار إليها في الهامش

61

63) شهادة ريكمللي المشار إليها في الهامشين 61 و 62 .

64) "يقول، الفقيه [عبد الكريم] إن وضعية بين القبائل تتعرض للأخطار كل يوم بسبب الأدلة البينة التي قدمها بعد انضمامه للفضية الاسبانية . لذا ، فإنه يطلب بأن تسمح له بالإقامة في تسمان إلى أن يكون ظهوره في بني وريغل ضروريا ليعمل هناك بنشاط بغية الحصول على نتائج سريعة :

برقية الجنرال أيبورو إلى المقيم العام خوردانة ، المذكورة في الهامش 60 .

65) في وصفه للحالة السياسية العامة بقطاعه ، كتب الجنرال داماسو برنكر ، الذي خلف كومن خوردانة : " لقد اعتري الفترة تدريجيا أصدقاؤنا الذين كانوا تحت تصرفنا ، وكثيرة هي الشخصيات الهامة التي ابتعدت عنا ، مما أدى إلى تفكيك الفرق الموالية لنا التي كلفنا انشائها الشيء الكثير ، وأدى إلى تدهور نفوذنا بما يترتب عليه من تشويه سمعتنا . لقد تولد عن هذا ارتياب في قدرتنا على العمل ، بحيث يعتقد اليوم أننا عاجزين عن القيام بعمل قوي أو أننا ، وهو ما أدهى ، على كامل الاستعداد وبموافقة تامة من شعبنا على التخلي عن المشروع لفائدة الفرنسيين . لقد ترسخت هذه الفكرة في الأذهان منذ انتهاء الحرب " : S . H . M., Mel., III, 1,3 á 16 .

66) وهو رأي ريكمللي الذي كان على معرفة جيدة بالسي محمد . يتعين القول بأنه لم يعد في هذا التاريخ في " المكتب المركزي " إذ أصبح قائدا لأحدى الكتائب . هذا ويصريح ريكمللي أمام لجنة التحقيق البرلمانية حول " المسؤوليات " بأن السي محمد كان قد متأثر لتسليم هؤلاء المغاربة إلى الفرنسيين ولربما سأل الزائد مرتنت مونخي (Martínez Monje) المكلف بهذا التسليم بقوله : " لو أن فرنسا طالبت بتسليمي لأذعن " . ومع أن مونخي أنكر ، فإنه قال معاندا : " أعرف أنني أدرج كأحد أنصار الألمان بأن الأسبان يريون تسليمنا ، أنا ووالدي " .

De Anual a la República, op . cit . p . , p. 120,

سيكون هذا أيضا هو رأي الجنرال أيبورو كما سنرى .

67) بعد سنة تحضيرية ، فشل في امتحان السخول ، في يونيو 1918 ، إلا أنه قبل في ظروف ممتازة في دورة أكتوبر . شهادة البرتو خيمينث فريد (Alberto Giménez Fraud) مدير دار الطلبة بمدريد ، أمام لجنة التحقيق حول " المسؤوليات " :

De Anual a la República .. , op. cit . p . 53 .

68) نفس المرجع المذكور في الهامش 67 .

69) برقية من حاكم مليلية إلى حاكم الحسيمة (اللكود) بتاريخ 8 فبراير 1919 .

S . H . M., Mel., II , 8 , 28 .

70) نفس المصدر المذكور في الهامش 69 .

71) برقية من الحسيمة (اللكود) إلى مليلية ، بتاريخ 20 فبراير 1919 :

72) المصدر نفسه

73) S . H . M., Mel., II , 8 , 53 .

تولي خوردانة ، وهو ما زال بمنصبه ، منذ ثلاثة أشهر من قبل ، وقد تم تعريضه بالجنرال برنكر . أما بالنسبة للعقيد ريكمللي ، فقد تمت ترقية وأصبح قائدا لأحدى الكتائب .

74) رسالة الجيرال أيبورو إلى المقيم العام برنكر بتاريخ 3 مارس 1919 ، Mel., II, 8 , 49 .

75) انظر ما سيأتي ص 301 ، 302 .

76) رسالة وجهها البرتو خيمينث فريد وأرجت من طرفه في ملف التحقيق الذي أجرتة اللجنة البرلمانية حول " المسؤوليات "

De Anual a la República .. , op., cit. p. 53 .

مثال الريسوني

من المصادفات الجديرة بالذكر أن الاسبان ، في نفس الوقت الذي استرجع عبد الكريم وولده حريتهم ، سجلوا في الطرف الآخر من الرقعة التي تدخل ضمن منطقتهم ارتداداً آخر كان من شأنه في حينه أن يكون أشد اقلاقاً لهم ، نظراً لأن الأمر يتعلق بشخصية ذات وزن كبير ، ونعني بها الشريف الذائع الصيت أحمد الريسوني .

لم يكن عبد الكريم ، يتمتع في الريف سوى بنفوذ منازع فيه داخل قبيلتين أو ثلاث قبائل تدير أمورها على شكل جمهوريات . من هنا خدماته المحدودة ، ولو أنها ثمينة ، تلك التي قدمها لحد الآن . من هنا أيضاً اضطرابه إلى وضع حد لتعامله . أما الريسوني ، فكان بالعكس يحكم قبضته على جل القبائل التي تتكون منها مجموعة جباله الكبرى . لذا شكل في حد ذاته قوة حقيقية ، عسكرية وسياسية على حد سواء . بفضل تحالفه ، تمكن الاسبان من تحقيق مكاسب هامة ، هي الوحيدة على أية حال ، أو شبه الوحيدة ، التي حققوها في ظرف ثماني سنوات ، علاوة على ذلك ، كان يحميهم من القبائل الجبلية الخاضعة له . وعليه ، لماذا انساق هو الآخر ، وفي نفس الوقت ، إلى وضع حد لتحالفه ؟ أليكون ذلك ، كما اعتقد الاسبان ، مجرد حيلة وخدعة ؟ أو هل يكون نتيجة طموح مفرط ؟ نرى من المفيد أن نحسم في الأمر طالما أن المستقبل القريب سيميط اللثام عن الروابط القائمة بين جميع قطاعات المنطقة التي كانت اسبانيا بصدد احتلالها .

في 1919 ، كان قد مر تاريخ طويل وحافل بالنسبة لمولاي أحمد الريسوني (1) .

بدأ هذا التاريخ في السنوات الأخيرة من القرن الماضي ، عندما طرأت تحولات شبيهة بتلك التي عاشها الريف ، مكنت من ظهور عصابات بين القبائل ، مسلحة ببنادق جيدة ، أقامت منظومة إرهابية : فكانت تقوم أولاً بالتهب والسلب ، ثم تتفاوض مع الضحايا للحصول منهم على فدية لقاء رد متاعهم المنهوب . على أن الريسوني وهو يومها مراهق في مقتبل العمر ، ويتيم الأب ، كان منكبا على طلب العلم كما تقتضي استعداداته وأصوله . فهو سليل أسرة شريفة تحظى بالاحترام من كافة القبائل في شمال المغرب ، مما كان يفرض عليه ، وقد اشتد عوده ، أن يحافظ على هذا الاحترام بعلمه ودينه (2) .

للأسف ، اضطرت إلى الانحراف عن هذا الاتجاه الورع عندما نهب بيته وقتلت أمه نفسها أثناء الاعتداء . إنها البندقية هي التي ستساعده على أخذ الثأر ، لا الكتاب . بعد أن صار بدوره رئيس عصابة تمكن من العثور على المعتدين فأتخن فيهم ، واسترجع متاعه بدون أية فدية (3) .

هذا العمل الباهر جعل الناس يرمقونه بعين الاجلال والاكبار إلى حد أن قبائل الناحية هربت إليه ملتزمة مساعدته لأخذ الثأر . بفضل نجاحاته المتكررة ، تمكن من وضع حد للصوصية وفي نفس الوقت تمكن من إرساء دعائم سلطته الخاصة . حينئذ استقطب اهتمام الدولة ، فاستعانت به لقطع دابر للصوصية بقبيلة أنجزه النائية عنها ، ثم ما لبث السلطان أن عينه عاملا على هذه القبيلة اعترافا له بالجميل . كان ذلك في الأيام الأخيرة من عهد مولاي الحسن (4) .

مع الحكم الجديد تم فجأة ، بدون أن نعرف السبب بالضبط ، اعتقال هذا العامل الشاب البالغ من العمر 24 سنة ، وزج به في سجن جزيرة الصويرة ، حيث بقي إلى وفاة با احما ، الوزير قوى الشكيمة (5) .

عندما خرج من السجن في غضون 1900 م ، كان قد صار رجلا آخر . لم يعد مجال اهتمامه موجها إلى التباري مع اللصوص المحليين . فإن رفقاءه في السجن من المعارضين السياسيين ، الذين جئ بهم من فاس ومن مدن أخرى ، فتحوا أمامه آفاقاً جديدة باطلاعه على الأخطار العظيمة التي تهدد مجموع البلاد (6) . لدرء هذه الأخطار ، قرر توليف حمية شبابيه وما اكتسب من امكانات في حياة المغامرة للوقوف ضد المسيحيين وضد السلطان مولاي عبد العزيز الذي كان مجرد ألعوبة بأيديهم . أجل ، لقد أصبح بعد خروجه من السجن هذه الشخصية الغريبة ، نصف الأسطورية ، التي تتداخل فيها في علاقة غامضة ، سمات من العدل والوطنية والصوصية . بعد أن كان منذرا مغمورا ، صارت بذكره الركبان عن طريق اعتقال الصحافي الانجليزي هارس والأميريكي بردكارس ، اللذين أصبحا سجينيه في قلب الجبال ، كما اكتسب ثروة فائضة عن طريق الفدية . مع كل هذا ، فإن السلطان ، الذي وضعه في حالة لا يحسد عليها ، لم يجد بدا من مذاهنته بتعيينه عاملا على طنجة .

بيد أن هذا التعيين لم يجعله لين العريكة . بالعكس ، استغل السلطة التي فوضت إليه للوقوف ضد الخطر الذي كانت فرنسا تمثله بالخصوص في ذلك الوقت . عندما نزل غليوم الثاني بمدينته ، تحلوه نفس الرغبة في احباط مشاريع الفرنسيين ، كان هو الذي

حشد الحشود لاحاطة الاستقبال بروعة صاخبة . ثم سرعان ما رفع راية العصيان ضد عاهله عبد العزيز وتمكن من اعتقال أحد قادته العسكريين ، الانجليزي مكين ، الأمر الذي عاد عليه بفدية أخرى (7) .

كان ذلك بعد مؤتمر الجزيرة الخضراء . وعندما ثار عبد الحفيظ بعد زمن يسير في مراكش ، كان الريسوني من بين الأوائل الذين بادروا إلى إعلان انضمامهم إليه . ذلك أنه علق عليه . مثل محمد الكتاني ، آمالا عظيمة هذا بالإضافة إلى أنه كان مهياً أكثر للتفاهم معه . إذ بدلا من مراقبة يمارسها الرعايا على ملكهم ، كان يؤمن بالعكس بقيادة نيرة تمارس عنفا لا يرحم وسلطة لا تقبل أخذا ولا ردا . ألم يقم هو نفسه بضبط النظام في منطقته بل وبإلقاء القفاز في وجه الدول العظمى ؟

من جهته ، فإن عبد الحفيظ الذي كانت تروقه هذه الأساليب ، جعل بين يديه أمر قيادة القبائل الست عشرة التي تعمر كل المنطقة في الشمال الغربي بين البحر والمحيط إلى المضيق (8) . في كل قبيلة منها ، وضع القائد الجديد حدا نهائيا للانقسامات ، مركزا أنصاره ومستأصلا شأفة خصومه . وسرعان ما أصبح اسم الريسوني يثير الرعب في منطقة شاسعة لم يكن أي واحد ليجرؤ فيها على التملص من إمرته . كان يحكم فيها كائنه ملك من الملوك . في كل مكان كان له رجاله المسلحون ومزارعوه الذين يشتغلون له في أراضيه . أما في أصيلة ، التي اتخذها عاصمة له ، فكانت الحياة تنتظم كلها حول قصره ، وسجونته المكتظة على الدوام .

بموازاة هذا النجاح المحلي ، انهارت للأسف الآمال التي التمتعت بتبشيرها في الأفق مع تولية عبد الحفيظ . فإنه بعيدا عن استرجاع شبر واحد من الأراضي المفتتحة من المسيحيين ، تنازل لهم على طول الخط : بقبوله مقررات الجزيرة الخضراء ، بتحملة مسؤولية ديون أخيه ، باندفاعه هو نفسه في هوة القروض . ثم إن الأخبار سرعان ما ترامت بآئه أقدم ، بعد أن تخلى عنه الجميع ، وحوصر بفاس من طرف القبائل التي نادت بخلعه ، أقدم على الاستنجاد بالفرنسيين . لقد أنقذه هؤلاء حقا من رعاياه بعد اقتحام عاصمته ، لكن لجعلوا منه أسيرهم وليستقروا في قلب البلاد . كيف لا يعترف بواقع الحال ؟ في نهاية المطاف ، فإن زوكاستي (Zugasti) القنصل الاسباني بالعرائش ، الذي اتخذ الريسوني صديقا رغم أنه مسيحي ، هو الذي كان يرى الأمور على حقيقتها : إنه لمن العبث المقاومة أمام أوربا المتكتلة .

مع ذلك ، لم يكن زوكاستي (Zugasti) يرى المستقبل من وراء منظار قاتم . فيما

أنه ليس بالإمكان اختيار الدولة الحامية ، فقد لفت النظر ، كما فعل بالأمس مرين Marín صديق القاضي عبد الكريم ، إلى حظ المغاربة بالشمال الذين سينجون من الفرنسيين بفضل اسبانيا ، وهي فكرة مارست تأثيرها أيضا على الريسوني (9) . سيصرح بالفعل هذا الأخير بعد مدة طويلة ، وهو يستذكر هذه الفترة :

"لم تكن اسبانيا تمثل في نظري قوة عظمى . لأجل هذا فضلتها في قرارة نفسي على غيرها من الدول . وحيث انها لم تكن تتوفر على قوة عظيمة ، وحيث ان مصالحها كانت تتطابق مع مصالح المغرب ، فإنني لم أكن أراها مهياة لسحقنا . كنت أخالها كأخت كبيرة ستتولى تهذيب هذه البلاد ، ولو تطلب ذلك من المغرب أن يرد لها ذات يوم ما ستدفعه عليه من نعم ، كأخ معترف بالجميل ، مفعم بالمودعة " (10) .

على العموم ، كان يعتقد أن الحماية برعاية اسبانيا لن تكون كلمة عقيمة . لذا قرر ، وقد رأى فاسا تسقط تحت سيطرة الفرنسيين ، أن يضع الثقة في الاسبان . لكنه وجه اليهم منذ البداية تحذيرا نستشف منه ما كان ينتظره منهم وكذلك ما كان يتخوف منه . فعندما قدم توماس ما يستري (Tomás Maestre) ، السيناتور بمدريد ، للاستكشاف عن نيته ، نصحه بشدة بالآ ينزل الاسبان سوى الحد الأدنى من جنودهم على أن يبقى هؤلاء مقيمين بالميناء ؛ وهكذا فقد أوضح له قائلا :

"إن اسم اسبانيا مستحب لدى المغاربة . لكن إذا استقدمتم قوات كبيرة ، فإن هذا الاسم لن يلبث أن يصبح بغيضا ، لأن المغاربة سيعتقدون حينئذ أنكم تريدون الهيمنة بقوة السلاح " .

عندما سأل ما يستري عن سيتولى في هذه الحالة ضمان النظام والأمن ، أجابه الريسوني : "إنهم جنودي" (11) .

إنه تقدير في غاية التعقيد ذلك الذي يستشف من هذه الكلمات . فعلى الحضور الاسباني الذي اعتبر ، كما رأينا ، بمثابة وقاية من التهديد الفرنسي ، أن يدعم الريسوني ويعتمد عليه في آن واحد .

يفترض هذا أن يترك له الاسبان زمام الأمور كلها بيده وأن يتحلوا برزانة كبيرة لتجنب إثارة الرأي العام . بهذا الشرط المزدوج ، يتكفل الريسوني بحمل القبائل على قبول الحضور الاسباني ، وإن اقتضى الأمر بفرضه عليها ، وإلا ، فإنه سيجد نفسه بين الاكراه الاسباني وغضب اخوانه ؛ في هذه الحالة لن يتحمل أية مسؤولية .

في هذا الطرح تدخل بالطبع ، وفي المقام الأول ، إرادة الهيمنة لرجل حريص على المحافظة على كامل سلطته . لكن من الخطأ اعتبار تلويحه بالتهديد الشعبي مجرد تحايل يرمي من ورائه إلى إرهاب الاسبان . بدلا من التحايل ، يمكن القول انه كان ساذجا عندما علل النفس بأن الاسبان لن تحنوهم الرغبة في الاستئثار وحدهم بالسيادة بعد استقرارهم في البلاد .

أما التخوف الذي كان يشغل باله في حالة انهيار هذا الأمل ، فهو تخوف حقيقي لا تمويه فيه . فإنه كان واثقا جدا من نجاحه ما دامت المسألة لا تهم إلا المغاربة . إلا أنه كان يخشى من أقول نجمه لو ثبت أنه عميل للاسبان . وفضلا عن ذلك ، هل كانت له الرغبة في الاضطلاع بهذا الدور ؟ مهما يكن فقد كانت المخاطرة لا تخفى عن بصره . وإذا قرر المراهنة على التدخل الاسباني ، فلتعذر وجود خيار أفضل .

بالفعل ، بعد ثمانية أيام من المذاكرة مع السيناتور مايس تري . استقبل في ميناء العرائش العقيد سلفستري الذي تمكن بدون صعوبة من انزال قواته الاحتلالية . ثم ساعده على احتلال القصر الكبير لإحراز قصب السبق على الفرنسيين ، وفتح له أبواب أصيلة حيث يوجد مقر حكومته . لقد كان يخوض اللعبة (12) .

أما بالنسبة لسلفستري ، فقد تظاهر بأنه يريد مكافأته حيث اقترحه لتولي منصب الخليفة الفخري ، ككاتب للسلطان في كل المنطقة الأيالة لاسبانيا . إلا أنه سعى في نفس الوقت إلى تحطيم سلطته في الأراضي التي يحكم فيها (الريسوني) بتعيين مسؤولين من خصومه ، وبالتفاوض مباشرة مع القبائل الخاضعة له ، وبإفراغ سجونهم بأصيلة كآخر إهانة وضربة قاصمة له (13) . بعد أقل من سنتين ، تفاقم التوتر بين الطرفين إلى حد أن الريسوني ، وقد تخلص عن كل السهول التي دخلها العدو بفضل ، التجأ في مارس 1913 إلى قبيلته الأصلية ، هي قبيلة بني عروس في أعالي الجبال (14) .

في هذه القبائل كما هو الشأن في تلك التي لم تكن اسبانيا قد أخضعتها بعد كان ما يزال سيد الموقف . إلا أنه سيد مستضعف وذو سلطة مهزوزة بسبب تواطئه مع الاسبان . لإعادة تعزيز موقفه ، اضطر ، حسب شهادته نفسها ، إلى "مصالحة ومسايرة القبائل" (15) ، التي كانت روح المقاومة متأججة فيها . بل ودعا هو نفسه إلى حمل السلاح ، موضحا أن تعامله مع الاسبان لم يكن سوى محاولة نابعة من حسن نيته ، استهدف من ورائها درء الخطر دون اراقة الدماء . حسب أقواله ، فإنه كان يعرف قبل

إقدامه - ببعض النفور- على هذا الأمر ، أن محاولته قد تنتهي بالفشل ، كما وقع بالفعل ، وأنها ستلصق به في جميع الأحوال التهمة المريرة بالتحويل إلى مسيحي . لكن كان من واجبه - كما أوضح - بذل مثل هذه التضحية لخير شعبه (16) .

بيد أن هذا الكلام المعسول لم يكن كافيا لتسكين الحملة التي قامت ضده والتي أصرت على اعتباره أكثر من مسيحي ، وعميلا للإسبان (17) . كتب بنفسه فيما بعد مستحضرا ذكرى هذا الفشل :

"لقد طالما شاركت في كل تجمعات اخواني المسلمين وانضمت إليهم في جميع المعارك ، إلا أنهم كانوا يصرحون بأن ذلك مجرد حيلة من أجل خيانتهم ، وبأنني لا أسعى ، بالسير بجانبهم ، إلا إلى خدمة الدولة الاسبانية على وجه أفضل . كنت بهذا بين نارين : فأنتم معشر الاسبان كنتم تتهمونني بأن الثورة من تدبيري ، بينما كان المسلمون يعتبرونني خائنا " (18) .

من الثابت الأكيد أن سلطة الريسوني عرفت في ذلك الوقت تدهورا خطيرا بين إخوانه ، حيث أنهم فضلوا زعيما آخر للجهاد لقيادة المعركة . إلا أن الرجل كان يتوفر على وسائل أخرى ، غير الكلام ، لاسترجاع ما فقدته من نفوذ . فجهازه القمعي الذي أنشأه منذ مدة طويلة كان ما يزال قائما ، وقد وظفه لتصفية أبرز منافسيه مستعملا أساليب العنف والغدر التي يحسن ممارستها (19) .

صحيح أنه كان معقوتا على نطاق واسع ، إلا أنه كان مهاب الجانب من طرف الجميع . بحيث إنه أصبح الرجل الذي يتوجب على الاسبان التفاوض معه إن هم أرادوا استمالة كل القبائل الجبلية التي كانت منذ سنتين تمنع عليهم كل تقدم بحضوره . لم يكن هو نفسه يطمح ظاهريا سوى إلى الاستئثار بهذا النور . وهذا بالطبع شريطة أن يكافئه الاسبان عن خدماته حق المكافأة ، بإبقائه في سلطته وتزويده بالوسائل اللازمة من أجل تدعيمها ، من مال وأسلحة .

بعد أكثر من سنة من المفاوضات ، تم انتزاع الاتفاقية في ماي 1916 . عندئذ عبد الطريق في الحين أمام المقيم العام خوردانة الذي تمكن أخيرا ، بعد دخوله الفينديق ، من ربط الاتصالات بين قطاعيه الغربيين ، قطاع العرائش على المحيط الأطلنطي ، وقطاع سبتة على البحر الأبيض المتوسط . ثم ساعده على إخضاع القبائل المشرقة على الطريق المارة بين هذين القطاعين ، خاصة منها قبيلة أنجرة الكبرى . بيد أنه لم يتوصل إلى هذه النتيجة إلا بالحديد والنار ، وفي معارك اضطر فيها الريسوني

إلى التدخل مع جنوده أنفسهم بجانب الاسبان (20) . كيف يتسنى له منذئذ الاستمرار في درّ الرماد في العيون بخصوص طبيعة علاقاته مع الغزاة ؟

بيد أنه اجتهد في ذلك . فكلما ترامى الاسبان على الأراضي التابعة له إلا وتعلت احتجاجاته سيما وأنه كان يعتقد حقيقة أنه يتعرض للمعاكسات . حينئذ كان يستنفر رجاله للمقاومة . بيد أن هذا الترامي كان بالنسبة للاسبان ضرورة يقتضيها حتى منطق الزحف أينما سنحت به الفرصة . لذلك كانوا يفتاضون لاصطدامهم بالريسوني في الوقت الذي كانوا يتكلمون على مساعدته . ابتداء من 1917 رأى خوردانة أنه يشل عمليا كل التقدم الاسباني ، وأنه لم يعد بالتالي صديقا ، ومن الواجب التصرف معه تصرف الأسياد (21) . تلك هي النوايا بالضبط - وكان الريسوني على علم بها - التي جاء بها برنكر عندما خلف خوردانة في بداية 1919 .

* * *

بيد أن التوتر الحقيقي الذي كان يعارض بين الريسوني والاسبان لم يكن ليبرئ ساحته في نظر القبائل الواعية بكل التقدم الذي حققه العدو بفضل مساعدته . لذا فإن القلق الذي كانت تخلفه كل محاولة ترمي إلى توسيع نطاق الاحتلال كان يثير عليه الخواطر بقدر ما كان يثيرها على الغزاة . ها هي ذي الشهادة التي سيدلي بها ذات يوم حول هذه المسألة حينما سيقول متحدثا عن العسكريين الذين كانوا يهاجمون هنا وهناك لتحقيق مزيد من التقدم :

"لقد جدوا واجتهدوا إلى حد أنهم زعزعوا مواقعي في كل المنطقة من أصيلة إلى قبيلة الأخماس ، بينما كان الجميع خاضعا لي من قبل . هذا ما كلفني تضحيات في الرجال والمال بدون جدوى " (22) .

إن هذه التضحيات بالطبع هي الثمن الذي توجب عليه أداؤه لقمع العصيان . معنى هذا أن المقاومة النضالية ضد الاسبان سارت سويا مع معارضة سياسية تجرأت على مد جنورها ضده هو الآخر . كان بغض القبائل من الحدة والوضوح إلى حد أن خوردانة توهم إمكانية استغلاله لفائدة اسبانيا (23) . وهو ما تبجح برنكر من بعده بتحقيقه ، حيث كتب مخاطبا الريسوني : " أتدري أن القبائل تستقبلنا بكل ترحاب لغاية واحدة ، هي التخلص من سلطتك ؟ " (24) .

كانت للريسوني خبرة كبيرة بالقوة الشئ الذي جعله واعيا بتلك التي تنامت ضده وسط القبائل . ياله من تحول ذلك الذي طرأ على طبيعة سلطته منذ الفترة التي كان فيها

وهو مازال شابا ، يطارد اللصوص ، أو يختطف في وسط طنجة بعض المسيحيين المرموقين . كان وقتها يضرب دائما بعنف ، لكن ليربح الناس من آفة اللصوصية أو ليضرب أعداء المسلمين . كانت القبائل تصفق لكل ضرباته ، وتنصاع طوعا لسلطته ، وتزوده بدون تبرم بالوسائل المادية لتدعيم حكمه . أما المنعطف فقد حدث في عام 1911 . فلئن وطد الريسوني العزم وقتئذ على العمل لفائدة اسبانيا ، فلأنه انطلق من اعتبارات تأخذ في الحساب المصلحة العامة . إلا أنه كان يعرف أن عامة الناس لن يكون في مقدورها بالطبع أن تفقه شيئا من مواقفه ، بحيث كان تعليل النفس بهذا الأمل ضريبا من الأوهام . وفضلا عن ذلك ما الفائدة من التفكير فيه ؟ هل من واجب الزعيم تبرير مواقفه أمام رجاله ؟

مع ذلك ، فإن هذا هو ما ألزم نفسه به بعد أن أن ساءت علاقاته بسلفستري وعاد يقرع سن الندم مستجيرا بقبائله . كان عليه حينئذ أن يسلم طوعا أو كرها بخضوعه لهذه القبائل التي يحكمها . إلا أنه فهم الأمور بطريقة الفارس الذي يحتاج إلى دابته لكي يتقدم ، فيقوم بمداعبتها قبل ركوبها ، ولو اقتضى الأمر أن يضربها بالسوط فيما بعد إن هي جمحت . أجل لقد قاد القبائل إلى الطاعة بعضا الإكراه ، وأمسك برقابها من جديد ليسخرها لخدمة اسبانيا . قامت هاته من جانبها بتزويده بالسلاح لاحكام قبضته على رجاله . لكنه وقع في نفس المعضلة التي سبق أن تخوف منها من قبل كما عكست ذلك الكلمات التي أدلى بها لما يسترى . فبعيدا عن أن تخمد كراهية القبائل للاسبان مع مرور الزمن كانت تزداد حدة عند كل تقدم جديد لهم . إلى أي حد إذن سيصل هذا الوضع ؟ ومن سواه سيكون الضحية الأولى لو أنه انتظر إلى غاية حدوث الانفجار ؟

إن هذا التخوف الذي لم يبرح ذهن الريسوني هو الذي شل فجأة ، في غضون 1917 ، التعاون الذي قدمه للاسبان في الأشهر الفارطة ، أي منذ ماي 1916 ، وهو تاريخ الاتفاقية التي ربطته بهم . إنه السبب الحقيقي وليس ، وكما اعتقد البعض ، إيمانه بالنصر الألماني القريب . بالفعل فإن خوردانة الذي استهواه هو نفسه في البداية التفسير الأخير اضطر فيما بعد إلى التسليم بأن الريسوني، بعيدا عن العودة إلى جادة الصواب، بعد الهزيمة الألمانية ، ازداد تغطرسا وجنوحا إلى الاستقلال ، بل وأقضى به الأمر إلى ترجمة عدائه صراحة بالأفعال (25) . آخر مثال هو أوامره بطرد مهندسي الجيش الاسباني العاملين قريبا منه في نواحي تطوان. صرح فيما بعد للاسبان، محاولا تبرير موقفه بأن هذه المبادرة الصادرة عنه إنما هي مجرد مناورة

سياسية ، إذ حاول بقطع علاقاته معهم بشكل علني تسكين الغضب المتأجج بين السكان (26) .

إن هذا التصريح في غاية الوضوح . ما عساه يكون بالفعل هذا الغضب الشعبي الذي من شأن قطيعة مع الاسبان أن تعمل على تسكينه ، ما عساه يكون اللهم إلا نفس الغضب الذي كان أصدقاء هؤلاء الاسبان أنفسهم يواجهونه بالضبط أيضا في الريف ؟ رأينا بأدق التفاصيل كيف اتخذ الغضب من هذا الجانب طابعا هجوميا في 1918 إلى حد أن عبد الكريم وولديه استحال عليهم أن يؤجلوا مرة أخرى قرارهم المتعلق بوضع حد لتعاونهم مع الاسبان . وما هو ذا الريسوني يخبرنا بنفسه ، في سياق حديثه عن السنة المذكورة ، بأنها تميزت أيضا في كل الناحية الغربية ، في القصر الكبير أو في أصيلة ، بتهور الأوضاع بشكل لم يسبق له نظير (27) . إذا ما رأيناها إذن في نهاية هذه السنة لا يكثر بالفوائد التي جناها من الخدمات الهامة المتعددة التي سبق له أن أسداها للاسبان ، ويصرح بأن غضب الشعب يمكن أن يهدأ بمجرد ما يسود الاعتقاد بانفصاله عنهم ، فهل يبقى مجال للشك في وجود موازنة كبيرة بين تطور مجرى الأحداث في كلا القطاعين ؟

ليس من قبيل الصدفة إذن أن يكون هذا المجرى قد قاد في كلا القطاعين ، وفي نفس الوقت ، إلى نهاية تكاد تكون مماثلة . بعد مرور يوم واحد على الرسالة التي كتبها السي محند بأجدير ، حرر الريسوني بدوره بتانورت ، الواقعة بعيدا في القطاع الغربي رسالة مطولة كانت بمثابة قطيعة فعلية بعد أن حمل فيها اسبانيا المسؤولية الوحيدة للتوتر بين الطرفين . أما وجه الاختلاف ، فهو أن السي محند التجأ إلى المجاملة وأبدى رغبته الصادقة في إنقاذ الصداقة بينما استعمل الريسوني لهجة قوية ووقف موقف التحدي . وهكذا فقد صرح هذا الأخير مخاطبا المقيم العام برنكر : "إذا كنتم تعتقدون أنكم ترهبونني فعليكم أن تعلموا أننا لسنا من هذه الأشجار التي نهزها ، ولكننا بالأحرى من هذه المعادن التي لا تنال منها لا الحرارة ولا البرودة" (28) . ذلك أن عبد الكريم والسي محند لم يكونا عموما سوى رجلين من الأعيان ، كانا مدينين كثيرا لاسبانيا ولم يتفصلا عنها إلا بمرارة ، إذ أنهما تخليا بانفصالهما عن كثير من الطموحات التي لم يتمكنوا من تحقيقها إلا بفضلها . أما الريسوني ، فكان أميرا قبل اتصاله باسبانيا ثم لغم قواعد سلطته بالدخول في خدمتها . كان يشعر بأنه خاسر كل الخسارة إذا لم يعمل على إنقاذ نفسه عن طريق انقلاب باهر يكفي لاقتناع إخوانه بأنه سيبدل منذئذ جهوده لمناهضة اسبانيا بكيفية أكثر مما بذلها في مساعدتها سابقا .

بالطبع كان انقلاب الريسوني الصاحب هو القادر وحده على إثارة الانتباه ، مع

أن المستقبل سيظهر مدى الخطورة المترتبة على الانسلاخ الحذر للقاضي عبد الكريم . لكن المهم هنا أن نلاحظ أن الفوران الساري المفعول منذ مدة طويلة بين قبائل الريف ، كان يعمل أيضا عمله في قبائل جباله التي كانت تعرف مع ذلك ظروفًا جد مغايرة ، وأن هذا الفوران كان في نهاية الأمر المسؤول بالفعل عن قطيعة الريسوني كما كان مسؤولا عن قطيعة القاضي عبد الكريم . معنى هذا أن الأسباب بعد أن أصبحوا محرومين من هذين العنصرين الرئيسيين ، سيضطدمون مباشرة هنا وهناك برفض قبائل أكثر تقطنا وتيقظا ، وتتمتع أيضا بحرية التصرف وفق إرادتها الخاصة. وبالتالي فقد كان أمل خوردانة ضربا من الأوهام عندما اعتقد أن القبائل ستساعده على كبح جماح الريسوني. وماذا يقال عن خلفه برنكر الذي صرح متبجحا بعد يومين أو ثلاثة أيام من ارتداد كل من الريسوني وعبد الكريم : "لقد قلت دائما ان مشكل افريقيا ليس مشكلا عسكريا" (29) . إن هذا لأقل ما يستطيع قوله في الوقت الذي سيرغم فيه بالضبط الفشل السياسي على اللجوء إلى السلاح.

* * *

سيما وأن معطى جديدا أخذ في هذا الوقت يمارس مفعوله على واقع الأحداث نتيجة للمنازعات إن لم نقل للتعويقات الفرنسية.

ذلك أن الفرنسيين لم يقدموا بالأمس وعودهم لاسبانيا بمنحها كل شمال المغرب إلا تحت إكراه الضغط الإنجليزي . هذا ما تجلى واضحا عندما تنكروا للالتزاماتهم ساعة التقسيم. ولقد تمكنوا بعد مساومات جشعة من تمديد الحدود إلى ما وراء ورغة ، مع أن الاتفاقية تنص على حصرها فيما قبل الوادي (30) . لكن بالنظر إلى أطماعهم الواسعة ، فإن هذا المكتسب الهام بدا لهم تسوية هزيلة جدا لا تشفي الغليل. بحيث ان نزعة حقيقية لضم شمال المغرب -تكاثر تكون مفضوحة- ألهمت سياسة المستعمرين الفرنسيين ضد شمال المغرب ، وهذا بمقدار ما كان زعيمهم ليوطي يتمتع في المغرب بسلطة مطلقة.

منذ البداية ، حظر ليوطي كل تعاون مع اسبانيا على الصعيد العسكري. هذا ما حرص على توكيده بصفة قطعية في زيارة لمريد وأمام الملك بنفسه (31) . ولئن كان قد اقترح بالمقابل "تعاونه النزيه ويمنتهى الصدق" (32) في الميادين الأخرى ، فلأن الوعود هنا لم تكن تلزمه بشيء. وبالفعل فإنه عوض مد جسور التعاون ، سعى جادا إلى وضع العراقيل. هذا ما فعل بصدد مسألة الخليفة الذي كان يمثل بالنسبة لاسبانيا أهمية كبيرة. كان هذا الخليفة ، بوصفه نائبا عن السلطان ، الشذرة الوحيدة بيد الإسبان

المشروعية التي من شأنها أن تساعد على تجسيد وهم حمايتهم. كيف لا يبذلون إذن قصارى جهودهم للرفع من شأنه ؟ لكن هيهات. فلقد وقف لهم ليوطي بالمرصاد منددا بمظاهر السيادة التي تقلدها الخليفة كما يقول بكيفية غير مشروعة (33). هل لحرصه ، كما زعم ، على المحافظة على وحدة المملكة السياسية (34) أم بالأحرى لرغبته في ضرب البناء الإسباني المتداعي في نقطة ضعفه ؟

من جهة أخرى ، ألم ينتهك هو نفسه الوحدة بكيفية أشد خطورة عندما قام في نفس الوقت بتفكيك هياكل الاقتصاد التقليدي لعزل الريف عن منطقته الخلفية ؟ لأن هذا هو السبب الذي جعله ، وحسب شهادته ، يقف موقف الرفض خلال عشر سنوات من بناء جسر على ملوية السفلى. فبما أن الوحدة كانت في هذه الحالة ستساعد الإسبان على إنعاش منطقتهم ، فإنه ضرب بها عرض الحائط وهو مرتاح البال ، ليربط ضد طبيعة الأمور شرق البلاد بالسوق الجزائرية (35).

من الحق أنه فكر عشية الحرب في تغيير موقفه تحسبا للخيار الذي كان على اسبانيا أن تقوم به في بداية الصراع (36). وحتى بعد أن بقيت هذه محايدة ، فقد اضطر إلى أخذها بعين الاعتبار ؛ وإلى غاية الهدنة ، ظل حريصا على عدم المس بالوضع القائم فيما عدا مرة واحدة ، وبصدد طنجة ، التي أراد جعلها قاعدة للبحرية الفرنسية (37). مع ذلك ، فإنه لم يتخل عن مطالبه. خلال السنوات الأربع من الحرب ، هيا ملقا ضحفا من المآخذ ضد الإسبان متهما إياهم بتحويل منطقتهم إلى قاعدة ألمانية ضد فرنسا. وبمجرد ما وضعت الحرب أوزارها ، ويدون أن ينتظر حتى الإعلان عن الهدنة ، حرر لحكومته ملتمسا معربا عن رغبته في وجوب عرضه على مؤتمر الصلح.

نقرأ في هذا الملتمس : منذ أن لم يبق هناك داع ، كما كان الشأن في السنوات الأولى من الحرب ، لمدارة اسبانيا قصد كسب تحالفها ، ومنذ أن أصبحنا نتوفر على ملف جاهز حول إقدامها على وضع منطقتها في خدمة ألمانيا ، لم يبق هناك سوى حلين لا غير علينا أخذهما بعين الاعتبار : اما "التخلي عن مجموع المنطقة الاسبانية" لفرنسا ، وهو الأمر الكفيل وحده "بتكريس وحدة تراب الإمبراطورية الشريفة تكريسا منطقيا وتاما" ، وإما التخلي الجزئي عن المنطقة المذكورة ، وفي هذه الحالة لابد وأن يضم "الحد الأدنى" الذي تطالب به فرنسا كل الأقاليم الواقعة في غرب وكذلك في جنوب وشرق القوس الذي تشكله قمم الجبال الريفية ، بما في ذلك منطقة طنجة الدولية (38). بعبارة أخرى ، سيقصر الحد الأقصى الذي سيبقى لاسبانيا على الجدار الذي يرتفع عن البحر من سبتة إلى مليلية على وجه العموم . وعلى هذا الأساس يتضح أن الاختلاف بين

الصيغتين اختلاف بسيط .

كلما كان ليوطي يقوم بتحضير مشروع كبير ، إلا وشاهدنا ميلاد حملة متنوعة تشن بمهارة من أجل تدعيمه على مختلف المستويات : من رأي عام ، وبرلمان ، ووزارات ، وأوساط دبلوماسية ، تلك الحملة التي يظهر فيما بعد أنه هو الذي قام بتنظيمها بتنسيق مع مصالحه. علي هذه الوتيرة جرت الأمور في الحالة التي تهمنا هنا. فما كاد يسلم الحكومة ملتتمسه ، حتى وجدنا سلسلة من العرائض والمقالات ومحاولات جس النبض تُركز الاهتمام على الأضرار التي كانت تتعرض لها فرنسا في المغرب بسبب مجاورتها اسبانيا. وبالتالي فقد ارتفعت الأصوات لتقترح أو تطالب ، بحسب الحالات ، بالضم الكامل أو الجزئي. فعلى حين أن الغرفة التجارية بمرسيليا رفعت صوتها لتنادي بجعل هذه المطالب مقصورة على منطقة طنجة (39) ، عبرت اللورية الناطقة باسم العسكريين الاستعماريين عن رأيها بلهجة متكلفة في اتجاه تخلي اسبانيا عن كامل منطقتها ، ومما جاء في تصريحها : "ينبغي السعي بعزم وإصرار إلى إيجاد هذا الحل ، لأنه هو القادر وحده على إعادة الانسجام بين الدولتين العظيمتين ، ذلك الانسجام الذي هو غايتنا المنشودة" (40) .

في طنجة بدأت الأصوات ترتفع منذ الأيام الأولى من عام 1919. فقد صاغت الجالية الفرنسية بالمدينة مطالبها في عريضة وجهتها إلى كلمنصو (Clemenceau) منادية فيها بضم المدينة والساحل الذي يفصلها في الجنوب عن الأقاليم التي تشرف عليها فرنسا. كانت هذه المطالب مجرد مبادرة صادرة عن خواص من دون أن يكون لها أية صبغة رسمية. إلا أن الأمر اختلف عن ذلك شيئا ما عندما قام بواسوناس بنفسه (Boissonas) ، بوصفه قنصلا لفرنسا بالمدينة ، باطلاع زميله الإنجليزي على العريضة المذكورة ، مضيفا بدون موارد بأن "ما يلزم التخلي عنه لفرنسا هو في الحقيقة كل المنطقة الإسبانية بما فيها سبتة ومليلية ، وذلك من أجل تأمين دفاعها الذاتي وتيسير المهمة التي تضطلع بها من الأطلنטיكي إلى طرابلس" (41) . وبهذا أصبح القنصلان وسيطين بين ليوطي والخارجية البريطانية.

استقبلت الفكرة ببرودة كبيرة في لندن حيث كان المسؤولون حريصين دائما على عدم السماح لفرنسا ، القوة البحرية ، بالتمركز في الساحل المواجه لجبل طارق (42) . لذا فقد تذرعوا هناك باتفاقية التقسيم التي خصصت عن قصد عام 1904 كل شمال المغرب لاسبانيا لجعلها حائلا بين الفرنسيين والبحر (43) . صحيح أن فرنسا لم توقع إلا

مع اسبانيا وحدها ، لكن ظروف التوقيع استلزمت على الأقل الموافقة الضمنية لانجلترا على فصول الاتفاقية التي أصبحت بهذا هي الضامنة لها (44) . مع ذلك ثمة حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ، وهي أن الإسبان كانوا يخلقون الفرصة أمام فرنسا للتدبير بعجزهم الذي لا جدال فيه ، ذلك العجز الذي ترك منطقة بكاملها بدون حاكم إلى حد أنها تحولت في حدود منطقة الفرنسيين إلى مركز للتمرد وملجأ للثائرين عليهم (45) . بالطبع ليس في هذا ما من شأنه أن يزعزع موقف انجلترا كطرف مساند للإسبان ورافض للادعاءات الفرنسية. على أنه من واجب اسبانيا بالمقابل الإسراع بفرض حمايتها. وهو ما يتعين تنبيهها إليه (46) .

* * *

لكن ألم يكن المسؤولون في مدريد قد أدركوا ذلك من تلقاء أنفسهم ؟ إن اسبانيا لم تغتر أبدا بما كان الاستعماريون الفرنسيون يضمرونه لها خاصة منهم ليوطي. منذ أن قام هذا الأخير بزيارة مدريد في 1913 كان الملك ، في مقابلة له معه رأسا لرأس ، قد تأفف صراحة من "نفوره الملحوظ" (47) . إنه نفور ، أو قل بالأحرى عدااء بذل الإسبان قصارى جهودهم لإخماد جذوته في السنوات اللاحقة بدون أية نتيجة. نتذكر كيف حرص خوردانة خلال الحرب على عدم التساهل في كل ما من شأنه أن يضر تحت قيادته بالمصالح الفرنسية . في مرتين ، استغل مناسبتين رسميتين ليؤدي القسم على ذلك أمام الجميع. كان هذا عندما نجح عام 1915 ، وبعد إلحاحاته ، في إقناع ليوطي بتبادل الزيارة معه : في الرباط أولا ، حيث تم استقباله ، ثم في تطوان حيث خصص لليوطي استقبالا رائعا جديرا بـ "سيد الحرب الإفريقية غير المنازع" (48) . هل كان هذا إذن كفيلا بتنقية الأجواء بين الجيران ؟ بالعكس. فإن ليوطي لم ير في الاستقبال الذي خصص له سوى مناورة بعد أن فاجأه الإسبان وورطوه في "البروتوكول" الذي منح الخليفة السلطاني "اختصاصات السيادة". ألم يبد حينئذ وكأنه يزكي بنفسه الاغتصاب ؟ لذا فقد تعلل بهذه "الخدعة المحبوكّة" -التي ادعى فيما بعد بتسع سنوات بأنه لم يهضمها- وقطع زيارته ، مستبعدا فكرة كل لقاء جديد بالنسبة للمستقبل (49) .

بعد أن انهار على هذا النحو كل أمل في التعاون أو حتى في التفاهم ، أخذت أخبار متنوعة تتراعى إلى الأسبان عن دعاية مقلقة أشد القلق ، باعتبار أنها كانت تصورهم في منطقتهم في حالة يرثى لها من الفقر والضعف داخل موطنهم الأصلي وعاجزين بالتالي عن بسط سلطانهم خارجه. حانت هذه الدعاية ، وهو ما لم يكن يخفى

عن أحد ، صادرة عن المراكز الفرنسية (50) . إنه واقع مؤلم ، لكن كان يتعين التسليم به. على أن إشاعة جديدة أكثر دقة بدأت تروج منذ الإعلان عن الهدنة ، مفادها أن قبائل الشمال أخذت هذه المرة تصرح بأن اسبانيا تأكدت أخيرا من فشلها وباتت على كامل الاستعداد لتقويت منطقتها تلقائيا للفرنسيين (51) . والأمر الجدير بالاعتبار أن نفس الادعاء تردد أيضا في الصحف الفرنسية هنا وهناك (52) . إذ علمنا أن الكثيرين من المعارضين داخل اسبانيا طالبوا بالفعل بالتخلي عن المغرب وإن اقتضى الأمر بالتفاوض مع فرنسا ، المستفيدة المحتملة (53) ، فإننا ندرك أن كل هذه الأمور أفضت في الأخير إلى وضع يقض مضاجع الإسبان ، وهذا بقدر ما كانت فرنسا ، المعنية الأولى ، تتراعى من الخلف. هل ستخطو هاته إذن خطوة أخرى وتتجاوز مرحلة العداء الخفي الذي ساد في السنوات المنصرمة للقيام بعمل حاسم ؟ ألن تطالب ، وقد جاءت منتصرة إلى مؤتمر الصلح بباريس ، بتنحية اسبانيا لتبقى صاحبة السيادة الوحيدة بالمغرب ؟ ومن يدري ، فعمل المسؤولين بمدريد كانوا على علم بالطلب الذي تقدم به ليوطي إلى حكومته في هذا الاتجاه. كان واضحا على أية حال أنهم كانوا قلقين ، وهذا ما يفسر كيف أنهم رأوا في الأسابيع الأخيرة من 1919 ضرورة الاستفسار عما استجد في الموقف الأنجليزي من القضية المغربية (54) .

الضمانات التي تلقاها الأسبان من هذا الجانب مكنتهم من أخذ المبادرة قبل التحرك الفرنسي المحتمل. فما كاد ينعقد مؤتمر الصلح ، حتي أعلن رومانونس (Romanones) أمام الكورتس ، في 21 يناير ، أن تواجد بلاده في المنطقة المغربية المواجهة لسواحلها ليس سوى "ضمانة ضرورية .. لاستقلالها" (55) . بعبارة أخرى ، لم يكن هناك مجال بخصوص هذه النقطة ، لقبول أية مساومة أو للتنازل أمام الضغوط .

إنها لهجة حازمة بالطبع ، لكن من شأنها ألا تؤخذ مأخذ الجد إذا لم يواكبها عمل مناسب ، ونعني به العمل الحربي القادر على فرض التواجد الإسباني فوق التراب المغربي ، ذلك التواجد الذي اعتبر من الضروريات. بيد أن الإسبان انساقوا في اتجاه معاكس راضخين للمعارضين. فلقد مر شهران منذ وفاة خوردانة ، المقيم العام والقائد العام ، قبل أن يتمكنوا من تعيين خلف له. في هذا دليل على افتقارهم إلى قوة العزيمة. عندما تم أخيرا تعيين برنكر في بداية 1919 ، تراهم قد جربوه من لقب القائد العام إرضاء للمعارضين. كان الإسبان إذن يسيرون بالعكس ، وكان يتعين عليهم تدارك الموقف.

ذلك ما قاموا به ، ولو بكيفية سرية في البداية ، لكن بدون انتظار وصول المواعظ من لندن. ففيما كان من المفروض أن يكتفي برنكر بالقيام بدور سياسي ، يبدو أن مهمته قامت في الواقع على تركيز جهوده فوراً على الصعيد العسكري. في 7 يناير ، وبدون أن ينتظر حتى التحاقه بمنصبه استفسر حاكم مليلية عما تبدو عليه الأمور في إطار عمليات حربية محتملة ، وهذا في حالة ما إذا قررت الحكومة إعطاء الغزو دفعا جديداً. إنه كما نرى مجرد احتمال. لكن من المرجح أن الأمر لا يتعلق سوى بتحفظ في الأسلوب. إذ أن ناقوس الخطر دق منذ هذا الوقت وسط القبائل التي بدأت تستعد لمواجهة هجوم وشيك. بل وتؤكد لديها الخبر بأن اسبانيا تهيأ هذه المرة لمد الغزو حتى النهاية.

ذلك ما سجله حاكم مليلية في جوابه دون أن يبدي أي اندهاش منه. كيف يمكن تصور ذلك إذا لم يكن متأكدا بنفسه من صحة الخبر (56) .

من جهة أخرى فإن الحكومة سرعان ما أفصحت علانية عن نواياها. فقد تناول رومانونس الكلمة أمام الكرتس وعبر عن موقفه بقوة وانفعال في اتجاه الحفاظ على الوضع القائم بالمغرب هاتفا : "إن التخلي عن مغربنا سيكون ... النكبة الأخيرة التي قد نتجرع مرارتها".

ثم أكد أنه يتوجب على اسبانيا أن تتدخل هناك بشكل أقوى وأكثر فعالية حتى تتمكن من فرض حقوقها ؛ وختم بقوله ، مستهدفاً بوضوح المعارضين : "إننا مقبلون على مرحلة يتعين معها أن تكون حرية العمل في المغرب كبيرة وكبيرة جداً" (57) .

كان ذلك في 19 فبراير ، أي قبل يومين من قطيعة عبد الكريم وثلاثة أيام من قطيعة الريسوني. من المؤكد أنه لم تكن توجد أية رابطة بين هذه الأحداث ، بل وجرت بمعزل عن بعضها. مع ذلك فقد حددت في مجموعها التطور الذي عرفته الأوضاع. فإن أطماع فرنسا ونفاذ صبر انجلترا فرضا على اسبانيا ضرورة الشروع في فرض احتلال كل منطقة حمايتها بدون إبطاء ؛ وهذا في الوقت الذي كانت فيه مقاومة القبائل قد ازدادت حدة وبلغت من النضج ما جعلها تنتزع من أيدي الإسبان أوراقيهم الراحبة على الصعيد السياسي. وهكذا لم يبق ، فيما عدا القوة ، أي ملجأ آخر ، ولا أي وسيلة للتراجع أمام العدو أو استمهاله. فإلى أين إذن سيقود اللجوء إلى القوة إذا ما كانت القبائل قد تمكنت بوعيها وإصرارها من أن تتخلص ، في شخصي عبد الكريم والريسوني ، من رادعين قويين من الروادع التي شلت حرية عملها لحد الآن ؟ .

هل كان الأسبان يقدرّون صعوبة المشكل حق قدره ؟ لا نلمس وجود وحدة في الرؤية حول هذه النقطة ، على الأقل في البدء ، داخل القيادة العليا . في مليلية ، لم يكن الجنرال أيبورو متفانلا على الإطلاق . في أحد تقاريره نجده يقول بأنّه عاين منذ أربع سنوات من مزاولة مهامه تدهور النفوذ الإسباني : فالصداقات التي عقدها الإسبان مع قبائل الريف اعترأها الفتور تدريجيا ، كما سجلت كثير من الارتدادات ، وتفككت الأحزاب الموالية لاسبانيا التي كلف تشكيلها نفقات باهضة ، وختم قائلا : "إن الرأي السائد بين القبائل في المنطقة غير المحتلة يتلخص .. في الرفض البات لاحتلالنا" (58) .

كتبت هذه السطور في يناير 1919 . والملاحظ أن القلق الذي تنطوي عليه لم يتبدد بل ولم يخف رغم النجاح الذي حققه أيبورو فيما بعد ، عندما تمكن في غضون هذه السنة من التقدم بقواته في قبيلتي مطالسة وبني بوياحي . فلئن كان هذا التقدم قد تم في الواقع بدون أن يصطدم بأية مقاومة ، فإنه استفاد من ظروف استثنائية ، حيث إنه جرى في منطقة سهلية فقيرة ، كان سكانها جد المتشككين يعانون فوق ذلك من مجاعة ناجمة عن توالي أربع سنوات من الجفاف وعن الحصار المزدوج لكل من الفرنسيين والإسبان (59) .

على أية حال فإن هذا التقدم لم يسفر عن أية تسوية . فبدلا من أن يجتذب أشخاصا جددا من المناصرين ، فإنه أدى إلى انشقاق رجل حليف لاسبانيا وإلى دخوله المعسكر الخصم - وهذا ارتداد آخر - ونعني به بورحايل ، أحد الشيوخ من ذوي النفوذ في قبيلة مطالسة ، كما أنه أثار من جديد هيجانا كبيرا في باقي الريف . فلأول مرة لاقت دعاية الريسوني الترحيب حتى في المنطقة ، هذا بالإضافة إلى انتشار الدعاية الفرنسية بشكل ملموس والتي زادت بدورها الطين بلة . وهكذا فقد احتشدت تشكيلات مسلحة هنا وهناك ، مما جعل أيبورو يقول في 2 يونيو : "حقا ، إن الهيجان على جانب كبير من الخطورة" (60) . بعد ثلاثة أسابيع ، لاحظ أن الفوران يجعل العمل السياسي عديم الجدوى ، ثم أضاف : "لا سبيل إلى قمع هيجان بمثل هذا العداء والخطورة إلا عن طريق سحقه بالوسائل العسكرية التي تعوزنا الآن" (61) .

خلال هذا الصيف ، ساد نشاط كبير وسط القبائل المجاورة لجون الحسيمة ، فقد قام هناك السي حميدو الوزاني على قدم وساق لجمع وحدات المقاتلين . على أن هذه الوحدات لم تعد تتجه فقط نحو كرت ، مما يؤشر على تطور جديد . إذ أن بعضها يمم شطر الغرب للالتحاق بوحدات الريسوني ، بينما توجه بعضها الآخر لمواجهة الفرنسيين

في الجنوب ، حيث تمكنت من تكسير زحفهم إلى ورغة في شهر أبريل تحت قيادة أحمد أخمليش ، بعد أن كبدهم خسائر كبيرة في الأرواح وغنمت عددا من مدافعهم (62) . والمثير للانتباه أن هذه القبائل لم تكن مهددة بعد في حد ذاتها . وبالتالي ألا يدل الدعم الذي كانت تقدمه في جهات نائية حيثما لاح الخطر على وجود وعي بوحدة المصالح ، وبما يكفي للارتقاء بروح التضامن من مستوى محلي إلى مستوى عام يشمل الجماعة التي فصلتها الأقدار عن باقي البلاد ؟

إن هذا الاتجاه الجديد كان ما يزال في بدايته ، إذ أن "أصدقاء إسبانيا" لم يكونوا قد رضخوا كلهم بعد ، وكانوا ما يزالون قادرين على الزج بالمناضلين في أتون الصراعات الداخلية . مثال ذلك الإخوان الشامي وعبد السلام في قبيلة بني سعيد ، الذين وصلوا استفزازهم لبو رحايل ، وبوكوش والسي علال محند . في أكتوبر لاحظ أيثبورو :

"إن النتيجة التي أسفرت عنها صراعاتهم تمثلت في الاختفاء شبه التام لوحدات المقاتلين التي تشكلت سابقا ، والتي صارت اليوم مجرد زمر صغيرة جدا ، لأن كل طائفة تستنزف طاقتها وإمكاناتها في هذه الصراعات الداخلية ، كما أن ديون الدم التي تستتبع ذلك تزيد من صعوبة توجيه الكفاح ضدنا" (63) .

إن هذه العملية التضليلية لا تشكل عنصرا جديدا بالنسبة إلينا ، لكن الجديد هو أنها لم تعد تطمئن أيثبورو . فقد كتب يقول :

"يصرح أصدقاؤنا بأنهم هم الذين دبروا هذا الاضطراب وهذه الفوضى ، وأن ما تمخض عنهما من نتائج جاء متمشيا مع مخططاتهم . إلا أنهم وقعوا هذه المرة ضحايا لمكائدهم . ذلك أن فريق المتعصبين والمتمردين ، ذاك الذي يعرف في الريف بـ "فريق عامة الناس" (el partido de los pequeños) ، أصبح هو الفريق الأقوى بكثير ، وقد قضَ بالإغارات والغرامات مضاجع أبرز الشيوخ المتهمين بالحفاظ على علاقاتهم بنا" (64) .

يضاف إلى هذا أن إسبانيا اكتشفت الآن وجود عدد من المتطوعين من "أصدقائها" ومن لم تكن تتوقع انضمامهم إلى المقاومين . ومن هؤلاء أحمد أخمليش بن محمد ، الشريف الذائع الصيت والخصم العنيد . كان هذا الشاب قد أثر مهادنة إسبانيا منذ أن بات يتقاضى منها راتبه . غير أنه هو الذي أنزل بالفرنسيين في الجنوب هزيمة ساحقة (65) . وعندما استدعاه أيثبورو إليه لتبليغه الأمر بترك الفرنسيين وشأنهم ، ثارت ثائرتة مهددا ، لا أكثر ولا أقل ، بنفس قاعدة بادس الإسبانية تحت قصف المدافع التي

غنمها بالذات من الفرنسيين (66) . فإذا كانت هذه هي نوعية الصداقات التي تشتري بالمال ، فقد كان لا مفر من توقع المفاجآت.

والواقع أنه ثمة مفاجآت أخرى حصلت لايبورو. فخلال زحفه نحو الجنوب ، احتل "سوق الثلاثاء" في قبيلة مطالسة الذي كان يشكل عقدة مواصلات. كانت الحملة مشجعة للغاية. إذ أن مطالسة لم تتلق أي مساعدة من وحدات المقاومين الأخرى مع أنها كانت قريبة جدا. ذلك أن مهمة هذه الوحدات القادمة من الريف الغربي تركزت بالخصوص على اعتراض سبيل الإسبان إن هم ساروا في اتجاه الغرب. وهو موقف جاء نتيجة للخطة البارة لـ "أصدقاء اسبانيا" الذين نجحوا هذه المرة في تغليب الأناية القبلية على واجب التضامن . بحيث ان قبيلة مطالسة ، التي تركت وشائها ونال منها اليأس ، لم تعد تبدي أية مقاومة . وبذلك استعاد أيبورو اطمئنانه ، ولم يخامرته شك في أنه دعم مواقعه وأحبط نهائيا إرادة المقاومة لدى الخصم (67) . لكن في فاتح دجنبر ، وفي ليلة حالكة ، تعرضت حامية أحد مراكزه الصغيرة لهجوم أثناء سباتها ، قتل فيه وجرح عدد من أفرادها بينما اضطر الباقون إلى الفرار . كانت الصدمة قوية على أيبورو لتخوفه من هذا " القلق شبه الصبباني الذي كانت الخسائر البشيرة [على حد قول برنكر] تنشره بين الرأي العام في بلاده " (68) .

على أن الذي أذهله أكثر هو الكيفية التي نفذ بها المقاومون هجومهم . فقد كان هؤلاء يفتقرون إلى الوسائل اللازمة ، ولا يستعملون سوى نوع رديء من القنابل اليدوية التي صنعوها بأنفسهم ، لكنها ذات فعالية مريعة (69) . فإذا عرفوا كيف يستفيدون من هذا السلاح الرديء ، فماذا يحدث لو أنهم أظهروا مثل هذا الإقدام وباستعمال السلاح الذي غنموه والذي كان بوسعهم دائما الاستحواذ عليه ؟

وهكذا أدرك أيبورو بوضوح ، كما تشهد على ذلك جميع تقاريره ، أن قوة الخصم كانت آخذة في النمو فيما وراء المظاهر ، ولو أنه كان يضطر إلى التراجع . من هنا حذرته المفرط الذي أفضى إلى شل نشاطه . لم يكن إذن رجل الظرفية الجديدة كما كانت تتراعى لبرنكر والحكومة . ولن يتلقى القطاع الغربي دفعة من النشاط إلا مع خلفه الجنرال سلفستري الذي عوضه في 30 يناير 1920 .

* * *

قبل هذا التاريخ ، كان التباين كبيرا بين مواقف أيبورو الحذرة في قطاعه ، وبين النزعة الجديدة التي أضفاها حضور برنكر المقيم العام ، على كل النشاط في

القطاع الغربي منذ أن تسلم مهامه . لم يكن الاسبان ، كما نتذكر ، قد أحرزوا من هذا الجانب على أي تقدم جديد منذ سنتين . لنقل ، لنكون أكثر دقة ، انهم اضطروا حتى إلى التراجع منذ أن تدهورت العلاقات بينهم وبين الريسوني . وهكذا فإنهم خسروا الفينديق بعد أن احتلوه منذ ثلاث سنوات بفضل هذا الأخير . كان هذا المركز النقطة التي بواسطتها تم ربط الاتصال بين سبته وتطوان من جهة ، وبين العرائش على المحيط من جهة أخرى . زيادة على ذلك ، أصبحت تطوان ، عاصمة المنطقة ، مهددة بالمقاومة التي كانت تقترب من أرباضها من كل جهة ، كما أصبحت المواصلات بينها وبين سبته ، من حيث يتم الاتصال بشبه الجزيرة ، مشكلا عسكريا .

بناء على ذلك فإن برنكر ، الذي سبق له منذ بضعة أسابيع لا غير أن نفى وجود مشكل عسكري في المغرب ، لم يبد أي اهتمام آخر منذ وصوله إلا بتنظيم سلسلة من العمليات امتدت طوال سنة 1919 . وهي عمليات دامية جدا إلى حد أنها أثارت قلق الرأي العام الاسباني (70) . إلا أنها مكنت على نطاق واسع من فك الحصار عن تطوان وضمنت بعد استعادة الفينديق ، السيادة على الممر المؤدي إلى المحيط (71) .

الجانب الجديد الذي ينطوي عليه هذا النجاح هو أنه بدلا من أن يأتي على يد الريسوني ، تحقق ضده إلى حد أنه اضطر إلى الفرار إلى قلب جباله على جناح السرعة . أما وقد حرمت اسبانيا من الدعم الذي كان دائما يقدمه لها ، فإنها تمكنت هنا وهناك من استقطاب شخصيات مناصرة لقضيتها ، وهي شخصيات ثقل عنه بكثير من حيث الأهمية ، إلا أنها ذات وزن كبير بحكم عددها وكان بغضها الشخصي للريسوني يساعد على التحالف معها ضده . ألا يدل هذا على أن اسبانيا وجدت البديل لتحالفها السابق معه ، وأنها ستحتفظ بوسائل النجاح السياسي الكفيلة بالحد من اللجوء إلى السلاح ، المحتم استخدامه ، إلى القدر الأدنى الضروري ، وضمان النصر لها ؟ مقابل تردد أيتشورو ، كانت الوقائع إذن تبرر تفاؤل برنكر المشوب بالجرأة ، ولكن أيضا بالتبصر . كما جاء اختيار الجنرال سلفستري لتولي القيادة في مليلية ، ليؤشر حقا على أن الاسبان عازمون في هذا القطاع أيضا على إعطاء الأولوية لنفس الاستعدادات .

من الحق أن البعض أبى ، فيما بعد ، إلا أن يلتبس في هذا الاختيار أسباب الفاجعة التي أودت بعد سنة ونصف ، بالجنرال سلفستري وبكامل جيشه . لقد قيل بأن سلفستري معروف بكونه رجل أبهة ، وبأنه طموح ، وذو طبع حاد ، ومفضل لدى الملك الذي يتلقى منه الأوامر مباشرة . كانت له فوق ذلك نفس رتبة رئيسه برنكر ، ويتمتع بالأقدمية عليه . كيف لا يمكن أن يؤدي هذا إلى حدوث صراعات حول اختصاصات

الرجلين ، واحتدام التنافس بينهما وتمرد هذا ، وحقد ذاك بل وإلى وقوفه بالمرصاد (72).

الحقيقة أننا إذا ما اكتفينا بالمعطيات الأكيدة لا نجد شيئا من هذا القبيل .
زيادة على ارتباط الرجلين بصداقة متينة ، فان برنكر كان يعرف دائما حتى قبل أن تلحقه مدريد بمنصب القائد العام ، كيف يشرف بنفسه على مخططات الحملة ويدعمها خلال التنفيذ بمراقبة متساهلة لكنها لم تكن أبدا غائبة (73) . في مرة واحدة لا غير ، حصل أن تجرأ سلفستري على الكتابة في أحد تقاريره بأن الفرصة أتاحت له لغزو أحد المواقع إلا أنه اضطر إلى عدم استغلالها لعدم توفره على الإذن اللازم : إذ أن له رئيسا لم يكن ليخالف أوامره . على أن برنكر ، بدلا من أن يقتنع بمظاهر الطاعة التي قدمت بها القضية ، رآها تتم ، سواء عن خطأ أو صواب ، عن تلهف رجل متعطش إلى العمل بمزيد من الحرية. لذلك أجابه بقوله : كيف يمكنك " أن تحاول إظهاره وكأنني أحرك من حرية التصرف ، وتجعل مني المسؤول عن عدم احتلال تافرسيت عندما سنحت الفرصة بذلك " ؟ هكذا وضع النقاط على الحروف بكل صرامة . فقد أظهر لرؤوسه أنه يتمتع بحرية تامة فيما يتعلق بتنفيذ الخطة المتفق عليها معا ، لكن لا سبيل له إلى إدخال أي تعديل من تلقاء نفسه على جوهر الخطة ، أو على امتداد وترتيب المراحل (74) .

من خلال جوابه ، يتبين بوضوح أن سلفستري كان يعتبر نفسه ملتزما بما قيل له . نقرأ فيه : " إذا كنت قد تحسرت على عدم تمكني من استغلال الفرصة التي أتاحت لي ، فهذا لا يرجع إلى أنني أطمح إلى الحصول على مزيد من الحرية ، بل يرجع بالعكس إلى إحساسي بكوننا معا يدا واحدة ، إذ أن ما يحفزني هو الرغبة القوية ، الثابتة ، في العمل وفي مساعدتك على إنجاز مهمتك ، تلك المهمة التي يتوجب ضرورة تقديم تقرير عنها إلى الحكومة " . متحدثا بعد ذلك عن الضمانات التي عليه أن يقدمها إلى برنكر ، تماما كباقى القواد الآخرين ، أضاف قائلا :

"لن أحاول أبدا في المستقبل ، كما كان الشأن لحد الآن ، التمتع بوضع استثنائي خاصة إزاءك ، والحال أنك تفضلني بالذات بمنحي ثقتك التي أنا جد ممتن لك بها " .

وختم بهذه الكلمات : " صديقك الوفي كما عهدته دائما ، ومساعدك المخلص . على أمل تقبيلك يوم الثلاثاء القادم " (75) .

إذا كنا حرصنا على إبراز هذه الواقعة الجزئية ، فليس لشغفنا بتقديم الطريف المستجد ، وإنما لتسليط الأضواء على ماكانت عليه حقا علاقات رجلين يضطلعان بدور

أولي . إن سلفستري لم يشق عصا الطاعة . بل ألزم نفسه تلقائيا بواجب الانصياع . مع ذلك كان يكفي أن يخامر الشك برنكر ليقوم بكبح جماحه . وبدلا من أن يتذمر حينئذ سلفستري ، فإنه تباهى بالانقياد له . إن هذا ما لا يتفق تماما والأسطورة التي نسجها البعض فيما بعد . وفي هذا ما يُغني أيضا - سيما وأن برنكر بنفسه تكلف بالأمر (76) - عن مراجعة كل مجرى العمل العسكري لكي نتحقق من كون علاقات التبعية روعيت بكيفية صارمة . وفي اليوم الذي أفلت زمام الأمور من يدي سلفستري ، فإن ذلك لم يكن بسبب هفوة من جانب هذا الأخير ، وإنما بسبب تأثير عنصر جديد لم يكن بالامكان آنذاك تقييمه رغم دوره الحاسم ، وهو نفس العنصر الذي تقطن إليه أيثورو فيما يبدو ، لكن من دون أن يتمكن من التعرف على طبيعته ، ومن دون أن يدرك بالخصوص درجة قوته . ولا غرو ، فمن كان يومها يتصور أن الوطنية - إذ أن الأمر يتعلق بها هنا - يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار طالما أن المواجهة لم تهم سوى قبائل ريفية ؟ وعلى أية حال ، لم يكن سلفستري ليتصور ذلك ، ولا حتى برنكر .

على العكس ، فإن هذا الجهل المشترك جعل من سلفستري ، الذي وطد العزم على المضي قدما ، الرجل الذي تستلزمه الأوضاع كما كان يتصورها برنكر .

في الحقيقة أن القطاع الغربي هو الذي حظى بالأولوية في المخططات التي حددها هذا الأخير بالنسبة للمنطقة كلها . فبعد أن فك برنكر الحصار عن منافذ تطوان ، وأعاد ربط الاتصال بالعرائش متجنباً شمال كتلة جبالة ، فإنه قرر في المرحلة الجديدة ، احتلال الطية التي تشق هذه الكتلة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، بين البحر والمحيط تبعا لمجري وادي لاو ونهر اللكوس ، كل منهما على سفحه . على هذا النحو ، كان بإمكانه التوفر على رقعة قروية واسعة معلمة بمدينتي شفشاون والقصر الكبير ومن شأنها أن تساعد على عزل جيوب الانشقاق الذي يقوده الريسوني (77) . تلك إذن هي المهمة التي حظيت بالأولوية والتي أراد انجازها قبل الاتجاه بكل امكاناته لمواجهة المشكل الآخر في المنطقة الشرقية ، والمتمثل في الوصول إلى جون الحسيمة (78) .

بيد أن أولية الضروريات العاجلة لم تكن تقتضي البتة إيقاف العمل العسكري بشكل تام في هذا القطاع الآخر . ذلك أن مشكل الحسيمة كان يلوح في حد ذاته فيما وراء مجموعة من العقبات التي تشكل صعوبة كبيرة ، وبالإمكان تذليلها على الفور ، كما أنها قد تنهار بمزيد من السهولة إذا ما استغلت الظروف غير المتوقعة خلال الزحف بما تتطلبه من ثبات وحزم . كان سلفستري ، برتبته وطبعه ، القائد الذي يستجيب بالذات لمثل هذه المتطلبات . كان قادرا على استغلال الفرص ، ويتمتع بصداقة برنكر الموثوق

بها ، وله ما يكفي من النفوذ ، لا لفرض مخططاته الخاصة عليه ، بل لعرضها عليه واستدراجه إلى الموافقة عليها ، وهذا بمقدار ما يظهر له من احتمالات أثناء زحفه .

على كل حال حان الوقت لكي نلاحظ أن الاستراتيجية الاسبانية طرأ عليها تغييران أساسيان . لقد شكل دائما القطاع الشرقي ، وبعبارة أخرى الريف ، المسرح الرئيسي للمعارك . وفي سنة 1909 - 1912 ، دارت فيه على عهد أمزيان حرب حقيقية . ثم استمرت الحرب بعد ذلك التاريخ على جبهة كرت ، حيث كان يتجابه أو يتواجه معسكران خصمان بكيفية لا هوادة فيها . على أن الحالة كانت مختلفة تماما في القطاع الغربي حيث كانت أربع مدن من المدن الخمس التي تضمها المنطقة (العرائش ، القصر ، أصيلة ، تطوان) قد فتحت أبوابها أمام الغزاة ، وأصبح هؤلاء منذ ذلك الحين يعيشون في جوار أمن مع قبائل جباله . وفوق ذلك ، كان جون الحسيمة ، في القطاع الربي الذي حظي وقتذاك بالأولية ، هو الجبهة التي رأت فيها القيادة لحد الآن مفتاح الوضع ، وخططت مرارا لاحتلالها منذ 1911 بواسطة الانزال البحري . على العكس أصبح القطاع الغربي ، كما رأينا ، القطاع الرئيسي لبرنكر . أما قطاع الريف ، الذي أصبح يأتي في الدرجة الثانية ، فلم يعد الاسبان يتصورون فيه إمكانية بذل الوسائل الكبيرة التي يستلزمها الانزال البحري . فبعد أن اعتبر كهدف أولي لجيش يأتي من جهة البحر ، احتفظ جون الحسيمة حقا بجاذبيته لكنه أصبح ، بقلب حدود المشكل ، المرحلة النهائية لزحف بري .

كيف لا يمكن اعتبار هذا التغيير الاستراتيجي تدبيرا عاجلا يتوخى تكيف البرنامج العسكري بمتطلبات الحالة الجديدة كما تراءت بعد قطيعة الريسوني وانسحاب كل من القاضي عبد الكريم وولده محند ؟ من المؤكد أن الريسوني فقد وقتئذ الكثير من نفوذه السابق من جراء تخليه عن كل السهول للاسبان . لكن إذا ما ترك وشأنه يعبئ كل قبائل الجبل ، فقد يشكل خطرا عظيما على كل المنظومة الاسبانية ، المدنية منها والعسكرية ، المعرضة في السهول لضربات . لذا كان من أولى الأوليات العمل على تدارك أمره عن طريق تطويق ثم الزحف إليه في قلب جباله للقضاء عليه ، وهذا قبل أن يتمكن من إعادة توطيد سلطته . ذلك ما قرر برنكر بنفسه التفرغ له معبئا إمكاناته الرئيسية . بانتظار ذلك ، ظهر بالطبع ضرورة القضاء على طموحاته في الطرف الآخر من المنطقة ، في قطاع مليلية . هنا كان الاسبان متاكدين من قدرتهم على التقدم بالتدرج باستغلال الظروف على أحسن وجه . كان ينبغي أيضا أخذ انشقاق القاضي عبد الكريم بعين الاعتبار . فبدون مساعدة هذا الأخير وولده ، لم يعد بالامكان المجازفة بالكل

* * *

لقد تغيرت إذن الاستراتيجية لتستجيب لمتطلبات الأوضاع . بيد أن هذه الأوضاع ستعرف تطورات جديدة . فإذا كان برنكر قد أوقع بالريسوني وتفوق عليه عسكرياً ، فإنه مكنه بالمقابل من استعادة نفوذه المنهار ، وشحذ عزيمة المناضلين في كل المنطقة . فبدلاً من أن تفت في عضدهم انتكاسات الريسوني الأولى ، فإنهم تحسموا للضربات القوية التي أصبح يوجهها للأسبان ، مقيمين بالنسبة للمستقبل عواقب انقلابه على الصعيد العام لعلاقة القوى المتواجدة (79) . سبق أن رأينا ، وكظاهرة جديدة ، كيف أن أقصى القبائل الشرقية رحبت برسول الريسوني في صيف 1919 ، أي في الوقت الذي انطلق فيه الصراع في القطاع الغربي (80) . وثمة حقيقة جديدة أخرى أكثر إثارة للانتباه وهي أن قبائل الحسيمة الوسطى أرسلت إلى الريسوني في هذا الصيف مددها على جناح السرعة (81) .

عندما أعلنت الرسائل الصادرة عن قاعدتي بادس والنكور الأسبانيتين عن هذا الخبر ، فإنها لاحظت ، بدون إيضاحات أخرى ، أن الشريف السي حميد و الذي تكفل بالإشراف على هذه الامدادات كان على اتصال بالفقيه السي عبد الكريم الأجديري (82) . لقد كان اسم القاضي عبد الكريم ، كما هو الشأن بالنسبة لاسم ولده السي محند ، قد اختفى من المراسلات الأسبانية منذ انسحابه بستة أشهر . وإنه لذو دلالة أن نجده يظهر من جديد ، ولو بشكل عرضي ، مرتبطاً بالأصدقاء التي خلفها في المنطقة الانشقاق الصاحب للريسوني .

بالإضافة إلى هذه القرينة البسيطة ، هناك أخرى أكثر وضوحاً ودقة تجعلنا نلمس كم بقي القاضي عبد الكريم في أقاصي عزلته متيقظاً للأحداث ، حساساً بتطورها ، مترصداً للتغيرات التي من شأنها أن تساعد على العودة إلى مسرح الأحداث . رأينا بالفعل كيف أن ولده محمد (بالفتح) برر طويلاً في شهر فبراير الانسحاب الذي أرغمت عليه عائلته كلها ، وذلك في رسالة إلى مدير "دار الطلبة" التي انقطع عنها (83) . بعد ستة أشهر عاودته حاجته إلى التبوير ، فكتب من جديد في 15 غشت حول نفس الموضوع . لكن هذه المرة إلى مانويل أكيري ، الموظف السامي بوزارة الدولة ، وهذا في الوقت الذي كانت فيه المراسلات تشير إلى تورط القاضي عبد الكريم في قضية المساعدة المقدمة للريسوني . والمشير للانتباه أنه ، وقد أعاد فتح ملف لم يطرأ عليه مبدئياً أي تغيير ، قدم

عنه عرضا جديدا بشكل ملموس . فإنه قبل ستة أشهر لم يتطرق إلا لحالة والده عبد الكريم الخاصة . أما هذه المرة ، فقد قام بنظرة شمولية ليقدم بلهجة قوية ، لازعة أو مؤثرة ، حصيلة فشل كل السياسة الاسبانية بالمغرب . وهكذا كتب يقول :

" لو أن المال الذي أنفق هنا ، استعمل بطرق سليمة ، لكان من الممكن التوصل إلى تهدئة المنطقة الاسبانية ، وبناء الخط الحديدي من طنجة إلى تطوان ، ومن مليلية إلى فاس ، أو إلى تازة عبر الحسيمة . كما كان من الممكن أن تعبأ في بني تونن وبني وريغال آلاف من سواعد الرجال ، بالإضافة إلى الجرافات ، لتعمل في عمق الجبل على استخراج الكنوز التي يحتضنها " (84) .

لم تكن إذن الوسائل المالية منعدمة ، إلا أنه أسئ استعمالها . كذلك فقد بددت اسبانيا رصيدها من التعاطف الذي تمكنت لمدة طويلة من التمتع به :

"في اليوم الذي شرعت فيه اسبانيا في انجاز مهمتها الحضارية ، تعبأت للعمل كثير من الشخصيات المرموقة . وكانت كل مجهوداتها تنجح إلى أن تجد معكم تسوية للمشكل المغربي تتوافق والمصالح الاسبانية . للأسف ، عوض أن يحصل هؤلاء الأشخاص على نتيجة مرضية ، وعلى ما يستحقونه من تكريم ، فإنهم لم يجنوا كلهم سوى الخذلان الشخصي ، وفقد الاعتبار وضياح أملاتهم ... إن هذا بالطبع ما يقضي على سمعة اسبانيا وسمعة أنصارها في نظر الأهالي ... إن هؤلاء لمقتنعون بأن اسبانيا لن تتمكن مطلقا من تهدئة منطقتها لو استمرت في هذا الاتجاه . وبما أنهم يرون فوق ذلك الكيفية التي يتم بها تطبيق الأحكام ، والتي تدار بها المصالح الكبرى والادارة ، فإنهم يتبرأون من كل تقدم سياسي أو عسكري ، لأنهم يفضلون وضعهم الخاص " (85) .

على أية حال ، كيف لم يتفطن الاسبان بأنفسهم إلى فشلهم بناء على ما لاحظوه من عدد وأهمية معاونيهم الذين أخذوا منذ زمن يسير يفقدونهم الواحد تلو الآخر ؟

يقول محمد :

"إنني مقتنع فيما يخصني بالفشل ، بالنظر إلى أن الكثيرين من الشيوخ المرموقين الناصرين لقضيتكم ، حرموكم من دعمهم ، لكي ينقلب البعض منهم صراحة ضدكم ، ولكي يراقب البعض الآخر بكل بساطة تطور الأحداث . سأذكر من بين الفريق الأول ، الريسوني ثم ابن هاشم من قبيلة أنجرة ، وبورحائل من قبيلة مطالسة ، وكذلك بو شريف من قبيلة بني تونن . على أن ثمة آخرين [لا داعي إلى ذكرهم] . من الفريق الثاني ، هناك مثال بوجدادين من قبيلة بني تونن ، ومثال والدي ، هو أكثر الجميع

نشاطا ، من قبيلة ورياغل . وهذا دون ذكر آخرين كثيرين . من اللازم أن يكون في اسبانيا على علم بهذا . ومن اللازم أن يتساملوا عن سبب هذه الموجه الهائلة من الارتداد ، خاصة ارتداد والدي " (86) .

أمام عدم تبصر ممثليهم بالمغرب نرى محمدا (بالفتح) يلجأ إلى الاسبان . يقول : " إن الريف يوجه من أعماق قلبه نداه إلى الاسبان الأخيار ، منددا بالطرق التي تمارس بها الحماية ... إننا وقد سئمنا من سنين كثيرة من الفوضى والصراعات الداخلية ، نتوجه إلى اسبانيا مناشدين إياها بأن تنظر في حالنا وتغير قليلا من سياستها في الريف . ونحن نؤكد لها أن عملية التهدة في منطقتها تتطلب أن يقوم اسبان أخيار بالتفاهم مباشرة مع النخبة القليلة من الشيوخ المتفتحين هنا . إنهم رجال يدركون كل الفائدة التي سيجنيها شمال المغرب من ارتباطه باسبانيا في وحدة حميمة وأخوية . إنهم رجال يتمتعون أيضا بخبرة في شؤون الادارة وتنظيم الحماية .

إن الكيفية التي توزع بها الرواتب على الاهالي في الحسيمة ، لا يمكن أن تقود إلا إلى الفشل ... ينبغي إلغاء هذه الرواتب إلى غاية وضع خطة جديدة ... ومرة أخرى ، فإن السبيل الوحيد إلى تهدئة المنطقة هو التفاهم مع الشخصيات المرموقة المطلعة على حقيقة المشكل ، ومدها بكل المساعدة اللازمة لتتشر هنا النفوذ الاسباني بدون تضحيات " (87) .

هل نحن في حاجة إلى التوضيح أن محمدا (بالفتح) لم يكن ليتصرف من عنديته عندما حرر هذه الرسالة ولم يعبر فقط عن وجهات نظره الشخصية ؟ باعتبار أن القرار في العائلة يكون بيد الأب ، فإن الأفكار بالتالي كانت هي أفكار الأب وولده الأكبر محمد ، الذي هو مستشاره . ذلك على أية حال ما كان يعتقد الاسبان وإذا بدت هذه الرسالة للوهلة الأولى ، كأنها نسخة معدلة للتي أرسلها منذ خمسة أشهر ، والمرسل الأول إليه ، (88) فإنها تنم ، عند امعان النظر ، عن تطور على جانب كبير من الأهمية . أجل ، إننا نجد فيها من جنييد اللوم التقليدي الموجه لاسبانيا المتهمة بالعجز وقلة الحزم في تقديم اندعم اللازم للأسدقاء الذين يخاطرون بأنفسهم من أجلها . لكن ، كيف لا ننتبه إلى أن اندعم الطالب به الآن يختلف في طبيعته عن ذاك الذي جرى الحديث عنه فيما مضى ؟ لقد اقتصرت مهمة القاضي عبد الكريم خلال سنوات متعددة على تعبيد الأرضية لكي يتمكن الإسبان من إنزال جيشهم . وكان الدعم الذي يرتجيه وقتذاك هو أن يصبح في مأمن

بفضل هذا الجيش ساعة حضوره . من هنا أيضا لوائمه الشديدة للأسبان عند كل تأجيل جديد . لكن هل نراه الآن وهو يلوم اسبانيا عن أخطائها ، يشير ، كما كان الشأن في الماضي ، إلى هذا الإنزال الذي كانت تعد به دائما وترجئه في كل مرة ؟
لنتذكر كلماته إلى العقيد كوكلود وعام 1917 :

"إذا كنتم ترغبون حقا في توطيد سلطة المخزن في الريف ، فلا توجد وسيلة أخرى إلى ذلك سوى أن تعجلوا بالتدخل مغتتمين الفرصة السانحة ، وأن ترفعوا من رواتب من يخدمكم ، وتضربوا بقوة على من يعاديكم ، وتظهروا قوتكم باستمرار على الملا" (89) .

وأيضا :

[أرى بالفعل] أن اسبانيا لن تقوم أبدا بعمل يشفى الغليل في الريف طالما لم توطد العزم على توظيف الوسيطتين اللزمتين ، وبما فيه الكفاية ، وهما القوة والمال ، والوقوف دوما على أهبة الاستعداد للانقضاض كلما لاحت لها ظرفية مناسبة . وفيما عدا هذا ، لا ينبغي التعويل على وضع أقدامكم على شاطئ "الحسيمة" (90) .

نرى إذن أن القوة والمال هما الوسيطتان اللزمتان في نظره وقتذاك . كما كان الهدف هو أن يقوم الاسبان بتثبيت أقدامهم بشاطئ الحسيمة . أما الآن فقد أصبح الهدف أكثر تعقيدا وبعدا ، حيث إنه يكمن في "تهدئة المنطقة" . أما بالنسبة للوسيلتين ، فنجد الإشارة إلى إحداهما ، وهي المال ، مع هذا التحفظ المتعلق بالكيفية التي يستعمل بها ، وخاصة بمنح رواتب لا حصر لها لأشخاص قليلي الأهمية ، وعديمي التأثير ، من الأنصار التافهين . أما القوة ، الوسيلة الثانية ، فلا توجد أية إشارة إليها من قريب أو بعيد . ذلك أنه حل محلها مفهوم جديد كل الجدة ، وهو مفهوم التفاهم مباشرة بين "القادة الاسبان الأخيار" وبعض الشيوخ المنتقن الذين سيتولون ، بفضل الوسائل التي ستمدهم بها اسبانيا ، هم وحدهم ، حمل الناس على الانصياع لمزايا الحماية بدون مقاومة تذكر . معنى هذا أنه على الاسبان ، وعلى عكس ما جرى في الجهات المحتلة ، الاكتفاء بدور توجيهي والاحتراز من الحلول في الشؤون العامة محل الشيوخ الذين سينصبونهم .

نرى أن الأمر يتعلق هنا عموما بتبني وجهات نظر الريسوني ، وتبني فكرة الانتداب الذي طالب به اسبانيا بالأمس على الجهات التي يحكمها ، ذلك الانتداب الذي فاز به بالفعل ، ثم أصبح يكافح من أجل إعادة اقراره بكامله . وفي الوقت الذي كان فيه

الريسوني يعيش في وثام مع الاسبان ، كان القاضي عبد الكريم يفتقر إلى النفوذ لكي يطالب بحق الاستفادة من هذه الصيغة . فاضطر يومها إلى الاكتفاء بدور المبشر إلى أن أصبح دوره هذا يشكل خطرا جسيما عليه ، فآثر الانعزال تاركا الحبل على غاربه . لكن تمرد الريسوني أصبح يغريه بطرح العلائق مع اسبانيا في صيغة مغايرة . فبما أن هاته / لم تنفذ بتاتا مخططات غزوها العسكري عندما لم تكن تواجهها سوى بعض القبائل الريفية ، ألن تخاطر الآن لو أنها نفذت هذه المخططات وفي الوقت الذي كان عليها أن تواجه الحرب في القطاع الغربي وضد أكبر حليف لها بالأمس ؟ كان عليها إذن ، طوعا أو كرها ، أن تغير استراتيجيتها . فعوض أن تسعى جادة إلى تجريد الريسوني من حق الانتداب الذي بفضلها استغنت عن اللجوء إلى السلاح في قطاع واسع ، كان عليها بالأولى أن تجني في الريف نفس الفائدة من هذه المنظومة . في هذه الحالة ، كان القاضي عبد الكريم ، الذي اضطر فيما مضى إلى التخلي عن دوره المحفوف بالأخطار كعميل لها ، على كامل الاستعداد بتحديد روابطه بها ، لكن بالطبع بشروط ملائمة . فإذا ما قبلت اسبانيا منحه الانتداب على الريف وتزويده بالوسائل دون إنزال جيشها بالقوة ، فإن المشكل سيصبح قابلا للحل بكامل أبعاده . إذ بدلا من مجابهة المقاومة ، كما هو الشأن وقتندسيكون هناك مجال واسع للتعامل معها بالطرق الملتوية .

لكن ، هل كان القاضي عبد الكريم لا يفكر سوى في تسليم زمام أمره لإرادة الاسبان الحسنة بخصوص قبول مقترحاته ؟ هناك مقطع في رسالة ولده الأصغر محمد يدعونا فوراً إلى طرح السؤال . ها هو ذا :

"إن الريف ليفضل اسبانيا على جميع القوى الأوربية الأخرى بحكم روابط الأخوة وواجب الجوار . لذا فإنه يوجه نداءه عالياً إلى جميع الأحزاب الاسبانية مناشداً إياها أن تنكب على دراسة أوضاعه . على أنه لا يسعه ، إذا رأى نداءه يقابل بالاستخفاف ، إلا أن يطلب المساعدة من جهة أخرى " (91) .

إنه مقطع مؤثر ولكنه ينتهي أيضا بالتحذير . فإن طلب المساعدة من طرف آخر لا يعني سوى فتح الباب أمام تدخل الفرنسيين . كان التهديد إذن واضحا ، كما أنه لم يكن عديم الجدوى . فقبل شهرين ، كان أعيان الريف قد أوفدوا أحدا منهم ليقترحوا على الفرنسيين تقديم ولائهم . كان حامل الرسالة هو بوجدان الذي ذكره محمد (الابن الأصغر) في رسالته ، بجانب والده كأحد الشيوخ الذين قطعوا علاقاتهم باسبانيا (92) . على أن القاضي عبد الكريم لم يكن ليجهل هذه المسألة ، هذا إذا افترضنا أن لا ضلع له

فيها . كما لم يكن لتخفى عنه الاتصالات التي جرت مع الفرنسيين هنا وهناك (93) . صحيح أنه كان يجهل أن فرنسا اقترحت مؤخرا على الاسبان شراء منطلقهم ، لكن المسؤولين في مدريد كانوا على علم بذلك (94) . وهكذا فقد كان تحذيره مرتكزا على أساس ولم يكن من المحتمل في مثل هذه الظروف أن يقابل بالاستخفاف .

ماذا سنستخلص من ذلك ؟

من المؤكد أن القاضي عبد الكريم كان على كامل الاستعداد ليضطلع بمهمة الانتداب بالنيابة عن اسبانيا . على أن ما كان يجيش في نفسه لم يكن مجرد استعداد بسيط . في الحقيقة أنه ضاق ذرعا بعزله وبات يتحرق شوقا لهذا الانتداب الذي بدت الظروف الجديدة تضعه وكأنه في متناول يديه . وأكثر من ذلك ، فإنه التمس مستعملا حتى بعض التهديد إذا قوبل بالرفض . معنى هذا أنه ، وبدون أن يتكهن بعواقب هذا الصراع ، لم يستبعد فكرة مقارعة الاسبان لأكراهم إذ ما ظلوا يضربون عرض الحائط بنداياته . كان يتوفر من أجل اقناعهم على وسائل له خبرة في استعمالها . فإن الخطر الفرنسي الذي لوح به براءة متصنعة ، لم يكن سوى وسيلة ضمن وسائل أخرى أهم . وبهذا الخصوص ، لم يكن لحركة الريسوني الفضل فقط في خلق جو ملائم له بوضوح ، بل كان لها أيضا ، وفي حد ذاتها شأن القدوة التي تحتدى . إنها آخر وأحسن تجسيد للفائدة الكبيرة التي يمكن جنيها ، قصد اقناع الاسبان ، من الرفض الأعمى الذي يثير ضدهم القطاع العريض من السكان ، وهذا حتى بالنسبة لمن تضاعل نفوذه بينهم أو تحطم في مواجهتهم ، مثل الريسوني وعبد الكريم . ذلك ما كان يعيد الاطمئنان إلى هذا الأخير ويشجعه على المضي قدما في الاتجاه الذي كان من شأن تجربته الخاصة أن تقوده إليه . وبالفعل ، كيف تسنى له بالأمس انتشار ولدته من سجن مليلية ، اللهم إلا بتظاهره بالانحياز بعزم إلى جانب المقاومين ؟ وإذا كانت اسبانيا ترفض اليوم التسوية التي يقترحها عليها بدون انقطاع ، شأنه في ذلك شأن الريسوني ، فإن الظروف لجد مواتية للمضي ، عند الاقتضاء ، حتى إلى نهاية هذه الخطة التكتيكية .

كما كان متوقعا ، فقد أثارت رسالة محمد بعض القلق في مدريد . إلا أن المسؤولين هناك أبوا إلا أن يعتبروها من وحي عميل معاد لاسبانيا كان يعتقد أنه يحبك دسائسه بتاحية أجدير . لذا فقد بلغوها للمقيم العام برنكر راجين منه توضيح القضية وتجليه الدوافع التي ينقاد لها القاضي عبد الكريم . وهكذا كانت مدريد ، التي رفضت كما نرى التسليم بالحقيقة المجردة ، غير مستعدة لسلوك السبيل الذي دعته إليه أجدير . أما تطوان ، فكان برنكر غير مستعد هو الآخر علما بأنه قرر وقتئذ اخضاع المقاومين بالقوة . ومن ثم تفاقل بكل بساطة عن الجواب خلال أزيد من سنة وإلى نهاية 1920 ، عندما كررت عليه وزارة الدولة سؤالها (95) .

إلا أن ساعة التسوية كانت قد مضت وقتئذ . إذ أن حظوظ النجاح أخذت في غشون ذلك تبتسم للأسلحة الاسبانية .

الهوامش

(1) أثارت شخصية الريسوني اهتمام الكثيرين من أصحاب التراجم ، نذكر منهم بالخصوص :

- Manuel L. ORTEGA (PICHARDO) : España en Marruecos ; El Raisuni, Madrid, 1917.
- Eliseco BERMUDO SORIANO : El Raisuni (caudillo de Yebala) , Madrid 1921 .
- Rosita FORBES : EL RAISUNI the sultan of the mountains, N. - York 1924 .
- Tomás GARCÍA FIGUERAS : Del Marruecos feudal . Episodios de la vida del xerif Raisuni, Madrid, Barcelona, Buenos - Aires, 1930.

نشر كذلك إلى دراستين نشرنا متسلسلتين ، إحداهما المؤلف مجهول ، وقد نشرت في "نشرة لجنة إفريقيا الفرنسية " (وسنرمز لها من الآن فصاعدا بهذا الرمز : B . C . A . F) ابتداء من يرايز 1946 . والآخرى لتوماس كارسيا تحت عنوان : Tomàs CARCIA FIGUERAS : Mulay Ahmed ben Sidi Mohamed Raisuni, (Zinat 1873 ? - Tamasin 1925) .

وقد نشرت في المجلة الإسبانية "Africa" ابتداء من أكتوبر 1943 .

بيد أن المعلومات التي تقدمها هذه التراجم معلومات غير أكيدة في كثير من الحالات ، حتى فيما يتعلق بواقعة الأحداث وتواريخها ، خاصة في الفترة السابقة لعام 1900 ، عندما كان الريسوني ما يزال مجهولا من طرف الأوروبيين . وحتى بالنسبة لاسمه ، فقد نقل إلينا محرفا على هذا النحو : الريسوني . على أن المؤلف الوحيد الذي يمكننا أن نثق به حقا هو الإسباني توماس كارسيا فيكراس ، الذي قام بدراسة ميدانية في المنطقة واستند إلى شهادات مغربية شفوية ومكتوبة .

في المدة الأخيرة ، نشر مؤلف مغربي ، هو على الريسوني المحامي كتابا بالعربية تحت عنوان : " أبطال صنعوا التاريخ " ، تطوان 1975 ، خصص جزءا كبيرا منه لسيرة الريسوني ، بيد أن المؤلف ينتمي إلى عائلة بطله ، اجتهد في إظهار الريسوني بطلا من أبطال الوطنية المغربية ، وهو ادعاء لا سبيل إلى قبوله لأنه يشوه بشكل سافر كثيرا من الحقائق الثابتة . بالمقابل ، يمكننا بدون تردد أن نفضل على المؤلفين الأوروبيين بالنسبة للسنوات الفاضحة من طفولة وشباب الريسوني ، وهي الرحلة التي يستند فيها المؤلف إلى الروايات التي تركها شخصان من عائلته ومن ولقاء الريسوني المقربين .

هناك إشارات حول الفترة التي كان فيها هذا الأخير عاملا على طنجة ، نجدها في "الوثائق المتعلقة بالريسوني " ، وهي وثائق مخزنية بالمغربية ، نشرها مع ترجمتها الفرنسية ا . س . طرش في مجلة اسبرس - تمودا * 1951 .

بالنسبة للفترة التي تبدأ عام 1911 ، تتوفر على معلومات دقيقة ومؤرخة تتعلق بكل علاقات الريسوني بإسبانيا . ونجد أهمها في :

Carlos HERNÁNDEZ HERRERA et Tomás GARCÍA FIGUERAS : Acción de España en Marruecos , 2 Vols., Madrid,

بيد أن أهم المعلومات هي التي نجدها في رسائل الريسوني المطولة ، وهي بمثابة مذكرات حقيقية كان في مناسبات متنوعة يوجهها إلى السلطات الإسبانية . ونجدها مترجمة إلى الإسبانية إما في الملحق الوثائقي للكتاب السابق الذكر ، وإما في ملحق كتاب الجنرال برنكر :

BERENGUER : Campañas en el Rif y Yebala - 1921 - 1922, Madrid, 1923.

على مثل هذا المستوى من الأهمية ، هناك أيضا المذكرات التي أجريت إما مع الصحفيين وإما مع رجال السياسة الإسبانية ، وسنقدم مصادرها تباعا في حينها .

(2) حول نسب الريسونيين وأولاد ريسون ، انظر محمد داود : "تاريخ تطوان " المجلد السابع ، القسم الأول ، ص 100 - 101 ، تطوان 1975 .

(3) علي الريسوني : مرجع سبق ذكره ، ص ، 96 .

(4) المرجع نفسه ، ص 98 - 99 .

(5) المرجع نفسه ، ص 99 - 100 . بفضل البحث الذي يحضره حاليا محمد اليزان حول "المجلس الصحي الدولي بالمغرب " قبل

1912 ، تعرف أن سجن الصويرة لم يكن مفتوحا قبل 1897 . وهذا ما يحد المدة التي قضاهَا أحمد الريسوني في هذا السجن في ثلاث سنوات (1897 - 1900) .

(6) المرجع السابق ، ص 102 .

(7) المرجع السابق ، ص 106 و ص 113 - 116 .

(8) التهامي الوزاني : " تاريخ المغرب " ، المجلد الثالث ، ص 145 ، تطوان 1940 .

HERNANDEZ HERRERA et GARCÍA FIGUERAS (=HH) : "Op. cit vol ., I , pp. 249sq .

9) T. GARCÍA FIGUERAS : Mulay Ahmed ben Sid Mohamed Raisuni "in" Africa, oct . - nov. 1945 ;

أشار الريسوني بنفسه إلى صداقته مع زوكاستي في رسالته إلى العقيد كوث سوثا (Gómez Souza) المؤرخة في 22 فبراير 1919 . نشرت هذه الرسالة في ملحق كتاب هرناندث هرره السابق الذكر ، المجلد II ، ص 88 وما يليها ونشرت في "Revista Hispano - Africana " sept. 1922

(10) تصريحات تم التقاطها من طرف مانويل أورتيكا (Manuel Ortega)

(11) تصريحات قدمت للسيكتور توماس مايستري. Tomás Maestre. في فاتح يونيو 1911 ، وقد أوردنا :

T . GARCÍA FIGUERAS : Mulay AHMED ... op. cit.

(12) في رسالة موجهة فيما بعد إلى الجنرال برنكر بتاريخ 2 جمادى الثانية 1340 / 30 يناير 1922 ، سيذكر الريسوني بالخدمات التي قدمها للاسبان على هذا النحو : " أو نسيت كيف تصرفت حيال بلادكم في بداية علاقتنا ، والخدمات التي قدمتها لك عندما ساعدتك على احتلال المرائش والقصر وأصيلة وأماكن أخرى هامة ؟... كل هذا تم بناء على إرشاداتنا ويفضل نخلفنا بون أن يتعرض جنوبكم لطلقة نارية واحدة " .

أورد برنكر هذه الوثيقة في ترجمتها الاسبانية تحت رقم 11:

BERENGUER : Campañas ..., op. cit . pp. 257 - 260 .

HH. Vol., I, p . 249 . (13)

(14) المصدر نفسه ، المجلد 1 ، ص 249 .

(15) رسالة إلى الجنرال برنكر بتاريخ 30 يناير 1922 ، سبق ذكرها في الهامش 12 .

T . GARCÍA FIGUERAS : Del Marruecos feudal ..., op . cit ., p 23. (16)

(17) المصدر نفسه ، ص 39 .

(18) رسالة إلى الجنرال برنكر ، 30 يناير 1922 ، ذكرت في الهامش 12 .

Del Marruecos feudal ..., cit ., pp. 51 - 55 (19)

HH., op. 236. (20)

(21) آخر تقرير المقيم العام خورداثة ، وقد اعتبر كوصيته السياسية عشية وفاته في نوفمبر 1918 ، المصدر نفسه ، المجلد 1 ، ص 249 .

(22) رسالة 30 يناير 1922 الموجهة إلى الجنرال برنكر ، سبق ذكرها في الهامشين 12 و 15

(23) " إذا قطع علاقاتنا بنا ، سيمكثنا عزله سياسيا ، لأن القبائل تفضيه وأنها تخشاه " . (وصية خورداثة السياسية

(HH. op. cit., I, p. 249). :

(24) رسالة برنكر إلى الريسوني ، 12 فبراير 1922 ، وردت في : . p. 260 . Campañas ..., op. cit .

(25) وصية خورداثة السياسية : HH . op. cit, I, 249

(26) رسالة إلى العقيد كومت سوتا ، المذكورة في الهامش 9 .

(27) * هكذا وصلنا إلى سنة 1337 هـ [1918] وهي السنة التي تدهورت فيها الحالة أكثر من أي وقت مضى من أحميلة إلى القصر .. (رسالة الريموني إلى برنكر بتاريخ 31 يناير 1922 ، وردت في : (Campanas ..., op. cit., p. 259)

(28) رسالة الريموني إلى كومت سوتا ، المذكورة في الهامش 9 .

(29) تصريح أدلى به لـ "España en Africa" بتاريخ 26 فبراير 1919 ، أورده :

(30) بقيت اتفاقية التقسيم مع فرنسا سرية إلى أن نشرتها الصحيفة الباريزية " (Le matin) في عدد 3 أكتوبر 1911 . وقد نصت على خط لتحديد الحدود يمر عن طريق الخط الفاصل بين وادي ورغة في الشمال وادي سبور في الجنوب . بعد أزيد من 14 شهراً من المفاوضات ، أضافت الاتفاقية النهائية بتاريخ 17 نوفمبر 1912 وادي ورغة إلى منطقة الاحتلال الفرنسية . انظر جدول وتطيل المفاوضات في B. C. A. F. à partir de juin 1911

(31) * لا مجال لأي تعامل عسكري بلغي شكل كان ، إن هذا أمر مفروغ منه * : ذلك ما صرح به ليوطي للأسبان كما جاء في تقريره إلى الحكومة . أورده :

Pierre LYAUTEY : Lyautey l'Africain, Paris 1953 t. I, p. 284 (ci - après ; LYAF) .

(32) *عند مروري بمغريد منذ إحدى عشرة سنة ، صحبة السيد بوان كاري Poincaré قمت بعد التفاهم معه بعرض تعاوننا بكل نزاهة وصدق ...* (ملكرة ليوطي بتاريخ 4 مارس 1924 إلى الرائد بلرفيل (Puverville) ، الملحق العسكري بالسفارة الفرنسية بمغريد : وثيقة ملحقة بالرسالة ذات الرقم 538 ، الموجهة من ليوطي إلى رئيس الحكومة ، بتاريخ 22 مارس 1924 : وثائق الكي دورساي (سنومز لها فيما يأتي ب . A . E . P . سلسلة "المغرب" ، 11 ، 2 .

(33) في رسالة من السلطان مولاي يوسف (25 صفر 1337 / 30 نوفمبر 1918) ، نقراً ما يلي : "أما بالنسبة للمنطقة الأخرى ، فهي لا تخضع حتى لمراقبتنا نظراً لأن الحكومة الإسبانية أقامت بها سلطات مغربية مستقلة عن المخزن ولا تصاح إلا لشريف ينتمي إلى أسرنا ، وهو أن كان حقا خليفتنا ، إلا أنه لا يربط أية علاقة بنا ، ويتحلى بشكل تعسفي بمظاهر السيادة التي لا يختص بها إلا جلافتنا " : وثيقة ملحقة بالرسالة ذات الرقم 1386 الموجهة من ليوطي إلى وزير الشؤون الخارجية 5 سبتمبر 1918 :

(A . E . P . . série, "Maroc", 10 - I d/g.) . أحال ليوطي هذه الرسالة إلى حكومته تعزيزاً للمقترحات التي عرضها عليها ، ويظهر أن مصالحه هي التي أوجت بها أن لم تكن قد حررتها . هذا ويسعى ليوطي بنفسه فيما بعد بست سنوات على رأس قائمة مأخذ التراكمة ضد إسبانيا منذ 1913 * اختصاصات السيادة الخارجية التي منحت لخليفة بتطوان (مذكورة إلى الرائد بلرفيل (Puverville) المذكورة في الهامش (32) .

(34) يقول لنا ليوطي أنه اقترح عام 1913 تعاوناً على الأسبان * بهذا الشرط الذي لا غنى عنه وهو أن يعترفوا قبل كل شيء بالسيادة التامة للخليفة " يعني بالخليفة هذه المرة الامبراطورية الشريفة تحت سيادة السلطان الذي هو بالفعل خليفة الرسول ، في حين أن الخليفة بتطوان مجرد نائب السلطان : مذكرة إلى الرائد بلرفيل المذكورة في الهامشين 32 و 33 .

(35) في رسالة تحمل تاريخ 24 يونيو 1924 ، يبين ليوطي لوزير الشؤون الخارجية أنه عارض منذ 1915 رغبة الأسبان في بناء جسر على ملوية السطلي ، وهو النهر الفاصل في الشرق بين المنطقتين . لتفسير موقفه ، كتب يقول بالخصوص : " السبب الآخر الذي جعلنا نعارض البناء ، هو تخوفنا من أن يتم بفضل هذا الجسر تحويل جزء من التجارة الشرقية إلى مليلية ... إن هدفنا من سياسة التلجيل يرمي إلى ربح الوقت ، وهذا إلى غاية إنشاء الطرق والسكة الحديدية ، وإلى أن نعتاد حركة المبادلات على التحويل نحو الجزائر بدلاً من الاتجاه إلى مركز مليلية كما يود الأسبان " .

الرسالة ذات الرقم 1173 :

(A . E . P . . , série " Maroc" , 11 - 2)

(36) * إن اعتبارات ذات مستوى عال تدخل في إطار السياسة العامة تملئ علينا ضرورة مساعدة جيراننا ليمتكنوا في أحسن الظروف من التغلب على مشاكلهم المغربية " : رسالة إلى فيفياني (Viviani) ، وزير الشؤون الخارجية ، بتاريخ 30 يوليوز 1914 : LYAF, op., II, p. 150 .

(37) رسالة 17 نوفمبر 1915 التي وجهها ليوطي إلى برتي (De Peretti) ، نائب مدير إفريقيا بوزارة الشؤون الخارجية

LYAF , op. cit., p. 88

- 38) رسالة ليوبلي إلى وزارة الشؤون الخارجية . وهي تحمل الرقم CMC 400 حورت هذه الرسالة بفاس في 5 نوفمبر 1918 ، إلا أنها لم ترسل إلا بعد شهر ، أي في 5 سبتمبر 1918 ، ملققة برسالة أخرى تحمل نفس التاريخ الأخير وحول نفس الموضوع :
A . E . P., série " Maroc " 11 - 2 s/d.
- 39) قرار منشور في الصحيفة الباريزية "Le Temps". وقد اشعرت به باريس وزارة الخارجية البريطانية في 25 مارس 1919 Archives du Foreign Office au Public Record Office de Londres, (ci--après : PRO FO -) FO . 403/ 450 , n° 67 -
- 40) بقلم دوبرينو : B . C . A . F ., janvier - février , 1919 , p. 92.
- 41) العريضة التي سلمها القنصل البريطاني بطنجة ، وايت ، إلى كاتب الدولة في الشؤون الخارجية بمغريد ، كورزون (Curzon) ، بتاريخ 14 يناير 1919 : PRO - FO . 403 / 450
- 42) أعيد تأكيد وجهة النظر هذه لكورزون (Curzon) في 27 فبراير 1919 من طرف سفير بريطانيا العظمى بباريس ، دربي (Derby) PRO - FO., 403/450,27;
- في 30 يونيو 1923 ، وفي رسالة إلى كورزون ، ألح مرة أخرى القنصل البريطاني الجديد بطنجة (William Codrington) على : الضرورة الاستراتيجية لبقاء السواحل المغربية [الشمالية] تحت السيطرة الإسبانية ، وأعلى الحيوية في كل الأحوال دون وقوعها في يد فرنسا . كما أن القنصل المذكر سيذكر بأن الغاية من عقد اتفاقيتي 1904 و 1912 هي "تفادي حدوث فراغ غير مرغوب فيه طول السواحل " : PRO - FO., 413 / 66
- 43) عندما أخبر السير روبرت سسل (Sir Robert Cecil) كاتب الدولة في الشؤون الخارجية ، سفيره بمغريد (Sir Hardinge) بهذا الموقف ، بتاريخ 2 يناير 1919 ، قامت الحكومة الإسبانية باستفساره : فاجابها بأن السياسة الانجليزية لم تطرأ عليها أي تغيير منذ 1904 فيما يخص المسألة المغربية : PRO - FO . 403 / 450
- 44) في 26 فبراير 1919 ، أبرق كورزون إلى بلفور (Balfour) بمؤتمر الصلح ، بأن إنجلترا متمسكة بالاتفاقية الفرنسية الإسبانية (عام 1904) التي انضمت إليها "ضمينا " ، وختم بقوله : " وناء على ذلك ، لا سبيل إلى أخذ المطالب الفرنسية بعين الاعتبار " . : PRO - FO., 403/450, 23
- 45) تعقيب وايت (طنجة) الذي وجهه إلى كورزون بتاريخ 14 يناير 1919 حول عريضة الفرنسيين بطنجة :
PRO - FO ., 403 / 450 . 23 .
- 46) برقية 1 . أرنج (A . Harding) سفير بريطانيا العظمى بمغريد ، الموجهة إلى كورزون بتاريخ 22 يناير 1919 :
PRO - FO ., 403 / 450,9
- 47) عند سرد مذكرته الأولى مع الفرنسيين 13 بمغريد ، صرح ليوبلي بصند هذا الأخير : قام " بمقابلة صغيرة حول تفهيم الاحتمالي والمحمول ضد إسبانيا " (6 أكتوبر 1913) :
LYAF, op . cit ., I, P, p. 279. 279.
- 48) بتاريخ 6 سبتمبر 1915 , B . C . A . F ., déc., 1915, p. 338.
- 49) مذكرة إلى الرائد برفيل (Puverville) بتاريخ 4 مارس 1924 ، المذكورة في الهوامش 32 ، 33 ، 34 .
- 50) مذاكرة القاضي عبد الكريم العقيد كركويو (Cogolludo) ، بتاريخ 4 نوفمبر 1917
- S . H . M., Mel., II, 19, 53 à 56 :
- 51) تقرير من الجنرال إيشيرو ، حاكم مليلية ، إلى المقيم العام برنكر ، 18 يناير 1919 :
- S . H . M., Mel., III, I , 3 à 16 . :
- 52) خاصة في "B . C . A . F ." . كتب فيها دوبرينو (يناير 1919 ، ص 92) :
"إن وجهة النظر هذه [جعل المغرب عملة لتبادل] هي وجهة نظر الاشتراكيين والقطالين والاصلاحيين بمعنى وجهة نظر قادة إسبانيا في المستقبل " .

53) في 25 فبراير 1919 ، صرح كامبو (Cambo) ، ممثل الأقلية الإقليمية ، بأنه من العيب بالنسبة لدولة ضعيفة كاسبانيا أن تجعل من المغرب "حدوداً استراتيجية لأن تكون قادرة على الاحتفاظ بها . رأى بالتالي في الحماية "أداة لولاية التبادل " :

(B . C . A . F . janvier . 1919) وكانت هذه هي وجهة نظر معارضين تتباين اتجاهاتهم ، مثل القبيبرالي ليوبولد روميرو (Leopoldo Romeo) والجمهوري لرو (Lerroux) ، أو الاشتراكي بستيرو (Besteiro)

54) من القورد روميرو سسيل (من لندن) إلى أرنج (Hardinge) ، السفير البريطاني بمدريد ، بتاريخ 2 يناير 1919 : 450 / PRO - FO ., 403

بإبلاغه الخبر ، بين القورد سسيل أيضا الجواب الذي قدم لمفريد : إن السياسة الانجليزية لم تتغير بصدد المسألة المغربية منذ 1904 .

55) B . C . A . F ., janvier - février , 1919 , p . 71

56) تقرير من الجنرال إيثيود إلى المقيم العام برنكر ، 18 يناير 1919 ، المذكور في الهامش 51 .

57) B.C.A.F., janvier - février 1919

58) تقرير إيثيود إلى برنكر ، 18 يناير 1919 ، المذكور في الهامش 51 ، 56 .

59) ندوة "التقرير الشهري للحماية " (RMP =) الناطقة الأمانة بلسان حال الإقامة الفرنسية بالرباط ، لاحظت بنوع من الامتناع في عدد ماي 1919 ، متحدة عن الزحف الإسباني في قبيلة مطالسة ويني بوياسي : لقد أنعدوا للفوز بسهولة مذهلة .. كما أن الحصار الذي ضربه في أن واحد اسبانيا وفرنسا أوقع هؤلاء السكان في اليأس .

60) تقرير من إيثيود إلى برنكر ، بتاريخ 2 يونيو 1919 . S . H . M., Mel , III, I , 51 52 .

61) تقرير من إيثيود إلى برنكر ، 23 يونيو 1919 :

S . H . M., Mel., III, I , 59 , 61 .

62) تقرير من إيثيود إلى برنكر ، 15 غشت 1919 :

في فاتح أبريل وفي عين مديونة على دغرة ، تكبد الفرنسيون هزيمة ساحقة أمام الريفيين برعاية أحمد أخمليش . وقد سجلوا في صفوفهم 296 قتيلًا و67 جريحًا :

VOINOT " : Sur les traces glorieuses des pacificateurs du Maroc , Paris , 1939, p. 267.

أما التقرير الشهري للحماية (R . M . P) عدد 10 أكتوبر 1919 ، فلم يعترف إلا ب 24 قتيلًا و67 جريحًا .

63) تقرير إيثيود إلى برنكر ، 10 أكتوبر 1919 . S . H . M., Mel ., III, 66 à 69 .

64) المصدر نفسه

65) انظر ما مر معنا في ص .

66) تقرير إيثيود 2 نوفمبر 1919 : . S . H . M ., Mel., II, I, 17 à 23 .

67) تقرير إيثيود إلى برنكر ، 12 نوفمبر 1919 : . S . H . M., Mel ., III, I, 17 à 23 .

68) تصريح برنكر المنشور في " España en Africa " : عدد 26 فبراير 1919 ، ذكره : H . H ., op. cit., I , p . 266.

69) تقرير إيثيود إلى برنكر ، 4 جينير 1919 : . S . H . M., III, I, 74 .

70) تكبد الاسبان في يوليو هزيمة فاسحة في قبيلة واد راس . وحسب B . C . A . F . فقد سجل فيهم 67 قتيلًا و101 جريح .

71) في 6 أكتوبر 1919 .

72) عرفت وجهة النظر هاته ، التي تدفع إلى تفسير جد مختصر للهزيمة الاسبانية في أنوال ، راجا مدهشا ، وأصبحت مع مرور الوقت وكتابتها حقيقة ثابتة ، راعل أكثر من ساهم في اقحامها في التاريخ هو بلاسكو ايبانيث BLASCO Ibañez في كتابه

Alphonse XIII démasqué ; la terreur militariste en Espagne, trad. française de Jean LOUVRE , PARIS ; 1925 .

على سبيل المثال : يزعم المؤلف أنه تم العثور ضمن وثائق سلفستري على رسالة من الملك يقول له فيها : " افعل ما أمرك به ولا تمأ بوزير الحرية : إنه ابله " (ص 47) . هل نحن في حاجة إلى التوضيح بأن أي شخص لم يعثر أبداً على أثر لهذه الرسالة (أو على ما يشابهها) ؟

73) أعيد تقليد برنكر مهام القائد في فاتح أكتوبر 1920 . وفي كتابه المذكور أنفا (Campañas...) لم يسمعه إلا أن يرجع إلى الشائنة التي زرعت ، حسب مارج فيما بعد ، الشقاق بينه وبين سلفستري (ص 7 - 8) .

ومع أن التكذيب الذي واجهها به تكذيب معتدل ، إلا أنه حازم وينسجم مع وجهة النظر التي تستخلص من دراسة الوثائق .

74) رسالة من المقيم العام برنكر إلى الجنرال سلفستري ، قائد القطاع بعلملية ، بتاريخ 8 يوليو 1920

S . H . M . , Ponencia de Africa , Documentos personales del General Silvestre .

75) جراب الجنرال سلفستري برنكر ، 17 يوليو 1920 . نفس المصدر المذكور في الهامش 74 .

76) في كتابه المذكور أنفا (Campañas ...)

77) الجنرال برنكر ، مصدر سبق ذكره ، ص 27 .

78) المصدر نفسه ، ص 3 .

79) يشير التقرير الشهري للحماية ، غشت 1919 ، إلى أن نشاط الرسوني " أحمر الوطيس " في كل الشمال وذلك بعد نجاحه في واد راس في يوليو (انظر الهامش 70) .

80) انظر ما تقدم في ص 276 .

81) انظر ما تقدم في ص 277 .

82) تقرير أيتوبود إلى برنكر ، 15 غشت 1919 : S . H . M . , Mel . , III, I , 64 .

83) انظر ما تقدم في ص 253 .

84) رسالة من محمد (الأبن الأصغر) بن عبد الكريم إلى الدين مانويل أكييري Aguirre كاتب قطاع المغرب بوزارة الدولة بمدريد ، وفي مؤرخة ب " قبيلة بني وياغل " في 15 غشت 1919 . وكان السي محمد كصاحب منحة سياسي محط عناية مانويل أكييري خلال إقامته بمدريد ، وقد قامت بينهما صداقة ودية .

85) المصدر نفسه .

86) المصدر نفسه .

87) نفسه .

88) انظر ما تقدم في ص 253 .

89) انظر ما تقدم في ص 245 .

90) انظر ما تقدم في ص 245 .

91) رسالة محمد (بالتفتح) إلى مانويل أكييري . المذكورة في الهامش وما بعده .

92) يقول التقرير الشهري للحماية (R . M . P.) ، عدد يونيو 1919 : إن هؤلاء الأعيان انتدبوا " تلقائياً " بوجدان من أجل " المطالبة بالحماية الفرنسية " . وقد مثل بوجدان هذا أمام المركز الفرنسي بروتو (Berteaux) يوم 20 يونيو .

93) في رسالة كتبت في وقت متأخر (10 فبراير 1921) ولكنها تستند إلى الفترة التي نحن فيها (غشت 1919) سيسيف سلفستري حتى اسم القاضي عبد الكريم إلى قائمة من كان يجري هذه الاتصالات مع فرنسا . نقرأ في هذه الرسالة :

"إن اسمه يوجد ضمن من يحرر الرأي العام في الريف لتحرير عرائض إلى الفرنسيين وإلى مولاي يوسف [السلطان] " . رسالة من

الجنرال سلفستري إلى برنكر ، 10 فبراير 1921 .

S . H . M., Mel., II , 15 , 26 .

94) في 20 يناير 1919 ، صرح هاردينج (Hardinge) ، سفير بريطانيا العظمى بمغربي ، صرح القوي كيندتن : " لقد قال لي اليوم وزير الدولة إن الحكومة الفرنسية كشفت الآن فيما يظهر عن خططها بشأن المغرب " . هذا وكان سفير فرنسا (Alapetite) خلال إحدى مقابلاته . قد اقترح على الملك شراء المنطقة الشمالية :

PRO - FO , 403 / 450 , 122 , 127.

95) تم توجيه الطلب الأول إلى برنكر في 16 أكتوبر 1919 . ونحن لا نتوان على الرسالة التي تضمنت هذا الطلب ، إلا أننا نتوان على رسالة 18 سبتمبر 1920 التي حاولت متكررةً بمباراة وملفتة النظر إلى أنه لم يحظ بأي جواب : رسالة وزارة الدولة إلى المقيم العام برنكر ، 18 سبتمبر 1920 : S. H. M. Mel., II. 15, 31, `a 35 .

مفترق الطرق

إن البلاد الريفية الحقيقية لبعيدة عن أن تحوي مجموع الهلال الذي ترسمه السلسلة المسماة عادة بالريف . فهي لا تكاد تضم سوى الجزء الشرقي ابتداء من النقطة التي تأخذ فيها التضاريس ، بعدما كانت ضخمة ، مرتفعة ، متصلة ، في الانخفاض والرشاقة في اتجاه الشرق ، لتتقطع إلى عناصر متدرجة بشكل بدئ بجانب الساحل كأسنان مشط يتقلص طولها تباعا .

بين هذه العناصر التي تستدير على شكل رؤوس أو تستطيل على شكل شبه جزر ، تقع منخفضات تخترقها بعض الوديان القادمة من الجنوب لتتصل بسرعة بالبحر . في اتجاه الشمال ، يتسع أحيانا أحد هذه المنخفضات على شكل جون متسع كما هو الشأن في الحسيمة ⁽¹⁾ . بينما تنفتح في اتجاه الجنوب ، عبر مجازات أو فجاج وعرة إن قليلا أو كثيرا ، على وهدة طويلة تحيط بكل المنظومة من الشمال الشرقي والجنوب الغربي .

في خانات هذه الرقعة ذات الأشكال الناتئة أو المقعرة ، تقاسمت القبائل الريفية الكبرى المجال طوال قرون . على أن اسبانيا تمكنت هي الأخرى من دس بيادقها الخاصة . تتكون هذه في الغرب من القاعدتين المكملتين النكور وبادس ، كل منهما على جزيرة بالقرب من اليابسة . بينما توجد مليلية في الطرف الآخر تجاه الشرق وبالتالي نحو الخارج ، مسندة ظهرها إلى الضلع الجبلي لشبه الجزيرة المتطرفة التي تنتهي عند رأس المذارى الثالث .

عندما وُضع الغزو في جدول الأعمال سنتي 1907 و 1909 ، فقد جرى البدء في المشروع بالطبع عن طريق مليلية . كان يبدو إذن أن الأرض هي التي تتحكم في توجيه عملية الغزو . كان الهدف بالتسلل جنوبا بين البحر والجبل هو الوصول إلى السهل والانتشار فيه غربا ، ثم بالانقلاب نحو الشمال ، إنجاز حركة منجالية تقود إلى البحر وتقطع شبه الجزيرة عن باقي البلاد . سيكفي حينئذ الانتظار حتى تضطر القبائل المحاصرة حتما إلى الخضوع . بعد ذلك ستظل نفس الخطة مطبقة باستمرار . بحيث سيتواصل الزحف غربا على طول الوهدة للمناورة عبر عمليات تطويق متتالية . وإن الغزو المتجزئ على هذا النحو من شأنه أن يقود أكيدا ، بطول أناء وبدون اللجوء إلى زيادة مفرطة في الوسائل ، حتى إلى خليج الحسيمة .

بيد أن الفكرة التي تضمنتها هذه الخطة هي أنه لن توجد خلال الزحف سوى مقاومة محلية يسهل التغلب عليها . وهو ما لم يكن عليه الأمر بتاتا ، كما رأينا ، وذلك حتى في البدايات الأولى . نتذكر الانتكاسات الكبيرة التي طبعت محاولة الاختراق نحو الجنوب في يوليو 1909 (2) ، والتي تدل على أن القبائل النائية نفسها كانت من يومئذ قد استجابت لنداء أمزيان . تطلب الأمر ما لا يقل عن سنتين من الانتظار وستة أشهر من الحرب ، احتفظ خلالها الريفيون بزمام المبادرة ، للوصول إلى مصب كرت ، الحد الطبيعي لشبه جزيرة مليلية (3) .

على الضفة الأخرى من واد كرت ، تنتصب المرتفعات التي يسميها الاسبان بجبل مورو (mont Mauro) والتي تسد سدا مكثفا طريق الغرب وتبلغ فيها المقاطعة الساحلية الأهلة بقبيلة بني سعيد أعلى ارتفاع لها . منطقيا ، كان جبل مورو هذا الهدف الثاني اللازم إخضاعه عن طريق تطويقه من كل جانب . لكن منذ وفاة أمزيان لم تفتأ الوحدات القادمة من الريف قاطبة تتوارد عليه لتقوم هناك بالحراسة . كان بإمكانها انطلاقا من جبلها أن تنقض في رمشة عين على مؤخرة أو جناح أية قافلة تغامر في اتجاه الغرب . وإن التهديد الذي شكلته بصورة دائمة على مليلية نفسها ، التي لا تكاد تبعد إلا بمسيرة ليلة ، فرض على الجنود الاسبان واجبات فادحة (4) . لذا ، وطوال سبع سنوات ، بين 1912 و 1919 ، حدث حقا في عهد خوردانه وأيثبورو زحفا لا يستهان بهما في الحقيقة . لكن بعيدا عن الاقتراب من أراضي بني سعيد ، وبالأحرى من الضرب هناك صعودا إلى الشمال ، فقد تم إنجازهما في اتجاه الجنوب عبر الامتدادات المنبسطة لبني بويحي وجيرانهم مطالسة . من الحق أنهما أسفرا عن تمديد منطقة الاحتلال بشكل ملحوظ ، في نفس الوقت الذي نصبا فيه حواجز أمام التوسع الفرنسي . إلا أنهما أدارا الظهر مع ذلك للمشكل الحقيقي كما ارتسمت معالمه أمامنا أعلاه . ذلك أن الاسبان جعلوا من جبل مورو هذا قضية شائكة إلى حد أنهم بعد عدو لهم عن اقتحامه عنوة رأوا من اللازم اختيار مفتاح آخر للمشكل . لم يكن ثمة مصدر آخر غير هذا للفكرة الثابتة التي كانت الشغل الشاغل للقيادة في هذه السنوات : فكرة النزول رأسا على ساحل الحسيمة . على العكس من ذلك ، عندما استبعد برنكر من جديد فكرة هذا الإنزال متكيفا وفق الحالة التي تعرف عليها ساعة وصوله ، فإنه رجع فيما يخص الأهم إلى مفاهيم الأيام الأولى ، وهذا على الأقل في نطاق عمله في الواجهة الشرقية .

لكن يتعين القول إن هذه المفاهيم وجدت في خدمتها وقتئذ وسائل جديدة . منذ 1909 كانت الأمور قد تغيرت كثيرا حول مليلية وحتى داخلها . بالأمس كانت المدينة شبه

حبيسة داخل حزام تحصيناتها ، لا تتنفس إلا عن طريق البحر من حيث يتعين أن يصل إليها كل ما هو ضروري من أجل حياتها اليومية . غير أنها أصبحت في ظرف عشر سنوات وبفضل تقدم الغزو عاصمة لمنطقة تغطي عدة ألوف من الكيلومترات المربعة ، من غرب كرت إلى ملوية السفلى ، ومن غرورو إلى رأس المذارى الثالث . بعد أن كانت تفتقر بالأمس إلى كل شئ ، بما في ذلك الماء الجاري ، وجدت الآن في هذه المنطقة الخلفية الظروف التي تساعد على التعمير والتمون والامتداد بغية استقبال وتأمين حاجيات جيش احتلال قوي . من جهتها فإن المنطقة المستولى عليها ، التي أصبحت الآن محفوفة بالقلاع والحاميات والمراكز الاستعمارية وتربطها الطرق والمسالك بل وحتى سكة حديدية ، باتت توفر من أجل المناورة كل الموارد التي يمكن أن توظفها الاستراتيجية . كانت بالإضافة إلى ذلك خزان مقاتلين من شأنه توفير دم الجندي الاسباني . ففي القبيلة التي كانت معادية بالأمس ثم أصبحت بعد ذلك خاضعة كان يتم بالفعل تجنيد المرتزقة الذين شكلوا الفياق المعروفة بالنظاميين (Regulares) والفرق المسماة بوحدة الشرطة (Mías de Policía) . كان هؤلاء التعساء المساكين مجبرين على أن يبلوا البلاء الحسن في الحرب لعلمهم بأن خيانتهم لن تقابل بالعفو في الجهة المقابلة ، وكان يزج بهم في الخط الأمامي بدون أي اعتبار ، بحيث لا تبقى أمام جنود شبه الجزيرة أية مهمة أخرى عدا التمرکز في الأرض المستولى عليها .

كذلك خولت الأهمية المتزايدة للمنطقة المحتلة إمكانية تكثيف العمل في البلاد غير الخاضعة . فإن الحدود المخططة كانت تؤدي إلى الاحتكاك بالقبائل أكثر فأكثر ، تلك القبائل التي يبدأ فيها العمل الخفي على الفور القائم على الإرشاء وجمع المعلومات . أضف إلى هذا أن العمال الموسمين القادمين من هذه القبائل أو من قبائل أخرى أكثر بعدا ، أصبح من المتعذر عليهم التوجه إلى الجزائر كما هي العادة في كل صيف دون المرور من المنطقة المذكورة من أدناها إلى أقصاها . كان احتجاج بعضهم عند العودة وسيلة ناجعة لممارسة ضغط على القبائل التي يتحدرون منها .

لنصف أن الجيش الاسباني أصبح يتوفر الآن على تشكيلة جوية وبإمكانه بالتالي الضرب في أية جهة أو معاوية المقاتلين حتى في عقر ديارهم بمن فيهم القادمون إلى المعركة من بعيد . إذ علمنا في الأخير أن الجفاف تفشى خمس سنوات متتالية من 1915 إلى 1919 أدركنا أن اسبانيا ، سواء أسمعحت أم لم تسمح باستيراد الشعير عن طريق مليلية أو النكور ، ذلك الشعير الذي يصنع منه الريفيون خبزهم ، توفرت على آخر وسيلة جهنمية للانتقام ضد أعدائها . صحيح إذن أن برنكر أخذ المشكل من الجانب الذي

اضطر سلفه إلى إهماله . لكن من الحق أيضا أنه أخذ في ظروف ممتازة للغاية .

كانت الظروف الجديدة تمكن حتى من إنجاز العملية بسرعة . بالأمس ونظرا لعدم توفر المجال اللازم من أجل المناورة ، لم يكن بالإمكان إخضاع جبل مورو إلا بالتفاف حوله إلى أقصى حد . إنها عملية محفوفة بالمخاطر ومحدودة النتائج ، بحيث إنها لا تؤدي إلا إلى عزل القسم الأقصى من قبيلة بني سعيد . أما الآن فقد أصبح برنكر يسيطر على جزء كبير من الخط الموازي للجبهة الذي يتجه من الناضور وسلوان إلى الغرب على طول الوهدة المتوسطة . يمكنه بالتالي أن يفكر من يومئذ في محاصرة قسم أكبر بكثير من القبيلة دون أن يلاقي في نفس الوقت ، خلال زحفه إلى البحر ، سوى بلاد من التلال يسهل دخولها . لكنه - وليطفع الكيل - فكر في شق طريقه بعيدا ليتوغل في الغرب حتى إلى قدم كندة جبلية ثانية تتلاقى عندها قبيلة بني أوشك وبني توزين والتي يمكن فيما بعد بصعوده نحو الشمال أن يسلك منحدرها عن بعد . بناء على ذلك وضع منذ 1919 خطة من أجل احتلال منطقة تافرست حيث يمكن أن تقوم قرية دار دريوس مقام محور للمناورة في الشمال ، على حين يمكن للمراكز التي تقام في بني الطيب وتافرست وعزيب ميدار أن تسد على جناحه الأيسر كل منافذ الجبل التي تهدد الزحف . هذه هي الخطة التي سيتولى تنفيذها سلفستري ساعة وصوله (5) .

* * *

من المؤكد أن الريفيين كانوا يجهلون تفاصيل هذه الخطة . لكن باعتبار أنهم كانوا متيقظين كما هو دأبهم لأدنى مبادرة يقوم بها العدو ، فلم يكن ليغيب عنهم أن التهديد الذي كان جاثما بالأمس على سواحل الحسيمة ، تحول إلى جهة أخرى نحو قبائل الشرق التي خضعت منذ سنة لجهود متزايدة من الاجتذاب السياسي واختيرت بواسطة استعدادات عديدة لتكون هدفا لعمليات الزحف المقبلة .

بحكم ذلك ستعمل قبيلة بني ورياغل التي ورثت الصدارة عند وفاة أمزيان والتي كانت متيقظة لا تلتين لها عريكة ، ستعمل على توسيع نطاق عملها بشكل ملموس . طوال الوقت الذي كان فيه الخطر يخيم عليها مباشرة ، فإنها تعبت بالاعتماد بالخصوص على نفسها . أما وقد بات نفس الخطر يجازف اليوم بأخذها علي حين غرة بالاقتراب عن طريق جيران يقلون عنها جرأة واستعدادا ، فإنه لم يكن هناك بد من أن تتجه إلى هؤلاء الجيران للدعوة إلى المقاومة والتنظيمها . ينبغي القول إنه لم يكن من المنتظر أن تكون مهمتها سهلة على وجه العموم في غيبة مؤسسات ملائمة . كان عليها كذلك أن

تحسب الحساب سواء في عقر دارها أو عند جيرانها لـ "أصدقاء اسبانيا" الذين يتعين عليها فضح دسائسهم باستمرار ، سيما وقد كان بإمكانهم أن يلعبوا بالورقتين الراجحتين الاضافيتين : عدم الثقة حيال قبيلة أجنبية ، وعلى الخصوص تخوف من يدافعون عن أرضهم الخاصة من عمليات القمع التي تمارسها اسبانيا بعد الانتصار على القبيلة التي لم ترضخ .

على أنه كان بإمكانها الافادة من امتياز أكيد وذلك منذ أن زالت أمامها الحواجز الالف التي كان القاضي عبد الكريم ينصبها في طريقها منذ عشر سنوات . وفوق ذلك ، فإن القاضي عبد الكريم وولده محمد اللذين حاولا في البداية التزام الحياد ، قررا مؤخرا وفي نهاية المطاف ، الدخول في الخط الذي لن يحيدا عنه مطلقا .

نعرف ذلك من خلال وثيقة مؤرخة في فبراير 1920 ، في 27 من هذا الشهر أخبرت برقية مقتضبة من النكور أن السي محند الخطابي وعمه عبد السلام غادرا أجدير منطلقين نحو "الحركة" (6) . والحال أن "الحركة" هي الكلمة التي تعني التشكيلات المغربية المسلحة . بعبارة أخرى ، كان السي محند وعمه قد صعدا إلى الجبهة . في هذا التاريخ إذن تحقق ذلك التنبؤ الذي أكدته منذ بضع سنوات رسالة محمد إلى مانويل أكييري (Manuel Aguirre) : لقد اجتاز القاضي عبد الكريم مع ولده محمد الخط الأحمر .

يؤن شك أنه اجتازه منذ مدة ، وعمل في أغلب الظن على إنجاح اتفاقية أبرمت من قبل بوضع سنوات مع تمسمان التي كان يمارس عليها كما نعرف نفوذا كبيرا .

يشغل أهل تمسمان كل القسم الساحلي الحائل بين جيرانهم بني ورياغل في الغرب وبني سعيد في الشرق . في الداخل ، نجد أن مجالهم المكون في اتجاه الشرق من سهول وتلال ينتصب في الغرب على شكل ذروة سميكة تتقدم إلى البحر وتميل غربا في جدار متواصل مشرف على المنخفض الذي يحده شمالا جون الحسيمة . من ثم الأهمية الحيوية لهذه المرتفعات بالنسبة إلى بني ورياغل التي تحميهم من الغزو إن هم تحكموا فيها ، وتحكم عليه به إن هي وقعت بيد العدو .

والحال أن قبيلة تمسمان الخاضعة أيضا لنفوذ قاعدة النكور ، كانت تضم على غرار بني ورياغل فريقا قويا متكونا من أعيان موالين للاسبان . نتذكر أنها حاولت عام 1918 وتحت تأثير القاضي عبد الكريم حتى أن تترك الخيار لهؤلاء بالنزول بديارها (7) . ولئن فشل المشروع ، فإن الروابط ظلت قائمة وقادت في السنة التالية إلى اتفاقية حسب الأصول . أخذ فيها التسمانيون على عاتقهم التزامات خطيرة : عدم الدفاع عن

أرضهم ضد الاسبان ؛ عدم المشاركة في الحملات الموجهة ضدهم ؛ منع المرور على القبائل التي تتوجه إلى محاربتهم ؛ أخيرا التوجه لملاقاتهم عندما يصلون إلى تافرست لقيادتهم حتى إلى حدود القبيلة . كل هذا مقابل إنهاء الحصار المفروض من طرف اسبانيا ، وتحرير عمال موسمين عائدين من الجزائر ، وعودة حرية تجارة المرور (8) .

بالارتقاء على هذا النحو في حضن الاسبان ، كان من المحتمل أن يوجه التمسانيون ضربة قاتلة لجيرانهم بني ورياغل وينذروا بالقضاء النهائي على المقاومة التي كان هؤلاء يشكلون روحها . ذلك هو الخطر الذي عملت على تفاديه الاتفاقية المبرمة في فبراير 1920 . فقد التزمت القبيلتان بالحفاظ على حسن علاقات الجوار ، وعلى الأخص بأداء المساهمات التي ستتقرر من أجل الحرب على أساس نسب مشتركة من كرت إلى غمارة ، وحتى على تبادل المساعدة لتحصيل مبلغها (9) . معنى هذا أن التمسانيين هبوا لاحتلال مواقعهم في المعركة بجانب إخوانهم ضاربين عرض الحائط بالوعد التي قدموها للاسبان .

يمكن أن نستغرب كيف تسنى لنفس القبيلة وبفاصل زمني يسير إبرام معاهدتين تتعارض فصولهما من الأولى إلى الأخرى . بيد أن ذلك ما هو إلا انعكاس لتقلبات الصراع الذي كان يتواجه فيه منذ أزيد من عشر سنوات ، وعبر الريف كله ، فريق الأعيان الموالي للاسبان وفريق الرفض المعروف بـ "فريق عامة الناس" . فبحسب ما تفوق هذا الفريق أو ذاك في فترة معينة ، تكون الدعوة إلى حمل السلاح أو إلى التواطؤ مع الغزاة . من المؤكد أن اسبانيا في ظل هذا الوضع كان لا بد وأن تتكرر مرارا خيبة أملها . إلا أنها كانت تتوفر على الأقل على جيش يوجد دائما على أهبة الاستعداد للزحف وبإمكانها بالتالي الاعتماد عليه مهما كان مصير الوعود . بالمقابل كم كانت الأمور بالنسبة إلى الريفيين أكثر صعوبة وتعقيدا وتقلبا . بدون جيش ، بدون ميزانية ، بدون أية وسيلة أخرى لممارسة الاكراه عدا الدعم العابر لحشود لا رابطة عضوية بينها ، فإنه لم يكن بإمكانهم الحصول على شيء ، لا على المال ، ولا على الأسلحة ، ولا على المقاتلين ، ولا حتى على وحدة العمل ، إلا بانتزاع كل هذا يوما فيوما عن طريق صراع متجدد ضد معارضين يلزم كل مرة وفي أية جهة فضحهم والتشهير بهم وعزلهم .

بما أن الكفاح المسلح كان بهذا خاضعا لنجاح معركة سياسية دائمة ، فقد شكل انضمام عبد الكريم وولده محمد بالنسبة إلى الريفيين كسبا عظيما وإن جاء متأخرا . بعد أن أصبحت في خدمة القضية التي كانت مناهضتهما لها بالأمس تحكم عليها بالشلل ، فإنهما لم يوظفا موهبتهما فحسب ، ولكن أيضا هذه الذخيرة الكبيرة من

المعلومات السرية التي تمكنا من جمعها بفضل تعاونهما مع اسبانيا . من ذا الذي كان إذن باستطاعته أحسن منهما التعرف على " أصدقاء اسبانيا " تحت الألقاب المختلفة التي تخفيهم ؟ من كان يعرف أحسن حيلهم ؟ من سيكون بوسع أحسن استمالتهم عند الاقتضاء ؟

* * *

هل معنى هذا أن أي واحد لم يكن يشك في النوايا الخفية التي كان انضمامهما يخضع لها في الواقع ؟ بالعكس . أو بالأحرى أن الريفين ، ودون أن يتمكنوا من الكشف بدقة عن لعبتهما ، كانوا ينظرون إليهما عموما بارتياح تام ومبدئي . فإن الانضمامات السابقة للقاضي عبد الكريم كانت ماثلة في أذهان الجميع ، وكلها كانت كاذبة . لماذا لا تكون كاذبة أيضا هذه المرة ؟ أما بالنسبة إلى ولده محمد ، فقد عاش مدة طويلة وسط النصارى . كان الكثيرون يشعرون بنفور حاد منه . عند سجوده في الصلاة كاشفا عن أسفل بطن ساقه ، كان جيرانه من الريفين الأخيار الذين ألفتهم أشعة الشمس يشمئزون من بياضهما غير العادي . فتلك صورة لا تنطبق مع الفكرة التي لديهم عن رجل مسلم (10) .

لكن الرجلين تمكنا أيضا منذ البداية من استمالة أتباع مصقاعين ، كالفقيه بواحية ، تكفلوا بضمان حسن طويتهما . في هذا الصدد ، لم تكن الأدلة هي الأخرى منعدمة . أو ليست من عمل الاسبان هذه العاهة المؤلة التي كان السي محمد يجرجر خطاه بها على مرأى من الجميع ؟ هل كان هؤلاء ليقوه بالأمس يتعفن في سجونهم لو لم يصبح من يومذاك عدوهم اللود ؟ أما بالنسبة إلى الأب ، فمن لن يناور مثله إذا كان عليه أن يسعى إلى إطلاق سراح ابنه ؟

ما كان للكلام بدهاة أن يعطي نتائجه إذا لم يكن المعنيان بالأمر قد ساهما بنفسيهما في إخماد الشكوك التي تحوم حولهما عن طريق الانغماس كليا في عمل لا تشوبه شائبة يتوخى إذكاء الطاقات وتعبئتها . هذا إلى اليوم الذي وجدا فيه نفسيهما ، في مرحلة ثانية وبفضل ما حققاه من نتائج ، مرشحين لاحتلال مركز الصدارة . حول المرحلة الأولى ، وهي مرحلة تمهيدية وحتمًا غامضة ، تلوذ الوثائق والشهادات بصمت تام . نستشعر لا غير وجودهما كضرورة منطقية . في حين لن يعودا إلى الظهور في مجال مراقبتنا إلا في ماي أو يونيو 1920 مع المرحلة الثانية .

في هذا الوقت كان الجنرال سلفستري قد دفع مسبقا بجنوده في اتجاه الغرب . في 15 ماي دخل بنون صغوية إلى دريوس . كان من شأن هذا الهجوم المنجز بسرعة وسهولة كبيرة أن يوقف أولئك الذين كانوا يعتقدون لحد الآن أنهم في مأمن . لكن كان من اللازم أن تسمع أصوات قادرة على إسكات دعاة الاستسلام وتغليب النداء إلى حمل السلاح . ارتفعت هذه الأصوات بالخصوص في بني ورياغل . من بينها وأكثرها وضوحا ونفاذا صوت القاضي عبد الكريم . يلاحظ بالفعل من خلال تقرير للجنرال مؤرخ في يونيو 1920 أن الحالة كانت هادئة في كل جهة داخل المنطقة غير الخاضعة الموجودة في المواجهة . يقول المؤلف :

"النقطة السوداء الوحيدة هي وجود بعض الاضطراب في منطقة وممتدن أجدير بسبب رجل جحود أطلق لطموحيه العنان ، ألا وهو الفقيه عبد الكريم ، بينما كانت كل النواحي تفرح في بحبوبة الهدوء منذ زمن طويل " (11)

ربما يظهر المستقبل أن الحالة في مجموعها لم تكن بنفس الهدوء الذي ود سلفستري معانيته . لكن المهم هنا أن نلاحظ كيف أن صورة عبد الكريم ظهرت فجأة في المنظر من جديد منذ هذه اللحظة ، وحتى في أعين الاسبان ، فيمacedا أن صديق الأمس أطل بوجه خصم عنيد بعد سنة من الاحتجاب .

تبلور حينئذ نوع من المحاولة لاستمالة قلب " الخائن " من جديد . وهكذا فقد فكر الاسبان في دعوته إلى مليلية بمناسبة قدوم برنكر ، وأعطى الأمر ببذل الممكن لاقتناعه بالمجيء (12) . لكن المحاولة لم تسفر عن أية نتيجة . إذ أن سلفستري لم يكن بالرجل الذي يتواضع عندما يتعرض للتحدي . من جهة أخرى كان القاضي عبد الكريم قد وصل في هذه الاثناء إلى نقطة اللارجعة . بالفعل كان يتولى منذئذ القيادة في الجبهة .

* * *

يمكن تكوين فكرة خاطئة عن واقع الجبهة في هذه الفترة إذا لم نكن على بينة من الكيفية التي كان يتم بها تجنيد وتسليح وتجميع هذه التشكيلات من المقاتلين التي كان الريفيون ، كما رأينا ، يسمونها "الحركات" ، والتي سنطلق عليها من الآن فصاعدا هذه التسمية .

لم تكن توجد أية سلطة مؤهلة لفرض التجنيد إذا تعلق الأمر بالخروج للقتال خارج حدود القبيلة . كان كلام الخطباء في الأسواق ، وهي بمثابة ساحات عمومية بكل معنى الكلمة ، هو الذي يدفع الناس إلى الانخراط والتصويت هنا وهناك على إرسال

وحدات المقاتلين . حينئذ يتعين على هذه أن تتكون من تلقاء نفسها بضم المجندين عن طريق فتح التطوع الحر لمن يريد الالتحاق بها . بيد أن التجنيد لم يكن متيسرا لأي كان . فمن اللازم أولا امتلاك بندقية مع ذخائرها . والحال أن الأسلحة كانت نادرة . فلتن كان يتم الحصول عليها في سببة عند العدو نفسه ، فإنها لم تكن تصل بالطرق السرية إلا بشكل شحيح (13) . من اللازم من جهة أخرى أن يكون بمقدور المجندين إعالة أنفسهم فيما يخص الضروريات أثناء غيبتهم . ومن ثم فإن هذه الغيبة لا يمكن أن تكون طويلة وهذا حتى بالنسبة لأحسنهم حالا . بناء على ذلك كان لا مفر منذ البداية من اتخاذ الاحتياطات لمن سيحل محلهم .

كان على كل وحدة من هذه الوحدات المتكونة على انفراد أن تضع نظامها الداخلي وتختار زعيمها . بعد ذلك ، وعندما تكون جميع الوحدات قد التحقت بمكان التجمع ، يطرح عليها المشكل من جديد على المستوى العام . لمن ستؤول قيادة الجميع ؟ إنها مسألة لا تكون سهلة على الإطلاق . عادة ما يتم في البداية تشكيل هيئة تكون كل قبيلة ممثلة فيها . بعد ذلك يبرز ، وبدون أن تنعدم المنافسات ، الرجل الذي يعترف الجميع بزعامته .

إن الحسنات التي تضمنتها هذه المنظومة هي كون المقاتلين كلهم متطوعين . لكن كم هي بالمقابل خطيرة مساوئه : نقص في العدد ، انعدام الاستقرار ، وبالتالي الالتحام بحكم اللجوء إلى البدلاء ، وأخطار التفسخ في حالة نشوب خلاف . إلى هذا تنضاف علاقات "الحركة" الصعبة مع رجال القبيلة التي قدمت مبدئيا لحمايتها .

ذلك ما يبدو من المفارقات . لكن باعتبار أن التجربة أظهرت منذ عشر سنوات أن الريفيين يرضخون في نهاية المطاف دائما أمام الغزاة ، فقلما تجد قبيلة تصمد أمام الخوف وفكرة الاستسلام وهي ترى هؤلاء عند أبوابها . بدلا من أن تسارع لتلقائيا إلى حمل السلاح ، فإنها تضيق ذرعا بوجود "الحركة" التي تسببت في تعرضها لقبيلة الطائرات والتي تتركها بعد انسحابها في الغد عرضة لعمليات قمع الاسبان . بناء على ذلك لم تكن تعطي تحت الاكراه إلا الحد الأدنى المطلوب منها : تقديم سقف لايواء الجندي ، ورغيف لوجبته ، وبعض السواعد لحفر الخنادق . تلك إذن هي الظروف التي كانت تمارس تأثيرها على أشكال ومصير الصراع الدائر رجاه في الجبهة .

وبما أن عدد قوات الحركة التي تطلب تجمعها نفقات كبيرة لم يكن يتجاوز عدد كتيبة كبيرة ، فإنه لم يكن بالامكان ضد جيش حقيقي التفكير في دفاع متواصل ولا

حتى في دفاع خطي . من اللازم أن يكون الجميع متمركزا في نقطة واحدة بإمكانها أن تساعد ، إذا ما أحسن اختيارها ، على قطع الطريق على العدو أو على مهاجمته من أجنحته . ذلك هو الحل الوحيد . إلا أنه كان حلا مؤقتا إن لم نقل سخيلا في حالة ما إذا كان العدو الاختيار بين عدة مسالك . إذا ما استطاع خلال زحفه الوقوف على بعد كبير ، وإذا ما تجزأ إلى طوابير متعددة ، فإن "الحركة" التي طما أمامها السيل كانت تضطر إلى الانسحاب على عجل من دون أن تجرب حتى حظها .

إلى نفس الفشل يمكن أن تؤدي المؤتمرات السياسية للمنظومة ومساوئها العضوية ؛ عندما يطول انتظار جند التبديل ؛ عندما تنشعب الخلافات حول القيادة ؛ أو عندما يصاب زعيم نافذ الكلمة بعجز طارئ ؛ أخيرا عندما تتمرد القبيلة المستضيفة رافضة الخدمة بكل صراحة .

لم تكن إذن المقاومة في بداية 1920 بالشكل الذي كانت عليه أيام أمزيان . بل وتغيرت النظرة نفسها . فإذا كان الغزو لم يصل حقا إلى أهدافه بعد مرور عشر سنوات ، فإن إسبانيا بالمقابل لم تتخل عن أي شبر من الأراضي التي استولت عليها . ناهيك بأنها عززت وجودها فيها حيث بات من العبث الاعتقاد بإمكانية طردها منها . وغاية ما يمكن ترجيه ، منطقيا ، هو منعها من غزو الباقي . على أن الكثيرين فقدوا حتى هذا الأمل أو كانوا يفقدونه على مر الأيام وهم يرون إسبانيا تستأنف زحفها من دون أن يباريها أحد في الأرض . وهذا التشاؤم هو الذي كان على أولئك الذين يريرون الكفاح أن يعملوا على زعزعة بادئ ذي بدء .

* * *

سيما وأن الحالة تأثرت في نفس الفترة تأثرا بليغا بنكبتين ألتا معا ، الجفاف والانهيال النقدي .

في 14 ماي أشار الجنرال سلفستري إلى النكبة الأولى بقوله :

"إن السكان الأهالي يعانون من الجوع بشكل فظيع . فمنذ خمس سنوات لم يكن هنالك محصول . أما محصول هذه السنة فيعتبر أيضا منعما " (14) .

بعد خمسة عشر يوما ، أكد هذه التوقعات :

"أن ضياع المحصول أفرز حالة عامة من اليأس " (15) .

بعد خمس سنوات من الحرمان ، كان من شأن احتمال سنة أخرى بلا خبز أن

يصرف الريفين حقا عن كل شيء عدا عن غريزة البقاء . وبدلا من أن يحس الكثيرون بالرغبة في محاربة اسبانيا ، فإنهم كانوا يأملون منها ، وهي طوق النجاة الوحيد ، أن تتفضل بتشغيلهم مقابل حفنة من الشعير ، في تعبيد الطرق لجيشها في هذه الجهة أو تلك ، أو في الحصاد هنالك بأرض الأندلس (16) .

أما بالنسبة إلى النكبة الثانية ، فقد جاءت كنتيجة غير منتظرة للأزمة التي مرت بها في ذلك العصر العملة الفرنسية . كنا نعرف لحد الآن مدى الأضرار التي تسبب فيها هبوط الفرنك في سنوات ما بعد الحرب في المناطق التي كانت تحتلها فرنسا في المغرب . وهي أضرار تقاس بالخسارة التي تعرضت لها قيمة الفرنك وبكمية هذه العملة التي عرضها المحتلون للتداول منذ 1907 . لكننا لم نكن نعرف أن الفرنك كان يروج حتى في المناطق غير المحتلة من هذه البلاد الريفية التي كان قسم منها على كل حال قد أصبح تحت الاحتلال الاسباني . بيد أن الأمر لم يكن مطروحا على هذا الشكل فحسب ، بل وكان الفرنك هناك ، لاسباب غير محددة ، العملة المستعملة وحدها تقريبا بعكس ما كان عليه الأمر في باقي المغرب (17) . فالضربة كانت هناك إذن مباشرة ، لأن الأمر يتعلق هنا بالقيمة التي حددت بها السلطة السعر المصطنع للفرنك في المنطقة الجنوبية (18) . أما السعر الحقيقي فهو أكثر انخفاضا من ذلك كما هي القاعدة . النتيجة هي أنه إلى جانب الأزمة الغذائية الحادة انضاف الارتفاع المفاجئ للأسعار حتى في القطاع غير الفلاحي ، خاصة قطاعي الأسلحة والتجهيز . الشيء الذي قضى على المعنويات وقلل من الطاقة الهزيلة للوسائل المادية .

وهكذا فإن المقاومة التي تدفقت فيما مضى مثيرة الجماهير ، تقلصت إلى تيار ضيق نابع من مركز ثانوي ، وعليه ليلحق بالعدو أن يشق طريقه عبر قبائل مترددة أو معادية بكل صراحة . من ثم المظهر المتواضع لهذه الجبهة التي استحالت إلى حجم نقطة . من ثم أيضا الانطباع الذي تعطيه عن عدم تماسك عام عندما تتسحب الحركة حتى دون أن تنتظر احتكاك العدو بها .

بيد أن الكسوف في مثل هذه الحالة لم يكن أبدا سوى كسوف مؤقت . فعندما تتوارى "الحركة" ، كانت "حركة" أخرى تظهر في هذه الجهة أو تلك وراء الخط . وهي علامة ينبغي أخذها بعين الاعتبار . إذ تدل على أن شيئا ما كان يفرق تحت المياه الراكدة . كان يبدو أن حمية السنوات الماضية قد تحطمت في خضم الحواجز التي أفرزتها حالة فريدة حقا . إلا أنها كانت ما تزال في الواقع تلهب على الأقل مشاعر تلك

الأقلية التي رفضت الخضوع في الوقت الذي كان الكل ينصاع من حواليتها ، والتي يقر التاريخ أحيانا ببعد نظرها ومخاطرتها . دون شك لم يكن بإمكان أي كان وقتذاك التكهن بما سيكون عليه المجرى النهائي للأمور . إلا أن عقلا نيرا من شأنه أن يدرك أن الوقت سيحين ليصبح في استطاعة " الحركة " ، وقد واتها الفرصة ، توجيه ضرباتها إلى العدو وجعله يؤدي ثمنا باهضا عن زحفه .

على هذا التقدير بالذات كانت تركز مخططات القاضي عبد الكريم ، ووفقه كان يدبر بالتالي عمله .

* * *

إن دخول اللاسبان المفاجئ لدار دريوس ، الذي حدث في 15 ماي ، أثار هياج كل قبائل المنطقة : بني سعيد ، التي كان يهددها بالتطويق ، وبني توزين ، وبني أولشك اللتين كان يهددهما من الأمام ، وتمسمان وبني ورياغل اللتين كانت القبيلتان السابقتان تشكلان خط دفاعهما المتقدم . إلا أن المهلة التي تركها لها سلفستري ، المشغول بتدعيم مواقعه الجديدة ، مكن المقاومين من الدخول في اتصالات فيما بينهم ، ومن قبيلة إلى أخرى ، من أجل وضع خطة مشتركة . وعلى حين أن قبيلة بني سعيد المقيمة على حدة لم تكن تضمن سوى الدفاع عن حدودها الخاصة ، فإن القبائل الأربع الأخرى ركزت قواتها في " حركة " واحدة بتأفرست في قدم الجبل الذي تتقاسمه قبيلتا بني أولشك وبني توزين .

كانت بلدة تافرست التي تسد مدخل فج تيزي عزة الواقع وراءها تراقب كذلك ممرين يحيطان بها ، أحدهما في الشمال عن طريق قرية بني الطيب ، والآخر في الجنوب عن طريق أربعة مزار . بيد أنه كان من اللازم التمرکز هناك قبل سلفستري الذي سيزحف بكل تأكيد إلى هذه المراكز الثلاثة .

استغرقت المفاوضات مع العمل السياسي ، التمهيدي لحملة التجنيد شهرا بكامله . الحملة نفسها لم تبدأ في بني ورياغل إلا في منتصف يونيو ، عندما تمكن أخيرا القاضي عبد الكريم في الأسواق - لأنه هو المحرض - من إسكات الفريق الموالي للاسبان وإسماع نداءاته (19) . قبل نهاية الشهر تمكن من الانطلاق نحو تافرست متوليا هو نفسه مع ولده محمد قيادة وحدة المقاتلين التي تم تكوينها (20) . وكانت الوحدات الأخرى قد سبقته إليها ، لكن ابتداء لا غير من 25 ، بينما كان العدو على وشك الوصول إليها عشية ذلك اليوم (21) .

إن هذا الوصول المتأخر يجعلنا ندرك أن المعنيين أكثر بالآمر ، وهم أهل تافروست وتواحييا ، بلوا جد مترددين إلى حد أنهم لم يزدوا الحركة بأي جندي (22) . لكن بعد أن تجمع هناك الآن حوالي 2000 رجل ، فإن هذا يعد في نهاية الأمر نجاحا رائعا (23) . هناك أيضا من بين العوامل المشجعة الأخرى خيار التمسائين الذين التحقوا بالكفاح بجانب إخوانهم رغم الوعود التي طمأنوا بها الاسبان (24) . وإذا كان تنظيم الدفاع يسير على أحسن وجه ، فلماذا لا تتم تقوية معنوية رجال المنطقة لخراجهم من لا مبالاتهم ؟ دون شك أنه ينبغي بذل قصارى الجهد من أجل هذا . بيد أن مواهب القاضي عبد الكريم ووالده محمد كانت تفي بالضبط بهذه الحاجة .

كان الرجلان بالفعل قد رُشَّحا بسرعة لتولي المهام القيادية . فإن رأي الوالد هو الذي كان يرجح في مجلس الزعماء . أما بالنسبة إلى محمد ، فهو الذي كُفِّ بجهاز الدفاع . وهي مهمة أساسية ولا تقتصر فقط على الجانب التقني بالنظر إلى الجو المتقلب الذي كان ينجزها فيه . مثال ذلك أن الشيخ بو شريف ، وهو رجل ذو نفوذ في المنطقة ، أفضى به الأمر إلى أن صاح فيه علنا :

” لقد قال له إنه جاء في وقت غير مرغوب فيه ، هذا الذي أكل الخبز الاسباني ، ليمنع اليوم الناس المساكين من العيش . لأن هؤلاء يعرفون حق المعرفة أنهم ، رغم الخنادق وكل هذا الجهاز الذي أقيم لهم ، لن يتوصلوا مع الاسبان إلى أية نتيجة عدا جلب نقمتهم . على أنه إذا كان يود حفر الخنادق ، فما عليه إلا أن يعود إلى مسقط رأسه ويحفرها هناك ” (25) .

كان مثل هذا التحدي يدعو إلى القلق سيما وأن بو شريف ، الصديق القديم للاسبان ، كان قد انقلب ضدهم مثل القاضي عبد الكريم ، بحيث لم يعد بالامكان اتهامه بكونه مجرد عميل للعدو (26) . وإذا كانت عزيمته قد وهنت فما ذلك إلا نتيجة الخوف . وهو خوف معد كان يجازف بدوره بنشره على نحو لا سبيل إلى وقفه . بيد أن السي محمد لم يكن بالرجل الذي يفحم . فإن خبرته في الكفاح السياسي كانت تمكنه دون شك من تسوية المشكل الذي لم يكن مثال بو شريف سوى تنبيه إليه . لولا أن حدثا طارئا وقع فجأة ليرغمه هو ووالده على الانسحاب وترك الحبل على غارب .

حدث ذلك عندما أصيب الوالد في منتصف يوليو بأوجاع غير عادية في البطن ، لازمته وزادت استفحالا إلى حد أنها شلت قواه (27) . فكان إذن لا مناص من إجلائه . وبما أن تقاليد العائلة كانت تلزم محمد بعدم مفارقتها ، فإن الرجلين معا عادا إلى

أجدير في 19 يوليوز (28) .

نفتقر إلى الايضاحات الكافية عن حالة "الحركة" بعد عودة الرجلين . لكن من المؤكد أنها تأثرت أيما تأثر . بل وقدرت مذكرة اسبانية ، ومنذ 23 ، أن ذهاب الوالد حرم المقاتلين من الزعامة (29) . وبدأت الأحداث اللاحقة وكأنها تؤكد هذا التقدير . عندما دخل سلفستري بعد خمسة عشر يوما إلى تافرست ، فإنه لم يدخل بدون حرب فحسب . بل ولم يجرؤ الخصم حتى على الظهور في الميدان (30) . هل كانت الأمور لتجري على هذا النحو لولا احتجاج وجهي " الحركة " البارزين ؟

بعد وصوله إلى أجدير ، لم يتمثل القاضي عبد الكريم للشفاء . عانى من آلامه ثلاثة أسابيع ثم أسلم الروح في 7 غشت (31) . على أن الريفيين عزوا وفاته إلى الاسبان الذين اتهموهم بتسميمه (32) . بيد أنه اتهام واهي الأساس لو نحن دققنا في المسألة من خلال المستندات السرية ، حيث نستشف أن مرض القاضي عبد الكريم ثم وفاته كانا بالنسبة إلى سلفستري ومصالحه أمرا غير منتظر (33) . يبقى مع ذلك أن الاتهام هام باعتبار أنه أزال الشبهة عن عبد الكريم وولده ، شبهة البقاء مخلصين سريريا للاسبان . إذ هل يمكن دس السم للأصدقاء ؟

* * *

مع ذلك ، وفي الوقت الذي بُرئت فيه على هذا النحو ساحة الوالد ، فإن وفاته شكلت أيضا فرصة بالنسبة إلى ولديه للشروع في إعادة ربط الصلات بأصدقائهما بالأمس . وهكذا فإن لوبييرا ، مدير " تلغراف الريف " ، الذي عمل محمد مساعدا له زمنا طويلا ، نشر حول الفقيد مقالا جميلا خاصا بسيرته ، متأسفا فيه بالطبع على أن يكون رجل من مستواه قد انقلب في أواخر العمر ضد اسبانيا . لذا ، ويتوجيه تعازيه الرقيقة إلى ولديه ، فإنه مد لهما اليد وحثهما على القيام بانضمامهما . كتب يقول :

"إنهما يعرفان حقيقة مشاعر اسبانيا . لقد عرفا عن كُتب محاسن عملنا الاستعماري . وإنهما على اقتناع بأنه ليس في الإمكان مقاومتنا . ليعترفا إذن بخطئهما ، وليعودا للعمل في صفوف الأصدقاء ويكفيا عن إغراء النفس بطموحات لا وجه لقبولها ولا لتبريرها . إنها نصيحة .. صديق قديم يحبهما " (34) .

قوبل النداء بأذن سميعة ، وجاء الجواب عليه دونما إبطاء . فيما يلي نصه :

أجدير ، 15 غشت 1920

صديقنا العزيز

« إن الغاية من رسالتنا هاته هي أن نعبر لكم عن عظيم امتناننا لتعازيكم وللنصيحة الوجيهة التي وجهتموها لنا في « التلغرام » بمناسبة وفاة والدنا تغمده الله برحمته .

لو أمعنا النظر في نشاط وفكر والدنا ، فإنه لا يسعنا إلا الاقتناع بالدور الذي اضطلع به في الرسالة الحضارية لاسبانيا - وهي قضيتنا المشتركة - وتقدير مجهوداته الكبيرة لمد النفوذ الإسباني في الريف . لقد عمل باصرار تحديه دوافع انسانية . ذلك أنه أمعن النظر في مهمة اسبانيا وفهم مراميها جيدا ، مقدرا المحاسن الجليلة التي سيجنيها منها اخواننا الريفيون . لقد كانت سياسته تجنح دائما إلى السلم . وكان يدرك تمام الادراك أن شعبينا في حاجة إلى أن يكونا صديقين ومرتبطين بثقة متبادلة ، لكي تسود بينهما طمأنينة أخوية ومستمرة . كلا ، لم يكن معاديا للعمل الاسباني ، كما ادعى ذلك البعض منذ زمن يسير .

ونحن أيضا ، كوالدين لهذا الرجل ، الماثلة أمامنا المحاسن التي غمرتنا بها شخصيا اسبانيا ، نقدم لكم أعظم متمنياتنا بازدهار هذه الدولة الاسبانية وحمائتها ، متمنين من أعماقنا نجاح هذه الحماية . كما نقدم في نفس الوقت كل الضمانات المتعلقة بمساهمتنا الكاملة في العمل الذي تضطلع به .

صديقاكم الحميمان : ولدا عبد الكريم » (35)

كانت هذه الرسالة كفيلة دون شك بإذهال المقاومين الريفيين لو أنهم تمكنوا من الاطلاع عليها بعدما تكفل لوبرا بتسليمها للنشر . لكن " التلغرام " لم يكن لها ولا يمكن أن يكون لها من قارئ في الريف غير المحتل سوى الأخوين . وبالتالي فقد أمكن للسي محمد أن يظل في أعين إخوانه ذلك البطل صعب المراس الذي صار يتقمص شخصيته في نفس الوقت مع أبيه . على العكس من ذلك فإننا ندرك مدى الحيرة التي وقعت فيها السلطات الاسبانية . عند قراءة هذا البيان البريء يخيل أنه لم يطرأ طارئ في هذه الأشهر الأخيرة على صعيد الكفاح السياسي وجمع الوحدات وتنظيم الدفاع بتافروست ، أو على الأقل لا أساس لصحة الأخبار التي بوأت عبد الكريم ووالده مركز الصدارة في الأحداث . بما أن هذه الأحداث وقعت بالفعل ، وأن دور الرجلين دور ثابت ، فكيف يمكن التوفيق بين الأقوال والأفعال ؟ إذا كانت الأقوال صادقة ، لماذا هذا الانفجار العدائي ؟ لماذا هذه الرسالة المعسولة ، الآن وقد تم اشهار الحرب ؟

في الحقيقة أن الجنرال كان قد حدد رأيه ومنذ ما قبل وفاة القاضي عبد الكريم . وقدم تأويلين لتعليل الانقلاب المفاجئ في موقف هذا الأخير . إما أنه ادعى بأن هدفه الوحيد هو "أن يصبح الرقم الواحد في قبيلته " ، وإما أنه اتهمه بنسف عمل الاسبان "بغية إظهار نفوذه الذي بولغ في تقديره شيئا ما ، وذلك حتى يُقترح عليه الالتحاق ثانية بالخدمة " (36) .

لم يكن إذن مغفلا . بيد أن تحليله يظل ناقصا جدا . إذا تفتن حقا إلى أن الطموح هو الذي حرك القاضي عبد الكريم ، فإنه لم يقدر أن هذا الطموح لم يعد منذئذ يقف عند حدود قبيلة ، وأنه يمتد على الأقل إلى الريف غير المحتل . كذلك ، إذا أدرك أن الغاية من توجيه الضربات لاسبانيا هي الدعوة إلى المصالحة ، فإنه لم يفهم أن الهدف بالنسبة إلى المعني بالأمر لم يكن - وهيهات ذلك - يرمي إلى أن يتم "استدعاؤه للخدمة " ، ولا إلى نيل العفو ، وإنما يرمي في الحقيقة إلى التفاوض حول عقد ميثاق ندا لند . بما أن الأمر كذلك ، فإن حظوظ نجاحه كانت مرتبهة بقوة إرادته . فلن يتسنى له أن "يصبح الرقم الواحد" في الريف كله إلا إذا جعل من نفسه حقا المحرض الأكثر نشاطا والأكثر فعالية في حركة المقاومة . من جهة أخرى فإنه بقدر ما اكتسب من سلطة بهذه السياسة ونظم فريقه ومرس جنوده بالحرب ، بقدر ما ستكون اسبانيا مرغمة على مفاوضته بوصفه محاورا لا ملتصقا . وبعد أن خطا خطوته ، فإنه لم يعد بإمكانه منذئذ أن يتراجع ، أو يتوقف ، أو يتردد ، ذلك ما اعتبره سلفستري خطأ لعبة واجهة وحيلة دنيئة للابتزاز بالتهديد.

من هذا المنظور فإن رسالة الأخوين المنشورة في "التلغرام" بدت وكأنها تترجم ، الآن وبعد اختفاء الوالد ، الرغبة في توقيف المشروع مع محاولة جني ثماره مع ذلك . مما سيقود سلفستري إلى أن يصوغ على هذا النحو خطة العمل التي كان يسلكها بصددهما :

"عندما كان بعض الزعماء في البداية أصدقاء ثم ارتدوا وعادوا إلى الوقوف ضدنا ، فإنني كنت أرحب بهم في حالة انضمامهم ، لكنني لا أسعى وراءهم ، لأن ذلك سيعطيهم الفرصة ليتحولوا إلى متعاضمين ويقدموا مطالب لا يمكن قبولها بأية حال . ها كيف أعدت بو رحايل . وها كيف سأعيد أيضا ، وأنا متأكد من ذلك ، عائلة الخطابي (السي محمد وأخيه) عندما سيحين الأوان" (37) .

عندما سَطُرت هذه الكلمات ، كان من الممكن أن يكون شخص آخر غير سلفستري

أقل ثقة منه بالنفس . فإن وقتا كافيا ما كاد يمر حتى أثبت أن الرسالة الموجهة إلى لوبرا لم تكن تنم عن ضعف مؤلفيها . إن التفسير لمختلف كل الاختلاف . دون شك أن الخطة التي تصورها المرحوم القاضي عبد الكريم كانت في حاجة لتدخل في حيز التنفيذ إلى الصرامة . لكن إلى المرونة أيضا . لأنه إذا كان لابد من فرض الهيبة على الاسبان ، فإنه لَصَرْبٌ من الخيال بالعكس - وهذا ما كان يُعتقد على الأقل - أن يخطر بالبال أن أي شأن يمكن أن يتحقق بدونهم ، بدون موافقتهم ومشاركتهم الكلية . من ثم ضرورة نهج سياسة ذات وجهين : أحدهما مهدد ، والآخر باسم : سياسة تستند إلى استعمال القوة ، لكنها تبدي الأسف فورا على استعمال هذه القوة نفسها باعتبارها وسيلة اضطرارية وبالطبع مؤقتة . وهذا على عكس عرى الصداقة التي لا تنفصم وتتأكد باستمرار . وإن إظهار هذه الصداقة هي التي استغلها السي محمد عندما أتاحها له لوبرا .

أما بالنسبة للفرصة الأخرى ، تلك التي قد تساعده ، حسب تعبير سلفستري ، على أن " يصبح متعازلا " ، فإنه لم يكن ينتظرها من الغير ، إذ كان يفتنمها هو نفسه من حواليه يوميا . ذلك ما كان سلفستري قاصرا عن إدراكه في وقته . بيد أنه على أية حال هو الذي ترك لنا قبل أن يختفي أكثر الشهادات إثارة للدهشة عن الرجل الذي كان يكتشفه ؛ نقرأ فيها :

"إذا ما قيل إنه لم يكن يجرؤ على رفع الأصبع الصغرى وأبوه على قيد الحياة ، فلا شيء يوقفه الآن بعد وفاته ، وتراه يسير بعد أن تحرر من العادات التي اكتسبها عندما كان بيننا ، يعلو الغبار وتلفحه الشمس وكأنه جبلي حقيقي . لقد شق طريقه شيئا فشيئا . ومع أنه ليس رجل حرب ، وأن عليه أيضا مواجهة هذه الشكوك التي أثيرت حوله من جراء إقامته وسط المسيحيين ، فإنه يمكن القول اليوم انه الزعيم المعترف به في الحركة" (38) .

يرجع هذا " اليوم " إلى ما بعد وفاة والده بتسعة أشهر ، تلك الوفاة التي اعتقد يومها سلفستري أنها مهدت السبيل لاسبانيا (39) . لقد أخطأ كثيرا . سئرى بالعكس أن تنفيذ الخطة التي دبرت بالأمس مع الوالد تلتقت بعده دفعه جديدة .

* * *

كان سلفستري واثقا من أن أن انهيار " الحركة " مع سقوط تافريست وأربعة ميدار سيكون كافيا لزعزعة معنوية الريفيين على نحو لا يمكن علاجه . كيف لا وقد حدث بعد ذلك ، كما أشار ، خضوع بو شريف ، وهو زعيم كان يعتبره الجميع متصلبا . وبما

أن طائراته كانت فوق كل هذا تنتشر رعبا ناجعا ، فقد عبر عن وجهة نظره ، وهو مقتنع بقوة الاسبانيين ، بأن المقاتلين سينقادون من الآن فصاعدا إلى الاستسلام بجبرية العرب المألوفة (40) .

ذلك تقييم ذاتي . من المؤكد أنه كان على القبائل مواجهة صعوبات جديدة . من ذلك أن الفريق الموالي للاسبان سرعان ما رفع الرأس بمجرد ما شاع الخبر في بني ورياغل باحتضار القاضي عبد الكريم . بل وتمكن من إثارة مشاجرة في سوق أجدير نفسه بغية نسف قرار جمع الاعتمادات اللازمة للمعركة . يبقى مع ذلك أنه انهزم في نهاية المطاف وتم جمع الاعتمادات (41) . هذه الخاتمة التي كذبت تفاؤل سلفستري تجعلنا ندرك بالعكس أن مركزا جديدا للمقاومة تمكن من الظهور متزامنا تقريبا مع سقوط تافروست (42) .

يتعلق الأمر بمركز يقع أكثر تطرفا إلى الشمال في المكان المعروف بتاوردة ، ويتحكم في مدخل ابن الطيب ، وهو الموقع الذي كان سلفستري في حاجة إليه ليحمي جناحه في زحفه إلى البحر . من الحق أن " الحركة " التي ظهرت هناك كانت تختلف كثيرا عن التجمع السابق بتافروست ، فهي أقل عددا ، كما لم تكن تعبر بكل معنى الكلمة عن إرادة القبائل . عُلِمَ بالفعل أنه كان على رأسها شخصية من أصل شريف فيما يعتقد ، يدعى الإدريسي وليس بإمكان أي كان ، سواء في الجانب الريفى أو الاسباني ، أن يعرف من أين قدم . وكان يشتبه به كثير مبعوثا من طرف الفرنسيين . وتلك علامة نحس بالنسبة إليه . لكن بما أنه كان يعد بالمال والأسلحة ، ويعمل على كل حال ضد اسبانيا ، فقد كان من اللازم الوقوف على حقيقة أمره عن كثب . فاجتمع نواب قبائل المنطقة الخمس في تاوردة حيث تم وضع خطة لجمع وحدات المقاتلين في أية جهة على أن توزع إلى ثلاث " حركات " في كل قبيلة من قبائل المواجهة : بني سعيد ، بني توزين ، بني أولشك . ثم عاد كل واحد لتنفيذ القرارات المشتركة داخل قبيلته (43) .

عند انعقاد هذا النوع من المؤتمرات كان الاسبان يستخبرون بوجه الخصوص عن مندوبي قبيلة بني ورياغل بالنظر إلى وزنهم الحاسم . في هذه المرة أظهروا كثيرا من الامتناع لما تعرفوا على زعيم وفدها ، لأن هذا الزعيم لم يكن سوى السى محمد ، ولد القاضي عبد الكريم ، الذي كان يساعده فوق ذلك أخوه الأصغر محمد (فتحا) . فأبدى حينئذ سلفستري ملاحظته عن سلوك الرجلين وهو يستشيط غضبا :

" إنهما يدلان بتصريحات معسولة على الملأ ، إلا أنهما لا يوفقان بين أقوالهما

وأفعالهما . فليس التهاافت على دعاة الحرب المقدسة بالطريقة التي تمكنهما من إظهار امتنانهما لكل ما أغدقته عليهما الدولة الحامية من نعم " . (44).

كان ذلك ولما يمض على وفاة الوالد سوى أقل من شهرين .

في هذه الأثناء كانت " الحركة " المتجمعة في تاوردة كافية لإيقاف الفريق الموالي للأسبان عند حده في قبيلة بني أولشك (45) . وبذلك فقد حالت دون خضوع القبيلة الذي كان سلفستري ما يزال ينتظره ليتقدم بدون مخاطر . وهو خضوع اشتدت الحاجة إليه أكثر نظرا للتجنيد المتوقع في القبائل الأخرى . إذ أن القائد العام برنكر كان يتمتع ، كما نتذكر ، عن شن الهجوم في قطاعه بالشرق ما دام لم يتم القضاء على المقاومة في الغرب . والحال أن نشاطه العسكري في هذا القطاع الأخير كان يسير على قدم وساق . وفي أكتوبر 1920 تمكن من الوصول إلى مدينة شفشاون بفضل عملية اختراق جزئية . ومنذئذ تم ربط هذه المدينة بتطوان بممر ضيق يصل إلى ستين كيلومترا شطر البلاد غير الخاضعة إلى شطرين . لكن مهما كان هذا النجاح باهرا فإنه كان يتطلب أن يدعم بغزو المنطقتين المحيطتين بالممر ، مما كان يستلزم ولدة طويلة وسائل ضخمة ليس بالإمكان تحويل أي شيء منها لفائدة سلفستري إذا ما اصطدم بالمصاعب .

انتظر سلفستري إذن ، إلا أنه كان على أحر من الجمر . إذ لم يكن يومين بوجود المصاعب . وإنها لمهزلة كبيرة في نظره ذلك الاضطراب الملحوظ داخل القبائل . منذ يوليو كتب يقول :

" كل هذا لا يؤدي إلا إلى فتن صيفية . عندما سيمر الصيف ، ستأتي ساعة الحقيقة ، أو بعبارة أخرى ، سيحل الجوع والبؤس نظرا لضياح المحصول وانعدام الشغل " (46) .

بيد أن عاملا آخر لم ترد الإشارة إليه هنا سيتداخل في نهاية الصيف مع عودة الأمطار . كيف يتسنى اللجوء إلى الأسلحة وتضييع فرصة حراثة الأرض بعد توالي عدة سنوات من الجفاف ؟ كما حدث عام 1909 ، عندما اضطرت فجأة أمزيان إلى وضع حد للمعارك بعد أن رأى جيشه يتقلص بسرعة (47) ، فإن العمل في الحقول هو الذي كانت له الأسبقية كذلك في هذه المرة . يقول سلفستري : " لقد نزل المطر وعاد الأمل بالتخلص من المجاعة . إن الناس منهمكون في خدمة الأرض " (48) . لذا لم يكن لديه ما يقوله على الصعيد العسكري . وبالفعل فقد ظلت قرارات تاوردة حبرا على ورق . ورغم جميع مجهودات السي محمد ، لم يستجب للنداء سوى خمس المقاتلين في قبيلته (49) . فما

عسى يكون عليه الأمر في جهات أخرى ؟ بآء التجنيد إذن بالفشل ، وكان سلفستري واثقا من أنه باغتنامه هذه الفرصة سيسير قُداً دون أن تواجهه العقبات .

انتهى اصراره إلى انتزاع موافقة برنكر ، ودخل في طور العمل منذ نهاية الأمطار . بعد أن تجاوز تاوردة التي فر منها الشريف الادريسي ، احتل في 5 دجنبر ابن الطيب وكل القسم الشرقي من بني أولشك . بعد ثلاثة أيام اقتحم بدون عناء ديار بني سعيد ، وتقبل طاعة خصم لدود ، المدعو قدور بنعمار . في 11 يونيو أخيراً ، رفع علمه فوق قمة جبل مورد الهدف المنشود منذ 1911 (50) .

وهكذا فقد كان مصيباً . في بضعة أيام ، وضع حداً نهائياً لخطة توسعية لم يكن برنكر يحلم بتحقيقها إلا بعد زمن طويل . إنه لم يعمل فحسب على تمديد منطقة الاحتلال بشكل واسع بل وأحدث بالخصوص بعد إحدى عشرة سنة الثغرة الأولى في الحصن الريفى . وما من أحد جادله في استحقاقه الترحيب الحار الذي خصصته له مليلية حيث أنشدت ترنيمة النصر يوم 31 دجنبر .

بيد أن النصر لم يقف عند هذا الحد . في اليوم التالي ، وهو فاتح يناير، جاء جميع أعيان تمسمان لتقديم طاعتهم مع أن بلادهم كانت ما تزال في غير متناول يد الاسبان . وقد وعدوا المحتل بفتح أبوابهم أمامه بمجرد قدومه (51) . هذا المحتل الذي واصل اندفاعه ليتم في يناير السيطرة على بني أولشك . في هذه الناحية أقام بالخصوص يوم 15 يناير مركز أنوال عند حدود تمسمان ، تاركا في وراء خط جبهة كرت القديم على بعد 35 كيلومترا . كل هذا "بنون طلقة نارية " وبمعية زعماء القبيلة وسكانها الذين كانوا يسيرون بجانب الطواوير ، في جوهادى وفاق تام" (52) .

فتحت إذن سنة 1921 أفاقاً جديدة . فإن القطاع الشرقي قدم فجأة إمكانات كان من اللازم استغلالها دونما إبطاء . وبرنكر هو الذي تصور القطاع على هذا النحو وأعطى سلفستري التعليمات المطابقة في رسالة مطولة بتاريخ 21 يناير (53) . بوصفه وقتذاك صاحب السلطة المطلقة فيما يخص الأهم بأراضي بني سعيد وبني أولشك ، فقد عهد إليه أولاً باتمام الاحتلال باستغلال الظروف التي كانت تتيحها المجاعة وألا يتوقف إلا عندما يرى بنفسه من الحكمة ذلك بالنظر إلى وسائله : وأضاف قائلاً : بما أن الأمر كذلك ، فما نحن مشرفون على المرحلة الأخيرة ، وقد آن الأوان لاعادة النظر في مشكل الحسيمة القديم لكن في صيغة جديدة تتناسب مع الحالة .

من هذا المنظور أصر على رفض صيغة الانزال لأن الوسائل اللازمة ظلت من

الضروريات التي لا غنى عنها في جهة أخرى . وبالتالي فقد بقي يعول دائما للوصول إلى بني ورياغل على الطريق القاري . لكن لحد الآن كانت الترتيبات الضرورية تتخذ انطلاقا من الداخل وفق التخطيط القديم وفي مرحلتين : الاندفاع أولا في الغرب حتى منابع النكور الذي سيقود منخفضه بعد ذلك رأسا إلى الشمال نحو الجون . إلا أن الزحف غير المنتظر لسلفستري قاد حتى إلى ضفاف تسمان ، القبيلة الساحلية المجاورة مباشرة لبني ورياغل على الجون . وبما أن التسمانيين من جهة أخرى أظهروا تلقائيا استعدادهم لافساح مجال المرور ، فقد أصبح من السهل للغاية شق الطريق انطلاقا من بلادهم ، ولو اقتضى الأمر في نهاية المطاف اختراق إبط الجبل المائل - كما رأينا - عن سمت الجون وعن منخفض النكور الأسفل .

لم تبق سوى نقطة واحدة يتعين توضيحها قبل اتخاذ القرار . فلو تم الزحف عن طريق الساحل لا غير ، فإنه سيتم تشكيل جبهة عريضة جدا تجاه قبائل الداخل وستصبح حتما عرضة للهجوم . هل يمكن الدفاع عنها دون امدادات مساعدة ؟ وإلا ، في حالة عدم توفر هذه الامدادات ، ألا ينبغي التفكير في زحف أبطأ ، مدعم تباعا بنقط ارتكاز تقام في عمق البلاد ؟ لجمع عناصر الإجابة فوض برنكر الأمر لسلفستري⁽⁵⁴⁾

لكن كيف يمكن لهذا الأخير أن ينجز المهمة دون أن يأخذ بعين الاعتبار تجربة الأشهر الأخيرة ؟ وعليه فقد كانت له نظريته . لقد تم في نظره تهويل أمر الغزو بينما كان يكفي الإقدام عليه . وهو يرى أن المقاومة الريفية ما هي إلا سراب يتوارى كلما اقتربنا منه . أما عن زعمائها ، فيعتبرهم رجالا طموحين مثل محمد بن عبد الكريم ، لا يرتفعون فوق إخوانهم إلا لبيع أنفسهم بالمزاد على أحسن وجه ، أو يعتبرهم نفعيين مثل عمار بن مسعود بنطورياس الذي يملأ جيبه بالاعتمادات المخصصة للحرب . يقول سلفستري في هذا السياق :

" بيد أن عامة الناس لا تستسيغ فيما يخصها المشاريع الحربية ، فهي تعرف أن الصراع غير متكافئ تماما ، وتتخوف من الاقتصاص .. من المؤكد (من جهة أخرى) أن الأهلي الذي لا يعيش بشق النفس إلا في الجوع وحياة الكفاف وفي حالة أقرب ما تكون إلى الاحتضار ، لا يقابل النداءات إلى المعركة إلا بعدم الاكتراث أو حتى بالسخط ضد الجبابرة الفيوداليين والربانية القساة الذين هم في الواقع وبالنسبة إليه زعماء في نظامه التقليدي " . ثم يصرح مستنتجا :

" هذا ما يحمل على الاعتقاد بأن الأهالي .. خاصة أولئك الذين ... يعرفون قليلا كيف تعيش قبائل منطقة حمايتنا ... ينتظرون ذلك اليوم الذي سيدخلون فيه هم أنفسهم ومع عائلاتهم تحت هذا النظام الجديد " (55) .

ويلاحظ سلفستري أن هناك أكيدا الحالة الاستثنائية المتمثلة في بني ورياغل " المركز الممتنع " الذي تتعرض الأفخاذ المتاخمة له لتأثيره طوعا أو كرها " . لكنه يلاحظ أيضا أن هذا التأثير خف إن لم يكن تلاشى بعد الهزيمة النكراء لـ " حركة القبيلة " ، تلك " الحركة " التي طردت طردا شنيعا هذه الأيام الأخيرة من بلاد تسمان (56) . بحيث يمكن القول عموما - ودائما في نظره - إن الريفيين ، الجائعين ، العزل ، المرتعبين ، المرهقين بالاعتصار الضريبي ، المضطهدين ، يحلمون في الخفاء بوصول الاسبان ؛ وما الترحيب المؤخر لقبيلتي بني سعيد وأولشك إلا دليل على ذلك .

وعليه كيف يجب عن سؤالي برنكر ؟ إننا نشعر بوضوح وبالبطريقة التي طرح بها هذان السؤالان ، أن هذا الأخير كان يتخوف من التورط بون أن يقوم بتأمين غطاءه . لكنه لم يكن يعرف أن هذا الغطاء كان قد تحقق عمليا في الساعة الراهنة . وأن الوقت حان لبرمجة العملية . وفعلًا لم تبق منذئذ سوى قبيلتين منتصبتين كحاجز بين سلفستري وبني ورياغل : تسمان بمحاذاة الساحل ، وبني توزين في الداخل . منطقيا كان من الواجب أن يتم الزحف عن طريق القبيلة الساحلية التي وعدت على كل حال بإخلاء المرور . وبما أن قبيلة بني توزين ستكون على المسيرة ، فإن المشكل الوحيد من أجل تأمين حراستها هو التمرکز في عقر دارها . والحال أن فخذين منها كانا قد قدما مراسيم خضوعهما وينتظران على أحر من الجمر احتلالهما الفعلي . ولئن لم تكن الأمور قد وصلت بعد إلى هذا المستوى فإنها كانت في طور النضوج بفضل الأصدقاء الذين كانت اسبانيا تعتمد عليهم هنالك . على هذه القواعد يمكن بلا مغالة في التفاؤل التفكير ، مع نهاية غشت ، في الاحتلال المشترك لقبيلتي تسمان وبني توزين ، حتى إلى النكور الذي يفصلهما عن بني ورياغل . حينئذ سيكون شهر من العمل الدؤوب كافيا ، بالنظر إلى تواجد الجنود على مقربة من عين المكان ، لإذكاء نشاط الفريق الموالي للاسبان في هذه القبيلة الأخيرة ، وإخماد روح مقاومتها . بحيث يمكن أخيرا في شهر أكتوبر أن يطمأ الاسبان هذا السهل المشهور الذي يحف بجون الحسيمة والذي يقطنه قسم هام من أعتى القبائل . أما بخصوص القسم الباقي من القبيلة المقيم بالجبل ، فلا خوف منه . فقد جاء في التقرير الذي أعد لسلفستري : " ان عدونا يفتقر إلى التنظيم . وعلى الرغم من أنه بذل منذ 1912 كل طاقته التي تتيحها إمكاناته من أجل الدفاع عن ترابه ، فإنه لا

يعمد إلى الهجوم إلا من أجل أعمال دقيقة " (57) .

تقبل برنكر بحذر تحليل سلفستري وقرر التوجه بنفسه إلى عين المكان لامتحان .
إلا أنه مبدئياً على الأقل ، احتفظ بالمشروع الذي أحيل عليه . وقبل أن يتوجه لإجراء
التحقيق الذي اعتزم القيام به في قطاع مليلية ، أخضع بالفعل لحكومته خطة أدرج
فيها بالنسبة إلى السنة الجارية هدفاً جديداً بجانب الأهداف القديمة . يتعلق الأمر بـ "
احتلال جون الحسيمة وإذا كان من الممكن احتلال قبيلتي بني توزين وبني ورياغل " (58).

* * *

هل من المعقول أن يستمر الريفيون ، وعددهم يتقلص كل يوم ، في الوقوف ضد
الزحف الإسباني ؟ إن المغاربة الذين صمدوا جيداً في شمال البلاد منذ إحدى عشرة
سنة ، قد انتهى الأمر بهم في ظرف ثلاثة أشهر إلى التخلي عن مواقع تزيد مساحتها
على تلك التي خسروها طوال الفترة المنصرمة . وهذه وزان وشفشاون ، وهما المدينتان
الوحيدتان اللتان تضمهما المنطقة في الداخل ، قد سقطتا دفعة واحدة ، الأولى في يد
الفرنسيين ، والأخرى في يد الإسبان . وفيما كان أخمليش بالأمس يخرج لملاقاة
الفرنسيين ويكبدهم الهزائم ، ترى اليوم قبيلتي أولشك وبني سعيد تسلمان أراضيها
حتى بدون قتال ، فاتحتين بذلك باقي البلاد أمام العدو .

من الحق أن بني ورياغل قاموا برد الفعل إزاء هذا الوضع . فتم في بلادهم في
بضعة أيام جمع فيلق من 600 رجل . لكن بدلاً من أن يجد فيلقهم الدعم أو قل المدد من
التسمانيين ، الذين كان عليه أن يمر بديارهم ، فإنه استقبل من طرفهم شر استقبال
إلى حد أنه انسحب في حالة تعساء (59) . وبما أن روح الانهزامية تفشت أيضاً في
جيرانهم بني توزين ، فإنه لم يبق لبني ورياغل أي أمل في تنظيم دفاع متقدم أو عمل
موحد . ووسيلتهم الوحيدة هي أن يدافعوا عن أنفسهم ، ويمفروهم دون شك ، وقد سدت
أمامهم كل المنافذ . فهل يجوز التفكير في مثل هذا الدفاع ضد جيش بكامله ؟

بيد أن هذه الفكرة الجنونية هي التي سادت بينهم ، وهذا دون أن ندري كيف
اللهم إلا من أن ابن المرحوم عبد الكريم كان من أولئك الذين دعوا لها بجرأة ، حيث كان
يردد : " الموت خير من الاستسلام للعدو " (60) . كانت هذه الكلمات تذكي الحماس في
وقت ازدادت فيه حدة الخطر . وهكذا فقد تجمع المناضلون من جديد ، رغم النكسة
الكبيرة التي منوا بها عند جيرانهم ، مصممين من الآن فصاعداً على استعمال وسائل
أخرى غير الإقناع إزاء التسمانيين . هل تقاعس هؤلاء عن الدفاع عن أرضهم ضد
العدو ؟ لهم الخيار في ذلك . لكن من حق جيرانهم بني ورياغل في هذه الحالة الدخول
إلى هذه الأراضي نفسها ليسبقوا العدو إليها . فذلك وسيلة لضمان حمايتهم الخاصة .
لأنهم سيكونون من الخاسرين لو تركوا الإسبان يحتلون المرتفعات التي تقطع بلاد

تمسمان من الشمال إلى الجنوب وتشكل جدارا على طول الحدود بين القبيلتين . ففي هذه المرتفعات سيتقرر مصيرهم . وهذا ما كان يحتم عليهم ضرورة التمرکز فيها . أما بخصوص أهل المكان ، وهم تروكوت - فخذ من تمسمان - فما عليهم إلا التسليم بالوجود المسلح لجيرانهم والانصياع لسلطتهم طوعا أو كرها .

ذلك ما حصل لهم بالفعل عندما قام حوالي مائة من مقاتلي بني ورياغل بضرب معسكرهم على مرتفع جبل القامة في نهاية أو بداية فبراير 1921 (61) .

كان اختيار الموقع مناسباً للغاية . فلئن كان جبل القامة قريبا جدا من منبسطات الحسيمة من حيث يسهل تسلقه رغم فارق الارتفاع البالغ 700 متر ، فإنه كان محصنا بالعكس في الاتجاه الآخر بفضل شدة انحدار سفحه الذي يتقدمه ممر حذور منحوت بعمق داخل الكتلة ، وينتهي بشرفة مطلة على السهل . من هناك تتراعى في الشرق والجنوب الشرقي كل المنطقة المعلقة على المدى البعيد بالمواقع الاسبانية والتي تعد أنوال من أهمها وأقربها . لم يكن المنظر محجوبا إلا في اتجاه الشمال الشرقي بظهر أوبران الذي وإن كان أقل ارتفاعا فإنه يرسم بشكل عمودي تقريبا حاشية الشرفة على اليسار . على أن المقاتلين سدوا هذا النقص بإقامة مركز متقدم يطل على السهل وبإمكانه أن يراقب إلى غاية البحر جوانب التضاريس وكل مجرى أمقران ، الوادي المتعرج في سفحه (62) . إن جبل القامة ، المركز المتقدم والمتجدر في نفس الوقت في مؤخرته ، كان يساعد كثيرا كذلك على الصمود والتدخل والمراقبة .

من بين الزعماء الحاضرين ، ظهر منذ البداية أن محمداً بن عبد الكريم كان أبرزهم (63) . وهو الذي سرعان ما توطد نفوذه كليا عندما توفي في أبريل منافسه الوحيد المحتمل محمد بن الطاهر (64) . منذئذ فإن " الحركة " المتشكلة ضد الغزاة ستسخر أيضا بيده كأداة سياسية لإنشاء سلطة كان خلو الساحة منها يحكم لحد الآن بالفشل على كل العمل الجماعي المنجز بالريف . ففي جبل القامة ، ومن فبراير إلى ماي 1921 ، ظهرت في شكلها الذي ما زال جنينيا ، هذه السلطة التي كان محمد بن عبد الكريم صانعها الواعي ، والتي سيظل طوال فترة نموها صاحبها والقابض عليها كليا .

في فبراير عندما تأسست أول تشكيلة مسلحة ، فإن الغرض منها لم يكن شن الهجوم . كان الناس يعانون كثيرا من المجاعة بشكل لا يساعد على تجنيد عدد كبير منهم . وإلى غاية موسم الحصاد ، الذي كان يؤمل أن يكون عاديا هذه المرة ، كان ينبغي الاكتفاء بالصمود والاستعداد للمعارك في المستقبل (65) .

معنى الاستعداد تشكيل جنود حقيقيين ، مكونين ، متمرنين بشكل جيد ، دائما .
رهن الإشارة لتأطير كل المجندين في الوقت المطلوب . معناه أيضا الحصول على
الأسلحة . معناه أخيرا توحيد الناس في إرادة واحدة للكفاح مع استئصال شائفة
الانشقاق وسحق المعارضين . إنها مهام متعددة كان محمد بن عبد الكريم على بصيرة
بها ، وهو الذي سيقود بنجاح عملية إنجازها .

انصب اهتمامه في البداية على ضمان انضمام أهل تروكوت ، حيث ترابط
"الحركة" والحصول على الضمانات من باقي التسمانيين الذين كانوا يتأهبون لاستقبال
الاسبان . كان يكفيه قي تروكوت التأثير عن طريق حضوره في الجدل الجاري بين
أصدقائه وخصومه . يروي لنا شاهد كيف تمكن عمر أو فقير على هذا النحو من
الاستظهار على "القائد" علال . فقد تجرأ على التصريح له بقوله :

" إن إخواننا بني ورياغل الحاضرين هنا مسلمون ، ونحن مسلمون كذلك . فإذا
كنت أنت من الاسبان ، فما عليك إلا أن تبوح بذلك لنعرف قبل كل شيء ماهي الإجراءات
التي ينبغي اتخاذها معك " (66) .

في الأفخاذ الأخرى ، تدخل بالقوة لإلقاء القبض على الاعيان الرئيسيين الذين
قدموا مراسيم خضوعهم في مليلية ، واستعملهم كرهائن . كما فرض عليهم الغرامات
مبينا أن القصاص سيكون في المستقبل مصادرة جميع متاعهم (67) .

بنفس الشدة ردع الناس عن اللجوء إلى الانتقام الشخصي الذي كان يعرف أن
الاسبان استغلوه على نطاق واسع ، وفرض سواء بين اخوانه بني ورياغل أو بين
التسمانيين عدالة اجتماعية طبقها بنفسه وفق الشريعة الاسلامية . لهذه الغاية لم يتردد
في اتخاذ عقوبات نموذجية . من ذلك أن مساعده الخاص ، السي محند بن الطاهر ،
اضطر إلى تسديد غرامة باهضة عن جريمة قتل اقترفت في فخذ منوط به ، هو فخذ
بني بو عياش (68) . كذلك فإنه لم يكن يسمح لجنوده بأن ينصبوا أنفسهم محاكمين ؛
يقول مخبر في المصالح الاسبانية :

" إن السي محند بن عبد الكريم يمنع كليا على رجاله في " الحركة" التهجم على
أي أحد في شخصه أو متاعه ممن يشتبه به صديقا لاسبانيا ، كما أنه لا يسمح بذلك
لأي كان ، دون أن يكون قد علم بالأمر وبث فيه بنفسه " (69) .

من جهة أخرى فقد كان عليه أن يجد الاعتمادات الكافية للمحافظة على قواته
دون اللجوء إلى البدلاء . وقد قام بأود هؤلاء الآخرين أولا بأن كرس ثروته الكبيرة نسبيا

والتي احتجتها منذ خمس عشرة سنة في مليلية (70) . ثم وظف بعد ذلك مدخول الغرامات ، أخيرا أقنع جميع أفخاذ بني ورياغل بتخصيص مداخيل المؤسسات الدينية من أجل الدفاع (71) . مكنت هذه الوسائل مجتمعة من تخزين مزيد من الأسلحة والذخائر بالإضافة إلى تلك التي كانت على كل ريفي ميسور أن يقتنيها على نفقته ؛ سيما وأن البعض في القبائل المحتلة مؤخرا كان وقتئذ يتخلص منها مخافة من مصادرتها من طرف إسبانيا (72) . هذا وقد استولى السي محمد شخصيا ، دون أن ندري كيف ، على السلاح الذي غنمه أحميلش من الفرنسيين منذ سنتين في عين مديونة . والظاهرة المستجدة والمثيرة للحماس بالنسبة للريفيين هي أن هذا السلاح تضمن رشاشتين ومدفعا وثلاثمائة قذيفة (73) .

في غضون ذلك كان العمل يسير على قدم وساق في جبل القامة . فكان الريفيون يحفرون هناك الخنادق ويقومون بالدوريات ويتمرنون بالخصوص على المناورة الجماعية ، وهي وحدها التي يلزمهم التمرس بها إذ كانوا كلهم فيما عداها بهلوانيين ورماة من الطراز الرفيع .

وبذا فقد بدأ العمل تحت السلطة المتزايدة لمحمد بن عبد الكريم بجهاز لم تكن أهدافه العسكرية تستثني التدخل الشامل في حياة القبيلتين الكبيرتين ، تمسمان وبني ورياغل ، اللتين كان يجنح إلى توحيدهما في علاقة ما تزال غامضة من التحالف أو السيطرة . بيد أنه كان على هذا الجهاز الفتى أن يتعرض على حين غرة لأول امتحان شكل مع ذلك مناسبة لتحقيق نجاح باهر إلى حد أنه اعتبر من طرف الريفيين من الأحداث التاريخية الكبرى .

* * *

حدث ذلك عندما وصل برنكر لتفقد قطاعه الشرقي .

كان يعتزم التأكد معاينة من سلامة الخطة التي يقترحها سلفستري . وإذا ما صدقنا ما كتبه هو نفسه فيما بعد ، فقد اعتبر أن الوضع الراهن وقتئذ غير ناضج سياسيا ويلزم بالتالي وقف التنفيذ كليا (74) . بيد أن هذا التأكيد الثابت في رسالته يخفي مع ذلك نزعة مبيتة من حيث إنه يشدد على الرفض دون أن يظهر أن هذا الرفض ، الذي يكتسي صبغة تأجيلية محضة ، كان مصحوبا لديه بتحريض متحمس للخطة التي ظهر نجاحها على أية حال أمرا وشيكاً . بل يبدو أن موافقة برنكر على وجهات نظر مساعده جاءت على الفور . منذ الاتصال الأول بقاعدة النكور ، حيث استقبله سلفستري واكتشف بلد بني ورياغل المستهدف ، فإنه هو نفسه رفع كأسه وقت تناول الشمبانيا

مرددا : " على الاحتلال الوشيك للمنطقة " (75) . ثم بعد أن نزل في اليوم التالي في الأراضي التي سبق الاستيلاء عليها والواقعة على بعد ثلاثين كيلومترا شرقا ، من حيث يتراعى الوجه الآخر من الحاجز الجبلي الذي يسد طريق الحسيمة ، فإنه عبر عن قناعته بأن الحاجز يمكن اختراقه بسهولة (76) . أخيرا فإن الترحيب الذي أظهرته قبيلتا بني سعيد وبني أولشك في طراوة خضوعهما قضى على آخر ما تبقى من أسباب تردده إن كانت ما تزال بالفعل (77) .

إن كانت ما تزال هنالك أسباب . ففي 6 أبريل ، وفي أمر يومي رنان ، وجه بمليية تهانته إلى الجنود على أمل أن تجدد كما قال ، لكن في الحسيمة (78) . وفي حديث له نشر في "التغرامة" يومي 7 و 8 أبريل ، نراه أكثر وضوحا . نقرأ فيه :

" سنقوم في هذا الربيع باختراق الخط الذي يفصل أحواض النكور عن واد أمقران . ستحاول بعض أفخاذ بني ورياغل اعتراض سبيلنا مما سيضطرننا إلى خوض المعركة . لكن بمجرد ما نصل إلى السفح الآخر ، سنبلغ جون الحسيمة الذي يمكن اعتباره ثمرة ناضجة " (79) .

بعد عشرة أيام كتب إلى وزارة الدولة برباطة جأش وبوزن الكلمات :

" إن مسألة الحسيمة يمكن أن تعتبر في متناول اليد " (80) .

"ثمرة ناضجة " ، في "متناول اليد" إنها صيغتان سيحترز من التذكير بهما فيما بعد لأنهما تشيران إلى ما تؤول إليه التحفظات المتكتمة التي كان من شأن الحالة السياسية أن توحى بها . ولعلا فقد توقع " منذ هذا الربيع " زحفا نعرف أن نهايته ، بالنسبة لسلفستري ، ستكون بالأحرى في شهر غشت . وفي هذا ما يكفي للدلالة على أنه كان يجهل ، مثل سلفستري ، ما وصلت إليه الأمور في بني ورياغل ، وأنه كان يستخف مثله ، كما سنرى ، بأهمية ما طرأ هناك من أمور بعد أن بات على علم بها .

عندما نزل برنكر بالنكور في فاتح أبريل ، كان من المفروض أن يلاقي هناك ترحيبا من أصدقاء اسبانيا وقد تسارعوا بكاملهم انطلاقا من الأراضي المجاورة . لكن رغم الضجة التي جرت مقدما ، لم يخف لاستقباله سوى نفر قليل من الأشخاص التافهين وقلة ضئيلة من الأعيان ، منهم صبيبة من بقبوة وسليمان بن محمد أمجاهد من بني ورياغل . فكان أن نسب هذا التبذل إلى رداة أحوال الطقس الذي كان يسود بالفعل (81) . لكن السبب الحقيقي هو أن محمدا بن عبد الكريم قد أعلن عن حظر التوجه للسلام على الاسباني ، ولم تجرؤ الغالبية على مخالفته (82) . وهو ما كان في حد ذاته مدعاة

للقلق . إلا أن برنكر لم يعلم بالأمر . ولم يتلق ما تمخض عن الواقعة من نتائج إلا عند توقفه في طريق العودة ، وفحواه أن اجتماعا يجري فيه العمل بيني ورياغل لوضع عمل اقتصاصي يقوم على حرق مساكن كل أصدقاء اسبانيا (83) .

في الحقيقة كان الأمر يتعلق فقط بفرض غرامات على من استخف من هؤلاء الأخيرين بقرار الحظر وتوجه إلى الجزيرة (84) . إلا أن النبأ الذي ضخم بهذا الشكل ، وبدون شك عن قصد ، جاء كأحسن ما يكون للتأثير على الاسبان .

على أن هؤلاء لم يتأثروا ، بل اعتبروا بالعكس أن الفرصة سانحة للتدخل . من ثم جرت مشاورات تلغرافية بين سلفستري وبرنكر : إن أنصارهم المهددين بالعقوبات يأنسون من أنفسهم القدرة على المقاومة بصرامة ؛ لذا فإن دعما ناريا قويا من النكور ومن البحرية والطيران قمين بجعلهم ليس فحسب قادرين على الصمود بل وعلى سحق خصومهم والتخلص في أقرب وقت مما كان يعتقد من معارضة بني ورياغل . ذلك هو الاتجاه الذي سارت فيه اقتراحات سلفستري ، بل وأوعز حتى بعملية انزال للاستجابة لإلحاحات الريفي صبيرة الذي كان حول هذه النقطة يحذو حذو القاضي عبد الكريم .

في جوابه ، لم يكن برنكر متحمسا لفكرة الانزال . إلا أنه أعرب عن موافقته على باقي المقترحات وهذا في حالة تعرض الفريق الصديق للهجوم (85) . كان ذلك في 10 أبريل ، وكما نرى فإن العملية لم تتحدد في مخيلة برنكر إلا على أساس أن تكون بمثابة رد الفعل . لكنها اتخذت فيما بعد ، وبدون أن ندري سبب هذا التغيير ، صبغة تدبير وقائي ، بحيث ستشروع المدافع في القصف في ساعة معينة ، بينما يتحرك في اليابسة الريفيون الأصدقاء .

وهكذا بدأت القذائف تنهال يوم 13 أبريل في وقت كان فيه سوق الأربعاء يعج بالناس . عندما فرت الحشود من المكان متشتتة أيادي سبأ ، تحول القصف إلى مساكن الشيوخ التي شكلت وإلى غاية المساء هدفا للمدفعيين (86) .

نعم العمل . لكن فيما عدا الخسائر والأضرار المسجلة ، لم تسفر العملية عن أية نتيجة ، بل وكانت سلبية نظرا لأن أصدقاء اسبانيا لم يحركوا ساكنا رغم ما قدموه من وعود . بالمقابل فإن خصومهم تسارعوا - بدلا من الانزواء- إلى السلاح ، وقاموا بقيادة محمد (بالفتح) الأخ الأصغر للسي محند بقض مضاجع قاعدة النكور ببنادقهم وحدها ، لكن بضبط التسديد على كل من هب ودب فيها . لقد أظهر الطرف الاسباني أمام أنظار الجميع حقيقة علاقات القوى داخل القبيلة ، ولم يعمل بذلك سوى على أن يزيد الطين بلة

بخصوص السمعة المنحلة التي كان يعاني منها أصدقاؤهم . كان على هؤلاء من الآن فصاعدا أن يطأطئوا الرأس أمام المقاومين الذين تنامي نفوذهم بالمقابل بدرجة كبيرة جدا . وهكذا توجب على الذين توجهوا لاستقبال برنكر ، وإن كانوا من علية القوم ، أن يسدوا غراماتهم في حالة يرثى لها ، باستثناء أحدهم المدعو سليمان بن محمد الذي تمكن من الفرار إلى الجزيرة . أما وقد تخلص المقاومون من معارضيتهم ، فقد أصبح بإمكانهم على مهل تعبئة الرجال والامكانات . وكانت حالة الحرب التي فرضها عليهم التقليدي ، تهورا منه ، تذكي هي الأخرى حميتهم الوطنية . بحيث توقفت جميع المعاملات مع قاعدة النكور ، وبقيت لغة التعامل الوحيدة هي الرصاص الذي كان يتفرقع هنالك بين الفينة والأخرى (87) .

أحس سلفستري وبرنكر بهذا الفشل . ومن خلال كتاباتهما نستشف ما انتابهما من مرارة وندامة . من ذلك لما كتب سلفستري يقول :

"رغم اقتراحاتهم المحضة ووعودهم بالصمود أمام " الحركة " فإن زعماء الحسيمة الذين يتقاضون معاشاتنا أدوا الغرامة التي فرضت عليهم " (88) .

نقرأ نفس الشيء في تقرير لبرنكر :

"إنني لا أوافق في هذه المسألة على سلوك صبييرة (89) ، لأنه هو الذي نصح في الواقع بإطلاق النار على الساحل وتسبب بالتالي في رد فعل القبيلة التي يقوم رجالها برشق الحصن " (90) .

مع ذلك فإن كلا منهما كان يعمل جادا للتقليل من أهمية هذا الحادث . ففي حديثه عن الحسيمة ، ترى سلفستري يصرح متعجلا :

"إن الحالة في تحسن . وقد توقف إطلاق النار وبدأت الحياة التجارية تجري بسهولة . هنالك ما يحمل على الأمل بأن عودة الأمور إلى حالتها الطبيعية لن تتأخر " (91) .

من جهته ، كتب برنكر مشيرا إلى نفس الموضوع :

" أما بخصوص الاضطراب الذي طرأ مؤخرا ، فإنني بعد عودتي... لا أوليه كبير اهتمام... إنني لا أرى حاليا في كل ما يجري هناك طابعا حادا لعداء قوي إلى أقصى الحدود... ولا أعتقد بني ورياغل بقادرين على الصمود أمام هجومنا وتكبيدنا خسائر كبيرة خلال اندفاعنا ، وهذا بالنظر إلى الضغط الذي يمكننا ممارسته عليهم عندما يحين الأوان (92) .

ذلك هو خطأهما الكبير المشترك . بالطبع كانت الحادثة تبدو وكأنها سحابة صيف ، إذ أن الريفيين والاسبان لم يقوموا بأي شئ جديد عدا الاحتراز من بعيد . إلا أنهم مع ذلك عملوا على خلق حالة جديدة كل الجدة في القبائل . فإن الناس في اليااسة وقد عاينوا انهيار الفريق الاسباني والاختفاق التام للوسائل الضخمة الموظفة من طرف العدو ، اهتزوا حماسا أمام الطلعة المهيبة للمقاومين وتشكيلتهم المتراصة . والنتيجة أن هؤلاء الآخرين أصبحوا بعد إقصاء المعارضين يتمتعون بسلطة كلية ، وينفذ يدعمه إضافة إلى قوتهم المسلحة الانضمام المكثف لقدماء المترددين . وإن يلبث محمد بن عبد الكريم الموجود على رأسهم ، والذي كان ما يزال يبدو عشيتها مجرد زعيم عصابة أو رئيس حزب ، لن يلبث أن ينال التقليد من جميع إخوانه بني ورياغل الذين سينضم إليهم جيرانهم البقيويون .

وهذا ما حدث قبل نهاية شهر أبريل ، خلال تجمع مشهود هو الآخر يمثل بالنسبة للريفيين نوعا ما ما مثله اجتماع "قاعة كرة المضرب" بالنسبة للفرنسيين . فقد تسلق جبل القامة - حيث كانت " الحركة " ساهرة - خمسون مندوبا يمثلون الأفخاذ الخمسة لبني ورياغل و قبيلة بقيوة . وبعد أن قرروا كتدبير أول جمع مائة رجل من المدد في كل فخذ من الأفخاذ ، أدوا اليمين الأعظم بأن يبقوا متحدّين ويقاتلوا إلى النهاية . أما من اختاروه زعيما ، فهو بالذات محمد بن عبد الكريم (93) .

* * *

لكن في الرقت الذي كان فيه أصحاب "يمين القامة" يسكّون على هذا النحو الصورة الأولى لزعيم الحرب الذي سيشتهر في التاريخ باسم عبد الكريم ، كانت المساومات تجري في الخفاء ؛ وهي إذ تؤكد طبيعة النوايا التي كانت تغازل أحلام عائلة الخطابي ، فإنها تبقى مع ذلك مدعاة للحيرة لدى ما تكشف عنه من رباطة جأش كبيرة وثبات منطقي في إبقاء السفينة حتى في اتجاه جبهة العاصفة نفسها .

كان سلفستري قد أدلى بأول تصريح في هذا الصدد منذ 10 فبراير ولما يمض سوى زمن يسير على اجتماع " الحركة " في جبل القامة . فإنه أعلم برنكر بأن السي محند أعرب له عن رغبته في الحوار والعودة ثانية إلى كنف الاسبان ، وهذا على الرغم من حركاته وسكناته المعادية أكثر فأكثر (94) . وهذا الخبر الذي كان ما يزال في حينه غامضا سرعان ما تأكدت صحته إلى حد أنه أثير على بساط الدرس عندما تلاقى الرئيسان بعليية في شهر أبريل (95) . فما كان لهذين الأخيرين أن يتجاهلا بالفعل الاتصالات الوشبكة التي ستجريها في أجدير شركة اسبانية لها علاقة أعمال مع الأخوين ، ابني عبد الكريم .

غالباً ما ينسب دور حاسم فيما سيتلاحق من أمور إلى المصالح المركنتيلية ، وهذا بدون تقديم أي دليل . الحقيقة أن الريف في العصر كان يعتبر بمثابة بيرو جديد . من ثم الأهمية التي علقها عليه إما المجموعات المالية وإما الخواص الذين كانوا يرغبون في الحصول فيه مقدماً على امتياز الاستغلال عندما سيتم إخضاع البلاد . وإنها لحقيقة كذلك أن محمداً بن عبد الكريم قام طوال كل السنوات التي قضاها بمليلية وحتى فيما بعد بدور سمسار في هذا النوع من الصفقات . كانت المعاملات تستهدف المناطق المعدنية أو الأراضي الزراعية دون أن ندري بالضبط كيف كانت تتم (96) . الوثيقة الوحيدة التي قد تنير سبيلنا يرجع تاريخها إلى الفترة التي تجمعت فيها ثانية عائلة القاضي عبد الكريم بأجدير . وكان محمد الابن الأصغر ، هو الذي عرض هناك على مراسل من اسبانيا بقعة أرض للبيع في نواحي النكور ، كما اقترح عليه تأسيس شركة تستورد مباشرة إلى الريف جميع المواد التي كان بنحيم وإيبانكوس (Ibancos) ، التاجران الاسبانيان بالقاعدة الجزرية ، يتوليان وحدهما آنذاك تصريفها فيه (97) .

كل هذا صحيح تماماً . لكن هل هذا يدل على أن المثل الأعلى الذي سיתباهى به السي محند ذات يوم كان مجرد خدعة ، وأن السبب الحقيقي لحربه ضد اسبانيا إنما هو مسألة مصلحة مادية ؟ ينبغي من أجل تصديقه ألا نفرق بين الفترات ولا بين الحالات . عندما كان السي محند يقوم بهذا النوع من النشاط كفرد من أيها الناس ، فإنه لم يكن يتصور الدور الذي يهيئه له القدر . كان يكسب رزقه كأي فرد آخر . أما أن ندعي بأنه كان عليه ولو آنذاك القيام به (النشاط) كوطني ، فإننا نتناسى أن الوطنية في مغرب ذلك العصر كانت ما تزال تتلمس طريقها ، وأن الحرب ، بالنسبة لمحمد ، هي بالذات التي ستوطدها حالما تتدلع . إلى ذلك الحين فإنه لم يكن يرى لبلاده ، كما سبق أن أوضحنا بأدق التفاصيل ، أي تنظيم سياسي إلا بدعم من الخارج ، وأي تقدم مادي إلا بتوظيف رأس المال الأجنبي . التوضيح الوحيد الذي ينبغي إضافته هو أنه لم يتفاوض إلا مع الشركات الاسبانية (98) .

وهي حقيقة ذات دلالة . فإذا اختار اسبانيا كوصية سياسية ، فإنها هي التي أناط بها وحدها دور الشريك المالي . المهم هنا أن نلاحظ أنه كان يواصل تعامله مع هذا الشريك فيما كانت الحرب على شفا الاندلاع . وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على أنه لم يكن حتى هذا الوقت يتصور المستقبل بدون الحضور الاسباني في الريف ، وأن استعداداته الهائلة لم تتخذ إلا على أساس الحصول على تسوية آخر لحظة تكون في صالحه . بالنسبة إلينا ليس هذا سوى تزكية لموقف معروف .

لكن كيف لم يدرك ذلك برنكر وسلفستري ؟ لعل هذا هو أصل الخطأ الذي وقع فيه الأول عندما صرح بأنه لا يلمس في حوادث أجدير " عداء قويا إلى أقصى الحدود " (99) .

في ليلة 6 أبريل نزل خفية بأجدير مبعوث يدعى كوت (Got) موفدا من قبل اشغارييتا (Echevarrieta) أحد كبار رجال الأعمال ببلباو المهتم بباطن الأرض الريفي والذي لن يفتأ حتى النهاية يقوم ببعض الأدوار في الأحداث بحكم التقدير الذي يربطه بالسي محند . وقد جاء المبعوث خصيصا لملاقاة هذا الأخير . لكن سخرية القدر شأت أن يكون السي محند مقيدا بحضوره في الاجتماع المخصص بالذات لمحاكمة الأعيان المتهمين باستقبال برنكر . لذا فقد مثله أخوه الأصغر محمد وعمه عبد السلام .

المقابلة التي دامت حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، كرس في البداية للقضايا المعدنية . ثم تطرق محمد للمشكل السياسي . أعرب عن كامل أسف أسرته لتخليها عن خدمة اسبانيا التي تكن (الأسرة) لها حبا جما ، مبررا هذا التخلي بتأويل جديد للظروف التي قادت إليه . بعد ذلك ذكر بالشكاوي المعروفة ضد السياسة التي كانت القبائل المحتلة تعاني منها تحت سلطة صغار الضباط ، بينما كان من المفروض أن تخضع لإدارة مغربية بمقتضى روح الحماية . ثم أضاف بأن أخاه وهو نفسه مستعدان كل الاستعداد للتفاوض مع الجنرال سلفستري - الذي لهما فيه كامل الثقة - حول شروط انضمامهما لاسبانيا وولائهما لشخص الخليفة . بالطبع ينبغي أن تجري المفاوضات في سرية تامة بالنظر إلى المخاطر الكبيرة التي قد تنجم عن ذلك إذا ما علمت القبيلة بالقضية قبل حسمها . ذلك هو الاقتراح الذي كان كوت مخولا بنقله إلى الدوائر العليا (100) .

أنجز كوت المهمة منذ 9 أبريل في تقرير موجه إلى مورالس (Morales) الرئيس الجديد للمكتب المركزي . في 17 أبريل أجاب هذا الأخير بأن سلفستري موافق لكن شريطة أن يقدم محمد بن عبد الكريم مساعدته بشكل مملوس للزحف الاسباني حتى في قبيلته . وقد حذب برنكر الجواب بعد إخباره . إلا أنه وجه هذا التحذير : حتى ولو تمكن اليوم صاحب الملتمس من التكفير بواسطة الأفعال عن أخطائه الماضية ، فإنه ينبغي الحرص كثيرا على أن نجعل منه شخصا لا غنى عنه بين اسبانيا والقبائل (101) . وهكذا وبعد أن مرت الشهور بدأ الجانب الاسباني يرى الأمور على حقيقتها في الصراع الجاري . إلا أنه كان على يقين من توفره على جميع حظوظ النجاح .

هذا اليقين سيزكيه على أية حال سلوك السي محند . فحرصا منه على عدم تسرب الأخبار ، كان هذا الأخير قد صرح بأنه لا يريد وسيطا آخر عدا كوت . لكن بعد عودة كوت ، غير اللجوء إلى القوة في 13 أبريل كثيرا من معطيات الوضع . فإن حظر العلاقات الذي تعين على السي محند نفسه فرضه بين اليايسة والحصن المعادي ، قطع على المبعوث طريق العودة ، بينما كان قرب حدوث الانفجار يجعل بالمقابل مواصلة الحوار المنطلق أكثر إلحاحا . فهل لهذا السبب كان الحصار المشدد في النهار يتراخى في الليل ؟ لا يمكننا تقرير ذلك . لكن الحقيقة أن حركة من الذهاب والاياب قدر لها أن ترى النور "نون أن يتعرض الحصن (يقول سلفستري) لأدنى مبادرة عدائية ودون أن يرى (الجانب الريفي) داعيا لاعتراض سبيل من يريد التوجه إليه في الليل " (102) .

لكن بما أن شهرا مر دون أن يعود كرت ، فقد تعين تدارك الموقف ، ووجد السي محند نفسه حينئذ في موقف اضطراري مذل إلى معاودة اقتراحه عن طريق مبعوث سري من حاشيته الخاصة . وقع اختياره على أحد أصهاره ، محمد أزرقان ، المتقاني في خدمته والذي كان في نظر الاسبان مع ذلك عديم الاعتبار . ففي مليلية التي عاش فيها بعض الوقت كان يُخلع عليه لقب تهكمي وهو بخاريتو Pajarito (العصفور النوري الصغير) .

ترك لنا محمد أزرقان فيما بعد رواية عن المهمة التي أنجزها وقتذاك والتي كانت بالنسبة إليه في الواقع بداية كرجل دبلوماسي . لقد قال للاسبان بأن الريفيين يريدون معرفة نواياهم ويطلبون منهم أن يوقفوا زحفهم نهائيا في انتظار التفاوض والتوصل إلى اتفاق (103) .

بعبارات واضحة ، كانت الغاية هي اقتراح خضوع مشروط . على أننا إذ نأخذ بعين الاعتبار هذا الاعتراف الضمني ، لا يسعنا فيما عداه إلا رفض شهادة ندرك أن صاحبها ، وقد خانت ذاكته سلفا ، لم يكن بإمكانه أيضا أن ييوح لنا بالحقيقة . إذ كيف يعترف بأنه كان مفوضا من قبل السي محند في غفلة عن الريفيين ، وأنه توجه باسم مفوضه ليقترح في الواقع انضماما بدون شروط ؟ على العكس نجد الوثائق الاسبانية المحررة في الطرارة تخلو فيما يخصها من مثل هذا الغموض وهذه الاحتياطات . فيما يلي إذن حرفا حرفا رسالة 7 ماي التي تروي فيها سلطات مليلية الواقعة :

" إن الحسيبي محمد أزرقان ، الملقب عادة ببخاريتو ، قد قدم إلى هذا الحصن

يوم الخميس 5 موفدا من قبل السي محند بن عبد الكريم ، ليقدم باسم هذا الأخير طلبا بالعمو عن سلوكه الماضي ، واقتراحا بالعودة إلى العمل بإخلاص لفائدة اسبانيا .

بعد أن بين له بأسهاب مدى خطئه الذي لا يوجد ما يبرره ، منح له العفو شريطة أن تكون خدماته القادمة فعالة ومخلصة بقدر ما كان خطأه كبيرا .

حينئذ قدم باخاريتو اقتراحا يقضي بأن يقوم السي محند ، وقد علم بنيله العفو ، بكتابة رسالة تؤكد الطلب الذي نقله شفويا مقترحا خدماته اللامشروطة . كما أنه استفسر عن السلوك الذي تريد الحكومة أن يختاره السي محند ، علما بأن هذا الأخير قبل التخلي عن "الحركة" . كان الجواب أن عليه بالعكس عدم مغادرتها لأنه بهذا سيقدم خدمته على الوجه المطلوب لأجهاضها بلباقة . وستبث الحكومة في إخلاص وفعالية عمله تبعا للنتائج " (104) .

بعد أن أعلن هو نفسه عن موافقته ، أبصر في اتجاه النكور ثم أجدير وأعدا بتقديم رواية أمينة للسي محند .

ما كاد يصل حتى وجدنا كوت ، المبعوث المنتظر ، ينبه إلى حضوره في القاعدة الجزية . ومع أن الجواب الذي يحمله هذا الأخير كان قد وصل ، فإن مقابلة مهدت له في الحين ليلة 16 ماي . في هذه المرة كان السي محند هو الذي حرص على استقباله شخصيا والكشف له عن مكنون صدره .

يقول سلفستري الذي نقل إلى برنكر نتيجة المقابلة بعد زمن يسير :

"كان إذ ذاك جد صريح . لقد قال لكوت (Got) إنه يعتزم تشكيل قوة بوليسية من 500 إلى 1000 رجل من أجل فرض الهدوء والنظام في القبيلة ، وأنه سيتفاوض مع اسبانيا ساعة تمكنه من ذلك " (105) .

كان من المتوقع فيما يظهر أن يؤدي استئناف الاتصالات بكوت إلى استغناء السي محند عن مواصلة المساعي التي بذلها أزرقان ، بيد أن شيئا من هذا لم يحدث . إذ أن هذا الأخير أبحر ثانية حاملا رسالتين للعقيد مورالس الذي أجري معه مباحثاته بعيلية . وقد حررت الرسالتان - دون أن ندري لماذا - لا من طرف السي محند ، وإنما من طرف محمد (بالفتح) الذي كان فيهما الناطق الرسمي باسمه . هل يتعلق الأمر بتدبير احتياطي ؟ ذلك ما قد يكون ضربا من الوهم . وهل يتعلق بمجرد سلسلة النص باعتبار أنه حرر بالاسبانية ؟ بيد أن السي محند لم يكن يسي كتابتها ، أو هل هي

مسألة بروتوكول بالنظر إلى أن المقصود هو أن يظهر السي محند مدى تحفظه من التحوير فقط مع سلفستري ؟ انه سبب محتمل . مهما يكن من أمر فقد اكتفى محمد (بالفتح) ، في رسالة أولى مؤرخة في 18 ماي ، وبالنظر إلى الجواب الذي حمله أزرقان ، بالإشارة إلى أن له ولأخيه عظيم الأمل في التوصل إلى اتفاق لا شراك المصالح الريفية والاسبانية ، في مشروع واحد " يكون علينا نحن أيضا (كما يقول) أن نقوم فيه بدورنا " (106) . ثم فكر فيما بعد في كتابة كلمة اضافية . وذلك ليطلب من مورالس مفتاح رموز يمكن التراسل بواسطته مما يغني عن الوسيط بالنسبة للعلاقات القادمة .

ثمة في هذه الحركة الجارية في آن واحد في اتجاهين مختلفين تشابك لم يكن يساعد عل توضيح المواقف الغامضة سلفا . في البداية ، علم الاسبان عن طريق كوت أن السي محند مستعد للتفاوض في شروط انضمامه . فإذا بأزرقان يصرح لهم فجأة بأمر من السي محند بأن هذا الأخير ، الذي لم يطلب سوى العفو ، يوافق مقدما على أي شرط كان . ثم بعد أن ظهر أزرقان ثانية ، سلم رسالتين لا تنكران كلماته بالأمس بشكل صريح ، لكنهما تتجاهلانهما ، في حين لم تعد المفاوضات تبدو فيهما محبذة ، وإنما قدمت وكأنها مقبولة من كلا الطرفين . والحال أنه علم في أثناء ذلك عن طريق كوت أن السي محند لم يكن يعتزم الظهور أمام الاسبان كمجرد ملتصق ، إذ كان له هو نفسه ما يقترحه . وقد ألح إلى أنه يريد مكافأة .

أين هي إذن الحقيقة ؟ وقبل كل شيء ما هو بالضبط الهدف الذي كان ينشده السي محند ؟ لقد طرح سلفستري هذا السؤال على نفسه وتردد فيه بين افتراضين كما يتضح من قوله :

" من الممكن أيضا أن يكون ذلك مجرد حيلة ليتمكن من تأمين نفسه في حالة الفشل - وهذا في نظري هو السبب الأرجح - أو يكون وليد الشعور بأن إسبانيا ستصل حتما إلى بني ورياغل مما جعله يرغب في التصالح قبل كل شيء بتقديم خدمة يمكن أن تكون أكثر تأثيرا من ارتداده . ليس لدي لحد الآن دليل قاطع ، وإنما أنتظر أن تدلني الأحداث على الرأي الذي يتعين الانحياز إليه " (107) .

بإمكاننا نحن الذين نتبعنا جميع السوابق أن نجازف بالقول بدون تردد ان الافتراضين معا لا يصيبان كبد الحقيقة ، وان كلمات السي محند إلى كوت كانت بالفعل جدية ، وان خطته لم يطرأ عليها تغيير . لقد أنجز الشطر الأول من هذه الخطة بعدما صار ذلك الزعيم الذي يتعين على اسبانيا التفاوض معه ، ولم يبق عليه سوى أن يقنع

إسبانيا بفكرة التفاهم معه . من ثم محاولاته التفاوضية التي كان يلمح إليها بطريقة أو بأخرى والتي كانت أحيانا واعدة جدا ، ولكنها بحكم تكررها كرسست المفاوضة في الوقائع .

من الحق أنه يمكن مقارنة الأمور من زاوية أخرى ، فنفترض أن السي محند بعد أن اختار مقدما تفجير الصراع المسلح رأى من الضروري تضليل العدو حول درجة صدق نواياه . لكن لماذا فضل في هذه الحالة اجراء الاتصالات من تلقاء نفسه وفي غفلة عن رفقائه في الكفاح ؟ قد يقال بأن هذه السرية إنما هي صورية ومصطنعة في حقيقة الأمر . في هذه الحالة يبقى أن نفسر موقف أزرقان عندما أثار القضية فيما بعد . سبق أن رأينا أنه موه الحقيقة لما قدم لنا روايته عن مهمته الأولى . وهو ما فعله أيضا في رواية ثانية ، تلك التي تكون انتهت - حسب مزاعمه - بالقطيعة المأساوية . إذ خبرنا بأن سلفستري نفسه صرخ في وجهه بهذه الكلمات : " ليس لدينا ما نناقشه معا ما دام جنودي لم يصلوا بعد إلى رأس شعيب في تمسمان ورأس العبيد في بقية " . كان ذلك ، كما يقول إعلانا حقيقيا عن الحرب (108) .

تناول الكتاب الاسبان بتنافس هذا الفصل المسرحي وأدخلوه في إطار التاريخ مع أنه لا مكان له فيه بتاتا (109) . إن الحقيقة لمختلفة عن ذلك كل الاختلاف . لقد عاد أزرقان حاملا رسالتين إلى العقيد مورالس ، وهذا الأخير هو الذي تلاقى به وليس سلفستري . كما أنه اكتفى بتسليمه لا غير الرسالتين اللتين طلب فيهما محمد (بالفتح) باسم السي محند مفتاح رموز يتم التراسل بواسطته . وهذا يدل على أن السي محند كان يرغب في فتح باب الحوار الذي لم يتم حتى ذلك الحين سوى وضع صيغته الأولية . وحيث ان مورالس لم يكن مؤهلا لحسم المسألة من تلقاء نفسه ، فقد أحالها إلى سلفستري . والحال أن هذا الأخير كان يرغب بالذات في الحصول على مزيد من المعلومات ليوقف بوضوح على حقيقة لعبة السي محند (110) . كما كان مزودا بتعليمات برنكر الصريحة أو بالأحرى بموافقة على استئناف التعاون مع الأخوين ، ولدى عبد الكريم (111) . لذا لم يكن بوسع سوى الموافقة على الطلب الذي نقله إليه مورالس وهو ما قام به بالفعل (112) . بحيث إنه عندما أبحر أزرقان في 30 ماي صوب النكور وأجدير وهو مزود بموافقة ، لم يكن يوجد بتاتا ما يدل على القطيعة . بل وكان الطرفان معا قاب قوسين أو أدنى من وضع الترتيبات المتعلقة بالكليات المفاوضة التي كان من المفروض أن تقود إلى التفاهم .

وهكذا وبعد أن وجد السي محند نفسه في مفترق الطريقين وأرغم على الاختيار بين السلم أو الحرب ، وجدناه يأمل في كسب السلم بتحضير الحرب . لا بل هي الحرب التي انغمز منذئذ في دوامتها وبدون رجعة .

الهوامش

- (1) عندما نتكلم عن الحسيمة ، فإن الأمر يتعلق إما بالخليج الذي يحمل هذا الاسم وإما بقاعدة النكور الاسبانية الواقعة في قاع الخليج والتي كانت تعرف بنفس الاسم من طرف الاسبان . أما بالنسبة لمدينة الحسيمة الحالية ، وكذا الأمر بالنسبة لمينائها ، فعلى أن ننتبه إلى أنها لم تكن توجد في ذلك العصر ، إذ لم تأسس إلا بعد الاحتلال الاسباني .
- (2) انظر ما تقدم في ص 139
- (3) انظر ما تقدم في ص 140 وما يليها
- (4) General BERENGUER : Campañas en el Rif. . ; op. cit., pp 1-2
- (5) أعطى سلفستري تعليماته لتنفيذ هذه الخطة في 5 مارس . جاء في هذه التعليمات : " ان الهدف الذي نسمى إليه بكل مجهوداتنا هو منطقة تافرسيت " . رسالة برنكر إلى سلفستري ، بتاريخ 8 بتاريخ 1920 :
- S. H. M. , Ponencia de Africa, Documentos personales del General Silvestre, et General BERENGUER, op. cit., p. I.
- (6) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية : 2 , Mel. 256 , S. H. M. وثيقة غير مفسرة .
- (7) انظر ما تقدم . ص. 253
- (8) تقرير من سلفستري إلى برنكر ، بتاريخ 24 غشت 1920 : S. H. M. , Mel, III, I, 96 - 100
- (9) مذكرة حول الحالة السياسية في قطاع مليلية : S. H. M. , Cuartel General, 1920 , dossier 28.
- (10) شهادة الشيخ أفلاح الذي كان خلال الحرب أحد قادة الجيش الريفي النظامي ، وهي شهادة سجلها الملف بنفسه بتاريخ 23 ماي 1972 .
- (11) التقرير الشهري الموجه من سلفستري إلى برنكر، بتاريخ يونيو 1920 .
- (12) أمر من سلفستري الحاكم العام بمليلية إلى العقيد مورالس ، رئيس المكتب المركزي ، بتاريخ 7 يوليوز 1920 :
- (S. H. M. , Mel., II. 205)
- (13) مذكرة الفرع الثالث من المكتب المركزي ، بتاريخ 12 غشت 1920 . وقد أشير فيها إلى أن قوارب قبيلة بقبية تقتني من سبتة ، حيث تتجه لبيع بيضها ، يدقية أو بدقيتين بالإضافة إلى الاثائر وأحيانا المفرقات التي من المحتمل أن يكون مصدرها من أشغال الميناء : S. H. M. , Mel., 256, 2
- (14) رسالة الجنرال سلفستري إلى المقيم العام برنكر .
- S. H. M. , Ponencia de Africa, Documentos personales del General Silvestre .
- (15) التقرير الشهري الموجه من سلفستري إلى برنكر ، ماي 1920 .
- (16) رسالة 14 ماي المشار إليها في الهامش 14 ، والتقرير الشهري المشار إليه في الهامش 15 .
- (17) في الشهادة التي سيدي بها فيما بعد أمام اللجنة البرلمانية المسماة بـ " لجنة المسؤوليات " ، سيذكر برنكر في جملة أسباب البؤس العام السائد في الريف " انخفاض العملة الفرنسية ، تلك العملة التي كان يملكها بالخصرص مغارية هذه المنطقة والتي كانت لا قيمة لها تقريبا " . أدلى بهذه الشهادة بتاريخ 7 غشت 1923 :
- De Annual a la República : Documentos relacionados con la información instruida por la llamada Comisión de Responsabilidades acerca del desastre de Anual, Madrid 1936, p. 330.
- (18) بمقتضى ظهير 19 مارس 1920 "حول الإصلاح النقدي" :

S. H. M., Cuartel General, 1920, dossier 28. (19

(20) لا تتوفر على تاريخ ذهابه بالضبط . لكننا نعرف بالمقابل أنه عاد إلى أجدير مريضا في 10 يوليوز . وحسب " مذكرة لارينون " ، مصدر سبق ذكره ، نعرف أن ثلاثة أسابيع انقضت بين الحادثتين (مذكرة لارينون : نهاية حيانا وتطوع والدنا بجانب الوفيين).

(21) بعد وصوله إلى عبادة 24 يونيو ، كان بإمكان سلفستري أن يمضي قدما حتى إلى تافرسيت التي كانت في متناول يده وبدون نفاق . إلا أنه رأى من الواجب الاحجام عن ذلك لعدم حصوله سيقا على موافقة القائد العام برنكر . رسالة برنكر إلى سلفستري بتاريخ 1920 جواب سلفستري بتاريخ 17 يوليوز .

S. H. M. , Ponencia de Africa, Doc. personales del General Silvestre .

لم تبدأ " حركة تافرسيت في التجمع إلا في اليوم التالي ، وهو يوم 25 يونيو : تقرير سلفستري إلى برنكر ، بتاريخ 8 يوليوز 1920 :

S. H. M. , Mel., II, 1 - 62 - 63.

(22) المصدر نفسه .

(23) المصدر نفسه ، وكذلك سلفستري إلى برنكر ، 24 غشت 1920 : S. H. M. , Mel., III, I- 96 à 106:

(24) نفس المصدرين المذكورين في الهامش 23 .

(25) أورد هذه الرواية عميلان سريان هما الطاهر ومحمد بن الحاج الطاهر محند المنتميان إلى قبيلة بو يفرور بتاريخ 8 يوليوز 1920 .

(26) رسالة محمد بن عبد الكريم (الابن الأصغر) إلى مانويل أكيوي . (Manuel Aguirre)

بتاريخ 15 غشت 1920 'a 35 - 31 S. H. M., II, 15 :

(27) "مذكرة لارينون" ، مصدر سبق ذكره ، نفس المصدر المذكور في الهامش 20 .

(28) برقية من الحسيمة (التكرد) إلى مليلية ، بتاريخ يوليوز 1920 :

S. H. M. , Mel., II, 2 , pièce non cotée

(29) برقية من الحسيمة (التكرد) إلى مليلية بتاريخ 23 يوليوز 1920 . نفس المصدر المذكور في الهامش 28 .

(30) تقرير سلفستري إلى برنكر بتاريخ 2 غشت 1920 . المذكور في الهامش 23 .

(31) اعتمادا على ذاكرته ، سيمقد ولده محمد فيما بعد ، في " مذكرة لارينون " ، أن الوفاة حدثت بعد 22 يوما من العودة إلى أجدير ، وهذا ما يرجع تاريخ الوفاة إلى 11 غشت 1920 . إلا أن "تلفرامة الريف " في عددها الصادر في 11 غشت 1920 ، أعلنت عن وفاة القاضي عبد الكريم مؤرخة إياها في 8 غشت . ثم سنجد سلفستري يخبر برنكر بالتبا ، بالاستناد إلى المعلومات الصادرة عن الحسيمة ، مؤرخا إياه في 7 غشت مساء :

تقرير سلفستري إلى برنكر، غشت 1920 : S. H. M. , Cuartel General, 1920 , dossier 28 :

(32) يذكر أنزيقان حتى اسم الشخص الذي كلفه الاسبان بتنفيذ الجريمة التي هيكرها ، وهو القايد عبد السلام.

(33) نتذكر أن الفكرة كانت قد تبلورت بضعة سنوات من قبل على صعيد قاعدة الحسيمة لتصفية اما الأب عبد الكريم وإما الابن محند (انظر ما مر بنا في ص 243) . ومع أن الأمر كان يتعلق بمجرد مشروع ، فإنه أثار ردود فعل قوي ، وعلى مستوى عال ، من لدن الاسبان ، وترك بصمات على الوثائق . غير أن شيئا من هذا القبيل لم يحدث بعد وفاة القاضي . فإن عودته ومرضه لم يتم الاعلان عنهما تباعا إلا في 21 ثم 23 يوليوز وكانهما من الأمور العادية . وعندما أعلن سلفستري بعد ذلك عن خبر وفاته ، في سياق أحد تقاريره، فإنه أخبر برنكر بأن الوفاة حصلت في 9 (غشت) مساء سبب متاعب رحلته إلى تافرسيت " ، (تقرير سبق ذكره في الهامش 30) والمثير للانتباه أن ولده محند لم يذكر في "مذكرة لارينون" حتى فرضية عملية التسميم الاجرامية .

(34) "تلفرامة الريف " ، عدد 11 غشت 1920 .

35) نشرت هذه الرسالة في "التفريغ" كما لو كانت محررة في 15 شتبر 1920 . وهو خطأ واضح ، حيث إنها توجد في عدد 22 غشت . فبدلاً من هذا التاريخ ينبغي إذن أن نقرأ : 15 غشت . هذا وقد أعيد نشر الرسالة بتاريخها الخاطئ ويهدف جملة عامة من طرف :

F . Hernández Mir : Del desastre a la victoria (1921 - 1926) Madrid , 1926 , 1re partie , p. 18 .

36) التقرير الشهري الموجع من سلفستري إلى برنكر ، يوليوز 1920 :

S . H . M . , Cuartel General, 1920, dossier 28

37) رسالة سلفستري إلى برنكر ، 10 نونبر 1921 :

1 à 35 S . H . M . , Mel., II, 15 - 26 et 3

38) رسالة سلفستري إلى برنكر ، 29 ماي 1921 . نشرت هذه الرسالة من طرف فسكندي دي إيثا (Le Visconde de Eza) الذي كان في التاريخ المذكور زيرا للحرية ، وذلك في كتابه الذي نشره بعد سنتين تحت عنوان .

Mis responsabilidades en el desastre de Melilla como ministro de la guerra, Madrid, Gráficas Reunidas, 1923 - pp. 415 - 419 .

يمكننا أن نطمئن بخصوص أصالة هذه الوثيقة نظراً لأن ناشرها إيثا (Eza) شخصية موثوق بها ، وقد كانت تحال عليه بانتظام جميع مراسلات سلفستري ؛ هذا بالإضافة إلى ضمانات برنكر الذي رجعت إليه في الأصل ، والذي قام بالفعل بتحليلها وتقديم مقتطعات منها في كتابه السابق الذكر :

Campanías en el Rif ...

39) التقرير الشهري ، غشت 1920 ، الموجع من سلفستري إلى برنكر ، مصدر سبق ذكره في الهامش 31 ، 33.

40) المصدر نفسه . وكذلك التقرير الشهري ، شتبر 1920 ، الموجع من سلفستري إلى برنكر S . H . M . , Cuartel General, 1920, dossier 28.

41) التقرير الشهري ، الموجع من سلفستري إلى برنكر ، يوليوز 1920 :

S . H . M . , Mel., Cuartel General, 1920, dossier 28, et rapport d'août cité supra, n. 39.

42) التقرير الشهري ، من سلفستري إلى برنكر ، 11 أكتوبر 1920 .

S . H . M . , Mel., III, I - II.

43) المصدر نفسه ، وكذلك برقيتان موجهتان من الحسيمة (النكد) إلى مليلية ، بتاريخ 17 و 19 أكتوبر 1920 : S . H . M . , Mel . , 256, 2 - 10 et II

أخيراً ، التقرير الشهري من سلفستري إلى برنكر ، أكتوبر 1920 .

Cuartel General, dossier 28.

44) تقرير أكتوبر 1920 ، المذكور في الهامش السابق .

45) تقرير 11 أكتوبر المذكور في الهامش 41 .

46) التقرير الشهري الموجع من سلفستري إلى برنكر في يوليوز 1920 :

S . H . M . , Cuartel General, 1920, dossier 28 .

47) انظر ما تقدم في ص 139 - 140 .

48) التقرير الشهري الموجع من سلفستري إلى برنكر بتاريخ نونبر 1920 :

S . H . M . , Cuartel General, 1920, dossier 28 .

- (49) برقية من الحسيمة (الذكور) إلى مليية ، نوفمبر 1920 : S. H. M., Mel., 158.
- (50) General BERENGUER : Campañas en el Rif ..., op. cit. pp. 5 et 6 .
- (51) تقرير سلفستري إلى برنكر ، 26 يناير 1920 : S. H. M., III, I - 121 à 123.
- (52) General BERENGUER, Op. cit., p. 9
- (53) لم يورد برنكر سوى مقاطع من هذه الرسالة في كتابه السابق الذكر (ص 10 و 11) . وهو يوردها خطأ في 10 يناير . أما النص الأصلي الذي عثرنا عليه ضمن وثائق سلفستري الخاصة فيحمل تاريخ 21 :
- (S. H. M., Ponencia de Africa . Documentos personales del General Silvestre)
- ولي الشهادة التي سيدلي بها فيما بعد أمام " لجنة المسلمات " ، سيبين في غشت 1923 كيف قام برد الفعل ثلثانياً أمام الحالة الجديدة . فإنه كما يقول وضع نصب عينيه عند وصوله إلى المغرب غزو المنطقة الغربية التي كانت تبدو له هي الأكثر أهمية لأنها هي التي كانت مدعوة لتكون لها علاقات تولية في إفريقيا . لكن ، تجاه الحالة الجديدة الناجمة عن الانتصار الكبير الذي حققه سلفستري ، رأى من الممكن القيام بنصف "سلمي" نهر الحسيمة ، ذلك الزحف الذي لم يكن ليعرقل عملياته الخاصة ضد الريسوني :
- De Anual a la República : Documentos ..., op. cit., pp. 328 - 330 .
- (54) رسالة 21 يناير 1921 المذكورة في الهامش 53 .
- (55) تقرير سلفستري إلى برنكر ، جنبر 1920 . S. H. M., Cuartel General, 1920 , dossier 28
- (56) المصدر نفسه .
- (57) تقرير أده مورالس (Morales) رئيس المكتب المركزي " لقائدة سلفستري في 16 فبراير 1912 ، أورد هذه الوثيقة بنصها الكامل دي إزا (De EZA) في كتابه :
- Mis responsabilidades ..., op. cit. pp. 313 - 314 .
- وقد قام برنكر بتحليلها مع ذكر مقتطفات منها في كتابه : Campañas en el Rif ..., p. 15.
- هذا ونجد الفكرة المهيمنة في هذا التقرير في رسالة وجهها سلفستري إلى برنكر بعد بضعة أيام . فبعد أن أورد حديثاً لأحد " اصقفاء اسبانيا" الذي نصحه بوجوب ائزال القوات الاسبانية في جون الحسيمة ، كتب يقول : "أضاف الرجل ، وهذا ما أرفقه بنفسي ، أن الفرصة مواتية للزحف إلى الحسيمة بسبب البرس السائد في كل جهة ، وأنه لن يكون من المناسب ولا من السهولة الزحف بعد الحصاد " . رسالة 28 أبريل 1921 :
- S. H. M. , Ponencia de Africa, Documentos personales del General Silvestre, dossier I.
- إن هذه الفكرة المتمثلة في الفرصة الواجب اغتنامها قبل أن يضع الحصاد حدا للمجاعة ، قد مارست تأثيرها سواء على سلفستري أو برنكر .
- (58) رسالة برنكر ، 27 مارس 1921 ، إلى وزير الحربية بمدير ، أوردها :
- Mis responsabilidades ..., pp. 42 - 43
- وقد حللها برنكر مع ذكر مقاطع منها في كتابه :
- Campañas en el Rif ..., pp. 15 - 16.
- (59) تقرير شهري لجنبر 1920 المذكور في الهامش 55
- (60) "نعتقد أنه علينا إثارة الانتباه مرة أخرى ... إلى الموقف الغريب للسي محمد عبد الكريم الذي يؤكد البعض أنه يقول بلسانه إن بني رويغل يفضلون الموت على الاستسلام لاحتلالنا" : المصدر نفسه .
- (61) في تقرير إلى برنكر بتاريخ 26 يناير 1921 : (S. H. M., Mel. , III, I - 121 à 123) :
- يشير سلفستري إلى أن بني رويغل يحاولون الإقامة في تروكت . وفي 9 فبراير ، تشير رواية من الحسيمة (الذكور) إلى حضورهم

- القطي : (S . H . M., Mel., II, 2 - 198)
- 62) يوجد هذا المركز الأمامي في أزدور ايدرار جنوب شرق القامة : تقرير سلفستري إلى برنكر .
- 63) رواية من الحسيمة (النكد) بتاريخ 9 فبراير 1921) ، وقد سبق لكرها في الهامش 61 .
- 64) رواية من الحسيمة (النكد) بتاريخ 25 أبريل 1921 : 40 - 38 - 2 - 2 - S . H . M., Mel., II, 2 - 198
- 65) المصدر نفسه .
- 66) أزدقان ، مصدر سبق لكره ، ص 32 - 33 من المخطوط .
- 67) رواية 25 أبريل المذكورة في الهامش 64.
- 68) رواية 9 فبراير 1921 المذكورة في الهامشين 61 و 63 .
- 69) رواية 25 أبريل المذكورة في الهامشين 64 و 67 .
- 70) تشير مذكرة من "المكتب المركزي" بمليية بتاريخ فبراير 1921 (S . H . M., Mel., II, 2 - 36)
- إلى أن السي محمد لم يبق في حسابه في بنك اسبانيا سوى 8400 دور من وصيده البالغ 100000 دور وإلى أن المبالغ المسحورة استعملت من طرفه في حاجيات " الحركة" .
- 71) رواية من الحسيمة (النكد) بتاريخ 20 أبريل 1921 : 202 - 2 - S . H . M., Mel., II, 2 - 198
- 72) برقية من العقيد دافيللا (Davila) عند إدلائه بشهادته أمام "لجنة المسقيقات" ، بتاريخ 16 غشت 1923 :
- De Anual a la República : Documentos relacionados ..., p. 402.
- 73) برقية من سلفستري إلى برنكر ، 10 ماي 1921 :
- S . H . M., Comandancia de Melilla, dossier 278.
- 74) Campañas en el Rif ..., pp. 22 - 23
- 75) استطلاع "تفراغة الريف" 2 أبريل 1921 .
- 76) رسالة برنكر إلى وزير الدولة وإلى وزارة الحربية ، 17 أبريل 1921 . وكذلك :
- De EZA : Op . cit., pp. 259 - 264 ; BERENGUER : Op. cit. p. 23 ;
- في هذين المصدرين الآخرين ، لم يتم سوى تحليل الرسالة مع لكر بعض مقاطعها .
- 77) General BERENGUER : Op. cit., p. 21 .
- 78) أمر عام إلى جنده مليية ، 6 أبريل 1921 .
- S . H . M., Ponencia de Africa, Documentos personales del General Silvestre .
- 79) "تفراغة الريف" ، 7 و 8 أبريل 1921 .
- 80) التقرير المذكور في الهامش 76 .
- 81) General BERENGUER : Op. cit., pp. 16 - 17 .
- 82) أزدقان ، مصدر سبق لكره ، ص 28 - 29 من المخطوط .
- 83) برقية من المقيم العام برنكر ببادس ، إلى الجنرال سلفستري بمليية ، 7 أبريل 1921 .
- 84) أزدقان ، مصدر سبق لكره ، ص 28 - 29 من المخطوط .
- 85) برقية من برنكر إلى سلفستري ، 10 أبريل 1921 :
- S . H . M., Comandancia de Melilla, 1921, dossier 278 .

- (86) برقية من سلفستري إلى برنكر ، 13 أبريل 1921 ، نفس المصدر المذكور في الهامش 85 .
- (87) أزيقان ، مصدق سبق لكروه ص ، 28 - 29 من المخطوط . وكذلك برقية سلفستري إلى برنكر ، 27 أبريل 1921 :
S . H . M Comandancia de Melilla, 1921, dossier 278
- (88) برقية 27 أبريل المذكورة في الهامش السابق .
- (89) انظر ما تقدم في ص 323.
- (90) تقرير برنكر إلى وزير الدولة ، 17 أبريل 1921 ، المذكور في الهامش 85 .
- (91) رسالة سلفستري إلى برنكر التي تشرح برقية 27 أبريل المذكورة في الهامشين 87 و 88 . تم تحليل هذه الرسالة مع ذكر لبعض مقاطعها من طرف : . : 24 - 25 . Op . cit., BERENGUER
- يلذكر برنكر أن تاريخ هذه الرسالة يرجع إلى " نهاية أبريل " دون أن يحدد التاريخ بالضبط .
- (92) تقرير برنكر إلى وزير الدولة ، 17 أبريل ، المذكور في الهامش 76 .
- (93) تصريحات مخبر خاص ، بتاريخ 30 أبريل 1921 : (S . H . M., Mel., II, 2 - 23)
- وكذلك شهادة أزيقان : مصدر سبق لكروه ، ص 32 - 33 من المخطوط . يظهر من تصريحات أزيقان ، المبينة على الذاكرة ، أنه يرجع تاريخ الواقعة إلى 10 ماي ، على أن رواية 30 أبريل المحفوظ في الأرشيف الإسباني تجعلنا نرجع التاريخ إلى ما قبل نهاية أبريل .
- (94) رسالة سلفستري إلى برنكر ، 10 فبراير 1921 . . S . H . M ., Mel., II, 15 - 26
- (95) يحيل برنكر إلى هذه الرسالة في البرقية التي حذرنا حول الموضوع والموجهة إلى سلفستري بتاريخ 29 أبريل 1921 :
S . H . M., Comandancia de Melilla, 1921 , dossier 278 .
- (96) عند اعتقال السي محند في شتبر 1915 ، احتجزت لديه 276 رسالة يقول عنها تقرير التحقيق " لا أقل ولا أكثر : " إن جلها يتعلق بشراء الأراضي والمناجم وصفقات أخرى ولا يوجد فيها ما من شأنه إدانة المتهم " :
S . H . M., Mel., II , 12 - 32 à 38 .
- (97) رسالة محمد بن عبد الكريم (الابن الأصغر) إلى خواير ستراين (Julio Setuain)
- زوريانو (Zurbano) ، 10 مدريد ، 23 فبراير 1919 : S . H . M ., II, 8 78
- (98) نقرأ في برقية من الحسيمة (الذكور) أن السي محند ترسب بالفعل في شراء أراض لغائدة شركة من بلبار : " إلا أنه بالمقابل لم يتدخل مطلقا في المشتريات التي قام بها الألمان أو الفرنسيون " . والبرقية المذكورة غير مؤرخة ، لكن يظهر أن تاريخها يرجع إلى فترة اجراء التحقيق لما كان السي محند معتقلا :
- S . H . M., Mel., II, 2 - 138 .
- وما جاء في هذه البرقية يؤكد تقرير قاضي التحقيق المذكور في الهامش 96 ، ذلك التقرير الذي رود فيه أن كل المراسلات المحتجزة تقريبا كانت تتم مع شريكين من بلبار .
- (99) انظر ما جاء في ص 324 .
- (100) نشر كوت (GOT) بنفسه نص التقرير الذي وجهه عقب هذه المذاكرة إلى العقيد مورالس ، رئيس " المكتب المركزي " بمليبية ، وكذا الأمر فيما يتعلق بجواب هذا الأخير . وحيث أن هذا النشر لم يتم إلا في 3 نوفمبر 1921 (في صحيفة " EL Sol " أي بعد وفاة مورالس وسلفستري اللذين قتلوا معا في أنوال ، فإن هناك ما يدور إلى قيمة هاتين الوثيقتين . إلا أن البرقية التي وجهها سلفستري إلى برنكر في 27 أبريل 1921 تسمح لنا بالمصادقة على مضمونها . نقرأ في تلك البرقية : " أخير عبد الكريم عن طريق كوت أنه مستعد للخضوع شريطة أن يتفاوض مباشرة مع القائد العام سلفستري عن طريق كوت . وقد أجيب بأنه وقع الترحيب بتعاونه لكن ينتظر منه القيام بعمل فعلي " : البرقية المذكورة في الهامش 87 .

- 101) بوقاية من برنكر إلى سلفستري بتاريخ 29 أبريل 1921 :
- S . H . M., Mel. Comandancia de Melilla, 1921 , dossier 278 .
- 102) من سلفستري إلى برنكر ، 29 ماي 1921 ، المذكورة في الهامش 38 .
- 103) أنزقان : مصدر سبق ذكره ، ص 31 من المخطوط .
- 104) بوقاية من حاكم مليلية إلى المقيم العام برنكر ، 7 ماي 1921 :
- S . H . M ., MEL., Comandancia de Melilla, 1921, dossier 278.
- في الحقيقة أن هذه البرقية أُمليت من طرف الحاكم المساعد ، إذ أن سلفستري كان في هذا التاريخ في إجازة له بإسبانيا .
- 105) رسالة من سلفستري إلى برنكر ، 29 ماي 1921 ، المذكورة في الهامشين 37 و 101 يصف سلفستري المقاتلة التي يدلي بتقريره عنها على هذا النحو بأنها المقاتلة " الثانية " التي قد تكون جرت بين كرت والسي محند . بالنسبة لكرت ، فقد جرت بالفعل مقابلتان . لكن الشخص الذي تقابل معه في المرة الأولى هو محمد (الابن الأصفر)
- وليس السي محند . وحيث إن محمد (الابن الأصفر) كان الناطق باسم أخيه ، فإن سلفستري لم ير فائدة في التمييز بينهما
- 106) تم إلحاق نسخة من هذه الرسالة الثانية برسالة سلفستري إلى برنكر ، 29 ماي 1921 ، المذكورة في الهامش السابق .
- 107) رسالة 29 ماي 1921 المذكورة في الهامش السابق .
- 108) أنزقان : مصدر سبق ذكره ، ص 31 من المخطوط .
- 109) خاصة رويز ألبنيث (Ruiz Albeniz) الذي يدعي أن كرت هو الذي سلم سلفستري تحذيرا للسي محند بن عبد الكريم . تبني هذا الادعاء من جديد هرناندز هير وكارسيا فيكراس
- (HERNANDEZ HERRERA et GARCIA FIGUERAS).
- الذان يذكوران مصدرهما في :
- Accion de Espana en Marruecos, op. cit., pp. 313 - 314 .
- أما بالنسبة للويس أرتيطة (uis de OTEYZA) فإنه يرى أن التحذير سلم عن طريق كرت وأنزقان :
- (in Abdelkrim y los prisioneros, Madrid S. d)
- 110) انظر ما تقدم في ص 324 : « ليس لدي لحد الآن دليل قاطع ، وإنما في انتظار أن تدلني الوثائق إلى أي جانب سينبغي علي الانحياز إليه » .
- 111) بوقاية من برنكر إلى سلفستري ، 29 أبريل 1921 ، المذكورة في الهامش 101 .
- 112) رسالة سلفستري إلى برنكر ، 29 ماي 1921 ، المذكورة في الهامشين 38 و 102 .

خاتمة

في فجر فاتح يونيو 1921 ، لمح حراس "الحركة" من جبل القامة قوة معادية تستقر قبالتهم على بعد خمسة كيلومترات إلى الشرق ، على مرتفع أوبران ، وهو الشفعة التي لا يفصلهم عنها سوى مجرى جاف لأحد روافد أمقران .

بالفعل ، كانت كتيبة اسبانية مؤلفة من 1500 رجل قد انطلقت ليلا من أنوال . ثم بعد عبورها وادي أمقران صعدت منحدرًا خفيفًا عبر السفح المحجوب لهذه الشفعة حتى إلى هدفها الذي تراءت فيه مع تباشير الصباح . بعد أن أقامت في الحال سورا من الحجارة ، تعلوه أكياس من الرمل ، وتتقدمها أسلاك شائكة ، تمكنت قبل منتصف النهار من العودة تاركة في عين المكان 250 رجلا ، أغلبها مغاربة ، ولم يكن معهم من الاسبان سوى مؤطري ومستخدمي أربع قطع من المدفعية (1) .

كان سلفستري قد قدم من مليلية لحضور هذه العملية الرائعة ، التي أخذت "الحركة" على حين غر وجعلتها على مرمى من المدافع ، ثم ما لبث أن عاد أدراجه بعد أن زف خبر الانتصار لبرنكر بواسطة التلغراف . لكن عند عودته في المساء إلى مليلية ، وجد في انتظاره خبرا مستعجلا يعلن عن فقدان أوبران (2) .

كيف يفسر إذن الخبر الصاعق ؟

في الواقع أن المحاربين الريفيين أخذوا على عاتقهم مهمة الهجوم في غياب قائدهم السي محند الذي نزل إلى أجدير لينتظر هناك أزرقان سريا . وهكذا فقد توزع عددهم البالغ خمسمائة رجل إلى ثلاث مجموعات ، تمركزت اثنتان منها على المرتفعات ، غرب وشمال أوبران ، لكي تغطي بنيرانها المجموعة الثالثة التي ستشن الهجوم من الشرق . ثم أخذت هذه المجموعات مواقعها دون إثارة الانتباه ، ولم تهاجم إلا بعد الساعة الثالثة مساء حينما انسحبت معظم قوات العدو ولم تترك في مواجهتها سوى المدافعين الذي ظلوا في مواقعهم . بعد أن تعرض هؤلاء للنيران من جهة وللهجوم من جهة أخرى . لم يتمكنوا من كسر الموجة الأخيرة التي تدفقت عليهم رغم استعمالهم القذائف المتفجرة . عند الساعة الخامسة مساء ، كان قد قضى الأمر . فقد تمكن عشرون مدفعيا من الفرار مع خمسين من المرتزقة . أما الباقون - مائة وخمسون رجلا - وجميع الضباط - فقد قتلوا أو أصبحوا في عداد المفقودين (3) .

حاول برنكر التقليل من أهمية هذه الواقعة عندما استحضر ذكرها فيما بعد ، ناعثاً إياها بكونها مؤسفة ومؤلة ، كما أنه رأها مجرد حادثة عادية كذلك التي تعرفها كل الحروب الاستعمارية . مضيفاً بأنه علينا أن نحذر من اعتبارها ، كما هو الشأن عادة ، مقدمة للانهييار الكبير الذي سبقته بقليل (4) .

إن وجهة النظر هاته غير مقنعة نهائياً . صحيح أنه لم يكن بإمكان أحد أن يتكهن أثناء المعركة بما ستؤول إليه الأمور . لكن إذا تأملنا في سير الأحداث اللاحقة فلا يبقى مجال للشك في وجوب تحديد المنعطف انطلاقاً من تلك المعركة.

كانت اسبانيا حتى ذلك الحين هي التي تأخذ المبادرة الى الهجوم . ومع أن سلفستري وبرنكر كانا يشيران هنا وهناك إلى الخسائر التي تنجم عن الاصطدامات ، فإنهما لم يعودا يومئذ بوقوعها . أو على الأكثر ، كانا يعتبرانها تضحية طفيفة لقاء ثمن الانتصار الذي بدا في متناول أيديهما . أضف إلى هذا أن اسبانيا أصبحت تبدو في نظر القبائل قوة لا تقهر . هذا ما جعل ، في المؤخرة ، قبيلتي بني سعيد وبني أولشك تنسحبان وتذعنان للغزو . كان نفس السبب يمنع ، في المقدمة ، قبيلتي بني توزين وتمسمان ، وكذلك قبائل أخرى أبعد منهما ، من تقديم دعمها "لحركة" جبل القامة . غير أن هذا الوضع انقلب كله رأساً على عقب بضربة أوبران . فأن تتمكن "الحركة" بمقاتلين معدودين ، من التغلب على المدافع الاسبانية ، فذلك ما اعتبر في كل أنحاء الريف صيحة استيقاظ .

وهو ما تنبه إليه سلفستري الذي كان من قبل جد واثق من نفسه . لاحظ في 4

يونيو :

"إن هزيمة أوبران تعرقل في الوقت الراهن متابعة الخطة المقررة في اتجاه كيلاطيس [على أبواب الحسيمة] . إذ أن قبيلة بني توزين انضمت إلى قبيلة ورياغل ، وهي نتيجة أولى- كنت قد توقعتها - وهذا الامر سيؤدي أكيداً إلى ارتداد أفخاذ تمسمان التي تعتبر بمثابة حليفة لنا ، مع احتمال حدوث انعكاسات وسط بني أولشك . ينبغي أن نضيف إلى ذلك أن الفرصة لم تسنح بعد لاختبار... مقدار الثقة التي يجب أن نضعها في تصريحات قبيلة بني سعيد التي ما فتئت تعبر لنا عن انضمامها " (5) .

أما برنكر ، الذي سارع من تطوان للاطلاع على مستجدات الأحداث ، فقد شاطره رأيه ليستخلص أن "أي تحرك يستهدف عبور وادي أمقران ، في الوقت الذي عبأ العدو جنوده وأصبحت له معنويات مرتفعة ، سيكون ثمنه غالياً" (6) ومن التقرير

الذي وجهه يوم 8 إلى وزارة الدولة ، يستخلص كما صرح بنفسه أنه... تم تأجيل مشروع التقدم في الزحف إلى تسمان ونحو الحسيمة بشكل نهائي" (7) .

غير أنه ليس بكاف الاعتراف على هذا النحو يكون آثار هزيمة أوبران اقتصر على إيقاف الهجوم الاسباني . الحقيقة هي أن استراتيجية كلا من المعسكرين المتجابهين كانت أخذة في التغير ، بحيث إن مبادرة الهجوم سرعان ما ستأتي من الطرف الريطي .

ففيما لم يعد سلفستري يهتم سوى بتعزيز مواقعه المكتسبة ، مبديا فجأة قلقه على سلامة وحداته الخلفية ، كانت فورة من الهيجان تعم الريف . فقد توافدت بغفّة على المنطقة المستقلة وحدات قدمت حتى من قبائل الصفوف الخلفية حيث ألقى كل من حميدو وأخمليش بكل ثقلهما في المعركة بوصفهما قائدين روحيين (8) . وسرعان ما أصبح عدد أفراد "الحركة" يقدر بحوالي أربعة آلاف (9) . وفي موكب ضخم ، تم تصويب ثلاثة من مدافع غنيمة أوبران باتجاه النكور (10) . أضف إلى هذا أن القبائل التي تقع في جهة متطرفة إلى الجنوبية ، تلك التي كان تقدم سلفستري يهدد باكتساحها ، بعثت برسائلها إلى السي محند محيية إياه فيها بلقب "القائد الأول للمجاهدين الريطيين" جاء في إحداها : "كنا فقدنا الأمل في رؤية رجل يردع الاسبان ، ورغم ذلك فهام أبطال الاسلام قد أبانوا عن أنفسهم" (11) .

وتقول أخرى : "انتظروا لكي تقدموا إلينا إلى أن ندخل الحبوب" (12) . هذا وقد أجمعت كل هذه الرسائل على أن القبائل الجنوبية ستكون مع اخوانها الشماليين كلا لا يتجزأ بعد انتهاء الحصاد .

أما في المنطقة المحتلة ، فكانت تعليقات الناس تكاد تصل حد الهديان . ففي بني سعيد ، التي سبق لها أن رحبت بالغزاة منذ ستة أشهر ، أعرب السكان عن الفرحة الكبرى التي أحدثها فيهم المعركة . وقد لفتوا الانظار إلى أن هذه الناحية تقريبا هي التي مني فيها جيش الزرهوني بالهزيمة منذ ثلاث عشرة سنة خلت قبل أن يترد على أعقابها في فوضى عارمة إلى قواعد انطلاقه . كما توقعوا أن يلاقي الجيش الاسباني نفس المصير . لذا ، بادروا إلى الكتابة إلى السي محند ، راجين منه أن يكف عن توجيه ضرباته إلى أهالي بني سعيد الذين ضمهم العدو قسرا إلى صفوفهم إذ أنهم ينتظرون أول فرصة لينقلبوا ضده (13) .

إن هذه الموجة العامة من الفوران تجسدت بسرعة كبيرة في الميدان . فمنذ اليوم

التالي من معركتهم الأولى ، ظهر الظافرون في أوبران - أعلى الأصح فريق منهم - في السهل ، ثم بعد أن تعززوا بعناصر من تمسان ، اتجهوا من تلقاء أنفسهم نحو سيدي ادريس ، أحد مواقع سلفستري المتقدمة على مصب واد أمقران . وبالفطرة ، طبقوا ، هنالك للمرة الأولى خطة ستصبح القاعدة فيما بعد ، حيث كانوا يناوشون العدو طول النهار ولا يشرعون في الهجوم إلا عند حلول الليل . وقد تمكنوا من الوصول إلى هذا الموقع ثلاث مرات ؛ وعلى الرغم من نيران مدافع سفينة حربية كانت تقوم بعملياتها من عرض البحر ، فإنهم نجحوا في اقتحام الأسلاك الشائكة ، إلا أنهم توقفوا فجأة عن المعركة في الساعة الثالثة صباحا (14) .

ذلك أن محاربي بني ورياغل ، البعيدين عن ديارهم ، تعجلوا في الرحيل لقضاء الليلة التالية بين ذويهم ، ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان ، المقدسة عند هؤلاء المسلمين الأتقياء (15) . نرى إذن أن عملهم الجنوني لم يسفر عن أية نتيجة . إلا أنه كان مع ذلك مؤشرا على المنحنى المعكوس للوضع الجديد . فإذا كان الاسبان حتى الأمس القريب هم الذين كانوا يتقدمون داخل الأراضي الريفية للاستيلاء على أوبران ، فإن الريفيين هم الذين هرعوا الآن لتحديهم داخل مراكزهم .

تأكد المجري الجديد عندما تلاقت الحركة ثنائية بقائدها . فقد أنزل السي محند جنده من جبل القامة حتى بلغ ضفة واد أمقران ، بسيدي اسماعيل حيث توافدت جموع المجندين (16) . انطلاقا من هناك ، وبعد عبور الوادي ، استقر السي محند في مكان يدعى أمساوور ، على بعد خمسة كيلومترات ، جنوب غرب المعسكر الكبير ، المحصن ، الذي يمثله أنوال ، وهذا بالضبط أمام إغربين التي تشكل نقطة دفاع هذا المعسكر المتقدم (17) .

في 14 يونيو ، فوجئ الاسبان بجموع لا متناهية من المقاتلين تتقدم صفا بصف نحو قدم ربوة سيدي ابراهيم التي كانوا هم أيضا يرسلون إليها في أيام معينة حرسا لحماية الفرقة المكلفة بجلب الماء لتموين المدافعين عن إغربين . عندما تقدم الحرس في اليوم التالي لأخذ مواقعهم ، اعترض الخصم سبيلهم . ورغم ضراوة المعركة والدعم بالامدادات أجبر الحرس على التخلي عن مهمتهم ، ليس فحسب في ذلك اليوم وإنما بصفة نهائية لأن الريفيين الذين ظلوا سادة المكان تحصنوا هم أنفسهم بالمرتفع (18) . من هناك حكموا على إغربين بالاعتماد على معسكر أنوال في التزود بالماء على غرار اعتمادهم عليه في المؤن والعتاد . على أنهم أصبحوا يسيطرون أيضا ، انطلاقا من ربوة سيدي ابراهيم ، على الطريق المتعمق الذي تأتي عبره كل هذه التموينات . فلو

قطعوا هذا الطريق ، لأصبحت إغربين تحت رحمتهم ، كما أنهم لو استولوا على هذا الموقع على الرغم من مساعدات معسكر أنوال وتحت نيران مدافعه ، فإن ذلك يعني أن أنوال سيفغره بدون المد المتصاعد للانتفاضة العارمة للقبائل التي لم يتم إخضاعها من جهة ، وللثورة التي كانت من ورائه من جهة أخرى .

هكذا سارت الأمور بعد مرور شهر ، عندما انتهى الريفيون من تجميع وتنظيم وتدريب رجالهم وبعد أن أعيد ربط العلاقات بين القبائل الواقعة على هذا الجانب أو ذاك من الخطوط الإسبانية . نرى إذن أن غزو سيدي إبراهيم حمل في طياته سقوط إغربين وهزيمة أنوال . لكن هل يمكننا أن نتصور أن الريفيين كانوا قادرين على غزو سيدي إبراهيم لولا الانتصار الباهر الذي حققته " الحركة " في معركة أوبران ، عشرين يوما قبل ذلك ؟

لا يمكننا البتة أيضا أن نتصور ذلك لولا حنكة الرجل الذي كان على رأسهم . كتب السي محند ، فيما بعد ، أنه لم يقلد مهام القيادة العامة إلا عشية الهجوم على موقع اغربين ، في منتصف شهر يوليوز (19) . إن هذا يعني ببساطة ، إذا ما كانت ذاكرته قوية ، أن القبائل التي وصلت واحدة تلو الأخرى قصد الانضمام إلى المعركة اعترفت له كلها حينئذ بالسلطة التي مارسها قبل ذلك بصفة قانونية بين إخوانه بني ورياغل منذ بيعة القامة ، وبتلك التي مارسها ، بشكل فعلي ، في العمليات على طول الجبهة منذ الأيام الأولى التي تلت معركة أوبران . كيف يمكن الشك في هذه السلطة الفعلية ، والحال أن القبائل ، بما فيها البعيدة ، تخصصه بالكتابة وتلقبه تارة بـ " القائد " وأخرى بـ " القائد الأول " للجيش المجاهد في سبيل العقيدة "أو" للجيش الريفي " (20)

إن هذه السلطة ، سلطة رجل قادر على الأخذ بزمام المقاومة العامة ، هي التي عرفت بشحذها عزيمة المجاهدين ، كيف تقضي على ما كان يطبع العمل الحربي من مظاهر التقلب والارتجال ، تلك المظاهر التي يقدم لنا ما جرى في سيدي إدريس مثالا عنها . إنها هي التي تمكنت من العقول والقلوب ، متجنبة استعمال القوة ، لتضع فوق كل اعتبار ، وكعامل حاسم ، الوحدة داخل القبائل وفيما بينها ، وهذا حتى قبل مباشرة الحرب . إنها أيضا ، سلطة السي محند ، التي أشرفت على الاختيار العبقري لهدف مثل سيدي إبراهيم الذي كان نقطة حساسة في دفاع الخصم ومن حيث يمكن ، إن صح التعبير ، إمساك الثور الإسباني من قرنيه . وهي أخيرا ، كما سنبين في كتاب آخر ، السلطة التي عملت في خضم الفوضى التي سادت الريف بعد أنوال على إنشاء نظام جديد لمعارك جديدة . غير أنه كيف يعزب عن بالنا أن السلطة المذكورة كانت تبذل

قصارى جهودها ، وإلى غاية فاتح يونيو ، لا لتحضير الحرب التي كانت تعتبرها غير معقولة ، وإنما لتهنيء حالة وفاق أو حتى تحالف مع الغزاة ، وأن هدير معركة أوبران هو الذي قضى على هذا المشروع قضاء مبرما ؟

هكذا كانت أوبران ، بخلاف رأي برنكر ، هي التي أعطت في كل الريف نفسا جديدا للقوة الشعبية الهائلة بعد أن كان قد اعترها الفتور تدريجيا من جراء الانقسام ، والفوضى ، والفشل ، والخوف في آخر الأمر . وحيث إن أوبران هي التي قطعت خط الرجعة على محمد بن عبد الكريم ، الذي كانت القبائل في حاجة إليه من توحيد صفوفها وبلوغ غايتها المنشودة ، فقد اندلعت منها ومن يوم وقوعها بالذات هذه الحرب التي تعتبر أول حرب في التاريخ ضد هيمنة أوروبا المنتصرة ، تلك الحرب الشعبية ، الهجومية ، التي كادت تكون مظفرة : إنها حرب الريف التي بدأت من تلك المعركة ومن يوم وقوعها .

* * *

خصصنا لهذه الحرب المدهشة ، التي لا تتناسب على كل الأصعدة والعالم الريفي الصغير ، دراسة أخرى نحن بصدد إنجازها . أما الدراسة التي نختمها الآن ، والتي حاولت أن تظهر كيف أمكن للبنية العتيقة للتاريخ المغربي افران حدث جديد كل الجودة ، فستكون قد مكنتنا من إرساء القواعد التاريخية لما كانت تحوم حوله الأساطير إلى اليوم .

لقد نسجت هذه الأساطير ، كما رأينا ، منذ البداية . ثم تعددت فيما بعد ، وتنوعت تبعا للمنظور الذي وقع تبنيه وللالاتجاه الذي أريد إعطاؤه للقضية .

في البداية ظهرت أطروحة تفسر كل شيء بقلة الاسبان . وهي أطروحة يمكن قبولها على ضوء النجاح الفرنسي ، إلا أنها تنهار بالنظر إلى الجولة الموفقة التي قادها برنكر في الناحية ، والنجاح الكبير الذي أحرزه سلفستري نفسه حتى النكبة . وعلى أية حال ، فقد أُلقي بها في زاوية الاهمال - وهل هذا من قبيل الصدفة ؟ - عندما ذاق ليوطي بدوره ومع رجاله طعم الهزيمة .

ثم ظهرت أطروحة أخرى تتعلل بالتدخل الأجنبي . وقد حظيت هي الأخرى ببعض الترحيب بالاستناد إلى ذكرى المحاولات الألمانية - التركية خلال الحرب العالمية الأولى . لذا فقد تبناها الاسبان ، من جهتهم ، منذ هزائهم الأولى ، متهمين الألمان بتزويد الريفيين بالأسلحة والمدربين العسكريين⁽²¹⁾ للحيلولة دون تقدمهم نحو المراكز المعدنية .

على أننا نعرف حول هذه المسألة ما لا يتفق وهذا الزعم ، حيث سبق أن رأينا عن كُتُب كيف أخفق الألمان ، عندما كانوا حاضرين بالفعل ، في جر الريفين إلى ولوج مسالك غير ريفية .

أما بالنسبة لروبر مونطاني ، فقد أقر بأن القبائل هي التي كانت تتصف بذاتيتها بتلك " القوة المريعة " التي تعثر بها الاسبان والفرنسيون ، لكنه ما لبث أن رأى في ذلك مجرد أثر لحلم " السبية " القديم الذي كانت تلك القبائل تبحث في خضمه عن علاج لمعضلاتها (22) إننا نعرف أطروحة مونطاني ، وقد سبق أن رأينا ما يمكن قوله بصدها .

في الحقيقة أن هذه الأطروحة ، وبالنظر إلى ما يلاحظ فيها من اصرار على رفض الحقيقة ، تعد أقرب إلى التدجيل منها إلى الأسطورة ، شأنها في ذلك شأن الأطروحتين السابقتين . ويخالف ذلك ، راجت أسطورة حقيقية في الريف متلائمة مع عقلية بسيطة تحاول استجلاء حقيقة الأمور في خضم وضع معقد لا تستطيع ربط خيوطه ، الرمز المجسد لكل الأحداث . إن معظم الفرنسيين اعتقدوا ، فيما مضى ، أن ضربة المروحة وقبعة الأب بوجو (Bugeaud) تسببتا أو مثلتا كل ما يتعلق بغزو الجزائر . وبالمثل ، فإن كل شيء بالنسبة للريفين بدأ بمشجرة السي محند مع الاسبان عند اقامتهم بينهم . تظهره رواية معلما بمليلية وقد قذف بمحبرته على المدير . وتجعل منه أخرى ملازما أولا في الجيش الاسباني بملقا ، وقد صفع رئيسه لشمته إياه . أخيرا ، هناك رواية ثالثة - وهي ليست بالأخيرة - يستفاد منها أن سلفستري هو الذي قام بالعكس بلطمه (23) .

بيد أن الأمر لا يتعلق هنا سوى بالأساطير الأولى ، تلك التي ترجع إلى عصر لم يكن فيه أي شخص يجد غضاضة في كون السي محند عاش بمليلية . فكثيرون هم الذين مثله يحاربون الاسبان بعزيمة صادقة بعد أن قدموا لهم في السابق خدمات جمة . لكن هذه الذهنية أصبحت مع مرور السنين غير مستساغة . ذلك أنه لما استقل المغرب ، أصبح كل واحد يتوهم أن جميع القلوب كانت فيما مضى ، وهي تتأجج بلهب الوطنية ، لا تقبل أي مكان آخر لملاقاة العدو باستثناء ميدان المعركة فماذا يقال إذن عن سبب توجه السي محند إلى مليلية وهو الرجل الذي بحق أول المناضلين الذين تحدا الامبريالية ؟ للجواب على هذا السؤال ، ظهرت ميتولوجيا جديدة ، روجها فيما بعد كل من أحمد البوعياشي ومحمد سلام أمزيان (24) . يفيدنا هذان المؤلفان أن

القاضي عبد الكريم وولده محمد لم يعاشرا الاسبان إلا ذكاء وتيقظا منهما وقصد الاستكشاف عن نواياهم والتمرس بفنون المعركة التي سيعملان على قلبها ضدهم حينما يحين الوقت لذلك . أما في الريف ، فقد كان القاضي عبد الكريم يعمل بالعكس على استتباب السلم بين القبائل ووضع حد لصراعاتها الداخلية . وبخصوص ولده امحمد ، ذلك النابغة الذي يروي عن ظهر قلب 16 000 بيت ، فإنه انهمك بنفسه في سن السادسة من عمره في حفر الخنادق تحسبا للخطر الذي ستشكله اسبانيا على بلده . وفي سن السادسة عشر ، وبخ بشدة باشا تطوان الذي يساعد على التقدم الأوربي بخدمة الملك عبد العزيز عدم الأهلية . كذلك ، فإنه لما أقام بمليبية فيما بعد ، جلب المتاعب مستضيفيه الاسبان . فقد استفز ذات يوم الشاب سلفستري . - وهو خصمه في المستقبل - الذي لا ندرى أية صدفه جعلته يحضر هناك منذ ذلك الحين ، كما أنه وقد دخل ذات يوم مع والده إلى مكتب مارينا (Marina) رفض مصافحة يد الجنرال الممدودة إليه ، فصاح هذا الأخير متعجبا من شدة جرأته : " إنه لولد سيتحدى السماء " (25) .

إن اللانحة بمثل الصور المثالية طويلة . لكن ما قدمناه يكفي ليظهر ما تتسم به الروايات الشفوية من جنوح إلى الخيال ، الأمر الذي يفرض على المؤرخ ضرورة الفوص بنفسه إلى مستوى الأحداث لسبر أغوارها ، مكيفا على ضوء تعمقه فيها . ان الحقيقة التي تنبني على هذا الأساس معقدة ، كما أنها مخالفة بالطبع من جميع الوجوه لتلك الصور المثالية . لقد كان القاضي عبد الكريم وولده عميلين مخلصين للقضية الاسبانية . وإلى عشية اندلاع الحرب الريفية ، لم يكن هناك أحد أكثر فعالية ووعيا منهما فيما بذلاه لعرقلة جهود المقاومين . وبحصر حديثنا عن محمد ، لأنه هو الذي سيبقى وحده على مسرح الأحداث ، علينا أن نلاحظ ، مهما بدت هذه الملاحظة غريبة لمعاصرينا ، أنه لم يحدد خياره إلا بأخذه مصلحة بلاده بعين الاعتبار . لقد كان وطنيا ، ولم تكن وطنيته مصطبغة بتلك الألوان الصببانية التي أضفتها عليها الروايات المذكورة آنفا . لم تكن كذلك من الصنف الذي يحلو للبعض تسميته بـ "الوطنية البدائية" . أجل ، انها لم تكن بدائية ، بل توشحت بمفاهيم حديثة بشكل يثير الدهشة ، كمفهوم الوطن ، وحرية التفكير ، والديموقراطية ، تلك المفاهيم التي يمكن أن يقبض عليها أولئك الذين سمو أنفسهم فيما بعد بـ "وطنيين" . لقد كان الشعور هو الذي أفرز فيه النظرية .

لكن اتفق أن النظرية انطوت على مواطن القوة والضعف . أما القوة ، فتتمثل في ارادة الاستقلال التي غرست جذورها في اعماق شعب بكامله عبر العصور ، والتي لم

تكن هذه النظرية سوى الجانب المعبر عنها . أما الضعف ، فيتمثل في تلك النخبة التي كانت ما تزال لا تومن بالقوة الكامنة في الإرادة الشعبية ، وتقف بالعكس موقف الانبهار بالقوة الأوروبية . من ثم لجوؤها المتهود إلى المساعدة الملقومة التي كان بإمكان أوروبا وحدها تقديمها . كان على عبد الكريم أن يتمرس طويلا بالقوة الشعبية ليقنع بأن لا قبل له . حتى من أجل مصلحتها وحدها ، بارغامها ، أو باستخدامها ، وأن عليه بالتالي أن يكرس نفسه لخدمتها . أما وقد اقتنع ، فإنه سيمضي فجأة بخطى كبيرة قدما نحو المثل الأعلى الذي لم يعمل حتى ذلك الحين سوى على ملامسته من بعيد .

ذلك ما يدعو التأمل فيما يقال عادة عن الرفض التلقائي الذي كانت القطاعات العريضة من السكان تقابل به المستعمرين . لقد قيل إنه بدائي ، مكتوب عليه الفشل ما لم يتهيا ذلك اللقاح من الافكار الحديثة الذي تفرزه هنا وهناك أدمغة ممتازة لتلقيح واخصاب هذه الثمرة التي تسمى أخيرا بـ "الوطنية" . ألا يدفعنا مثال محمد بن عبد الكريم إلى قلب حدود المعادلة ، أو على الأقل إلى موازنتها ، وقد لاحظنا بطلان أفكاره رغم حداثتها ، وهذا قبل أن يفرض كفاح الريفيين نفسه عليه ويجسد تلك الأفكار في الواقع ؟

كذلك فإن مثاله من أحسن الأمثلة لمقاربة المكانة التي يحتلها كل من الزعيم والجماهير في أوقات طفرات التحول التي تطبع تقدم التاريخ . إذ حتى قبل كتابنا الآخر المخصص لوقائع حرب الريف ، فإننا لن نجد من يعارضنا إذا قلنا ان هذه الحرب ماكان لها بدونه لتعرف ما عرفت من أبعاد . لكن كيف ننسى بالمقابل - وهذا على الأقل ما تم ابرازه - أنها لم تكن لتقع لو كانت رهنا بمشيتته وحدها ؟ لقد كان ساعة اندلاعها يتفاوض مع الاسبان ، وفي الخفاء . كيف لا نطرح السؤال : هل كان بالامكان أن تنطلق معركة أوبران ، التي فجرت الحرب الريفية ، لو أنه كان حاضرا في "الحركة" يوم فاتح يونيو ؟

على أية حال فإن المواجهة التي انتصب فيها الريفيون ضد الاسبان ثم ضد الفرنسيين ، لم تكن من صنع رجل ، مهما كان قوي الشخصية ، ومهما كان طموحا أو وطنيا متحمسا ، كذاك الذي يراد تصويره بهذا الشكل أو ذاك . لقد نجمت مباشرة عن الإرادة العنيدة للجماهير الريفية رغم حاجز النخبة التي كان محمد بن عبد الكريم بالذات ، مع والده ، الوجهين البارزين فيها لمدة طويلة . لكن هؤلاء الريفيين ليسوا مجرد ريفيين . انهم مغاربة قبل كل شيء . ولقد أظهرنا أنه فيما وراء حدود الرقعة التي انتفضوا من أجل الدفاع عنها ، كان هنالك شعب جعل منهم قوما

مسلمين أبد الأبدن ، كما كانت هنالك بلاد تولوا منذ الأزل مهمة الدفاع عن شواطئها ضد غزو المسيحيين . على عكس المظاهر إذن ، فإن الحرب التي أقدم عليها الريفيون وحدهم لم تكن قضية محلية أو إقليمية ، بل كانت حدثا وطنيا من مستوى عال ، لأن أصولها ترجع في آخر الأمر إلى الإرادة الكامنة لشعب بكامله .

على أن هذا لا يقلل البتة من دور محمد بن عبد الكريم الذي اقترن اسمه بماحدث فيما بعد ، ولو أنه يستعيد من هذا المنظور صورته البشرية ليحتل مكانته بين هؤلاء الأفراد الأدميين الذين أثروا في تاريخ عصرهم ، بعد أن كان اعجاب الشعوب وغضب الناشرين الأوروبيين قد جعلاً منه صانع المعجزات . لقد أثر في مجرى الأحداث من أولها إلى آخرها . صحيح أن تأثيره فيه سار بالتناوب في اتجاهات مختلفة أو معاكسة بشكل صريح ، إلى حد أنه عوّق تقدمه لمدة طويلة قبل أن يساعد عليه . صحيح أن هذا المجرى تكون ونشأ بدونه ، وأنه (محمداً) كاد يتحطم بمحاولة الوقوف في وجهه . لكن يبقى مع ذلك أنه عندما صحح موقفه ، أخذ يعمل في البدء على مسايرته قبل أن يستسلم له . وعندئذ ، وقد انجذب في اتجاه تياره الذي أدرك قوته واتجاهه ، تسارع بكل قوته ليعبد له الطريق . هنا تكمن عبقريته .

قد يود الكثيرون دون شك لو أن المؤرخ وجه اهتمامه مباشرة إلى هذه المرحلة من حياته . لكن هذا سيكون على حساب الجماهير في القبائل الذين ما فتنوا يعودون إلى الظهور بدون ملل على مسرح الأحداث طيلة نصف قرن ، لكن لا يحتجوا عنه قط منذ عهد أمزيان . وفوق ذلك ، فإن مسار محمد بن عبد الكريم هو مسار عدد كبير من المغاربة من أبناء جيله ممن كانوا وطنيين متحمسين ، إلا أنهم استسلموا لحلول اليأس لمعرفتهم بالأوضاع الدولية وبالمصير المحتوم الذي ينتظر بلادهم . فمثال محمد بن عبد الكريم إذن يساعدنا على تسليط الأضواء على عصر بكامله ، على فهمه ، وتقييمه بكيفية منصفة .

والحقيقة أنه هو المستفيد من هذا التقييم المجرد عن الأهواء . إذ لا يوجد ما هو أنسب لحجب شهرته من الصمت المخيم على ماضيه أو من ترهات سلام أمزيان أو أحمد البوعياشي .

أخيرا من ذا الذي يمكنه أن يؤكد أنه كان في مقدوره الاطلاع بالدور الذي صنع مجده ، دون سنوات التمرن التي جعلته يقف على مواطن القوة والضعف في كلا المعسكرين ، الاسباني والريفي ؟ من بإمكانه القول إنه يمكن الحصول على الفراشة بدون وجود الفيلجة ؟

مهما يكن ، فان مهمة التاريخ هي تسليط الأضواء . لقد وُجدت الفيلجة ، ولا
منبوحة للعالم الطبيعي ، هو المؤرخ أيضا ، من معاينتها قبل التوصل إلى الصورة
النهائية للفراشة .

الهوامش

(1) تقرير الجنرال De Anual a la República ; 1ère partie : El Expediente Picasso, Madrid, 1931, pp. 314-320

(2) شهادة العقيد دافيلا أمام لجنة التحقيق ، 16 غشت 1923 :

De Anual...Comisión de responsabilidades...; op.cit,pp. 397-398 .

(3) برقية من سلفستري إلى برنكر ، وهي غير مؤرخة ولكنها توجد ملحقة ببرقية أخرى تحمل تاريخ 2 يونيو :
Comandancia de : S.H.M., Mel., 1921, dossier 278 .

(4) Campañas en el Rif...op. cit., p. 34

(5) برقية من سلفستري إلى برنكر ، 4 يونيو 1921, dossier 278. S. H. M., Com. de Melilla,

(6) Campañas en el Rif...op. cit. p. 39

(7) المصدر نفسه ص 42

(8) برقية من الحسيمة (النكور) إلى مليلية ، 8 يونيو 1921 . سلم هذه الوثيقة العقيد ركملي إلى اللجنة البرلمانية المكلفة بالتحقيق . وقد جاءت في

S. H. M., Com. de Melilla : dossier 278

(9) برقية من حاكم دار دريوس إلى مليلية ، 15 يونيو 1921 . سلمها ركملي إلى اللجنة البرلمانية . نفس المصدر الوارد في الهامش 8 .

(10) برقية 8 يونيو 1921 ، المذكورة في الهامش 8 .

(11) رسالة غير مؤرخة ، لكنها مرسلة قبل 15 يونيو من بني ورغاييل إلى السي محند ، وقد وقعت بيد الاسبان في فاتح يوايز S.H.M., Mel.,II,2,119

(12) رسالة من بني بوياحي إلى السي محند بتاريخ 3 شوال 1339 /10 يونيو 1921 ، وقد وقعت هي الأخرى بيد الاسبان : S. H. M, Mel., II, 2, 120 ..

(13) رواية أحمد حدو علي من بني سعيد ، أدلى بها في 4 يونيو 1921. وهي وثيقة قدمها ركملي أمام لجنة المسؤولين : De Anual..., op. cit., p 228

(14) تقرير تلغرافي من سلفستري إلى برنكر، 3 يونيو 1921 :

S. H. M. Comandancia de Melilla, 1921, dossier 278 .

(15) شهادة شعيب أفلاح ، التقطت لفائدة المؤلف في جينبر 1973 من طرف يوسف السويقي .

(16) ازرقان : الظل مصدر سبق ذكره ، ص 37 - 38 من المخطوط .

(17) البرقية المذكورة في الهامش 9 .

(18) تقرير بيكاسو :

[op, cit . pp.] De Annual ... op. cit. pp. 320 - 322 et Campañas en el Rif 46 - 47 .

(19) مذكرة لارينيون ، مركز إغريين .

(20) الرسائلتان المذكورتان في الهامشين 11 ، 12

(21) "El Diario Universal " et "El Tiempo" cités par "Le temps"

(22) Les Berbères et le Makhzen op., cit, p. 416

(23) سجل المؤلف بنفسه هذه الروايات .

(24) ورد كتابا هذين المؤلفين في البليوграфия

(25) أمزيان : عبد الكريم ... (انظر البليوграфия) .

المصادر

I- المصادر المغربية

1- ريباند تطوان (تطوان) : وهي وثائق دار النيابة ، تلك المؤسسة التي أسسها السلاطين بطنجة وتتضمن حوالي 15 000 وثيقة محفوظة في 161 محفظة . وقد راجعنا على الخصوص المحافظ التالية :

- من 1 إلى 30 : هذه المحافظ تضم الرسائل الموجهة من طرف السلاطين المتعاقبين إلى دار النيابة ، منذ السنوات الأخيرة للمولى الحسن ، وتحتوي أيضا على الرسائل الواردة من وزرائهم ، وعلى الخصوص أحمد بن موسى (با حماد) .

- من 36 إلى 55 : تهتم بعلاقات المغرب مع اسبانيا ، فرنسا ، انجلترا ، ألمانيا .

2- المجموعة الكتانية بالرباط (الكتانية) : تضم حوالي 5 000 وثيقة واردة من جهات متنوعة وقد اطلعنا عليها كلها لأننا أشرفنا شخصا على فهرستها .

3- مستودع القصر الملكي بالرباط (مستودع ب) : هذا المستودع الضخم يوجد حاليا قيد الفهرسة . لم نستطع القيام بأبحاث منهجية وافية . والوثائق الواردة في عملنا هذا لا تحمل أرقاما . اكتفينا بنقلها أو أخذ صور فوتوغرافية عنها .

4- مجموعتنا الشخصية : تتكون من وثائق أصيلة أو نسخ فوتوغرافية ، عثرنا عليها ضمن مجموعات خاصة . توجد ، في المغرب ، مستندات كثيرة للدولة في حوزة الخواص ، وهي تعود إلى ما قبل 1912 .

5- المجموعة الصبحية بسلا . وهي غزيرة المادة ، بيد أنها توجد حاليا قيد الفهرسة ، الشئ الذي تعذر معه القيام بفحص شامل لها .

6- وضمن هذا النوع من المصادر ، تندرج مجموعات وثنائية كثيرة مطبوعة ، غير أنها ما زالت لم تستغل بعد ، وهي :

- نهليل ، محمد ، "الرسائل الشريفة" ، باريس ، 1915 . ينطوي هذا المؤلف على 128 رسالة صادرة عن سلاطين القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وهي على شكل صور فوتوغرافية .

- "الوثائق" ، مجموعات وثائقية دورية ، تتولى نشرها مديرية الوثائق الملكية ، استنادا إلى وثائق "المستودع ب" . صدرت الأجزاء الأربعة بالرباط . 1976 - 1978 ؛ جل نصوص ووثائقها مطبوعة ، وبعضها معززة بصور فوتوغرافية لأصولها .

- ابن زيدان ، عبد الرحمن ، "اتحاف أعلام الناس ، بجمال أخبار حاضرة مكناس" ، 5 أجزاء ، الرباط ، 1929 - 1933 . وهذا القاموس الجيولوجيا يندرج ضمن المؤلفات التاريخية المغربية المهتمة بالتراجم وسيرة سلاطين الدولة العلوية سيما في القرن التاسع عشر ، مشحونة بمئات الوثائق التي هي في حوزة المؤلف ، وهي عبارة عن رسائل سلطانية .

- لنفس المؤلف "العز والصولة" . جزآن ، الرباط ، 1961 و 1962 ، اتبع نفس المنهج المستند إلى الوثائق .

- داود ، محمد ، "تاريخ تطوان" ، صدرت المجلدات الستة الأولى بتطوان ، بين عامي 1959 و 1966 . ونشر قسمان من المجلد السابع بتطوان ، الأول عام 1975 ، والثاني سنة 1976 . وتم نشر المجلد الثامن بالرباط سنة 1979 ، تحت إشراف المطبعة الملكية .

- اعتمدنا ، في الأخير على المقالات التي نشرها محمد بن عبد الكريم ، في "تلغراف الريف" بالعربية ، في الفترة الممتدة من 1907 إلى 1915 ، وهي تعد ، في هذا الصدد ، المصدر الوحيد الموثوق به .

II- المصادر الإسبانية

أتاحت لنا فقط فرصة الاطلاع على أرشيف القسم التاريخي العسكري Ser-vicio Histórico Militar بمديرية والعمل في هذا المستودع وحده ، لأن وثائق وزارتي الدولة والحرب - اللتين وجهتا اهتماما خاصا بشؤون المغرب - بقيت حبيسة ، بيد أن الصعوبات التي اعترضت البحث تم تذليلها ، لأنه توجد ، في القسم التاريخي العسكري ، ربائد قيادة ميليلية العسكرية Comandancia de Melilla والقيادة العامة Cuartel General بتطوان ، وهي تضم ، على الخصوص ، المراسلات المتبادلة بين وزارتي الدولة والحرب ، بالإضافة إلى الوثائق المحلية .

ولازالت المجموعات الوثائقية التي تهتم بحثنا قيد الفهرسة : فالمحافظ الثلاث الأولى (Legajos , I , II , III) التي تحمل عنوان "ميليلية" ، خصصت ، وبشكل واف

للمنطقة التابعة "المكتب Oficina" المكلف بالنشاط السياسي ، انطلاقا من جزيرة النكور وهي مرتبة على امتداد عشرين عاما ، وتغطي الفترة الواقعة بين 1902 و 1921 . توجد فيها ، وبصورة كثيفة بين عامي 1914 و 1919 ، وثائق تحتوي على معلومات على مستوى الأحداث . فهي تنطوي على مراسلات متبادلة ، يوميا ، أحيانا ، مع " المكتب المركزي " بملييلية ، وعلى محاضرات الاجتماعات ، في القبائل ، مع رؤساء "الحزب الاسباني" أو على الكتابات الواردة من هؤلاء . ونرى ، في هذا السياق ، أن الأمر يتعلق ، هنا ، بكل من الوثائق الريفية والإسبانية . وقد تم جمعها دون فهرستها في ملفات صغيرة ، إلا أنها ولحسن الحظ ، مرقمة ، صفحة بصفحة ، بطريقة تجعلها ، على الأقل ، في شكل سلسلة .

وتحت عنوان ، " القيادة العسكرية لملييلية " "Comandancia de Melilla" صنف الوثائق في ملفات مؤرخة ، تناولت مجالا معينا لرصد مجموع العمل المنجز في المنطقة العسكرية . وإن الملفين اللذين انتقينا منهما المعلومات الواردة هما : ملف رقم 256 بالنسبة لسنة 1920 ، وملف رقم 278 لعام 1921 .

ويجب تسجيل نفس الملاحظة فيما يخص هذين الملفين ، حول الطابع المزيج - إلى حد ما - لمحتواهما الريفي والاسباني . ورغم ذلك ، فإن الوثائق قد جمعت فيهما بطريقة عشوائية للغاية ، وبدون أرقام متسلسلة ، لذلك فإن المرجع يجب أن ينحصر في الإشارة إلى الملف فقط .

وتشتمل مستندات "القيادة العامة" "Cuartel General" على ملفات مصنفة حسب السنوات ، وأخرى حسب مدة طويلة نوعا ما ، ففي الصنف الثاني ، هناك المحفظة رقم 2 لسلسلة 1908 - 1926 ، التي كانت تستجيب لموضوع أبحاثنا . أما فيما يخص الصنف الأول فإن المحفظة رقم 28 لسنة 1920 مشتملة على التقارير الإجمالية ، الشهرية أو النصف الشهرية ، الموجهة من طرف قائد ملييلية إلى القائد العام ، وحيث إن هذه التقارير تعود إلى نفس المصدر والجهة ، فإن تاريخها يكفي كمرجع بعد الإشارة إلى الملف .

وتحت عنوان "Ponencia de Africa" ، عثرنا على الأوراق الشخصية لسلفستري

(Documentos personales del General Fernández Silvestre)

التي تغطي فترة قيادته بملييلية (فبراير 1920 - يوليو 1921) . وتحتوي ،

بالإضافة إلى المستندات الإدارية ، على وثائق تحمل إشارة "شخصي ومحفوظ به" وأخيرا ، فإن بعض المستندات التي وقفنا عليها ، نشرها سنة 1923 الجنرال برنكر Berenguer والوزير دي إيثا De Eza . كان الأول رئيسا للقوات الاسبانية ، ومقيما عاما لاسبانيا بالمغرب ، والثاني بصفته وزير الدولة . وقد بدا أن تحليلها الصحيح لن يتم إلا على الوثائق الأخرى التي قمنا بفحصها .

III- المصادر الفرنسية

هذه المصادر مفيدة لتقويم المطامع الفرنسية في منطقة النفوذ الاسباني ، لكنها لا تمدنا بالمعلومات الكافية عن الفترة التي تهمنا للامسة الوضع بالمنطقة ورصد الأحداث ومؤثراتها ، وهذا راجع ، أولا ، إلى كون الفرنسيين لم يلتقطوا المعلومات بدقة لمراقبة ما يجري فيها بعيدا عن حدودهم . ثم إن المعلومات التي يرسلها ليوطي إلى باريس لا تخلو من اضطراب ومبالغة عمدا ، ليثبت التهديد الألماني ، ويوجه تهمة التواطؤ إلى السلطات الاسبانية .

ووقفنا ، في القسم التاريخي للجيش Service Historique de l'Armée بفانسين Vincennes ، على مايلي :

Série E : Carton 12 bis : Evénements de la zone espagnole . Raissouni . Abdelmalek . Agissements allemands. Complicité des autorités espagnoles (1915 - 1921)

Carton 19 : Apparition d'Abdelkrim

Carton 21 : Notice sur le Rif

Carton 30 : Au Maroc de juillet 1914 à décembre 1921 (Cap. Tarrit) .

Série EM.

Carton 2 : Documents communiqués par le service des Renseignements (1902 - 1912) .

Carton 7 : Notices sur différentes tribus (1912) .

Carton 10 : Front nord, 1912 - 1924 . Action contre Abdelmalek, 1917- 1918 . Relations avec les Espagnols .

Carton 52 : Abdelmalek, 1915 - 1916 .

Carton 68 : Abdelmalek, 1917.

Carton 123 : Renseignements sur les tribus .

Carton 156 : Etudes historiques .

وفي وزارة الخارجية بباريس ، استطعنا الاطلاع على الملفات الأساسية لسلسلة

م ، ومحفظتين تحت رقمي 10 و 11 ، تتعلقان بمنطقة الحماية الاسبانية . وهذه الوثائق نفسها محفوظة بفانصين . وعثرنا ، بالرباط ، على ما بقي من وثائق الحماية الفرنسية ، لم يتم نقلها بعيد إعلان الاستقلال ، وهي توجد بقسم الوثائق في المكتبة العامة بالرباط ، ولا تحمل ، لسوء الحظ ، أرقاما . مع ذلك ، توجد فيها السلسلة الكاملة "للتقرير الشهري للحماية " ، " Rapport mensuel du Protectorat " ، ونستطيع أن ندرجه ، بحق ، ضمن المصادر . فعلا ، إن هذه النشرة - رغم أنها مطبوعة - بقيت سرية حيث إنها كانت متداولة بين ثلة من رجال السلطة السامين . وكانت تعطي صورة شاملة للحالة الداخلية في المغرب خلال الشهر ، كما تبين لدى الدوائر العليا ، أو تتدخل هذه الدوائر لتصنعها كما تريد أن تكون . وفي كلا الحالتين ، فإن هذه النشرة تحتفظ بقيمتها كوثيقة .

IV - المصادر الإنجليزية

إن وثائق Foreign Office (F . O) في Public Record Office بلندن ، زاخرة بمادة غزيرة عن حرب الريف بعد اندلاعها ، إلا أنها لا تمدنا ، عن الفترة التي تهمننا ، إلا بمعلومات قليلة ، ولكنها ثمينة فيما يخص الجانب الدولي للمشكلة . وبالنسبة لهذه الفترة ، فقد قمنا بفحص السلسلتين 450 / 403 و 451 / 403 .

الشهادات المكتوبة

1- في جزيرة لارينينون ، قبل 1929 ، كتب محمد بن عبد الكريم "مذكرات لارينينون " كما نسميها نحن والمعروفة أيضا بمخطوط سانيس Manuscrit Sagnes ، على اسم الضابط الترجمان الذي رافقه في منفاه ، كما تدل على ذلك الإشارة الوجيهة التي عثر عليها فيه ، إننا نجهل كيف وصل هذا المخطوط إلى يد مالكة الحالي ، بل لم نعلم - نحن أيضا - بوجوده إلا من خلال الترجمة التي قام بها المرحوم التهامي الزموري لهاذا المخطوط من العربية إلى الفرنسية . فكفاءة المترجم التي لا يشوبها شك تضمن لنا مطابقة النص الفرنسي للنص العربي ، عدا بعض الأخطاء الناتجة عن جهله للإطار التاريخي ، والتي يسهل ضبطها وتصحيحها حالما نلم بهذا الإطار . أما فيما يخص صحة مضمون الوثيقة ، فإنها تبدو مؤكدة . صحيح أن الأخطاء الناتجة عن عدم الدقة متعددة فيها . لكنها ترجع إما إلى خيانة الذاكرة التي لا يمكن تفاديها ، أو إلى أفكار جاهزة . إلا أن الوثيقة تحمل ، على العكس من ذلك ، في ثناياها عدة حقائق تجهلها العامة ، بيد أنها تطابق معطيات الوثائق ، كما تنطوي على مجموعة مصطلحات

محلية أو معاصرة لتلك الفترة ، بحيث لم يتمكن أحد سوى السي محمد بن عبد الكريم من ذكرها أو استعمالها . إن هذه الوثيقة ، بصفحاتها الستين ، المضروبة على الآلة الكاتبة ، أعطتنا ، على الخصوص ، قاعدة ننطلق منها لتحليل قادتنا إليه وثائق الأرشيف .

2- "مذكرات محمد أزرقان" . كان أزرقان مكلفا بالشؤون الخارجية في الحكومة الريفية . وأثناء الإقامة الإجبارية التي فرضت عليه بعد الحرب ، روى - لكونه أميا - الحقائق التي كان يعرفها ، فاضطلع أحمد السكيرج بتدوينها وترك لنا المخطوطة الوحيدة بعنوان " الظل الوريث في محاربة الريف " ، المحفوظة بالقسم العربي في المكتبة العامة بالرباط .

إنها أكثر شمولية وتفصيل من "مذكرات لارينيون" ، والتعامل معها يستلزم تسجيل نفس الملاحظات السابقة . ورغم العيب الكبير الذي يتجلى في غموض ترتيبها الكرونولوجي ، فهي تعتبر مرجعا لا غنى عنه لتسليط الأضواء على القضية من منظور داخلي .

II - الشهادات الشفوية

عندما يتعلق الأمر بفترة مر عليها نصف قرن على الأقل ، فإن الشهادات الشفوية المباشرة تقل . لقد وردت ، على لسان مساهمين بسطاء ، في العدد الضئيل الذي التقطناه منها ، معلومات جزئية تفيد في معرفة فكرة الناس عن الأزمة التي عاشوها . أما بالنسبة للأزمة ذاتها ، فقد استطاع الشهود المحظوظون أن يمدونا بمعلومات عنها . تحدثنا طويلا مع كل واحد منهم . وفيما يلي أسماء هذه الشخصيات :

- عبد الكريم بن الحاج علي اللوه الذي التقينا به في ماي 1970 وأبريل 1971 ، بتطوان ، كان يقيم بها . كان آنذاك في الثمانين من عمره . تعود ذكرياته إلى نهاية القرن الماضي ، ففي قبيلة بقيوة لعب أبوه دورا في قضية القراصنة المشهورة ، قام بأسفار عديدة خارج منطقة الريف ، فكان أحد عضوي البعثة التي توجهت ، خلال الحرب ، إلى لندن لتعرف بالمقاومة الريفية . وكلف بمهام أخرى ، إلى جانب قيامه بدور القيادة في قطاع من الجبهة الغربية .

- محمد بو جبار : صهر محمد بن عبد الكريم . يقيم حاليا بمدينة الجديدة . رافق عبد الكريم اللوه إلى لندن ثم إلى باريس . وقد كان ، من قبل ، بمليية ، مساعدا مقربا للسي محاند ، وظل كذلك طوال الحرب . جرى حديثنا بالدار البيضاء في يونيو 1971 وماي 1972 .

- المفضل بنينو وهو من ناحية شفشاون . التقينا به عام 1970 . كان في البداية ، مقاتلا ضد الاسبان في الجبهة الغربية . عندما وصل الجيش الريفي إلى هذه الجهة ، واحتل شفشاون ، عينه محمد بن الكريم باشا على المدينة .

- أحمد الحاتمي : قريب ورفيق الطفولة لمحمد بن عبد الكريم . كان قد بلغ سن الثامنة والثمانين لما اتصلنا به في ماي 1972 بمدينة الحسيمة - حاليا - حيث كان يعيش . وكان القاضي ، والد محمد بن عبد الكريم يعده بين مساعديه الأقربين وذلك حتى وفاته سنة 1920 . ولما اندلعت الحرب تقلد أحمد الحاتمي وظائف عسكرية .

- شعيب أفلاح : كان يقطن قرب أجدير حيث دار بيننا حوار في ماي 1972 ، كان لا يزال شابا حين اندلعت الحرب . وكان آنذاك ، خماسا متواضعا . أظهر كفاءة عسكرية مكنته من ترقية سريعة ، وانتهى إلى قائد ملازم من بين قواد فيلق الملازمين الذي شكل نواة المقاومة الريفية ، وقد توفي أخيرا .

- القائد بوحوت : كان عمره أكثر من ثمانين عاما لما استقبلنا بمنزله الريفي الصغير قرب الناظور . كان شاهداً على الطرفين لأنه كان في المعسكر الاسباني كملازم أول " أهلي " ينتمي إلى الريكولاريس . وأثناء الحرب المدمرة ، خلع اللباس العسكري ليصبح بين نويه قائدا فذا .

- محمد بودرا : أصغر بكثير من الشخصيات المذكورة سابقا . لم يكن إلا تلميذا عشية الحرب ولكنه احتفظ بالكثير من الروايات التي سمعها فيما بعد . وكانت شهادته - فيما يتعلق بما قبل الحرب - لا تخلو من إفادة ، إلا أنها لم تكن مباشرة ، ولا يمكن أخذها إلا بتحفظ .

وفي الختام ، نذكر اسم محمد الحاتمي وهو أصغر من أحمد الحاتمي المذكور سابقا . كان ، خلال الحرب ، مساعدا مقربا لامحمد أخ السي محمد . وفي الفترة السابقة ، كان يدور في فلك عبد المالك . كنا ننتظر الكثير من مثل هذا الشاهد ، لكن لأسباب نجهلها فضل الصمت . وكان فشلنا الوحيد .

بيبليوغرافيا

1 - بالعربية :

- أبو نصر، عمر، "بطل الريف : الأمير عبد الكريم"، دمشق، المكتبة الأهلية، 1934.
- أرسلان، شكيب، "الأمير محمد بن عبد الكريم، زعيم الريف" في "حاضر العالم الإسلامي"، القاهرة، 1352/ 1933، الجزء الثالث، ص ص . 184 - 207.
- أمزيان، محمد سالم، "عبد الكريم الخطابي وحرب الريف"، القاهرة، مطبعة المدني، 1971.
- إبراهيم، محمد عبد المنعم، الصوفي، محمد عبد الوارث، "الأمير عبد الكريم الخطابي بطل الشمال الإفريقي"، القاهرة، 1954.
- ابن زيدان، عبد الحميد، انظر : "المصادر"، I، 6 .
- ابن منصور، عبد الوهاب، "أعلام المغرب العربي"، الجزء الأول، الرباط، 1979. انظر : الجيلالي الزرهوني (أبو حمارة)، ص ص 303 - 397.
- البوعياشي، الحاج أحمد، "حرب الريف التحريرية و مراحل النضال"، ج 2، طنجة، 1974 .
- التوفيق، أحمد، "مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر . إينولتان (1850 - 1912)"، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، 1978 - 1980.
- جلال يحيى، د، "عبد الكريم الخطابي"، سلسلة أعلام العرب، القاهرة، 1968.
- داود، محمد، انظر : "المصادر"، I، 6 .
- الريسوني المحامي، علي، "أبطال صنعوا التاريخ"، تطوان، 1975 .
- الكتاني، محمد الباقر، "ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد"، الرباط، 1962 .

- الناصري، أحمد بن خالد، "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، 4 أجزاء ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، 1894 ، طبع بالدار البيضاء ، 1954-1955 ، 9 أجزاء.
- العلمي ، محمد ، "زعيم الريف : محمد عبد الكريم الخطابي" ، الدار البيضاء ، 1969.
- الفاسي ، علال ، "الحركات الاستقلالية في المغرب العربي" ، طنجة ، الناشر عبد السلام جسوس ، د. ت.
- القاضي ، محمد محمد عمر ، "أسد الريف محمد عبد الكريم الخطابي : مذكرات عن حرب الريف" ، تطوان ، 1979.
- سعيد ، أمين ، "ثورات العرب في القرن العشرين" ، القاهرة ، د. ت. كذلك : "الدولة العربية المتحدة" ، الجزء الثالث ، القاهرة ، د. ت.
- الورياشي ، الحاج العربي ، "الكشف والبيان عن سيرة بطل الريف الأول سيدي محمد أمزيان" ، تطوان ، المطبعة المهدية ، 1976.
- الوزاني ، التهامي ، "المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في شمال المغرب" ، تحقيق وتعليق محمد ابن عزوز حكيم ، الرباط ، 1980.

2- باللغات الأجنبية :

Recueils de traités

- . Rouard de Card, E. : Les relations de l'Espagne et du Maroc pendant le XVIIIe et le XIXe siècle, Paris, 1905.
- . Becker, Jeronimo : Tratados, convenios y acuerdos referentes a Marruecos y la Guinea, Madrid, 1918.
- . Résidence Générale de France au Maroc : Recueil des actes internationaux et à incidence internationale concernant le Maroc, Rabat, 1941.
- . Rivière, P. Louis : Traités, codes et lois du Maroc, 5 vol. (le vol. I. réservé aux traités), Paris, 1924.
- . Caillé, Jacques : Les accords internationaux du Sultan Sidi Mohammed Ben Abdallah (1757 - 1790), Rabat, 1960.

Etudes, Récits, Témoignages

- . Abdelkrim et la République du Rif, actes du colloque international d'études historiques et sociologiques, 18 - 20 janvier 1973, Paris, 1976.
- . Ageron, Charles R. : La politique berbère du Protectorat marocain de 1913 à 1934,

- in "Revue d'Histoire Moderne et Contemporaine ", t. XVIII. janv. - mars 1971, pp. 50 - 90.
- . Allain, Jean-Claude : Agadir, 1911, Paris, 1976.
- . Allouche, I. S. : Documents relatifs à Raisuni, in "Hespéris ", 1951, t. XXXVIII, 3e - 4e tr. pp. 327-353.
- . Antonius, George. : The Arab Awakening. The story of the arab national movement, New-York, 1939, Edit. arabe, sous le titre : Iaqdat al' Arab, Beyrouth, 3e édit., 1969.
- . Arnaud, Dr Louis : Au temps des mehallas ou le Maroc de 1860 à 1912, Casablanca, 1952 .
- . Aubin, Eugène : Le Maroc d'aujourd'hui, Paris, 1904 .
- . Ayache , Albert : le Maroc, Bilan d'une colonisation, Paris, 1956 .
- . Ayache , Germain : Aspects de la crise financière au Maroc après l'expédition espagnole de 1860 , in "Revue Historique ., t . CCXX , oct.-déc. 1958.
- . - - - - - : Ibn Khaldoun et les Arabes, in "Ibn Khaldoun", actes du colloque de mai 1962 à Rabat, Casablanca, s.d.
- . - - - - - : La première amitié germano-marocaine (1885-1894), in "Mélanges Charles André Julien", Paris, 1964.
- . - - - - - : La crise des relations germano-marocaines (1894-1897), in "Hespéris-Tamuda", vol. VI, 1965, fasc. unique.
- . - - - - - : Le sentiment national dans le Maroc du XIXe siècle, in "Revue Historique", fasc. 488, oct. - déc. 1968.
- . - - - - - : Belounech et le destin de Ceuta entre le Maroc et l'Espagne, in "Hespéris-Tamuda", vol. XIII, fasc. unique, 1972.
- . - - - - - : Société rifaine et pouvoir central marocain, (1850-1920), in "Revue Historique", t. CCLIV, 2, 1975.
- . - - - - - : La fonction d'arbitrage du Makhzen, in "Actes du Colloque de juillet 1977", à Durham, Rabat, 1979.
- . Barbari, Mouslim (pseudonyme) : Tempête sur le Maroc ou les erreurs d'une politique berbère, Paris, 1931.
- . Baréty, Léon : La France au Maroc, Paris, 1932.
- . Becker, Jeronimo : España y Marruecos. Sus relaciones diplomáticas durante el siglo XIX, Madrid, 1903.
- . - - - - - : El Rif, Madrid, 1909.
- . - - - - - : Historia de Marruecos, Madrid, 1915.
- . Berenguer, General : Campañas en el Rif y Yebala (1921-1922). Notas y documentos de mi diario de operaciones, Madrid, 1923.
- . Bermudo Soriano, Eliseo : El Raisuni, caudillo de Yebala, Madrid, 1941.
- . Bernard, Augustin : Le Maroc, 6e édit. , Paris, 1921.
- . Blasco Ibañez, Vicente : Alphonse XIII démasqué. La terreur militariste en Espagne (traduit de l'espagnol), Paris, 1925.
- . Biarnay, S. : Un cas de régression vers la coutume berbère chez une tribu arabisée, in "Archives berbères ", 1915-1916, t. IV, pp. 219-229.
- . Blanco Izaga, Emilio : La vivienda rifeña, in "Curso de perfeccionamiento de Oficiales del Servicio de Intervención", revue "Africa", Ceuta, 1930.
- . - - - - - : El Rif (2a Parte. La ley Rifeña) II, Los Canones rifeños comentados, Ceuta, 1939.
- . Brenan, Gerald : Le labyrinthe espagnol. Origines sociales et politiques de la guerre civile (traduit de l'anglais, Cambridge, 1960), Paris, 1962.

- . Brignon, J. (en collaboration) : Histoire du Maroc, Paris Casablanca, 1967.
- . Brunshwig, Henri : Mythes et réalités de l'impérialisme colonial français, Paris, 1960.
- . Bueno y Nufiez de Prado, Emilio : Historia de la acción de España en Marruecos desde 1904 a 1927, Madrid, 1929.
- . Burke, Edmund : Prelude to protectorate in Morocco. Precolonial protest and resistance, 1860-1912, Chicago- London, 1976.
- . Buschenschütz, Lt-Col. : Une opération de partisans au Maroc, in "Revue d'Infanterie ", 1er avril 1925, pp. 559-575.
- . Campo Echevarria, Antonio del : España en Marruecos. datos y consideraciones, Santander, 1926.
- . Carrenza, Fernando : Estudios sobre las provincias de Yebala y el R if, Ceuta, s. d.
- . Calvo, Gonzalo : España en Marruecos : 1910-1913. Acción de España en las regiones de Larache, Alcazar, Ceuta y Melilla, con el relato de la campaña del Rif en 1911-1912, Barcelone, s.d.
- . Catroux, Général : Lyauté le Marocain, Paris, 1951.
- . Charles-Roux, François et Caillé, Jacques : Missions diplomatiques à Fès, Paris, 1955.
- . Caillé, Jacques : Charles Jagerschmidt, chargé d'affaires de France au Maroc (1820-1894), Paris, 1950.
- . : La mission du capitaine Burel au Maroc en 1808, Paris, 1953.
- . : Le vice-consul Broussonet et ses "mémoires" sur le Maroc, in "Hespéris-Tamuda, 1961, vol.II, pp. 5-42.
- . : voir également Traités et Charles-Roux.
- . Coon, Carleton : Tribes of the Rif, Cambridge, 1931.
- . Cossé Brissac, Philippe de- : Les rapports de la France et du Maroc pendant la conquête de l'Algérie (1830-1847), Paris, 1931 (paru initialement in "Hespéris", 1931, t. XIII, fasc. 1, pp. 35-115 et fasc. 2, pp. 133-225.)
- . Cour, Auguste : L'établissement des dynasties des chérifs au Maroc et leur rivalité avec les Turcs de la Régence d'Alger, 1509-1830, Paris, 1904.
- . Coutard, Cap. : Au Maroc : contre la montagne. Méthodes d'action politique, économique et militaire, in "Revue d'Infanterie", 15 mars 1921, pp. 326-338.
- . Davila Jalon, Valentin : Una vida al servicio de España : General Don Fidel Davila Arondo (1878-1962), Primera parte, Madrid, 1978.
- . De Anual a la República : El Expediente Picasso. Las responsabilidades de la actuación española en Marruecos, Madrid, 1931.
- . De Anual a la República : Documentos relacionados con la información instruida por la llamada "Comisión de responsabilidades" acerca del desastre de Anual", Madrid, 1936.
- . Delbrel, Gabriel : España en Marruecos. Intereses de España en el valle del Muluya, el Rif oriental y el Garb el Isar (traduit du français), Melilla, 1909.
- . : Geografía general del Rif y cabilas de Guelaila-Kebdana, Melilla, 1911.
- . Díaz de Villegas, José : Lecciones de la experiencia (Enseñanzas de las campañas de Marruecos), Tolède, s.d.
- . Dumaine, Jacques : Les éléments du problème du Rif, in "Renseignements Coloniaux", février 1926, pp. 89-99.
- . Dumas, Pierre : Abdelkrim, Toulouse, 1927.
- . Donoso Cortéz, Ricardo : Estudio geográfico - politico-militar sobre las zonas

- españolas del Norte y sur de Marruecos, Madrid, 1913.
- . Dunn, Ross E : Resistance in the desert, Moroccan responses to French Imperialism (1881-1912), Madison-London, 1977.
- . Eustache, Daniel : Corpus des Dirhams Idrissites et contemporains, Rabat, 1970-1971.
- . : Les ateliers monétaires du Maroc, in "Hespéris-Tamuda", vol.XI, 1970, fasc. unique, pp. 95-102.
- . Estado Mayor Central del Ejército : Enseñanzas de la campaña del Rif en 1909, Madrid, 1911.
- . Eza, Visconde de- : Mi responsabilidad en el desastre de Melilla como Ministro de la Guerra, Madrid, 1923.
- . Fernando La Hoz, Vicente : apuntes para la historia de la imprenta en el Norte de Marruecos, Tétouan, 1949.
- . Fontaine, Pierre : Abdelkrim : origine de la rébellion nord-africaine, Paris, 1958.
- . Forbes, Rosita : El Raisuni, the Sultan of the Mountains, New-York, 1924.
- . Frunse, Michail Wassiliewitsch : Die Europäischen Zivilisatoren und Marokko, traduction allemande de l'édition russe, (Moscou-Léninegrad, 1927), pp. 440-532 des oeuvres choisies (Ausgewählte Schriften), Berlin, 1955.
- . Furneaux, Rupert : Abdelkrim, emir of the Rif, London, 1967.
- . Gabrielli, Léon : Abdelkrim et les événements du Rif, Casablanca, 1953.
- . García Figueras, Tomás : (voir Hernández Herrera)
- . : Del Marruecos feudal : episodios de la vida del Cherif Raisuni, Madrid, 1930.
- . : La acción de España en Marruecos, Barcelone, 1939.
- . Ghirelli, Angelo : El Norte de Marruecos. Contribución al estudio de la zona de Protectorado español en Marruecos septentrional, Melilla, 1926.
- . : Monografía de la cabila des Beni Tuzin, Madrid, 1923.
- . Goded, General: Las etapas de la Pacificación, Madrid, 1932.
- . Gómez - Jordana Souza, Teniente General Francisco - : La tramoya de nuestra actuación en Marruecos, Editorial National, Madrid, 1976.
- . Guillen, Pierre: L'Allemagne et le Maroc de 1870 à 1905, Paris, 1967.
- . Harris, Walter B.: France, Spain and the Rif, London, 1927.
- . : Morocco that was, London, 1921, traduit en français sous le titre Le Maroc disparu, Paris, 1929.
- . Hart, David M. : An ethnologic survey of the rifian tribe of Ait Wuryaghil, in "Tamuda", II, 1954, pp. 51-86.
- . : Emilio Blanco Izaga and Berbers of the Central Rif, in "Tamuda", VI, 1958, pp. 171-237.
- . : Clan, lignage et communauté locale dans une tribu rifaine, in "Revue de Géographie du Maroc", n° 8, 1965, pp. 25-33.
- . : De ripublik a République : les institutions socio-politiques rifaines et les réformes d'Abdelkrim, in "Abdelkrim et la République du Rif", pp. 33-45, Paris, 1976.
- . Hernández Herrera, Carlos y García Figueras , Tomás : Acción de España en Marruecos, 2 vol., Madrid, 1929-1930.
- . Hernández Mir, Francisco: Del desastre a la victoria, 4 vol., Madrid, 1926-1927.
- . Hubert, Jacques : L'aventure riffaine et ses dessous politiques, Paris, 1927.
- . Jiménez Ortoneda, Jesús : Estudio de la región del Rif, Toledo, 1930.
- . Julien, Charles - André : Histoire de l'Afrique du Nord (Tunisie - Algérie - Maroc) ,

- Paris , 1931 , Deuxième édition , "Des origines à 1830" revue par Christian Courtois et Roger Le Tourneau, Paris, 1951-1953.
- : L'Afrique du Nord en marche. Nationalismes musulmans et souveraineté française, Paris, 1952, 2e édit., Paris, 1972.
- : Histoire de l'Algérie contemporaine. I / la conquête et les débuts de la colonisation (1827- 1871) , Paris , 1964.
- : Le Maroc face aux impérialismes (1415-1956), Paris, 1978.
- . Kann, Reginald : Le Protectorat marocain, Nancy, Paris, Strasbourg, 1921.
- . Ladreit de Lacharrière, Jacques : Le rêve d'Abdelkrim, esquisse d'histoire marocaine, Paris, 1925.
- . Laroui, Abdallah : Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830-1912), Paris, 1977.
- . Leclère, Chef de bataillon : Terres collectives de tribu (conférence au Cours de Perfectionnement des Adjointes stagiaires du Service des Renseignements), Rabat, 1922.
- . Lecuyer, M. C. et Serrano, C. : La guerre d'Afrique et ses répercussions en Espagne, (1859-1904), Paris, 1976.
- . Le Tourneau, Roger : Evolution politique de l'Afrique du Nord musulmane, (1920-1961), Paris, 1962.
- . Lévi-Provençal, Evariste : Le Maroc en face de l'étranger à l'époque moderne, in "Bulletin de l'Enseignement public", n° 65, février 1925, pp. 95-112, Rabat, 1925.
- . Lévy, Simon : La guerre du Rif sous le règne d'Alphonse XIII (1886-1931), Mémoire pour le D.E.S. à la Faculté des lettres de Paris, 1957-1958. (Inédit).
- . López Rienda, Rafael : Frente al fracaso. Raisuni. De Silvestre a Burguete, Madrid, 1923.
- . Loutskaïa, Nathalie : Respublica Rif (en russe), Moscou, 1959.
- : A propos de la structure intérieure de la République du Rif. (Communication au XXVe Congrès international des Orientalistes, Moscou, 1960).
- : Abdelkrim El-Khattabi sur la guerre hispano-rifaine (Communication au XXVIIe Congrès international des Orientalistes), édité à Moscou, 1967.
- : Les auteurs arabes sur les luttes de libération nationale des Rifains (Communication au IIe Congrès international des Africanistes), édité à Moscou, 1967.
- . Lyautey : Vers le Maroc. Lettres du Sud-Oranais, 1903-1906, Paris, 1937.
- . Lyautey, Pierre : Lyautey l'Africain. Textes et lettres du Maréchal Lyautey, 4 vol. 1953-54-56-57.
- . Maldonado, Eduardo : El Rogui, Tétouan, 1949.
- . Martin, A.G.P : Quatre siècles d'histoire marocaine, 1504- 1912, Paris, 1924.
- . Martínez Yagues : El mokadem de Segangan, in "Africa Española", n°40, 4e année, 30 sept. 1916.
- . Marty, Paul : La politique berbère du Protectorat, in "Renseignements coloniaux", 1927, n°7 bis, pp. 322-335.
- . Maura, Gabriel : La question du Maroc au point de vue espagnol, Paris, 1911, (L'édition originale espagnole est de 1905).
- . Michaux-Bellaire, E. : le Rif (Conférence au Cours des Affaires indigènes, Rabat, 1925.
- : Conférences préparatoires aux Cours des Affaires indigènes, Rabat, 1927.
- . Miège, Jean-Louis : Le Maroc et l'Europe (1830-1894), Paris, 1961-1963..

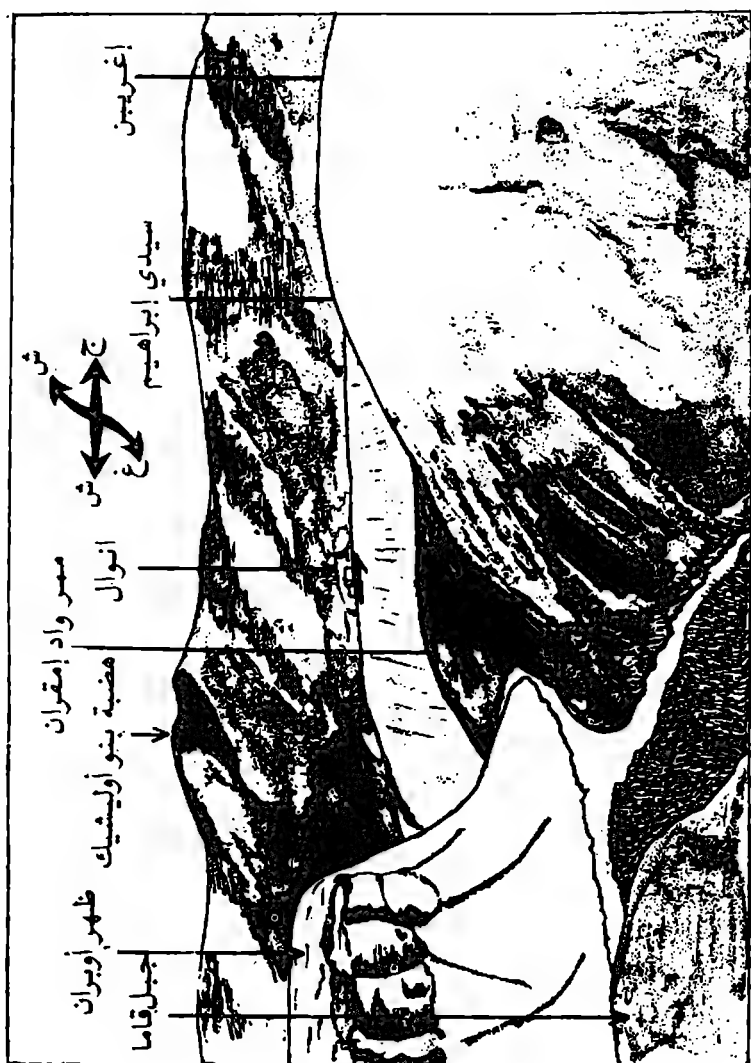
- . Montagne, Robert : Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc. Essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires (groupe Chleuh), Paris, 1930.
- . : : La vie sociale et la vie politique des Berbères (Leçons professées à la Faculté des lettres de l'Université de Paris, nov. déc.1931), Paris, 1931.
- . : Abdelkrim, in "Politique étrangère", juillet 1947, pp. 301-324.
- . : Révolution au Maroc, Paris, 1953.
- . Morales Lezcano, Victor : El colonialismo hispano-frances en Marruecos ; (1898-1927), Madrid, 1976.
- . Moulieras, Auguste : Le Maroc inconnu. Exploration du Rif, Oran, 1895.
- . Opérations (les) militaires au Maroc, ouvrage collectif réalisé sous la direction du général Maurel, Paris, 1931.
- . Ordinaire, Maurice : Les deux Maroc, in "Revue de Paris", 15 octobre 1932, pp. 818-830.
- . Ortega, Manuel L. Pichardo : España en Marruecos. El Raisuni, Madrid, 1917.
- . Ortega y Gasset, Eduardo : Anual, Madrid, 1922.
- . Oteyza, Luis García de- : Abdelkrim y los prisioneros, Madrid, s.d.
- . Pardo Fernández-Corretor, Emilio : Resumen de la historia de la zona de España en el Norte de Marruecos, Madrid, 1933.
- . Pardo González, Candido : Al servicio de la verdad. Las Juntas de Defensa militares. El Protectorado de Marruecos y Alhucemas. La dictadura del segundo marqués de Estella. Aportaciones para un estudio crítico de la dictadura del general Primo de Rivera, Madrid, 1930.
- . Pascon, Paul : Le Haouz de Marrakech, 2 vol., Rabat, 1977.
- . Payne, Stanley G. : Los militares y la política en la España contemporánea (traducción de l'original américain de 1967), Paris, 1968.
- . Pezzi, Rafael : Los presidios menores de Africa y la influencia española en el Rif, Madrid, 1893.
- . Piquet, Victor : Le Maroc . Géographie, histoire, mise en valeur, nouvelle édition, Paris, 1920.
- . Primo de Rivera, Miguel : La cuestión del día . Gibraltar y Africa (Discurso del general...) Cadix, 1917.
- . Quintana Martínez, Eduardo, La marina de guerra española en Africa . Crónica de la campaña del Rif, Cadix, 1910.
- . : La marina de guerra española en Africa. Crónica . Ocupación de Larache y Alcazarquivir . La campaña del Kert, Cadix, 1912.
- . Ramos Charco- Villaseñor, Aniceto : el Rif . Apuntes para su estudio, Toledo, 1930.
- . Ricard, Robert : Le commerce de Berbérie et l'organisation économique de l'Empire portugais aux XVe et XVIe siècles, in "Annales de l'Institut d'études orientales", Faculté d'Alger, II, 1936.
- . Riera, Augusto : España en Marruecos . Crónica de la campaña de 1909, Barcelone, 1910.
- . Rinn, Louis : Marabouts et Khouans, Alger, 1884.
- . Rivière, Paul Louis, Précis de législation marocaine, Paris, 1927.
- . : voir également "Traités".
- . Roda Jiménez, Rafael de - : Economía marroquí. Los problemas del campo, Ceuta, 1914.
- . Rodríguez Padilla, Isaias : Cofradías religiosas en el Rif y diversas taifas de Xorfas,

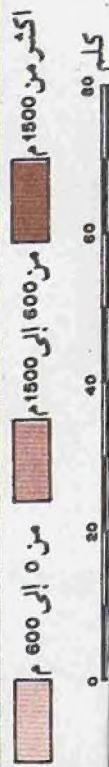
- Zaouias y santuarios, Ceuta, 1930.
- . Roger-Mathieu, J. : Mémoires d'Abdelkrim, Paris, 1927.
- . Rosenberger, Bernard : Autour d'une grande mine d'argent du moyen âge marocain · le Jebel Aouam, in "Hespéris-Tamuda", V, 1964, fasc. unique, pp. 15-78.
- . : Les anciennes exploitations minières et les anciens centres métallurgiques du Maroc, in "Revue de géographie du Maroc", nos 17 et 18, 1970.
- . : Tamdult, cité minière et caravanière (du IXe au XIVE siècles), in "Hespéris-Tamuda", vol. XI, 1970, fasc. unique.
- . Rosenberger, Bernard et Triki, Hamid : Famines et épidémies au Maroc aux XVIe et XVII siècles, in "Hespéris-Tamuda", vol. XIV, 1973, fasc. unique, et vol. XV, 1974, fasc. unique.
- . Ruiz Albéniz, Victor : El Riff (Estudio de un español en el Norte Africano). El Riff en paz. La guerra del Riff. El pleito internacional, Madrid, 1912.
- . : Las responsabilidades del desastre. Ecce homo, Madrid, 1922.
- . : La actuación de España en Marruecos por Juan de España (pseudonyme), Madrid, 1926.
- . Sánchez Díaz, Ramón : La pacification espagnole, in "Abdelkrim et la République du Rif", pp. 75-80, Paris, 1976.
- . Sánchez Pérez, Andrés : Aprovechamientos comunales y formas de cooperación en las yemaas del Rif, in "Africa", Madrid, novembre 1947.
- . : Abdelkrim, in "Selección de conferencias y trabajos realizados por la Academia de Interventores durante el curso 1949-1950, pp. 61-76, Tétouan, 1950.
- . Sangróniz, José-Antonio : La actuación de España en Marruecos, apuntes de historia y estudios sobre la política y situación actual del problema hispano-marroquí, por Juan de España (pseudonyme), Madrid, 1926.
- . Shinar, Pessah : 'Abd al-Qadir and ' Abd al-Krim. Religious influences on their thought and action, in "Asian and African Studies", (Annual of the Israel Oriental Society), vol. I, 1965, pp. 139-174.
- . Taillis, Jacques du - : Le nouveau Maroc suivi d'un voyage au Rif, . Paris, 1923.
- . Tarrit, Capitaine : Emploi des partisans au Maroc, in "Revue de Cavalerie", t. III, mars-avril 1923, pp. 197-211.
- . Terrasse, Henri : Histoire du Maroc. Des origines à l'établissement du Protectorat français, 2 vol., Casablanca, 1950.
- . Thomassy, Raymond : Le Maroc. Relations de la France avec cet empire, 3e édit., Paris, 1859 (1ère édit. 1842).
- . Toynbee, Arnold J. : The Islamic World since the peace settlement, in "Survey of international affairs", vol. I, 1925, Oxford, 1927.
- . Torcy, général de - : Les Espagnols au Maroc en 1909, Paris, Nancy, 1910.
- . Tuñon de Lara, Manuel : La España del Siglo XX, Paris, 1966.
- . Vallerie, Cap. Pierre : La pénétration militaire au Maroc, Paris, 1934.
- . Verdades amargas. La campaña de 1909 Por el Capitan X..., Madrid, 1910.
- . Vincent, Lieut. Col. : Un peuple gagné à la France. Les Berbères marocains et leur sol, in "Revue des Deux Mondes", 15 août 1924, pp. 855-872.
- . Vivero, Augusto : Una petición absurda, in "Africa española", 30 nov. 1915.
- . : España y Francia en Marruecos. La cuestión de Tanger, s. l., 1919.
- . : El Derrumbamiento, 2e édit., Madrid, 1922.

- . Voinot, Lieut. Col. : Sur les traces glorieuses des pacificateurs du Maroc, Paris, 1939.
- . Weisgerber, Docteur : Au seuil du Maroc moderne, Rabat, 1947.
- . Westermarck, Edward : Ritual and Belief in Morocco, London, 1928.
- . Woolman, David S. : Rebels in the Rif. Abdelkrim and the Rif Rebellion, Stanford, London, 1969.
- . Youssoufi, Abderrahman : Les institutions de la République du Rif, in "Abdelkrim et la République du Rif, pp. 81-100. Paris, 1976.

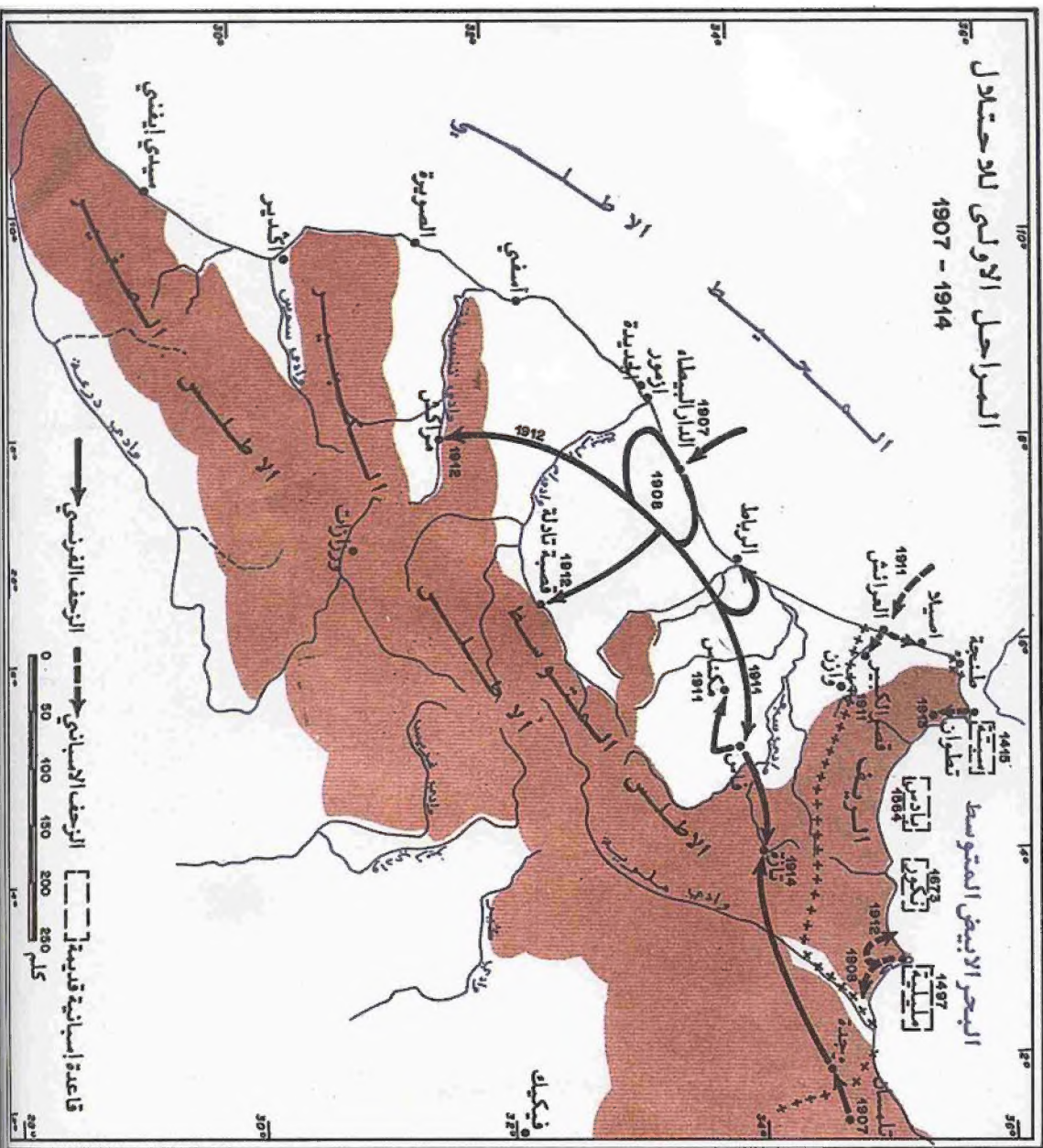
المحتويات

3	مدخل
	امبراطورية السلاطين.
21	استمرارية الدولة وتكوين شعب.
46	السيطرة الأجنبية
59	النجاح الفرنسي.
78	مشاكل اسبانيا.
96	الريف والريفيون
121	الريفيون والاسبان.
157	القاضي عبد الكريم وولده محمد.
202	الخلاف مع اسبانيا.
231	القطيعة.
261	مثال الريسوني.
296	في مفترق الطرق
339	خاتمة
352	المصادر
357	الشهادات
359	بيبليوغرافيا





1907 - 1914





ولد جرمان عياش ونشأ في المغرب.

عين أستاذا في الآداب الكلاسيكية ودرس بدءاً في الدار البيضاء من 1937 إلى 1950 مع انقطاع خلال الحرب العالمية الثانية دام ست سنوات قضاهما في الجيش. في 1950 أبعده سلطات الحماية عن المغرب، فرحل إلى فرنسا حيث درس في تولوز ثم في باريز بثانوية كوندورسي، وبعد عودته إلى المغرب، كرس حياته لتاريخ هذا البلد، أولاً تحت إشراف «المركز الوطني للبحث العلمي» بباريز، ثم في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، حيث زاول مهام التدريس منذ 1960 إلى وفاته.

وبالإضافة إلى أبحاثه المختلفة، فإن جرمان عياش أشرف على مجلة «اسريس — تامودا»، كما أن له كتاباً حول «دراسات في تاريخ المغرب».

«كان قصداً الأول نفث الغبار عن حرب الريف نفسها عن طريق عرض جديد ومطابق أكثر لما كانت عليه حقاً هذه الحرب. ذاك كان قصداً وما يزال. لكن، على الرغم من أن المادة التاريخية للغرض المذكور أصبحت جاهزة لدينا، فإننا ارتأينا أن نرجع الخوض فيه في هذا الكتاب، اللهم إلا في الخاتمة حيث شرعنا في مقارنته. ذلك أن طموحنا لم يقتصر على سرد الوقائع — وإن كنا أعدنا بناءها في صورتها الحقيقية — بل توخينا أيضاً فهمها. لذا تعين القيام أولاً بإزاحة تلك الركامات من الأفكار الخاطئة التي كانت تعتّمها. فبما أن حرب الريف حدثت، وخاضتها بطولة، وفي أرض مغربية، جماعات متواضعة من الفلاحين، فإننا كنا بين اختيارين: إما أن نحيطها بالحواري — الشيء الذي لا يقبله المؤرخ مطلقاً — وإما أن نبذل ما كان رائجاً من مقولات جاهزة تطمس الطاقة الكامنة في مغرب ذلك العصر ولدى الريفيين، وبما أننا تبنينا الاختيار الثاني، فقد كان علينا أن نرجع إلى التاريخ القريب والبعيد للمغرب ولأبنائه الريفيين لإعادة النظر في الوقائع بشكل واضح وبطريقة منهجية، ذلك ما فعلناه. وبعد أن أمطنا اللثام عن واقع المغرب والريف، عن تاريخهما ومجتمعهما، فإننا سنجعل القارئ يقف في هذا الكتاب على الأصول الحقيقية والمنطقية للحدث الهام الذي تخطه حرب الريف، تلك الحرب التي سيخصص كتاب آخر، نحن بصدد تحريره، لسرد مجرى أحداثها».